مكتبة

WALID SEIF

روايات

مكتبة ٧٤٠

وليد سيف

مواعيد قرطبة

رواية

الأهلية

مواعيد قرطبة

مكتبة | 740
سُر مَن قرأ

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail: alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ
: AlAhliaBookstore
: alahlia_bookstore
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

مواعيد قرطبة / رواية
وليد سيف / الأردنّ

الطبعة العربية الأولى، 2021
حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف: رند صالح

الصف الضوئي: إيمان زكريا خطاب، عمان، هاتف 95349156 7 00962

مكتبة ٢٨ ٩ ٢٠٢١
t.me/t_pdf

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: (2020/11/5044)
الترقيم الدولي: ISBN 978-9957-39-354-0

وليد سيف

مواعيد قرطبة

مكتبة | 740
سُر مَن قرأ

الأهلية

قرطبــة

مكتبة
t.me/t_pdf

كانت الشمس قد أخذت تنحدر نحو الأفق الغربي في الربع الأخير من رحلتها اليوميّة، حين بدأ القلق يتسرّب إلى الفتيان الثلاثة الذين يفترشون الأرض في ظل شجرة سنديان ضاربة في القِدَم، تنتصب منفردةً على بُعد أمتار من الطريق الترابي الذي مهّده عبور الناس والبهائم على مرّ الزمن. هل ينتهي النهار قبل أن يتمكنوا من بيع شيء من بضاعتهم لبعض العابرين في طريقهم إلى حصن طرّش في الجزيرة الخضراء؟

كان اثنان منهم يزجيان وقت الانتظار والترقب الثقيل بلعبة خاصّة يتبادلان فيها نقل الحصى على مربعات مخطوطة على التراب وفق قواعد معروفة. ومع ذلك فإن القواعد المتعارفة الملزمة لا تمنع من الاختلاف على سير اللعب بين الفينة والأخرى، مع ارتفاع الأصوات بالجدال والشتيمة ثم الضحك.

أما الفتى الثالث، فكان يسند ظهره إلى جذع شجرة السنديان ويخفي وجهه وراء مخطوط يقرأ فيه ويقلّب صفحاته. ولم يكن أقلّ قلقاً من صاحبيه على انقضاء جلّ النهار دون بيع، ولكنه كان أقدر الجميع على إخفاء قلقه، بل على التشاغل عنه بالقراءة وأحلام النهار.

كان زياد، على الرغم من ذكائه المتوقد، أكثرهم ميلا إلى الصخب، والعبث والهزل واللامبالاة. وكان يرى أن اللهو لا يمنع من الحظ السعيد، وأن الجدّ لا يمنع من خيبات الأمل. وتكاليف الجدّ والكدّ على كل حال، أكبر من الجائزة المحتملة. ولهذا كانت مواهبه أعظم من طموحه، بخلاف الكثير من الناس الذين يفرطون في طموح يخذله فقر

المواهب وقلة الأسباب، فيقضون حياتهم في شقاء وتبرّم ونقمة على الدنيا وأهلها. فلا هم قطعوا أرضاً، ولا أبقوا ظهراً.

كان هو أول من لمح الكهل المقبل على بغلته. وكان يرتدي ثياباً حسنة ولكنها تخلو من التناسق، ويضع على رأسه عمامة كبيرة لا يضعها في عادة ذلك الزمان إلّا القضاة وكبار القوم، أو من أراد التشبه بهم.

قفز زياد من مكانه، ولم ينتظر وصول الرجل، فأقبل بنفسه عليه، وأمسك بزمام بغلته، بينما لحقه ابن عمه عمرو الذي كان شريكه في اللعب، أما ابن عمهما الثالث محمد فمكث في مكانه مضطجعاً ينظر في المخطوط، متجاهلاً الموقف الجديد وكأنه لم يتنبه إليه أو أنه لا يهمّه في شيء.

بدا الكهل متعجباً وقد تشبث زياد بزمام البغلة واستوقفها.

- على رسلك يا عمّاه. تمهّل.

- ما حاجتك أيها الفتى؟

- بل حاجتك يا سيّدي الفقيه.

- لست فقهياً.

- لك هيئة الفقيه وهيبته. فوالله لو خُلِطت بأعظمهم لما..

قاطعه الرجل وقد حسبه سائلاً:

- إن كنت سائلاً فليس معي ما أعطيك. دع زمام بغلتي الآن.

- بل عندي أنا ما أعطيك. انظر!

استخرج من كيسه قارورة طيب عرضها عليه.

- قد استُخلص من توليفة عجيبة من الزهور والرياحين والأعشاب. قطرة واحدة فقط.. ولها فعل عجيب في النساء.. تعلم ما أعني!

أعقب زياد عبارته الأخيرة بغمزة موحية وضحكة خفيفة، بينما مالَ برأسه نحو الرجل وتابع كأنه يسرّ له:

- لا أنْصحَك بالإكثار منه، إلّا القدر الذي يوافق طاقتك. فإن لكل رجل طاقة مهما تكن قدرته. تدرك مقصدي!

بينما انشغل الرجل بفتح القارورة وشمّها، كان زياد قد استخرج من كيسه شالاً من الصوف المغزول الملون.

- وانظر هذا! إنه عمل امرأة لا تستعجل شيئاً.

ثم استدرك بلهجة موحية وهو يميل مبتسماً من جديد نحو الرجل:

- ... إلّا أن تشم بعض ذاك الطيب على صاحبها، فتترك حتى حاجة طفلها ذي التمائم. تدرك ما أعني! أليس كذلك ؟

وأطلق ضحكة خفيفة لم يستجب لها الرجل وهو يعيد تشمم قارورة الطيب متشككاً.

- لا أرى في رائحتها عجباً مما تصف.

- لا ريب يا سيدي القاضي.

- لست قاضياً.

- لم يُصنّع هذا الطيب ليحرك نشاط الرجل. وما حاجة الفحل النشط إلى الصفير؟ولكن تريّث حتى تشمها عليك نساؤك. ثم تدعو لي.

بدا الرجل متردداً متشككاً وهو يقلب بصره بين القارورة وزياد بنظرات توحي بأنه يهمّ بسؤال يكبحه التحرج. ثم مالَ برأسه نحو زياد وتحدث بصوت متهدج أشبه بالهمس.

- عندي أربعة نساء. و... لا بدّ من العدل! وقد ذكرت الصفير!

ضرب زياد على رأسه:

- آه! فهمت! وذاك عندي أيضاً!

وأسرع إلى استخراج قارورة أخرى مختلفة.

- قطرة واحدة أيضاً، تخلطها بالماء ثم تشربه.. و.. سبحان الذي يحيي العظام وهي رميم.

ثم أردف مستدركاً بسرعة:

- لا أعني.. حاشاك يا سيدي القائد.

- لست قائداً!

- مع أربعة نساء ومطلب العدل، حتى الفتى مثلي يحتاج إلى هذا. قد وقعت على حاجتك يا سيدي.. لا سيّما إذا تطيبت لهن بذلك الطيب العجيب، فالذي يستعمل ذاك..

وأشار إلى القارورة الأولى، واستأنف:

- لا بدّ له من هذا!

وأشار هنا إلى القارورة الثانية.

عاد الرجل إلى تفحّص القارورتين، ثم تفحّص زياد بعين الشك.

- لا تكون من أهل الحيلة والكُدية!

انتفض زياد متقمّصاً حال البريء المتهم والشريف المهان.

-أنا حسبتك صاحب فراسة يا سيدي.. انظر جيداً! أهذا وجه رجل كذاب؟ المروءة تأبى.. وكذلك إرث آبائي.. أما علمت أني من معافر.. من آل بني عامر؟!

- أنت؟

- إي وربّي.. وهذا ابن عمّي..

أشار إلى عمرو الذي يقف على بُعد خطوات وراءه. ثم أشار إلى محمد بن أبي عامر الذي مكث مستلقياً تحت الشجرة يتصفح المخطوط، ويسترق النظر إلى الموقف بين الفينة والأخرى.

- وذاك أيضاً! تبدو لي رجلاً قارئاً يا سيّدي.. لا بدّ أنك قد سمعت بجدنا الأبعد عبدالملك المعافري. كان أول من دخل الجزيرة مع طارق بن زياد. وهو الذي قاد الكتيبة التي فتحت مدينة قرطاجنة، أول ما فُتِح من مدن الأندلس. ولو شئنا لكنا وزراء أمير المؤمنين. ولكن قومنا آثروا العلم والعبادة، ونأوا بأنفسهم عز السلطان زهداً وتأثماً. ولا أدري الآن هل أصابوا أم أخطأوا.. فها هو حفيدهم يتعرض للمارّة ليبيعهم ما يُحصل به قوت أهله. ثم يُتَّهم بالحيلة والكُدية. أهذا حظنا من الأندلس بعد الذي كان من بلاء أجدادنا؟

- على رسلك أيها الفتى. قد أبلغت.. والآن كم تطلب؟

- الطيب بخمسة دراهم، والصوف بثلاثة.. أما هذا الذي يبعث النار من الرماد، فبعشرة دراهم. والبيع على الجميع.

هنا سُمِع صوت عمرو لأول مرّة يتحدث بهدوء وثقة:

- أما عندي، فالطيب بأربعة، والصوف بدرهمين، وماء الحياة ولذة النعيم بسبعة.

انقبضت ملامح زياد وهو يحدِّق بابن عمّه الذي حافظ على ابتسامة واثقة مستفزة، بينما اتجهت أنظار الرجل الآن إلى عمرو.

- وعندك كالذي عنده؟

- الصانع واحد. وتفحّص، إن وجدت فرقاً فهي لك هديّة. تبدو لي تاجراً مجرِّباً خبيراً يا سيدي.

لبث الرجل لحظات يقلِّب بصره بين زياد وعمرو، قبل أن يتحدث زياد بلهجة من سقط بيده.

– لا بأس. أبيع بالخسارة على ن يفوز عليّ هذا الخبيث. مازال ينافسني في كل أمر مذ كنا في الكُتّاب معاً. وذاك فعله بابن عمّه، فكيف بغيره! وقد خاطرني اليوم أن يبيع قبلي. لا بأس إذن، أنقص على بيعه بأربعة دراهم من مجمل أثمانها. فليكن.. لكأني به عمل من أعمال الصدقة لا من أعمال الكسب والتجارة. وأي غَناء في ذلك لسبعة إخوة وأخوات، كلهم عالة عليّ، فضلاً عن أم عجوز، وأب قعيد. أحلف سأترك هذا العمل وأركب البحر.

لم يبد أن لهجة الاستعطاف المضمر قد تركت أي أثر في الرجل. وإذ انطلقت سعلة خفيفة من محمد اتجهت أنظار الرجل إليه لأول مرّة. ولكن محمد، مكث متشاغلاً بالقراءة في المخطوط الذي يخفي به جلّ وجهه. وإذ تنبه الكهل إلى أنه يضع إلى جانبه كيساً مثل كيسيّ صاحبيه، إلّا أنه أحسن صنعاً، بادره بالكلام:

– وأنت؟ هل عندك مثل صاحبيك فتسوم على بيعهما؟

أجاب محمد بهدوء دون أن يصرف بصره عن المخطوط:

– أما سمعت بقول رسول الله ﷺ: «لا يَبع أحدكم على بيع أخيه»؟

– أفما كنت تسبقهما بالبيع إذن؟

– الحسن يُؤتى إليه.

– وكيف يُؤتى إليه إن لم يُعرَف؟

– لا يستحقه إلّا من يعرفه.

– وأنا لا أستحقه؟ هه! هذا ما تريد قوله؟

– سمعت سومك الدرهم والدرهمين، فعلمت أن ما عندي ليس لأمثالك.

– ليس لأمثالي؛ هه! فلمن؟

- لمن لا يطلب إلّا الأحسن وإن غلا.

- ولا تراني كذلك؟ هه!

هنا ترجّل الكهل عن بغلته، ومشى نحو محمد:

- أرني ما عندك!

من دون حماس، ومن دون أن يعتدل من ضجعته، يستخرج بضاعته ويضعها على الكيس، ويتابع النظر في المخطوط، كأن الأمر لا يعنيه كثيراً. يضطر الرجل إلى أن يقرفص ليتفحص البضاعة التي لم تكن تختلف في ظاهرها عن بضاعة صاحبيه: قارورتان وشال من الصوف.

- ما الذي يجعل ما عندك خيراً مما عند صاحبيك؟ هل تريد القول إنهما كَذَباني الوصف؟

- لم أقل هذا. إنما قلت: ما عندي خير مما عندهما.

تريّث الرجل لحظة ودافع غيظه من استخفاف الفتى به، وإن وجد في ذلك ما يبعث الثقة.

- كم؟

- الطيب بستة دراهم، والصوف بأربعة، ودواء العِنّة بعشرين درهماً.

اهتزت ملامح الرجل لذكر العنّة على ذلك النحو الفج، وتلفّت مضطرباً، ثم تحدث بصوت خفيض مبحوح:

- ومن قال إني أشكو من العنّة؟

لأول مرّة رفع محمد رأسه عن المخطوط وحدّق في وجه الرجل بنظرة سابرة، فازداد الرجل حرجاً واضطراباً، وتحوّل بوجهه عن الفتى ليتحاشى نظرته.

- وترجو أن تبيع وأنت تزيد على سعر صاحبيك بدلاً من أن تنقص؟

هنا بدأ محمد في إعادة بضاعته إلى كيسه:

- ألم أقل: ليس لأمثالك؟ خذ من أحد صاحبيّ وامضِ راشداً.

تحامل الرجل على نفسه لينتصب واقفاً من جديد وقد تضاعف غيظه واهتمامه معاً.

- ليس لأمثالي؟ هاه!

بينما عاد محمد لمتابعة القراءة بلا اهتمام، بدا الرجل متردداً لبضع لحظات. ثم بدا أنه قد حزم أمره.

- كيف قلت؟!

* * *

لم يكن تنافسهم في البيع إلا خطة تواطؤوا عليها منذ زمن. ففي نهاية اليوم يقتسمون غلّة الجميع بالتساوي. ولم ينقضِ ذلك النهار حتى تمكنوا من بيع بضاعتهم التي خرجوا بها. وبينما كانوا في طريق العودة مع غروب الشمس لم يتوقف زياد عن الضحك وهو يسترجع ما جرى مع ذلك الكهل.

- ... وذلك الأحمق المغرور يقول: ليس لأمثالي هه! ثم يشتري بالزيادة. ما كان أهون أن تغرّه يا محمد.

- ما غررته، إنما غرّ نفسه. والبيع بالتراضي.. ثم إن ذلك الصوف من غزل أمّي.. إنما كنت أبيع من شقائها ونور عينيها.. وذلك أعظم من الدراهم كلها..

- مهما يكن. ولكن قل لي: كيف تستطيع أن تفعل هذا؟ أعني مرّ بنا البارحة رجل سُمْتُه أنا وعمرو ثمناً، فسُمتَ أنت بثمن أقل: فبعتَ ولم

نبع. ثم جاءنا اليوم ذلك الأحمق، فزدت أنت على بيعنا، وكذلك بعتَ ولم نَبع. فكيف تبيع دوننا بالنقص مرة وبالزيادة أخرى؟

– الناس أحوال ومذاهب، ولهذه أعراض تظهر في هيئة الرجل وحركاته وكلامه. تُعْرَف بالفراسة. أما الرجل الذي بعته بالنقص عنكما، فقد علمت أنه رجل مجرّب لا يغرّه المظهر، ولا يغريه التفاخر. وأما الثاني الذي بعته بالزيادة فقد أنبأتني هيئته وكلامه أنه دَعيّ مُحدث نعمة، يريد أن يسمو إلى مراتب السادة، ولا يدركها بنسب عريق، ولا إرث تليد، ولكن ببذل المال فيما لا نفع فيه إلّا أن يباهي ويقارن ويقلّد. وليس التقليد كالأصل.

تريث لحظة، ثم مالَ إلى صاحبيه، وتابع ساخراً:

– ثم إنه عِنّين. والله ما أغراه بالشراء غير ذلك الدواء. ومن تسلطت عليه الحاجة صار أقرب إلى التصديق.. هه.. ماء الحياة ولذة النعيم!

ضحك الثلاثة، وتساءل عمرو:

– وما أدراك أنه كذلك؟

– ثق بفراستي!

عقب زياد ضاحكاً:

– أحلف أنه لم يصبر حتى أخذ منه في الطريق إلى بيته.. ونسائه الأربع. وقانا الله شرّ دعائه علينا حين تكذبنا.. آلته الليلة!!

بددت ضحكاتهم سكون المساء وهم يتابعون السير نحو القرية. ثم دفع محمد زياداً بقبضة يده، وتحدث ساخراً:

– سبعة إخوة وأخوات! هه! وأم عجوز، وأب لا أدري ما مصيبته. هذا تسول وليس تجارة. وتحسب أن هذا يبلغ من نفوس الناس

شيئاً؟ لقد ذهب ذلك الزمان أيها الفَطِن.. فهم يعظّمون الجاه والمال والسلطان أكثر مما يرقّون للبائس الضعيف.

أردف عمرو:

- فإن لم ينفعه ذلك، استدعى نسبه.. عبدالملك المعافري.. فتح قرطاجنة!

قال محمد:

- ذلك أنكى وأشدّ. لو علم جدنا عبدالملك أن أحد حفدته سوف يسوم باسمه من أجل بضعة دراهم لأمسك عن الإنجاب! لعله يتقلب الآن في قبره.

أجاب زياد:

- اسخرا ما شئتما. ولكنكما ستفتقدان صحبتي قريباً حين أركب البحر.

قال عمرو:

- ما زلت تقول هذا منذ دهر.

وقال محمد:

- سيجف البحر حين تركبه.

ردّ زياد:

- لا أرى أحدكما يصنع خيراً مني.. ما الذي يرجو أحدنا أن يحصّله في هذه الديار..

أطرق محمّد وهو يتابع السير واعتراه وجوم مفاجئ ألفه منه صاحباه، وأمسك عن الكلام والمزاح. كان زياد محقاً. فقد كانت أحلامه وطموحاته ومواهبه أكبر من هذه المنطقة الريفية في أقصى جنوب الأندلس

حيث تتوزع الحظوظ بين العمل في الأرض أو التجارة الصغيرة. وغاية ما يمكن أن يحققه فتى مثله فيها أن يجمع من النقود ما يكفي ليكتري أرضاً يفلحها أو دكاناً يقتعده. وما كان النسب التليد في بني عامر ليغني عنه شيئاً في زمن تغلّب فيه شرف السيف والمال والمنصب على شرف النسب. وقد تفرقت أنساب العرب على كل حال منذ أخملهم أمراء بني أميّة بعد أن أثبتت التجارب أن عصبة القبيلة تتقدّم على أي ولاء آخر، فإن أُعطوا من الدولة القسمة التي يرونها حقهم رضوا وإلّا خرجوا عليها. وهم أحرى بأن ينازعوا على السلطان اعتداداً بأنسابهم وبلاء أجدادهم في فتح الجزيرة. ولذا عمل أمراء بني أمية منذ الداخل على إقصائهم من حوزة السلطان، واستبدلوا بشوكتهم جماعات من العبيد الصقالبة والموالي، وجعلوا منهم الجند وحرس الخليفة وأهل الخدمة والوزراء والقادة وعُمّال الأقاليم وأمراء الدواوين. وأرضوا العرب بألقاب الشرف والضياع. ولكن، حتى هذه لم يكن لبني عامر منها نصيب. أو ذهب نصيبهم منها مع تطاول الزمن. ثم خلف من بعدهم خلف قنعوا بحياتهم في ريف الجزيرة الخضراء، وتعففوا عن مخالطة الأمراء. بعضهم كان صادقاً حقاً في زهده، وآخرون ادعوا ذلك حين تبين لهم تعذّر الطلب على كل حال.

ولكن، ما كان لمحمد بن أبي عامر أن يقنع بما قنع به أبوه وأجداده. أما أبوه فكان زاهداً بحق. فقد نزل قرطبة، حاضرة الأندلس، بضعة أعوام من عمره في طلب العلم. وقامت صداقات بينه وبين عدد من بياض الحضرة، وكان مؤهلاً ليصير قاضياً مرموقاً، لولا أن خشي على دينه من غوايات قرطبة والقرب من أهل السلطان. فآثر العودة إلى حصن طرّش في الجزيرة الخضراء، وانقطع للعبادة والوعظ حتى انقضى أجله، وأورث بيته الكثير من الذكر الحسن والقليل من المال والجاه. وما كان ولده محمد ليقنع بهذا الإرث، ولا ليرضى بمذهب أبيه في الزهد. وإذ كان يكثر من الترحم عليه فقد كان يفعل ذلك بنبرة لوم مضمر. ولكنه كان يعود على نفسه فيحدثها قائلاً: «لعلّ أبي قد أخذ من الدنيا على قدر طلبه واستطاعته.

فذلك كان مبلغ مواهبه وطموحه وغايته. فلا تثريب عليه. فكل ميسر لما خُلِق له. إنما التثريب عليّ إن رضيت بما رضي به، على خلاف ما بيني وبينه في المطلب والمشرب والمذهب.. و.. نعم القدرات والمواهب!».

لم يكن مغترّاً بنفسه حقاً، وما كان ليباهي بها بين أقرانه. ولكنه كان مؤمناً بقدراته وبالمواعيد التي تصنع أحلامه أو تصنعها أحلامه. نعم، ثمة من تتفوق طموحاته على مواهبه، وثمة من تتفوق مواهبه على طموحاته، وكلاهما إلى شقاء وتعاسة وخيبة. أما إذا اتفقت المواهب مع الطموحات، ثم سعى لها صاحبها سعيها فيرجح أن يصيب غايته بقدر تسلّط الغاية عليه، حتى لكأنه يراها عياناً لا تخيّلاً، ويعيشها واقعاً لا أملاً.

وما كان ليفوته أن صاحب الغاية العظيمة لا يتحكم بكل الأسباب وإن عظمت قدراته وغاياته. فثمة صاحب منصب وجاه لم يكتسبهما بقدراته، وثمة صاحب موهبة وعزيمة تواطأت عليه ظروف أقوى منه فأخمدته.

فالعالم الذي نعيش فيه ليس عالم المثال والعدل، وإلّا لما سما إلى أرفع المناصب إلّا أعاظم الرجال، ولما رأيت الرويبضة يتحدث في أمر العامّة. ولكن إن لم يكن المنصب الرفيع دليل العظمة، فإن العظمة التي فطر عليها ندرة من الخلق، واختصهم الله بها لا بدّ أن تكون دليلهم إلى الغاية العظيمة. وأصحابها يعرفونها في أنفسهم منذ وقت مبكر من أعمارهم. ولا يخجلون من رعايتها والتوجه بها. القدر؟ نعم، ولكن ليس الحظ. فالحظ يسقط الأسباب. أما القدر فيمهّد بخلق أسباب العظمة في طبيعة الإنسان التي يولد بها ولم يكن له فيها خيار: الذكاء والدهاء والعزيمة وقوة الشكيمة والبصيرة الخارقة وبُعد النظر وموهبة القيادة والتأثير والتقدير.

ولا بدّ لمن منحه الله هذه الأسباب أن يؤمن بقدره ويستشعر مآلاته، ويصدّق وعوده. ولذلك حفلت أخبار العظماء بقصص النبوءات

عما صاروا إليه حقاً بعد حين. والفتى محمد بن أبي عامر لا يؤمن حقاً بوقوع تلك النبوءات وإن تواطأ الرواة عليها. كل ما في الأمر أن الرجل المقدّر للمجد والنبوغ كان يتسلط عليه الحدس بما قُدِر له مؤيّداً بمواهبه وأحلامه. وربما رشح منه شيء من ولهذا المعنى في مبتدى أمره، فلما تحققت الغاية، تحوّل بها الرواة إلى نبوءة ما. وهذا لا يحدث إلّا في سِيَر العظماء الذين حققوا غاياتهم الكبرى على الرغم من كل الظروف والعوائق المعادية المستحيلة: بدايات بسيطة متواضعة مع أحلام كبيرة دونها بيد خلفها بيد، وجبال شاهقة، ووديان سحيقة، وطرق غادرة، وبحار متلاطمة، ورياح تأتي بغير ما تشتهي السفن، وسدود من مطامع الآخرين ورماحهم وسيوفهم المتربصة وأمواههم الآثمة! فلا عجب أن تثير تلك الأحلام في وقت ما من سخرية الأصحاب أكثر مما تثير من التقدير والإعجاب.

نعم، قرطبة! حاضرة الأندلس، بل حاضرة الدنيا، حيث مزدَحَم الأقدام ومعارج الصعود وموطن الحلّ والعقد ومثابة العلم والعلماء. هنالك المبتدى، وهنالك المنتهى. وما بينهما عالم ينتظر أن يحوزه ويكاد أن يسمع نداءه يتردد في روحه ليلاً ونهاراً وسيرة رائعة قد تمت فصولها في ظهر الغيب، ولم يبقَ إلّا أن يستظهرها بجهده ويدونها في كتاب مقروء. ولكن ما صلته بأم مسّها الكبر، ولا راعي لها بعد الله غيره؟ وما زال منذ زمن يتعيش وإياها من غزل يديها ومن الفلاحة ومن البيع القليل الذي يحتال له بذكاء ينبغي تسخيره لما هو أجلّ وأعظم. ولكن مهما جلّ طلبه فإنه لا يجلّ عن رعاية أمّه. وما كان ليفوتها ما يغالب عليه نفسه من أجلها، وكانت أكثر الناس اعتقاداً بأحلامه وتصديقاً بحدسه. وعلى الرغم من أنها كانت أميّة كجل نساء الجزيرة الخضراء، فقد كانت فصيحة اللسان بالطبيعة حادّة الذكاء والبصيرة، مع نفس كبيرة لم تنتقص منها رقة الحال.

كان يضطجع على فراشه في تلك الليلة ويقرأ في مخطوط مما خلفه أبوه، في ضوء سراج وحيد يخدمه ويخدم حاجة أمه التي كانت تتابع غزلها إلى جانبه، حين بددت الصمت الطويل بما فاجأه وأيقظ حواسه.

- إذن، تبقى هنا تعدّ الأيام حتى يتوفاني الله!

ترك المخطوط، واعتدل من ضجعته، وحدق فيها مستفسراً. وتابعت بلهجة حازمة.

- اخرج يا ولدي.. اخرج إلى قرطبة ولا تلتفت وراءك، وخذ منها نصيبك ونصيب آبائك الذين نزلوا عنه طوعاً أو كرهاً.

ثم أردفت بنبرة مشوبة بالتهكم..

- هه! إنما أنا عابر سبيل.. والسلطان من اعتزل السلطان! كأن الناس قسمان: دين بلا دنيا، أو دنيا بلا دين. فأين الدعاء بحسنة الدنيا والآخرة؟ أما أنت، فلا والله لا أرضى لك بأقل ما تستحق وترضى لنفسك. فاعزم يا ولدي، قد عزمتُ عليك. فإن كان رضاي ما تطلب، فإنه لا يرضيني عنك بعد الآن إلّا ما يرضيني لك!

- أوَ حقاً هذا الذي يرضيك؟

- إي وربّي.

- ومن يخدمك في غيبتي؟

- أخدم نفسي حتى يقعدني الكبر. وأختك عند رجل كريم، فلا تترك خدمتي إذا صرت في حاجتها. أما المال، فما حاجتي إلى غير شاةٍ أحلبها، وتمرات أستقوي بها. وضيعتنا عند حصن طرّش تكفيني على صغرها. أعمد إلى أحد أقاربنا فأكريه إياها، يزرعها لي وله.

*　　*　　*

كان يحرث في الأرض، حين أمسك عمرو بزمام بغلته التي تجر المحراث، ليوقفها ويوقفه.

- إذن فهو صحيح.. قرطبة! وتتركني هنا مع ابن عمنا الفاسق زياد، أناكفه ويناكفني.

كان عمرو على الضدّ من شخصية زياد الذي يستعين على الدنيا بالعبث والتهكم والمتع التي يقدر على شرائها ما وسعه ذلك، أو يحتال للحصول عليها بالتظرف والغَرَر. ربما كان زياد أكثر ذكاءً، ولكنه مؤكداً كان أقل تأدباً وتعففاً وجِدّاً.

قال له محمد وهو يحاوره:

- إن شئت صحبتَني.

- وما الذي أرجو أن أصيب في قرطبة؟

- أليس لك غاية تطلبها؟ أم تحب أن تبقى هنا تبيع الصوف والطيب.. و.. دواء العِنّة!

قهقها معاً، بينما تابع محمد الحرث ومشى عمرو إلى جانبه..

- بلى.. أحسب أن لكل رجل غاية يتمناها. ولكن، كم منهم يدركها؛ لو كان ذاك لما رأيت فيها شقيا واحداً.. ولكنه لا يكون. لا يفوز أحدهم بغايته إلّا من غاية الآخر. فشقي وسعيد.. فائز وخاسر.

- وكيف تعرف مكانك من هؤلاء إن لم تخض غمارَها؟

- إلّا أن يقنع الرجل بما يُطال... نعم، تفوته لذة الفوز، ولكنه يجتنبُ حسرة الخيبة والخسران.

توقف محمد ومسح عرقه بكُم ثوبه، وأجاب:

- لم خصّنا الله بالعقل والإرادة إذن؟ .. بل ننظر ونكدّ، ونغامر ونجازف ونُدافِع ونُدافَع، فنخطئ ونصيب، ونفوز ونخسر. وفي هذا كله تمضي سنّة الحياة إلى غايتها، وتُبنى الممالك، وينهض العمران. ألا ترى

إذن؟ قد يفوز رجل ليخسر آخر، ولكن حياة الخلق على الجملة لا تخسر بالتدافع بين الناس.. فقط، حين تتوقف سنّة التدافع تفسد الدنيا. أليس هذا قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:251].

- على رسلك يا محمّد! قد أغربت ودخلت في الفلسفة وعلم الكلام.

ثم مالَ عليه وتابع:

- إن كنت تؤمّل أن تصيب شيئاً في قرطبة فلا يسمعك أحد هناك تخوض فيما يشتبه بالفلسفة والكلام، فقد علمت أن علماء قرطبة وعامتها يتسمحون في كل شيء، إلّا هذا. فهو عندهم من الزندقة. فإذا شَكّوا أن أحدهم يتكلم فيه، فربما عمدوا إلى بيته فحرّقوه عليه.

بينما تابع محمد عمله، مرت لحظات صمت وتأمّل، ثم استأنف عمرو:

- لا بأس.. التدافع كما تقول، ولكن من يدافع من؟ وعلى أي شيء؟ فكلٌّ يدافع في مرتبته التي وجد فيها.. الوزراء والأعيان والقادة فيما بينهم على أعمال الدولة.. والعامة فيما بينهم على ما في أيديهم من الأعمال والصنائع.. وهكذا...

توقف محمد من جديد.. تناول شربة ماء من قربته، ودلق القليل منه على رأسه، ثم ذهب ببصره إلى البعيد، قبل أن يتحول إلى ابن عمّه ويقترب منه بوجهه ويتحدث بنبرة عميقة قوية.

- هذا هو الاختبار يا عمرو.. هذا هو الاختبار: ألّا تدافع عن مرتبة وجدت نفسك فيها ولم تخترها، بل من أجل مرتبة ترى نفسك أهلاً

لها، وليس معك إلّا همتك وعزيمتك صاحباً، ومواهب ما منحك الله إياها إلّا ليبلوك بها، وحقوق مُنِعَها كثير من الناس لا بواكيَ لهم، فإن طلبتها في طلبك لنفسك، كانوا عدّتك التي تعتدّ بها، وسيفك الذي تضرب به، وعينك التي تبصر بها، وسمعك الذي تسمع به.

يحدّق فيه عمرو متأمّلاً:

– لقد والله ذهبت بعيداً في أحلامك. فهذا الذي تطلب أبعد مما يُبَلّغه العلم في جامع قرطبة. فكأني به قد حام حول حمى السلطان.. وهو حمى منيع تحجبه آلاف السيوف، ولا باب فيه لرجل من العامّة.. وبعد، ففي كلام آبائنا بعض السلوى: السلطان من اعتزل السلطان!

ارتسمت على وجه محمد ابتسامة ساخرة:

– هل تصدّق هذا حقاً؟ أعني إن صحّ فيصح في رجل بلغ السلطان ثم تعفف عنه. وهؤلاء بيضة الديك. أما جلّ من يقول هذا فرجال طلبوا فلم يدركوا، أو عزّ عليهم حتى الطلب، فحالوا إلى هذه الحكمة يتسلّون بها سلوى العاجز. فكيف يدّعي الزهد من لا يملك، ويدّعي التعفف من بات منقطعاً عن الدنيا في ركن قصيّ؟

أخذ نفساً عميقاً، ثم تابع بنبرة أخرى مشوبة بالدعابة:

– أجهدني جدالك أكثر من هذا المحراث وذلك البغل! خذ عني بعضه الآن. فهو آخر عهدي به إن شاء الله..

ثم استدرك ضاحكاً:

– أما عهدك به فباقٍ ما بقيت! أم أقول: قد كففتُ منذ اليوم عن مدافعتك في هذه المرتبة! غلبتني عليها، فطب نفساً!

* * *

ولكن عمرو لم يطب خاطراً حقاً بالفوز في مرتبة حرث الأرض، وبيع الصوف، وبيع دواء العنّة الذي لم يكن أكثر من مزاج من ماء الزهر ونقيع الزبيب وشيء من العسل.

فبعد أن ودّع محمد أمّه وأخته وخرج بدابته حتى صار خارج الضيعة، توقف فجأة والتفت وراءه ليلقي نظرة أخيرة على منازل قومه ومدارج طفولته، وقد بدت له الآن عن بُعد أجمل مما كان يراها البارحة. وكان يتنازعه شعور ثقيل بالأسى على فراق أمّه حتى كاد يتهم نفسه بالأنانية وتقديم حاجته على البرّ بها. ولكنها حلفت عليه. أفليس من البرّ أيضاً أن يبرّ بقسمها عليه؟! ثم غمرته الأسئلة التي تلازم المسافر المفارق الذي يلحق بنجمه إلى أرض بعيدة غريبة، وهو يرسل إلى منازل ضيعته المتضائلة نظرته الأخيرة، قبل أن تغيبها المسافات وتطويها الخطوات نحو أفق جديد. ترى متى أراها مرة أخرى؟ وكيف يكون حالي وحالها وقتئذٍ؟ ما الذي تخبئه لي الأقدار في هذه الرحلة! وهل تفي لي الأحلام بمواعيدها؟! لا بأس إذن.. وداعاً أيتها الجزيرة الخضراء.. ودائماً يا حصن طرّش..

وإذ اعتدل بوجهه إلى الأمام ليتابع السير، رأى ما لم يكن أبداً في حسبانه. دقق النظر ليصدّق البصر، فلما تبيّن له صاح مبتهجاً:

- أنتما؟

نعم، كان عمرو وزياد متوقفين على دابتيهما يستمتعان بأثر المفاجأة في ابن عمهما الذي حث دابته حتى وصل إليهما، وحين تأكد أنهما قد أخذا عدة السفر، صاح من جديد:

- تصحبانني؟

بادر زياد إلى الردّ بلهجته المرحة المألوفة.

- هل حسبت أن تخرج إلى قرطبة دون مؤدّب يعتني بك، و... بهذا؟!

وأشار إلى عمرو، ثم استأنف:

- أعرف رجالاً كانوا زُهّاداً وعُبّاداً حتى أغوتهم نساء قرطبة وحاناتها!

نظر محمد إلى عمرو وقال وهو يشير إلى زياد:

- أما هذا فقد عرفنا ما يريد من قرطبة. ولكن.. أنت أيها الخبيث.. أين ما كنت تجادلني به: أن يقنع الإنسان بما يطال.. لا لذة الفوز ولا خيبة الخسران، وكان في نيتك أن تصحبني على كل حال.

حافظ عمرو على ابتسامته الهادئة وهو يجيب:

- لم أغيّر.. أنا أقبل على قرطبة في حال أحسن منك. فإني لا أؤمل ما يعقبني الحسرة إذا أخفقت. أما أنت فتؤمّل عن نفسك وعني، فإن أصبت شيئاً قسمت لي منه. وإن لم تصب لحقتك الخيبة ولم تلحقني فأنا قسيمك في المغنم دون المغرم.

ضحك محمد وقال:

- تلك إذن قسمةٌ ضيزى.

تدخل زياد قائلاً:

- وما قسمتي أنا؟

أجاب محمد فوراً وهو يحث دابته للانطلاق:

- ما تقسمه لنفسك أيها الفتى.. هيّا.. لا تترك قرطبة تنتظر فتيان بني عامر أكثر من هذا..

قال زياد وهو يلاحقه:

- النظر في النجوم يُعشي البصر يا ابن العم.

– أو يشحذه.

– كل ميسّر لما خلق له.. ألا تحفظ هذا؟

– أجل.. كل ميسر لما خلق له. ومن علامات التيسير أن يدرك المرء ما خلق له حقاً فيسعى له سعيه بما حباه الله من أداته. ولكن.. لِمَ أضيع وقتي في جدالك.. قد عرف كل امرئ مشربه.

– وفي قرطبة مشرب لكل شارب!

* * *

بعد تسعة أيام كان الفتيان الثلاثة يقفون بدوابهم على تلة مشرفة، ينظرون منبهرين إلى قرطبة أدنى منهم على بسيط مرامي الأطراف يشقه نهر الوادي الكبير. تلكم هي المدينة القديمة التي يطوقها السور، وتلك مئذنة الجامع الكبير. وتلكم هي الأرباض التي يشعشع بياضها في ضوء الضحى، وتنتشر خارج الأسوار. وهي الضواحي التي يقيم فيها الأغنياء والأعيان ومن يسمونهم بياض الحضرة. وهناك.. نعم هناك قصر الزهراء لا تخطئه العين، حتى عين القادم إلى المدينة لأول مرّة. وهو في واقع الحال مدينة ملكية تحيط بها الأسوار العالية، وتحتضن قصر الخليفة وبيوت كبار رجال الدولة، ودواوين الحكم الرئيسة.

أخيراً قرطبة في مجال البصر.. وإنها لتبدو أعظم وأروع حتى من الخبر وما يبعث عند السامع من التصورات والتخيلات.

لبثوا وقتاً في التحديق والتأمّل الصامت. ولكن ما كان زياد ليستقبل قرطبة بغير طقوس خطابية استعراضية تليق بحاضرة الدنيا وزهوتها..

– قرطبة! حاضرة الدنيا ومجمع الأضداد.. الساحة والمعترك.. قاعدة الخلفاء والأمراء والعلماء، وحانة الفُسّاق والزُعّار والدُّعار. سُلّم الصعود إلى الذروة، ومنحدر السقوط في الجحيم.. النار والنعيم قرطبة.

ثم حثّ دابته وسبق صاحبيه منحدراً وهو يطلق صيحات النشوة.

- قرطبة. تجمّلي وتزيّني أيتها الجارية اللعوب. قد لقيتِ وعدكِ أخيراً. هذا زين الشباب وفتى بني عامر.. زياد.. قد جاء يطلب منك لبانة عيشه، فافتحي له ذراعيك.. فإن العمر قصير، والزاد يسير.. ولي منكِ يومي، ولك مني غدي.

وانحدر صاحباه من خلفه وهما يلاحقانه بابتسامات تجمع بين السرور بظرفه والإعجاب ببلاغته.

لم يبتعد زياد عن الحقيقة حين خاطب قرطبة بكل تلك النقائض. فذاك حال الحواضر العظمى التي تتزاحم فيها الأقدام وتعكرها أنفاس الخلائق الذين تتقاطع دروبهم فيها على غير معرفة ولا ميعاد. ومن شأن ذلك أن يمنحك من الحرية ما لا تتيحه لك الضياع والبلدات الصغيرة التي تحاصرك فيها عيون الناس الذين يعرف كل منهم الآخر، وتطبع حياتهم التقاليد الصارمة، ولكن هذه الحرية في الحواضر الكبيرة لا تأتي بغير ثمن باهظ. فهؤلاء الذين لا يلتفتون إلى خياراتك وغرائبك، لا يلتفتون بالقدر نفسه إلى حاجاتك وضروراتك. فأنت غير مرئي لهم في الحالين. فإن لم تكن صبوراً وقويّاً فستشعر في أول أمرك فيها بأن المدينة تسحقك بثقلها، وأنك تائه في غابة من البشر لا تحير فيها سبيلاً. وكم من رجل قدم قرطبة يطلب حظه فيها، ثم لم يتلبث طويلاً حتى فرّ عائدا إلى أفياء الأمان في ربوع ضيعته الوادعة الخاملة المملّة، ورضي من الغنيمة بالإياب، أو ربما أنفق بقية عمره شقيّاً بالسؤال: ماذا لو أنني كنت أشدّ صبراً؟

ويزداد السؤال إلحاحاً وإيلاماً كلما سمع بخبر عن رجل ارتحل مثله إلى قرطبة، ثم صار فيها شيئاً مذكوراً في العلم أو التجارة أو المنصب المرموق. ربما كان هذا هو الاستثناء، ولكن الاستثناء هو ما يغري برواية قصص النجاح والارتقاء من الحضيض دون قصص الإخفاق.

أمضى الفتيان الثلاثة أيامهم الأولى يتقلبون بين نعيم قرطبة وجحيمها على ما قال زياد فيما يشبه النبوءة. ولم يكن لهم من نعيمها في تلك الأيام إلا النظر: مهرجان من ألوان الطبيعة والبيوت والوجوه

والثياب والعمائر، ومن البضائع والتجارات والصنائع، ومن المدارس والمساجد، ومن الخانات والحانات ودور اللهو والأنس والغناء، ومن الساحات والمتنزهات حيث ينشط القصاصون والوعاظ المتطوّعون والزعّار والدعّار وضاربو العود والطبل والمغنون الجوالون والحواة ومرقصو القرود وبالعو النار، ومن باعة الحلوى والزلابية والفطائر المقلية واللحوم المشويّة.. وفي هذا كله زحام من الناس الذين تنوعت أصولهم وألوانهم بين السمرة والبياض الناصع، والشقرة وسواد البشرة. وقد تسمع بين الفينة والأخرى من يتحدث بألسنة غير عربية. فمن يرطن بلهجات من اللاتينية كما يسميها أصحابها، أو اللطينية كما يسميها العرب. فإذا سمعتهم يتحولون إلى عربية خالصة لا لكنة فيها، علمت أنهم من أهل البلد، سواء أكانوا من المولّدين أو من أهل الذمّة. أما إذا تحولوا إلى عربية ثقيلة فيرجح أنهم من الزوار وطلبة العلم القادمين من بلاد الغال وبلاد اللومبارد. ومنهم من يرطن بالجرمانية أو إحدى لغات الصقلاب. بل إن الأندلسيّ ليميّز العربي القادم من المشرق بطريقة نطقه المختلفة بعض الشيء عن نطق أهل الأندلس.

وجُلّ الرجال على عادة الأندلسيين في ذلك الزمان لا يتعمّمون، إلّا القضاة والعلماء والأعيان. ولذا كان منظر محمد غريباً، بعمامة لا تنسجم مع سائر ثيابه البسيطة وهيئته التي أزرى بها السفر وصرة نقوده الهزيلة كلما أخرجها ليشتري له ولصاحبيه خبزاً مما يعرضه الباعة على بسائطهم، وبحثه المضني عن غرفة يكتريها مما يصلح لطلبة العلم الوافدين.

أما النساء، فحتى عمرو الرزين الحييّ لم يستطع أن يصرف بصره عن كل ذلك الجمال. وأما زياد فكان على محمد أن يجذبه مرة بعد مرة كلما وجد نفسه منساقاً وراء امرأة فاتنة. وكنت تميّز الجواري من الحرائر بالثياب وألوانها وما يبدين من زينتهن. وبالطبع كانت الحرائر أكثر تحفظاً وتحشّماً في المظهر والتصرف وطريقة المشي والكلام. فإن كان مطلب الحرّة

أن تصرف أنظار الشباب عنها، لا سيما الزعار والدعّار، فقد كان لها ذلك، ولكن الأنظار لا تنصرف عنها إلّا لتنصرف إلى الجارية، حتى جاريتها، ومع الأنظار عبارات الغزل ومدائح الحُسْن والتسبيح بخالقه ومعطيه، فتتهلل أسارير الجارية بينما ينقبض وجه الحرّة، لا غيرةً على الدين والخلق بالضرورة، ولكن غيرةً من المملوكة التي تملك من عقول الرجال وقلوبهم أكثر منها. فيا للرجال الذين يلزمونا التحشم حتى الخفاء، ثم يمتعون أبصارهم بما تسمحوا بإظهاره من زينة الإماء! فلهم حظ الكشف، ولهم حظ الخفاء!!

على أن أكثر ما كان يغيظ زياد أن ابن عمّه محمداً، الذي ما فتئ يجرّه جرّاً كلما همّ بملاحقة إحدى الفتيات، وقد يؤنّبه أحياناً، ويذكره بالحاجة إلى الانشغال الآن بالبحث عن مكان للمبيت في مدينة تزدحم بسكانها وزوارها وطلبة العلم الذين يأتونها من كل الأنحاء والأصقاع، ابن عمّه هذا لا يحتاج إلى شيء من الجهد في لفت انتباه الفتيات الجميلات، فهنّ من كنّ يتوقفن إعجاباً بوسامته الفريدة، على الرغم من كل ما كان ينبئ برقة حاله. وقد تنبه إحداهن الأخرى، ثم يتبادلن الهمسات والضحكات. وقد يتجرأ بعضهن على ملاحقته ومواكبته والتعرّض له من أمامه وجانبيه، لعله يجود عليهن بنظرة وابتسامة. فتيات يلاحقن فتياناً؟ أين تجد هذا في غير قرطبة! ولكن زياد كان يعلم أن ابن عمه ليس فتىً كغيره، فقد جمع الله له مع العقل وقوة النفس وسامة فائقة لا تستطيع أن تتجاهلها عيون النساء، حتى أكثر الحرائر تحفظاً وتورعاً! وهذا دون غيره ما كان زياد يغبطه عليه. وهو، وإن كان حسن الوجه والقامة، فإنه بالتأكيد كان يفضّل ألّا يلزم ابن عمه في التجوال، فتضيع حظوظه مع الفتيات اللائي تتسمّر عيونهن على محمد فلا يبصرن غيره. ولكنّ محمداً لن يتركه يغيب عن بصره حتى يجد الثلاثة مكاناً يبيتون فيه ويقدرون على أجرته. وفي هذا كشفت لهم قرطبة عن وجهها القاسي المتجهّم. فالطالبون أكثر من المطلوب: زوار وتجار عابرون وطلبة علم

وافدون ومغامرون وباحثون عن الحظوظ وأصحاب حاجات عند دواوين الدولة.وحتى من بقي عنده غرفة للكراء فإنه يفضل ألا يكريها لطالب علم مفلس، قد يعجز بعد حين عن الأجرة. وفي الليلة الأولى بعد بحث مضنٍ والكثير من المناشدة أذن لهم صاحب إحدى الخانات أن يقضوا ليلتهم بالقرب من مرابط الدواب حتى صباح اليوم التالي فقط. وبعد أن ردّد على أسماعهم أنه يفعل ذلك من باب الإحسان وطلب الثواب، لم ينسَ نصيبه من الدنيا فاقتضى من كل منهم درهمين. وما كانوا ليسموه وقد بلغ منهم الجهد.

ولم يكن حظهم في اليوم التالي أفضل من السابق. فلما أعياهم البحث ودخل الليل لم يجدوا إلا أن يناموا في العراء في أحد الأزقة قريباً من بعض المتشردين والسكارى الذين خذلتهم سيقانهم عن بلوغ بيوتهم. ولكن كانوا قد بلغوا من التعب والإرهاق ما أعانهم على النوم، قبل أن توقظهم أصوات الدرّابين الذين يحرسون الأزقة والطرقات وهم يحملون السُّرج والعصيّ، ويلحق عملهم بدار المدينة. صاح بهم أحد الدرّابين وهو يلكزهم بعصاه:

- هيا.. ليس هذا مكان المبيت. انطلقوا وإلّا تقبضنا عليكم.

علّق زياد ساخراً وهم يجرّون أقدامهم من زقاق إلى آخر:

- إذن هذه قرطبة! القصور المترفات، والجواري المنعّمات، وأباريق الذهب والفضة، والقطوف الدانية، والفرش العالية. والـ..

قاطعه عمرو:

- ألست القائل: النار والنعيم قرطبة! فاصبر على نارها حتى تتذوق نعيمها.

قال زياد:

- ولِمَ الانتظار؟ لعلي أجد حانة قريبة، فإذا سرت المدام في العروق، وخالطت العقل، تراءت كل تلك النعم، وأتتني طائعة دون جهد.

تدخل محمد هنا بنبرة صارمة وقد ضاق بتبرّم ابن عمّه بعد كل الحماس الذي استقبل به قرطبة.

- دعك من هذا. سنحتاج إلى كل دراهمنا.

قال زياد وهو ينحني له في حركة استعراضية تهكمية.

- سمعاً وطاعةً يا سيدي القاضي! كما قلت.. سنحتاج إليها في طريق العودة غداً.

هنا تحدث محمد بغضب:

- اصمت، قطع الله لسانك.. أنصت أيها الفتى، فوالله الذي لا إله إلا هو لا أرجع حتى أنجز وعدي منها أو أهلك دونه. فإن لم يكن لك صبر معي، فارجع من الآن، وإلّا فقل خيراً أو فلتصمت.

توقف وأرسل نظرة في النجوم، ثم أجال بصره في الزقاق، واستأنف:

- لا شيء يأتيك طائعاً.. لا شيء.. ومن وجد نفسه في هذا المكان، فلا يسعه إلّا الصعود.

في عصر اليوم التالي، بدا أن حظهم بدأ في التحوّل، حين وجدوا غرفة وضيعة في خان رجل كهل يعرف بأبي عمران، وكان قريباً من الجامع الكبير الذي يؤمّه طلبة العلم من كل حدب وصوب، ليدرسوا على أكابر علماء العصر، ويحصلوا منهم على إجازاتهم في العلوم المختلفة. ولكن ما أسرع ما خاب أملهم، فالأجرة التي طلبها صاحب الخان أكبر مما يستطيعونه، والأسوأ أنه اشترط دفع أجرة الشهر مقدّماً. وعلّل ذلك بتجاربه السيئة السابقة.

صاح به زياد:

- أنت تستغل حاجتنا وازدحام المدينة وكثرة الطلب.

أجاب الرجل من فوره دون تردد ولا خجل:

- بهذا صرت غنياً. هيا، لا وقت عندي أضيعه مع أمثالكم.

صاح زياد من جديد وقد ذهب الغضب الآن بظرفه المألوف:

- أمثالنا؟ تقول أمثالنا؟ هل تعرف أنسابنا قبل أن يزدرينا أمثالك أنت؟ لولا جدنا عبدالملك المعافري وأمثاله من قادة الفتح، لما كنت أنت هنا الآن تتجبّر بنا.

نهره محمد بحزم:

- زياد!

ولكن أبا عمران أجاب على كل حال:

- قد ذهب أولئك بالأجر. أما أنا فأذهب بالأُجرة! وهذه لا تدفعها الأنساب، بل صرر المال. فإن كان معكم منها فأهلاً وسهلاً، وإلّا..

وهكذا عاد الثلاثة إلى البحث والسؤال. وكان أشدّ ما يلقون الآن أنهم لم يغتسلوا منذ وصلوا المدينة. أما في رحلة الطريق فصادف أن رأوا بعض الغدران التي وجدوا فيها مُغْتَسلاً بارداً وشراباً. وهنا اقترح محمد أن يلتمسوا نهر الوادي الكبير الذي يشق المدينة، فغطسوا بثيابهم، إلا زياد الذي لم يتحرّج من النزول بسرواله فقط على الرغم من اعتراضات عمرو ومحمد.

وحين دخل مساء اليوم الثالث وأدركهم اليأس من جديد، مرّ بهم طالب علم كما تدل هيئته وجراب كتبه. ولما سألوه لم يجدوا عنده جواباً يعينهم. ولكن، بعد أن ابتعد عنهم بعض الخطوات توقف ثم ارتد إليهم. حدّق فيهم متفحّصاً، وحدقوا فيه تساؤلاً. ثم تحدث:

- أعلم كيف تشعرون. قد اختبرته أول قدومي. أنصتوا! أنا أقيم في غرفة ليست بعيدة من هذا المكان في خان ابن ميمون، كنت أتقاسمها مع اثنين آخرين، حتى فارقاني البارحة. فلعل الله قد نظر إليكم ونظر إليّ، فجمع بيننا على أمر قد قُدِر. فأنتم في حاجة إلى مكان تقيمون فيه، وأنا في حاجة إلى من يقتسم معي الأجرة. وقد ترددت أولاً لأني أجهلكم، ثم وقع في صدري ما ردّني إليكم. ونحن على الاختبار إن شئتم. فإن ضقت بكم أو ضقتم بي كنت وكنتم على الخيار أن تفارقوني. فما ظنكم؟

أسرع محمد بالإجابة دون تردد:

- أنصفت بارك الله بك.

كان اسم الفتى علياً، وكان من ريف المريّة. وما كان ليخطر في بال أحد في تلك اللحظة الفارقة أن هذا اللقاء سيكون فاتحة لصحبة عمر، ورحلة طويلة مدهشة يقودها الفتى محمد بن أبي عامر، تبدأ هنا وتنتهي في الزهراء وذاكرة التاريخ العربي وغير العربي سواء، وسير الخالدين. وأساطير الغابرين. ولسوف تتقلب بين جحيم قرطبة ونعيمها، وتشق طريقها بالحب والحرب والذكاء والدهاء... والدماء!

ولسوف يحار الناس إلى الأبد في تمييز الجميل من القبيح فيها، حتى يقول أحسنهم طريقةً: بل هما في هذه القصة وجهان لعملة واحدة، ما كانت لتنصرف إلّا بهما معاً. ثم يجتهد الكثيرون في التعليل والتأويل والتسويغ والتماس المعاذير والضرورات القاهرة، ليحفظوا صورة الرجل العظيم نقية مشرقة لا يخالطها شيء من الكدر.

في صباح اليوم التالي، بعد نومة عميقة هادئة لأول مرّة منذ القدوم، كان محمد يقف على سطح الخان المشرف، يجيل بصره في أحياء قرطبة وأرباضها المطلوة بالشيد الأبيض، ثم يتوقف بصره عند الزهراء البعيدة الشامخة. وهنا سمع صوت علي وهو يقترب منه بهدوء ويتحدث بنبرة متخاشعة:

- الزهراء. مدينة مولانا الناصر. هناك يجلس أعظم ملوك الأرض.. هناك موطن الحلّ والعقد، ومطمح الأفئدة ومنعقد الرجاء.. هناك تتقرر مصائر الرجال والممالك، فشقيٌّ وسعيد..

أطلق تنهيدة عميقة قبل أن يستأنف:

- أنزل عن شطرٍ من عمري على أن أطأها ساعةً فأعاين بالنظر ما يقصّه الخبر.

لاحت ابتسامة غامضة على وجه محمد، وهز رأسه هزة خفيفة لصاحبه الجديد، ثم تابع النظر وقد اكتسى وجهه بملامح التأمل العميق.

لم يصحبهم زياد إلى جامع قرطبة العظيم لحضور الدروس الأولى في جامع قرطبة في صحبة عليّ. فقد كان له في قرطبة مآرب أخرى. وكالعادة تملّص من تأنيب محمد بأسلوب الدعابة والهزل.

- أخذت حاجتي من العلم في كتاتيب الجزيرة الخضراء. وما حاجتي إلى أخبار الأولين؟ إنما يشغلني خبر الحيّ عن خبر الميّت، ومتع الحاضر المحقق عن أحلام المستقبل المغيّب. وما الذي أُرَجِّيه من دروس الجامع؟ أن أصير قاضياً مثلاً؟ فحتى لو كان هذا ممكناً لفتى مثلي لا تقدّمه صلة ولا سابقة عند أصحاب الشأن، فهل هذا بربكم وجه قاضٍ؟

أطلق ضحكة ساخرة وهو يشير إلى وجهه ويتابع:

- ما زال عندي من الدين ما يمنعني من امتهان منزلة القضاة بأمثالي... انطلقوا دوني، قد عرف كل أناس مشربهم. وما على بني عامر لو توزعوا على أبواب الدنيا! أخشى أن تصيبنا العين إذا دخلنا مجتمعين من باب واحد!

قال ذلك وانطلق مهرولاً بعيداً عنهم.. قال علي وهو يلاحقه بنظراته:

- أهو هكذا دائماً.

أجاب عمرو:

- كان من أحِدّنا ذكاءً وأوفرنا عقلاً في كتاتيب طرّش و..

وزاد محمد بالقول:

- لا تنقصه الموهبة، ولكن تنقصه الإرادة، ويصرفه العاجل وإن قلّ عن الآجل وإن عَظُم. يقول: لا أترك القطعي إلى الظنيّ!

أخذ محمد يجيل بصره في الجامع العظيم مبهوراً بسعته وجمال معماره، وأشد ما أثار عجبه أن يرى طلبة تدلّ سحنهم وألوانهم وثيابهم على أنهم من غير بلاد الإسلام. قال عليّ مفسّراً:

- من كل بلاد الروم وممالك النصارى في شمال الجزيرة أو وراء جبال البرتات.. ليون وقشتالة وجليقية ونبارة وغالة وبلاد اللومبرد وبلاد الصقالبة وبلاد اللّمان وبيزنطة، وحتى جزيرة أنقلطره.

قال محمد مندهشاً:

- ويؤذن لهم بدخول الجامع؟

- هنا معاهد العلم الذي جاؤوا في طلبه. بل أمر مولانا الناصر ناظر الجامع أن يتعهّدهم على الخصوص، وأن يجري النفقة على من فقد ماله. فهؤلاء إذا رجعوا إلى بلادهم بقيت نفوسهم معلّقة بقرطبة ولغة العرب ومعارفهم، ويبلغون بها المراتب عند سلاطينهم لما حازوا من العلوم والمعارف. جلّ من في بلادهم أُميّ، إلا قساوستهم ورهبانهم. وبذلك يعلو صيت قرطبة وتبقى حاضرة الدنيا، والمثل الذي يتطلع الروم إلى احتذائه. وتلك من هيبة السلطان ودولته.

توقفت أنظار محمد وصاحبيه عند جماعة من الفتيان يدخلون ساحة المسجد اختيالاً فيما ينبئ أنهم من عليّة القوم. فقد كان أحد الفتيان يذبّ الناس من أمامهم. وقد تميّز منهم اثنان بالثياب الفاخرة والعمامة الضخمة الموشّاة بخيوط ذهبية والمحلّاة بحبات اللؤلؤ. أما الآخرون الذين يحيطون بهما فكان من الواضح أنهم حرس وخدم.

التفت محمد إلى عليّ بنظرة التساؤل، ابتسم عليّ وأجاب:

- محمد بن جعفر المصحفيّ، وابن عمّه هشام.

- ابن المصحفي الوزير!

هز عليّ رأسه، وتابع:

- حظوظ أن تكون في المكان المواتي في الوقت المواتي. لم تكن أسرتهم شيئاً مذكوراً. ولكن جدّ هذا المتكبّر كان مؤدّباً، فانتدبه مولانا الناصر لتأديب ولده وولي عهده الحَكَم. ونشأت صحبة بينه وبين الوالد هذا: جعفر المصحفي. فلما كبر الحكم وبويع بولاية العهد، قدّمه فعلا شأنه. وقد اجتمع على بغضه العامة والخاصّة. فأما العامّة فلصلفه وتكبره. وأما الخاصة فلأنه بلغ ما بلغ دون أن يقدّمه لذلك نسب عريق أو إرث تليد.

وقع الكلام من نفس محمد موقعاً خاصاً فقال مدافعاً:

- لا يضيره ذلك. إنما الرجل بعمله ومواهبه.

قال عليّ:

- وهذا ما لا يقرّ له به كثير من الناس. وحتى لو كان، فإن الناس أشد حكماً على من صعد من أوساطهم ثم نسي منبته فعلا وتَنَفَّج وتكبّر وتنكّر لمن كانوا في مثل حاله. أما صاحب الأصل والميراث فيقولون: أَلِف النعمة فلم يغترّ بها.

لم ينقضِ وقت طويل حتى برزت مواهب محمد في مجالس الدرس، ففاق أقرانه جميعاً وحظي بإعجاب شيوخه. ولكن التفوق يجلب من الإعجاب بقدر ما يجلب من الحسد والغيرة. بل إن الغيرة ليست إلا تعبيراً معتماً عن الإعجاب. ولكن ما الذي يدعو محمد بن جعفر المصحفي وابن عمه هشام إلى الغيرة وعندهما من الجاه والمال ما يغنيهما عن منافسة فتى ريفي رقيق الحال في مجال العلم الذي لا يملك الآن غيره؛ يكفي أن

تنصرف الأنظار عنهما إلى محمد حين يتحدث ويجادل ويعلّل ويؤول ببلاغة معجبة ومنطق قوي يغلب به شيوخه أنفسهم أحياناً، وتنغلق معانيه على فهم المصحفيَّيْن فيشعران بالبلاهة. وأخيراً فاض عندهما الكيل وتسلّط عليهما الغيظ. فحين كان محمد بن أبي عامر في طريقه للخروج من الجامع مع صاحبيه عمرو وعليّ، سمعوا صوتاً من ورائهم ينادي بغلظة ولهجة آمرة:

- أنت!

التفت الثلاثة، فرأوا محمد المصحفي وابن عمه يقفان على بُعد خطوات، يحيط بهما المرافقون. أشار محمد المصحفي بإصبعه إلى محمد بن أبي عامر بأسلوب ينم عن التحقير.

- تقدّم.

اختار محمد بن أبي عامر أن يتجاهله، فاستدار ليتابع المشي مبتعداً. ولكن أحد مرافقي المصحفي أسرع خلف محمد وجذبه من ردائه.

- ألم تسمع نداء مولاك أيها الفتى؟

حين دفعه محمد، هرول المرافقون الآخرون نحوه ليؤدّبوه. ولكن محمداً المصحفي أوقفهم بنبرة حازمة. ثم تقدم بنفسه نحو محمد بن أبي عامر.

- اسمع يا هذا. نحن لا نأتي هنا لنستمع إليك وأنت تتباهى بكلمات تكلفت استظهارها لتلفت بها الأنظار.

قال محمد بصوت حاول جهده أن يكون هادئاً وحازماً معاً:

- أنتم؟ من أنتم؟

هنا تدخل هشام المصحفي بنبرة أكثر غضباً ونزقاً من ابن عمه:

- وهذا دليل جهلك أيها الدعيّ المتحذلق المتفيهق!

قال محمد متهكماً:

- ما شاء الله. قد أوتيت فصاحة وبياناً!

همّ هشام أن يردّ وقد تصاعد حنقه. فقد كان سريع الغضب، شديد النزق. ولكن محمد المصحفي سبقه بالكلام وهو يشير بإصبعه في وجه ابن أبي عامر:

- اعلم إذن أنني أظلم منزلتي بالحديث معك.

- فما الذي يحملك على ما تكره؟

- أني أشدّ كرهاً لهذرك وادعائك في الدرس. فرأيت أن أنهاك إن كان لك أذن تسمع بها.

همّ محمد بن أبي عامر أن يتجاهلهما من جديد فيستدير عنهما، ولكن هشاماً المصحفي تعجل إليه صائحاً:

- لا تدر ظهرك لسيدك وابن سيدك الوزير المصحفي أيها الصفيق.

ثم رفع قبضته ليلطمه، ولكن ابن أبي عامر قبض على ذراعه قبضة قوية ودفعه إلى الخلف. وقبل أن يسوء الموقف صاح محمد المصحفي:

- نحن في بيت الله وفي دار العلم. ولكن إذا لم يُذعن فسنعرف كيف نؤدّبه.

ولكن قبل أن ينفض الجمع الذي تكاثر بالشهور. قال هشام المصحفي بنبرة متهكمة مشيراً إلى عمامة ابن أبي عامر:

- هذه العمامة! من تصدّق عليك بها؟ أما علمت أنها ليست لأمثالك؟

وقبل أن يتنبه محمد كان هشام المصحفي قد أطاح عمامته على الأرض بطرف عصاه. تعالت ضحكات السخرية من المصحفيَّيْن ومن معهما، وتعمد هشام المصحفي أن يطأ العمامة في طريقه.

وإذ صار على بُعد خطوات مع صحبه، التفت من جديد نحو محمد وصاحبيه وصاح:

- اذكرنا جيداً منذ اليوم.

قال محمد بن أبي عامر بصوت عميق غامض، وهو ينقل بصره بين العمامة المطروحة على الأرض وبين المصحفي وركبه:

- سأفعل.

التقط عمامته ومضى صامتاً واجماً مع صاحبيه اللذين لم يجدا كلاماً يقولانه في تلك الساعة.

في شرفة السكن المطلة على الزهراء البعيدة، كان محمد بن أبي عامر يقف وحده متكئاً على حاجز الشرفة وينظر إلى البعيد شارداً متأملاً، حين سمع صوت ابن عمه عمرو من ورائه:

- إنك لتطيل النظر إلى الزهراء!

لم يجب محمد ومضيفي شروده. رمقه عمرو وقال:

- ما زلت منقبض النفس مما لحقك من ابن المصحفي!

أخذ محمد نفساً عميقاً قبل أن يجيب دون أن يتحول ببصره.

- أحياناً أحب أن أتلقى الضربة الأولى.. أن ينزف مني بعض الدم أولاً. إنه ليؤجج الصدر، ويوقد العزيمة، ويقرّب البعيد، ويوطّن النفس على الطلب، ويزيح روادع التذمم والإشفاق والتردد، فيطلق السبع الكامن ويشحذ مخالبه. فلقد أوتينا غريزة السبع، وأوتينا معها حكمة العقل وعواطف القلب وأحكام الخلق. فإن طغت الأولى على الثانية لم يكن فرق بيننا وبين الحيوان الأعجم، وإن طغت الثانية على الأولى صار الرجل منا طُعْمَةً للكلاب من أمثال ابن المصحفي. ولقد تلقيت الضربة الأولى، ووقع عليه وزرها، ولا ملامة!

ربّت عمرو على كتف ابن عمه وقال:

- لا تذهب بعيداً يا محمد. كيف لك أن تنتصف لنفسك من ابن المصحفي وأنت هنا.. وهو هناك.

قال ذلك وهو يشير إلى مكانهما أولاً، ثم إلى الزهراء البعيدة، واستأنف:

- وما بينك وبينه كالذي بين الثرى والثريّا. وليس لك من الثريا إلّا النظر.

أجاب محمد بنبرة عميقة مفعمة بالثقة والعزيمة وهو يتابع النظر إلى الزهراء:

- النظر أوّل الخبر!

*   *   *

شجعته تلك الواقعة البغيضة على أن يسقط تردده في زيارة الوزير ابن حدير في منزلِه الفخم بأرباض قرطبة. وكان صاحباً لأبيه أيام إقامته فيها، وكان دائم الذكر له والثناء عليه. وقد أحسن ابن حدير استقباله حين ذكّره بأبيه. شرح له محمد أنه جاء قرطبة بغرض العلم ثم العمل بمقتضاه. وسمّى له من شيوخه أبا عليّ القالي البغدادي الذي قدم الأندلس منذ وقت من بغداد بعد أن طار صيته في الآفاق، وقرّبه الناصر وجعله من خاصّته، وابن القوطية وابن عبد ربه وآخرين من علماء زمانهم المرموقين. وبعد أن أكّد له محمد أنه ينوي البقاء في قرطبة والتماس حظه فيها، هز ابن حدير رأسه وقال:

- إذن فأنت على غير مذهب أبيك رحمه الله: أصاب من علوم قرطبة ثم آثر أن يفرّ منها إلى العبادة والتزهد في الجزيرة الخضراء!

أجاب محمد من فوره:

- لا تختص العبادة بمكان يا سيّدي. وما زال المسلم في عبادة ما دام محتسباً عمله لله مهما يكن. وأن تخالط أنواع الناس وتغالب الفتن وتصبر على دينك مع ذلك، أعظم حجة عند الله.

صاح ابن حدير مؤيِّداً:

- مرحى يا محمد. هو ذاك مذهبي.

مرّت لحظات صمت، قبل أن يرفع ابن حدير رأسه ويسأل:

- كيف يمكن أن أرعى ذمّة أبيك يا محمد؟

تلكّأ محمد قليلاً قبل أن يجيب بشيء من التحرج:

- لن يطول الوقت إن شاء الله حتى أستكمل دروسي في إجازة القضاء. ولكن، حتى ذلك الحين أزعم أنني أحسن الكتابة. فلو تفضّل سيدي الوزير فوجد لي عملاً في خطة الكتابة بالزهراء، كنت له من الشاكرين.

قال ابن حدير مبتسماً:

- في الزهراء! مرة واحدة!

قام ابن حدير من مقعده، فنهض محمد وقد خشي أن يكون طلبه قد أثار سخرية الوزير. ولكن ابن حدير تحدّث بنبرة أبويّة متلطفة.

- أكمل دروسك في الجامع وحصّل إجازتك، وليكن لك ذكر بين شيوخك، ثم ائتني بعد ذلك. فلعلي أجد لك عملاً عند القاضي.

هز محمد رأسه، وحاذر أن تبدو عليه خيبة الأمل. واستأذن في الخروج:

- طاب مساؤك يا سيّدي.

وإذ مشى بضع خطوات في طريق الخروج، سمع صوت ابن حدير يستوقفه.

- محمد!

فوجئ بالوزير يمدّ له يده بصرّة نقود.

- استعن بهذه على قضاء حوائجك.

نقّل بصره بين يد الوزير التي امتدت له بالنقود، وبين وجهه قبل أن يتحدث.

- أرجو أن يكون ظنّك بي أحسن من هذا يا سيدي. بارك الله لك في مالك.

ثم مضى خارجاً بخطوات سريعة، بينما وقف ابن حدير يشيّعه بنظراته.

مكتبة
t.me/t_pdf

كانت أجراس الكنائس تقرع في أرجاء قرطبة احتفالاً بعيد الميلاد، بينما احتشد الناس في الساحات والمتنزهات ليشهدوا احتفالات نصارى قرطبة بالمناسبة، ويشاركوا في مظاهر البهجة وتبادل التهاني وتناول الحلوى وكؤوس الشراب التي يدور بها عدد من الفتيات والفتيان على جموع الحاضرين. وكان ثمة فتيات أخريات يطفن بسلال الزهور ويوزعن منها على الناس. وما هي حتى ارتفع صوت الموسيقى من نفر من العازفين ومعهم جوقة من المنشدين الذين أخذوا يتقلبون في الغناء بين العربية واللاتينيّة. وإذ دبّ الحماس بين الحضور تشكلت حلقة للرقص على وقع الموسيقى. ولم يجد بعض كبار السنّ حرجاً في الانضمام إليها بين تصفيق الآخرين وضحكاتهم. ولم يكن هذا غريباً على عامة أهل قرطبة. ولكنه كان كذلك عند القادمين من المناطق الريفية مثل محمد بن أبي عامر وابني عمومته عمرو وزياد. وبينما كان محمد وعمرو يراقبان بهدوء وبهجة متزنة، كان زياد يترقّص من مكانه ويصفق بيديه مع الإيقاع وقد طغى عليه الحماس. وإذ تقدّمت فتاة مستعربة لهم بطبق عليه كؤوس الشراب، تناول كل منهم كأساً وهزوا لها رؤوسهم بالشكر، وفي هذه الأثناء لم تتحوّل ببصرها عن محمد إعجاباً بوسامته، وهو ما ألفه زياد، ولكنه أحب كعادته أن ينبّه إلى نفسه على سبيل التظرف، فخاطب الفتاة.

- عيد ميلاد سعيد.

أعطته التفاتة سريعة مبتورة دون أن تفارقها ابتسامتها الجميلة، ثم بدأت في الابتعاد. لاحقها زياد بكلامه وهو يرفع كأسه:

- وشكراً على الشراب!

أجابت دون أن تتوقف:

- في كل عام.

صاح زياد ليسمع صوته في غمرة الموسيقى والضوضاء:

- نعم. في كل عام.

ثم التفت إلى محمد:

- هل رأيت كيف تنظر إليك. ما الذي تجده بك ولا تجده بي؟

تدخل عمرو قائلاً:

- لماذا لا تسألها؟

أجاب زياد فوراً بلهجة موحية:

- إنما يُعوّل على المخبر لا المظهر، فلو خبرتني لوجدتني..

قاطعه عمرو من فوره مؤنّباً:

- اصمت أيها الفاسق. أهذا جزاء ما سقتك من الشراب؟ عسى أن تشرق به.

- على رِسلك، على رِسلك أيها الفقيه. هذا يوم بهجة وسرور، فلا تفسده علينا بسماجة طبعك. وهو كلام وأمنيات، فإن كان إثماً فمن اللّمم المغفور. فلا تضيّق واسعاً ضيّق الله عليك!

عاد زياد يلاحق الفتيات بأنظاره وهو يهز جسمه:

- آه.. أين كنا من هذا في حصن طرّش! هناك لا يحسنون غير التجهّم، يحسبونه من مروءة الرجل وتذممه.

هنا مرّت فتاة أخرى من أمامهم والتفتت نحو محمد ترمقه بإعجاب، ثم ألقت إليه زهرة التقطها بسرعة وهز لها رأسه شاكراً... من جديد تدخل زياد مذكّراً بنفسه:

- عيد ميلاد سعيد.

مضت دون أن تلقي له بالاً وهي تتلفت نحو محمد، بينما تحدث عمرو:

- إنها مسلمة أيها المغفل.

قال زياد:

- كيف تفرّق، والجمال لا دين له ولا عرق؟ وأنا أعشقه على كل المذاهب: القوية منها والضعيفة. ألا ترى إلى هؤلاء الناس من كل الأديان والأعراق والألوان؟ ما الذي جمع بينهم في هذه الساعة غير حب الحياة، فهم يقبلون عليها إقبال من لا ينتظر الموت.

هنا تدخل محمد لأول مرة:

- فإذا جدّ الجدّ، ودعا النفير، أقبلوا على الموت إقبال من لا يرجو الحياة. فهل أنت كذلك؟

أجاب زياد:

- وهذا موقف تدعوك فيه الحياة إلى نفسها.. انظر تلك الفتيات هناك.. يشرن إليك وتنبّه إحداهن الأخرى.. ألا تقبل أيها الرجل، قبل أن يجد الجدّ ويدعو النفير كما تقول؟

قال محمد:

- ألا تصمت؟

عاد زياد ينظر إلى الفتيات اللواتي أشار إليهن:

- هكذا هي الحياة، تتعرّض لمن ينصرف عنها، وتُدبر عمّن يطلبها.. ليس عدلاً! لا.. ليس عدلاً.

قال محمد:

- ومن قال إني منصرف عنها؟ ولكنها أكبر من أحلامك.

أشار زياد إلى الفتيات من جديد وقال:

- لا شيء أكبر من هذه الأحلام! أين تجدها في غير الأندلس؟ ألا إني فخور بأنني أندلسيّ.

هنا سُمِع صوت من خلفهم يتحدّث بعربيّة ثقيلة:

- وأنا فكور (فخور) أنني في الأندلس.

التفت الثلاثة ليروا أوتو وشارل يبتسمان بسعادة، وقد ارتديا ثياب العيد الزاهية. واستأنف أوتو الكلام وهو يتوجه بنظره إلى زياد:

- حكّاً (حقاً) أين تجد هازا (هذا) في كَيْر (غير) الأندلس!

وأشار إلى الحشد والعازفين والراقصين.

لم يكن المشهد غريباً فقط على القادمين من الريف، ولكنه كان كذلك أيضاً عند طلبة العلم القادمين من بلاد الروم الواقعة وراء جبال البرتات التي تفصل بين شبه الجزيرة الإيبريّة وبلاد الغال والفرنج. أما أوتو فكان من بلاد اللمان المتاخمة لغالة، وأما شارل فكان من غالة نفسها. وكانت قد نشأت صحبة بينهما وبين محمّد وعمرو وعليّ بدأت في مجالس الدرس.

لم يتأخر زياد في إقحام نفسه، فمدّ يده مصافحاً وتقمّص لكنة الأعاجم.

- إيد ميلاد سأيد (عيد ميلاد سعيد).

بدا أوتو وشارل حائرين، وتدخل محمد فوراً:

- هذا ابن عمّي زياد.

قال أوتو:

- لم أره مأك كبل الآن (لم أره معك قبل الآن).

وإذ انحبكت الطرفة عند زياد، تعمّد هذه المرّة أن يتكلّف أسلوباً متقعراً:

- آه.. ذلك أني امرؤٌ عظيم المشغلة، لا تعتاص مسألة على أحد إلا ندبني إليها، فأنْهَدُ إليها لا ألتفت خلافي حتى أسبر غورها، وأفكّ عسرها، وأستجلي ما غمض منها حتى تنجلي تبلج الصبح إذا أسْفَر.

تدخل محمد من جديد ليبدّد حيرة الشابين:

- دعكما منه. إنما يريد أن يتظرف..

ما لبث أوتو وشارل أن اندمجا في جو الاحتفال، فانضما إلى حلقة الرقص. حاول أوتو أن يجذب محمّداً للمشاركة فامتنع بلطف. قال زياد:

- دعك منه فهو متكلّف.. أنا.. أنا أحسن الركس (الرقص).

كان أوتو من إحدى البيوتات الشريفة في بلاده، ودخل الدير فترة قصيرة من الوقت امتثالاً لرغبة أبيه، وهناك تعلّم اللاتينية التي لم تكن لسان قومه. ولكن حياة الدير لم توافق طبعه الذي ينزع إلى الحريّة والمغامرة واكتشاف الجديد. ثم لم يلبث حتى ضاق ذرعاً بالحياة القائمة في بلده والحروب التي لا تتوقف بين أمراء تلك البلاد وأشرافها. وكان قد سمع عن قرطبة وبلاد الأندلس كلاماً كثيراً تختلط فيه الرهبة بالإعجاب والحقائق بالأساطير. فهي بلاد الكفار التي خضع لها ملوك الشمال وما زالت خطراً ماثلاً على بلاد الغال وما وراءها؛ وهي التي هزمت جيش

شارلمان العظيم عائداً من حملة فاشلة إلى سرقسطة، وما زالت أنشودة رولان تتردّد في بلاد الفرنج وتقص من أنباء تلك الملحمة العظيمة؛ وهي البلاد التي هزمت أسطول النورمان الذين ردعوا شواطئ أوروبا ولم يصمد لهم أحد قبل ذلك؛ وعلى الرغم من أنها البلاد التي يقطنها أعداء الصليب كما يتردّد، فقد تناهى إلى سمع أوتو أنهم يبجّلون المسيح وأمّه كما يبجّلون نبيهم. وأدهشه أكثر من ذلك أن يعلم بأن أهل الصليب يعيشون بينهم مع قسيسيهم ورهبانهم في أمان وسلام وأن كنائسهم تقرع أجراسها دون عائق. بل إن بعض كبارهم وقسيسيهم بلغ مرتبة الوزارة وصار من خاصة ملكهم وأهل مشورته. وحين ألحّ أوتو بالسؤال عن هذا الوضع الشديد الغرابة لم يتلق إجابة مقنعة، إلّا أن أحد الرهبان اختزل الأمر بالقول: إن طرق الشيطان خدّاعة وملتبسة ليوقع الكثيرين في ضلالاته. أما الغلبة التي يفاخر بها قوم محمد في تلك البلاد فهي ابتلاء وتمحيص، بل ربّما كانت عقوبة من الرب لأن أبناءه قد ضلّوا الطريق وتشاغلوا بأمور الدنيا عن الدين، فإذا رجعوا عن غيّهم صارت لهم الغلبة. أما الكلام عن تفوق المسلمين في العلوم والمعارف وانتشار معاهد العلم والمدارس والمكتبات وإقبال الخاصة والعامة عليها دون تمييز فهي أيضاً أضاليل لا نفع منها. فالمؤمنون الذين يبحثون عن الخلاص لا يحتاجون إلى غير التعاليم الدينية التي تبثها الكنيسة لإنقاذ أرواحهم. أما العلوم الدنيوية فتشتغل على الماديّات التي هي أصل الشرور والمعاصي. كذلك فإن انتشار الكتابة والقراءة بين العامّة مفسدة كبيرة، فهم لا يستطيعون التمييز بين الحق والباطل، ولا فهم نصوص الدين التي لا يعلم معانيها إلا رجال الدين. حسب العامّة من العمل أن ينصتوا إلى ما تلقيه عليهم الكنيسة من المواعظ والتعاليم والأخبار والقصص، ثم يعيشوا بمقتضاها. وإلى ذلك سمع أوتو بعض الرهبان يشنعون على أهل الأندلس فيصفونهم بالتهتك والإقبال على الملذات ومتع الجسد التي تدنّس الروح.

ولكن هذه التحذيرات والتشنيعات التي كانت تتردد على ألسنة الرهبان كان لها تأثير معاكس عند الكثيرين من شباب البيوتات الشريفة الذين كانوا يرون أكثر من غيرهم ما يدور حقاً في بلادهم من تغلّب الأطماع والشهوات والخيانات والصراعات الدامية على الثروة والأرض والسلطة، بخلاف المواعظ الدينية التي تدعو إلى ازدراء الجسد والحياة المادية. وكل ذلك كان يزيدهم تشوقاً إلى زيارة الأندلس حيث تلتقي متع الروح والعقل والقلب والجسد في بلاد الشمس والعجائب التي شهدت رجلاً يطير بجناحين من صنعه، وحيث الموسيقى والغناء والعلوم والصنائع واللغة التي تحملك إلى آفاق الشعر والأدب والعلوم والمعارف، وحيث العمائر البديعة والصنائع العجيبة وثياب الحرير والساحات والمتنزهات والرياض والطرقات النظيفة والمدارس ومعاهد العلم، وحيث يختلط الناس من كل الأعراق والألوان وهم يحتفلون بالحياة ومواعيدها.

وهكذا قرر أوتو أن يشدّ الرحال إلى الأندلس عبر بلاد الغال. وفي الطريق التقى بشارل الذي كان يرغب في تعلم الطبّ في قرطبة. وقد وجدا في قرطبة كل ما صوّرت لهم الأخبار وأكثر. وعلى الرغم من أنهما صارا قادرين على التفاهم مع الناس بالعربية في الأمور اليومية، وعلى فهم قدر لا بأس به مما يدور في دروس العلم، وعلى الكتابة والقراءة بقدر أكبر، فإنهما كانا يتوقان إلى إتقان العربية إتقاناً تاماً، بخاصّة بعد أن ذاقا حلاوتها وأدركا بالتجربة والمعاينة تلك الثروة العظيمة من المعارف والآداب المدوّنة بها.

ولذا كانا يشعران بالإحباط من أنهما لم يبلغا بعد ما يتوقان إليه من طلاقة اللسان وسلامة النطق والتعبير والقدرة على الفهم والاستيعاب، ويغبطان أصحابهما من أهل العربية على ذلك الامتياز العظيم. وإذ انتقل الأصحاب من ساحة الغناء والرقص إلى أحد المتنزهات العامرة على نهر الوادي الكبير، كان الحديث يدور حول الصعوبات التي يجدها كل من

أوتو وشارل في إتقان العربية وطرق التغلب عليها. وعلى الرغم من تعثر التعبير استطاع محمد وأصحابه أن يفهموا من أوتو أنه يفهم معظم ما يقال وأنه يقرأ أفضل بكثير من قدرته على الكلام، لا سيّما الكلام في الأمور العقليّة. وتدخل شارل هنا ليؤكد بأنه حين يكون في الدرس يفهم كل ما يقال أو جُلّه، وقد تعرض له أفكار وأسئلة يجب أن يعرضها للنقاش، ولكن خوفه من أن يُرتج عليه ويتلجلج في الكلام يردعه عن المحاولة، فيؤثر الصمت خشية السخرية. فإذا خلا بنفسه واسترجع الموقف قال في نفسه كل ما كان يرغب في قوله بطلاقة، فلا يزيده ذلك إلّا ضيقاً وإحباطاً.

أنصت إليهما محمد بكل اهتمام وتعاطف. ثم بيّن لهما أن هذا هو حال المتعلم في المراحل الأولى، فلا ينبغي أن يكون ذلك سبباً للضيق. ولكنه أخذ عليهما أنهما يقضيان الكثير من الوقت معاً يرطنان باللطينية بدلاً من قضاء المزيد من الوقت في مخالطة أهل اللغة دون أن يخشى أحدهما السخرية من أخطائه. فلا يسخر إلّا التافه الرقيع. وقد رأى بنفسه أصنافاً من المتعلمين الأعاجم، فأما الخجول الذي يتردد في الكلام خشية الخطأ والسخرية، فتراه يحتمي بأصحابه من أهل جلدته ولسانه، يأتنس بهم، وفي نفسه ألّا يتقحّم في حوار أبناء اللغة حتى يستقيم لسانه ويبلغ غاية الإتقان. ومثل هذا يبطئ به خجله. أما الجريء الذي لا يحرجه الخطأ فما تنقضي بضعة شهور حتى يكون قد حصّل الكفاية. هنا تدخل زياد بنصيحة تجمع بين الجدّ والهزل:

- ألا أدلكما على أنجع الطرق لإتقان العربية في أسرع وقت؟

ثم أشار إلى مجموعة من الفتيات اللواتي كن يتمشين في المتنزه:

- هل تجدون مثل هذا الجمال في بلادكم؟ الزواج.. نعم، الزواج من إحدى المستعربات من أهل البلد. الحب والرغبة أيها السادة يقرّبان

البعيد ويلينان الحديد. امرأة تلاعبها وتلاعبك.. بالعربيّة.. تغازلها وتغازلك.. بالعربيّة.. و.. تغاضبها وتغاضبك بالعربيّة أيضاً!

- باختصار أيها السادة: ليس كالفِراش معلّماً!

ضحك الجميع، ثم أردف محمد:

- أو ذاهباً بالعقل!

ثم تمثل قول الشاعر:

يصرعـــن ذا اللـــب حتـــى لا حـــراك لـــه

وهـــن أضـــعف خلـــق الله إنســـانا

علّق زياد:

- فلنعم القاتل، ويا لحظ القتيل!

تابع الأصحاب سيرهم وقد تحوّل الحديث إلى جوّ الهزل والمرح. واستدعى زياد ذخيرة واسعة من الطرائف المضحكة. وكان على محمد أن يفسّر لأوتو وشارل ما ينغلق معناه عنهما، حتى انقضى النهار. وعادوا إلى منازلهم، حيث كان ينتظر محمداً وأصحابه ما ذهب ببهجة النهار كلها. فما هي حتى سمعوا طرقاً شديداً على الباب، ولم ينتظر الطارق أن يؤذن له حتى اندفع إل الداخل. كان أبا ميمون، صاحب الخان. صاح به زياد:

- ألا تنتظر حتى يؤذن لك؟

- لا يستأذن الرجل في سلطانه.

أجاب زياد من فوره وهو يجيل بصره في الغرفة:

- إن كان لا بدّ من أن تسمّي هذا المكان الحقير سلطاناً، فهو سلطاننا.

أجاب ابن ميمون:

- ملكي..

- المأجور في سلطان المستأجِر ما دام فيه.

- آه.. أيها الفقيه.. ما دام فيه!

وشدّد نبرته في العبارة الأخيرة، ثم تابع:

- وهو فيه ما دفع أجره، وإلّا حق إخلاؤه. وقد تخلفتم عن دفع الأجرة أسبوعاً. وما صبرت عليكم إلّا كرماً ومروءة. أقول: طلبة علم، لعلّه ينالني منهم أجر عند الله. ولكني كذلك أطلب أجر الدنيا!

- أيها الـ...

أمسك زياد لسانه عن الشتيمة، وعدل إلى غيرها.

- أيها الرجل.. ألا ندفع لك دائماً في آخر الأمر؟ أم تحسب أننا ننسلّ بليل قبل أن نفيَك حقك؟

كان الجواب حاضراً عند ابن ميمون:

- كيف لي أن أعلم يقيناً؟ بقدر ما أعلم قد تكونون أتقى خلق الله جميعاً، أو أشرَّهم جميعاً. وللشيطان مسالك على ذوي الحاجات. والفقر أبو المعاصي والشرور. فلماذا أسهر ليلي متقلباً بين الشك واليقين؟

قال زياد متهكماً:

- أما نحن فننام على يقين منك. إذ نعلم أنك من أبخل خلق الله.

- أفإن طالب الرجل بحقه صار بخيلاً؟ ..

ثم نفخ وقد نفد صبره.

- يا سيدي، قل بي ما تشاء. ولكن إما أن تدفعوا لي حقي أو تخرجوا من الليلة!

قال زياد:

- إلى أين؟

أجاب ابن ميمون ساخراً:

- إلى الزهراء إن شئتم! هه! ما شأني أنا؟ هل قيل لكم أني جعلت دوري وقفاً للمفلسين؟

بينما كان الحوار يدور بين زياد وصاحب الخان، ظل محمد وعمرو صامتين وقد كفاهما زياد مؤونة الجدال. أما محمد فبقي منكباً على مخطوط يقرأ فيه ويدوّن بريشته أحياناً على هوامشه، وينقل نظره بين الكتاب وصاحب الخان مع زياد. وأخيراً تدخل عمرو بنبرته الهادئة مخاطباً ابن ميمون:

- ألا تصبر أياماً؟

- قد صبرت حدّ الكفاية. وما زال الطلبة يطرقون بابي يريدون غرفاً. ومع بعضهم ما ليس معكم.

ثم نظر في أكوام الكتب المحيطة بمحمد وقال:

- كل هذه الكتب! ما حاجتكم إليها كلها؟

هنا تدخل محمد لأول مرّة:

- حاجتَك إلى المال.

قال ابن ميمون:

- أعني، الحاجة ملزمة. وسوق الورّاقين رائجة، وبعض الأعيان يدفعون في الكتاب النادر ما يزيد على حاجتكم في السنة.

ولأول مرّة أيضاً تشتد نبرة محمد ويتحدث بصرامة مشوبة بالغضب:

- أَقْصِر علينا الآن. غداً تصلك نقودك.. إن شاء الله.

- فإن لم تصل؟

أجاب محمد بلهجة قاطعة:

- قلت: ستصلك.

تردد ابن ميمون لحظة قبل أن ينهي الجدال:

- لا بأس. سأفوّض أمري إلى الله.. ولكن، غداً! قد بلغت عذري وجاوزت صبري.

قبل أن يبلغ الباب في طريق الخروج، ناداه زياد. وأمام دهشة الآخرين مدّ يده في جيبه وأخرج نقوداً معدودة ودفعها إلى ابن ميمون. نقّل الرجل بصره بين النقود التي في يده وبين زياد متعجباً، وبدلاً من أن يعبّر عن فرحه، صاح بزياد:

- فلماذا كنت تماطل؟ تسمّي نفسك طالب علم ولم تسمع بقول رسول الله ﷺ: «مَطْلُ الغنيّ ظُلم»؟

ردّ زياد من فوره:

- مطل الغنيّ.. الغنيّ أيها المتفيهق.

وشدّد على لفظ الغني، وتابع وهو يشير إلى الغرفة:

- هل ترى هذه حال غنيّ؟ وللمرء حاجات غير حاجة المأوى أيها الفَطِن.. ولكن أنت، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة:280]؟

أجاب ابن ميمون وهو يلقي إليهم نظرة استهزاء:

- لو كانت الميسرة في المنظور!

وإذ خرج صاح زياد في أثره:

- لئيم خبيث.. لوددت أن أبطش به.. قد أضاع عليَّ أُنْسَ الليلة.

تدخل محمد مؤنباً:

- أفلا كنت تدفع له من أول الأمر وتكفينا طلعته إذ كان معك ذلك المال؟

- سبحان الله! هذا عِوض أن تشكرني؟ .. كنت أدّخرها لما هو خير منه ومن هذا المكان الموحش. ولكني آثرتكم على بهجة ليلي وأسباب أُنسي ومتعة حِسّي. وصار عليّ أن أقنع بهذه الوجوه العابسة.. أين منها تلك القدود المائسة!

ثم نظر في أكوام الكتب التي تحيط بمحمد واستأنف:

- ولكن، هذه الكتب.. هل تحتاج إليها حقّاً! أعني إنك تنفق فيها ما نحتاج إليه في مصارف أخرى.

- خيرٌ من بعض مصارفك.

- أعني.. لماذا يكون عليك أن تقتني هذه الكتب وأنت تجدها في مكتبة الجامع، تقرأ فيها هناك، أو تستعيرها بوصل، ثم تردّها في ميقاتها، وإلّا فقد فتحت عائشة بنت قادم مكتبتها لطلبة العلم.. وهي مكتبة عظيمة.. ومثلها كثير.

آثر محمد أن يوقف الجدال بالصمت، وعاد يقرأ في المخطوط ويعلّق على الحواشي بالريشة، ثم بدا أن زياد قد تفطن إلى أمر، أرسل نظرة إلى محمد وعمرو وعليّ قبل أن يتحدث من جديد بشيء من التردد:

- وَقْف أمير المؤمنين للطلبة المحتاجين والمعْسِرين.

رفع محمد رأسه عن المخطوط ينظر إليه مستنكراً وقد فهم القصد، بينما اتجهت أنظار عمرو وعلي إليه بملامح الاستفسار والترقب.. ولم يتأخر زياد في الشرح:

- إنهم يُجرون نفقة للطالب المحتاج، تكفيه حاجته. كل ما عليه فعله أن يتقدّم بطلبه إلى ناظر الجامع وعُمّاله، فينظروا حاجته، فإن ثبت لهم، قيّدوه في الدفاتر.. و..

قاطعه محمد بنبرة صارمة غاضبة، وقد اعتدل في جلسته:

- ما زدت على أن جعلتنا من أهل التسوّل والكُدية. أحقاً تعني ما تقول؟ إذن فأنت أحمق الناس. تصوّر! تصوّروا! أدخل على الناظر مطرقاً، وأشرح له حالي، وآتيه بالأدلّة والشهود يصدّقون قولي! ولم لا؟ آتيه بابن ميمون صاحب هذا الخان ليشهد على فاقتي؟ ألا تستحي أيها الرجل؟ هل أفقدتك تلك الخمر عزّة نفسك وإرث آبائك؟ ربّما كنا في قِلّةٍ الآن، ولكن عندنا ما ليس عند محدثي النعمة: الموالي والصقالبة وأضرابهم؛ عندنا عزة الآباء، أولئك الذين كان حقهم أن يحوزوا السلطان أو يشركوا أهله.. سادة العرب.. سادة قيس ويمن، أول أمر هذه الأمّة.. وعندنا هذا..

وأشار إلى رأسه مستأنفاً:

- وعندنا غاية نحن بالغوها بعون الله. أما ما نحن فيه الآن، فطارئ موقوت. فإذا بلغنا الغاية كان شهادة لنا، إذ لا فضل لمن حيزت له الدنيا بغير جهد، أما الذي يصعد إلى الذروة من قعر الوادي فلا يُنْسب إلى غير همّته وموهبته، وهو أجدر بأن يُحسن سياسة الخلق لأنه اختبر أحوالهم بنفسه..

التقط أنفاسه بعد هذا البيان القويّ المتدفق، قبل أن يستأنف لاهثاً:

- هه! وقف الطلبة المُعْسرين!

ثم لوّح بإصبعه تجاه زياد وقال بنبرة حازمة آمِرة:

- إني أعيذك أن تعود إلى مِثلها أبداً! هل تسمع؟

لم تكن دهشة عمرو وعليّ من فورة الغضب التي تفجّرت في كلام محمد وأسلوبه بأقلّ من دهشة زياد. إذ إنهم لم يألفوا منه مثله من قبل. وما كانوا ليدركوا في تلك الساعة ما كان يحتبس في صدره. بلى، لم يكن طموحه خافياً على أحد. ولكن بدا له أنهم لا يدركون مدى ذلك الطموح ومآلاته المنشودة، وأنهم لا يقدّرونه حق قدره ليحملوه على محمل الجد ويشاركوه وعوده مهما بدت بعيدة المنال. وذلك ما يجعله يشعر بالوحدة حتى بين أصحابه ومحبّيه.

وعندما خرج زياد مع ابن عمّه عمرو لشراء بعض الحاجات، كان ما يزال تحت تأثير الصدمة من اللهجة التي خاطبه بها محمد. وتحدث هذه المرّة بنبرة جادة غير مألوفة منه.

- ما يظنّ ابن عمك بنفسه؟ وما هي الذروة التي يأمل أن يصعد إليها؟

هل يصدّق حقاً أمانيه وأحلامه؟!

أجاب عمرو بدون تردد:

- نعم، يصدّقها.

- وأنت؟

- المهم ما يصدّقه هو.

- ولكن، كيف؟ .. لا يكفي أن يصدّق الرجل أحلامه حتى يحققها. الوزير يرثه ابنه، وكذلك صاحب المدينة، والوالي، والناظر على الخاصة، وصاحب الخزانة، و.. فما هي عُدّته؟

أجاب عمرو:

- عدته نفسُه. و.. هؤلاء!

وأشار إلى الناس في المكان.. ثم تابع:

- أو هكذا يرى.

- هؤلاء! ما شاء الله! العامّة!

تريّث لحظة ثم استأنف:

- العامّة قد تثور بأحد عُمّال السلطان إذا كرهت سيرته ولم يعتدل أو يعتزل، ولكنها لا ترفع أحداً منها إلى مراتب الدولة ولو أرادت. يرضيها أن يستبدل الخليفة بالعامل الذي كرهته غيره ممن حسنت سيرته وكان في مثل مرتبته. يتغيّر الرجال، نعم.. ولكن لا تتغير المراتب. لم نعهد غير هذا. الأولى أن يستيقظ ابن عمّك من أحلامه فيريح ويستريح، فإن لم يكن فلا أقل من أن يبحث له عن عمل وهو بعد في قعر الوادي إلى أن يبلغ تلك الذروة التي يتحدث عنها، فالغايات البعيدة لا تقضي حاجات اليوم العاجلة.

هز عمرو رأسه وقال:

- أحسب أن هذا يلزمنا جميعاً.

ما كان محمد بن أبي عامر ليخلط بين الأحلام والأوهام. ولكنه آثر أن يحاول مرة أخرى مع الوزير ابن حدير الذي أحبّه حقاً لِما رأى من عزيمته وإصراره وأنفته وموهبته، ولذكرى أبيه الطيبة. وكان يرغب حقاً في مساعدته. ولكنه كان يعلم بواطن الأمور في خطط الدولة وأعمالها. فذكره من جديد بفضيلة الصبر، وأن كل شيء بميقات ومقدار. ثم صارحه بالقول:

- اسمع يا محمد، ولا أظن أني أقول شيئاً يفوت فطنتك. فمثلك يجب أن يُحصّل أضعاف ما يحصّله أبناء الأعيان وبياض الحضرة، لكي يدخل في مضمارهم.

تريّث لحظة قبل أن يستأنف بنبرة اعتذار:

- اعذرني، ولكن هكذا تجري الأمور. فليس وراءك ما وراء الساعين إلى أعمال الدولة وإن صغرت. لا يكفي أن تكون العبقري اللوذعي وما زال الناس مختلفين بين عمل الحظّ وعمل الهمّة والعزيمة. فأما من بلغ الغاية فيؤثر أن ينسب نجاحه إلى همته وجهده، وأما من قصّر به جهده فيحب أن ينسب النجاح والإخفاق إلى الحظوظ. ولكن، من كان في مثل حالك فلا بدّ من هذا وذاك. هل تفهم مقصدي؟

هز محمد رأسه موافقاً وتحدث مبتسماً:

- أليس من الحظ الحسن أن تكون لي صلة بالسيد الوزير ابن حدير؟

ابتسم ابن حدير ابتسامة عريضة وقال:

- بلى.. ربّما. وقد يكون عكس ذلك. فللوزير خصوم بقدر ما له من المنزلة والدالّة.. وعلى كل حال فإني أحتاج إلى ظهير قويّ من عملك وصيتك أولاً لأوصي بك عند بعض أصحاب الشأن. فأنا وإن كنت وزيراً باللقب، فليس في يدي الآن خطة من خطط الخلافة؛ إنما أشاور بين الفينة والأخرى، وقد أُدعى إلى مجلس الخليفة أيّده الله.

بعد ذلك اللقاء لم يجد محمد بداً من البحث عن عمل بيده وإن رآه دون مواهبه. وهكذا وجد نفسه أمام دكان لبيع الأقمشة، فأحبّ أن يجرّب حظه. بادره صاحب الدكان مرحِّباً:

- أهلاً وسهلاً. لك أم لزوجك؟

- ليس لي زوج.

- إذن لك! عندي قماش جديد من صنع إشبيلية يدفئ في البرد ويُبْرِد في الحرّ.

همّ أن يفرد القماش، ولكن محمد فاجأه بالسؤال.

- أعندك عمل؟

توقف أبو القاسم، صاحب الدكان، ودقق النظر في الفتى الذي يضع عمامة على رأسه:

- مع هذه العمامة، حسبتك..

قاطعه محمد:

- أنا طالب علم.. عندك عمل؟

تريّث أبو القاسم لحظة ثم سأل:

- ألك خبرة في البيع؟

- قليل.. أعني لم أعمل قبل الآن في مثل هذه الدكان.. ليس في قرطبة على كل حال.

- هذه تجارة تحتاج إلى مهارة وكياسة.. أعني، أول البيع حُسْن الكلام وجودة الوصف، حتى يظن السامع، أو الأحرى السامعة، أنها إن لم تبادر إلى الشراء فقد فاتها حظ عظيم.

علّق محمد مبتسماً وبلا مواربة:

- تعني تحسين القبيح، وتقبيح الحسن!

اهتز أبو القاسم مستنكراً:

- معاذ الله! هذا بيع الغَرَر، وهو محرّم.. ولكن..

توقف أبو القاسم إذ وصلت ثلاث فتيات أحطن بمحمد وقد صرفن أنظارهن إليه وهن يبتسمن له بجرأة ظاهرة، وكن قد لمحنه من بعد فأقبلن على الدكان دون أن تكون لهن حاجة في الشراء. بادرهن أبو القاسم بالترحيب:

- أهلاً وسهلاً. كل ما تطلبن وتتمناه أنفسكن عند أبي القاسم.

لم يتحولن بأبصارهن عن محمد الذي ظهر عليه الحرج وتجاهل نظراتهن التي لم يستطع أبو القاسم أن يتجاهل معناها. ثم قالت إحداهن بلهجة موحية دون أن تتحول ببصرها عن محمد:

- حقاً! عندك ما نطلبه ونتمناه! إذن فليُرِنا فتاكَ بعضه!

أعقبت أخرى بجرأة أكبر:

- أو كلّه!

أخذ أبو القاسم يقلّب بصره بين محمد والفتيات، قبل أن يصيح بمحمد:

- ما يوقفك أيها الفتى؟ ألم تسمع إلى الصبايا الحسان؟

قفز محمد من فوره إلى داخل الدكان، بينما علقت إحدى الفتيات مخاطبة أبا القاسم لأول مرة:

- فتى جديد يعمل لك؟ لم نره من قبل.

أجاب أبو القاسم:

- كل ما عندي جديد!

كان أبو القاسم في زهاء الخمسين من عمره. وكان تاجراً سمحاً حسن السمعة والدين والخلق يحظى باحترام الجميع. وكان يسوؤه ما يرى من جرأة بعض الفتيات في زمانه. وقد زادت مشاهداته لذلك منذ بدأ محمد في العمل عنده، وزاد بقدر ذلك بيعه وربحُه. فكان يوزّع غمغماته بين شكر الله على أن وهبه هذا الفتى والرزق الذي جاء معه، وبين نعي الزمان الفاسد الذي سقط فيه الحياء عن النساء حتى صرن يصرّحن ولا يلمحّن. ولكن ما حيلته في قلة الحياء التي تُكثِّر مالَه. وكان مما يهوّن عليه أن فَتاهُ كان ذا خلق وتذمّم، فيتجاهل كلمات الغزل الصريح والمبطّن، ويمضي في عمله كأنه لا يفهم الإشارات. فهو لا ينتسب إلى يوسف في جمال الخلقة فقط، وإنما كذلك إلى أخلاقه في الصدود عن فتنة النساء. وحسبه منهن أن يقطع لهن القماش بدلاً من أن يقطعن أيديهن! بلى.. إنهن صويحبات يوسف كما يحب أبو القاسم أن يصفهنّ. ولم تنقض إلّا بضعة شهور حتى صار محمد بمثابة الولد من أبي قاسم وأوكل به جلّ عمله، واستأمنه على خزانة الدكان في غيابه. وكان من أهل السوق شابان يعملان في دكانين مجاورين: مالك وطريف. فلما رأيا ازدحام الأقدام على دكان أبي قاسم منذ وصول محمد، وصار بينهما وبينه مودة وصلة، نصحه مالك قائلاً:

- إن أبا القاسم ليعلم أنه صار في حاجتك كما أنت في حاجته، فلو شئت طلبت منه أن يشركك في تجارته، كما فعلت أنا مع صاحبي: الربع لي

والبقية له. وأنت بعد تستطيع أن تسومه فوق ذلك. فإن أبى فادّخر من أجرك حتى يكون لك رأس مال، ثم اجعل لنفسك تجارة خالصة لك.

أجاب محمد:

- ما لهذا قدمت إلى قرطبة. إنما هو عمل أترزق منه إلى حين، حتى يجعل الله لي سبيلاً.

سأل مالك:

- إلى أين يفضي ذلك السبيل يا محمد؟

هنا تدخل طريف معلقاً:

- ألا تراه يتعمم؟ تلك علامة من يرى نفسه أكبر من أن يقنع بعملنا.

قال مالك ضاحكاً:

- لو كان اتخاذ العمامة وحده يبلّغ الرجل غايته وآماله، لوجدتني أضع على رأسي عشر عمائم دفعة واحدة.. واحدة فوق الأخرى!

ثم تنهّد واستأنف:

- ولكنها الحظوظ!

هنا تحدّث محمد بنبرة قوية:

- لم أعد أفهم معنى هذه الكلمة.. الحظوظ! لماذا لا يتعلّل بها إلّا من قلّ ماله وتأخّرت مرتبته؟ هل سمعتها بأمير أو وزير أو صاحب مال وضياع يتكئ برأسه على كفه ثم يتنهّد ويقول: إنما أوتيته بحظي دون جهدي؟

تريث لحظة، ثم تابع مستدركاً:

– ولكن، نعم. يقولها، لا لنفسه، ولا لأمثاله، ولكن لأمثالكم إذا تساءلوا: لماذا استأثر أولئك بالمال والجاه والسلطان دوننا؟ الحظوظ في مذهبهم هي القسمة الظالمة في مذهبي!

همّ مالك بأن يعقّب، ولكن طريف أسكته وهو يومئ إلى جهة معيّنة من السوق، وذهب الجميع بأبصارهم إلى حيث أشار.

كان جوهر الصقلبي يمشي مختالاً وبيده سوط، في ثلة من الصقالبة. وكانوا يحدقون في النساء العابرات بنظرات جريئة وقاح. بل كان جوهر يتعمّد أن يحتك ببعضهن إذ يعبرن قريباً منه بأسلوب يتظاهر بأنه عارض، فكنّ يتباعدن بسرعة تجنباً للأذى.

همس طريف:

– اللعين، جوهر الصقلبي. من أكثرهم لؤماً وفجوراً.

علّق محمد ساخراً بصوته العادي:

– هه! حظوظ قُسِمت للصقالبة ودون أبناء الفاتحين!

انتفض طريف خائفاً، وهمس من جديد محذراً:

– اش ش ش ... لا تقتلنا.

عاد الثلاثة إلى النظر، وبدا الآن أن جوهر وأصحابه يترنحون قليلاً من أثر الخمر، وما هي حتى اصطدم جوهر بشيخ هزيل يمشي متثاقلاً في أسماله البالية، فصاح به جوهر غاضباً:

– أيها الأحمق! قد دست على نعلي.

ارتجف الشيخ وقال معتذراً:

– العفو يا سيدي.. لم أقصد.

صاح به جوهر من جديد:

- وهل تجرؤ أن تقصدها؟ إذن لما كان لك جزاء عندي غير عنقك. ولكن، تُصلح ما أفسدت.

ازداد الشيخ اضطراباً وحيرة، بينما توقف أهل السوق يرقبون بحذر ووجوم وعبوس وقلة حيلة. وعاد جوهر إلى الصياح بالرجل.

- ألم تسمعني أيها الأحمق؟ أنت أصمّ أم ماذا؟ هيا أنزل إلى نعلي فامسح ما علق عليها من أثرك.

إذ تردد الشيخ، هز جوهر سوطه وقال:

- عندي ما يردّ إليك سمعك.

وانهال عليه بسوطه القصير المصنوع من الليف حتى نزل الشيخ على ركبتيه وأخذ يمسح نعل جوهر بكُمّ ثوبه، وما هي حتى دفعه جوهر بقدمه:

- عنّي يا ابن القبيحة، قذّرت حذائي!

ثم أطلق وأصحابه ضحكات منكرة وتابعوا السير حتى خرجوا من المكان. أما محمد فكان يرقب بوجه شديد الانقباض بينما كان يشتعل غضباً في داخله زاد منه شعوره بالعجز عن الدفع عن الرجل في محنته. ولكنه اندفع نحوه إذ تحوّل عنه جوهر وكان ما يزال متكوماً على نفسه على الأرض دون أن يخف أحد إلى مساعدته، وقد تغشاهم الخوف كأن على رؤوسهم الطير. رفعه محمد عن الأرض وأخذ يمسح له وجهه وثيابه، ثم قبّل رأسه وهمس في أذنه:

- سامحنا يا أبتِ.

رجع الشيخ بوجهه ينظر في وجه الفتى حائراً في المعنى. وأردف محمد:

- إن قضى الله، فلسوف تستوفي حقك.

* * *

حين رجع محمد إلى داره في ذلك المساء، ظلّ واجماً شارداً يسترجع الموقف. كان يعلم مظالم الفتيان الصقالبة ومفاسدهم، ولكن، ليس الخبر كالعيان. كان قد غيّر سكنه منذ تحسنت أحواله بالعمل عند أبي القاسم، فأكترى داراً تسعه وأصحابه، وانفرد بغرفة منها كي يخلو بنفسه وكتبه دون تشويش متى يشاء. وأصرّ على أن ينفرد بدفع الأجرة من جيبه عنه وعن رفاقه، ولم يستمع في ذلك إلى اعتراضات عليّ وعمرو. ولما سأله عمرو، في تلك الليلة، عن سبب وجومه وانصرافه عن الطعام، قصّ عليه خبر جوهر والشيخ، وقال:

- لوِددت أن أقتله في تلك الساعة.

ربّت عمرو على كتفه بمودّة وتفهّم وقال:

- وماذا كنت تُرجّي لو قتلته؟ تذهب أنت، ويبقى الصقالبة.

- هذا ما طفقت أحدِّث به نفسي وأصبرها به: اكظم غيظك أيها الرجل وحكّم عقلك حتى تتمكن، فإذا قضى الله أمراً ترجوه، ومكّنك في الأرض، أخذت الصقالبة جماعةً وكفيت الناس شرورهم.

حدّق فيه عمرو متحيراً متسائلاً، ثم قال:

- هم عماد السلطان وزينة الدولة وخاصة الخليفة وحرسه، فلا يتمكن منهم إلا من حاز سلطان الخليفة نفسه.

قال محمد بنبرة غامضة وقد شرد بعيداً:

- كما قلت!

تفحصّه عمرو من جديد وقال مستغرباً:

- كما قلت؟هل سمعت قولي حقاً!

هز محمد رأسه وأجاب بنبرة واثقة:

- قد سمعتُه، نعم.

ثم تحوّل بوجهه إلى وجه ابن عمه وتابع متدفقاً:

- أعلم.. أعلم.. ربما بدوت مجنوناً بعض الشيء.. حتى أنت.. ابن عمي وصاحب سرّي ورفيق عمري مذ كنا صغاراً ندرج في حصن طرّش والجزيرة الخضراء.. تشك أحياناً في سلامة عقلي ورأيي. هو أمل بعيد وغاية مستحيلة.. أو هكذا يبدو.. لا ألومك. ولكن، كذلك كان حال عبدالرحمن الداخل، صقر قريش، حين خرج من الشام طريداً شريداً هائماً على وجهه، لا يرجو في ظاهر الأمر غير النجاة، واصطحب معه خادمه بدر. ولو أفصح عن غايته في تلك الساعة لقيل: مجنون.. منال بعيد وغاية مستحيلة وأَمَل لا يُرجى. ولكنه أدرك غايته أخيراً. نزل الجزيرة وحده، فما هي حتى حاز الملك واستقام له أمر السلطان، ووطد الأركان، وأقام دولة عظيمة، ها نحن نعيش في آثارها بعد أن نَمَت ورَبت واستوت على سوقها وآتت أُكُلَها. وهذا الناصر من ولده، هو أعظم الخلفاء والملوك.

تدخل عمرو قائلاً:

- لولا تسلّط الموالي والصقالبة.

ردّد محمد مؤيّداً:

- لولا تسلط الموالي والصقالبة. ولا أدري كيف يسكت الناصر عن مفاسدهم، لا أحسب أن الرعية كلها تعلمها وهو يجهلها.

- لا يجرؤ أحد على رفع مظلمته منهم عنده، فينكبوه ولو بعد حين.ومن الذي يستطيع أن يتوصل إليه بالشكاية وهم أصحاب بابه؟ الموالي للحجابة والوزارة، والصقالبة خاصة القصر وأهل الخدمة: الخصيان منهم والفحول، والخصيان أعلى في الرتبة والتدبير. وكلّهم يواطئ الآخر. ويجتمعون في الولاء للخليفة.

- ولمصالحهم.

- هذا من ذاك. وحتى بنو أميّة يخطبون ودّهم، كيلا يكيدوا لهم، وليكونوا عوناً لهم في أنصبة المُلك إذا اقتضى الأمر. ولكن دعنا من هذا الآن ولنعد إلى مَثَل الداخل الذي ضربته.. لقد كان أميراً من أبناء الخلائف، وقد طلب في الجزيرة إرث آبائه وإن كان فرداً.. أين أنت من ذلك حتى تطلب مثل غايته؟

- لم تأته طائعة حين طلب إرث آبائه.. إنما كانت عزيمته وهمته وموهبته وإيمانه، وتدبير الليل والنهار.

زاد عمرو بالقول:

- وأعانه على ذلك اختلال أمر العرب في الجزيرة.. خصومات القيسيّة واليمنيّة، فشق طريقه بينها.

- ذاك ما يلهمني منه، بقدر ما آخذه عليه. هو حجتي لنفسي، وحجتي على الخلافة. أما حجتي لنفسي: فماذا يفعل الرجل الذي يطلب الأمر العظيم وليس وراءه عدد ولا مدد ولا جماعة، إلّا أن ينفذ من عورات الآخرين وثغراتهم، فيستعمل هذا على ذاك، ويضرب الظالم بالظالم حتى يستقيم له الأمر.

- وحجتك عليه؟

- أنه لم يحقق الغاية العظيمة والدولة القوية حتى استبدّ بالأمر، وخلّف فيها أصل هذا البلاء، أوله شرر وآخره نار، وإن بدت الأندلس الآن في أزهى عصورها.

همّ عمرو أن يعلّق، ولكن محمد قاطعه مستأنفاً وقد فهم وجهة حجاجه:

- نعم، كان عليه أن يكسر شوكة العصبيات، بعد أن تفانت قبائل العرب في الأندلس بين قيسيّة ويمنيّة، وكادت دولة الإسلام أن تذهب ريحها وهي بعد في أول أمرها، فضرب هذا بذاك، ثم ذهب بهم جميعاً. ولكن هل كان ينبغي أن يكسر شوكة العرب على الجملة حين كسر شوكة القبائل والعصبيات، ليستبدل بهم جيشاً من الموالي والصقالبة والأعاجم؟ وها نحن نرى الآن عواقب الأمر.. العبد المملوك صار مالكاً!

- هذا ما تُسْأَل فيه قبائل العرب نفسها، فهي التي جعلت مصيرها من مصير العصبة. فلو أنها رضيت أن تنزل عن عصبة الدم التي تفرّق ولا تجمع، لعصبة الدولة والجماعة والأمّة التي تجمع ولا تفرّق، إذن لذهبت شوكة القبيلة، وبقيت شوكة العرب على الجملة، يجمعهم دثار واحد، وشعار واحد.

أطرق محمد متأملاً قبل أن يعود إلى الكلام:

- لعلك تنطق بالحق. ولكن قد ضعفت تلك العصب على كل حال، ولا خشية منها الآن. وإذن، فقد آن الأوان لأن يسترد العرب منازلهم ومراتبهم وأنصبتهم في الدولة، بدلاً من أن يتسلّط هؤلاء الصقالبة والموالي على رقاب العباد.

حدّق فيه عمرو متفحّصاً وقال:

- وأنت.. تتطلع إلى أن تردّ للعرب مراتبهم في الدولة!

اكتفى محمد بالصمت، وذهب في التفكير.. وبعد لحظات عاد عمرو إلى الكلام:

- لا أدري.. أراني أتقلب معك بين حالين. أريد أن أصدق آمالك، وأخشى أن أصير شريكك في الجنون؛ وأريد أن أكذّبها، وأخشى أن ألوم نفسي يوماً وأقول: قَصَّرت أحلامي عن أحلامه، فلا حقّ لي في الشِرْكَة. ولكني أعلم هذا الآن: أما الصقالبة والموالي فننكر على من تجبّر

منهم تجبّره وطغيانه، كما ننكرها على أي أحد مهما يكن لونه أو عرقه، ولا ننكر عليهم أنهم موالٍ وصقالبة، فتلك عصبية أخرى نهينا عنها.

أخذ عمرو نَفَساً وتابع:

- والحدّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ﴾ [الحجرات:13]، وقول رسوله الكريم «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلّا بالتقوى»، وقوله: «كلكم لآدم وآدم من تراب»، وقوله: «الناس سواسية كأسنان المشط». فلا يكن ردّك على الظلم بظلم من نوعه، فيكون خصمك قد ألزمك منطقه ومذهبه وحجته. فلا ينقض الباطل إلّا الحق، ولا الضيّق إلّا الواسع.

رمقه محمد وقد لاح على وجهه طيف ابتسامة إعجاباً بمنطقه. وهنا سُمِع صوت أوتو داخلاً مع شارل، وكان الأخير يحمل عوداً بيده. سأله محمد:

- عود؟

رفع شارل العود متفاخراً به، بينما تولى أوتو الشرح وقد تحسنت عربيّته على نحو لافت، فذكر أن شارل يتعلم ضرب العود في دار المدنيات. وهي معهد لتعليم الموسيقى والغناء أنشأه زرياب في أيام الأمير عبدالرحمن بن الحكم المعروف بعبدالرحمن الأوسط، بعد أن قدم زرياب من المشرق واستقر في الأندلس، وصار عَلَماً من أعلامها. تساءل محمد:

- طبيب وضارب عود؟

كان جواب شارل حاضراً. فإذا كان الطب علاج الأبدان، فالموسيقى دواء الأرواح. وهو يعشق الموسيقى والعود. ثم اقترح أوتو أن يذهبوا جميعاً غداً إلى دار المدينات ليروا كيف يصنع شارل.

كانت دار المدنيات تعجّ بالحركة وأصوات الموسيقى بين معلمين ومتعلمين وآلات متنوّعة. وقد توزعوا على أركان متباعدة من القاعة الواسعة، فضلاً عن الأصوات القادمة من الغرف الأخرى المجاورة.

أقبل معلم شارل فوراً إذ رآه وصحبَه في وسط القاعة يجيلون النظر. وابتدره بالقول:

- قارلة.

وكان هذا هو الشائع عند أهل الأندلس فينطق اسم شارل. ولكن شارل بادر إلى التصويب:

- شارل.

قال المعلم مداعباً:

- قارلة، شارل. ما الفرق؟ ألا تريد أن تستعرب أيها الرجل وأنت تتعلم موسيقى العرب؟ هل تدرّبت على اللحن الذي دونته لك؟

استخرج شارل من جيبه الرقعة التي كُتِب عليها اللحن برموز خاصة:

سأل عليّ:

- وتكتبون اللحن؟ كيف يُدَوَّن اللحن وهو بالسماع؟

أجاب المعلم:

- نعم، نسمعه ونكتبه.

ثم شرح لهم أن تلك لغة اصطنعها زرياب. فقبل ذلك لم يكن اللحن ينتقل من بلد إلى آخر إلا بطريق من سَمِعَه وحفظه فيُسْمِعُه. أما بتلك اللغة التي يتعلمها أهل الغناء والموسيقى فقد صار في وسع أحدهم أن يرسل اللحن مدوَّناً إلى بلد آخر، فيعزف الضارب المتمرّس هناك مع الصوت الذي صُنِع له، ثم طلب المعلم من شارل أن يسمعه ما تدرّب عليه.

أما محمد فلم يكن في تلك اللحظة معنيّاً بسماع شارل. بل إنه كان غائباً عن شرح المعلم، فقد وقع بصره على ركن منزوٍ تجلس فيه فتاة رائعة الجمال مع معلمها، يضرب لها على العود وهي تغني صوتاً على أنغامه فيما بدا أنه يدرِّبها عليه. ولم يكن الصوت وضرب العود ليصلا بوضوح إلى مسامعه، وما كان همّه السماع في تلك اللحظة بقدر لذة النظر إلى ذلك الجمال البديع، فوجد نفسه يفارق أصحابه منجذباً كالمسحور إلى حيث الفتاة ويقف على بُعد مناسب بحيث يسمع ويرى بوضوح أكبر. كانت الفتاة تغني وقد بدا عليها التوتر:

حكمتــــــــه لـــــــــو عــــــــدلا

أعطيتــــــــه مـــــــا ســـــــألا

استوقفها المعلم وأعاد عليها غناء الصوت بنفسه على وجه التحسين المطلوب، لتحاكيه، ثم قال:

- هيا.. من جديد، وأقيمي مدّات الصوت، وحقّقي الحروف.

أعادت من جديد مجتهدةً في المحاكاة. ولكن ذلك لم يكن كافياً ليقنع به المعلم الذي قال:

- هذا أفضل.. هذا أفضل. ولكن، هذا الجسم، وتبقى الروح. يجب أن تعطيه روحاً من قلبك.. من هنا.. من الداخل.

ودقّ على صدره، بينما نفخت الفتاة متضجرة:

- كيف أفعل ذلك؟

أجابها المعلم:

- أمر يُدركُ بالشعور، ولا يوصف بالكلام. تأمّلي في المعاني.. تخيّلي أن هذا من شعركِ أنت.. من فيض شعوركِ.. حبيب شغل قلبك وملأ عليك حسّك، فقلت فيه هذا الشعر. هيا تستطيعين ذلك يا صبح.

أخذت نفساً عميقاً.. وعاد المعلم إلى الضرب على العود، فانطلقت من جديد:

حكمتـــــــه لـــــــو عـــــــدلا

أعطيتـــــــه مـــــا ســـــــألا

وهبتـــــــه روحـــــــي فـــــــما

أدري بـــــــه مـــــا فعـــــــلا

توقف المعلم من جديد وأوقفها، وتحدث بنبرة أكثر حزماً.

- لا، لا، لا.. ما بك اليوم؟ قد وهبك الله صوتاً ليس في قرطبة مثله، إلّا أنه وردة بلا رائحة، وجسم بلا..

أكملت عنه بنبرة متبرمة وقد خالطها اليأس والضجر:

- روح. لا أدري من أين آتيك بالروح الذي تتحدث عنه. قد تعبت وضجرت.

قالت هذا وانتزعت منه العود ووضعته جانباً. ولكن المعلم كان شديد الإصرار والصبر:

- لن أسرّحك اليوم حتى تتقني الصوت. هذه أوامر الناظر على الدار، يقول: قد رتّب لك أن تغني عند رجل من الكبراء لم يسمّه هل حدّثك بهذا؟

ما كانت الفتاة لتجيب عن السؤال، لأنها لم تسمعه! ففي أثناء كلامه الأخير كانت قد التفتت فوقع بصرها لأول مرة على محمد الذي كان واقفاً يرقب طوال الوقت، فتبادلا نظرة طويلة أذهلتها تماماً عن نفسها وعن المعلم الذي لم يتوقف عن الكلام:

- قال إن الأمر لا يحتمل الخطأ، فإن أجادت كان خيراً لها ولنا جميعاً، وإن أخلّت وقع الضرر علينا جميعاً. ألا يسرّك هذا؟ ألا يسرّك أن تغني عند رجل من أعيان الحضرة فيطير صيتك بين بيوتات السادة، ومن يدري.ربّما..

توقف إذ تنبه الآن إلى غفلتها عنه.. فقال منبهاً:

- صبح! هل تسمعينني؟

تنبهت فجأة وخفضت رأسها:

- كيف قلت؟

وقبل أن يجيب تناولت العود وبدأت تضرب اللحن بنفسها وتغني لأول مرّة بأسلوب مفعم بالروح والمشاعر، وهي تسترق النظر إلى محمد بين الفينة والأخرى، وكأنها تغني الآن لنفسها ولشيء تحرّك في قلبها:

حكمتــــــــه لـــــــو عـــــــدلا

أعطيتـــــــه مـــــا ســـــــألا

وهبتـــــــه روحـــــــي فـــــما

أدري بـــــــه مـــــا فعـــــــلا

قلبـــــــي بـــــــه في شـــــغل

لا مــــــــلّ ذاك الشـــــــــغلا

ما إن فرغت حتى صاح المعلم صيحة النشوة والظّفر:

- هو ذا.. هو ذا.. أخيراً.. هذا هو الروح! ألم أَقُل لكِ؟

نعم، كانت تلك لحظة قدريّة فارقة في مصير رجل وامرأة.. بل سوف يكشف قابل الأيام أنها لحظة فارقة في سيرة الأمة ومصائر الدولة ورجالها! ولسوف يدرك أهل الرأي والنظر أن التواريخ الكبرى والمصائر العظمى يمكن أن تسهم في صنعها واقعة صغيرة مما يقع للناس إذ تتقاطع دروبهم، وأن هبة ريح في الظرف المناسب يمكن أن تتعاظم إلى عواصف تسوق السحاب نعمةً وغيثاً في مكان آخر، أو عذاباً شديداً.

كانت الفتاة جارية بشكنسيّة من بلاد البشكنس أو نافار أو نَبّارّة كما ينطقها العرب، وتقع في شمال شبه الجزيرة الإيبرية قريباً من جبال البرنات التي تفصل شبه الجزيرة عن بلاد الفرنج. وكانت تنادى باسم صبح. والحقيقة أنها كانت هي من اختارت هذا الاسم لنفسها بدلاً من اسمها الأصيل: أورورا، الذي يعني في لسان قومها هالة الصباح. وبذلك لم تفارق المعنى وإن فارقت اللفظ.

لم تفارقها صورة الفتى الوسيم الذي ظهر لها فجأة كأنه قادم من أرض الأحلام التي لا تتعرّف بأسماء البلدان والأقوام والألسنة، ثم اختفى كما تختفي الأحلام دون أن يذهب أثرها. وبينما كانت صاحبتها الجارية بدور تساعدها في تصفيف شعرها وزينتها استعداداً لحفل السمر الذي ستشارك فيه الليلة المقبلة، كانت تحدّث صاحبتها عن تلك الواقعة بانفعال معتدل:

- .. وهو يصيح: الروح.. أين الروح في الصوت. وأنا لا أفهم ما يريد، ولا أُحسن ما يطلب.. حتى.. حتى وقعت عيني على..

أطلقت تنهيدة قبل أن تكمل بلا تحفظ:

- على من لو طلب روحي لأعطيته إياه، فإذا بي..

قاطعتها بدور:

- شاب! تعنين..

سارعت صبح بالقول:

- من النوع الذي قطعت النساء أيديهن لطلعته. فوالله لو طلب مني ساعتئذٍ أن أغني له معلّقة امرئ القيس لفعلت، بل أغني له النثر فضلاً عن الشعر.. حتى لو دفع لي كتاباً في الطب لغنيته كما أغني شعر قيس.

تضاحكت الجاريتان الصاحبتان، وسألت بدور:

- أهو مُغَنٍّ أم ضارب عود؟

أجابت صبح بسرعة:

- لا أحسبه هذا ولا ذاك. وما خلق مثله ليغنّي، بل ليُغَنَّى له.

شردت بأنظارها لحظة خاطفة وتابعت:

- أو يُغَنّى فيه!

قالت بدور:

- قد أوغلت وربّ الكعبة.. أما علمت اسمَه وعَمَله؟

أجابت صبح بلهجة مشوبة بالأسف:

- كيف لي أن أعلم؟

ثم التفتت إلى بدور وتساءلت سؤال الحائر لنفسه:

- هل يعود إلى دار المدنيات؟

أجابت بدور مع ابتسامة ساخرة:

- كيف لي أن أعلم! ولو علمت لحجبته عنك، فما كنت لأؤثرك به عن نفسي وهو من تصفين.. فاقنعي بالنظرة.

ثم أردفت:

- هل رأيت عليه مخايل الغنى؟

- هو نظيف الملبس. ولكن، لو كان غنياً لدخل في حشمه وخدمه.

- إذن لا أمل لك به حتى لو وقع في نفسه مثل الذي وقع في نفسك. فقد علا الآن صيتك في الغناء والجمال، فغلا ثمنك.

علّقت صبح دون تريّث:

- إذن أدّعي الحمق، وأفسد غنائي حتى لا يعود بي نفع لأحدٍ من أهل الغنى.

- جمالك يشفع لك.

مرّت لحظات صمت وتفكّر، قبل أن تستأنف صبح:

- ليس علو صيت القينة مع حسنها بالذي يُبَلّغها المراد دائماً.

ثم أردفت مستدركة:

- أعني، نعم.. إذا عرف هذا عنها تسابق إلى شرائها ذوو الجاه والمال.

- أليس هذا هو المراد؟

أجابت صبح مفسّرةً مقصدها:

- جلّ أولئك من الشيوخ الذين أكل الدهر عليهم وشرب؛ قدم في القبر، وأخرى في القصر. أهذا هو المراد؟

ردّت بدور وقد تمثلت لها المفارقة:

- والشاب الفقير. قدم في الفقر.. وأخرى..

تريّثت لحظة خاطفة لتأكيد المفارقة:

- أيضاً في الفقر!

تنهّدت صبح من جديد:

- ألا يكون هذا وذاك؟

أجابت بدور بسرعة:

- يكون؟

- أين؟

- في الجنة!

أطلقت بدور ضحكة خفيفة لم تشاركها بها صبح التي عادت إلى شرودها.

ربتت بدور عليها وقالت:

- تناسَيْ فتاك الآن.. و..

- نَسِيَتْني نفسي إن نسيته.

- لا بأس، إن كان ذكرك له يُجَوّد غناءك الليلة. فالغناء له وإن بَعُد، والسماع للسادة.

نظرت إليها صبح متسائلة:

- هل نمي لك شيء عمن يكونون؟

- ليس بعد. ولكن يبدو من التدابير والاهتمام البالغ، أنه سيكون مجلس سمر عند رجل عظيم.

وقد كان حقاً كما قالت، إذ لم يكن صاحب المجلس غير الوزير جعفر المصحفي. ولكن الأهم من صاحب المجلس ضيفه الأكبر فيه: الحكم بن عبدالرحمن الناصر، وليّ العهد، الذي كان قد بلغ الخمسين أو نحوها دون أن يعقّب ولداً، فكان ذلك يؤرقه ويؤرق أباه الخليفة العظيم. ولم يكن الحكم بالذي يقبل على مجالس الغناء والسمر.

وكان يؤثر أن يقضي شطراً كبيراً من وقته في المكتبة الأموية العظيمة في الزهراء، يجني من ثمار القرائح المتنوعة بين الأدب والتاريخ والأخبار وعلوم الدين. وكان قد أوقف عليها عدداً كبيراً من العُمّال بإمرة ناظر المكتبة، يعملون على تصنيف الكتب وترتيبها، فضلاً عن ثلة من الكتبة النسّاخ. وكان يبث عُمّالاً آخرين في بلاد الإسلام، مشرقها ومغربها، لجلب الكتب الجديدة، وينفق في ذلك أموالاً طائلة. وكان ميّالاً للوحدة. فإن كان لا بدّ فمجالس العلم التي يجتمع إليه فيها أعلام عصره في مختلف ميادين العلم والأدب. فيصغي بهدوء وتدبّر، فإذا احتدم الجدال تدخل برأيه أو وازن بين الآراء أو هدّأ الخواطر، وربما صرف الكلام إلى الطرائف التي تسرّي عن النفس. ولذا فقد بذل المصحفي جهداً كبيراً في إقناعه بحضور مجلس السمر الذي رتّب له. فأجابه إلى ذلك بدون حماس كبير. فقد كان يجلّ الرجل الذي لزمه بالخدمة منذ زمن طويل، حتى صار صاحبه الأقرب.

لم يظهر على الحكم أي انفعال بينما كانت بعض القيان يرقصن على وقع الموسيقى في مجلس المصحفي الذي مالَ عليه هامساً بتأدب جم:

- ألم يتبسّط الأمير بعد؟!

قال الحكم بصوت هادئ:

- هذه غاية تبسّطي يا جعفر. ولا يخرج الرجل عن طبعه. ولا أحسبني أتأخر كثيراً بعد الآن، فقد علمتَ أني لا أطيل السهر.

ولكن، تغيّر كل شيء حين خرجت الراقصات، ودخلت صبح بينما أخذ العازفون يضبطون أوتارهم من جديد.. وكان على صبح قبل ذلك أن تستجمع نفسها حين علمت بحضور الرجل العظيم. تنبهت ملامح الحكم دون أن يفارق هيبته وهو ينظر إليها ويستمع إلى غنائها، فيتقلب بين متعة البصر ومتعة السمع:

حلفت بمن رمى فأصاب قلبي
وقلّبه على جمر الصدود

لقد أودى تذكره بقلبي
ولست أشك أن النفس تودي

لأول مرّة يعتدل الحكم في جلسته وتضيء عيناه، وإذ لحظه المصحفي طابت نفسه واتسعت ابتسامته. وانطلقت صبح من صوت إلى آخر، وتدرّجت بها من البطيء إلى السريع، حتى وصلت إلى صوت: «أعطيته ما سألا»، وإذ بالحكم يتمايل على الرغم منه بهزات خفيفة لم يخرج بها عن وقاره، وقد أعلنت ابتسامته عن بهجة غير مسبوقة منه.

في اليوم التالي، كان الحكم يتمشى مع جعفر في حدائق الزهراء حين سأل جعفر سؤال من يطلب المزيد من التأكيد:

- عسى أن تكون قد سعدت بمجلسنا الليلة الماضية؟

لم يجب الحكم كمن لم يسمع السؤال وبدا شارد الفكر وهو يتابع المشي صامتاً. وبعد وقت خاطب المصحفي بصوت خفيض دون أن يلتفت إليه:

- جعفر!

خف المصحفي بالردّ:

- السمع والطاعة يا سيدي.

قال ببهجة تعمّد أن تبدو عارضة لا تلهّف فيها:

- تلك الجارية المغنية.. !

تنبهت ملامح جعفر، بينما تابع الحكم المشي دون أن يلتفت إليه:

- ابذل فيها ما يشاء صاحبها من المال، واحمِلها إلى قصري.

ابتسم جعفر ابتسامة عريضة، بينما سبقه الحكم بالمشي كأنه يريد أن يواري أثر الفتاة في نفسه.

بينما كانت الاستعدادات جارية لنقل صبح إلى دار الحكم في الزهراء في أبهى حلة وزينة، وقد سبقت إليها هدايا الحكم السخية من الذهب والجوهر والحرير، كانت تجلس أمام المرآة ساهمة شاردة، وبدور تقف إلى جانبها. قالت بدور معلّقة على وجومها:

- أهي صدمة الفرح، أم ماذا؟

التفتت إليها صبح ورمقتها بنظرات غائمة دون أن تجيب. فاستأنفت بدور:

- إنه الحكم.. ولي العهد.. أمير المؤمنين بعد أبيه. تلك دعوة أصابت ساعة إجابة في ليلة قدر. ألا تدركين هذا؟ ومن يدري، مولانا الحكم لم يرزق بولد بعد، وقد أوشك على الخمسين. فلربما ولدت له من يصير الخليفة بعده.. أنت! أم ولد الخليفة! إذن فقد صرت سلطانة الأندلس.. هل تدركين قولي؟ سلطانة الأندلس!

ردّدت صبح هامسة كأنها تحدث نفسها بنبرة مشوبة بالخيبة:

- أوشك على الخمسين!

قالت بدور:

- المُلك لا يكتهل ولا يشيخ.. صبا دائم. إنما الشيخوخة للعامة.

تريثت لحظة وهي تتأمل صبحاً قبل أن تستأنف:

- أم تراك تذكرين ذلك الفتى الذي..؟ إنه طيف.. ليس حقيقة ولو كان، فما تدري من يكون وما يكون. لعله لا يبلغ أن يكون حدّاداً أو معلّم صبيان.. أو بَيْطاراً، وإن حَسُن منظره. والفقر يُقَبّح الجميل، والجاه

والسلطان يُجمّلان القبيح.. فإن كان في نفسك شيء من ذلك الفتى الآن، وقد سبقت لك الدنيا، فأنت.. أحمق الناس!

وإذ قالت العبارة الأخيرة أطلقت صوتاً مكتوماً ووضعت يدها على فمها كأنها تتدارك على نفسها:

- قطع الله لساني يا سيدتي، نسيت أنك منذ اليوم مولاتي.

أرسلت إليها صبح نظرة عتاب مع ابتسامة رقيقة. وأفلتت بدور ضحكة خفيفة.

* * *

أما محمد بن أبي عامر، فمنذ ذلك اللقاء الصامت والنظرة الآسرة، بقي طيف الفتاة الرائعة يحتل وجدانه وخياله حتى صرف عنه النوم.

من هي تلك الفتاة؟ إنه لا يعرف حتى اسمها. فكيف لنظرة واحدة أن تترك في نفسه هذا الأثر الطاغي؟ أهو الجمال وحده؟ إنه ليعرض كل يوم لجميلات فاتنات يتحرّشن به، فيعرض عنهن تعففاً وتذمماً. لا بدّ أن يكون سِرّاً آخر غير الجمال؛ فما يكون ولم يكن بينهما غير تلك النظرة المتبادلة؟ وما الذي يُؤَمّله منها على كل حال في أوضاعه الراهنة التي لا يستطيع معها الزواج من حرّة أو التسَرّي بجارية؟ وما زال يلاحق نجمته البعيدة التي تغمز في سماء الزهراء. يجب أن يزيحها من خياله كيلا ينكسف ضوء النجمة النابضة في جوار القمر الذي تبدّى له في دار المدنيات. ولكن هذا القرار الحاسم لم يمنعه على كل حال من العودة إلى دار المدنيات. ولما يئس من رؤية تلك الفتاة الغامضة مرة أخرى، عاد أدراجه وهو يتقلّب بين مشاعر الخيبة والراحة من عبء الخيارات الصعبة.

* * *

حين دخل عليها الحكم لأول مرّة، كانت ما تزال منبهرة بالذي رأته في الزهراء، فقد كان أعظم وأروع من كل ما كانت تتخيله عنها ويصفه الناس. وكانت ما تزال تجيل بصرها في جناحها وتتحسس أثاثه وتحفه حين شعرت بحركة خفيفة فاستدارت لترى الحكم لدى الباب. لم يكن دميم الخلقة، وكانت ملامحه تنمّ عن الطيبة وهدوء النفس. ولكن الشيب كان قد غزا لحيته، وكان ينحني بكتفيه قليلاً إلى الأمام. نظر إليها مع ابتسامة وديعة، ثم تذكرت أن تنحني له إجلالاً.. ثم بادرها بالسؤال عن اسمها. وكان ذلك غريباً حقاً. فقالت بتأدب جمّ:

- تبذل بي مالك يا سيدي، ولا تعرف اسمي؟

اكتفى بالابتسام من جديد، وأجابت:

- أورورا.

بدا عليه التعجب.. وسأل:

- قشتالية؟

اهتزت ملامحها من الفور كأن أفعى لدغتها وأجابت بسرعة:

- لا قدّر الله!

ازداد تعجباً وتساؤل من جديد:

- وما البأس في أن تكوني قشتاليّة؟

- نحن أهل نافار أو البشكنس كما تسمّونهم لا نحب القشتاليين!

استوقفه من عبارتها أن تغاير بينها وقومها من جهة، وبينه وقومه من جهة أخرى: نحن.. أنتم! فهي الآن عنده وملك يمينه، وها هي تتحدث بلسان عربي مبين.

- بشكنسية إذن. ولكنك الآن أندلسيّة.

أجابت:

- نعم. لساني عربي، ولا أعرف غير شعر العرب وآدابهم.

- ولكنك ما تزالين تحتفظين باسمك القديم!

ابتسمت وقالت:

- إذا فوجئت بالسؤال، سبقني لساني بذلك الاسم يا سيدي، قبل أن أتروّى.

ردّد الحكم بنبرة التساؤل:

- أورورا! ما معناه؟

- شيء كهالة الفجر، أو ضوء الصباح.

اتسعت عيناه وقد أعجبه المعنى.. وتابعت:

- ولذلك اخترت لنفسي اسم «صبح» في العربية.

هز رأسه متأملاً:

- أورورا.. صبح.. لم تفارقي المعنى الجميل بين اللسانين..

أطرقت لحظة قصيرة وقد مرّ بها طيف عابر من الحزن، ثم عقبت:

- كما أني لا أفارق نفسي وإن تغيّرت الديار.

تأملها متفهّماً..

- تقولين أنت اخترت اسمك في العربية!

شدّد على كلمة «اخترت»..

هزّت رأسها تأكيداً.. ابتسم لها من جديد وقال:

- وقد أحسنت الاختيار.

* * *

أدركت منذ الأيام الأولى أنه رجل طيب سمح عظيم السجايا والتواضع لم يفسده السلطان. ولقد رأت قبل ذلك رجالاً دونه في المنزلة من الأثرياء وبياض الحضرة يظن أحدهم أنه يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولاً من شدة الكبر والاختيال. وكان لا يرفع صوته في الكلام، ويُحسِن الإصغاء، وكان يلوح في عينيه طيف من الحزن لا تدري له سبباً. فهذا رجل حيزت له الدنيا، ويوشك أن يصير أعظم ملوك الأرض. ولأمر ما شعرت نحوه بخليط من المودة والإشفاق والحنان، ربما لأنه غمرها بحنانه منذ اللحظة لأولى وبدا أنها وقعت من نفسه موقعاً خاصّاً وإن لم يكن من النوع الذي يسرف في التعبير عن عواطفه. ومع هدوء نفسه ولين جانبه ورقّة طبعه، استطاعت أن تستشعر أنها أمام رجل قويّ في داخله وإن خلا من الغلظة والعنف.

حين دخلت عليها بدور بعد بضعة أيام، وكانت قد استدعتها لتكون وصيفتها، لم تجد ما تقوله عن الحكم إلّا الإطراء والثناء على مناقبه السامية مما يقوله كل عارف به، دون أن تفارق وجهها مسحة الحزن والشرود. وحين ذكرتها بدور بأنها يمكن أن تصبح السلطانة حقاً إذا أنجبت للحكم الولد الذي طال انتظاره، اعترفت صبح أن الفكرة تغويها، وقالت:

- جارية تصبح سلطانة! إنه لمرتقى عظيم للجارية المملوكة، أن تصير المالكة، لها الحل والعقد، وتحكم في الرجال الذين تملكوها، واقتنوها كما يقتنون المتاع. ولكن..

تريّثت لحظة، وعاودها الشرود قبل أن تتساءل بنبرة تأمّل:

- ولكن هل يغني السلطان عن حاجات النفس وأشواق القلب يا بدور؟ ولهذه سلطان على القلب أقوى من كل السلاطين.

كان من الواضح أنها لم تتحرر بعد من طيف ذلك الفتى الذي مرّ بها كغيمة صيف شاردة. وما كان لها أن تدرك مفارقة الأقدار في تلك

اللحظة وهي ترسل أنظارها عبر النافذة العريضة إلى حركة الحياة في ساحات الزهراء: حرس وقادة وعبيد وخصيان ووزراء وأمراء وأعيان وجوارٍ من أهل الخدمة: هذان جارية بشكنسيّة وفتى من نسب عربي عريق تبادلا نظرة واحدة على غير ميعاد؛ فأمّا الجارية فقد حلّت في الزهراء بغير سعي ولا تدبير ولا طلب ولا عُدّة إلّا من جمالها وصوتها اللذين أنزلاها في قلب الخليفة المقبل فسخر لها عشرات من أهل الخدمة يسعون في راحتها وإرضائها. وأما الفتى فما زال يعاود النظر إلى الزهراء البعيدة من شرفة منزله ويحلم حلماً يبدو مستحيلاً وإن عزم على أن يسعى إليه سعيه حتى آخر رمق، أو «يموت فيُعذرا» كما قال الشاعر. ولئن كان طيفه قد ظلّ يتراءى لها بين الفينة والأخرى، فإنه استطاع أن يحرّر خياله منها، إلّا أن تذكره بها فتاة عابرة يراها مستدبرة على بُعد، فيحمله الظن على التعجل في المشي حتى يصير بحيث يرى وجهها الذي يخيّب ظنه ولو كان جميلاً. ثم يرجع إلى شؤون يومه.

كان يوماً من أيام الخريف حين خرج المنادون في الأسواق والأحياء والساحات يعلنون نبأ وفاة الخليفة العظيم عبدالرحمن الناصر الذي بلغت الأندلس في عهده ما لم تبلغه فيعهد أمير قبله حتى صارت أعظم ممالك الأرض، وسمت قرطبة على بغداد نفسها، وجاءته ملوك الأرض طائعةً تقبِّل الأرض بين يديه وتطلب سلمه وعونه ورضاه. ومع ذلك أُثِر عنه القول: «ما بلغت بالأندلس ما بلغت إلّا بوصل الليل والنهار، ما هدأ لي فيها خاطر ولا جارحة. وقد كنت أسترجع أعوامي ذلك اليوم فوجدت أني وقد ملكت زهاء خمسين سنة، لم يَرُق لي منها دون تكدير سوى أربعة عشر يوماً!». وقد صدق. ذلك أنه قضى جلّ سنوات حكمه يخمد ثورات الطامعين في أرجاء مملكته، ثورة إثر ثورة، وكان أشدّها وأطولها ثورة ابن حفصون الذي واطأ في وقتٍ ما أذفونش (ألفونسو) الثالث ملك أشتوريس في شمال الجزيرة. ولكن هذا كله لم يصرف الناصر عن المضيّ في إعمار الأندلس ورعاية العلوم والفنون حتى صارت درّة الممالك. فلا عجب أن يسود الحزن بين الناس لوفاته. وقد كانت العادة في وفاة الخليفة ألّا يتم إعلان الوفاة للعامة حتى يجتمع خاصة القصر وفتيانه الأكابر لتعزية الخليفة الجديد ومبايعته، ثم يُستدعى الإخوة لتلك الغاية، ثم يصار إلى الإعلان، وتفتح أبواب الزهراء للوزراء والقادة والأعيان لتقديم واجب العزاء ومبايعة الخليفة الجديد على وفق ترتيب معيّن يشرف عليه الحاجب، وهم يرتدون البياض الذي كان لون الحداد في الأندلس بخلاف المشرق.

وبعد انقضاء أيام العزاء، خرج المنادون من جديد يعلنون أن خليفتهم الجديد الحكم المستنصر بالله يستفتح عهده بتحبيس ربع إرثه من أبيه من الكور والضياع على ثغور الأندلس وفقرائها وضعافها، وأنه يقطع من خاصة ماله ثلاث مائة ألف دينار لافتتاح كتاتيب جديدة في سائر الأحياء لتعليم أبناء العامة ومنها نفقة المؤدبين.

في منزل محمد بن أبي عامر كان الكلام بين الأصحاب الأربعة يدور على مكرمة الحكم. قال زياد بأسلوبه العابث:

- ألم يذكر فيمن ذكر الفقراء والضعفاء؟ وأنا والله فقير. فماذا عليّ لو دوّنت اسمي فيمن تُصرَف لهم النفقة؟

كان محمد مستلقياً على الأريكة فانتصب بجسمه وقال:

- وذكر الثغور وأهلها فيمن حبس عليهم ربع إرثه من أبيه، فإن كنت فاعلاً فاخرج إلى الثغور ودوِّن نفسك في الجند، فتصيب أجر الآخرة، ومعها أجر الدنيا!

اعترض زياد متهكماً:

- أنا أقاتل؟ أنا أقاتل؟ والله لو دخلت في الجند ما زدتهم إلا خبالاً وصرت سبب هزيمتهم.

تدخل عمرو قائلاً:

- على أي حال، نِعْمَ ما استفتح به الحكم عهده.

تمعّض وجه محمد قليلاً وقال معترضاً:

- نعم. ولكن انظر إليها من ناحية أخرى. الربع فقط من إرث أبيه يسع كل هذه المصارف: الثغور، ضعفاء الناس. فقراءَهم! وهذا ربع قسمة الحكم من إرث أبيه، وله ثمانية إخوة! غير الأخوات. فكم خلّف الناصر من خاصة ماله؟ هل تستطيعون تخيل هذا؟

قال علي:

- إنه الخليفة، أعظم الملوك في أعظم ممالك الأرض وأغناها، ثم إنك لتجد في الأندلس رجالاً تزيد ثروتهم على ثروة الخليفة نفسه.

صاح محمد:

- ومن أين جاءتهم هذه؟

قال عمرو:

- ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ردّ محمد بقوله:

- لا اعتراض على أمر الله. القاتل.. القاتل حين يقتل يفعل ذلك في قدر الله، ولا ينجيه ذلك من المسؤولية. هذه الضياع والكور التي حازها الصقالبة والموالي وطبقات أهل الخدمة، ومن يسمونهم بياض البلد. هه! بياض البلد.. ما علمنا أن الله تعالى قد أنزل لهم بها كتاباً فهي لهم من دون الناس.. معاذ الله! معاذ الله! ثم إذا أنفق الخليفة بعض ماله على رعيته، رفع الناس أصواتهم بالشكر والثناء والدعاء.. وهي حقهم.. حقهم.. رُدّ إليهم بعضه.

تدخل عليّ محذّراً:

- نشدتك الله يا محمد! هذا كلام يغضب بعض الفقهاء الذين يبغضون أهل الكلام والفلسفة، ويغضب الخليفة وأهل الدولة، ولا سيما الفتيان الصقالبة. ونحن طلبة علم، وليس لنا ظهير.

قال محمد بنبرة من لا يعبأ بالعواقب:

- الحق أحق أن يقال ويُتَّبَع.

ثم وقف وتمشى قليلاً، ثم ارتد إلى أصحابه مستدركاً:

- ومع ذلك، فهذا كلام نقوله في سرّنا، لا يخرج من هنا لأحد من العالمين.

أطلق زياد ضحكة ساخرة، كتمها حين أرسل إليه محمد نظرة صارمة.

* * *

بدا الحكم شديد الإرهاق والوجوم حين دخل على صبح. أعانته على خلع ردائه بعد أن قبَّلت يده. جلس على حافة الأريكة مطرقاً دون أن يقول شيئاً. كانت ملامحه تنبئ بالحزن والقلق معاً. نزلت صبح على ركبتيها عنده وربتت على يده بحنان.

- لا بأس عليك يا سيدي. لا يمحو عزاءنا بالناصر العظيم، إلّا هناؤنا بأمير المؤمنين.. جعل الله أيامكم أيام سعد يا مولاي.

رفع رأسه ونظر في عينيها دون أن يفارقه الشرود:

- إنها لمهمة صعبة يا صبح.

- أعلم يا سيدي، أعلم.. وأنت صاحبها.

- أعني، لقد أتعب الناصر رحمه الله الخلفاء من بعده، فقد بلغ بالأندلس ما لم يبلغهُ أمير قبله.. و.. أخشى..

توقف عن إتمام العبارة. قالت صبح:

- لا خشية عليك يا سيدي.

- ماذا بعد الذروة؟

- ليس بعدها إلّا ذاتها.

- سوف يقارن الناس. ومن يُقارَن بالناصر؟

تريّثت لحظة مترددة، ثم قالت:

- هل لجاريتك أن تقول يا سيّدي؟

- قولي.

- المهم ألّا تفتأ تقارن أنت، تريد أن تتمثل أباك أو تتشبه به، وليس في الكون إنسان يماثل الآخر، وما تمثل أحد آخر إلّا ظل مقصّراً عن مثاله. ولكن، طرائق العظمة كثيرة، فاختط لنفسك الطريقة التي توافق نفسك، لا الطريقة التي عُرف بها أبوك، فيُلحقك الناس به، كما يُلحقون الفرع بالأصل، وليس الفرع كالأصل يا مولاي.

هزّ رأسه متمعناً بكلامها، فاستدركت على نفسها وقد خشيت أن تكون قد جاوزت حدّ الجارية المملوكة.

- لعلي قد أسرفت في الهذر.

أجاب بسرعة، وهو يرمقها بإعجاب:

- لا، لا. إذا كان هذا هذراً، فلا عاش من طلب الحكمة!

لاحت على وجهها ابتسامة الرضا، وهمّت أن تقبِّل يده من جديد، ولكنه أخذ يدها بيديه وضغط عليها بمحبة وحنان.

على الرغم من تحذيرات عليّ المكرورة لصاحبه محمد من الخوض في المسائل الكلاميّة في دروس الجامع خشية أن يتهمه بعض المتزمّتين في عقيدته فيحرّضوا عليه معلّميه الذين يملكون منحه إجازة القضاء، فإنه لم يكن ليقاوم رغبته في الجدال أحياناً وإن توخّى الحذر في عرض أفكاره.

كان العالم الفقيه أبو الحسن الرندي يلقي درسه على طلبته حين وصل في كلامه إلى مسألة خلافية في التنزيه والتشبيه والصفات، فاكتفى بالإشارة إليها ثم قال:

- وهذه مسألة يحسن ترك الخوض فيها، فقد كثر الكلام فيها عند المشارقة، واختلفت فيها طوائف المتكلمين، وأهل الفلسفة والمذاهب، وقد أفضت إلى فتنٍ عظيمة وشرورٍ كبيرة..

رفع محمد يده متدخلاً وقال:

- هل الشرّ فيها يا سيدي، أم في بعض من تكلموا فيها، إذ تعصّب كل فريق لرأيه، ثم كفّر بعضهم بعضاً؟

قبل أن يجيب الفقيه، سُمِع صوت طالب من الحضور يقال له ابن السريع، ثالث ثلاثة من الطلبة المتزمتين الذين لا يفترقون في الدروس، أما الثاني فيُعرَف بابن المكوِيّ، وأما الثالث فاسمه عبدالملك بن منذر. قال ابن السريع:

- بل الشرّ فيها وفيمن أخطأ الرأي من أهل البدع والضلالات. فلما رأى أهل الصلاح أن هؤلاء يوشكون على أن يفسدوا عقول العامّة، كان عليهم أن يتصدوا لهم فيلزموهم الحق بالبيّنة القاطعة، وإلّا فبالسلطان، فإن الله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

نبرة الردع في كلام ابن السريع لم تزد محمداً إلّا إصراراً، فرفع نبرة صوته:

- أحسب أن هذا الرأي هو أصل البلاء والفتنة.

نفح ابن السريع امتعاضاً، بينما سأل الفقيه مستفسراً:

- وكيف ذاك؟

أجاب محمد:

- من يقرّر وجه الصواب على القطع ليقول: أولئك هم أهل الضلالة، ورأيي هو الحق المطابق لمراد الله، فمن خالفه فكأنما خالف الله،

فحق عليه القولُ وصار دمه حلالاً؟ فإن قالها أحد الفريقين فقد أباح للآخر أن يقول مثل قوله، إذ كلاهما يرى نفسه على الحق. فأين ننتهي من هذا؟

قال ابن السريع وقد زاد غيظه:

– أليس الحقّ بيِّناً كما بيّنه الله تعالى؟ فليس بعد الحق إلّا الضلالة.

أجاب محمد:

– هذا في القطعيات التي لا اجتهاد فيها ولا رأي.

هنا تدخل عبدالملك بن منذر قائلاً:

– وهل ثمة اجتهاد في تلك المسألة؟ فمن قال بتقديم الرأي على النقل فقد قدّم رأي البشر القُصَّر على كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أجاب محمد:

– لا ريب. ولكن وصف المسألة على هذا النحو تلبيس يعقبه تحريض.

انتفض ابن المنذر معترضاً:

– ماذا؟

تابع محمد قائلاً:

– من يقول أنه يقدّم رأيه على كلام الله؟ معاذ الله.

قال ابن المنذر:

– فما القول؟

أجاب محمد:

- لا أرى العقل والنقل ضدّين. بل لا بدّ لأحدهما من الآخر. والذي أنزل الكتاب هَدْياً للبشر، هو الذي خلق العقل وميّز به الإنسان عن سائر الحيوان، وأناط به التكليف، فإسقاط العقل كأنه إسقاط للتكليف، وبه نتعقّل النصّ ونفسّره ونتأول المتشابه منه، وننزله على الحوادث والوقائع. أما ما لم يَرِد به نص قطعي الثبوت والدلالة، فنجتهد فيه بالرأي، وكذلك قال معاذ لرسول الله ﷺ، حين بعثه إلى قوم وسأله كيف يقضي فيهم.

قال ابن المنذر:

- ذلك صحابي جليل لزم رسول الله ﷺ، والوحي يتنزل بالقرآن. وقد ذهبت تلك الطائفة التي في وسعها أن تجتهد فتصيب، لقرب عهدها بالوحي، واكتمل من مجموع اجتهاداتها ما يغني عن الجديد. وليس وراء ذلك إلّا التزيّد والردّ وفتنة العقول.

قال محمد:

- كأنك تنعى الأمّة وتنذر بفنائها. والحق أنه لكل عصر رجاله، وتنشأ فيه مسائل لم يعرفها من كان قبلنا لتطور العمران واختلاف الأحوال، فيكون على العلماء وأهل الحكمة والعقل الرشيد أن يستنبطوا لها من الأحكام ما يوافقها.. وإلّا فتودَّع من الدنيا ومن دولة الإسلام؛ ذلك أنه إن كانت حاجاتها وأشراطها اليوم كحاجاتها وأشراطها قبل مائتي عام، فمعنى ذلك أن الأمّة قد بلغت حدّها، فلا مزيد. وليس بعد حدّ التمام إلا النقصان. فهل هذا ما نخرج به إلى الناس؟ نَسُبّ حاضرهم وننعى مستقبلهم ونُيئسهم من أنفسهم، وكأننا في آخر الزمان؟ وإن كان السابقون قد استوفوا العلم كلّه ولا مزيد، فكيف تصنع بقول رسول الله ﷺ في القرآن: «لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ على طول الردّ»؟

ران الصمت وقد بدا أن محمداً قد أفحم كل ذي رأي مخالف، بينما قام ابن المنذر غاضباً وغادر الدرس، ولحق به ابن السريع. أما المَكَويّ

فلبث جالساً يدقق النظر في محمد، وكان أكثر الثلاثة صبراً وأقلّهم غلظة. وإذ لحظ الفقيه المعلم نظراته إلى محمد، توجه إليه بالسؤال:

– وماذا يقول المَكَويّ؟

أجاب:

– لا أحب المتكلّمين، ولا أُكفِّرهم، معاذ الله. ولكن الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور متشابهات، فمن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحِمى يوشك أن يقع فيه. فما لنا ولهذا الكلام كلّه، وعندنا ما هو خير منه نخوض فيه.

قال محمد موجِّهاً كلامه إلى المكويّ:

– من جديد يا سيدي. كلامك حق. ولكن..

قاطعه المكويّ محافظاً على هدوئه:

– ولكن! في هذا أيضاً!

تابع محمد مفصِّلاً:

– أما النصّ الذي نقلته عن رسول الله، فحق. وذلك هو والنقل. ونحتاج إلى العقل في تدبّره وإنزاله، وإلّا صرفنا القول عن مواضعه. فمن يقرّر الشبهات التي ينبغي ألا نقع فيها؟ نعم.. هناك شبهات يجتمع عليها الرأي، كأنواع من البيوع التي يلتبس فيها الربح بالربا. ولكن الطامة يا سيدي أنّ رجالاً من أهل التزمّت قد جعلوا الحياة كلها شبهات، وبدعوى التحوّط جعلوا الدين كلّه تحريماً، وبذلك ضيّقوا واسعاً. وبقدر ما تضيّق على الناس ينفرون من الدين ويقعون في الفتن ويستحلون الحرام الذي لا شك في حرمته. ذلك أن كثرة الممنوع تزيد من احتمال الوقوع فيه لزيادة الحرج وصعوبة التوقّي، فإذا أقدم أحدهم على عمل يتوهم حرمته، وما هو بحرام على الحقيقة، هانَ عليه بعد ذلك اقتراف

الحرام على الجملة. وبذلك نكون قد أوردنا الخَلْق ما أردنا أن نجنبهم إياه. فهل هذا هو الرأي؟

لم يملك الفقيه المعلّم إلّا أن يبتسم راضياً، وهو ينظر إلى محمد بعين الإعجاب، بينما سرت همهمة بين الحضور بين مؤيِّد ومعارض كما دلّت ملامحهم وهزّات رؤوسهم.

أما ابن السريع وابن المنذر فكانا يتميّزان غيظاً وهما يقطعان صحن المسجد، قال ابن السريع:

- دعيٌّ وخبيث.. والله ما قال إلّا بعضاً مما في نفسه.. ما يظن أنه لا يخرج به عن الحد، ولو اطمأن وأفصح لسمعنا منه كلاماً من كلام المعتزلة والمرجئة والباطنية.. وربّما الدهريّة، وسواهم من أهل العقائد الفاسدة.. فإن البعرة تدل على البعير، والظاهر القليل ينبئ عن الباطن الكثير..

هنا سمعا صوت المكويّ وقد أدركهما:

- ربما كان كما تقول.. ولكن، لا نبخسه قوة بيانه وحجاجه.

وقبل أن يعترض ابن السريع على ما بدا ثناءً من المكويّ، استدرك هذا قائلاً:

- وهذا أخطر ما فيه!

ردّد ابن المنذر مؤيِّداً:

- هذا أخطر ما فيه!

ذاع خبر تلك المناظرة بين طلبة الجامع وشيوخه، ومعه ذكر محمد بن أبي عامر. أما من وافقه الرأي فسرّهم أن يجدوا فتى جريئاً قوي العقل والحجة يجرؤ على التصدّي لذلك النفر من المتشددين فيفحمهم ويلجمهم.. دون أن ينزلق إلى التفريط ردّاً على الإفراط، فيهدف نفسه للتهمة كما

حصل مع آخرين. فالمتزمتون وإن كانوا قلّة فقد كانت الكثرة تخشى الدخول معهم في السجال، إذ كانوا أعلى صوتاً وأقدر على إثارة العامة التي كانت أكثر انفتاحاً وتسمحاً في مظاهر الحياة منها في أمور العقيدة.

حتى أوتو وشارل بلغهما خبر المناظرة، وقد بلغا الآن من إتقان العربية ما يمكنهما من فهم تلك المجادلات وما يرد فيها من الآراء. وكان أشدّ ما يثير إعجابهما وتعجبهما أن يكون الجدال في موضوعات الدين والعقائد مفتوحاً لكل الدارسين وأصحاب الرأي. ففي بلادهم يختص رجال الكنيسة وحدهم بهذه الأمور، وليس على الآخرين إلّا السماع والتلقي والطاعة. وما كان بوسع هؤلاء أن يجادلوا على كل حال لعموم الجهل والأميّة. وما كان رجال الدين ليلقوا عليهم مسائل شائكة في الإلهيات التي لا تتسع لها عقولهم، ولا حاجة لهم بها. إنما كان الكلام في جلّه وعظاً وقصصاً وأخباراً لتثبيت الإيمان وتوجيه السلوك. ومع ذلك يدرك أوتو وشارل الآن أكثر من أي وقت مضى أن أثر تلك المواعظ كان محدوداً في حياة الناس، لا سيما أهل الحكم والأشراف. وعلى الرغم من تمسك كل منهما بدينه وذهابه إلى الكنيسة في قرطبة كل أحد فإن سجالات المسلمين في كليات الدين وطرق التفكير فيها، حفزتهم على التحاور فيما بينهما وإرجاع النظر في الكثير من المسائل والأفكار التي نشأوا عليها. وقد منحهما ذلك شعوراً لذيذاً بالحريّة، وإن تواصيا فيما بينهما ألا يخرجا بذلك على غير المقربين الموثوقين من أهل ملّتهما كيلا يتعرضا لتهمة التجديف، وأسوأ من ذلك تهمة التلوّث بعقائد المسلمين. حسبهما من التهمة ما يشيع عن رجال الدين من الاعتراض على إقبال الكثيرين من أمثالهما على الدراسة في قرطبة، ثم تفاخرهم بإتقان العربية وحفظ آدابها والانصراف عن اللاتينية، حتى إن أحدهم إذا رجع إلى قومه تعمّد أن يخلط كلامه ببعض المفردات العربية قبل أن يحاول ترجمتها لسامعه ليستعرض علمه ومعارفه ويستعلي بها على الآخرين. وربّما آثر أن يؤلّف شعراً أو يدبّج نصّاً بالعربية لا يحسن مثله باللاتينية. فإذا عوتب في ذلك قال: لا تواتيني مثل هذه

المعاني باللاتينية. فأنا أحوك على مثال النصوص التي اكتسبتها بالعربية، ولا أجد أمثالها في اللاتينية. وكل ذلك كان يزيد رجال الدين غيظاً، فيرفعوا عقيرتهم بالشكوى والنقد اللاذع، بل التشكيك في صدق العقيدة.

وحين التقى محمد بن أبي عامر بصاحبيه أوتو وشارل، فوجئ بشارل يرتدي ثياب الأندلسيين العربية. فسأله:

– ما هذا يا شارل؟

أجاب شارل محققاً حروف العربية، ناطقاً اسمه على طريقة العرب:

– قارله.

ضحك محمد ومن معه.

– قد رضيت أخيراً بلفظ العرب لاسمك.

تدخّل أوتو مفسّراً:

– إذا كان قد استعرب، فهو قارله حقاً.

قال محمد مخاطباً شارل:

– لهذا ترتدي ثياب العرب؟

استعرض شارل ثيابه وقال:

– هل تعجبك؟

– ماذا قلت؟ تعجبك؟ نطقت العين أخيراً.. حقاً قد تمّ استعرابك.

سأل علي:

– هل سترجع بها إلى بلدك؟

فاجأهم شارل بالقول:

– لن أعود إلى بلدي. هذا هو بلدي الآن.

ازداد محمد وعلي دهشةً، وقال محمد:

- ماذا قلت؟

- كما سمعتني.

قال شارل ذلك وتعمّد أن يتلبث في تحقيق حرف العين. وتولّى أوتو الشرح:

- بلد الرجل، حيث بلد زوجه!

تفحّصهما محمد وعليّ بنظرات استطلاع واستزادة. وهنا تولّى شارل الشرح بنفسه.

- يعني أني قررت الزواج من قرطبية أحببتها.. مستعربة. وقد اشترط أهلها عليّ ألّا أخرج بها من قرطبة إن كنت راغباً فيها حقّاً. لا يريدون مفارقتها.

قال محمد:

- وغلبك العشق!

تدخّل أوتو من جديد:

- قل أكثر من ذلك.. فلو رأيته وهو يقف تحت شرفتها يضرب على العود، ويغني أبياتاً من شعر قيس!

هتف محمد مندهشاً:

- قيس المجنون.. مجنون ليلى؟

أجاب أوتو:

- قد صارا الآن مجنونين: مجنون العرب، ومجنون الفرنج؛ وليلتين..

قال محمد مصححاً:

- تعني ليلاوين!

أسرع أوتو بالتصحيح:

- نعم، نعم، ليلاوَيْن.

قال محمد:

- واسمها ليلى كذلك؟

أجاب شارل:

- ذاك اسمها العربي. وهو أحبّ إليّ من اسمها الفرنجي. على الأقلّ أستطيع أن أغني لها أشعار قيس العربي في ليلاه. فيوافق ذلك اسمها.

ثم أنشد من شعر قيس:

أحب من الأسماء ما وافق اسمها

أو أشبهه أو كان منه مدانيا

هتف عليّ:

- الله الله. لو كان زياد هنا لضجّ راقصاً وقال: ألم أقل لكم إن الحبّ والزواج خير وسيلة لإتقان العربية وآدابها؟

علّق محمد:

- إلّا أن قيس الفرنج أحسن حظاً من قيس العرب. ولكن، بقي عليك يا شارل.. قارله.. أن تصنع لها أنت من شعرك لتتمّ الموافقة.

قال شارل بثقة:

- سأصل إلى ذلك بعد وقت.

علّق عليّ ممازحاً:

- إذا تعجّلت الزواج فلن تصل إلى ذلك أبداً. ذلك أن أشعار العشق، لا سيّما العذريّ منه، لا تصلح مع الزوجة بعد أن ينطفئ الشوق وتنقضي الرغبة وتذهب الألفة باللهفة!

مكتبة
t.me/t_pdf

صاح به محمد:

- غفر الله لك يا عليّ. تنفّر الرجل من الزواج من أجل أن يقول شعراً؟ أما قيس العرب فطلب ولم يَنَلْ مرغماً. فهل نطلب الآن من قيس الفرنج أن يحرم نفسه من محبوبته طوعاً؟ لا كان الشعر ولا كان أهله.

ضحك الجميع، وعاد محمد للكلام مخاطباً شارل:

- وأين خطتك في أن تنقل إلى قومك صنعة الطب وصنعة الموسيقى.. علاج الأبدان، وعلاج الأرواح؟

أجاب شارل:

- قد تخلف قومي عن كل هذا مئات الأعوام، يستطيع قومي أن يصبروا أعواماً أخرى.. لن أكون المخلّص على كل حال! ولن يرضوا مني وإن حاولت.

زاد أوتو عليه بالقول دون تردد أو حرج:

- بل قل، لا تريد أن يصلبوك هناك إذا رجعت إليهم بكل علوم الطب التي تعلمتها هنا.. كفر.. هرطقة.. ردّة.. وثنية اليونان وفوقها كفر العرب. وهل للأمراض سبب غير الشياطين؟! فقط اثقب جمجمة المريض كي يخرج منه الشيطان. وفي العادة يخرج الشيطان.. لأنه لا يبقى في جسد ميّت!

ضحكوا من جديد، وقال شارل:

- كما قلت يا أوتو. لم أكن أجرؤ على قول هذا بيني وبين نفسي.

قال أوتو:

- وكذلك أنا.. ولن أقوله حين أرجع إلى بلدي، حتى لو ثقبوا رأس أمي! لا أريد أن أجازف بمنصب السفير!

سأل محمد مستغرباً:

- السفير!

هز أوتو رأسه وتابع مفسّراً:

- ليس كل أمرائنا على مذهب رجال الدين.فمنهم من يحسد قرطبة على ما وصلت إليه من الرقيّ، ويتطلعون إلى التقليد ولو كره رجال الدين. ومثل هؤلاء يقرّبون أمثالي ويجعلونهم في أهل مشورتهم. ولقد شاهدت مواكب السفراء الذين قدموا قرطبة. وحلمي الآن أن أرجع إليها في يوم ما سفيراً.

تأمّله محمد معجباً بطموح يوافق طموحه. أما شارل فعاد إلى الكلام قائلاً:

- أما أنا فقد شعرت بالارتياح حين اشترط عليّ أهلها البقاء في قرطبة، كنت متردداً، فأنهوا ترددي.. أعني بعد الوقت الذي قضيته هنا والأشياء التي رأيتها وعملتها وتعلمتها، علمت أني إذا عدت إلى بلدي فسوف أنكر الناس هناك، و.. ينكرونني. سوف أشعر أنني غريب بين أهلي وقومي. لم يعد مزاجي كمزاجهم، ولا اللغة التي أحب أن أتحدث وأكتب بها كلغتهم.. ولن أجد هناك شيئاً مما تمنحني قرطبة. هل تفهمون قصدي!

ثم نظر إلى محمد وعلي متملياً واستأنف:

- ولكن كيف تفهمان أنتما هذا ولم تجرّبا كالذي جرّبت.. أعني قد ألفتما كل هذا حتى ظننتم أنه الأصل.. تحصيل حاصل كما يقول علماء

المنطق والرياضيات هنا.. ولكن أين تجدون كل هذا في غالة وبلاد اللمبارد؟

وأشار بإصبعه مستعرضاً مظاهر المكان والحياة حوله، بينما زاد أوتو بالقول:

- وبلاد الألمان.. بلادي.

استأنف شارل شارحاً:

- علوم.. فنون.. ألوان زاهية.. طرق نظيفة.. بيوت وعمائر بديعة.. ألوان الطعام.. أنواع الأثاث.. الثياب المريحة الجميلة.. النظافة والحمامات. قنوات الرخام التي تصل بالماء النظيف إلى البيوت والأحياء، والقنوات التي تخرج بالماء القذر إلى خارج المدينة.. المراحيض أو الكُنُف التي تغني الناس عن الخروج إلى الخلاء أو تقذير بيوتهم وأحيائهم..

والناس.. الناس من مختلف الألوان والأعراق والأديان والألسنة، مثل ألوان قوس قُزَح. وهل يكون جماله إلّا باختلافها وتنوّعها؟ أما هناك فالناس لون واحد.. لسان واحد.. دين واحد..

أكمل أوتو:

- والجهل.. الجهل واحد!

أطرق محمد متفكّراً، ثم رفع رأسه وخاطب شارل:

- بقدر ما يرضيني كلامك عنا، بل يطربني سماعه، فإن شهادة الصدق تلزمني أن أقول: لم تنصف قومك حين آثرت البقاء هنا. فكيف يتغيّرون إلّا بأمثالك ممن درسوا هنا، واكتسبوا من المعارف ما حقهم أن ينقلوه. ولا تقل: لا يتغيّرون. فلا شيء يثبت على حاله. وليس من رأي أفسد من رأي القائل: هذا آخر الزمان. وهو يصحّ فينا وفيكم على اختلاف ما بيننا من أسباب الرقيّ. نحن لم نكن هكذا حين كان

أجدادنا يعيشون في جزيرة العرب قبل الإسلام. ولم نكن هكذا أول قدومنا الأندلس.

تريث لحظة وقد اكتسى وجهه بالتأمل والشرود، مستدعياً حواره مع المتزمتين. ثم تابع بنبرة ذاتية تأمّلية:

- وأسأل الله تعالى أن نكون بعد مائة عام أحسن مما نحن فيه الآن، وألّا يأتي علينا زمان نقول فيه: أين كنا، وأين أصبحنا!

أحب الآن أن يغيّر جوّ الجد إلى شيء من الترويح والمتعة، فخاطب شارل بنبرة جديدة:

- هيّا.. أسمعنا الآن شيئاً مما كنت تغني لصاحبتك.

دندن شارل على عوده، وقبل أن يسترسل نظر إلى محمد وقال:

- ولكن، قل لنا أولاً، ألم تعشق يوماً؟

فاجأه السؤال، ولأمر ما أثار فينفسه شجناً، فعاد إلى شروده إذ وجد نفسه بلا إرادة منه، يسترجع صورة تلك الجارية التي ظنّ أنه قد نسيها تماماً.

* * *

أمّا تلك الجارية التي أصبحت محظية الخليفة ومعشوقته دون غيرها من نسائه، يأوي إليها كلما انقضى نهاره، فعلى الرغم من أنها لم تحاول قط طرد صورة الفتى الوسيم كلما تمثل لها من جديد، فإن ذلك لم يصرفها عن التمتع بما يمنحه لها مقامها في القصر وحظوتها عند الخليفة، ولا عن استعمال فتنتها في امتلاك قلبه وعقله وسمعه وبصره. فقد أدركت قوتها في نفس أقوى الملوك، والقوة تغري باستعمالها. وللنفس والجسد حاجات حاضرة، لا تغني عنها أحلام مضمرة!

ففي تلك الساعة من أول الليل، حين كان شارل في منزل محمد يدندن على عوده، كانت هي أيضاً تحضن عودها وتنقر عليه نقرات خفيفة عذبة، بينما كان الحكم منشغلاً في القراءة وهو جالس على أريكته في جناحها، كعادته قبل أن يأوي إلى الفراش. وإذ تعمّدت أن تزيد في قوة النقرات، رفع رأسه ونظر إليها. قالت:

- هل يزعجك صوت العود؟

هز رأسه بالنفي وقال بصوته الهادئ المألوف:

- بل يهدّئ نفسي.. و.. يعينني على التأمّل فيما أقرأ..

وعاد إلى النظر في المخطوط. وإذ مرّت لحظات أخرى من الصمت، عادت إلى الكلام.

- ما هذا الكتاب الذي يشغلك عني؟

- العقد الفريد.

- ابن عبد ربّه !

رفع رأسه من جديد ونظر إليها متعجباً.

- وتعرفينه؟

أجابت بنبرة تمزج بين الاعتراض والدلال:

- تقولها بلهجة من فوجئ بالشيء من غير جهته، ألا ترى يا مولاي أن العقل والجمال قد يجتمعان؟

هزّ الحكم رأسه مؤيّداً وقال بنبرة التأكيد وهو يتملّى بها:

- بلى، يجتمعان. لا ريب.

ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة ساحرة، وشجعها قوله على المزيد:

- بل عندي ما أصحح به على ابن عبد ربه ذاك!

جفلت ملامحه دهشة وعجباً:

- ماذا؟ ابن عبد ربّه! قد بزّ علماء عصره. وهذا كتابه من أنفس الكتب.. لا غنى لمتعلم عنه.. وأنا لا أفتأ أعيد القراءة فيه ولا أمَلّ.

قالت بنبرة واثقة:

- نعم.. ولكن، لكل حصان كبوة، ولكلّ صارمٍ نَبْوة، ولكل حكيم هفوة.

تساءل الحكم وقد زاد تعجبه:

- وما هفوته؟

- إنكاره أن الأرض كرويّة كما استقرّ عليه علم الفلك. وله في ذلك شعر مشهور يهجو به الفلكي أبا عبيدة لقوله بكروية الأرض.

اتسعت عينا الحكم إعجاباً وتعجباً:

- وتعرفين هذا أيضاً؟

همّت أن تعاتبه من جديد على مغزى التعجب، فأسرع بالكلام مستدركاً:

- نعم.. العقل والجمال. ولكن هذا خبر لو سمعته من رجل لتعجبت منه.

قالت بنبرة مشوبة بالسخرية:

- فكيف حين يأتي من جارية؟

ابتسم من جديد ابتسامة عريضة وقال:

- ألا تفوّتين شيئاً لمولاك؟

عاد للنظر في الكتاب، بينما أخذت تتلمّس عودها بأسلوب حميمي خاصّ كمن يتلمّس إنساناً محبوباً. والتقط الحكم ذلك بطرف عينه، فعلّق قائلاً:

- إنك لتحبّين هذا العود!

أجابت ببهجة مبطنة وهي تنقل بصرها بين العود الذي تحتضنه والحَكَم:

- العشرة يا مولاي.. تُؤَلِّف.. وإنّي لآنسُ به على قدر ما أونِسُ به!

- تصفينه كأن به حياة.

- أصابع الصانع الماهر تبعث فيه الحياة! .. فإذا اهتزّت الأوتار اهتزت معها القلوب!.. هل تعلم يا مولاي أن كل وتر فيه يقابل عضواً من أعضاء الجسم، ولذلك صُبغ كل منها بلون يشاكل ذلك العضو؟

نقرت الوتر الأول المصبوغ بالأصفر.

- الزير.. أصفر.. يقابل الصفراء في البدن.

ثم نقرت الوتر التالي:

- المَثْنى.. أحمر.. بمنزلة الدم في الجسد.

ثم نقرت الثالث:

- المَثْلَث.. أبيض.. كالبلغم في الجسم.

ثم نقرت الرابع:

- البَمْ.. أسود.. بمنزلة السوداء في البدن.

ثم مسحت على مجمل العود وضمته إلى صدرها بأسلوب مثير.

- فيأتلف من هذه كلها الجسم بمجمله. هذا فضلاً عن مقابلة الأوتار بالطبائع الأربع في البشر.

هنا عادت تجسّ الأوتار من جديد تباعاً مع الشرح.

- البمّ. حار يابس.. يقابل المَثْنى، وهو حار رطب. والزير حارٌّ يابس ويقابل المَثْلَث وهو حارٌّ رطب. وبذلك يُقابَلُ كل طبع بضدّه حتى يعتدل ويستوي كاستواء الجسم بأخلاطه.. و..

أرسلت إلى الحكم نظرة إغراء ساحرة وهي تكمل:

- كما ينجذب الزوج إلى زوجه.. فبه يكتمل.

وضربت على مجموع الأوتار مع العبارة الأخيرة ضربة واحدة وتابعت:

- وبه.. يعتدل!

قالتها مع ضربة أخرى ثم عادت تضم العود إلى صدرها وتنظر إلى الحكم بطرف فاتر أيقظ حواسه كلها وبعث فيه جمر الشباب القديم.

- فهل تعجب بعد ذلك يا مولاي أن قابلت العودَ بالبشر؟

هنا أطبق الحكم الكتاب بحركة سريعة وانتصب واقفاً ثم مشى مسرعاً نحو باب المخدع وقال:

- قد تقدّم الليل. ألا نأوي إلى فراشنا؟

دخل المخدع منتظراً لحاقها به، بينما لاحقته بأنظارها مع ابتسامة فوز عريضة.. نهضت ووضعت العود إلى جانب الكتاب، ثم دخلت المخدع وأغلقت الباب.

لا عجب في أن تملك صبح على الحكم لبّه وحواسه وأن توقد منه جذوة شبابه الغارب حتى لم يعد يصبر على فراقها يوماً، وهو الذي عُرف باعتدال المزاج والرزانة الفائقة. فلما خرج إلى الصيد بضعة أيام غلبه الشوق إليها فرجع متعجِّلاً. وقال شعراً ما كان يحسب أنه يُحسنه.

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت

وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي

فيا مقلتي العبرى عليها اسكبي دما

ويا كبدي الحرى عليها تقطعي

ولمّا باح بذلك الشعر للرجل الوحيد الذي يمكن أن يطلعه على سرائره، وهو جعفر المصحفي، علّق هذا متعجباً:

- ما رأيت أمير المؤمنين تملك لبّه امرأة قبل الآن!

- لم تكن ثمة امرأة قبل الآن يا جعفر!

- ألهذا الحدّ؟

- بل هي نساء في امرأة واحدة.. كل شيء فيها يبعثني شابّاً. كلامها.. جمالها.. حركتها..

توقف وقد انتفض بجسمه كأنه يصحو من غفلة دهمته على غير إرادة منه، وقال مستدركاً:

- ولكن، ما لي أَصِف امرأتي لغير محرم؟

قال المصحفي مهوِّناً عليه:

- ولكنها جاريتك يا مولاي، وإن حَظِيَت عندك.

أجاب الحكم بلا تردد ولا تحفظ:

- مع مثلها تسقط القسمة.. فلا حرّة ولا جارية.. امرأة فقط.. امرأتي.. ولا مثلها امرأة.

ثم مالَ على المصحفي وهمس بنبرة مشوبة بالدعابة:

- اكتم هذا عني، إن شئت أن يخرج مرسومي بتوليتك الحجابة!

غلب الفرج على المصحفي فهتف قائلاً:

- بل أكتُم نَفَسي إن شئتَ يا أمير المؤمنين!

سبقه الحكم في المشي في حدائق الزهراء بنشاط غير معهود. ولحق به المصحفيّ وهو يوشك أن يتقفز من السعادة، لولا هيبة الخليفة من أمامه، ومكانة الحاجب الذي صار إليها منذ الآن.

* * *

ولكن الخليفة نفسه هو الذي خرج عن طوره ورزانته فرحاً حين علم في ذلك المساء أن «صبح» حامل. أمسك بيديها وقال بصوت متهدّج وهو يغالب دموع الفرح:

- قد جعلتني أسعد الناس يا صبح. وما زلت منذ ثلاثين سنة مهموماً بهذا الأمر، لا أذوق طعم الهناء، وأغبط الرجل من العامة وأنا ابن الخليفة وولي عهده ثم الخليفة.. والآن بعد أن يئست ووطنت نفسي على اليأس.. أخيراً، ساق الله تعالى لي السعد معك.. فكيف أكافئك؟

قالت بنبرة عتاب:

- تكافئني؟ إنني أحمل ولدك وولدي يا سيدي. فإن كنت ستكافئني عليه، فكيف أكافئك أنت عليه، وأنت سيد الدنيا؟

أخيراً توقف عن مغالبة دموعه فتركها تنزلق على خديه ولحيته دون حرج.

أخيراً جاء وقت الرحيل. وأبى محمد بن أبي عامر وعمرو وعليّ وشارل إلّا أن يشيّعوا صاحبهم أوتو إلى خارج قرطبة. كان يجرّ وراء حصانه بغلاً محملاً بالكتب، وكان يبدو حزيناً شارداً. وإذ بلغوا موضعاً معيّناً توقف والتفت ليلقي على قرطبة نظرة أخيرة من بُعْد، قبل أن تغيب عن الأنظار. ثم نظر إلى أصحابه وقال:

- يكفي هذا. يجب أن أودّعكم الآن.

قال محمد:

- ألا تغيّر رأيك؟ أعني بضعة شهور أخرى.

- لو أطعت قلبي لما أحببت أن أفارق قرطبة ولا أن أفارقكم أبداً. ولكن كان يجب أن أحسم أمري الآن، لأني أدركت بعد تفكير أني لو أقمت شهوراً أخرى فلن يكون بوسعي أن أتخذ قرار العودة إلى بلدي..

عاد يرسل نظرة إلى قرطبة البعيدة واستأنف:

- قرطبة.. امرأة شديدة الغواية.

أطلق تنهيدة حرّى وقال:

- أعانني الربّ، من قرطبة البهيّة الزاهية، قرطبة الشمس والربيع والموسيقى والحياة بكل ألوانها وأصواتها ومهرجاناتها، إلى بلاد الألمان! إلى الغابات المظلمة والقرى الفقيرة المملّة والطقس المكرب، واللحى الطويلة المشعثة، والوجوه العابسة المتسخة، والأجسام التي لم يمسّها الماء

والصابون منذ دهر! نعم سأفتقد حمامات قرطبة على نحو خاص.. وسأفتقد أكثر من ذلك رجلاً يحاورني بالعربيّة!

ذهب محمد ببصره إلى الأسفار المثبتة على ظهر البغل.. قال أوتو:

- نعم، هذه الكتب ستؤنس وحشتي هناك.

ثم انتفض بجسمه وقال بلهجة أخرى:

- ولكن، لماذا كل هذه العواطف، أخشى أن تتغلّب عليّ فتنزل دمعتي.. ولا يليق ذلك بسفير الألمان. فنحن شعب صلب محارب.. هيا، عودوا لا تجعلوني أضعف أمامكم.

ترجّل الجميع عن جيادهم، واحتضنهم أوتو واحداً تلو الآخر، حتى إذا وصل إلى محمد احتضنه بحرارة خاصة وقال:

- محمد.. صديقي محمد.. لن أنساك.

قال محمد:

- وأنا كذلك.

- ستكون قاضياً عظيماً إن شئت. المهم ألّا تيأس.

ابتسم محمد ابتسامة خفيفة غامضة، وتابع أوتو:

- إذا عدتُ سفيراً إلى قرطبة في يوم ما، ورأيتَ موكبي يحيط به الحرس والجند، فلا تخش شيئاً.. اخترق الصفوف وتقدّم نحوي. فإن منعك العسكر، صح بي. وأنا أميّزك، فآمرهم أن يخلوا لك السبيل إليّ!

اكتفى محمد بالابتسام من جديد، بينما عاد أوتو لامتطاء جواده، رفع يده بتحية أخيرة ومضى مبتعداً. مكث الأصحاب وقتاً يشيعونه بأبصارهم. ثم بادر محمد إلى جواده، وكذلك فعل الآخرون، ثم ارتدوا عائدين. ومكثوا على وجومهم وصمتهم طوال طريق العودة من وحشة الفراق.

في دكان أبي القاسم كان محمد منشغلاً بطيّ الأقمشة وترتيبها، حين أقبلت عليه فتاة يافعة بخطى سريعة واثقة. تلقاها محمد من فوره وبادرها بالسؤال:

- ما طلب السيّدة؟

أجابت دون تردد:

- ثلاثة دنانير.

اهتزت ملامح محمد مندهشاً وتفحّصها مستعرضاً هيئتها وهندامها ثم قال:

- قد رأيت من غرائب الدنيا، ولكني لم أرَ قبل الآن فتاة حسنة المظهر والهندام تطلب صدقة.. وثلاثة دنانير دفعةً واحدة؟

جفلت الفتاة وتراجعت خطوة إلى الوراء وأرسلت إليه نظرة استنكار واحتجاج وقالت بنبرة غاضبة:

- صدقة! أنا..؟ صدقة!

رمقها مجدداً بنظرات حائرة، ثم تقدم برأسه نحوها، وتحدث بصوت خفيض ذي مغزىً خاص وهو يحرّك إصبعه أمام وجهها .

- لستِ من أولئك اللواتي.. أعني.. ذلك النوع من.. أعني.. هذا مكان محترم.

هنا انفجرت الفتاة بغضب جارف:

- ما الذي تهذي به أيها الـ.. أهذا هو الفتى الذي ما زال أبي يتحدث عن عقله وعلمه.

ازداد محمد دهشة وحيرة:

- أبوكِ؟

- والله لأشكونّك له.

- أنتِ.. ؟

قاطعته وأتمت عنه:

- أنا ابنة مخدومك.

قال بدون تردد:

- لست خادماً لأحد.. أنا..

قاطعته من جديد بنبرة حازمة:

- ماذا أنت إذن؟ هل أخطأت دكان أبي؟ والآن، هات النقود لأمضي.

همّ أن يخرج لها النقود، ولكنه توقف وعاد ينظر إليها مستريباً.

- وما يدريني أنك ابنة أبي القاسم حقاً؟ أعني أنا لم أرك من قبل. أهل الكُدية في قرطبة يتفننون في طرق الاحتيال.

- أنا من أهل الكُدية؟

- لا أدري. ولا أدري أيضاً إن كنت ابنة الرجل. وهذه أمانة.

تراجع غضبها الآن إذ أعجبتها أمانته، واكتفت بنفخة الحائر في أمره وقد أعجزته الوسيلة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وجاء الفرج فوراً مع ضحكة ساخرة أطلقها طريف، جار أبي القاسم في السوق. توجه محمد والفتاة ببصريهما إليه. هز رأسه بالتحية للفتاة وقال:

- كيف حال السيدة عائشة؟

ثم تحوّل ببصره إلى محمد وتابع يُسْمِعه:

- ابنة صاحبنا الرجل الطيب أبي القاسم.

حاول محمد أن يتجنب نظراتها وقد لاحت على وجهها ابتسامة الفوز والتهكم، وأخرج لها النقود، وإذ استدارت للذهاب، عادت والتفتت إليه قائلة:

- أهذا وجه فتاة من أهل الكدية والتسوّل، أيها الفَطِن؟ إن لم تكن عرفتني من قبل بالعيان، فأين فراسة اللبيب؟

لاحقها محمد ببصره إذ أخذت في الابتعاد، بينما أطلق طريف ضحكة ساخرة. ردّد محمد كأنه يخاطب نفسه:

- بلى.. أين فراسة اللبيب؟ .. ولكل حصان كبوة.

دعاه طريف إلى أن يشاركه طعام زوجته، ونادى مالكاً لينضم إليهم. وقبل أن يمدّوا أيديهم إلى الطعام، شعروا بحركة غير عادية في السوق، فرأوا جوهر الصقلبي يتمشى بخيلاء في نفر من جماعته. قال مالك هامساً:

- قبّح الله ذلك الوجه. لم نره منذ وقت حتى حسبنا أننا استرحنا من خلقته. يحسن أن أعود إلى دكان صاحبي.

تركوا الطعام، وعاد كل منهم إلى دكانه وتشاغل بعمله وهو يسترق النظر إلى جهة جوهر. وحين صار هذا عند دكان أبي القاسم التفت فجأة إلى حيث يقف محمد الذي حاول تجاهله. تردد جوهر لحظة ثم أقبل على الدكان، وصاح بغلظة:

- أنت صاحب الدكان؟

قال محمد بصوت هادئ:

- لا.

- آه.. أجير!

أخفى محمد امتعاضه وقال:

- هل للسيد حاجة عندنا؟

أجال جوهر بصره في الدكان ومعروضاته ولحظ وجود أقمشة فاخرة ثمينة، فسأل:

- عندك من حرير غرناطة؟

قال محمد بلهجة عارضة:

- لا أظن ذلك!

- لا تظنّ؟

ثم أشار إلى لفة كبيرة وتابع:

- وماذا تسمي هذا؟

التفت محمد إلى حيث أشار، وبدا عليه بعض الحرج:

- آه.. ما ظننت هذا يصلح للسيد المبجّل. فهو للنساء.

قال جوهر متهكماً وهو يقتحم محمداً بنظراته:

- ألا يُهدي الرجل نساءه؟ ماذا.. أنت أحمق؟

كظم محمد غيظه، بينما التفت جوهر إلى أصحابه وقال بمزيد من الاستهزاء:

- هل سمعتم؟ أليس أحمق؟

هزوا رؤوسهم تأييداً وهم يتضاحكون. وقال محمد:

- والآن، أقطع للسيد منه؟

- هاتِه كلّه.

سأل محمد متعجباً:

- كُلّه؟!

- أحمق وأصَمّ؟ ألم تسمعني.. قلت: كلّه.. أريده كلّه أيها الصبيّ.

تمالك محمد نفسه، وجاءه بلفة القماش على ضخامتها، وناولها جوهر لأحد معاونيه.. ثم استدار ليمضي.. ولكنه فوجئ بمحمد يستدرك عليه:

- ألم ينسَ السيد شيئاً؟!

استدار جوهر ونظر إليه بوجه متجهّم نظرة استفهام واستنكار.

قال محمد:

- الثمن!

ازداد جوهر تجهّماً وتبادل مع أصحابه نظرات تنم على التعجب، فهذا الفتى لا يعرف كيف تمضي الأمور مع أصحاب الشوكة والسيف والسوط. ولكن جوهر آثر تجاهل الفتى والمضي في المشي. وفجأة قفز محمد وأسرع إلى جذب لفة القماش من على كتف حاملها قائلاً:

- ليس في وسع الرجل أن يبذل ما لا يملك.. وأنا لا أملك هذا.. وهي أمانة..

انقدح الشرر في عيني جوهر وهزّ سوطه بينما أمسك أصحابه بمقابض سيوفهم وقد تجمّع الناس على بُعد ينظرون، وكان أكثرهم تخوفاً «مالك» و«طريف». وفي تلك اللحظة الخاطفة التي بدا فيها أن الموقف قد تحوّل إلى مواجهة مهلكة، سُمِع صوت أبي القاسم وهو يندفع إلى المكان مهرولاً، وخاطب «جوهر»:

- أنا أملكه.. العفو يا سيدي.. مبارك لك ولمن يلبسه.. لا تؤاخذ الفتى.. إنه جديد هنا.. وقد حسب أنه يحسن صنعاً.. تعلم كيف يكون الشباب!

أرسل جوهر نظرة غاضبة إلى محمد الذي دفعه أبو القاسم إلى الخلف، ثم خاطب أبا القاسم:

- يحسن بك أن تجد لك صبياً آخر غير هذا الأحمق.. إن كنت حريصاً على تجارتك.

هز أبو القاسم رأسه بضع هزات وقال:

- ربّما فعلت.. ربّما فعلت.. على بركة الله يا سيدي.

مضى جوهر وجماعته، وارتد أبو القاسم إلى دكانه وهو يضع يده على ظهر محمد، وتنفس الناس الصعداء. ولكن محمد لم يسكن عنه الغضب والشعور بالمهانة. فقال معاتباً أبا القاسم:

- كيف ترضى أن تنزل له..

قاطعه أبو القاسم بنبرة حازمة:

- .. ولو طلب فوقها نصف بضاعتي لأعطيته. ولو تأخّرت لحظة لقتلك ثم أحرقِ الدكان. فهل ذلك أولى؟ .. داروا سفهاءكم.. ألم تسمع بهذا وأنت القارئ؟

أجابه محمد بنبرة قوية تكافئ نبرته:

- وقرأت أيضاً ما هو أحسن منه في كتاب الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورى:39]. وليس الثوب هو الذي أهمّني.. ولكن، أين المروءة؟ أين الحميّة؟ أين الكرامة؟ ألا تكافئ هذه حياة الرجل؟

أطرق أبو القاسم واجماً وهز رأسه يميناً وشمالاً واكتفى بالقول:

- خلصنا الله من شرورهم.

مرّت لحظات صمت ووجوم. ثم قال محمد بصوت هادئ:

- العفو يا سيدي. ولكني لا أستطيع العمل في مكان لا أستطيع حفظه.

قال ذلك ومضى مبتعداً، ولم يفلح نداء أبي القاسم في ردّه. ولئن ظن أهل السوق أن تلك المواجهة قد مرّت على خير، فلسوف يخيب ظنهم بعد قليل فقط. فإذ وصل جوهر مع عصبته إلى موضع آخر من السوق، كانت عائشة ابنة أبي القاسم تخرج من إحدى دكاكين الحليّ لتصادف جوهر قادماً من الجهة الأخرى، فانحرفت بنفسها إلى جانب الطريق. ولكنها فوجئت بجوهر يسدّ عليها طريقها بعد أن جذبت بصره بحُسْن وجهها وهندامها وحلتها:

- لماذا العجلة؟ مشيُ الهُوَينى أليق بالفتاة المليحة.

حاولت تحاشيه والانفلات من الجهة الأخرى، فاعترضها من جديد.

- الآن، لا يحسن بك أن تفعلي هذا فأتهمك بالجفاء والصدود. وأنا قليل الصبر مع من يجافيني. ما الذي تتعجل إليه الحسناء الودود؟ عاشقٌ مُوَلّه؟ دعيه ينتظر.. فالتدلّل يزيد الوَجْد ويضرم نار العشق.

قالت عائشة بحزم دون أن تنظر في وجهه:

- دعني أمرّ.

- ليس قبل أن تخبرينا عنه. ما صفته؟ أجزم أنه فتى وسيم، ولكنه مع ذلك رقيق متخلّع كشأن الفتيان هذه الأيام. لا تريدين فتى مثله، إنما تريدين رجلاً قوياً صلباً.. صدّقيني.

حين حاولت الانفلات منه مجدّداً جذبها بيده هذه المرّة فلم تملك إلّا أن ترفع يدها لتصفعه، ولكنه قبض على يدها قبل أن تصل إلى وجهه، وضغط عليها بشدة، فتأوهت وقد غلب عليها الألم.. وفي هذه اللحظة امتدّت يد محمد الذي وصل لتوّه ودفع جوهر بكل قوته، وبينما انفلتت عائشة من قبضة جوهر الذي أذهلته المفاجأة الخاطفة عن نفسه عاجله محمد بلطمة هائلة على وجهه صبّ فيها كل غضبه، فسقط أرضاً والدم يسيل من طرف فمه، وأسرع أعوانه إلى شهر سيوفهم وقد أحاطوا بمحمد، ولكن جوهر صاح بهم أن يكفوا. تحامل على نفسه واقفاً وأردف وهو يمسح دمه بطرف كمّه:

- لن يموت، حتى يتمنى الموت أولاً.

* * *

كان أبو القاسم يجلس في منزله مطرقاً مهموماً وقد وضع رأسه بين كفيه وحار دليله فيما يفعل لإنقاذ الفتى الشهم من مصير مرعب قبل فوات الأوان، إن لم يكن الأوان قد فات حقاً. وما كان في حاجة إلى بكاء ابنته وتوسلاتها له أن يفعل شيئاً. ولكن ما حيلته مع الصقالبة وهم الخصم والحكم؟ وحتى لو توصّل بالأمر إلى قاضي الجماعة أو ديوان المظالم وأشهد الناس على الواقعة، فما أهون أن يدّعي الصقالبة أنهم أطلقوه، وعندئذٍ سيكون عليهم أن يخفوا أثره إلى الأبد.

أما جوهر فلم يتأخر في الشروع في انتقامه الذي أراده أن يكون طويلاً ومؤلماً. فأن يموت الفتى ببطء تحت وطأة السياط أشفى لصدره وأوفق لطبعه الشديد القسوة من الموت السريع. وإلى ذلك كان يرغب بقوة في أن يكسر روح هذا الفتى المغترّ الذي جرؤ على ما لم يجرؤ عليه أحد من قبل. فبعد أن شُدّ وثاق محمد إلى سارية في ساحة السجن، اقترب منه جوهر وهو يحمل عمامته، هزها في وجهه وقال هازئاً:

- هذه عمامتك!

تفحصها وتابع:

- خادم وعمامة؟! قد نزلت بقدر أهل العمائم أيها الغلام. إنك لا تحتاج إليها حقاً.

قذفها إلى الأرض وداسها بقدمه وأمعن في ذلك. وقبل أن يبدأ جولة الجلد خيّره في أن يسترحمه ويتوسله العفو والصفح، على وعد التخفيف عنه من العذاب، أو حتى إطلاق سراحه. وذكّره بشبابه الذي يوشك أن ينقضي قبل أن يستوفي منه حظوظه وحاجاته. وبالطبع لم يكن صادقاً في وعوده على ذلك الشرط. وكل ما كان يرمي إليه من ذلك أن يتلذذ برؤية ضعفه وخضوعه، قبل أن يذيقه العذاب الأليم. وحين يئس من ذلك، بدأ جولته الأولى الطويلة في جلده، وهو يأمل أن تقنعه آلام السياط بما لم يُقنعه به الكلام والوعود. ولكن محمدا كان قد وطّن النفس على الصبر مهما يكن الثمن والمصير. وما زاده كلام جوهر إلّا تجلّداً، إذ أدرك أن الأمر قد بات صراع إرادتين. وما كان عنده شك في كذب وعد جوهر على كل حال. وطفق يذكر نفسه بما قاله لأبي القاسم: ألا تكافئ الكرامة حياة الرجل؟! فهذا الآن اختبار صدقه. وحين تعب جوهر من جولة الضرب ويئس أن يجيبه محمد إلى طلبه، في هذه الجولة على الأقل، وخشي أن يموت الفتى قبل أن يكسر كبرياءه أولاً، توقف لاهثاً، ثم اقترب من محمد وهمس له بكلام ينبئ عن مكنون صدره من حال الصقالبة مع عامة الناس.

- لماذا لا تهوِّن على نفسك وعليّ، وتفعل الآن ما سوف تفعله في نهاية المطاف، ولكن بعد أن يتساقط جلدك.. كلمة واحدة.. ما تضرّ كلمة واحدة: الرحمة يا سيدي! هذا كل ما أطلب، ولا أحد من قومك وأصحابك هنا يشهد عليك. مسألة بيني وبينك، وحتى لو خرجت إلى أصحابك في السوق فأعلمتُهم، فلن يكذبوا حرّاً عربياً مثلك، وإن كان خادماً مأجوراً،

ويصدّقوا صقلبياً أعجمياً لا نسب له.. إلّا سيفه وسوطه.. نعم. الصقالبة.. هم حرس الخليفة وزينة الخلافة، ومنهم خاصة قصره. ولكنهم يبقون عبيداً في أنظاركم. لو شاء الخليفة لباعهم في السوق بالدرهم والدينار.. هذا ما تقولونه فيما بينكم.. ولكن الذي لا تدركونه أنه قد ذهب ذلك الزمان. نحن الملوك وإن كنا مملوكين.. نعم يملكنا الخليفة، ونحن نملك الناس.. هل تفهم؟

ضغط بشدة على عنق محمد بمقبض سوطه واستأنف:

- ألا تقولها فتريح وتستريح؟

وإذ حافظ محمد على صمته قال:

- لا بأس. لن تقولها اليوم.. ولكن.. ربّما غداً.. ربّما غداً.

كان المساء قد بدأ في الدخول حين دفع الحرس محمداً بقوة بالغة إلى داخل غرفة السجن المعتمة إلّا من كوة صغيرة أعلى الجدار، فانبطح على بطنه، جاهد ليرفع جسمه فخذله الألم.

- أهلاً وسهلاً! على الرحب والسّعة!

فوجئ بالصوت يأتي من ركن في الغرفة، فالتفت ليرى شبح رجل متكوّم هناك، يلف ذراعيه حول ساقيه. لم تكن عيناه قد اعتادتا عتمة المكان فلم يميّز وجه الرجل حتى قام هذا إليه، وأعانه على القعود بينما انفلتت آهة من محمد على الرغم منه. قال الرجل:

- لا بأس. سوف تعتاده بعد حين حتى يموت جلدك، كأنه ليس منك.. اسألني أنا..

ثم استدرك قائلاً:

- ولكن لا تعجل إلى التفاؤل. فأخطر ما يكونون إذا يئسوا منك، فإمّا قتلوك وإمّا نسوك هنا كحالي.. وما أدري أيهما أرحم.

حدّق محمد في وجهه وقد سقطت عليه بقعة شحيحة من ضوء المساء قادماً من الكوة، بعد لحظة قال محمد وقد تبيّن بعض ملامحه:

- ألم أرَكَ من قبل؟

ابتسم الرجل وقال:

- نصف أهل قرطبة رأوني وهم يسوقونني في الأسواق والأحياء مشدود الوثاق، كما تساق البهائم.

اتسعت عينا محمد، وبدا أنه قد استذكر الرجل، فقال:

- عريف الحدّادين؟!

هز الرجل رأسه وقال:

- نعم.. إبراهيم.. عريف الحدّادين.

كان محمد قد رآه حقاً فيمن رآه من أهل السوق يساق بالسلاسل. وتناقل الناس قصته مع الصقالبة. فقد ضاق ذرعاً بقبائحهم كما ضاق الناس، إلا أنه كان جريء القلب عالي الهمّة، فجمع عرفاء الصناعات المختلفة في المدينة، وما زال بهم حتى أقنعهم بالتغلب على خوفهم، إذ هم قوة لا يستهان بها، وكل منهم يأتمر بأمره مئات أو ألوف من أهل صناعته، وإليه يرجعون في فضّ خلافاتهم وفي تدبير أمور الصناعة على وفق ما استقر عليه العُرف فيما بينهم. وهكذا تقدّمهم للقاء الحاجب المصحفيّ ورفع شكاية الناس إليه من مظالم الصقالبة، فإن لم يكن في وسعه أن يكفهم عن الخروج إلى الأسواق ومخالطة الناس، فليتوصل بشكواهم إلى أمير المؤمنين الذي لن يسرّه أن يعلم بتسلّط فتيانه على رقاب الناس. كان إبراهيم جريئاً مباشراً في كلامه ولهجته ووصف الأمور بأوصافها دون تحفظ أو تلطف مصطنع، ولم يُقَدم لكلامه بديباجة

التزلف والمديح المألوفة. وبالطبع فإن ذلك لم يساعده في عرض قضيته على الحاجب ولا إلى استجلاب عطفه الذي ما كان ليجود به على أي حال، وهو الذي يعلم مدى قوة الصقالبة وقدرتهم على الكيد للحاجب نفسه، فكظم غيظه من لهجة إبراهيم واكتفى بكلام عام وبعض النصائح على أن يُرَوّي في الأمر وينظر فيه. وفي تلك الليلة أفاق إبراهيم وزوجه وولده الصبيّ على طرق شديد على الباب. وحين فتحه لم يتريّث الفتيان الصقالبة في جذبه بغلظة بالغة على مشهد من زوجه وولده المروّعين، اللذين تشبثا به وهما يملآن المكان صراخاً وبكاءً. وإمعاناً في إذلاله وفي ترويع العامة وردع أمثاله اختاروا أن يسوقوه في الصباح عبر الأسواق عبرةً لكل معتبر.

*　　　*　　　*

كان قد دخل الهزيع الأخير من الليل حين عاد زياد إلى المسكن من الحانة التي قضى فيها ليلته وكان يترنح قليلاً ويدندن بأحد الأصوات التي صدحت بها قنية الحان. وحين دخل فوجئ بعمرو وعليّ على غير العادة ما زالا مستيقظين ويجلسان واجمين منقبضين، فقال مداعباً:

- ما الذي أيقظكما من جوف الليل؟ آه.. لا تطيقان صبراً على غيابي.

ثم أنشد بيتاً من الصوت الذي استمع إليه:

مـــــن غـــــاب عنـــــه إلفـــــه

أو صـــــد عنـــــه هلكـــــا

وحين لحظ عبوسهما ونظرات الازدراء الموجهة إليه قال:

- ما بكما كأن على رؤوسكما الطير؟

هنا أجاب عمرو بنبرة الضيق والتأنيب:

- ما يهمك أنت؟ نحن في غمّة لا نحير معها رأياً، وأنت في لهوك وشرابك.. لعن الله مكاناً كنت فيه!

تنبهت ملامح زياد وسأل بلهجة جادة:

- ألا يخبرني أحدكما؟

قال عمرو:

- ابن عمك محمد. تَقَبّض عليه بعض الصقالبة، ولا ندري أين هو الآن من الأرض، ولا كيف نفعل.

سأل زياد:

- وما فعل؟

أجاب عمرو:

- غضب لفتاة عربية تحرّش بها لعين منهم، فلطمه.

أطلق زياد ضحكة غريبة مستفزّة، فقام عمرو إليه وهزّه غاضباً:

- لا والله ما ترك لك السُّكْر عقلاً تعي به.. أقول لك..

قاطعه زياد قائلاً:

- نعم.. ابن عمي انتصر لفتاة عربية، فلطم كلباً صقلبيّاً..

ابتعد قليلاً عن عمرو، وعاد يضحك ضحكة خفيفة أمام حيرة صاحبيه فيه. ثم قال:

- ابن عمي محمد! جاء قرطبة يطلب صدور المجالس.. القضاء.. بل الوزارة.. بل ربّما الحجابة.. فأين صار؟ ألا إنني حذرته من الأحلام التي تُورث الخيبة.. ولكن، لا! من ينصت إلى زياد الخليع الذي لا نفع منه!

ثم انفتل بجسمه واتجه إلى الباب ليخرج.. صاح به عمرو:

- إلى أين الآن وقد أوشك الفجر؟

خرج زياد وأطبق الباب وراءه دون أن يجيب. هز عمرو رأسه أسفاً، وتبادل مع عليّ نظرة تنمّ عن الحيرة واليأس. وردّد عمرو:

- بلى، لا نفع يُرتجَى منه.

بين جولات الجلد والضرب والركل، وجد محمد في إبراهيم صاحباً مؤنساً يشدّ أزره ويقوّي عزيمته. ولكن الذي أثار إعجابه على نحو خاص حكمتُه وعمق تفكيره وميزان أحكامه، مما لا يُتوقّع من حداد مثله. قال إبراهيم مبتسماً:

- لم أكن حدّاداً كل الوقت. كنت أريد أن أصير قاضياً، أو كاتباً، فحضرت مجالس العلماء. ثم ألزمتني تكاليف الحياة، وعلمت أن مثلي لا سبيل له إلى مراتب القضاء والكتابة، حتى لو كنت جديراً بها، قادراً عليها.

اعترض محمد على ذلك الرأي، ولكن إبراهيم اكتفى بابتسامة خفيفة ولم يكن راغباً في الحجاج حول أمر فات زمانه، والأولى الآن التفكير في حال الناس من مظالم الصقالبة. ومن الطبيعي أن يكون هذا موضوع الحوار بينهما في سجن الصقالبة بين ساحة السجن والزنزانة التي تؤويهما. وعلى الرغم من كره إبراهيم العميق لاستبداد الصقالبة، ومما يكابد الآن في سجنهم، فقد كان شديد الحرص على العدل في أحكامه حتى في الخصوم. فلما وصفهم محمد بالعبيد الذين ملكوا رقاب الناس، صحّح عليه قائلاً:

- ليس جرمهم أن العبودية كانت أول أمرهم. فذاك جرم من يسترقّهم من قومهم أولاً في حروب بعضهم بعضاً، ثم يبيعونهم في أسوق النخاسة في بلاد الروم. ثم يجيء بهم تجار العبيد إلى بلاد الأندلس، فينتهي الصبيان الصغار منهم إلى قصر الحكم ليُدرَّبوا على حمل السلاح وأنواع الخدمة بين فحول وخصيان.

علّق محمد قائلاً:

- وإذا بالمملوك قد صار ملكاً متجبّراً.. أكثر تجبراً من أمراء قومهم الذين استعبدوهم أول مرة!

قال إبراهيم:

- ربّما كان هذا من ذاك. وكم رجل كان ضحية للظلم والبطش، حتى إذا تمكّن أعاد سيرة جلّاده.. ومع ذلك، فالحق أنهم لم يكونوا هكذا دائماً.. بل كان منهم قادة عظام قادوا جيوش الدولة وأبلوا بلاءً حسناً.. ولكنك تعرف هذا أحسن منّي.

مهما يكن، فقد كان صاحبا السجن متفقين على أنه قد آن الأوان للتخلّص من استبداد الصقالبة والموالي الذين يوشكون أن يذهبوا بريح الأندلس، وإن بدت الآن في أقوى أحوالها وأزهى عصورها. فالظلم مرتعه وخيم، وأول النار شرر، والعامة وإن بدت ساكنة لبعض الوقت، فإن الجمر تحت الرماد. وقد عرف بنو أميّة أن عامّة قرطبة هم أجرؤ الناس على ملوكهم إذا زاد الظلم وطفح الكيل. ولهم عبرة في ثورة الرّبض التي أكلت الأخضر واليابس أيام الحكم بن هشام. وما منعهم حتى الآن من الخروج إلّا تعظيمهم لأيادي الناصر الراحل ثم لخلفه الحكم المستنصر الذي لا يطعن أحد في عدله ورحمته، لولا أنه محجوب عن شكايات الناس. وقد رأت العامة كيف زادت قبائح الصقالبة بعد وفاة الناصر. وعلى الرغم من أن الحكم لا يوصف بالضعف إلّا أنه دون أبيه في هيبة الجانب. فعلم الناس أن شرور الصقالبة تتعاظم مع ضعف الخليفة. فكيف إذا انقضى أجل الحكم دون أن يعقب ولداً؟ وحتى لو عقب ولداً على كبرٍ فسيحكم الولد صبياً.. وعندئذٍ وقعت الطامة وانفرط عقد الخلافة. وإذن فإن التخلص من الصقالبة والموالي لا يخلّص الناس من الظلم فقط، وإنما يحفظ الأندلس كلها من الانهيار. لم يكن ثمة خلاف بين

رفيقي السجن على هذا كلّه. ولكنهما اختلفا في الطريقة. أما محمد فكان يرى أن الحلّ يكمن في موضع الحلّ والعقد والسلطان: الزهراء نفسها: رجل من أبناء الفاتحين يخترق حجب الزهراء بمواهبه، حتى يحوز ثقة الخليفة فيقدمه على غيره. وقال:

- الرأس.. نعم.. الرأس.. إذا صلح صلح به الجسد كلّه.

وحين فطن إبراهيم إلى أن محمداً يورّي عن نفسه حار أمره فيه واشتد عجبه، وتساءل:

- أنت! المعذرة! لست أشكّ في عقلك ومواهبك.. ولكن، ما يفعل طالب علم ليس وراءه مال ولا عصبة؟ ما عدّتك؟

أشار محمد إلى رأسه بثقة وقال:

- هذا.

ثم دقّ على صدره وقال:

- وهذا..

ثم أضاف:

- وغضب أكبح جماحه ما استطعت حتى يحين أجله.

حدق إبراهيم فيه وهزّ رأسه مستخفاً بالكلام، ثم قال:

- سبحان الله. لو قلت هذا الكلام وأنت خارج هذا السجن الوضيع لاتّهم الناس عقلك. فكيف وأنت فيه، لا تدري أتخرج منه حيّاً أم ميتاً.

أجاب محمد بثقة:

- سأخرج.

- من أين تأتيك كل هذه الثقة؟

- وهذه من عدتي أيضاً. أرى ما وطّأتُ عليه النفس من الغد، فيهون عليّ ما ألقي اليوم.

أطرق إبراهيم بضع لحظات متفكراً، ثم رفع رأسه وتوجه ببصره من جديد إلى محمد:

- أريد حقاً أن أصدّق أحلامك. ولكن، حتى لو اجتمعت إليك مواهب الخلق جميعاً، فكيف لرجل واحد ليس له ظهير إلا نفسه، كيف له أن يخترق حجب السلطان ويرقى في مراتبه حتى يبلغ ذروته، ثم يصلح ما أفْسده الآخرون.

قال محمد:

- أعلم أنك تراه بعيداً.. وأراه قريباً. ولكن، ما لا يؤخذ بالسيف يؤخذ بالتدبير.. والآن بعد الذي اختبرته بنفسي، كل شيء مباح من أجل الغاية.. كل شيء.. إنها الحرب.. غير أن لها عدّةً أخرى.

- وما يدريك أنك إذا وطئت موطن السلطان واقتعدت مَفْرشَه واختبرت نعيمه وتذوقت حلاوته وخالطت بطانته، أن تصبح كأحدهم، فتنسى منزلك الأول، والغاية التي ارتقيت في طلبها لنفسك وللرعية كما تقول. المرءُ ينطق عن وطائه يا صاحبي.. وقد عرفت أناساً طلبوا دون ذلك، الغنى بعد الفقر، فلما أدركوه تغيّرت قلوبهم وألسنتهم.

أجاب محمد بلا تردد:

- يمنعني مما تخشاه عليّ إذا بلغت مراتب السلطان أنّي كنت أبيع غزل أمّي في حصن طرّش والجزيرة الخضراء، وأني أخرج من أوساط الناس، وأني عملت بالأجرة في الدكاكين، وأني طاعمت فقراء العامّة، وأني.. معك الآن!

ابتسم إبراهيم وقال بنبرة مفعمة بالمودّة.

- لولا ما نحن فيه لقلت: ما أسعدني بصحبتك، وإن اختلفت طرقنا مع اجتماع الغاية.

سأل محمد:

- وما طريقتك؟

- لئن كتب الله لي الخروج من هنا، ولم يجد الصقالبة لهم رادعاً من السلطان، فهو كما قلت أنت: العامة لا تسكت طويلاً على الظلم.. وأنا عريف الحدّادين، ومعي أهل صناعتي، ومعنا عرفاء الصناعات الأخرى ومن معهم.. ووراءنا..

قاطعه محمد:

- ثورة كثورة الرّبض؟

- إن لم يكن سبيل آخر إلى سمع الخليفة.

هز محمد رأسه يميناً وشمالاً بأسلوب ينمّ عن اعتراضه، فقال إبراهيم:

- ذلك أقرب منالاً من رجل واحد مغمور، يريد أن يرتقي إلى موضع الحل والعقد.

قال محمد مفصّلاً ومحذّراً من العواقب كما يراها:

- ما أسهل أن يختلط الحق بالباطل في مثل طريقتك.. نعم.. تستطيع العامة أن تخرج على الظلمة..ولكن.. ماذا بعد؟ هل تستطيع أن ترفع بنفسها بنياناً جديداً؟ وما أهون أن يقال: إنما هي فتنة.. خروج على طاعة وليّ الأمر ونقض للبيعة، وشقّ للجماعة، وتمكين لعدو الأمّة المتربّص على الثغور، يرقب منا فرقة وغرّة فيميل علينا لا يفرّق بين ظالم

ومظلوم، بين بياض الحضرة وسوادها، بين الخاصّة والعامة، فيتحصل من الضرر أضعاف ما كنا نُؤَمّل إزاحته. ولنا في ثورة الرّبض عبرة.

قال إبراهيم:

- لا يبلغ الأمر هذا حتى يفطن الخليفة للأسباب، فيرى ما كان غائباً عنه، ويصلح ما أفسد المبطلون، قبل أن يتّسع الخرق على الراتق.

- ربّما.. وربّما ازداد تمسّكه بالصقالبة، عماد حرسه ودولته، خوفاً من عواقب العصيان.. لا ليس هذا طريقي.

قال إبراهيم بنبرة مشوبة بالتهكم:

- ها نحن نرتّب شؤون الأندلس، وننظر في الطرق وما لها وما عليها.. هنا!

أشار إلى المكان، ثم استأنف:

- لا بأس. فذلك يصرفنا عمّا نكابد.

اشتدّ برد الليل عليهما في غرفة السجن، ولم يكن عندهما إلّا غطاء واحد، فقام إبراهيم يطرق على الباب ويصيح:

- نريد دثاراً آخر.. نحن اثنان ها هنا.

قال محمد:

- ادّخر جهدك. فلهم آذان لا يسمعون بها، وقلوب لا يفقهون بها.

استدار إبراهيم وقال:

- أعلم. ولكني أحب أن أنشّط جسمي وأحرك دمي لأطرد عني بعض هذا البرد، وإلى ذلك أقلق راحتهم.

- بل يريحهم أن يسمعوك تطلب ثم لا يجيبون.. تعال.. دثار واحد يكفي اثنين.

قعد إبراهيم إلى جانب محمد وتجمّعا تحت الدثار يرتجفان.. ثم سأل إبراهيم:

- لم أسألك.. متزوّج أنت؟

هز محمد رأسه بالنفي.

قال إبراهيم:

- أفضل.. أعني في حالك الآن. ليس البرد والضرب والجوع أشدّ ما في السجن.. بل ما يجري هنا..

وأشار إلى رأسه وتابع:

- صورة زوجك وولدك.. وتلك الأشياء الصغيرة التي لم تكن تلقي لها بالاً وأنت في حريتك.. عتبة الدار.. الجرّة التي تشرب منها.. الوطاء الذي تجلس عليه.. الموقد الصغير الذي تستدفئ به.. رائحة الخبز الساخن.. أصوات ديكة الجيران.. كلها تصبح واضحة وعزيزة.

مرّت لحظات صمت وتأمّل، ثم عاد إبراهيم إلى الكلام بصوت عميق هادئ.

- محمد!

التفت إليه محمد مستطلعاً. واستأنف إبراهيم:

- قد أحببتك كأخ لي في هذا الوقت القصير.

قال محمد متهكماً:

- في وحشة هذا المكان، لو سُجن معك أحد الزُعّار لأحببتَه!

تابع إبراهيم وهو ينظر أمامه في فراغ الغرفة:

- كلانا يطلب الخلاص من ظلم الصقالبة والموالي. قد اتفقت الغاية واختلفت الطرق.. فمن سبق إليها لحق به الآخر.. ما رأيك؟

حين تأخر محمد في الإجابة، التفت إليه إبراهيم وأعاد السؤال:

- ما رأيك؟

أجاب محمد بثقة صارت الآن مألوفة عند إبراهيم:

- ستلحق بي.. هذا ما أعِدُك به.. حاول أن تنام الآن!

تحفزت حواسهما حين سمعا صوت مزاليج الباب وأقفاله تفتح من الخارج، ثم ظهر حارسان، وتقدم أحدهما داخلاً واتجه ببصره نحو محمد وقال بلهجة متأدّبة:

- محمد بن أبي عامر.تفضّل معي.

تبادل محمد وإبراهيم نظرة حيرة ودهشة. وقام محمد ومضى مع الحارسين وهو يتلفت نحو إبراهيم. وأغلق الباب من جديد. قاده الحارسان عبر الدهليز، ثم صعدا به الدرج إلى الدور الأول حيث توجد غرف نظّار السجن والثكنة، وتوقفوا عند أحد الأبواب. طرقه أحد الحارسين طرقة خفيفة ثم فتح الباب وأشار إلى محمد بالدخول. كانت تلك غرفة جوهر. وهناك كانت تنتظر محمد مفاجأة كبيرة ما كانت لتخطر له ببال: الوزير ابن حدير بنفسه.

- سيدي الوزير!

هتف منفعلاً وأقبل عليه من فوره يقبّل يده وكتفه. ثم لمح بطرف عينه ابن عمه زياد يقف في ركن الغرفة يهتز بجسمه وساقيه ويفرك أنفه ويرمش بجفنيه من شدة الإرهاق وقلة النوم. كان في هيئة مزرية ويكاد ألا يقوى على ساقيه. واكتفى بأن هز رأسه لمحمد بالتحية مع ابتسامة شاحبة. وقد أدرك محمد الموقف. لا بدّ أن زياد هو الذي أخطر ابن حدير.

لم يقل جوهر شيئاً وتحاشى النظر إلى محمد. ولم يتأخر ابن حدير فخاطب محمد بلهجة حازمة:

- تخرج معي الآن.. هيا..

ومضى نحو الباب، ولحق به محمد وزياد، ولكن محمد توقف فجأة وخاطب الوزير:

- سيدي!

التفت إليه ابن حدير مستفسراً، فقال:

- لي غرض حيث كنت، فهل تأذن لي أن أستوفيه على عجل.. لن أتأخر يا سيدي.

ما كان محمد ليخرج من المكان قبل أن يودع صاحب السجن إبراهيم الذي كان يتمشى في الغرفة الآن دون أن تفارقه الحيرة، وإذ دخل محمد من جديد ابتدره بالكلام:

- ما الذي يحدث هنا؟

حدق فيه محمد بمحبة وعطف، وقال بصوت هادئ:

- أنا أيضاً أحببتك يا إبراهيم.. وما ذاك لوحشة السجن والحاجة إلى أنيس.

قال إبراهيم وهو يتفحصه:

- كأنك تودّعني!

هز محمد رأسه بالإيجاب. قال إبراهيم وقد ازدادت دهشته:

- أطلقوك؟ هكذا؟ ما الذي غيّر قلوبهم؟

أجاب محمد:

- لم تتغيّر قلوبهم.. ولكن ألم أقل لك؟ إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.. الوزير ابن حدير.

- الوزير ابن حدير بنفسه؟ لك عنده صلة، ولم تخبرني بها.. الآن أرى.. بلى.. لعل الذي تطمح إليه ليس بالأمر المستحيل في آخر الأمر.. أعني من يملك أن يخرجك من هذا القبر سالماً، يملك أن يدخلك القصر غانماً..

ثم تحول إلى لهجة أخرى مستدركاً:

- لا.. لا تحسب أني أحسدك. أغبطك، ربّما. هل سأفتقد صحبتك؟ لا ريب. ولكن من يدري؟

ثم اقترب منه وتابع هامساً:

- ربّما استطعت الفرار يوماً.. إنهم يخرجونني بين الفينة والأخرى لتنظيف الحظائر.. وعندها ستجدني أطرق بابك في جوف الليل.

ثم أقبل عليه إبراهيم يعانقه ويربّت على ظهره..

- هيّا.. لا تتأخر عن هواء قرطبة.. ولا عن المهمة العظيمة التي تنتظرك.

استدار محمد ماشياً نحو الباب، وقبل أن يخرج التفت إلى إبراهيم للمرة الأخيرة وقال:

- سأبذل جهدي..

هز إبراهيم رأسه، وخرج محمد، وانغلق الباب من جديد.. أطرق إبراهيم من ورائه وهمس لنفسه:

- لا ريب.. لا ريب!

* * *

أصرّ الوزير على أن يصحبه محمد إلى قصره، بينما استأذن زياد في الانصراف وقد بلغ به الوهن والجوع وسوء الحال كل مبلغ.

فحين فارق عمرواً وعلياً، قبيل ذلك الفجر فجأة ودون أن يقول شيئاً بعد أن أخبراه بما وقع لمحمد، لم يكن ذلك من خطرات عبثه وغيّه كما ظنّا. فقد تذكر ابن حدير. ولم يكن الوصول إلى قصره بالأمر الهيّن. فمكث يسأل عنه في أرباض قرطبة وضواحيها. وحين توصّل إليه مع هبوط المساء، صده حرس الباب حين رأوا هيئته المزرية وآثار السكر عليه. وظنوه من أهل الكدية الذين اعتادوا ترددهم على أبواب الأعيان والأثرياء. ولم يُجْدِ إلحاحه على أنه جاء في أمر عظيم يهمّ الوزير. فتلك أيضاً من طرق أهل الكدية والطلب. ولمّا يئس منهم لم يجد إلّا أن يقعد تحت شجرة إلى جانب الطريق المؤدّي إلى القصر وينتظر، لعل الحظ يسعفه فيخرج الوزير في موكبه إلى شأن ما فيستوقفه في الطريق ويقصّ عليه الخبر. كان يدرك خطورة الموقف وأهمية الوقت ولا يدري هل يدرك صاحبه قبل الفوات أم لا. فها هي الليلة الثانية على غياب محمد قد دخلت. ولكن الأعيان يمكن أن يخرجوا في الليل للزيارات والمسامرات. وإذ تطاول الليل دون أن يحدث شيء أخذ يغالب عينيه حتى لا يأخذه النوم وهو الذي قضى الليلة السابقة في السهر، فكان يغلبه أحياناً في سِنَة قصيرة ينفض رأسه منها. وأعانه على ذلك برد الليل، فتجمع على نفسه وهو يرتجف حيناً ويفرك يديه وجسمه حيناً آخر. ولم يَعِ أن النوم قد أدركه على رغمه حتى بدأ يشعر بوهج شمس الضحى تلفح وجهه، وفي الوقت نفسه تناهى إلى سمعه جلبة خيول كأنها تأتي من مكان بعيد فنفض رأسه على عجل وحدق من خلال جفنين منتفخين، وحين تبيّن له الموقف قفز بسرعة وأخذ يركض نحو موكب ابن حدير صائحاً بكل ما بقي عنده من قوة.

* * *

عندما عاد ابن حدير بمحمد إلى قصره قال بنبرة أبويّة:

- نعم.. أفهم السبب الذي دعاك إلى لطمه.. ولو كنت ما أزال في شبابي ورأيت الذي رأيت لربما فعلت مثلك. ولكن كان يجب أن تقدّر

العواقب.. ماذا لو لم يتوصّل ابن عمك لي بالخبر؟ الله وحده يعلم ما الذي تنتهي إليه.. إنهم الفتيان الصقالبة يا محمد.. وإن شئت الصدق فإني ما كنت لأدخل على ذلك السفيه بالتأنيب والصياح إلّا لأنه من أدنى مراتبهم، وقصدت إلى إيهامه وتخويفه.. ولكن الحقيقة أنه لا أنا ولا من هم فوقي في مراتب الوزارة والخطط والدواوين يستطيع أن يتحدى كبار الفتيان وقادتهم.. هل تفهم قصدي؟ المروءة معنى عظيم..ولكن كيف ينفقها الرجل؟ هذا ما يجب أن يتدبّره العاقل.. السياسة يا محمد تقدير المصالح وموازنة العواقب، وتقديم الكبير الدائم على الصغير العاجل المنقطع.. وقد قيل: ليس الحكيم من يعرف الخير من الشر، ولكن الحكيم من يعرف أهون الشرّين، هل تعي مقصدي يا محمد؟

قال محمد:

- نعم يا سيدي.. وأعدك..

قاطعه ابن حدير مستأنفاً:

- أنا ضنين بك يا محمد وقد لمست فيك الموهبة والطموح والإرادة والنظر إلى بعيد..

تريّث لحظة ثم تابع مداعباً:

- تُذكّرني بفتوتي.

ثم أضاف مستدركاً:

- أعني فتوتي الأولى. وهذه فتوتي الثانية!

ثم عاد إلى لهجته الجادّة الأولى:

- نعم، لمست فيك كل ذلك، فلا تهدرها فيما يستطيعه أي رجل من عامة الناس لم يوهب كالذي وُهِبْتَه.

هنا تحدث محمد بلهجة تبطن تذكيراً حذراً:

- ولكني ما زلت في أغمار العامة يا سيدي.

- ولكنك تطلب أن تكون من الخاصة.

- لو أتيحت لي الفرصة!

- سوف تتاح لك.. يوماً.. الصبرَ الصبر.

اقترب منه ابن حدير ومال برأسه نحوه وتابع:

- وسياسة الغصن الغضّ الطريّ، ينثني للريح فيصمد لها. أما اليابس فينكسر من أول مرّة.. اذكر هذا!

- سأذكره يا سيدي.

نظر ابن حدير في عيني محمد وقال بنبرة عميقة:

- وأعِنّي على نفسك.

- كيف أفعل يا سيدي.

- عملك في السوق.. هب أن الفرصة سنحت وراجعت في أمرك بعض أصحابنا في خطط الدولة، ماذا أقول؟ إنه يعمل في دكان في السوق بأجر يومه؟

- لو وجدتُ خيراً منه..!

- ألا توجد منزلة وسيطة بين أعمال العامة وأعمال الخاصّة؟

أعني أنت رجل كاتب. وليس كل الكتاب من عُمّال الدواوين.. اقتعد لنفسك دكاناً للكتابة على رصيف الزهراء، تدبّج الكتب والعرائض لذوي الحاجات يتوصلون بها إلى الوزراء والحاجب، وحتى الخليفة وخاصة قصره.. تهنئة في مناسبة سعيدة، وهي كثيرة والحمد لله.. مظلمة أو شكوى.. شكر موصول لولي النعمة.. ونحو ذلك. فإذا عُرفت بلاغتك ذاع صيتك، وصار هيّناً عليّ أو على غيري أن يزكّيك عند أهل السلطان.

هز محمد رأسه متمعناً.. وقال:

- لن أنسى جميلك هذا يا سيّدي.

- لا تشكرني.. إنني أحفظ ذمّة أبيك.

ثم تحوّل إلى لهجة التحبب والدعابة:

- ومن يدري؟ لعلك إذا بلغت مرتقى طموحك يوماً، وكنت أنا في أرذل العمر، بعد انقضاء فتوتي السابعة! ربما صرت في حاجتك.

- بل أبقى خادمك يا سيدي. هل أستأذنك الآن؟

- ألا تطاعمني؟

- سبق فضلك يا سيدي، وأصحابي ينتظرون.

ابتسم ابن حدير وعاد يداعبه:

- والفتاة التي كدت تهلك نفسك من أجلها!

اكتفى محمد بالابتسام، ثم مضى ماشياً في طريق الخروج، وبعد بضع خطوات فقط، توقف من جديد واستدار إلى الوزير، وكأنه استذكر شيئاً ما، وبدا عليه التردد، بينما نظر ابن حدير مستطلعاً..

- سيدي الوزير.. كان معي في السجن فتى..

قاطعه ابن حدير من فوره وقد أدرك وجهة الكلام:

- لا أدخل في أمرٍ أجهله، ولا أُمعن في الوساطة فتذهب الهيبة، ولكن أدّخرها لمن يهمّني أمره..

هز محمد رأسه متفهماً وتابع المشي، وقبل أن يخرج استوقفه صوت ابن حدير:

- وأمر آخر!

التفت محمد، بينما استأنف ابن حدير:

- ابن عمّك.. ذاك الذي راجعني فيك.. فعل خيراً لك. ولكن، فليهذّب مظهره حتى لا يلحقك منه ما ينزل بقدرك عند من يهمّك رأيهم..

* * *

بعد أن احتفى الأصحاب بعودة محمد احتفاءً صاخباً وسكنت عنهم الرّوعة، توجه عمرو بنظره إلى زياد الذي لبث مستلقياً على الحشيّة:

- حين خرجت من عندنا حسبنا أنك..

أكمل زياد عنه:

- نعم، زياد الذي لا يرتجى منه خير..

تبادل عمرو وعلي نظرة خاطفة، ثم تابع عمرو:

- ولكن كيف لم يخطر لي ما خطر لك؟

اعتدل زياد قاعداً وقال:

- أليس هذا بيّناً؟ أنا أكثر فطنة منك وأحسن تدبيرا!

قال عمرو مستسلماً:

- أما هذه المرّة، فنعم.

قال زياد مستنكراً:

- هذه المرّة؟ وهل تُرجى الفطنة إلّا في الملمّات والنازلات؟

أرسل محمد نظرة امتنان إلى زياد وقال:

- شكراً.

قال زياد:

- لا تشكرني. الحق أني لم أفعله من أجلك. من ينفق عليّ إذا نقص مالي؟

ابتسم محمد وقال:

- أما هذا.. !

وتوجه إلى صندوق نقوده واستخرج حفنة دراهم ثم وضعها في يد زياد الذي قلب نظره بينها وبين محمد، ثم قال:

- تكافئني على..

قاطعه محمد قائلاً:

- اخرج وابتَع لنفسك ثوباً أحسن من هذا الثوب، ونعلاً أحسن من ذاك النعل، ثم اعمد إلى الحمّام، ثم إلى المزيّن، فأصلح هيئتك.

قال زياد وهو يدس النقود في جيبه:

- ولماذا أبدد هذا المال فيما لا يهمّني، وأنا أستطيع أن أقضي به أوطاراً أخرى؟

قال محمد بحزم:

- إنه يهمّني أنا.

تأمّله زياد بنظرة سابرة، ثم وقف فجأة وقال بنبرة تجمع بين المزاح والجد.

- تالله لقد أحرجك مظهري عند ابن حدير، وأولئك الصقالبة الملاعين!

دار في الغرفة واستأنف مخاطباً عمرو وعلي:

- هل سمعتها؟ نسي أني أنقذته من الهلاك وأني قضيت اليوم والليلة في العراء والبرد أنتظر خروج الوزير حتى انكسر عظمي.. نسي هذا كلّه وذكر مظهري الذي يخشى أن ينزل بقَدْره..

ثم تحول إلى السخرية:

- قَدْرِ سجين الصقالبة، منقذ الأمة، ورافع الغُمّة، ونصير الأيامي واليتامى والمساكين! بل والله، يفضل أن أمشي في جنازته في هيئة حسنة تليق بمقامه، على أن أسعى في حياته بصورتي هذه!

وأشار إلى نفسه.

قال محمد بنبرة قوية قاطعة:

- اخرج وافعل كما قلت.

قال زياد وهو ينحني لمحمد متهكماً:

- السمع والطاعة يا ابن عمّي.. يا ابن صاحب الوزير ابن حدير!

هنا تدخل عليّ ممازحاً بلهجة ذات مغزى وهو يشير بيده إشارةً دالّة:

- لا بأس يا زياد.. فإن الهيئة الحسنة تعين على قضاء أوطارك الأخرى.

وكالعادة كان جواب زياد حاضراً:

- يا غافل! .. المجرّبات لا ينظرن إلى الثوب، بل إلى ما تحت الـ..

لم يكمل إذ قذفه عمرو بحبة تفاح قديمة مما تخلف عنهم، وهو يصيح به بأسلوب مرح:

- اخرج أيها الفاسق!

قال زياد:

- مدحٌ هذا أم ذمّ؟

همّ عمرو أن يقذفه بشيء آخر، فصاح زياد:

- لا بأس.. لا بأس.. سأخرج..

بعد أن انفلت زياد خارجاً، اقترب عمرو من محمد:

- دعني أنظر في ظهرك.. تحتاج إلى ما يشفي جروحك.

نزل محمد جالساً، واكتسى وجهه فجأة بملامح التأمل والشرود، وقال بنبرة ذاتية عميقة:

- لا شفاء لجروحي عند الطبيب!

وفهم صاحباه المعنى.

* * *

دعا أبو القاسم محمداً إلى منزله ليعبّر له عن عظيم امتنانه وابنته الوحيدة عائشة على صنيعه وشهامته التي كانت تودي بحياته. وعلم محمد أنها كل ذريته، بل كل أهل بيته بعد أن توفى الله أمّها. فلا عجب أن يتعلّق بها كل ذلك التعلّق. ثم عرض عليه أن يوكل به تجارته لينقطع هو للعبادة وقد كبر وذهبت همّته، على أن يكون لكل منهما النصف منها. وإذ همّ محمد أن يجيب كفّه أبو القاسم بحركة من يده، وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يفاجئه بعرض آخر قائلاً:

- سألقي عليك قولاً ينكره العُرف ولا ينكره الدين، وهو على كل حال مما يقع بين أهل الصفاء والوفاء.. إن كان لك رغبة في زواج، وتمنعك قلة المال، فهذه ابنتي عائشة هي أحب أهل الأرض إليّ، أزوّجك إياها وأجهّزها بكل ما تحتاج إليه من فرش ومتاع.

وإذ أطرق محمد متفكراً، استدرك أبو القاسم قائلاً:

- لا والله ما أرخصت ابنتي وهي من هي، وما زال الخطّاب يتوافدون علينا من كل صوب. ولكن الأب العاقل المحب يتخيّر لابنته من يعلم أنه يستحقها وتستحقه.

رفع محمد رأسه وقال:

- أما مالك وتجارتك فبارك الله لك فيهما. على أني عزمت على أمر آخر، وما أنا من أرباب التجارة والصنائع.. أما الزواج فلا والله ما أرخصت ابنتك، بل أغليتها بقولك. والذهب لا يرخص على كل حال. وإنك والله قد أسبغت عليّ شرفاً عظيماً، وما كنت لأجد خيراً من ابنتك.. ولكن..

تنبهت ملامح أبي القاسم في انتظار التالي.. واستأنف محمد:

- ما قدمت قرطبة من الجزيرة الخضراء إلّا لغاية بعيدة، دونها بذل النفس ووصل الليل بالنهار، فأخشى، إن تعجّلت بالزواج قبل بلوغها، أن أظلم زوجي.. فإن لم أظلمها ظلمت نفسي وأقعدت همتي.. ولست أحب هذا ولا ذاك.

قال أبو القاسم متفهماً:

- خطبةٌ إذن!

- محمد أخشى أن تطول.

- لا بأس عندي أن تطول، فلولا سنّة الزواج لما أحبّ أبٌ مثلي أن يفارق ابنته.. تؤنسني وتنهض بحاجتي..

قال محمد:

- ولكن، يا سيدي.. هذا قولك ورأيك. فأين رأيها؟

ابتسم أبو القاسم ابتسامة عريضة، وقال:

- هل حسبت أني قلته عن أمري دون رأيها، وإن منعها الحياء من الإفصاح؟ فإن لهوى النفس علائم لا تخفى.

ابتسم محمد وقال:

- على بركة الله إذن.

* * *

بقي على محمد أن يفعل شيئاً واحداً من تكاليف المروءة والوفاء التي تلزمه بها تجربة السجن. فقد توصل، بعد السؤال، إلى بيت إبراهيم الحدّاد في حيّ بسيط الحال من أحياء قرطبة. واصطحب معه عائشة دفعاً للريبة، وكان يعلم أن زوج إبراهيم تقيم فيه وحدها مع صبيها الوحيد حمدون. وكانت تلك المرة الأولى التي يصلها فيه خبر عن مصير زوجها بعد أن أخذه الصقالبة وأخفوا خبره. وهو ما أورثها حزناً دائماً فلا تكاد تعرف غمض النوم، حتى جاءها هذا الفتى وطمأنها أن زوجها حيّ لم يأخذ السجن من صبره وقوة روحه. وما دام كذلك فلا ينقطع الرجاء من خروجه يوماً من السجن. هوّن الخبر عنها بعض ما فيها، دون أن تفارقها وحشة الغياب والخوف على مصيره. فأيّ أمل له في الخروج وهم لا يعرفون أحداً من أهل السلطان يتوسّط فيه. هكذا تساءلت. فأجابها محمد بنبرة توحي بالثقة واليقين.

- سيكون.. سيكون إن شاء الله.. ولكن اصبري أنت حتى يجعل الله له ولكِ فرجاً، وحتى ذلك الحين، أنا بمقام أخيك وأخيه.. وهذه خطيبتي عائشة، ستكون بمثابة أخت لك.

هزت عائشة رأسها وربّتت على أمينة، زوج إبراهيم بحنان.

ثم توجه محمد إلى حمدون ومسح على شعره وقال:

- حمدون! هل لك في فطيرة مُجبّنة!

واستخرج قطعة فطير من كيس جاء به معه.. وقال:

- تحب الفطائر والمجبّنات، أليس كذلك؟

مدّ حمدون يده متردداً، ولكن محمدا ابتعد بيده، وقال مستدركاً:

- آه.. ولكن دعنا أولاً نَرَ هذا الثوب عليك.

واستخرج من كيس آخر ثوباً ومدّه أمام حمدون وقال:

- هاه! ما رأيك؟ ثوب حسن؟

منذ ذلك الحين لم تتوقف الصلة والزيارات من محمد وعائشة لبيت إبراهيم. وصار حمدون إذا رآه مقبلاً يهرول نحوه ويحتضنه بفرح غامر وهو يهتف: العمّ محمد..

أما إبراهيم فقد ازداد شعوره بوحشة السجن بعد أن فارقه محمد، حتى كاد أن يتمنى لو أنه لم يلتقه أبداً. وبينما كان محمد في زيارة زوجه وولده، كان يقبع وحيداً في عتمة السجن، بينما ذهبت أفكاره بعيداً إلى صورة زوجه وولده.. وتلك الأشياء الصغيرة التي لم يكن يلقي لها بالاً وهو في حريته.. عتبة الدار.. جرّة الماء.. الوطاء الذي كان يجلس عليه.. الموقد الصغير الذي كان يستدفئ به.. أصوات ديكة الجيران، وكل ما عدّه على مسمع محمد من الذكريات التي تصبح في السجن مهرباً وسلوى وعزاءً وعبئاً ثقيلاً في آن. وهنا وجد نفسه يتعلّل ويترنم بأبيات عبدالرحمن الداخل في غربته:

أيهـــــا الراكــــــب المــــــيمم أرضي

أقـــــر مــــــن بعــــــضي الســــــلام لـــــبعض

إن جســـــمي كـــما علمـــت بـــأرض

وفـــــؤادي وســـــاكنيه بـــــأرض

أطلق نفثة حَرّى وخاطب نفسه:

- أشواق أمير، تحاكيها أشواق حدّادٍ أسير. فما أبعد ما بينهما وما أقربه!

على تلة معشبة تتوسط مروج قرطبة الساحرة، وتُرى منها المدينة وأرباضها والزهراء، أجتمع الأصدقاء الأربعة: محمد وعمرو وزياد وعليّ، ومعهم فتى آخر من صحبتهم في دروس الجامع، اسمه عبدالرحمن، وكان طيب النفس راجح العقل، وكان له ولع بالشعر والموسيقى والغناء، فرأوا أن يصحبوه معهم لتكتمل لهم متعة التنزه في ذلك اليوم الرائق الجميل المعتدل. وجاؤوا معهم بالبسط للجلوس والاستلقاء، وأطباق الفطائر والفواكه. وكان زياد كعادته يملأ المكان مرحاً ونشاطاً وظرفاً وهو يلقي عليهم سيلاً متدفقاً من الطرائف والنوادر، يتلو بعضها بعضاً، وهم في ضحك متصل متصاعد، حتى ليكاد أحدهم أن يستلقي على ظهره:

- .. وسَمِعَ أحدُ الحمقى رجلاً يقول: ما أحسن القمر! فقال: إي والله خاصة في الليل.

وسأل أحدهم رجلاً طويل اللحية تظهر عليه المهابة: ما اليوم؟ قال: والله ما أدري، فإني لست من هذا البلد.

وكان أعرابي يقول: اللهم اغفر لي وحدي. فقيل له: لو عمّمتَ بدعائك، فإن الله واسع المغفرة. فقال: أكره أن أُثْقِل على ربي.

وتذاكر قوم من العبّاد قيام الليل، وعندهم أعرابيّ. فقالوا له: أتقوم الليل؟ قال: إي والله. قالوا: فماذا تصنع؟ قال: أبول وأرجع أنام.

و.. اسمعوا هذه.. ذكر أحد القصّاصين قصة يوسف، فقال: كان اسم الذئب الذي أكل يوسف كذا وكذا. فقالوا له: ولكن يوسف لم يأكله الذئب. فقال: إذن هو اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف.. خذوا هذه..

قيل لمغفل: لقد سُرِق حمارك. قال: الحمد لله لأنني ما كنت عليه. وكان لبعض الأدباء ابن أحمق، وكان مع ذلك كثير الكلام، فيخجل به أبوه. فقال له أبوه يوماً: يا بني لو اختصرت الكلام كيلا يكثر غلطك. فقال: نعم. فأتاه يوماً فقال: من أين أقبلتَ يا بني؟ قال: من سوق. يختصر لام التعريف. قال أبوه: لا تختصر هنا. زد الألف واللام فكان. قال: من سوقال. قال له: قدِّم الألف واللام، قال: ألف لام سوق. قال: وما عليك لو قلت «السوق»؟ فوالله ما حصّلت من اختصارك إلّا تطويلاً. الحمق عِلّة ليس لها دواء.

أخذ نفساً سريعاً وتابع:

- وسئل رجل، وكان له ثلاثة أبناء: أيّ أبنائك أشدّ حمقاً؟ قال: والله ما رأيت أحمق من الأصغر بعد الأكبر إلّا الأوسط.

بينما استمروا في الضحك منتظرين الطرفة التالية، تنبهوا إلى أن زيادا قد توقف وأخذ ينظر إليهم مستطلعاً مستفسراً، ثم قال:

- تضحكون؟ إذن قولوا: أيهم أشدّ حمقاً؟

توقفوا عن الضحك وأخذوا في التفكير وقد بدت عليهم الحيرة، ردّد عليهم مستحثّاً.

- قد سمعتم. ما رأيت أحمق من الأصغر بعد الأكبر إلّا الأوسط. فمن يكون أشدّهم حمقاً؟

أخذوا يقلّبون المسألة في أذهانهم ويفكرون ويقدرون، بينما لبث زياد يحدق فيهم مستمتعاً بالحيرة التي أوقعهم فيها، ثم قال عمرو كأنه يحدِّث نفسه:

- أما الأصغر، فأقلّهم حمقاً.

قال زياد ساخراً:

- باركَ الله بك. أنا أسأل عن أشدّهم حمقاً!

بعد لحظات من التفكير والتقدير وتكرار المسألة، سُمع صوت محمد لأول مرة.

- أحمقهم أبوهم.

تلفّت الجميع نحو محمد الذي كان يقف مستديراً عنهم يرسل النظر إلى الزهراء البعيدة. قال زياد:

- آه.. أخيراً تكلم الحكيم.

استأنف محمد دون أن يلتفت:

- وأحمق من أبيهم من انشغل بهذا، وجعل العي مسألةً من مسائل المنطق!

اقترب زياد منه وقال متهكماً:

- وما يشغل خاطر الأمير؟ شفّك الشوق إلى سجن الصقالبة؟

ثم أرسل بصره إلى حيث ينظر محمد وقال:

- ما زلت ترسل بصرك إلى الزهراء! لم ينلك منها إلّا سجن الصقالبة. فاقنع بهذا الحظ منها، فاليأس إحدى الراحتين كما قالت العرب.

لم يتحوّل محمد ببصره، ثم تحدّث بنبرة غامضة عميقة مفعمة بالتحدي والثقة.

- ماذا ترون إن صارت مقاليد أمور هذه البلد في يدي يوماً؟

ضحك زياد، واكتفى الآخرون بالابتسام وتبادل النظرات، باستثناء عمرو الذي لبث ينظر إلى محمد باهتمام وجدّ.

وقال زياد ضاحكاً:

- بعد سجن الصقالبة؟ هذه والله طرفة أحسن مما كنت أروي.

هنا استدار محمد إليهم لأول مرة واستعرضهم بنظراته وقد ضم يديه وراء ظهره. وقال:

- إن شئتم فاحملوا الكلام على محمل التندّر والتسلية. وليختر كل منكم خُطّةً أُولّيه إياها إذا أفضى الأمر إليّ.

ران الصمت لبضع لحظات، حتى قطعه عليّ قائلاً:

- لا بأس. ما على الإنسان أن يحلم ويتمنّى ويتخيل.. تولّيني حسبة السوق. فإني أحب هذه الفاكهة.

وأشار إلى طبق الفاكهة أمامه.

هزّ محمد رأسه هزّة خفيفة، وتحوّل ببصره إلى صديقهم عبدالرحمن، فقال:

- تولّيني كورة مالقة وأعمالها، فهي وطني.

وجاء دور عمرو الذي بدا متردداً، فحثه محمد:

- عمرو!

أجاب عمرو بلا حماس:

- إني أوثر قرطبة. تجعلني صاحب المدينة فيها.

أخيراً جاء دور زياد الذي اقترب من محمد وأخذ بلحيته وقال:

- أما أنا فلا أحب أن أحلم.. وإن كان لا بدّ فإني أحْرصُ على مصالح المسلمين من أن يتولّى عليهم رجلٌ مثلي.. ولكن يا ابن عمّي، إذا أفضى إليك الأمر، فمُرْ أن أُجْلدَ مائة جلدة، ثم يطاف بي في قرطبة كلها على حمار، ووجهي إلى ذنبه!

هنا أخذ يفرك خدّي محمد بحركة سريعة ويقرصهما بتحبب. وتابع قائلاً:

- ومع ذلك فإني أحبك يا ابن عمي.

ثم طبع على خدّه قبلة قويّة طويلة تعمد أن ينهيها بطرقعة مسموعة، قبل أن يتراجع وهو يطلق ضحكات خفيفة متقطعة. حافظ محمد على وجه غامض الملامح مع طيف ابتسامة. ثم تحوّل بوجهه نحو الزهراء من جديد.

لم ينقض وقت طويل حتى ذاع صيت محمد بوصفه أحسن كاتب للرقع والعرائض، بعد أن اقتعد لنفسه دكاناً على الرصيف المقابل للزهراء. فتزاحم على بابه أهل الحاجات والشكاوى والمتظلّمون إلى جانب المنافقين والمتزلفين الذين يتسابقون إلى رفع التهاني إلى كبراء الدولة في المناسبات المختلفة الجليلة والتافهة من تهنئة بانتصار على العدو، إلى تهنئة بمنصب رفيع، إلى تهنئة بالعيد، إلى تهنئة بمولود حتى ختان صبيّ. وللتعازي أيضاً نصيب من تلك الرقع. ولم تكن البلاغة وحدها ما انماز به عن غيره من الكتاب، وإنما كذلك قدرته على مخاطبة العقول بالحجة والمنطق، وعلى استمالة القلوب والعواطف، وكل ذلك حسب مقتضى الحال والطلب. وقد عرف عنه أنه لا يكتب رقعة واحدة تشاكل أخرى مما كتب في المناسبة نفسها وفي قوة البيان وبلاغة العبارة. وقد أتاح له هذا العمل أن يتعرّض لأصناف مختلفة متباينة من الناس. أما الضعفاء من أصحاب الحوائج والظلامات، فلم يكن يقتضي منهم أجراً، بل ربّما أعطى أحدهم من ماله بعد أن يدبّج له رقعة ويجتهد في تحبيرها. وأما أهل المال والجاه فيقتضي منهم أضعاف ما يقتضيه الكُتّاب الآخرون، فلا يساومونه وقد عرفوا براعته وأنهم يدركون ببلاغته ما لا يدركون بغيره. فكأنه كان يردّ فضل أموال هؤلاء على الضعفاء الذين يقصدونه، فيعتدل بذلك الميزان، ويواسي ضميره الذي ينكأ عليه أنه صار لسان المتزلّفين لأهل السلطان وللفتيان الصقالبة أنفسهم الذين صاروا يقصدونه دون كُتّاب القصر، الذين درجوا على طرق في الكتابة صارت مألوفة مكرورة، فكأنهم يعدون الكتب مسبقاً للمناسبات المتوقعة، حتى إذا وقع الطلب أخرجوها من خزائنهم.

ها هي أسوار الزهراء التي كان قبل الآن يرسل إليها أنظاره من بُعد تنتصب قبالته، ويرى أهل المراتب يدخلون ويخرجون من أبوابها في نهار يومه. على أن قرب المكان لم يشعره بقرب الغاية.

- أبيني وبين الزهراء هذا السور؟ كأني من أهل الأعراف!

قال فيما يشبه الهمس وهو يتأمّل أسوار الزهراء من مكانه على الرصيف المقابل وقد فرغ من عمل النهار وإلى جانبه ابن عمه عمرو الذي مرّ به ليعودوا معاً إلى المسكن. قال عمرو بمثل نبرته التأملية:

- نعم.. ولكن، أين الجنة من السور، وأين النار!

رمقه محمد لحظة، ثم قال:

- لكلٍّ جنته أو ناره. والله وحده يعلم ما يدور خلف الأسوار.

* * *

لم يكن يدري في تلك اللحظة أن الفتاة الجميلة التي رآها يوماً في دار المدنيات كانت تجلس بين وصيفاتها في جناحها الخاصّ بقصر الخليفة، وقد ظهر عليها الحمل. وكانت إحدى الوصيفات تروي لها بعض الطرائف الماجنة على سبيل التظرّف والترفيه، حين دخل عليهن جؤذر، أحد كبار الفتيان الصقالبة الخصيان دون أن يسمعن استئذانه. فتوقفن فوراً عن الكلام، وأسرع بعضهن إلى إصلاح طريقة الجلوس تحشّماً على نحو عفوي، وخاطب جؤذر السيدة صبح باحترام بالغ:

- هل تأمر السيدة بشيء؟

أجابت صبح:

- لا شيء الآن.

- إذا بدا لكِ شيء.. أيّ شيء.. أوامر مولانا أمير المؤمنين لنا.

هزت صبح رأسها بهدوء وقالت:

- أعلم.

ما إن خرج وأطبق الباب وراءه حتى ارتفعت ضحكاتهن من جديد. وقالت بدور موجهة كلامها إلى الوصيفة التي كانت تروي النوادر:

- لا يكون قد سمعك تروين تلك الطُّرف، فيُنمي ذلك إلى الخليفة، وهو أعفُّ الناس لساناً.

ردّت الوصيفة باستنكار:

- ذاك؟! جؤذر! ما هو برجل ولا امرأة.. فإن سمع من تلك الطرف لم يفقه لها معنىً!

تضاحكن من جديد، وقالت صبح:

- ومع ذلك لا يدخل عليَّ أحدهم إلّا جفلت وأصلحت خماري، كأنه رجل ككل الرجال!

قالت إحدى الوصيفات على سبيل التأكيد:

- وأنا كذلك. وما زلت أتساءل أحياناً: أحقاً لا يحسّ شيئاً؟

وغمزت بعينها غمزة موحية بمقصدها، واستأنفت:

- أعني، ماذا لو كنا واهمات؟ ماذا لو كان الطبيب أو الحجّام قد أخطأ عمله حين... تعلمن مقصدي.. لا.. الحيطة أولى.. لا أتبذّل في ثيابي أمامهم أبداً.

تصاعد الضحك من جديد، ووجدت بدور الفرصة سانحة لتنال من تلك الوصيفة، فقالت بنبرة الدعابة والسخرية:

- تحسنين الظنّ بنفسك! أوَ تحسبين أنك لو تخففت من بعض ثيابك ورآك أنشط الفحول، يتفطن لك؟ قد بلغت حكم القواعد من النساء.

ردّت الوصيفة دون أن تغادرها الضحكة مع الأخريات:

- ما أطول لسانك، قطعه الله. بل تَحْسِدينني.

ثم توجهت بكلامها إلى صبح:

- هل سمعتِ يا سيدتي؟ ألا تعاقبينها؟

قالت بدور:

- تعاقبني وأنا أُضحكها طاعة لأمير المؤمنين الذي أمرنا بخدمتها والسهر عليها؟

قالت الوصيفة:

- وهذه خدمة السيدة التي أمر بها أمير المؤمنين؟

أجابت بدور:

- أما علمتِ أن الضحك والسرور للمرأة الحامل ينشطان جسمها وييسّران ولادتها، وأجدر بأن يجعلاها تضع طفلاً يكون منشرح الصدر منبسط النفس عمره كله. فإذا كان هذا الطفل ولد الخليفة ووليّ عهده عمّ انبساطه على الرعيّة، فكان عهده كأيام العروس. ألا تَرَيْن إذن؟ أنا الآن لا أخدم السيّدة إلّا بقدر ما أخدم الرعيّة كلها.. ثم لن تجدي أحداً يذكر ذلك.

ما إن أنْهَت عبارتها حتى ظهر الخليفة داخلاً، فوقفت الوصيفات من فورهن وانحنين له ثم خرجن تباعاً. وإذ همّت صبح بالنهوض كفّها الحكم برقّة .

- لا عليك.

قالت صبح:

- لم أبلغ بعد ما يثقلني عن النهوض لسيدي ومولاي.

- سيّدك ومولاك ينزل جالساً إلى جوارك.

ثم نظر إلى بطنها مبتسماً وقال:

- لا أراني أصبر حتى أرى ولدي عبدالرحمن.

تساءلت صبح وقد فاجأها الحكم بالاسم الذي اختاره:

- عبدالرحمن!

- وأي اسم أحسن منه؟ لعله يكون على مثال جدّه عبدالرحمن الناصر.

ثم اقترب بوجهه منها وأردف مستدركاً بتحبب:

- إلّا أنه سيكون أجمل منه، لأن أمّه أجمل من أمّ الناصر!

ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، ولأمر ما شعرت بالحرج من نظرته المباشرة في عينيها، وكأنه يقتحم دواخلها. واستأنف قائلاً:

- آه يا صبح! ما زادك الحمل إلّا جمالاً. ولقد كنت أعجب من غلوّ الشعراء في محبوباتهم، وأقول: هم الشعراء الذين يتبعهم الغاوون. حتى اختبرت ما اختبروا، وصرت أكابد الشوق كالذي يكابدون.

قالت صبح:

- الشوق! كيف وأنا عندك؟

مكتبة
t.me/t_pdf

قال الحكم بتمعن:

- وهذا سؤالي لنفسي.. كيف وهي عندي؟

بقدر ما أطربها غزله الصادق وبعث فيها شعوراً غريباً بالقوة، فقد خالطها منه أيضاً شعور بعبء ثقيل، إذ لم يكن في وسعها أن تطرد من نفسها أشواقاً داخلية تمنعها من أن تكافئ مشاعره المتدفقة بمثلها. فذهبت ببصرها إلى البعيد في نظرة غائمة غامضة.

أما الفتى الذي صادفته يوماً في دار المدنيات، فما زال يزورها في أحلامها وخيالها بين الفينة والأخرى، ولكن صار عليها أن تجهد ذاكرتها في استرجاع ملامحه، ولا تدري لماذا تتصور لها واضحة أحياناً كأنها تنظر إليها عياناً، ثم تبدو باهتة غائمة أحياناً أخرى. ولكن لماذا تُعَنِّي نفسها بذلك وليس منه جدوى ولا أمل ولا غاية، إلّا أنه يحرّك فيعمق وجدانها تلك الأشواق الموجعة التي لم تفلح الزهراء كلها وحب الخليفة نفسه، وحملها بولي عهده، في إخمادها.

على أنه لا حيلة لها بذلك، فهو يدهمها بلا إرادة منها. وهي لا تريد أن تقاومه على كل حال، إذ إنه يبعث فيها شعوراً دافئاً لذيذاً وإن كان آثماً في الوقت نفسه. وبعض الأشواق الآثمة التي لا تجاوز حديث النفس قد تترك وجعاً مفعماً بالنشوة والرضا والاكتفاء!

أما الفتى نفسه الذي لا تعلم أنه يعمل في كل نهار أمام السور ويحلم بما وراءه، فلم يعد يذكرها في نفسه إلّا أن يأتي أحدهم على ذكر دار المدنيات أو يسمع صوتاً جميلاً يذكِّره بصوتها، أو تمثلها له الرغبة التي لم تجد حتى الآن صورة أجمل منها لتنصرف إليها! حتى مع وجود خطيبته عائشة التي كانت تفيض له حباً وحناناً دون أن تقتضي منه كفاء ذلك. وقد أدركت طموحه البعيد حتى قبل أن يحدّثها به، فآمنت به.

كانا يتمشيان في أحد المتنزهات حين أخذ يحدثها متهكماً بحاله:

- تصوّري؟ أنا الذي ما تركت عالماً في جامع قرطبة إلّا درست عليه، وما تركت كتاباً من أمهات كتب الأدب والفقه والحديث والتفسير

واللغة إلّا قرأته ووعيت ما فيه.. ثم ماذا؟ أكتب التهاني بمناسبة ختان صبي من أبناء الوزراء. وماذا؟ عليّ أن أستدعيَ كل أبواب البيان والبلاغة.. تشابيه واستعارات ومجازات بكل أنواعها.. وكل ذلك في ختان صبي ككل الصبيان، إلّا أن أباه وزير.. وكأن ختانه خبر عظيم من أخبار الأمّة، وحادث من أحداثها الكبرى، دونه أيام العرب وملاحمهم العظمى.

ضحكت ضحكة خفيفة، وتابع:

- أين يصل النفاق ببعض الناس! وأنا.. أنا أكتبه لهم.

رمقته بحنان وتأمّل وتفهم وقالت:

- أعلم ما في نفسك يا محمد. ستبلغ غايتك بإذن الله.

قال:

- تعلمين غايتي؟

- لم تحدّثني بها. ولكنك لا تحتاج إلى ذلك. فأنا أستشعرها بغير كلام، وأراها كفلق الصبح.

- حقّاً!

هزت رأسه واستأنفت:

- وعندئذٍ سوف يرفع لك ذوو الحاجات رقعهم، وسوف يدبّجها لهم الكتاب تدبيجاً.. ومن يدري؟ لعله حين يصير لنا طفل صبيّ، ويحين وقت ختانه، تأتيك الرقع بالتهنئة، وقد حفلت بألوان البلاغة.. تشابيه ومجازات واستعارات. ويقوم الشعراء بين يديك.

قال ضاحكاً:

- إذن، آمر بهم فيُضربون على أقفيتهم، ثم أنفيهم من الأرض. فما أفسد السلاطين مثل نفاق المنافقين.

أخيراً جاء الطفل الذي انتظره الحكم طويلاً حتى أوشك أن يستسلم لليأس. حمله على يديه، وبعد أن تلا الأذان بصوت خفيض عند أذنه اليمنى والإقامة عند اليسرى، أخذ يتأمّله بخليط من الحنو والذهول وهو يتمتم بحمد الله وشكره، بينما كانت صبح ترقبه من مكانها في السرير مع ابتسامة شاحبة. اقترب من سريرها وناولها الطفل فضمته إلى صدرها وجلس الحكم على حافة السرير وقد ابتلت عيناه بدموع صامتة لم يستطع إخفاءها. ثم أخذ يمسح على يد صبح بفيض من مشاعر المحبة والامتنان.

رُفِعت أعلام الزينة على أسوار الزهراء ونفخت الأبواق إعلاناً بمولد ولي العهد عبدالرحمن بن الحكم. وجابت فرق الموسيقى والطبول والصناج طرق المدينة وأحيائها وساحاتها، ونُصِبت سرادقات ضخمة مُدّت فيها خوانات الطعام والشراب والحلوى لعامة الناس، وقطع الخليفة مبالغ ضخمة توزَّع على الفقراء وطلبة العلم. وعاشت قرطبة ثلاثة أيام من الاحتفال والبهجة وحلقات الرقص والغناء. ولم يفت بعض المتزمّتين أن ينكروا ذلك على الناس. أما محمد بن أبي عامر الذي أصاب حظاً عظيماً في المناسبة ممن تدفقوا على دكانه ليحبّر لهم رقع التهنئة، فقد شارك المتزمتين في الإنكار ولكن لأسباب أخرى. فحين اختلى بأصحابه بعد يوم حافل واستلقى مرهقاً على الحشية، قال كأنه يحدِّث نفسه:

– هؤلاء الناس.. أعني.. يخرجون إلى الساحات والأحياء، فيرقصون ويعزفون و.. إذا رزق الخليفة ولداً. ولا يفعلون مثل ذلك حين يرزقون أبناءهم! أحقاً هم على ذلك القدر من البهجة بطفل لم يَرَوه، وإن كان ولد خليفتهم؟ أم هو النفاق قد ألفه الناس؟

ردّ زياد الذي لم يفته أن يشارك فيما يعيبه محمد على الناس:

– أنا واحد من أولئك الناس. فهل تعتقد أني كنت هناك أتقفز وأترقص فرحاً بميلاد ولد الخليفة، أو نفاقاً له؟ وما ينالني وينال غيري من نفاق لا نتوصّل به إلى وليّ الأمر فرادى فيثيبنا عليه؟.. يا صاحبي..

إنها حاجة فينا، ثم نترصّد لها المقام والمناسبة. كان الناس يحتفلون هناك لغرض الاحتفال.. لا غير.. جُلَّهم إن لم يكن كلّهم.. ولكن قل لي أنت: كم رقعة كتبت حتى الآن لأصحاب التهاني والتبريكات؟ .. هيا.. اذكر لنا بعض الذي كتبت..

ثم تحوّل إلى لهجة التهكم والاستعراض:

- كيف كان قدومه إلى الدنيا أعظم أسباب السعادة والبهجة للأمّة كلّها.. وكيف عمّت الفرحة الآفاق ومشارق الأرض ومغاربها حين أشرق على الدنيا نوره، حتى نسيَ الفقير فقره، وسلا المريض عن دائه.. و.. هيا، قل لنا.. فأنت أبلغ منّي.

قال محمد بهدوء دون أن يغير من ضجعته:

- كلام أكتبه على لسان غيري.

قال زياد:

- ولكنك تُحسنه.. وحتى تحسنه، لا بدّ لك أن تتمثل نفاق طالبه.. فأنت شريكه وإن عاندت، كبائع الخمر الذي لا يشربها..

آثر محمد الصمت حين لم يجد ما يحاجج به عن نفسه. وابتسم زياد ابتسامة الفوز.

ولكن ذلك الحرج الذي ما زال يحوك في صدره، لم يمنعه من استغلال المناسبة بكل ما أوتي من موهبة وحيلة. ولم تكن غايته تقتصر على الترزق بالكتابة، وإنما كذلك التقرّب إلى أهل القصر ممنّ يطلبون عمله، وفي مقدمتهم كبار الفتيان الصقالبة الخصيان الذين لا يبغضهم إلّا بقدر ما يرجو الآن الانتفاع بهم. وإلى ذلك فقد كان يرجو أن يتنبه من تخاطبهم رقعه إلى بلاغته، يسألون عنه. وكان يعلم أن «جؤذر» و«فائق» هما كبيرا أولئك الفتيان. فاجتهد أن يدبّج لهما أفضل رقع التهنئة الموجهة

إلى الخليفة، وأوهم كلًّا منهما أنه خصّه بالأحسن دون غيره، حين رأى حرصه على ذلك. ولكن «فائق» إذ تناول رقعته من محمد وهمّ بأن يغادر، توقف فجأة وذهب في التفكير، ثم ارتد إلى محمد وقال:

- أريد أخرى؟

قال محمد متعجباً:

- تعني رقعة أخرى؟

هز فائق رأسه.

سأل محمد:

- فيمَ هذه المرّة؟

أجاب فائق:

- تهنئة أخرى بالمولود.

- كيف يكون هذا؟ رقعتا تهنئة للخليفة؟

- بل لأمّ ولد الخليفة.. صبح!

ثم استدرك من فوره:

- السيدة صبح.

- أهذا اسمها؟

ثم تساءل محمد متعجباً:

- وقد بلغت مكانتها عند الخليفة أن يرفع لها كبير الفتيان رقعة بالتهاني؟

قال فائق:

- هي عنده الآن في أرفع منزل. لو طلبت منه بيضة الديك لبث عُمّاله في الأقطار يطلبونها. وما عليَّ لو أرضيتها فأرضي سيدي برضاها. وهو أمر لم يسبقني إليه أحد من الفتيان، فأكون قد زدت عليهم.. هيّا.. الآن وأنا عندك.

اكتسى وجه محمد بملامح الشرود والتفكير، حتى أخرجه فائق منهما:

- ما الذي يؤخرك يا محمد؟

رفع محمد رأسه ونظر إلى فائق:

- صفها لي.

قال فائق مندهشاً من السؤال:

- ماذا؟ إنها خاصة أمير المؤمنين وحرمه.

- كيف أكتب لها وأحسن الكتابة، إن لم أعرف صفتها؟

تردد فائق لحظات قصيرة، ثم مالَ على محمد وهمس كمن يبوح بسرّ:

- أجمل من رأيت من النساء.. بشكنسية.. نساء البشكنس مشهورات بالحُسْن.

ثم نفض رأسه وقال مستدركاً بنبرة احتجاج:

- ولكن، ما حاجتك إلى معرفة مظهرها؟ لن تصفها في كتابك.

قال محمد:

- ماذا أيضاً؟ أعني الطبائع.

أجاب فائق:

- صرت أعلم الناس بالنساء لطول مخالطتي حرم القصر.. وهنّ كُثْر.. الطبائع.. نعم.. هي مغنية في الأصل.. صوت عذب جميل.. كأنه.. كأنّه..

أتمّ محمد عنه:

- مزامير داود.

- نعم، سمعتها تدندن مرة..

ثم تحوّل إلى نبرة الاعتراف:

- بل بضع مرات.. أعني نحن فتيان القصر، لا نُمنع من مكان فيه.. تفهم ما أعني.. وليس هذا لأحدٍ غيرنا..

وحين رأى ابتسامة غامضة على وجه محمد، مالَ عليه من جديد، وقال:

- أعلم ما في نفسك. ولا يضرّني أن يقال: خصيان. ولكن، هل تفهم الآن لماذا كان لنا الأمر على الفتيان الفحولة وهم أصحاب السلاح؟

اعتدل في جلسته وتابع بفخر:

- ثم تحسبون أننا نحسدكم على شيء؟ ما نقصنا عنكم فيما تعلم إلّا لنزيد عليكم فيما تعلم ولا تعلم..

في تلك اللحظة برز زياد عند الباب في هيئة رثة مبتدراً إلى السلام، فأسرع محمد إلى صدّه قبل أن يسبب له الحرج:

- ألا ترى أنني في مشغلة؟

وأومأ إليه بعينه إيماءة ذات مغزىً فهمها زياد، فرفع يديه وقال معتذراً قبل أن يخرج:

- اعذر جهالتي يا سيدي.. أخطأت في المكان..

وعاد محمد ليستزيد من فائق الذي استأنف قائلاً:

- آه.. نعم. صوت عذب. تعلّمت الغناء والضرب على العود في دار المدنيات.

تنبهت ملامح محمد مع ذكر دار المدنيات ومع ما تثيره في نفسه من الذكرى والمشاعر.. بينما تابع فائق:

- ظاهرها حُسْنُ المعشر وحلاوة اللسان.

تساءل محمد مستطلعاً:

- ظاهرها؟

أجاب فائق بنبرة تنطوي على بعض الغمز:

- إنّ لها عقلاً وعلماً.

قال محمد حائراً في المغزى:

- والعقل والعلم تهمة؟

أجاب فائق دون تردد:

- حين يكونان أكبر مما تحتاج إليه الجارية المغنيّة وأمّ الولد! ألا تفهم مقصدي؟ حينئذٍ، أين تَصْرِف العقل والعلم، مع حظوتها عند أمير المؤمنين، وكونها أم ولده؟ تنبه يا محمد.. استعمل فطنتك.

ونقر على جانب رأسه بإصبعه، وتابع:

- أنت شاب ذكي العقل، ولكنك قليل الخبرة في هذه الأمور.

تصنّع محمد السذاجة وقال بنبرة ماكرة مستزيداً:

- نعم. أنا قليل الخبرة في هذه الأمور.

تابع فائق شارحاً:

- لن تجد لعقلها وعلمها مُنْصَرَفاً، مع منزلتها عند مولانا، إلّا التطلع إلى بعيد. وللنساء يا صاحبي مداخل ومسالك وطرق يتعلّم منها إبليس لعنه الله.. اسألني أنا.. فكيف إذا كان مولانا، أطال الله عمره، في سن الكهولة، وهي في زهوة الشباب، من يكون له السطوة على ولدها..ولد الخليفة.. والخليفة من بعده في قابل الأيّام؟

ذهب محمد من جديد في التفكير العميق والتأمل، بينما انتفض فائق برأسه كأنه يصحو من نومة غلبته على نفسه.

- ما الذي جرّني إلى كل هذا الحديث؟ جوزيت يا محمد.. هل كان يجب أن تحملني عليه؟ ما حاجتي وما حاجتك به؟

أجاب محمد مع ابتسامة غامضة وقال:

- حاجتي خدمتُك برقعةٍ لم يكتب أحد مثلها قط!

وقد كان كما قال. وما كان فائق ليدرك أن ذلك الكلام الذي باح به قد وقع من محمد موقعاً خاصّاً يجاور أحلامه وطموحاته، فألهمه أن يخط كتاباً نطق فيه عن نفسه أكثر مما نطق فيه عن فائق نفسه!

وإذ خرج فائق من دكانه وبيده الرقعة، رجع محمد بجسمه إلى الوراء وسرح في التفكير مع طيف ابتسامة.. ووجد نفسه يهمس ساخراً وهو يسترجع كلام فائق عن سرّ قوة الفتيان الخصيان:

- لا تحسدوننا على شيء مما نقصتم به عنا! فكان نقصكم زيادتكم علينا! هه..

قطع عليه زياد تأملاته:

- هل آن للسلطان أن يتفقد ضعفاء رعيته؟

التفت إليه محمد بوجه عابس وقال مؤنباً:

- كم مرّة قلت لك، لا تقدم عليّ وأنا مع الناس إلّا بعد أن تُصلح هيئتك؟

- على رسلك يا ابن عمّي. لم تعبر بعد من ذلك الباب!

وأشار إلى بوابة سور الزهراء. ثم عاد إلى لهجته المرحة المعهودة:

- ومع ذلك فأنت سلطاني من الآن. وما حقّ فقراء الرعيّة على سلطانها؟

أخذ محمد بيده حفنة دراهم ووضعها في يده.

- خذ.. واغرب عن وجهي الآن.

هز زياد يده بالدراهم فرحاً، ومضى مسرعاً. وتحرك محمد ليقف أمام دكانه، ويرسل نظرة إلى أسوار الزهراء وبواباتها. أخذ نفساً عميقاً وتمنّى لو يستطيع أن يخترق الحجب ليرى وقع الكلام الذي كتبه على ساكنة القصر البشكنسية. وفي لحظة خاطفة خامره بعض القلق إذ خشي أن يكون قد جاوز الحدّ في خطاب امرأة الخليفة وأم ولده حين لامس بكلامه جانب الأنثى فيها.

ولكن هذا على وجه الخصوص استوقفها طويلاً أمام الرقعة وحرّك مشاعرها على نحو لم تألفه من قبل. فبدت كالمسحورة وهي تعيد النظر في الرقعة. أي كاتب هذا الذي يستطيع أن يكتب هذه الكلمات لامرأة لا يعرف عنها إلا أنها أم ولد الخليفة، وفي رقعة يُفترض أن تكون من طراز الكتابة الديوانية المكرورة المملّة التي لا حياة فيها ولا أثر في ثناياها من شخص كاتبها أو المكتوبة إليه. والأعجب أن تكون بلسان خصيّ لا يتمثل معنى الأنوثة والذكورة في قلبه وجوارحه. لا، لم يشأ ذلك الكاتب أن ينطق عن فائق، ولكنه تعمّد، لأمر ما، أن يتوسّل فائق ليخاطبها عن نفسه في المقام الأول، فيستحضرها في خياله، ويحضر لها بكلامه! وهو ما كان.

فسألت فائق عن ذلك الكاتب الغريب، فذكر لها اسمه وأنه كاتب شاب يقتعد دكاناً قبالة الزهراء.

عادت تقرأ في الرقعة بعد أن انفردت بنفسها:

«... وقد أراد الله بكما خيراً إذ خَصّكِ به دون حرم الخليفة ونساء العالمين، كما خصّه بك. فكان له من أُمّه حظ مثلما كان لها. فقد سَمَت به قدراً، وسما بها عقلاً وحُسْناً. وكل شيء عند الله بميقات وقدر. فقد قدّم إذ أخّر، وما أخّر ولد مولانا إلى موعد ميلاده المقدور إلّا لتكتمل له أسباب السعد والحبور، بأم تستحقه بقدر ما يستحقها، وتليق به بقدر ما يزدان بها. فالولد مزاج أمّه وأبيه، وقد قال ﷺ: «تخيّروا لنطفكم» وقد هدى الله مولانا أمير المؤمنين إلى أحسن اختيار. فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِر. ولقد يقاس البعيد على القريب، والغائب على الحاضر. فلكأني به يشبّ وفي بُرْدَيْه رفعة أمويّة، ووسامة بشكنسيّة: يشدّ بالأولى شدة الأسد، ويرقّ بالأخرى رقة العليل في رياض الزهراء. ويهديه في هذا وذاك عقل وحكمة استجمعهما من أبيه وأمّه. فأكْرِم بمن جمع الله له حسن الظاهر والباطن، وجمال الخَلْق والخُلُق. وإنّ الشمس وإن احتجبت بالسحاب المركوم، لم يحل ذلك دون أن تنفذ بنورها، فيعمّ الخلق. فاستدلّ به المُبْصر عليها، ورآها بآثارها، إلى أن ينكشف عنها حجابها...».

رفعت رأسها عن الرقعة، وسرح تفكيرها إلى أفق بعيد، ولاحَ على وجهها طيف ابتسامة، ثم همست لنفسها:

- لا والله يا فائق. ما كُتب هذا بلسانك، ولا تعي منه شيئاً. فهذا لسان لا يكون إلّا لفتى مكتمل الرجولية، يرى المرأة بعين الرجل، ولو من وراء حجاب! محمد بن أبي عامر إذن!

وإذ سمعت حركة لدى الباب، وجدت نفسها على غير تدبّر منها تدسّ الرقعة تحت الحشيّة لتخفيها!!

فوجئ محمد بن أبي عامر برسول من الوزير ابن حدير يأمره بأن يمضي من فوره إلى مجلس قاضي الجماعة محمد بن السليم في دار القضاء، حيث ينتظره الوزير مع القاضي.

أسرع متلهفاً يسابق الريح حتى دخل المجلس وألقى السلام.

قال ابن حدير:

- تعال يا محمد.. اجلس هنا.

وأشار إلى مقعد قريب، واستأنف:

- كنت في حديث مع سيدك قاضي الجماعة، فذكر لي ما يلقى من كثرة عمله وازدحام أصحاب الدعاوى على بابه، وحاجته إلى فتىً نبيه، له علم بالأحكام، يرتّب له رقع الدعاوى ويدوِّن الوقائع والأحكام، ويحفظ الدفاتر والسّجلات، ويسعى بينه وبين أصحاب الشُّرَط. وربّما كلفه النظر في بعض الدعاوى الصغيرة لينصرف همّه إلى كبيرها وعاجلها. وقد ذكرتك له، أسعده الله، والشيوخَ الذين درستَ عليهم في جامع قرطبة، والإجازات التي أجازوك بها. فطلب أن يراك.

ضجّ صدره بالفرح، ولكنه آثر أن يحافظ على مظهر اتزانه، واكتفى بأن انحنى برأسه قليلاً للقاضي الذي كان يرمقه مليّاً كمن يريد أن يقرأ داخله بفراسته. وكان الرجل مشهوراً بالفراسة وقوة العقل والصرامة والنزاهة والعدل في الأحكام، لا يخشى فيذلك لومة لائم، ولا يستمع إلى

وساطة أحد مهما تكن مرتبته. فهابه كل أصحاب الشأن حتى الحاجب المصحفيّ. وكان شديد الجرأة عليهم جميعاً.

حين عاد محمد إلى أصحابه وقصّ عليهم الخبر، هتف زياد بأسلوبه المرح المألوف:

- الله أكبر.. فلنتودّع من فقرنا القديم.

اعترض عليّ ساخراً:

- فقرنا؟ وهل ولَدَنا لتكون نفقتنا عليه؟

قال زياد:

- إنه ابن عمّي.. وأمي العجوز المُقعدة أوصته بي، فهل يخون عهدها وينسى دعاءها له أطراف الليل والنهار؟ والله ما أصابه هذا الحظ إلّا بدعائها، وإذن فحقي في ماله مكسوب..

ثم دار في المكان بأسلوب استعراضي هازل:

- إنه دعاء أمّي أيها الناس!

قال محمد:

- خذ المال كلّه، ولكن أرحني من خلقتك هذه.

ردّ زياد قائلاً:

- آآه، ولكن، كما أوصتك أمي بي، فقد أوصتني أمك رحمها الله بك.. فكيف أخون عهدها؟ ثم إن رزق القضاة على أمثالي.. نقترف المنكرات، فيقضوا بنا.. وإلّا لبار عملهم!

هنا تدخّل عمرو بلهجة جادّة وخاطب محمد:

- دعك من هذه، ولنخرج من الهزل إلى الجد. الآن وقد صرت في عمل القاضي، ألا تكلّمه في أمر إبراهيم، صاحب السجن! فأنت الشاهد والبيّنة.

تمنى محمد لو أن عمرو لم يواجهه بهذا الأمر الذي يُؤْثر أن يتجنبه في هذا الوقت على الرغم من حضوره في نفسه وأنه ينكأ عليه. وبدا له أن هزل زياد على سماجته أهون عليه من جدّ عمرو ويقظة ضميره، فأشاح بوجهه وآثر الصمت لولا أن عمرواً ومعه زياد وعليّ ظلوا يترقبون جوابه ويسلطون النظر عليه، فاضطر إلى الكلام.

- والله ما أحب شيئاً أكثر من السعي في إطلاقه. ولكن التعجّل يفسد عليَّ وعليه.

ثم اعتدل جالساً من ضجعته واستأنف:

- لا أحد من أصحاب الأمر والرأي يعرف أني نزلت ذلك السجن.. إلّا الوزير ابن حدير.. فلا أنا أذكره لأحد، ولا ذاك اللعين جوهر يذكره. فلو أعلنت به الآن، وتولّى القاضي النظر فيه، فقد علم به من لا أحب أن يعلمه، ودخل فيه كبار الفتيان.

كالعادة، كان زياد أجرأ الأصحاب على تسمية الأمور بأسمائها، وكان يجد متعة خاصة في إحراج ابن عمه بكشف أغراضه ودواعيه، فقال:

- فصل الخطاب، أنه لا يريد أن يجازف بحظوظه الآن بعد أن وضع قدمه في خطة من خطط الدولة.

ردّ محمد بنبرة قوية صارمة رادعة:

- في حظوظي حظوظ إبراهيم ومئات أو ألوف مثله. فإن خاطرت بها الآن فكأني لا أرضاً قطعت ولا ظهراً أبقيت.

أكمل زياد متهكماً:

- بلى، بلى..والآجل المضمون خير من العاجل المظنون..وهلّم جرّا.. وهلمّ جرّا.

أرسل إليه محمد نظرة غاضبة صارمة، فوضع كفه على فمه، وعاد محمد إلى الاستلقاء.

نادى حاجب ديوان القضاء المتخاصمَيْن عبدالله بن محمد والحسن بن نعيم للدخول على القاضي محمد بن السريع. وإذ جلسا أشار القاضي للمدّعي منهما، وهو الحسن، أن يبسط مسألته، فقال:

- يا سيدي، استودعت هذا ألف دينار، وخرجت في سفر طال، فلما رجعت ردّ لي كيسي هذا، فلما فتحته وجدت فيه دراهم عوض الدنانير. فلما راجعته أنكر، وقال: ما فضضت ختم الكيس، ولا غيّرتُ فيه.

تحوّل ابن السليم ببصره إلى خصم الرجل وسأل:

- أهذا قولك له؟

أجاب:

- أجل يا سيدي. قد رددت عليه وديعته كما أعطانيها. ثم كان هذا جزائي عنده. فلولا أنصفتني منه يا سيدي، فقد سعى بالطعن بي بين الناس، وأنا رجل تاجر يقصدني الناس لحُسْن سمعتي.

سأل ابن السليم المدّعي:

- عندك بيّنة؟ هل كاتبته على وديعتك أو أشهدت عليها أحداً من الناس.

أجاب:

- لا والله لم أفعل، فقد كان لي صاحباً، وعاملته بالدرهم والدينار قبل ذلك ولم يخطر لي أبداً أنه يخونني.

هتف الآخر من فوره.

- قد أنطقه الله يا سيدي، هل كان يستوثقني على ماله لولا أنه علم أمانتي؟

قال القاضي للمدعى عليه:

- يلزمك اليمين إذن، إذ خصمك لا يملك البيّنة.

أجاب المدعى عليه:

- أحلف يا سيدي.. أحلف.

أشار القاضي إلى مصحف وضع على مسند:

- دونك فافعل.

تحرّك المدعى عليه بلا تردد نحو مكان المصحف، وقبل أن يضع يده عليه لينطق بالقسم، سُمع صوت محمد بن أبي عامر الذي كان يجلس في مكانه يدوِّن الوقائع ويراقب:

- قبل أن تفعل!

توقف المدعى عليه، وذهبت أبصار الجميع إلى محمد، وبدا القاضي عابساً وقد أزعجه تدخله، وقال محمد:

- إذا أذن سيدنا القاضي.

أومأ ابن السليم له بالإذن دون حماس. قال محمد مخاطباً المدّعي:

- كم طالت غيبتك؟

- خمسة أعوام.

- ألا ترينا بعض تلك الدراهم؟

استخرج المدّعي من الكيس حفنة من الدراهم وقدّم بعضها للقاضي وبعضها لمحمد.. أخذ محمد يقلّبها، وكذلك فعل القاضي الذي تبادل مع محمد نظرة خاصّة وقد تبيّن له القصد. وما هي حتى صاح القاضي بالمدَّعى عليه:

- أيها الخائن.. أخزاك الله..

ثم توجه بالكلام إلى حاجب الباب:

- ادع الشرطيّ.

قال المدعى عليه مضطرباً:

- لِمَ يا سيدي؟ أنا على شرط اليمين، وليس مع خصمي بيّنة.

اقتحمه القاضي بنظرة عابسة صارمة وهو يتحسس الدراهم، وقال:

- قال إنه أودعك ماله قبل خمسة أعوام، أي في عهد مولانا الناصر رحمه الله، ولم تنكر ذلك. و.. هذه..

رفع ابن السليم درهماً بيده واستعرضه أمام الحضور، واستأنف:

- هذه ضُرِبت بعد تولّي مولانا الحكم!

أُسقط في يد المدعى عليه، بينما تهللت أسارير المدعي، وأرسل إلى محمد نظرة امتنان. قال المدعى عليه بصوت مخنوق:

- ألا أردّ عليه دنانيره يا سيدي؟

قال القاضي:

- وأنت صاغر. وقضينا إلى ذلك أن تُسجن عاماً..

قال المدعى عليه متوسلاً:

- الرحمة يا سيدي.

قال ابن السليم بنبرة قاطع:

- هذه هي الرحمة. ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة:179].

بعد انقضاء المجلس ذلك اليوم أحب محمد أن يفاتح القاضي بمسألة تحوك في صدره فقال:

- يا سيدي. قضيت في ذلك الرجل الذي خان في الوديعة أن يُحبَس سنة، مع ردّ الحق إلى صاحبه. أما الحبس تلك المدّة فهو تعزير، وللقاضي تقديره. فقد يقضي بسنة، وقد يقضي بأقلّ أو أكثر. إذ ليس في ذلك حكم من القرآن والسنّة.

هز ابن السليم رأسه وقال مستزيداً:

- نعم!

تابع محمد:

- ألا يفضي ذلك يا سيدي إلى اختلاف أحكام القضاة في المسألة الواحدة، باختلاف أمزجتهم وتقديراتهم؟ فهذا أشد، وهذا ألْيَن. وقد راجعت دفاتر الدار في مسائل مماثلة قضى فيها من كان قبل سيدنا القاضي، فكانت أحكامهم متباينة، فهذا قضى بشهور، وهذا قضى بأعوام، ومثله كثير.

أطرق ابن السليم متفكراً، ثم سأل:

- وكيف تفعل؟

أجاب محمد:

- لا أدري يا سيدي. ولكن، لو كان في الوسع أن يقع التوافق على حكم واحد في المسائل المتماثلة مما ليس فيه حكم قطعي من القرآن والسنّة. ثم يعمم ذلك على القضاة في الكور والأنحاء. فيصدر كلهم عن مدوّنة واحدة في هذه الأبواب، فذلك أدنى للعدل.

قال ابن السليم:

- إذن نضيّق واسعاً، ونكبّل القضاة.. و.. نعم.. قد تتماثل المسألة مع المسألة إذا جرّدتها من مقام الحال. ولكن أنّى تتماثل الظروف والشروط والوقائع التي تحيط بالمسألة؟ ومن يسعه أن يحصر كل المسائل التي يمكن

أن تعرض في معايش الناس. ولو حصرت، فمن يسعه أن يحصر كل مقامات إنزالها في الزمان والمكان والبشر وما يحيط بهم؟

أجاب محمد:

- إن لم نسدّد، فنقارب. ويمكن أن يُترك للقضاة مدى معقول يتصرّفون فيه على وفق الحال والتقدير. فيقال مثلاً: أقلّه سنة، وأكثره خمس، أو أقلّه خمسون جلدة،وأكثره ثمانون، ونحو ذلك.

قال ابن السليم:

- تلك غاية بعيدة الإدراك، وإن رضي بها بعض القضاة أنكرها غيرهم، فننشغل بالجدل عن النظر في القضايا..

ثم نظر إلى محمد مع ابتسامة تنمّ عن الإعجاب، وأردف:

- وإن كان في رأيك بعض الوجاهة.

انحنى محمد برأسه تقديراً واحتراماً وقال:

- سيدنا قاضي الجماعة أحكم وأعلم.. هل تأمرني الآن بشيء يا سيدي أم تأذن لي؟

هزّ له ابن السليم رأسه:

- على بركة الله.

مشى محمد مبتعداً، وشيعه القاضي بنظرات متمعنة ثم استوقفه:

- محمد!

توقف محمد واستدار له:

- سيدي!

قال ابن السليم:

- أحسنت إذ كشفتَ خيانة ذلك الرجل بفطنتك. ولكن، إذا كنت في مجلسي وعُرضت عليّ المسألة، ثم رأيت فيها رأياً، فلا تبسطه في حضرة المتقاضين حتى تختلي بي فتشير برأيك، فإن رأيتُه حسناً راجعت نفسي في الحكم.

انحنى محمد برأسه للقاضي من جديد وقال متفهّماً:

- السمع والطاعة يا سيدي.

وحين استدار من جديد وتابع المشي وأَمِن أن يرى القاضي وجهه، ابتسم ابتسامة خفيفة غامضة.

* * *

حين لقي الوزير ابن حدير صاحبه القاضي ابن السليم بعد وقت، سأله:

- كيف وجدت محمداً.

أجاب القاضي بلهجة محيّرة وهو يقلّب يده:

- ام م م... هكذا وهكذا.

فوجئ ابن حدير بالجواب، فقال:

- عجيب! ما سألت إلا وأنا أتوقع أن تسرف في الثناء عليه، فذلك ظني به. ما الذي تأخذه عليه؟

أجاب ابن السليم دون تردد:

- فرط الذكاء، وحِدّة الذهن.

ارتسمت الدهشة على وجه ابن حدير، ثم أطلق ضحكة قوية:

- وهذا مأخذك عليه؟

- حين يبزّني، نعم.

- هذا حكم قاضي الجماعة؟

- لا يسع من كان في مثل عقله وبداهته وفطنته أن يرضى بمنزلته مني وقتاً طويلاً، ولا أن يسكت عن رأي يخالف رأيي تحشّماً، فما يزال يجادل عن رأيه حتى يضيق صدري به. ولا يحسن بالقاضي أن يحكم دون أن يكون منبسط النفس، فيفسد رأيه، ولا أن يعلم الناس أن معاونه يكافئه أو هو أصوب منه رأياً، فيهون في نظرهم. طلبت من يعاونني بالقدر الذي أشاء، لا بالقدر الذي يستطيعه ابن أبي عامر، فإن مكث معي على شرطه كان ظلماً لي، وإن مكث على شرطي كان ظلماً له.هذا هو حكمي فيه وفي نفسي.

تساءل ابن حدير:

- تصرفه إذن؟

- أكون أظْلَمَ الناس إذن.

- فكيف تفعل وقد قلتَ الذي قلت؟

* * *

جلس ابن السليم مع الحاجب المصحفي في ديوانه بالزهراء يفاوضه في زيادة النفقات لخطة القضاء كي يتمكن من زيادة عدد القضاة. وكما كان يتوقع فقد تحوّل التفاوض إلى ما يشبه المساومة العسيرة مع الحاجب المعروف بالإمساك، حتى في نفقات خطط الدولة. وفي لحظة ما من الجدال، مالَ القاضي على الحاجب وقال بين الدعابة والجدّ:

- أوَ تعلم ما يقال فيك؟

أجاب المصحفي وقد فهم المغزى:

- أعلم. وأن يقال ممسك بخيل خير من أن يقال: فَرّط.

- ولكنهم ينظرون إلى مالك وضياعك، فيرونها تكثر، ثم يرون إمساكك في نفقات الخطط والدواوين..! وقد رحم الله امرءاً جبّ الغيبة عن نفسه. والآن لا أطيل حجاجك. هل تأمر بالزيادة التي طلبتُها أم أراجع أمير المؤمنين!

نفخ المصحفي، وتلكأ لحظةً ثم قال:

- نصفها.

همّ ابن السليم أن يعترض، فسبقه المصحفي بلهجة قاطعة:

- أَرِح نفسك. والله لو أخذتَ روحي ما أعطيتك فوقها.

سقط في يد ابن السليم وقد علم أنه قد بلغ الغاية منه، فهز رأسه مستسلماً، ثم نهض مستأذناً ليخرج. واستدرك المصحفي عليه قائلاً:

- وإن شئت عرّج على داري الليلة.. قد أولمت لبعض أصحابنا.. بخيل! هه!

ابتسم ابن السليم وقال:

- تذب عن نفسك التهمة بوليمة يولم مثلها أي تاجر في قرطبة، وعندك من المال ما لا يهلكه إلّا الله.

- أعوذ بالله من شرّ الحسد والحاسدين.

- لا بأس.. طعام البخيل غُنْم.

تابع ابن السليم مشيه نحو الباب، وإذ بلغه توقف مستذكراً، ثم التفت إلى الحاجب الذي عاجله بالسؤال:

- وماذا بعد؟

رجع ابن السليم حتى اقترب من الحاجب وقال:

- يعاونني فتى اسمه محمد بن أبي عامر. لم أرَ مثله عقلاً وجدّاً وتدبيراً. وهو إلى ذلك كاتب بليغ. وعمله عندي دون موهبته. وأنا أوصي به وأشهد له. فلو وجدت له عملاً في الزهراء كنت لك من الشاكرين...

ثم أردف مداعباً:

- ودفعت عنك تهمة الإمساك، ما وسعني ذلك.

قال المصحفي دون تأخر:

- ليس عندي الآن..

ثم توقف، وبدا كأنه قد استذكر أمراً، بينما أخذ ابن السليم يرقبه مستطلعاً، حتى قال:

- ذكر لي أمير المؤمنين حاجته إلى رجل مؤتمن يكون وكيلاً لولده سيدي عبدالرحمن، فيكون قيِّماً على حاجاته ويدبّر ما قطع له أمير المؤمنين من الكور والضياع. كذلك ذكر لي حاجة أم ولده السيدة صبح لكاتب يكتب لها.. وقد ذكرتَ أنه كاتب بليغ.

قال ابن السليم متحمساً:

- لا تجد أبلغ منه بياناً. وقد كان هذا عمله قبل أن يلتحق بي.

تابع المصحفي:

- فلو جمعنا العملين له، أعني وكالة سيدي عبدالرحمن، والكتابة للسيدة أمّه..

أسرع ابن السليم فأكمل عنه:

- لوفرنا أجر أحد العملين! رأي حسن.

قال المصحفي متهكماً:

- الآن صار اقتصادي في النفقة رأياً حسنا!

أجاب ابن السليم ضاحكاً:

- ألم أقل لك؟ استعمله وأنا أدفع عنك تهمة الإمساك؟ هذا حسن.. سأبعث به إليك.

وإذ همّ ابن السليم أن يمضي، قال المصحفي:

- ومع ذلك لا أقطع بشيء.

نفخ ابن السليم وقال متضجراً:

- قد علمت أنه لا يخرج منك شيء إلا بعسر. ماذا الآن؟

شرح المصحفي قائلاً:

- قد توسّط في غيره بعض أصحابنا. فأنا أُدخلهم على السيدة أم عبدالرحمن، فتختار من يوافق هواها..

استدرك من فوره إذ شعر أن الكلمة الأخيرة لا تناسب مقام الحال.

- أعني من تراه أوفق لحاجتها وحاجة ولدها. فإن صاحب هذا العمل يخالط حُرَم السلطان، ويدخل على خاصّته!

* * *

لم يدرِ أصحاب محمد ما ألَمّ بصاحبهم إذ شعروا بأرقه في تلك الليلة. وقبل ذلك بقي صامتاً شارداً لا يشارك في الكلام. وفي صباح اليوم التالي نهض مبكراً، وبعد أن استحم ارتدى ثياباً جديدة فاخرة ابتاعها في اليوم المنصرم. ثم أسرف في التطيب وفي تسوية شعره وتمشيط لحيته، ومكث طويلاً أمام المرآة يدقق النظر في هيئته. حاول أصحابه معرفة السبب، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل، حتى قال عليّ مداعباً:

- هل تنظرون اليوم في دعوى امرأة حسناء ثرية لا زوج لها حتى تحرص هذا الحرص على هيئتك؟

أما زياد الذي نهض متأخراً فعلّق قائلاً وهو يتشمم الطيب عليه:

- أنا في أسمالي هذه، وابن عمّي ينفق على ثوبه وردائه نفقتي في شهر، ما هذا بالعدل ولا بالنَّصَف.. وما المناسبة؟

لم يلتفت محمد إليه، وتناول عمامته ووضعها على رأسه بعناية، وألقى نظرة أخيرة على نفسه في المرآة، ثم خرج دون أن ينبس ببنت شفة.

الزهـــراء

الزهراء، أخيراً!

موطن الحل والعقد، ومطمح الأفئدة ومُنْعَقَد الرجاء، حيث تتقرر مصائر الرجال والممالك!

أخذ قلبه يخفق بشدّة وهو يقف أمام البوابة العظيمة في انتظار أن يصل الإذن بالدخول من ديوان الحاجب. وعلى الرغم من أنه كان يبدو شديد الثقة بوعود أحلامه في الماضي حين كان يرسل نظره إلى الزهراء من بعيد، فإنه الآن، إذ توشك أن تفتح له أبوابها، لا يسعه أن يطرد طيفاً من الشك يخامره، حتى بدا أن انتظاره أمام الباب قد طال إلى الأبد. ولم يتحرر من مخاوفه وشكوكه حتى بعد دخوله إلى ما بدا له في الماضي أشبه بمدينة محرّمة. فكان يمشي ويجيل بصره في الساحات والعمائر والقصور وحركة الناس كمن يمشي في عالم سحريّ يخشى أن يتبدد كما تتبدد أحلام النوم أو كما تنقشع سحابة صيف. وليس أقسى من أن يصل الإنسان الذي أرهقه طول الظمأ إلى نبع الماء، حتى إذا انحنى عليه لينهل منه، حيل بينه وبينه. فالآن، وهو يمشي إلى ديوان الحاجب في صحبة أحد الحراس، يعلم أنه على الاختبار، فإما جنة الفوز، وإما جحيم الخيبة.

لم يطل انتظاره في رواق الحاجب المصحفي حتى أذن له صاحب الباب في الدخول عليه، فانحنى مسلّماً بأدب جمّ:

– سيدي الحاجب. السلام عليكم ورحمة الله.

ولكن الحاجب لبث منشغلاً بالنظر في بعض السجلات والدفاتر والتوقيع عليها، فلم يردّ السلام، وبقي محمد واقفاً على بُعد، ثم قال الحاجب دون أن يرفع رأسه عن الدفاتر:

- ابن أبي عامر؟

- خادمك يا سيدي.

هنا فقط رفع الحاجب رأسه في نظرة خاطفة أراد أن يعود بعدها إلى دفاتره، لولا أن هيئة الشاب استوقفته، فترك ريشته وأوراقه وأخذ يتملّى به بنظرة تنم عن الدهشة، بل الصدمة. وشعر محمد بالحرج والحيرة، ولم يدر كيف يقابل نظرات الحاجب المتفحّصة. فتى بهذه الوسامة يعمل لأم ولد الخليفة ويدخل على حُرَمه؟! لم يتوقع الحاجب هذا أبداً. فأعاد السؤال من جديد بنبرة تشي بالتعجب:

- أنت محمد بن أبي عامر؟

أعاد محمد الجواب:

- خادمك يا سيدي.

لم يجد الحاجب إلّا أن يتحدث بعبارات متقطعة.

- لم أتوقّع.. أعني.. حين ذكرك لي قاضي الجماعة.. قد ألفنا القضاة ومن يعمل عندهم على سمتٍ معيّن..

ثم عدل إلى صلب الموضوع:

- على كل حال. هل ترى نفسك أهلاً للمهمة؟

وأردف مستدركاً:

- هذا إذا وقع عليك الاختيار من صاحبة الشأن.

كان محمد قد استعاد رباطة جأشه، فأجاب بلا تردد:

- لا أخذل من أوصى بي يا سيدي، وأبذل وسعي.

- وكم وسعك؟

- أنا على شرط الاختبار.

تريّث المصحفي لحظة ثم قال متسائلاً:

- أم م .. ابن أبي عامر! قومُك؟!

بدا محمد حائراً وسأل مستطلعاً؟

- قومي؟

- أسرتك. نسبُك.. من أين جئت؟

- أنا معافريّ يا سيدي.

كان المصحفي يعرف منازل القبائل، فقال:

- حصن طرّش! الجزيرة الخضراء!

- أجل يا سيدي.

رجع الحاجب بجسمه إلى الوراء وأخذ ينقر بإصبعه على المنضدة أمامه وهو يتابع التحديق في محمد متأملاً، ثم عاد فتقدم بجسمه وقال بلهجة حازمة:

- اسمع يا محمد.. أنا لا أعرف عنك شيئاً إلا ما ذكره القاضي ابن السليم. وليس في المألوف أن يعمل في الزهراء رجل مجهول من سواد الناس وإن علت مواهبه.. وأنا أخاطر بتقديمك مع غيرك إلى السيدة أم سيدي عبدالرحمن لتختار من بينكم، فهو عمل وإن لم يكن في المراتب العليا فإنه دقيق. الناظر على سيدي عبدالرحمن وأمواله وضياعه، وكاتب السيدة.. تدخل على حرم الخليفة وتخالط خاصة بيته.

ثم أردف مستدركاً..

- هذا إذا وقع عليك الاختيار!

- لن أخيب ظنك يا سيدي.

- لا يسعك أن تخيب ظني فتغضبني، فلا أطردك حتى أعاقبك عقاباً شديداً. فإني لا أغفر لمن قصّر في عمله، لا سيما من كان طريقه من عندي، فيحرجني عند أمير المؤمنين، أطال الله عمره.

- سأكون طوع بنانك يا سيدي، فإذا حَزَبَ عليَّ أمر رجعت إليك بالرأي.

ظهر الارتياح على وجه المصحفي وقال مؤكّداً:

- هذا هو.. ترجع إليّ بالخبر في كل أمر هام، ليس فقط فيما تحتاج فيه إلى رأي.. بل كل أمر هام.. هل تفهم ما أعني؟

- السمع والطاعة.

هنا تحدث المصحفي بأسلوب من يتواطأ على سرّ.

- وليس في الضرورة أن يعرف بهذا غيرنا.. وقد وُصِفت لي بالفطنة!

هز محمد رأسه وقال:

- أفهم يا سيدي.

أردف المصحفي مستدركاً من جديد:

- وهذا إذا..

أكمل محمد عنه:

- .. وقع عليّ الاختيار.

هزّ المصحفي رأسه بإيماءة الرضا، ثم مدّ يده من مكانه إلى محمد الذي تقدّم ليصافحها، ولكن الحاجب رفعها نحو فم محمد ليقبّلها وهو ينظر إليه نظرة متفحصة. تردد محمد للحظة قصيرة ثم قبَّل يده.

* * *

جلس محمد في صالة الانتظار يترقّب دوره في الإذن له بالدخول على السيدة. وكان معه أربعة نفر ممن حضروا للغرض نفسه. وكانوا جميعاً أكبر منه سناً. وقد تقدّموا عليه في الدخول واحداً إثر الآخر، وكان إذا خرج أحدهم تعمّد محمد أن يتفحّص ملامحه ليرى أثر اللقاء عليه. أما صبح، فبعد أن فرغت من مقابلة الرابع، كان الضجر قد أصابها وودّت لو تفرغ من هذا الأمر الثقيل. ولما خرج الرابع من عندها سألها الخصيّ الصقلبي الذي كان يتولّى ترتيب الدخول عليها:

– ما ظنّك به؟

أجابت متضجرةً:

– لا بأس به. عنده تجربة وعلم. إلّا أنه متكلّف.. يخطو بقدر، ويجلس بقدر! ثم إن له عينين متقاربتين، وهي سمة الخبث!

ضحك الفتى الصقلبي ضحكة خفيفة وقال:

– ما دَخَلَ أحد عليك إلّا وجدتِ فيه عيباً..

قالت بغير حماس:

– هل بقي من أحد؟

أجاب الصقلبي:

– واحد. وهو كما علمت من العامّة.. وليس له مال ولا ضياع لتكون له تجربة تعينه في تدبير أملاك سيدي عبدالرحمن.. ولكنه يحسن الكتابة.

قالت صبح بغير اهتمام:

- أدخله على كل حال.

خرج الصقلبي بينما اتجهت صبح إلى النافذة الزجاجية الواسعة تنظر إلى الخارج.. وما هي حتى سمعت صوت الصقلبي يعلن دخول محمد معه:

- محمد بن أبي عامر يا سيدتي.

استدارت فوراً إذ سمعت اسم الكاتب الذي لم يختف من ذاكرتها منذ ذكره لها فائق، كبير الفتيان مع تلك الرقعة الرائعة التي خطّها، وما زالت تحتفظ بها تعيد قراءتها بين الفينة والأخرى. ولكن هذه المفاجأة تصاغرت أمام المفاجأة الكبرى التي صعقتهما معاً حين وقع نظر كل منهما على الآخر، فالتمعت في ذهنيهما صورة ذلك اللقاء الصامت في دار المدنيات! لبثا صامتين متسمرين في مكانهما، واجتهدت وسعها في كبح انفعالها وقد لحظت الفتى الصقلبي يقلب النظر بينهما حائراً متفحّصاً. وكذلك فعل محمد الذي حمل نفسه على الخروج من ذهوله، فانحنى لها برأسه:

- سيدتي!

* * *

حين خرج من عندها وأخذ يمشي في ساحات الزهراء عائداً بخطى سريعة ثابتة، كان عقله وفؤاده يضجّان بانفعال طاغٍ يجاهد ألّا يبدي به أمام المارّة من حواليه. وشعر برغبة عارمة في خلع وقاره ليتقفز ويطلق صيحة يفرغ فيها ضجيج المشاعر في داخله.

أما صبح التي بقيت متجمدة كالمصعوق بعد خروجه، فقد انتفضت فجأة وأسرعت إلى المنظرة لتبحث عنه بأنظارها. حاولت جهدها

بلا طائل. فارتدت إلى الداخل وقد خذلتها ساقاها، فارتمت على الأريكة، وأسلمت نفسها لأمواج من المشاعر المتلاطمة التي يختفي معها البرزخ بين الخطر والنشوة.

وكان محمد قد اعتلى جواده وانطلق خارج أسوار الزهراء. وحين صار في البريّة الممرعة التي تفصل بين الزهراء والمدينة، حثّ جواده فأسرع في العدو، وعندئذٍ أفلت محمد زمام الجواد، ومدّ ذراعيه على طولهما يميناً وشمالاً، وما هي حتى صارا جناحين حملاه مع جواده إلى الغمام!

* * *

قال عليّ:

- إذن هذا ما كنت تخفيه عنا. ونحن نتساءل: لماذا كل ذلك الهندام!

قال محمد:

- لا أبوح بشيء حتى يصير في قبضتي.

رمقه عمرو مبتسماً وسعيداً:

- الزهراء.. أخيراً!

ردّ محمد بسرعة وبثقة:

- بل قل: أولاً.

أما زياد الذي بقي مستلقياً في مكانه، فقال بنبرته المتهكمة المألوفة:

- وكيل سيدي عبدالرحمن! هه! هل يعني ذلك أنك تهز له سريره، وتغني له حتى ينام! و.. تطعمه.. و.. و..

حرّك يديه بطريقة دالّة وهو يستأنف:

- إنه طفل كسائر الأطفال.. ما يدخل الجوف، يجب أن يخرج منه!

أطلق ضحكة عابثة، بينما انقبض وجه محمد. وتدخل عليّ قائلاً لزياد:

- ألا تخشى أن تغضب رجلاً صار من خاصة قصر الخليفة؟

أجاب زياد:

- هو من خاصة قصر الخليفة، وأنا من خاصته هو.

هنا خاطبه محمد بلهجة جادّة هادئة:

- زياد!

أجاب دون أن يتحوّل من ضجعته.

- سيديّ

- ألم تكن رغبتك القديمة أن تركب البحر؟

رفع زياد جسمه لأول مرة، ونظر إليه مستطلعاً مع ابتسامة غامضة وقد استشعر الجدّ في نبرته، واستأنف محمد:

- أنا أتكفل بنفقات رحلتك.

حدّق فيه زياد متأملاً، ثم أطلق ضحكة خفيفة، وانتصب واقفاً، وتوجّه بالكلام لعلي وعمرو متمتعاً كالعادة في فضح دواخل ابن عمّه ومقاصده المستترة:

- ابن عمي الحبيب.. آن له أن يتخلص مني كيلا يحتمل مني عيباً يضرّ به، الآن، وقد صار ولدُ الخليفة بيديه، يصنعه على عينه.. يُطَبّعه عقلاً وقلباً على المثال الذي يريد، حتى لا يعرف من الدنيا غير الذي يريده أن يعرف، ولا يحب غير الذي يحب، حتى إذا شبّ وتولّى كان له ابن عمي بمثابة الأب، وإن لم يلده لحماً ودماً.. فإن مَلَك رأيه مَلَك به!

في أثناء كلامه السابق، كان قد تحوّل إلى محمد واقترب منه وجهاً لوجه حتى كاد أن يلامسه، واقتحمه بعينيه.. وتابع:

- أليست هذه خطتك؟ هه! ربّما كان ابن عمّك خليعاً متهتكاً. ولكن.. شيء واحد لا ينقُصُه.

وأشار إلى رأسه وهو يستأنف:

- وأنا أقرأ عينيك وما وراءهما! ولكن.. هل تدري؟ أعتقد الآن حقاً أنك سوف تصل إلى غايتك.

ابتعد عنه قليلاً ثم انفتل إليه من جديد، وقال:

- ولذلك، نعم.. سأركب البحر لأنجو من المائة جلدة التي ألزمت نفسي بها.

ثم انحنى له برأسه متصنعاً.

- سيدي!

وكان بكلامه الأخير يستدعي ذلك الموقف الذي اختار فيه كل من أصحاب محمد عملاً يوليه إياه إذا صار إليه الأمر، ولو على سبيل التخيّل والتندر، فاختار زياد أن يجلد بدلاً من ذلك ويحمل مقلوباً على حمار، اعتقاداً منه باستحالة المطلب.

أما عائشة فلم تشك لحظة في مآلات طموحه منذ عرفته. ولذا فإن سعادتها بالخبر لم تحمل معها معنى المفاجأة السعيدة التي تأتي على غير موعد أو توقّع. قالت، وهي تشذب بعض الأزهار في حديقة منزلها مع أبيها، بينما كان محمد يرقبها مع بعض الوجوم والشرود:

- ألم أقل لك، سوف تبلغ مرادك. وهذا فقط أول الطريق، وآخره ما يصل إليه البصر.. أو هي البصيرة.. النجوم يا محمد، لا تقنع بما هو دونها. وأنت حقيق بها.. وسأكون دائماً إلى جانبك، أشدّ أزرك بقدر ما يسعني،

وأواسيك فيما تواجه وتجاهد. ولسوف تلقى من ذلك الكثير، فإنّ المشقة على قدر المهمّة، والمغارم على قدر المغانم، والحمل على قدر الظهر.. وإنّ لك لظهراً قويّاً.. فالشكر على حلاوة النعمة، والصبر على عناء المهمّة.

بقدر ما أسعده كلامها وزاده لها تقديراً وإعجاباً، ترك في نفسه شعوراً غريباً بالثقل والحرج.. وربما بعض التأثم..

توقفت لحظة عن عملها والتفتت إليه مع نظرة جمعت بين المحبة والاستطلاع وقالت:

- لن تبقى في منزلك ذاك مع أصحابك بعد اليوم. أليس كذلك؟ أعني..

قاطعها قائلاً بلا تردد:

- سنتزوج قريباً يا عائشة.

أضاء وجهها بابتسامة وادعة وقالت:

- لا تظنّ أني أتعجل عليك.

عادت إلى عملها، ثم استأنفت قائلة:

- لن تجدني عبئاً عليك!

قال محمد مؤكداً:

- لا ريب.

ثم فاجأه قولها:

- والعشرة تجلب المحبّة.

تنبهت ملامحه وأرسل إليها نظرة تأمل وتعجب

- كيف تقولين هذا؟

أجابت بنبرة تفيض بالمودة الصادقة:

- لا عليك. أنا أحبك حباً لا يتعلّق بالعِشرة. وهذا يكفي الآن!

قال بصوت عميق:

- أنت أحسن النساء يا عائشة.

- حقّاً!

- بل لا أدري إذا كنت أستحقك.

توقفت وأعادت النظر إليه:

- لا تقل هذا.

- لِمَ لا أقوله وأنا أعنيه.

- عندما يقوله رجل مثلك، لفتاةٍ مثلي، يُخشى أن يكون مَصْرفاً متلطفاً!

قال بنبرة قوية وهو يأخذ منها إناء الماء ليتولى عنها سقي الأزهار:

- معاذ الله. معاذ الله.

بعد لحظات فاجأته بالسؤال:

- ولكن لم تقل لي.. كيف وجدتَها؟

التفت إليها مستطلعاً، وأردفت:

- أعني السيدة صبح، أمُّ..

قاطعها بالجواب بلهجة تعمّد أن تكون عارضة خالية من الاهتمام:

- لا بأس بها.. أعني لم أبلغ بعد أن أعرفها.

- أعني الحسن.. أهي حقاً كما يقال؟

تجنب النظر إليها وهو يجيب:

- لا أدري ما يقال.. ولكنها..أعني لم أقف هناك أتملّى فيها، وما كان لي أن أفعل.. إنها من حُرَم الخليفة وأمّ ولده.

تفحصته بنظراتها فيما بدا أنها ترغب في المزيد. وحين تنبه إلى ذلك زاد قائلاً:

- امرأة كغيرها.. لم يلفتني فيها جمال ولا قبح.

تمنى أن تتوقف عن هذا الخط من الأسئلة كيلا يضطر إلى مزيد من ذلك الكذب الآثم.

* * *

أما صبح فكانت ما تزال غارقة في أفكارها، فلم تتنبه لدخول الحكم عليها حتى أخرجها من شرودها؛ فقفزت من فورها، وتظاهرت بالتلهف لمقدمه، وقالت معتذرة:

- سيدي! اعذرني.. فأنت تدخل دخول النسيم العليل.

وأسرعت تخلع عنه قطيفته وعمامته، وعجلت إليه بالشراب، وحين جلس، وقفت وراءه وأحاطته بذراعيها بأسلوب مبالغ فيه، تدافع بذلك شعوراً داخلياً بالتأثم. وسألت:

- كيف كان نهار مولانا أعزّه الله.

أجاب مبتسماً:

- ليس هذا مجلس الخلافة، ولا أنت الحاجب.. فلِمَ التكلف؟

أخذت تربت على كتفيه وتمسح عليهما وعلى ذراعيه من الخلف.

قال الحكم:

- ما كل هذا الإقبال؟

أجابت بأسلوب جمع بين الدلال والدعابة:

- سبحان الله! ما أصعب خطاب الملوك. يجتهد النديم والخِدْن، ثم يحار كيف يسدّد. فإن زاد في الإجلال، سُئِل عن سبب التكلف سؤال الشك، وإن زاد في التودد والإقبال، سُئل عنهما سؤال الشك كذلك. فكيف نصيب معكم القصد يا سيدي؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة الرضا، واستأنفت قائلة:

- ثم تسألني عن سبب إقبالي؟ وهل يُسأل الطير عن شدوه، والنجم عن ضوئه، والبحر عن زرقته، وهي كلها الأصل والطبع اللذان إذا غابا وقع السؤال والتعجب؟

تحسس يدها الموضوعة على كتفه من الوراء وقال:

- ليس أجمل منكِ إلا كلامك.

- وعندي منه المزيد يا سيدي.

كانت ما تزال تحيط به من الخلف، فلم يَرَ شرود ملامحها وعينيها.. ثم سأل:

- كيف يفعل عبدالرحمن؟

- يناغي، كأنه العصفور في عُشّه.

- وهل وقع اختيارك على وكيله وكاتبك من بين الرجال الذين قدَّمهم الحاجب؟

هنا انقبضت ملامحها بشدة، ورجت ألا يلتفت إلى وجهها من ورائه.

- فعلت.

- من؟

أجابت بلهجة تعمّدت أن تبدو عرضية لا تشي بالاهتمام.

- رجل اسمه محمد بن أبي عامر.

- محمد بن أبي عامر! لم أسمع به من قبل. هل له صلة معروفة؟ شأن سابق؟ أسرة من أهل الخدمة؟

- لا أدري.. أحسبه من أوساط الناس.

سأل متعجباً:

- من أوساط الناس! فكيف وسعه أن يتقدّم؟

- علمت أن قاضي الجماعة قد أوصى به عند حاجبك. وكان الوزير ابن حدير قد قدّمه إلى قاضي الجماعة ليعينه في عمله، وكلاهما يثني على موهبته وخلقه.. كما قيل..

تروّى الحكم لحظة ثم قال:

- ام م.. إن كان قد عمل عند القاضي ابن السليم، فالأرجح ألّا يكون به بأس.. إن ابن السليم صارم في أحكامه ولا يحابي أحداً.

قالت بنبرة تعمدت من جديد أن تخلو من الحماس واليقين:

- الأرجح!

- لستِ على يقين؟ إن كان عندك شك في كفايته، صرفناه من الفور. فالطالبون كُثر، ونحن على سعة.

اهتزت ملامحها ودارت انفعالها، وأسرعت بالقول:

- لا.. لم أقل.. أعني.. لا بأس به يا سيدي. وكما قلت: ابن السليم صارم في أحكامه.. نعوّل على حكمه فيه، فهو أدرى به.

ثم تحوّلت إلى لهجة أخرى تداري به ما يمكن أن يكون قد شاب كلامها السابق من حماس غلب على جهدها في كبحه:

- أما اليقين فلا يقع على شيء حتى ينقضي يا سيدي.. أليس كذلك!

- كما قلتِ.

عادت تدلك له كتفيه وأعلى ذراعيه، ثم فاجأها بالقول:

- إذا كان من الغد، فليأتني في المكتبة الأموية.

شردت ببصرها إلى البعيد، وذهبت في التفكير وقد خالطها بعض التخوّف من ذلك اللقاء المطلوب.

*   *   *

أخذ يجيل النظر مندهشاً بعظمة المكتبة الأمويّة بالزهراء، وهو يمشي في أروقتها وردهاتها بصحبة جؤذر الصقلبي للقاء أمير المؤمنين: عشرات من العاملين في النسخ والفهرسة والتصنيف وتنظيم الكتب والمخطوطات. كان قد سمع بضخامتها ولكن ما يراه الآن أعظم من كل تقديراته السابقة. وحين بلغا غرفة الحكم وجداه منكباً على أحد المخطوطات يخط على هوامشه بريشته كعادته. توقفا عند الباب وانحنى جؤذر حتى قبل أن يرفع الخليفة رأسه عن مخطوطه، ففعل محمد مثله. ثم ألقى جؤذر السلام بصوت خفيض مهابةً وإجلالاً.

ردّ الخليفة السلام دون أن يرفع رأسه عن المخطوط. ثم أعاد الريشة إلى الدواة ونظر، فعاد جؤذر ومحمد إلى الانحناء من جديد، بينما اكتست ملامح الحكم بشيء من الدهشة وهو يتأمّل محمد لأول مرة، وقال جؤذر:

- محمد بن أبي عامر يا مولاي.

هز الخليفة رأسه هزة خفيفة، ثم أومأ إلى جؤذر بالانصراف،وعاد الحكم يتفحص محمد الذي لم يستطع طرد قلقه. ثم تحدث الخليفة:

- يحدّثك الناس عن الرجل، فترتسم له صورة في ذهنك، ثم تراه، فتجده بخلاف ما تصوّرت.

حاول محمد مداراة حرجه، ثم استأنف الحكم:

- ولكن.. هل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً، وبهم نُصِر. تقدّم يا محمد.

تقدّم محمد بأدب جمّ.. ثم أشار الحكم إلى مجموعة من المجلدات على منضدة أخرى.

- ذلك الكتاب يا محمد.

توجه محمد إلى مجموعة المجلدات التي أشار إليها الخليفة وسأل:

- أيها يا أمير المؤمنين.

- كلّها.. هي كتاب واحد في بضعة مجلدات.

حملها محمد ووضعها حيث أشار الخليفة على المنضدة أمامه.. نقر الحكم عليها بإصبعه وقال:

- ابن عبد ربّه.

سأل محمد:

- العقد؟

يعني العقد الفريد. قال الحكم:

- بل ديوان شعره. يعرف الناس له العقد الفريد ولا يعرفون شعره.. هو شاعر مُجيد أيضاً، وقد جُمِع شعرُه.. لا أحسبك قد اطلعت على بعض شعره!

أجاب محمد وكان قد استعاد رباطة جأشه:

- على بعضه، نعم يا مولاي.

- كيف وجدته؟

- لا بأس به.

فوجئ الحكم بالرأي:

- فقط؟

- يحسن في بعضه حتى يجيد، ويضعف في بعضه.. وله فيه طرائف.

- مثل؟

- هجوه لأبي عبيدة الفلكي مثلاً. وقد أبان فيه عن ضيق تفكير إذ أنكر عليه القول بأن الأرض كالكرة.

هنا شرد الحكم في تفكيره وقد استذكر قول صبح الموافق لقول محمد في هذا الشأن، ثم قال:

- اذكر أحداً قال مثل قولك !

استأنف محمد قائلاً:

- لا أطعن في علمه يا سيدي، فقد قرأت العقد كلّه، لم أخرم منه عبارة. ولكن، لكل حكيم هفوة. وعلمه بالأدب يشفع له جهله بعلم الفلك، إذ لم يفرّق بينه وبين عمل المنجمّين. وكل ميسر لما خُلِق له.. يصيب الإنسان ويخطئ.

هز الحكم رأسه، ثم بدأ في إلقاء أبيات ابن عبد ربه في هجاء أبي عبيدة الفلكي على سبيل الاستذكار والتندر:

- أبـــا عبيـــدة مـــا المســـؤول عـــن خـــبر

تحكيـــــه إلا ســـــواء والـــــذي ســـــألا

أبيـــــت إلا شـــــذوذا عـــــن جماعتنـــــا

توقف إذ أخذ يبحث في ذاكرته عن تمام البيت، وإذ بدا أنه قد عجز عن التذكر، أسعفه محمد فأكمل عنه:

- ولم تُصب رأيَ من أرجى ولا اعتزلا.

توقف محمد تأدباً، ولكن الحكم أومأ إليه أن يكمل بقية الأبيات. فانطلق دون تباطؤ:

وقلـــــت إن جميـــــع الخلـــــق في فلـــــك

بهـــم يحـــيط وفـــيهم يقســـم الأجـــلا

والأرض كوريـــــة حـــــف الســـــماء بهـــــا

فوقـــا وتحتـــا وصـــارت نقطـــة مـــثلا

صـــيف الجنـــوب شـــتاء للشـــمال بهـــا

قـــد صـــار بيـــنهما هـــذا وذا دولا

فـــإن كـــانون في صـــنعا وقرطبـــة

بـــرد وأيلـــول يـــذكي فـــيهما الشـــعلا

وجد الحكم نفسه يلقي مع محمد الشطر الأخير. وإذ فرغا أطلق الحكم ضحكة وقال: بلى.. يخطئ المرء ويصيب.. وكل ميسّر لما خُلِق له.ثم حدّق في محمد وقال مبتسماً:

- وإنها والله لكرويّة.

قال محمد مؤيّداً:

- هي والله كذلك! وما حدّ الأفق إلّا آخر ما نرى من انحناء تكورها حتى يبلغ أن يغيب عن أبصارنا.

هز الحكم رأسه بضع هزات خفيفة وهو يتأمل محمد وقد انبسطت أساريره رضاً وإعجاباً.

بعد ذلك اللقاء الأول مع صبح، أنفق محمد نحو شهر في تفقّد ضياع الطفل عبدالرحمن بن الحكم وأملاكه، والنظر في أحواله وضبط حدودها ومراجعة الدفاتر والسجلات والغلة والخراج، ثم تدبير ما يحتاج إليه بعضها لإصلاح شأنه وزيادة عطائه. واستعان في ذلك ببعض من له علم مشهود في الأرض وزراعتها، فوجد أنبعض الضياع يحسن أن يستبدل بشجرها وزرعها ما هو أوفق لنوع ترابها ومناخ ناحيتها، وكانت موزعة على أنحاء مختلفة متباعدة. ووجد أراضي واسعة لم يتم استصلاحها بعد، فأوقف عليها من يستصلحها على وفق خطة معلومة، ورتّب شق الترع والقنوات ليصل إليها الماء من أقصر الطرق. أما من تبيّن له تقصيره أو خيانته من القيّمين والنُّظار فصرفه واستبدل به من استوثق من إتقانه وأمانته.

بقيت صبح شاردة التفكير وهو يشرح لها ذلك كلّه وغيره مما أنجز في ذلك الشهر الذي فصل بين لقائهما الأول وهذا الثاني، وقضت أيامها فيه تفكّر به وتستعجل طلته، حتى خطر لها أن ترسل في طلبه لولا اعتراضات نفسها اللوّامة. ولما لحظ شرودها وتشتت نظراتها التي أوحت له بتضجرها من ذلك الشرح، توقف عن الكلام، ونظر إليها مستطلعاً. ولما أحست نظرته تلك حملت نفسها على إبداء الاهتمام، فقالت:

- وهذا كلّه في دفاترك؟

وضع الدفاتر التي كان يحملها على منضدة، وقال:

- تستطيعين النظر فيها بنفسك يا سيدتي.

قالت:

- وما أدراني أنا بالضياع وخراجها وما تصلح به؟

أجاب:

- كل مجهول يبدو صعباً لأول وهلةٍ يا سيدتي، ثم إذا أعمل الإنسان عقله واجتهد فيه، هانَ عليه الصعب، وأدرك منه غايته.

كانت قد اقتربت منه عند المنضدة التي وضع عليها الدفاتر. رمقته مباشرة وقالت بنبرة غامضة:

- حقاً!

دارى محمد اضطراب مشاعره إذ أحس نظراتها القريبة تلسع وجهه وتشعل جوانحه، واستأنف قائلاً بأسلوب من يقرّر حقيقة عامة.

- كل ما يحتاج إليه المرء: العقل.. والميل.. والإرادة!

حملتها عبارته إلى غير وجهتها، فوجدت نفسها تردد بنبرة ذاتية:

- نعم.. العقل.. والرغبة.. والإرادة!

أخرجها من سهوها من جديد وهو يشير إلى صفحات أحد الدفاتر:

- هنا يا سيدتي..

ازدادت منه اقتراباً بداعي النظر إلى حيث أشار، وتابع الشرح:

- تجدين هنا وصفاً لكل ضيعة من ضياع سيدي عبدالرحمن، مع ضبط حدودها وموقعها وجهتها وسعتها وما يجاورها من كل الأنحاء، وموارد الماء الذي تسقى به أو ما فيها من شجر وثمر أو زرع، ومقدار نفقتها، ومقدار ما يتحصل منها أو يُرجى أن يتحصّل، وما تقرَّر أن يكون الطريقة التي يجري عليها استغلالها: المزارعة والمساقاة أم غير ذلك،

والأسباب التي دعت إلى هذا أو ذاك، وأسماء القيمين عليها أو من زارعناه لها، وأجور العاملين فيها إن كان هؤلاء على نفقتنا.. ونحو ذلك..

بينما كان يشرح لها ذلك وهو ينظر في الدفتر، كانت هي قد ازدادت اقتراباً بوجهها من وجهه وهي تتابع النظر إلى حيث ينظر ويقلب الصفحات، حتى كادت أنفاسه تختلط بأنفاسها، ونفذ عطرها في جلده إلى موضع سرّه حيث تضطرم العواطف والرغبات المكتومة. وعلى الرغم من أنه بذل جهده في كتمانها، فقد رشح منها شيء في اضطراب أنفاسه وتقطع كلامه، وفي العرق الذي تفصّد من وجهه، حتى استخرج منديله ومسحه به. وإذ فرغ من عبارته الأخيرة سمعا طرقاً خفيفاً على الباب فجفلا وتباعدا من فورهما بأسلوب لا إراديّ، فيما يشي بأنهما يدركان ما كان يسري بينهما على تواطؤ صامت منهما. وإذ ظهر أحد الفتيان الصقالبة الخصيان، قالت صبح بضيق ظاهر:

- ما الذي تريده؟

أجاب:

- أنظر حاجتك يا سيدتي.

قالت بنبرة رادعة:

- حين أصير في حاجتك أُرسل إليك.

نفخت بعد خروجه وقالت متململة:

- هؤلاء الفتيان الصقالبة!

أحب محمد أن يعرف المزيد عن رأيها فيهم، فقال مستفسراً:

- أليسوا خاصة القصر وزينة الدولة، كما يقال؟

- ما هم برجال فنتدارى منهم، ولا بنساء فنتبسّط معهم.

- وتلك هي الغاية منهم يا سيدتي. يروحون بين أمير المؤمنين وحُرمه، وهو ما لا يصلح له الرجال ولا النساء!

حدقت فيه لحظة وقالت:

- أنت رجل. وأنت هنا!

- عملي يا سيدتي.. ولستُ من ساكني القصر.

هزت رأسها، ثم استدارت عنه نصف استدارة، وبعد لحظات صمت فاجأته بالسؤال دون أن تلتفت إليه:

- لم تقل يا محمد! متزوّج أنت؟

تريّث لحظة ثم أجاب:

- لا..ولكنها خطبة.

كان سؤالها الثاني أشد وقعاً عليه:

- تحبّها؟

قبل أن يجد الجواب المناسب، استدركت على نفسها بالاعتذار:

- لا ينبغي أن أسأل. لا أدري كيف انفلت الكلام مني.. ليس هذا من..

قاطعها ليهوِّن عليها قائلاً:

- لا.. لا بأس يا سيدتي. سؤال يعرض.

انتظرت أن يزيد ويجيب عن سؤالها، وحين تلبّث قليلاً التفتت إليه بنظرة مستطلعة، فأجاب:

- إنها فتاة طيبة كريمة المنبت.

تبدّد حرجها عند هذا وعلّقت بشيء من التهكم:

- هذا كلام يمكن أن تقوله في أختك.

قال وهو يقدر كلامه تقديراً ويختار عباراته بعناية:

- ما كنت لأخطبها لولا أني رأيت فيها ما دعاني إلى ذلك. وإني لأهتم بأمرها وأحب أن أرعاها.. ولكني لا أسهر الليل أَعُدّ النجوم، ولا أتقلّب على فراشي تقلّب المحموم.

استدارت عنه لتخفي ابتسامة غامضة، ووقفت لدى النافذة تنظر إلى الخارج. ومرت لحظات صمت أخرى، وراود نفسه على الاستئذان فلم تطاوعه. ثم سمعها تسأل بصوت خفيض دون أن تلتفت إليه:

- ماذا كنت تعمل في دار المدنيات ذلك اليوم؟

أجاب بعد أن تريّث لحظة:

- ذلك يوم بعيد.

قالت:

- بل قريب كأنه البارحة.

ثم استدارت عن النافذة، وحدقت فيه:

- إذن فقد ذكرتني كما ذكرتك حين التقينا هناك أول مرة! وقد كنت أتساءل.

- وأنا كنت أتساءل.

- هل فوجئت حين رأيتني؟

قال مطرقاً:

- كنت أسمع بالسيدة صبح، أم ولد الخليفة.. ولكن.. لم يخطر لي.

ثم رفع رأسه واستأنف:

- المفاجأة، ليست الكلمة التي تصف الحال يا سيدتي.

- فما الذي يصفها؟

- تعجز الألفاظ.

- حاول، فأنت الكاتب الذي كان يدبج تلك الرقع البديعة.

ثم انطلقت في إلقاء بعض الكلام الذي حفظته عن ظهر قلب من تلك الرقعة التي كتبها باسم فائق يهنئها بالمولود.

- فالولد مزاج أبيه وأمّه.. ولقد يقاس البعيد على القريب، والغائب على الحاضر، فلكأني به يشبّ وفي برديه رفعة أمويّة، ووسامة بشكنسيّة، يشدّ بالأولى شدّة الأسد، ويرق بالأخرى رقّة العليل في رياض الزهراء، ويهديه في هذا وذاك عقل وحكمة استجمعهما من أبيه وأمّه، فأكرم بمن جمع الله له حسن الظاهر والباطن، وجمال الخَلْق والخُلُق. وإن الشمس وإن احتجبت بالسحاب المركوم، لم يحل ذلك دون أن تنفذ بنورها فيعمّ الخلق. فاستدل به المبصر عليها، ورآها بآثارها، إلى أن يتكشف حجابها.

تابعها محمد مندهشاً حتى فرغت وسأل:

- وتحفظينه كلّه؟

أجابت بلا تردد:

- وأيّ امرأة لها قلب ورأي في نفسها، لا تحفظ كلاماً مثل هذا قيل فيها؟ حفظته من أول مرّة.. وما زلت أعود إليه بالقراءة في كل يوم.. ولم يخطر لي أن الكاتب محمد بن أبي عامر الذي حبّره، هو نفسه ذلك الفتى الذي لمحته في دار المدنيات، حتى دخلت عليّ هنا! فانكشف الحجاب! ولكن.. كيف لرجل أن يقول مثل هذا الكلام في امرأة لم يرها؟

أجاب:

- ولكني رأيتك يا سيدتي.

- نعم، ولكنك حين كتبته، ما كنت تدري أن الفتاة التي رأيتها في دار المدنيات، هي أم ولد الخليفة التي تكتب لها!

أجاب مردداً بعض ما ورد في تلك الرقعة:

- ولقد يقاس البعيد على القريب، والغائب على الحاضر!

- وما القريب الحاضر الذي قِسْتَ عليه؟

هنا وجد نفسه يتحرر من روادع الحرج مستسلماً لغواية البوح:

- صورة في الخيال، استقرت هناك في لحظة خاطفة، ولم تفارق، حتى صارت أكثر حضوراً في النفس مما تقع عليه العين. وما كنت أعلم أن الصورة التي كنت أتمثّلها وأنا أخط تلك الرقعة هي نفسها التي أخاطبها بها..

لم يشأ أن يتلبث في المكان بعد هذا البوح اللذيذ والمرهق معاً، ليرى أثره عليها..

- ينبغي أن أستأذن الآن يا سيدتي.

لم ينتظر إذنها إذ حمل دفاتره وخرج، وهي تلاحقه بنظرة غامضة مع طيف ابتسامة. بقيت شاردة في مكانها، ثم حدّثت نفسها.

- وأنا كذلك. لم أكن أعلم أن صورة الفتى الذي تمثلته يخاطبني بذلك الكلام، هو نفسه الكاتب الذي خطه بيده! أليس هذا هو القدر؟ وما نفعل، نحن البشر حِيالَه وهو القاهر المتحكّم؟ ... سوى أن نُسلّم له؟!

* * *

حين خرج من ذلك اللقاء، توقف في طريقه وأخذ نفساً عميقاً، ثم تابع السير. وكان رأسه يضجّ بأثر اللقاء وما جرى فيه، فلم يتنبه إلى أن

محمد المصحفي ابن الحاجب، وخصمه القديم في جامع قرطبة، قد لمحه عن بُعد، فأخذ يدقق النظر حتى تيقّن من شخصه. محمد بن أبي عامر في الزهراء! وما يفعل هذا الدعيّ المغمور في مدينة الخليفة؟! أسرع الخطى إلى ديوان والده وقد طغت عليه الحيرة والقلق. وحين دخل عليه لم ينتظر أن يرفع أبوه رأسه عن الرقع التي كان يوقع عليها، فابتدره بالكلام بصوت مضطرب:

- كأني لمحت هنا في الزهراء فتى أعرفه.. محمد بن أبي عامر.

رفع جعفر المصحفي رأسه:

- تعرفه؟

- ما خبره في الزهراء؟

تفحّصه أبوه وقد رأى اضطرابه، وأجاب:

- تولّى وكالة أملاك سيدي عبدالرحمن.. ولكن ما الذي يهمُّك منه..

قاطعه محمد المصحفي بانفعال شديد:

- ذلك الدعيّ السوقي.. وكيل ولد الخليفة؟ كيف حدث هذا؟ أنت قدّمتَه يا أبتِ؟ كيف توصّل إليك؟

قال جعفر بلهجة صارمة:

- خفّض عنك الآن وأفْصِح. ما علمك به؟

- عرفته في مجالس الدرس في جامع قرطبة.. دعيٌّ صغير يتطلع إلى ما فوق منزلته، ولا يُنْزِل الناس منازلهم.

- ما وجه كلامك؟ ما الذي تعنيه، دعيّ؟

- كان إذا جلس للدرس تصدّر الكلام والإجابة، ليُرِيَ أنه أعلم من أقرانه.

هز الحاجب رأسه وهو يرمق ابنه بنظرة فاحصة:

- تعني أنه كان أنْبَهَ الطلاب، وأسرعهم إلى الجواب، وأوفرهم علماً! ليتك أنت كنت الدعيَّ دونه. أهذا الذي ساءك منه؟

ازداد محمد المصحفي انفعالاً واضطراباً:

- يجب أن تفعل شيئاً يا أبتِ.. لا يلبث ذلك المغتر في الزهراء فيعلو ذكره.. أعني.. وقع بيننا خصام في ذلك الحين وملاسنة. ولم يلزم قدره، ولا وفاني قدري.. فهل يكافئه أبي بعمل الخليفة وولده؟

كان الحاجب الداهية أبعد نظراً وأكثر حكمة من أن ينفعل بكلام ولده، وهو أعلم الناس بخفته وطيشه، وكان بوسعه أن يدرك حقيقة الحال التي يخفيها كلام ولده، فقال:

- أظلمه لأنه كان أنْبَه من ولدي فغار منه، فتعرّض له بالتصغير مُدِلّا بأبيه، فدفع الفتى عن كرامته؛ أليس هذا ما وقع حقاً؟ أستطيع أن أتصور ذلك.

نفخ محمد المصحفي بضيق ولم يجد ما يردّ به على أبيه الذي استأنف قائلاً:

- وهل تريدني الآن أن أراجع فيه أمير المؤمنين ولم ألبث أن قدّمته، فأقول: أخطأت تقدير الرجل، وهو دون الغاية. وما عساني أجيب إذا سألني: ما الذي بدالك منه؟ أكذب وأنا في هذه الشيبة؟ وحتى لو كذبت، فليسألن أم ولده، فهو يعمل لها. ولعمري ستُكَذّب قولي فيه، فأكون قد صغّرت نفسي في فتى هو أهون عندي من أن أخاصم فيه أم ولد الخليفة، وقد بَلَغَت من قلب أمير المؤمنين ما بَلَغَت.

سقط في يد محمد المصحفي، لم يجد إلا أن يقول:

- إذن، ثعلب ودخل في حظيرة طيور!

رمقه أبوه بنظرة تنم عن خيبة الأمل، وقال مؤنباً:

- ألم تجد وصفاً أحسن من هذا لدار الخلافة؟ حظيرة طيور؟ وأين تجعل أباك من أنواع الطيور؟ لا عجب أن يثير الفتى غيرتك.. وربما غيرتي أنا من أبيه وإن كنت لا أعرفه!

* * *

في هذه الأثناء كانت صبح قد عادت إلى جناحها الداخلي الخاصّ وأخذت تخلع حليها أمام المرأة، تساعدها بدور التي لحظت شرودها الطويل ونظراتها التائهة.

ثم قالت صبح بصوت خفيض كأنها تخاطب نفسها:

- لماذا لا ندرك من آمالنا شيئاً حتى نخسر مثله.. أو.. أكثر منه؟

قالت بدور:

- ما الذي شغل ذهنك وأنت في نعمة لا ينقص معها شيء؟

التفتت صبح إليها بالنظرة التائهة نفسها وقالت:

- حقاً!

مرّت لحظة صمت وتفكير أخرى، ثم تساءلت:

- هل يلام الإنسان فيما لا إرادة له فيه؟

أجابت بدور:

- لا أعرف حدّ الإرادة يا سيدتي.

شرحت صبح:

- الشيء يقع في قلبك وروحك، لا ينتظر منك إذناً، ولا تستطيعين له دفعاً.

رمقتها بدور بنظرة متفحصة كأنها تحاول كشف أغوارها، وقالت:

- مناط ذلك عمل الجوارح.

بدا أن الجواب قد نبّه حواسها ووقع من نفسها موقع الموافقة والرضا، فقالت بشيء من الحماس والثقة:

- نعم، وما عداه مغفور.. وما على القلب بمُسْتَعْتب.

تأملتها بدور من جديد، وآثرت الآن أن تواجهها بكلام مباشر صريح:

- أهو هو؟

نظرت إليها صبح مستطلعةً، بينما استأنفت بدور:

- الفتى في دار المدنيات.. هو محمد بن أبي عامر؟

أطرقت صبح، وتابعت بدور بلهجة قوية:

- أمسكي هداك الله قبل أن تحترقي وتحرقي الفتى معك.. تعلمين أين أنت وما أنت.

قالت صبح بضيق:

- أعلم.. أعلم.. وهو ما يؤرّق نفسي ويشعل النار في جوانحي. ولكن كما قلت، أمر لا إرادة لي فيه.. قدر مستحكم.. كيف حصلت كل تلك الموافقات؟!

- ربما لم يكن لك إرادة فيه. ولكن اختيار القرب من إرادتك.. وكذلك البُعد.. ولو شئتِ النصيحة..

قاطعتها صبح وقد أدركت وجهة الكلام..

- تعنين، أصرفه عن خدمتي.

- إن لم يكن، فلا أقلّ من تجنب لقائه ما وسعك ذلك. ويسعى بعض الفتيان بينكِ وبينه في شؤون عمله. ذلك أجدى لك وله.. فما الذي تؤمّلينه منه غير أن يزيد القرب النار ضراماً.. والبُعد يُنْسي.

* * *

كان يدرك بقدر إدراكها أنه حبّ يائس لا رجاء منه. ولكن انقطاع المآلات لا يذهب بالحب نفسه، بل ربّما زاده ضراماً. وبدلاً من أن تبطئ به عواطفه نحو صبح عن زواجه الموعود بعائشة، حزم أمره ورتّب زواجه بها في بضعة أيام فقط بعد لقائه الأخير بصبح، وانتقلا معاً إلى منزل جديد في أرباض قرطبة خارج المدينة المسوّرة، حيث يقطن بياض الحضرة وأغنياء البلد.

على أن زواجه من الفتاة الوفية العاقلة التي نذرت نفسها لخدمته وإسعاده وإرضائه، لم يقلل من حضور صبح في وعيه ووجدانه. ولم يحاول أن يدافع ذلك في نفسه، بل زايله أي شعور بالتأثم. فإن كان نعمة فلا دافع لها، وإن كان داء فهل يلام العليل على عِلّته؟! إلا أنها علّة لا يطلب الشفاء منها! فالحمّى التي تبعثها فيه تدفئ ولا تصرع، والشعلة التي توقدها بين جوانحه تضيء بأكثر مما تحرق.

على أن الشعلة بدأت تزيد اضطراماً حتى خرجت من حدّ الإضاءة إلى الحرق، عندما تأخرت صبح في طلبه، وكان يتعجّل اللقاء في نفسه. وأخذ يراجع نفسه بحثاً عن الأسباب. هل راجعت نفسها في ذلك البوح المتحفظ وذكرت مكانها من القصر وصاحبه فندمت على ما فَرَطَ منها؟ أم أنه جاوز الحدّ في كلامه معها فخشيت أن يزيد على ما تفرضه دواعي التذمّم؟ أم أنها خافت من نفسها ومشاعرها فآثرت قمعها في أول أمرها؟ أم تراها قد علمت بزواجه فساءها ذلك وإن كانت تعلم أنهما يكابدان حباً يائساً؟

كانت كل هذه الأفكار والتساؤلات تضطرم في رأسه وهو يجلس في مكتبه في الزهراء وأمامه بعض السجلات والصكوك، حين دخل عليه جؤذر الصقلبي على حين غرّة فاستبشر خيراً أنه جاء من طرف صبح في طلبه. ولكن جؤذر جاء بكلام آخر:

- أمرتني السيدة صبح أن أعرّج عليك بين الفينة والأخرى، فأنظر حاجتك، وإن كان عندك ما تطلعها عليها، فأحمله لها.

شعر بأنه يهوي في جب سحيق، وأن الدنيا تظلم في عينيه. إذن فهو أمر اختارته عن رأي وتدبير. ولأول مرة يخطر له سبب آخر محتمل غير الأسباب السابقة التي استعرضها في ذهنه. لعلّه قد أخطأ في فهم إشاراتها وتلميحاتها وأسئلتها وقرأ فيها ما في نفسه لا ما في نفسها. استجمع نفسه كيلا يبدو عليه ما يشي بدواخله، وحمل نفسه على السؤال:

- ولِمَ لا ألقاها فأطلعها عليه؟ فإن الكلام المكتوب يحتاج إلى بيان وتفصيل.

أجاب جؤذر بلهجة عارضة:

- هكذا قالت.. لعلّها في مشغلة.

أطرق محمد لحظة قبل أن يرفع رأسه ويقول بصوت اجتهد أن يبدو عادياً.

- إذا فَرغتُ من دفاتري أنفذتها إليك.. أقرئها مني السلام، وأني ما زلت في مشغلة من الأمر ليلي ونهاري، لا يصرفني عنه شيء، وغايتي الرضا والقبول، ومعاينة المأمول.

تعمد أن تكون رسالته الشفويّة حمّالة أوجه. ورجا أن ينقلها جؤذر بلفظها.

تصبّر عن لقائها عشرة أيام أخرى دون أن تفارق مخيّلته. وفي كل يوم يزداد شوقاً وقلقاً.وكلما رأى أحد الفتيان الصقالبة مقبلاً أو عابراً

خفق قلبه ورجا أن يكون رسولها في طلبه. وحين طال الأمر عليه بلا خبر منها، حزم أمره وقرر أن يذهب إليها بلا دعوة، وحمل معه رزمة من الدفاتر والصكوك. وبعد انتظار في صالونها خرجت له بدور التي ابتدرته بالقول:

- لن تستطيع السيدة لقاءك اليوم يا سيدي..

لم يستطع إخفاء تلهفه إذ قال:

- لماذا؟ عساها بخير.

أجابت:

- وعكة هيّنة. ولكن اترك هذا الذي معك وهي تنظر فيه.

- ولكنه يحتاج إلى شرح وتفصيل، وأحتاج إلى رأيها في بعض المسائل.

- كما سمعتَ الآن.. وهي على كل حال تثق في رأيك أشدّ الثقة.

هز رأسه وقد سقط في يده، وخرج. وإذ ارتدت بدور إلى الداخل وجدت صبح مستندةً إلى الجدار بالقرب من الباب، وقد بدا عليها الأسى الشديد وفاضت عيناها من الدمع. ربتت عليها بدور بعطف ومحبة وقالت:

- صدّقيني، هذا أفضل لك وله.

شهقت صبح بالبكاء وقالت:

- ما عدت أدري ما هو الأفضل. أكاد أقول: ليتني لم أدخل هذا القصر، واشتريت به كله حريّة قلبي، فأكون حيث يكون.

بعد خروجه خائباً من المكان، توقف فجأة ثم التفت وأرسل نظرة إلى النافذة. وخيل إليه أنه رأى طيفاً وراء زجاجها الملون.ولم يكن مخطئاً، فقد كانت صبح تقف خلفه وتنظر بعينين دامعتين، وحين رأته يدقق النظر فيالنافذة عن بُعد، ارتدت عنها، ثم ألقت بجسمها على الاريكة ووضعت رأسها بين راحتيها، وتحوّل بكاؤها إلى نشيج مُرّ.

لم يستطع أن يداري همّه وقلقه وسهومه الطويل ومُتقلبه في الليل عن زوجه عائشة. وبعد تردد طويل سألته:

- ما بك يا محمد؟ كأن شيئاً قد أهمّك، فما زلت كذلك منذ أيام، وقد كنت قبل ذلك تعد من الزهراء وقد أزهر وجهك. ألا تفصح لي فأواسيك ما استطعت؟

أجاب بشيء من الضيق:

مكتبة
t.me/t_pdf

- لا شيء.. لا شيء.

قالت:

- هذا جواب من يخفي جواباً!

هنا غلب عليه ضيقه فقال منفعلاً:

- وأنتِ أيضاً تريدين أن تشقّي على صدري؟ ألا يكفيني ابن عمّي عمرو؟

أطرقت منقبضة وقد فاجأتها نبرته القاسية. تنبّه لنفسه، فالتفت إليها ورمقها بعطف ومحبة وربّت على كتفها وقال معتذراً:

- لا بأس.. لا بأس.. اعذريني يا عائشة. إنه طول التفكير فيما أرى في قصر مولانا. إذا عظمت المهمة عظم العبء.. والزهراء منزل المطالب والرغائب.. وأراني قريباً منها، بعيداً عنها! كحال الظمآن الذي بلغ الماء ويخشى أن تغلبه لهفته فيشرق بها، فلا هو أطفأ ظمأً ولا أمسك حياة. فأروض نفسي على الصبر وأقول: لا تعجل فيبور عملك.. والصبر يضني يا عائشة.

مسحت على ظهره بود غامر وقالت:

- لا عليك يا سيدي وحبيبي.. سيجعل الله من بعد عسر يُسرا.

* * *

مرّت أيام أخرى ثقيلة دون أن تطلبه صبح. وبدلاً من ذلك كان الخليفة هو من أرسل في طلبه ليلقاه في مكتبته الأموية. ولأمر ما تَمَلّكه القلق وراودته الوساوس حتى طغت على ضيقه من انقطاع الصلة مع صبح. هل يكون هذا من ذاك؟ هل يكون صدودها عن لقائه مقدمة لإعفائه من عمله؟

صحبه الخليفة في جولة في المكتبة العظيمة. ولم يبد على وجه الخليفة ما ينبئ عن انقباض أو سخط. بل كان منبسط النفس وهو يصف لمحمد ذخائر المكتبة وأقسامها وتصنيفاتها. أي خليفة هذا الذي يكلف نفسه أن يصحب فتى مغموراً في أول عهده بالعمل في الزهراء ليتجاذب معه أطراف الحديث عن المكتبة وذخائرها. على أن المظاهر يمكن أن تكون خدّاعة. ولذا لم يغادره القلق تماماً. كان الحكم يتحدث مفتخراً وقد أضاء وجهه بالسعادة:

– لا أوثر مكاناً في الزهراء على هذا المكان يا محمد.

أشار إلى رفوف الكتب وتابع قائلاً:

– جُمِعَت تحت عيني من كل قطر.. من سمرقند إلى بغداد إلى دمشق إلى مكة إلى القيروان.. مئات الوراقين بثثتهم في الأقطار، حتى لا تخلو من كتاب نفيس.

قال محمد:

– ثلاث مائة ألف كتاب؟

– بل أربع مائة ألف.. وهذه التي قيّدت في الفهارس.

ثم توقف أمام رف من الكتب متأمّلاً وتحدث بنبرة عميقة:

– هنا ثمار القرائح والعقول والأفئدة، ووعاء التجارب وذاكرة الأيام والعصور.. تعيش معها حياةً واحدة، ولا زمناً واحداً، ولا حالاً واحدة.

هنا عاشق يتعذّب بالهجران، وهنا عاشق يتنعّم بالوصل.. هنا فقير يضرب في أرض الله، وهنا غنيٌّ قد أصاب حظه.. هنا أبطال مهزومون وأبطال منتصرون.. أشواق وأحزان وأطماع ومطامح.. أين يجتمع هؤلاء جميعاً؟!

تابع الحكم السير بهدوء ومن ورائه محمد. ومرّ وقت من الصمت والتأمل قبل أن يسمعه محمد يقول بهدوء، ما لم يكن يتوقعه:

- لم تخيّب ظنّي فيك يا محمد!

نزل الكلام المفاجئ على قلبه برداً وسلاماً. وأسرع بالقول:

- خاب من خيّب ظنك يا أمير المؤمنين.

استأنف الحكم:

- أم ولدي.. تذكرك بخير كثير.. تقول: تضاعف خراج الضياع منذ تولّيت أمرها.

قال محمد بصوت متخشّع:

- غايتي رضا مولاي.

التفت إليه الحكم وتأمله بنظرة الرضا مبتسماً وقال:

- قد رضي مولاك يا محمد.. إذا كان يوم الثلاثاء فاحضر مجلسي في البهو الشرقي.. إنه المجلس الذي يتسامر فيه العلماء والأدباء.

انحنى محمد له بإجلال، ثم أقبل على يده يقبّلها.

* * *

خرج من المكتبة وهو يشعر بأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن صدره، وحلّ مكانه شعور الفرح بدعوة الخليفة له بحضور مجلسه الخاص مع

جلّة العلماء والأدباء وكبار رجال الدولة. ولكن، كان ينتظره في ساحات الزهراء ما يكدّر عليه مزاجه، إذ سمع صوتاً ليس بالغريب على سمعه يهتف بغلظة:

- أنت!

التفت جهة الصوت فرأى محمداً المصحفي واقفاً يرسل إليه نظرات ملؤها البغض والازدراء. توقف محمد في مكانه، فأشار محمد المصحفي له بإصبعه إشارة استخفاف وقال بلهجة آمرة:

- اقترب.

لم يملك محمد إلّا أن يتمالك نفسه ويقترب قليلاً، ثم يتكلف التحية لابن الحاجب متناسياً ما كان بينهما أيام الدراسة.

- سيّدي.

قال محمد المصحفي بصلفٍ مستفزّ:

- نعم، سيّدك وابن سيّدك.

ثم أشار إليه بإصبعه في حركة دائريّة ممعناً في الازدراء:

- إذن لم يذهب اعتدادك بنفسك عبثاً.. ها أنت هنا!

قال محمد:

- الحمد لله، ثم الشكر لسيدنا الحاجب.

- نعم.. سيدك الحاجب.. أبي.. أليس من مفارقات الأيام أن يكون هو الذي قدّمك لهذا؟

- سيدنا الحاجب أهل للمكرمات.

- نعم.. هو أهل لها.. ولكن ربما نَزَلَتْ أحياناً في غير أهلها.

ذكّر محمد نفسه بأن الصبر من عزم الأمور، وأن الله تعالى أثنى على الكاظمين الغيظ، ولم يُلحق بذلك العافين عن الناس، فلذلك مقام آخر لم يبلغه بعد. وغاية ما يطلبه محمد المصحفي الآن أن ينتصر هذا الفتى لنفسه فتكون بذلك هزيمة طموحاته وأحلامه. وما كان محمد ليعطيه ذلك مهما يبلغ في إهاناته واستفزازاته، حتى تتحقق المآلات المنشودة. وعندها يجتمع الخصوم على الحساب الأخير!

كان محمد المصحفي قد اقترب منه. وقال مستأنفاً:

- ولكن ما لنا ولذا الآن.. إنما يشغلني خاطر أنت أجدر الناس بتبيانه. رجل ينتقل فجأةً من السوق إلى القصر.. كيف يصنع بنفسه فيه؟ أعني هو أمر لم يألف مثله أو حتى دونه. ربما غفل عن نفسه فأخطأ مقام الخطاب، فحدّث السادة بحديث السوقة! هل حدث هذا معك يا محمد؟ أعني.. دعني أضربْ لك مثلاً.. الهواء الذي لا حياة لمخلوقات البرّ بدونه، هو نفسه موت حيوان البحر. ألا توافقني؟

أجاب محمد:

- وكذلك الماء الذي لا حياة لحيوان البحر بدونه، هو موت حيوان البرّ. ألا توافقني يا سيدي؟ إلّا أن ثمة مخلوقات مما أبدع الخالق جلّ وعلا، تعيش بين الماء واليابسة، فتحسن الحياة هنا والحياة هناك، ولا غنى لها عن أحدهما. والآن، أستأذنك يا سيدي..

ومشى مبتعداً، ولكن محمد المصحفي ما لبث أن لاحقه بالقول:

- لا توغل كثيراً في اليابسة، فقد تضلّ طريق عودتك إلى البحر.

قال محمد وهو يتابع مشيه دون توقف ودون أن يلتفت:

- سأذكر هذا يا سيدي.

قال المصحفي هازئاً:

- واعْدِل عمامتك.

كالعادة، لم يجد محمد غير ابن عمه عمرو يفيض له بغضبه المكتوم، ويشرح له خططه. وكان يتمشى وإياه في حديقة منزله قبل تناول الغداء معاً، حين استذكر قول زياد أول قدومهم قرطبة إذ جمع لها صفتي النعيم والجحيم. وأظْهَرُ ما يُرى ذلك في الزهراء. ثم قال:

- أما والله إنها لساحة حرب. إلّا أن عدتها الرأي والتدبير.. وأن توازن وتعرف مواضع الضعف في خصْمك.. أو خصومك.. كذلك مواطن القوة فيهم وإن خَفِيَتْ، ثم تعرف كيف تدفع بعضها ببعض.. في أوانها.

قال عمرو:

- على رسلك يا ابن العم.. ما زلت حديث عهد بالزهراء.. وها أنت تتحدث عن الحرب والخصومات والمكائد..

أجاب محمد:

- العاقل الذي وطّن نفسه على طلب البعيد، ينظر مبكراً في العوائق، ويجعل لنفسه خطة على وفق ذلك.. فالمآلات أمّ البدايات!

وكان بالفعل قد توصّل في هذه المدة إلى صورة واضحة لأطراف القوّة المتنافسة بصمت في دار الحكم. فالوزراء وإن كان كلهم من الموالي، فإنهم يكرهون المصحفي وإن صانَعوه، لبخله أولاً، ولأنه تقدم عليهم إلى منصب الحجابة بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً.. ويرى بعضهم أنه أحق منه بالمنصب.. محدث نعمة، هكذا يرونه، إلّا أنه لا مواهب له تشفع له. ثم إنّه لم يخرج مرّة واحدة في الجيش، ولا صلة له بقادته، لا جيش الثغور، ولا جيش الحضرة الذي يقيم عند قرطبة، ولا الحرس الصقلبي، ولا يتصل أمره بهم إلا حين يطلبون النفقات فيقتّر عليهم. وأولئك هم شوكة السلطان، فمن فاز بولائهم فاز به، وعلى رأسهم غالب بن عبدالرحمن الناصري قائد جيش الثغور وبطل الأندلس المقدّم، ثم يحيى التجيبي صاحب سرقسطة. وكل منهما يرى نفسه أحق بمنصب الحاجب لطول بلائه في مغالبة العدو.

أما كبار الفتيان الصقالبة فقوّتهم في دار الخليفة وطول القرب منه ومن حُرَمه، فضلاً عن شوكة السلاح. ولا يسع هؤلاء إلّا أن ينازعوا المصحفي سلطانه في دار الخلافة. هذه هي ساحة المعركة وأولئك أطرافها.

بعد أن فرغ من شرح ذلك، سأل عمرو:

- وما عدتك أنت فيها؟

أجاب بثقة:

- هؤلاء جميعاً.. بعضهم على بعض! ومعها الصبر والمصابرة وطول الأناة، واحتساب الموعد والوعد، ومعاينة اليوم الذي تكره بعين الغد الذي ترجو وتحب، ومداراة القويّ السفيه حتى تتمكن منه.

أحب عمرو أن يسمّي الأشياء بأسمائها فعلّق قائلاً:

- المصانعة تعني!

لم يأبه محمد بالوصف وقال:

- لا بأس.. المصانعة إن شئت، فالحرب خدعة، ثم فضح الضد القبيح بالضدّ الحسن. تقتير المصحفي؟ ضده الكرم والبذل وجبر العثرات.

سأل عمرو:

- وما الذي في يدك لتجود به؟

- سيكون.. سيكون. ألم أذكر الصبر والمصابرة وطول الأناة؟

ثم استأنف فيعرض خطته:

- ضعف رأي المصحفي وتردده؟ ضده الحسم والعزم والمبادرة إلى عظائم الأمور، والمخاطرة التي يرشدها الرأي.. جهل المصحفي بالحرب والعسكر؟ الجيش.. هنا موطن الشوكة!

سأل عمرو من جديد:

- ما صلتك أنت بالجيش والحرب؟

- ستكون.. ستكون..

- ليس لك سبيل إلى جيش الثغور مهما تبلغ، مع غالب الناصري على رأسه.. وليس لك سبيل إلى الحرس الصقلبي..

قاطعه محمد قائلاً:

- جيش الحضرة.. هذا الجيش المظلوم الذي يقيم في قرطبة، فلا هو يقاسم جيش الثغور أمجاده، ولا له موطئ في الزهراء، حتى يُدعى لدعم هذا أو ذاك إذا اقتضت الحاجة. فلا يحسب له أحدٌ حساباً. والعين غافلة عنه.. فهو إذن وجهتي وملاذي.

قال عمرو متسائلاً:

- كل هذا على شرط المستقبل.. سيكون.. سيكون!

توقف محمد وأرسل بصره إلى البعيد وقال:

- المستقبل هو الآن! معي ما ليس معهم جميعاً.. الصبيّ! الصبيّ!

عنى بذلك ولد الخليفة الطفل.. رمقه عمرو متملياً ثم تجرّأ على القول:

- وأمّه!

اهتزت ملامح محمد والتفت إلى عمرو مستطلعاً، ثم انصرف ببصره عنه وهو يسأل:

- ما الذي تعنيه؟

قال عمرو:

- تعلم ما أعني.

- لا، لا أعلم ما تعني.

لم يتردد عمرو هذه المرة في الإفصاح، وإن لم يخامره شك في أن ابن عمه يعرف مقصده:

- لا تحسبني أبله وإن لم أكن في مثل ذكائك.. حتى أنت لا تستطيع أن تخفي كل ما في نفسك.

بدا الضيق على وجه محمد وهو يردّ عليه:

- هلّا شققت على صدري؟

- لا حاجة لي بذلك. جوارحك تشي بك: عيناك اللتان تبرقان كلما ذكرتها.. الحال التي تكون عليها كلما عدتَ من لقائها، والحال التي تكون عليها حين لا تلقاها.

قال محمد بانفعال واضح:

- ما شاء الله! ما صدّقت أن رحيل زياد قد أراحني من تعليقاته حتى..

قاطعه عمرو معتذراً:

- لا تغضب.. لا تغضب.. إني لك من الناصحين.

قال محمد بلهجة قاطعة:

- لا تنصحني حتى أستنْصِحك.

لم يمنع ذلك عمرو من استئناف الكلام ضنّاً بابن عمه الذي يحبه حبّاً جماً.

- إنه لمركب صعب، وبحر متلاطم الموج. قد تجد فيه قوتك، وقد يكون فيه هلاكك.

أطرق محمد لحظة ساهماً متفكراً، ثم تحدث بصوت هادئ:

– معاذ الله أن أخون صاحب نعمتي.. إنّه ربّي أحسن مثواي!

همّ عمرو بالحديث، فقاطعه محمد بنبرة قويّة قاطعة:

– أما القلب، فلا سلطان لأحدٍ عليه. والآن، لا نترك عائشة تنتظر، قد آن وقت العشاء.

أخذا بالمشي صامتين نحو باب المنزل، وفجأة قفز عمرو أمامه معترضاً إياه، وتحدث الآن بلهجة شديدة الجدّ:

– أنصت يا محمد! والله لا أشك أنك ستدرك غايتك.

– غايتي هي غاية الناس.. الأندلس.

– فليكن.. وهي غايتي كذلك. ولكن هذه الأسباب والطرق التي تريد أن تتوسّلها لبلوغ الغاية، قد يختلط فيها الحق بالباطل، وتلابسها الرّيب.. المصانعة والمباطنة، واغتنام الفرص، وضرب الضدّ بالضدّ.. ثم أم ولد الخليفة وتوصُّلُك بها إلى حاجتك.. كل هذه..

قاطعه محمد:

– إنها الحرب، والحرب خدعة. ومناط الأمر سموّ الغاية، بل ضرورتها في حالة الأندلس الآن. والحكيم من قدّر الأمور قبل وقوعها، ولعمري إن شواهدها قائمة لمن كان له قلب وألقى السمع وهو شهيد.. خليفة مكتهل، وولد طفل، وليس وراءه إلّا المصاحفة والموالي والصقالبة؛ قلوبهم شتّى.. لا يحركهم إلّا الطمع.. هذا مع عدوّ يتربّص على الثغور.. أخذ بكتفي عمرو يهزهما وهو يستأنف: إنه مستقبل الأندلس يا عمرو.. هذه هي الغاية! ثم تُحذِّر من الوسيلة التي لا أملك غيرها؟ والقاعدة: ما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب.. إذن فالوسيلة مهما تكن، حكمها من حكم الغاية.

تأمّله عمرو، ثم قال بهدوء:

- هل تسلم الغاية النبيلة من أثر الوسيلة المريبة! لست مشفقاً على خصومك يا محمد، فهم كما تصف.. ولكني مشفق عليك.. أخشى أن تضلّ طريقك في تلك الغابة.

ضرب محمد على ذراع عمرو بتحبب، وقال مبتسماً:

- أَشفِق منّي، ولا تشفق عليّ.. هيّا..

كان حضور محمد بن أبي عامر مجلس الخليفة الخاص مع تلك النخبة من الأعلام والسادة إشارة إلى أنه قد بلغ من الخليفة موضع الرضا والتقدير، مع صغر سنه وحداثة عهده بالعمل في الزهراء. فرفعه ذلك في أنظارهم على ما خالط بعضهم من الغيرة والحسد. أما ابن حدير فكان فخوراً به إذ كانت صلته هي التي أفضت به إلى الزهراء، ولم يخيّب ظنّه. كذلك كان شيخاه في جامع قرطبة أبو علي القالي، العالِم في اللغة والأخبار، وأبو بكر بن القوطيّة شيخ الحديث، إذ كانا أول من تنبه لنجابته وأجازاه. وفضل التلميذ مهما يَعْلُ يظل منسوباً إلى شيوخه. وكان في الحضور أيضاً اثنان من أهل الذمّة هما حسداي بن شبروط اليهودي، أعظم أطباء الأندلس وطبيب الخليفة، والأسقف ربيع بن زيد، واسمه الأصلي رثموند البيري، وهو قومس أهل الذمّة ومدبّر أمرهم ومن خاصّة الخليفة وجلسائه الدائمين. وبالطبع كان هناك الحاجب جعفر المصحفي، واثنان من إخوة الخليفة هما المنذر بن الناصر، الناظر على جامع قرطبة، وعبدالعزيز بن الناصر، ناظر المكتبة الأمويّة. وكان هناك آخرون عرف محمد بعضهم وجهل بعضهم ومنهم عيسى بن فطيس وابن جهور وابن شهيد، من كبار الوزراء الموالي. ولأنه كان الأحدث سناً والأقل مرتبةً فقد جلس في طرف المجلس كما أُشير له. كان يشعر بالحرج والتهيّب، فآثر الإطراق متحاشياً نظرات الحاضرين ولبث صامتاً بينما أخذ الآخرون يتنقلون من موضوع إلى آخر، ومن نادرة إلى أخرى في جوّ من التبسّط والمرح، تختلط فيه المعارف بالطرائف، والمقابسات بالمؤانسات، حتى قال ابن القوطية غامزاً بأبي علي القالي على سبيل الدعابة، ومخاطباً بذلك أمير المؤمنين:

- يا أمير المؤمنين أشكو إليك أبا عليّ القالي. كلما ذهبت إليه في داره قدّم الحلوى قبل اللحم، حتى إذا فَرَغْتُ منه، انصرفت نفسي عن الطعام.. كأنه يقصد إلى ذلك.

ابتسم الخليفة واتجه ببصره إلى القالي يستطلع ردّه، فقال القالي:

- وما عليّ لو قدّمت ما قدّم الله يا أمير المؤمنين؟ والله يقول: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾ [الواقعة:20-21] فقدّم الفاكهة على اللحم، فعلمنا أنها أنفع لصحة البدن.

ردّ ابن القوطية قائلاً:

- ما لهذا نزلت الآية. والتقديم لا يفيد التفضيل دائماً. وحتى لو كان، فقد ذكر الله تعالى الفاكهة ولم يذكر حلوى المُجبَّنات التي لا يطيق القالي عنها صبراً.

ضحك الحضور، ولم يتأخر القالي في الردّ وقد بدأ الحوار يتحوّل إلى سجال طريف ماتع.

- أقيس هذه على تلك.

قال ابن القوطيّة:

- هذا من تلبيس إبليس لعنه الله. وهو أوّل من قاس ليجادل عن كفره وعصيانه كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف:12] ونحن، أهل الأندلس، نكره القياس الذي يحبّه أهل المشرق، ونقف عند النص والنقول والأثر على مذهب مالك. أما أنتم المشارقة يا أبا عليّ، فتخرجون من ظاهر النصّ إلى القياس، ومن القياس إلى علم الباطن وتخليط الفلاسفة والمتكلّمين. وحتى في العلوم الطبيعية، يبدأ أحدكم بوصف المحسوس الظاهر، ثم ما يلبث أن يغوص

في كوامن الأشياء وغوامضها، فالكينونة والماهية والعرض والجوهر والظهور والكمون والذات والصفات.. وهذه شواغل من لا عمل له.

أجاب القالي:

- أتذمنا أننا نقدح زناد الفكر، وننفذ إلى بواطن الأمور ولا نقف عند ظواهرها، وننظر في العلّة والمعلول.. مرامي العلم بعيدة يا أبا بكر.. ابن القوطية.

وتعمّد تعزيز النطق بالجزء الأخير من الاسم: ابن القوطية الذي ردّ عليه قائلاً:

- التعمّق عندكم تعقيد وتكلف. والذي تنعتنا به هو الوضوح والمباشرة، واستعمال الوقت في النافع المجدي من العلم والعمل. وبذلك عظم عندنا العمران، وازدهرت الصناعات.

ردّ القالي قائلاً:

- العلم صنفان: علم يقصد لذاته، وعلم يقصد لغيره من المنافع والمعاش.

قال ابن القوطية:

- لا أرى العلم إلّا الصنف الثاني.

أجاب القالي:

- أليس في الدنيا غير طلب المعاش؟ ألهذا يُتَّهم أهل الأندلس بالـ..

توقف عن إتمام الكلمة، فتدخل الأسقف ربيع:

- يريد أن يقول إننا نُتَّهم بالبخل.

قال القالي:

- لا أقول البخل، ولكن.. الحرص!

أجاب الأسقف:

- بل هو حسن التدبير واتقاء الفاقة والسؤال.

التقط ابن القوطية الفكرة، فقال مؤكداً كلام الأسقف:

- انظر في الأندلس.. لا تجد فيها متسوّلاً واحداً يسأل الناس. وإن ظهر أحدهم وجدت الناس يقرّعونه أشدّ التقريع حتى يستحي ويستغني بعمل يده. أما عندكم في المشرق فيكثر هؤلاء بدعوى الزهد والانقطاع إلى العبادة، ولا يكاثرهم إلّا أهل الفلسفة والكلام والباطن.

اتجه القالي ببصره إلى الخليفة وقال مستجيراً به:

- قد تكاثروا عليّ يا مولاي.. وأنا لائذ بك.

هز الحكم رأسه بهدوء وقال:

- قد لذتَ بملاذ.

صمت الحضور وتوجهوا بأنظارهم إلى الحكم الذي قال:

- يا قوم. لقد والله ظلمتم أهل الفلسفة والحكمة، واستمعتم فيهم إلى رأي أهل التزمّت. وهذه مكتبتنا الأمويّة قد جمعت فيها كتب الفلسفة. وقد نظرت فيها فوجدتها كسائر العلوم والمعارف.. تعرف منها وتنكر.. ويصح عندك بعضها ولا توافق بعضه. فأصحابها ليسوا على مذهب واحد أو سويّة واحدة لنُجْمِل القول فيها وفيهم برأي واحد. وربّ رأي يخالف معتقدك يُنشط ذهنك ويَدْعوك إلى التمعّن والتفكير حتى يفضيا بك إلى مزيد من الفهم والتبصّر والحكمة، لم تكن لتخطر في بالك. وإلّا فكيف تتقدّم العلوم والمعارف، إلّا بتدافع الآراء والأفكار؟

هز القوم رؤوسهم، وقال ابن القوطية:

- أمير المؤمنين أعلم وأحكم.

هنا هتف القالي في الحضور متهكماً:

- هكذا؟ يتحدث أبو علي القالي، ويدفع عن رأيه، ويأتي بالحجة والبيّنة، فتتكاثرون عليه، ثم إذا انتصف لي أمير المؤمنين برأيه، تبيّن لكم الحق وسارعتم إلى التسليم!

صاح ابن حدير من مكانه:

- سبحان الله. نحن خدم أمير المؤمنين أم خدم أبي علي القالي؟

انطلق الجميع في الضحك، واكتفى محمد بن أبي عامر بالابتسام. ثم عاد الأسقف ربيع بن زيد إلى الكلام مخاطباً القالي:

- ومع ذلك يا أبا عليّ، أنت قدمت من المشرق منذ أعوام، ووجدت في الأندلس متّسعاً رحباً في ظلّ أمير المؤمنين، فما لكَ إذا ذُكر المغرب والمشرق تعصبت لموطنك الأول؟

أجاب القالي:

- بل أراكم أنتم تتعصبّون فتنسون فضل المشرق. انظروا الكتب التي تتدارسونها، أليس جُلّها من المشرق؟ وأين يرتحل علماء الأندلس إذا شاؤوا الاستزادة من العلم؟

قال ابن القوطية:

- لا والله لا ننكر، ولكننا نأخذ علم المشرق، ونزيد عليه علم الأندلس، أما علماء المشرق فيستغنون عن غيرهم ترفعاً واعتداداً.

ردّ القالي عليه فقال مُعْتَدّاً بمنبته:

- بلى والله إنهم لمكتفون. وعندهم من العلماء والنابهين في كل فن ما يفيضون به إلى بقاع الأرض. انظر هذا.. زرياب، ارتحل من المشرق إلى الأندلس أيام عبدالرحمن بن الحكم، فطار صيته ولم يجد له منافساً. وحين

ارتحل شاعركم الغزال في الفترة نفسها إلى بغداد، يطلب الشهرة، لم يبلغ شيئاً. وكان أعظم شعراء الأندلس في عصره، فعلامَ يدلّ هذا؟!

صمت القوم بضع لحظات، وفجأة سُمِع صوت محمد من مكانه لأول مرّة، فشخصت إليه أبصار الجميع.

- يدلّ هذا على أنّ عظيمنا يصير خامل الذكر في المشرق لكثرة العظماء والأفذاذ، وخامل الشرق يصير عظيماً عندنا لقلّة الأنداد والمنافسين!

هتف أبو علي هتاف النصر:

- الله أكبر.. هذا هو أخيراً! تلميذي الذي صنعته على عيني!

لم يمهله محمد إذ تابع القول بصوت هادئ ثابت:

- ألهذا ارتحلتَ أنت إلى الأندلس وعلا صيتك فيها يا سيدي؟!

رانَ الصمت على المكان بضع لحظات، قبل أن يرتج بضحكات الحضور المجلجلة، حتى إن الخليفة لم يستطع أن يكتم ضحكته وإن دارى بوضع كفه على فمه، وهو يرسل إلى محمد بن أبي عامر نظرة إعجاب. والآن جاء دور ابن القوطية للهتاف متشفياً:

- الله أكبر.. ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

أردف ابن حدير متهكماً:

- قد أفحمك يا أبا عليّ.. تلميذك الأندلسيّ الذي صنعتَه على عينك! ما تقول الآن؟ ألا يأتينا إلّا خامل الذكر فيعظم عندنا لقلة الأشباه والنظائر؟

تلجلج أبو علي القالي حتى وجد مخرجاً من ذلك الحرج فقال:

- ما استطاع أن يفحمني إلّا لأني أحسنت تعليمه، فقوّة حجته مردودة إليّ، وإن كانت عَلَيّ.. وهي شهادة لمعلمه المشرقي.

ثم توجه بنظره وكلامه إلى محمد:

- يا شيطان!

أما محمد فتوجه بالخطاب إلى الحكم قائلاً:

- أزيد يا مولاي؟

هز الحكم له رأسه بالموافقة، فخاطب القالي من جديد:

- ذكرتَ رحلة الشاعر الغزال إلى بغداد، وأنه لم يبلغ هناك شيئاً، وسَكَتَّ عن أشياء يا سيدي، وما أحسبه النسيان، أفلا تذكر لأمير المؤمنين وجلسائه أن الغزال حين نزل بغداد، اجتمع بنفر من المشتغلين بالأدب والشعر. فذكروا الأندلس فأزْرَوْا بشعرائها وقللوا من شأنهم، ثم ذكروا شاعرهم أبا نواس فأطنبوا في الثناء على شعره. ثم قال لهم الغزال: أيكم يحفظ قول أبي نواس:

ولمـــا رأيـــت الحـــانناديـــت ربـــه
فهـــب خفيـــف الـــروح نحـــو نـــدائي

قليـــل هجـــوع العـــين إلا تعلـــة
عـــلى وجـــل منـــي ومـــن نظرائـــي

فقلـــت أذقنيهـــا فلـــما أذاقنـــي
طرحـــت إليـــه ريطتـــي وردائـــي

وقلـــت أعـــرني بدلـــة أســـتر بهـــا
بـــذلت لـــه فيهـــا طـــلاق نســـائي

فـــوالله مـــا بـــرت يمينـــي ولا فـــت
لـــه غـــير أني ضـــامن بوفـــائي

وأبـــــت إلى صـــــحبي ولم أك آبيـــا

فكـــــل يفـــــديني وحـــــق فـــــدائي

فطربوا للشعر، وخرجوا فيمدحه عن القصد، وكلٌّ يقول: ما أحسنه! ما أجمله! فلما أفرطوا هبَّ للغزال وقال: خفضوا على أنفسكم فإنه من شعري. فلما عرفوا أنه للغزال، لا لأبي نواس، رجعوا عليه بالرأي، فأنكروا الشعر وصاحبه، وطفقوا يعيبونه. فما رأيك في هذا يا سيدي؟ أي الفريقين أشدّ تعصّباً.

ارتفع لغط الاستحسان في المجلس إذ فرغ محمد من كلامه. ولم يجد القالي ما يجيب به. وعاد الحكم ينظر إلى محمد مبتسماً متملياً وقد زاد إعجابه به وعلت منزلته عنده، بقدر ما ثقل ذلك على نفس المصحفي.

* * *

حين خلا الحكم إلى صبح بعد تلك الجلسة أطنب في الثناء على محمد بن أبي عامر الذي فاق معلميه وسائر الحضور من ذوي المراتب والأسنان في حسن المنطق وقوة الحجة وإحكام الرأي، ولمّا أطال في المدح قالت لتخفي انفعالها:

– يا سيدي.. يا سيدي.. غاليت في مدح الفتى. أفلا تقتصد؟

أجاب بمنطق السلطان القوي المستغني بمنزلته عن المقارنة بغيره، فلا يغرّه ما يمكن أن يضرّ الآخرين من رجاله، وله أن يفاضل بينهم بما شاء من المعايير وإن خلا هو من بعضها. فليس بعد السلطان من فضل. قال:

– ما أحْوجَ دولتي إلى عزيمة الشباب.. ورثت عن أبي رجال دولته، فكلهم كهل أو شيخ، فلا يسمع أحدهم من الآخر إلّا حديث الأيام الغابرة. وكلهم قد استدبر من عمره أكثر مما يستقبل، واطمأن إلى

قديمه فلا يجتهد في جديده. ثم لا يجد ما يواسي به نفسه إلّا أن ينعى على شباب اليوم، كنا كذا، وهم كذا. وما يدرون أن مخالطة الشباب تؤنس من الوحشة وتجدّد الهمّة، فيقتبس هذا من ذاك بعض ما يفتقده. وحال الدولة من حال رجالها.

ما كان له أن يدرك ما أحدثه كلامه في نفس صبح التي قضت سائر الليلة أرقةً وقد غلب عليها الشوق فأخرجها من ضيق الواقع إلى سعة الخيال.

* * *

صاحت بدور:

- ماذا؟ ترسلين إليه؟

أجابت صبح بلا تردد:

- نعم.. قد تداويت بالبُعد فما زاد النار إلّا ضراماً.. ولقد وجدتني أفكر به آناء الليل وأطراف النهار، حتى صرفني عن كل شي. وإن بقيت على هذه الحال لحظ الآخرون آثارها، فكان أدعى إلى الريبة.. وأنا والله أصون نفسي ولا أُفرط.. ذلك بيدي.. أما الذي ليس في يدي فلا حكم عليه.. ولقد وجدتني أتصوّره في نفسي وروحي، وهل تعلمين ماذا؟ لم أشعر بالتأثم، بل شعرت بمتعة الطائر الحبيس الذي وجد سبيلاً إلى الفضاء.. إلّا أن فضاءه هنا.. وأشارت إلى صدرها وتابعت:

- .. أو متعة النائم الذي يرى نفسه حافياً متجرّداً بين الناس، فيشتد عليه الأمر ويقتله الحرج، ثم يأتيه الخاطر وهو ما زال في نومه: إنه حلم.. لا بأس.. إنه حلم.. فينقلب حرجه وكربه إلى راحة ونشوة.. ما عليّ لو مشيتُ حافياً متجرّداً طالما أنه حلم؟.. وفي الحلم كل شيء مباح.. ألم تَرَيْ في منامك شيئاً كهذا أبداً؟

أطرقت بدور متأمّلة ثم تحدثت بصوت عميق هادئ:

- بلى رأيت مثله وأكثر منه.. وكنت أظن أني أختصّ به دون الناس.. ولكن..

رفعت رأسها وأكملت:

- لم يكن أشدّ ما فيه الحرج الذي يكون في أوّله! بل حين أفيق منه وتنقشع النشوة التي تكون في آخره!

تبادلتا نظرة خاصة صامتة، وما هي حتى انطلقتا في الضحك معاً، ومالت إحداهما على الأخرى.

أما محمد فكاد أن يمشي هرولةً حين وصلته الدعوة إلى مقابلة صبح، وإذ أُذِن له بالدخول إلى صالة الاستقبال، اندفع بسرعة المتلهف، وفي الوقت نفسه استدارت صبح من مكانها عند النافذة الزجاجية الواسعة، والتقت نظراتهما في بوح صامت. تحرك كل منهما بضع خطوات إلى جهة الآخر ثم توقفا، وإذ شعرت صبح بأن ساقيها تخذلانها آثرت الجلوس من فورها، ولم يتأخر محمد في الكلام بأسلوب عاجل مباشر لا تردد فيه:

- لماذا؟ هل وقع مني خطأ؟ هل أسأت التصرّف؟ هل جاوزت حدّي؟

رفعت رأسها وقالت:

- وما الحدّ يا محمد؟ هل تعرفه؟

أجاب متدفقاً بإيقاع سريع متّصل وبكلام فاجأه بقدر ما فاجأها، وكأن قوة خفية كامنة في أغوار روحه كانت تنطق بلسانه عنه وعن كل العشاق المحرومين:

- الحد؟ حد الجوارح وما نملك؟ أم حد الروح والقلب والخيال؟ أما عمل الجوارح فحده الخيانة والحرام، ولا أنا بالذي أتعداه ولا أنت.

أما حد القلب والروح فحيث يهيمان، إلى حيث تقدر الأعمار والأقدار والأمصار.. حيث لا زمان ولا مكان ولا تواريخ ولا ليل ولا نهار. وهبي أني خرجت من هذا المكان ثم لم أعد إليه، هل تفارقه روحي أو يفارقه قلبي؟ وهل لي عليهما سلطان؟ نعم، ليته كان فأريح وأستريح. فإن كانا باقيين هنا، حضرت أم غبت! شئت أم أبيت! فما الذي نصيبه بالبعد غير خيانة القلب والروح؟ وهل يكون الشيء معدوما طالما بقي سرا في القلب، حتى إذا أفصح عنه وجد؟ إذن أفصح عنه ولا أبالي! فهو موجود موجود! ولكن أصونه بالعفاف وأحفظه بالتذمم، وأكرمه، ولقد وجدتني أفكر بك، ثم أستذكر السدود والحدود والقيود، فأفزع منها إلى الخيال والوهم: خيال الصبي أول بلوغه الحلم، يصنع الدنيا على مثال أحلامه حين يرقد لنومه ويزوره طيف المرأة الناضجة الشابة التي دونه ودونها كل الأسباب: السن والمنزلة والغنى وزوج يملأ العين والخاطر، وهو الصبي يمرّ أمامها فلا تراه ولا تدركه.. فإذا رقد وزاره الطيف قبيل نومه، فزع إلى أوهامه وخيالاته، فمحا بها الأسباب التي تحول بينهما، واحتال على كل سبب فيها بما تبدع المخيّلة تحت وطأة الرغبة، فيخترع أزمنةً غير هذه الأزمنة، وأمكنة غير هذه الأمكنة، وبشراً غير هؤلاء البشر، وقواعد غير التي نحيا بها، ثم يجعلها تتواطأ لتجمع بينهما، وقد يصوّر نفسه وإياها قد اجتمعا على غير ميعاد في مركب يحطمه الموج، ليجد نفسه وإياها وحيدين في جزيرة منقطعة لا بشر فيها، ولا سبيل للخروج منها أبد العمر.. وهكذا تتواطأ الضرورة بأحكامها لتلبّي مطالب الرغبة. فإن كان هذا الصبي آثماً فيما تبيحه المخيلة وتطلقه الرغبة، فليس على هذه البسيطة إلّا آثم.. وأنا أعادني التفكير بك ذلك الصبيّ، ولا حرج.. ساعة من النهار أو الليل أتجرّد فيها من حكمة لا ترشد إلّا بقدر ما ترهق، ولا تفتح إلّا بقدر ما تغلق، ولا تعطي إلّا بقدر ما تمنع. فليكن إذن، تمتثل الجوارح للأحكام والقواعد والرقيب والحسيب، ولكن، يبقى هنا..

دق على صدره متابعاً:

- .. فضاء لا حدّ له.. هو لنا من دون الناس.. نطير فيه كما نشاء.

نرفع فيه المدن ونهدمها.. ونكتب فيه ونمحو.. نغيب فيه ونحضر.. نفنى فيه ونولد.. ذلك هو فضاء القلب والروح.. فكيف ننكره على أنفسنا فننكرها على الجملة!!

توقف الكلام عند هذا الحدّ، ولم يتوقف سحره الذي هام بها في عوالم بعيدة يصعب الرجوع منها، وشعرت بأن روحها قد فارقت جسدها لتعانق أبراج النجوم. أهذا هو الغياب الذي يعقبه الحضور في الأجمل والأبهى؟ وحين أفاقت على نفسها من تلك الغشية الخاطفة، وجدت نفسها تقول:

- أما والله قد نطقت عنّي، ما لو عشت الدهر كلّه ما اهتديت إلي مثله.

قال:

- عني وعنكِ.. عني وعنكِ.

قالت:

- وهو يكفيني منك ما حييت، ولا زيادة.

* * *

كان قد مضى عام على عمل محمد في الزهراء وكيلاً لأملاك ولد الخليفة وكاتباً لأمّه حين قرّر الخليفة أن يوليه أمانة دار السكّة حيث تُسَكّ الدراهم والدنانير، والنظر على الخزانة. وهما منصبان رفيعان يلحق صاحبهما لقب الوزارة، على أن يبقى في الوقت نفسه في عمله للسيّدة صبح وولدها. هز القرار أركان الزهراء وتحدّث فيه الكثيرون. كيف لهذا الفتى الشاب أن يبلغ هذه المرتبة في هذا الوقت القصير!! حتى إن الحاجب

المصحفي راجع الخليفة فيه فصَدّه بشيء من الغضب، فرجع على نفسه بالاعتذار. وعلم منذ تلك الساعة أن هذا الشاب جدير بأن يخشى منه.

أما ابن عمه عمرو فلم تصرفه سعادته الصادقة بما تحقق لابن عمّه عن تحكيم عقله والتعبير عن مخاوفه. فحذَّره من نفسه أولاً ومن الآخرين. إذ لا يصعد رجل ذلك الصعود السريع إلّا كثر حسّادُه ومبغضوه، وخافوا منه على ما في أيديهم. ونهاه أن يغتر بحب الخليفة له، ومن وراء الخليفة. وكان يلمح بذلك إلى صبح. فإن القلوب تتقلب. وذكّره أنه رجل واحد وإن علا بين عصب قويّة من الموالي والصقالبة. وهؤلاء إن تواطأوا على الكيد له عند الخليفة، فإنه لا يضحي بهم جميعاً من أجل رجل واحد. طمأنه محمد أنه يدرك هذا. ولكنه ليس رجلاً واحداً. ثم قال مداعباً:

– أنت معي، وكذلك صاحبنا عليّ، والناس الذين خرجتُ من أوساطهم، ولا أحمل آمالهم إلّا بقدر ما يحملونني، فإذا غفلت ذَكَرْتُهم فذكّروني فلا أتعجّل ولا أدلّ بثقة الخليفة، بل أزيد تواضعاً وتبسّطاً ومداراة لمن تخشاهم عليّ.

ثم ذهب تفكيره بعيداً وقال:

– ولكن الشقيّ ابن عمنا زياد.

قال عمرو:

– أنت من أغراه بركوب البحر.

– ولكني أفتقده على ما كان !

أما عائشة فكانت أسعد الناس بتلك القفزة العظيمة في أعمال الدولة. فهي منذ الآن زوج السيد الوزير صاحب الخزانة ودار السكة الذي يقف حارسان أمام داره. على أنها فاجأته بالسؤال:

– ماذا عن عملك مع السيّدة صبح وولد الخليفة؟

أخفى كالعادة اهتمامه، وأجاب بلهجة عارضة:

- أصرّ الخليفة، أعزه الله، على أن أجمع هذا إلى ذلك.. ولا أملك إلّا الطاعة!

عادت تسأل بلهجة غامضة مبطنّة هذه المرة:

- هو وحده أصرّ؟

التفت إليها مستطلعاً مستغرباً، فلم يألف منها هذه المواربة من قبل.

- ماذا تعنين؟

قالت:

- السيد صبح! أحسبها صاحبة الرأي في هذا؟ أعني عملها وعمل ابنها.

قال مدارياً:

- وما يدريني ما يكون بينها وبين الخليفة؟

ثم نظر إليها متفحصاً وسأل:

لماذا يهمّك هذا الأمر؟

أجابت من فورها:

- كيف لا يهمّني؟ أنت زوجي.

اضطرب قليلاً على الرغم منه وقد ذهبت ظنونه إلى الأسوأ لولا أنها أكملت بكلام آخر لم يتوقعه منها:

- رأيها أم رأي الخليفة.. المهم أنك بقيت في عملها وعمل ولدها. فاقْبض عليه حتى لو كان جمراً. هو عندي أخطر من الخزانة ودار السكّة.. هناك أصل الشجرة وإن دنا، وما عداه فروع وإن علت. والأصل هو

الذي ينبت الفروع والزهر والثمر، وقد يُقطع الفرع، ولكن لا أحد يجرؤ على الأصل!

بدا مندهشاً حائراً قبل أن يقول:

- هذا رأيك؟

- وهل ثمّة غيره؟

- كنت أخشى..

توقف عن إتمام العبارة، قالت وهي تتفحصه:

- .. أني أغار من أم ولد الخليفة؟

- هكذا النساء.

- ولكني لست أيّ امرأة.. أنا زوج الوزير أبي عامر، أتطلع إلى حيث يتطلع.

- نعم.. ولكن..

قاطعته مستأنفةً دون أن ترفع نظرها عنه.

- وهل تغار العربيّة الحرّة من جارية؟

- تلك الجارية هي أمّ ولد الخليفة.

- وذلك أجدر ألّا أغار منها.. هل تغار المرأة من المُحال؟

قال متصنعاً:

- مهما يكن.. بقدر ما يعجبني رأيك، يسوءُني ألّا تغاري عليّ. فالغيرة على ما فيها هي بنت المحبة.. ألا يُغارُ عليّ؟

قالت:

- هل تشك في حبي لك؟ نعم، لعلّه كما قلت: الغيرة بنت المحبّة. ولكنها محبة المنقوص الخائف لحبيب غير مأمون.. وما أنا تلك، ولا أنت ذاك.

اكتسى وجهه بملامح التأمّل، بينما اقتربت منه وتحدثت بما يشبه الهمس وهي تتكئ على كتفه.

- فإن كنت أنا آمنة، وأنت مأمون، فلا بأس عندي في أن تتقرّب منها وتلاطفها بالكلمة الجميلة التي لا تثلم الشرف والمروءة.. بالهدية الجميلة التي تؤلّف النفوس.. أنا امرأة، وأعرف ما تفعله هذه الأمور في نفوس النساء، حتى لو كانت الواحدة منهن مستغنيةً عن كل شيء.

التفت إليها مبتسماً يرمقها بإعجاب:

- ما كنت أصنع بدونك!

التقت عيونها بنظرة عميقة، قبل أن تستدرك بأسلوب مرح:

- ولكن، لا تبالغ. فقط ما يفي بالغرض!

* *

كان محمد ابن الحاجب المصحفي أشدّ الناس ضيقاً وحَنَقاً حين بلغه الخبر، فاندفع إلى ديوان أبيه كالمجنون وقد زاده الغضب عِيّاً وحمقاً فأخذ يتنقل على غير هدى بين اللوم والتأنيب والتقريع والسبّ والاتهام حتى أسكته أبوه ضارباً بقبضته على المنضدة بقوة. وأمره أن يلجم لسانه. ثم ذكر له أنه ليس أكثر منه رضاً وقبولاً، ولكن الخليفة لا يُنازعُ في أمره، وأن الحاجب ليس أكثر من كبير خدمه. وهنا غلب على محمد المصحفي حُمقه فقال:

- كيف استطاع أن يسحر عقل أمير المؤمنين!

لم يفلح الحاجب هذه المرة في إسكاته فتابع قائلاً:

- بلى والله، هو السحر، وإن لم يكن سحر التعاويذ.. ولكنه لم يسحر أمير المؤمنين حتى سحر من لها سحر على أمير المؤمنين.

هنا وقف الحاجب وصاح فيه:

- اصمت قطع الله لسانك. لا يسمعنّك أحد فتهلكنا.

قال ولده:

- الناس تتهامس.

اقترب منه أبوه وتحدّث بصوت خفيض وهو يدقّ على صدر ولده:

- اسمع أيها الفتى، وأنصت جيداً. هذا مسلكٌ وَعِر يهلك فيه المتَّهِمُ قبل المُتَّهَم. والسلطان أشد على من يخوض في حرمه ممن خيض فيهم. إن سمعتهم يتهامسون، فإما أن تفرّ من السماع فرارك من المجذوم، وإما أن تقطع ألسنتهم. فالقائل والسامع الساكت على نفس القدر من الجرم عند السلطان. هل تفهمني؟

هز رأسه مستسلماً، وعدل إلى لهجة الرجاء:

- يا أبتِ.. إن لم يكن في وسعك إقصاء ابن أبي عامر الآن، فلا أقلّ من أن تجعلني على خطة من خطط الدولة تكون أعلى رتبةً من مرتبة هذا الماكر فهو الآن يتشفى بي مع أصحابه..

رمقه أبوه متملّياً وسأل بين الجد والتهكم:

- وأي عمل في خاطرك؟

أجاب:

- دار المدينة!

هز المصحفي رأسه بأسلوب هازئ وقال:

– هل تعرف حقاً عمل صاحب المدينة؟ هاه! إنه يتولّى مصالحها ومصالح أهلها جميعاً.. الأحياء.. الدور.. الطرقات.. الأسواق والأرباض.. الماء.. النظافة.. العمائر.. الساحات والمتنزهات.. وفوق ذلك أمن الناس، ولذلك كان له أمر على خطط الشرطة الثلاث: الكبرى والوسطى والصغرى.. إنه حاكم المدينة.. نائب الخليفة فيها.. ولذلك لا يتقدّم عليه أحد إلّا الحاجب. فهل تعتقد أنك قادر على تصريف هذه الأعمال؟ مائة ألف وثلاثة عشر ألف دار، وفوقها دور الزهراء وهي أربع مائة.. ثمانية وعشرون رَبَضاً خارج المدينة الوسطى وأسوارها.. ثلاث مائة حمّام.. وقس على ذلك المرافق الأخرى. هل ترى نفسك الآن أهلاً لهذه المهمة التي إن أخفقت فيها فقد أوديت بنفسك وأوديت بي معك. ولكن الزم عملي الآن، وتعلّم ما استطعت، ثم ألتمس لك مخرجاً.

لم يركن إلى منصبه الجديد على علوّه، فقد كان يدرك أن صعوده السريع لا بد أن يثير حفيظة الموالي والصقالبة ويؤلبهم عليه إلّا أن يستغلّ أسباب القوة الجديدة في التمكين لنفسه والتوطئة لغاياته التالية التي ستكون أشدّ صعوبة. وقدّر أنه بلغ من الطريق ما لا يصلح معه التوقف، فإما التقدم وإما التراجع. وقد علم أن شوكة السلطان تبنى على عمادين: المال والعسكر. وها هو الآن على خطة المال. ولا بد له أن يتقرّب إلى العسكر ويفوز بولائهم لهم. ولم يكن له سبيل إلى جيش الثغور الذي تقوده نخبة من الموالي على رأسهم غالب الناصري، ولا إلى حرس الزهراء الصقالبة. فكان من الطبيعي أن يتجه ببصره إلى جيش الحضرة المرابط عند قرطبة ويكاد أن يكون منسياً على قربه من دار الخليفة، فلا هو في العير ولا في النفير. ومن الطبيعي أن يشعر قادته بالإحباط وأن يتطلعوا إلى أن يكون لهم سهم أوفر في أعمال العسكر. ولكن قبل أن يفعل شيئاً بهذا الشأن، رأى أن يمهّد له بأمر آخر عظيم الأهمية. فدعا

شيوخ الأسر العربية المعروفة إلى منزله الجديد الواسع الذي يليق بمنصب الوزارة. فأكرم وفادتهم ومدّ لهم بساطاً عظيماً عليه أنواع الطعام والشراب. ثم دار الحديث عن أحوال الدولة واستحواذ الموالي والصقالبة على خططها ومراتبها دون العرب، وهم أحق بها وأهلها. وكان حريصاً على أن يزن كلامه فلا يتوهم الحاضرون أنه يحرّض على الخليفة والخلافة، فأطنب في الثناء على وليّ الأمر وعدله ورحمته وحرصه على رعيّته. أما تغلب الموالي والصقالبة فهو تقليد موروث من زمن الداخل. وأقرّ بأن الداخل كان مضطراً إذ وجد أن العرب قد أفنى بعضهم بعضاً بدعوى العصبية الجاهلية، فقيسيّ ويمنيّ، وأن ولاء العربي لعصبة القبيلة كان مقدماً على الولاء للدولة، فإن أُعطوا منها رضوا، وإلّا خلعوا طاعة الأمير وخرجوا عليه. وما هكذا تُبنى الدول. فمن يلوم الداخل؟ ولكن أصل البلاء أن كسر شوكة القبائل وإخماد العصب، ما كان ينبغي أن يفضي إلى كسر شوكة العرب على الجملة وإخمادهم. أفلا يكون العرب إلّا قبائل وعصائب، حتى إذا ذهبت هذه ذهبوا معها؟ ولكن، هذا ما كان عليه العرب في ذلك الزمان. على أن الحال تغيّر منذ ذلك الوقت، وذهبت تلك العصب إذ اختلطت أنساب العرب وتفرقت عصبهم في الأمصار. وذكرهم بأن يمني الأب، قيسي الأم، وعلى ذلك جلّ العرب الآن. وبذلك انقضت الأسباب التي أملت على الداخل تأخير العرب وتقديم الموالي، لولا أنه صار تقليداً موروثاً، مع تمكن الموالي والصقالبة من خطط الخلافة وأسباب القوة فيها فلا يهون إسقاطهم. وقد آن الأوان ليسترد العرب منازلهم في أعمال الدولة وهم أجدر بأن يرعوا ذمم الناس من أولئك الصقالبة الذين عظمت قبائحهم حتى ضجت بهم الرعية. وهذا مع خليفة عادل رحيم، فكيف إذا تولى ولده صبياً وحاز هؤلاء عليه واستبدوا بأمره؟ ثم قال:

- إذا وقع ذلك، لا قدّر الله، فاقرأوا السلام على دولة بني أميّة.

ألا ترون إذن، إن ما أطلبه لكم وينبغي أن نسعى له سعيه، هو أولاً لسادتنا بني أمية والأندلس. ولكني واحد لا عصبة لي بين الصقالبة والموالي،

ولئن قربني الخليفة حين رأى عملي، فقد أحْفَظَهُم ذلك عليّ. ولسوف يدبّرون.. أفلا أجد معيناً من سادة قومي، فأستقوي بهم ويستقوون بي، فإذا تم الأمر كنت بابهم إلى دار السلطان ومراتب الدولة.

حين رأى حيرتهم أضاف:

- كان العربي عزيزاً بسيفه. وصاحب السيف هو صاحب السلطان. وبذلك ساد الموالي والصقالبة.

وقبل أن يخطئوا الفهم استدرك قائلاً:

- إنما أطلب سيوفكم للخليفة والخلافة لا عليهما، معاذ الله. والغاية جيش الحضرة الذي غفلت عنه العين. نقويه لنستقوي به. وأنتم سادة العرب، ولكم حكم في سوادهم، فادعوا هؤلاء لينضموا إليه ويكاثروا الآخرين فيه. وأنا من جانبي ألاطف قادته وأكسب ودهم، فأزيد في الأعطيات والنفقات، الآن وقد توليت الخزانة، ليزيدوا في العدد والعدّة. ثم أسعى ليشارك في جهاد الثغور، فيكون لهم نصيب من رضا الخليفة ومحبة العامة. فالذي يغالب العدوّ هناك فيغلبه، يفوز هنا ويغلب.. هذه هي القاعدة!

ران الصمت على الحضور وتبادلوا النظرات، بينما لبث محمد يرقب جوابهم. وأخيراً تطوّع كبيرهم بالكلام:

- قلت: تستقوي بنا لنستقوي بك، حتى إذا تمّ الأمر، كنت بابنا إلى دار السلطان ومراتب الدولة!

هز محمد رأسه مؤكداً:

- هو ذاك.. هو ذاك.

قال الرجل:

- اذكر يا أبا عامر.. نعم، كما قلت: كان العربي عزيزاً بسيفه.. و.. كان كذلك وفياً بعهده!

قال محمد مؤيّداً:

- صدقت.. صدقت يا سيدي.

حين خرج القوم إلى ركائبهم كان الخدم ينتظرونهم بالهدايا القيِّمة التي رتّبها لهم ابن أبي عامر.

أعقب ذلك بزيارة معسكر جيش الحضرة، واجتمع بقادته الذين سرّتهم الزيارة سروراً عظيماً، إذ لم يزرهم وزير مثله منذ زمن يذكرونه. وفي أثناء تجواله في المعسكر لحظ رثاثة وضع الجنود والمرافق مقارنةً بجيش الثغور وحرس الزهراء. ثم استمع إلى شكاوى القادة باهتمام بالغ، وأهمها ضعف النفقات والخمول، فقد ذهب جيش الثغور بالمجد كلّه في مناجزة العدو. وهنا أكّد لهم ابن أبي عامر أن هذا الحال لن يستمرّ بعد الآن وأنه الضمين على ذلك. فقد حدّث أمير المؤمنين في الأمر وأقنعه بزيادة النفقة مما يستطيع أن يدّخر من بعض مصارف الخزانة الأخرى ليردّه على جيش الحضرة فوق القطائع الراتبة، حتى يتمكن من زيادة عدده وتحسين عدته. فإذا تضاعف العدد صار في الوسع أن يخرج فريق منه إلى الثغور لمساندة جيوشها، ويبقى فريق في الحضرة، فيجمع الجيش بين الخيرين. وعلى أي حال فقد اجتمع الرأي مع أمير المؤمنين على أن الحاجة إلى جيش الحضرة قد تغدو ملحّة إذا اضطربت أحوال المغرب الأقصى. فلا يخفى أن العبيديين يدبّرون لاحتيازها بعد أن ملكوا مصر فضلاً عن القيروان والمغرب الأدنى والأوسط. وقد اتخذوا من مصر قاعدة خلافتهم، وخطتهم أن تدين لهم بلاد إفريقية في مصر حتى عدوة المغرب الأقصى. وهو ما لا يمكن أن يسمح به أمير المؤمنين، فالمغرب ما زال منذ الفتح ظهير الأندلس ومستودع مدده. ولذا بذل خلفاء الأندلس ما بذلوا حتى دان المغرب للأندلس،

ودخل صاحبها الإدريسي الحسن بن قنّون مرغماً في طاعة أمير المؤمنين في قرطبة. ولكن ابن قنّون وبقايا الأدارسة يترجّحون الآن بين الطاعة للخلافة الأموية المروانية في الأندلس، والطاعة لخلافة العبيديين في مصر والقيروان. وكانوا قبل ذلك ملوك المغرب كلّه حتى أزاحهم العبيديون من جهة الشرق، والأندلسيون من جهة الغرب. وإذا كان أميرهم ابن قنّون ما زال حتى الآن في طاعة أمير المؤمنين، فقد عرف عنه أنه رجل قُلَّب وداهية ولا عهد له. وهو يعلم أن قوته في تنازع الأقوياء على إمارته. فإن زاد خطر العبيديين على إمارته فلربما انحاز لهم ودخل في عهدهم لقاء أن يُقرّوه على إمارته. فإذا وقع شيء من ذلك في المغرب، لم يسع أمير المؤمنين في قرطبة أن يصرف إليها جيش الثغور، فيميل عليها الجلالقة وأهل قشتالة وليون ونبارة. فلا يبقى للمهمة إلّا جيش الحضرة. ولذا ينبغي أن يكون مستعدّاً منذ الآن بالعدد والعدّة والتدريب.

تهللت أسارير القادة إذ بلغ هذا الموضع من الشرح. ثم أردف:

- اعتبروني منذ الآن ظهيركم في دار الخلافة، وأخاكم الذي لا يخذلكم أبداً. فقد علم الله أن هواي، منذ شببت عن الطوق، هو الجيش والعسكر. ولئن كانت الأقدار قد حملتني إلى مراتب السياسة والدولة فإنه لم يفارقني هواي القديم في عمل الجند. وإن كان قد فاتني أن يكون أول أمري في الجيش فلا يفوتني أن أجعله آخر أمري ومنتهى همّي، حتى يكون عملي في دولة مولانا أمير المؤمنين مصروفاً للجيش.. الجيش أولاً.. والجيش أولاً.. والجيش أولاً يعني الأندلس أولاً. فطيبوا خاطراً أعزكم الله.

لم يخرج من ذلك اللقاء مع قادة جيش الحضرة، إلّا وقد صار أحبّ الوزراء إليهم. ولم ينسَ أن ينعم عليهم بهداياه.

* * *

على أن أعظم هداياه كانت لصبح. فقد عمل بنصيحة عائشة. وكان متردّداً مع هديته الأولى، وكانت عقداً من الجوهر الأنيق. وكالعادة لم يعجزه الكلام المناسب الذي قدّم به بين يدي السيدة التي بدت حائرة متعجبة أول الأمر، فقال:

- أعلم.. ما هديّة رجل مثلي لأم ولد لخليفة، وعندها ما يزري بكل الهدايا؟ ولكن، في هذه الهدية ما هو أعظم من ثمنها.. فيها شيء من نفسي. ليس على الخليفة أن يقضي شيئاً من الوقت يفكر بهديته، ولا يخرج إلى الأسواق لينتقيها بنفسه، ولا يجهد في النظر والمفاضلة. النفائس تأتي إليه ولا يتكلف الخروج إليها.. تدركين ما أعني؟

قالت وهي تضعه على عنقها وتنظر في المرآة:

- لن أعدل به شيئاً مما عندي.

ثم التفتت إليه وقالت:

- بقدر ما سرّني منصبك الجديد، خشيت أن يبطّئك عني.

قال:

- لا شيء يبطئني عنك.. والعزيمة عندي هي أن أكبح لهفتي ورغبتي في التعجّل إليك.. أخشى أن تشي بي سرعة خطواتي. وإذا افتقدتني يوماً فاعلمي أن الذي حال بيننا هو الموت!

اهتزت ملامحها وقالت بلهفة:

- لا قدّر الله. إذن ألحق بك.

تريّث لحظة ثم قال:

- فإن لم يكن الموت، فكيد الكائدين وتدبير الحاسدين عند مولانا أمير المؤمنين.

قالت بنبرة قويّة حازمة:

- لا يبلغون من أسماعه مثل ما أبلغ وإن اجتهدوا. ولا يغلب كيدهم مهما يعظم تمهيدي لأمرك عنده.

ابتسم وقال:

- الخزانة ودار السكّة. هل كان رأيك أم رأي الخليفة؟

أجابت:

- قد بلغتَ من نفس الخليفة، وعملك قدّمك عنده.

ثم أردفت مع ابتسامة غامضة ذات معنى:

- ولكن.. بعض الهمس اللطيف يعين على الحسم، ويعجّل الآجِل، ويزيد القطاف!

ثم توالت هداياه. وكان آخرها مجسّماً لقصر بديع الصنع من الفضة الخالصة. وقد فوجئ أهل قرطبة بعدد من الرجال يحملونه عبر الطرق على مشهد من الناس الذين أخذوا في الاحتشاد للنظر. وأخبر به الحاضر الغائب حتى صار حديث قرطبة.

وحين وُضِع أمام صبح أخذت تتلمّسه منبهرة بدقة الصنع وجماله. قال محمد:

- مكث فيه الفَعَلة والصُنّاع شهوراً. وقد صُنِع على عيني وعلى الصورة التي تصوّرتها.

قالت:

- لا أجد كلاماً يصف روعته. ولا أحسب أن عيناً قد وقعت على مثله قط.

قال:

- وهذا ما تهامس به أهل قرطبة.

سألت متعجبة:

- وقد شهده الناس.. عامة الناس؟ ألا تخشى أن..

- يتحدثوا بنا؟ بل على الضد من ذلك، إخفاء ما لا يختفي أدعى إلى الشك والريبة، وإذ كان مقام أمير المؤمنين فوق الهديّة، فقد علم الناس أن إهداء خاصّة أهله هي من باب إرضائه.

أخذت تتلمّس مجسّم القصر بأسلوب رقيق، ثم قالت وهي تنظر إلى محمد وقد تألق وجهها بابتسامة جميلة:

- لم تعد قيمة هداياك في معانيها فقط يا محمد.

حين بدا أن ربيع قرطبة سيكون طويلاً ذلك العام، وقعت الفاجعة.

مات الطفل عبدالرحمن بن الحكم في مهده دون نذرٍ سابقة!

بدا الحكم محطّماً حاني الظهر وهو يتلقى العزاء فيه.. ولم تكن صبح أقلّ تفجّعاً عليه، فهي لم تفقد فيه فلذة كبدها فقط، وإنما فقدت بفقدانه ما كانت تعرّف به: أم ولد الخليفة. فاختلطت في نفسها مشاعر الحسرة بالخوف وعدم اليقين، وغمرها شعور موجع بالتيه والخواء. لقد انهار عالمها الذي أدركت الآن أن ذلك الطفل الصغير الهشّ كان أساس بنيانه والمصباح الذي يتنوّر به.

وحين خلا إليها الحكم بعد انقضاء أيام العزاء، لم تدر كيف تواسيه وهي التي لا تملك أن تواسي نفسها.فاكتفى كلاهما بالصمت والإطراق، وكانت الدموع قد جفت في عينيها، حتى غلب الأسى على الحكم فبدأ بنحيب مكتوم، ما لبث أن تحوّل إلى نشيج طويل، فاستجابت له بنشيج مثله، ومالَ كل منهما على الآخر وأسند رأسه إليها، حتى بلّل كتفها بدموعه.

*　　*　　*

أدركها محمد في مكانٍ قصيّ من حدائق الزهراء، وكانت تنظر أمامها في الفراغ شاردةً واجمة. وكانت بدور ووصيفة أخرى تجلسان بعيداً عنها على وفق رغبتها. وحين اقترب منها محمد بهدوء وأحسّت

حضوره، لم تلتفت وبقيت تنظر في الأفق البعيد. مرّت لحظات صمت، قبل أن تنطق أخيراً بصوت ضعيف:

- ذهب كل شيء يا محمد.

أطرق، ثم تابعت:

- ولدته ووَلدني.. فلّما قضى الله بأمره، دُفِنتُ معه. هل عاقبنا الله يا محمد؟

رفع رأسه وتحدث من فوره معترضاً:

- كيف تقولين هذا ولم نقترف حراماً، معاذ الله!

ثم تحرك بسرعة حتى وقف أمامها مواجهاً وتابع بنبرة قوية:

- قضى الله وما شاء فعل. ولا نقول إلّا ما يُرضي ربّنا.. إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلّا بالله. وإن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، وإنا على فراقه لمحزونون.. ولكن هذا هو الحدّ، وما بعده شطط وإثم. نُسَلّم بما انقضى، ولا نُقيل أنفسنا مما هو آت، ما دمنا أحياء. قضى الله بموته ولم يقضِ حتى الآن بموتنا.. لا نعاند قضاء الموت، ولكننا بالقدر نفسه لا نعاند قضاء الحياة، وكلاهما قضاء. ولا يردّ الموتى أن نموت معهم.. هل تسمعين؟ هل تسمعين؟ الأم التي ولدته ستلد أخاه إن شاء الله. من أجل الخلافة والخليفة، ومن أجلكِ أنت.

قالت بلهجة بين التقرير والاستفهام:

- ومن أجلك أيضاً يا محمد:

تريّث لحظة ثم أجاب:

- فليكن، من أجلنا جميعاً. وكلها غاية واحدة في نهاية المطاف.. هكذا أرى الأمور. ومناط ذلك كله ولدك.. بدونه سوف يتنازع إخوة

الخليفة أيهم أحق بها. وسوف ينقسم الناس بينهم فيختل أمر الأندلس وتذهب شوكة الخلافة وهيبتها.. أما أنت وأنا فلا مكان لنا في ذلك المصير. فهل هذا ما نطلب؟ وأي بأس في أن تتفق غاية أحدنا مع غاية الأمّة؟ وهل الفلاح إلّا اتفاق الغايات؟

* * *

كان منشغلاً عمّا حوله بأفكاره وهو يمشي متجهاً إلى دار الخزانة بالزهراء حين سمع الصوت البغيض يناديه:

- أبا عامر!

كان محمد المصحفي وابن عمه هشام يقفان على بُعد ينظران إليه بتشفٍ واستهزاء. وإذ توقف والتفت إليهما تقدّما منه. وابتدره محمد المصحفي بالكلام بلهجة مشوبة بالتهكم:

- لم نواسك في ولد مولانا، أتخيل أنك أشدّ شعوراً بالفقد من الجميع.. باستثناء الخليفة طبعاً، و.. ربما أم الولد.. أعني، باعتبار الصلّة والوكالة التي.. كانت.

مدّ فيألف الكلمة (كانت) ليبرز معنى انعدام الحال الذي كان يستقوي به بموت ابن الخليفة. ثم أردف:

- ومع ذلك لا تستطيع أن تشكو.. معك الخزانة ودار السكّة. وهاتان تكفيان أليس كذلك؟

تدخل هشام الذي كان أدهى من ابن عمّه وأكثر ذكاءً، فقال:

- ولكن ماذا يحدث للفروع إذا مات أصل الشجرة؟

أعقب محمد المصحفي:

- الأصل نعم.. وكل يرتد أخيراً إلى أصله.

تساءل هشام ممعناً بالتشفي:

- ومن ليس له أصل؟

أجاب محمد المصحفي:

- يرجع إليّ حيث كان.

علق هشام من جديد:

- أو إلى حيث لم يكن.. شيئاً مذكوراً!!

حافظ محمد على هدوئه التام على الرغم من النار التي كانت تشتعل في داخله. إذ لم يكن يتوقع أن تبلغ الخساسة بهما أن يجعلا من مصيبة الموت سبباً للتشفي والتهكم. ولكنه قال أخيراً بنبرة مبطنة عميقة:

- لله ما أعطى، ولله ما أخذ.. وله ما سوف يعطي!

وأشار هنا إلى قصور الزهراء وإلى نفسه. ثم أردف:

- وله ما سوف يأخذ.

وهنا أشار إليهما. ثم انطلق مبتعداً.. ولكن هشاماً المصحفي لاحقه بالقول:

- ما زلت لا تحسن وضع عمامتك!

تابع مشيه دون أن يلتفت وهو يسمع صوت ضحكهما.

* * *

لله ما أخذ.. ولله ما أعطى وما سوف يعطي..

وقد أعطى..

فبعد نحو سنة على موت عبدالرحمن، انطلق نفير الأبواق بنغمة البشرى والفرح إعلاناً بميلاد هشام بن الحكم المؤيّد بالله، كما لقّبه أبوه الخليفة. شعرت صبح أنها وُلدت معه من جديد. وهذه المرّة أبت أن تسلمه للمرضعات كما فعلت مع عبدالرحمن، وحرصت على أن يكون نصيبها من حمله بيديها وضمّه إلى صدرها أكثر من نصيب سابقه. وخالط فرحها به شيء من القلق فكانت تسرف في تفقده وتفحّصه في مهده. أما الحكم فقال وهو يقلّب بصره بين الطفل وصبح:

- قد علم الله أني اجتهدت في الدعاء اجتهاد المضطر..

ثم تلا قوله تعالى:

- ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:62].

قالت:

- وكنت أدعوك دعائك.. دعاء المضطر. وقد أجاب الله كما وعد.

نظر إليها بعين العاشق المحب وقال:

- هل للحب حدّ يقف عنده يا صبح؟! فهو لا يحييني إلّا بقدر ما يرهقني.

اكتفت بابتسامة شاحبة ثم تحولت بنظرها الشارد إلى السقف.

* * *

بخلاف ما توقع الشامتون الحاسدون، لم يصرف الخليفة محمد بن أبي عامر عن خدمة السيدة وضياع عبدالرحمن بعد وفاته. فالضياع باقية على كل حال. وإذ كانا يتمشيان معاً في جانب من حدائق الزهراء بعد ولادة هشام المؤيّد قال الحكم:

- كنت أشقى خلق الله وأنا الخليفة وبيدي الدنيا. لا شيء يعدل الولد يا محمد.

قال محمد:

- صدقت يا مولاي. ولا والله ما كنت لأسْعَدَ بولد أُرْزقَه، سعادتي بولد أمير المؤمنين. ومنذ قضى الله بالأول، لم تقرّ لي عين ولا ارتحت في مضجع حتى عوضكم الله بأخيه. وما زلت أقيم الليل صلاةً ودعاءً من أجل هذه الغاية.

قال الحكم:

- وأنت أيضاً؟

- وكيف لا أفعل يا مولاي، وهو رضاك وقرة عينك. فإذا قرّت عينُك بردت نفوس خدمك، فإنّ رضاهم من رضاك.. وهو بعد أمر يتعلق بمصائر الخلافة والأندلس.

توقف الحكم وذهب ببصره إلى البعيد متأمّلاً فيما أثارته عبارة ابن أبي عامر الأخيرة عن مصير الخلافة والأندلس. ثم تابع السير وسأل:

- أَلَكَ ولد يا محمد؟

أجاب:

- لم يقض الله بعد.

- كم مضى على زواجك؟

- زهاء ثلاثة أعوام.

ثم سأل الحكم:

- واحدة فقط أم غير ذلك؟

ارتبك محمد قليلاً حائراً في السؤال، فقال الحكم:

- أعني زوجة واحدة أم..

- نعم، واحدة يا مولاي.

صمت الحكم لحظة ثم عاد يسأل:

- وما منعك من غيرها إذ تأخَّرتْ في الإنجاب؟ وأنت بعد شاب في ميعة الصبا.

ثم التفت إليه مبتسماً وأردف:

- أهو الحبّ؟

وقبل أن يجيب محمد، استرسل الحكم:

- وما شأن الحب بحاجة الإنجاب والزواج مثنى وثلاث ورباع، فإن لم يكن فالتسرّي. فقد ينصرف الحب كله لواحدة دون غيرها، فهو مما ليس في يد الرجل حتى يحاسب عليه، إنما العدل فيما عدا ذلك من الأمور. فإن جاءك الولد ممن تحب، فقد جُمِعَ لك الخير كلّه..

ثم التفت إليه مبتسماً وأكمل بلهجة مشوبة بالمرح:

- وهذا حال مولاك!

خفق قلب محمد مع ذلك التلميح إلى صبح. وقال وهو مطرق:

- أدام الله عليك الخير كلّه يا مولاي..

تابع الحكم المشي قليلاً، قبل أن يتوقف من جديد ويفاجئ محمد بكلام زاده ارتباكاً:

- ترقّب عاماً آخر.. فإن لم تنجب لك فتزوّج غيرها. وإن كان قلبك منصرفاً للأولى حقاً وهي تحبك بقدر ما تحبها، فلسوف يكفيها ذلك منك، ويكفي الأخرى أن الله اختصّها بالإنجاب لك. هل تعي قولي؟

هز محمد رأسه بأدب وإذعان، بينما أردف الحكم:

- هذا أمر مولاك.

قال محمد:

- السمع والطاعة يا مولاي.

وأخيراً قال الحكم:

- ستكون من ولدي هشام كما كنت من أخيه. ثم إذا أدرك كنت، فوق ذلك، مؤدّبه والناظر عليه.

ضج صدر محمد بالسعادة وانحنى للخليفة:

- تلك غاية المنى ومبلغ الشرف لي يا مولاي.

* * *

بقي منشغلاً بأمر الخليفة له أن يتزوّج أخرى إذا انقضى عام آخر دون أن تنجب له عائشة! فقد كان يحنو عليها أشد الحنوّ، ويقدّرها أعظم تقدير.

فلم ير امرأة أشدّ حباً وإخلاصاً لزوجها منها له، حتى إنه كان يتمنى أحياناً لو كانت أقل حباً له وأقل كمالاً كي يتخفف من شعور التأثم الذي يعاوده بين الفينة والأخرى. على أنه كان يحمل لها الكثير من مشاعر المودة والرحمة. أليست هذه مدار الزوجية ورباطها كما أراد الله؟ أما الوَلَه الذي يشغل العقل ويبيت الإنسان منه على ما يشبه الجمر، فأمر آخر. بل هو ضدّ السكن والسكينة اللذين جعلهما الله من عِلّة الزواج ومراميه.

قالت صبح وهي تنظر في صندوق الحليّ الذي جاءها به محمد بمناسبة المولود الجديد:

- لم يعد هذا جهد المُقِل كما تقول يا محمد.

أجاب:

- الكثير للسيدة قليل.

حدقت فيه متأملة وقالت:

- هل تعلم يا محمد! لم تنادني باسمي قط.. إن لم تقل «السيّدة» استغنيت بالضمائر!

قال:

- أجد في نفسي حرجاً.

- لِمَ؟ ومكانك من نفسي ما تعلم.

- هيبة المكان!

قالت وهي تشير إلى موضع قلبها:

- ولكن المكان هنا.. أليس هذا قولك؟

هز رأسه وقال:

- ومع ذلك..

قالت:

- ليس الذي يجمعنا تعارف الأرواح فقط يا محمد.. وإنما كذلك الماضي الذي جئنا منه، والمستقبل الذي نسعى إليه معاً.

رمقها مستطلعاً، فأضافت:

- أنا وإن كنت الآن سيدة القصر، فقد أتيته من المجهول.. جارية مغنيّة.. وها أنذا هنا .. وأنت، جئت من أوساط الناس، ليس معك إلّا همتك وعقلك.. وها أنت هنا.. ها نحن هنا.. معاً.. كلانا غريب، والغريب للغريب نسيب، ومعاً سنبلغ غايةً نستطيعها.. أما الغاية التي لا نستطيعها فمكانها حيث وصفت.

وأشارت إلى صدرها من جديد.

قال:

- لا أزيد على ما تقولين.

قالت تحثّه:

- يا صبح!

تردد لحظة قصيرة، وقال بصوت خفيض:

- يا صبح!

ثم تلفت في المكان بحركة عفوية كأنه يخشى الشهود، فأفلتت ضحكة مكتومة وقالت:

- تتلفت كأنك اقترفت جرماً. هل يهوّن عليك أن أذكرك من جديد أنني جارية.. أم ولد، على الرغم من كل شيء؟ والذي عليه الناس أنهم يتسمّحون في خطاب المملوكة وإن كانت مالكه، ما لا يرضونه للزوجة الحرّة، وإن كانت مهجورة متروكة. وهذا حالي وحال زوج الخليفة.. لا يزورها إلّا تذمّماً وديناً.. وليس لها عنده حظوة ولا رأي. ومع ذلك هل يستطيع رجل أن يراها؟ وأنا التي تحظى بقلبه وعقله، ولها الكلمة النافذة المسموعة.. السلطانة على الحقيقة، لا بأس في أن أبرز للرجال فأخاطِب وأخاطَب. والمعنى أنني جارية لا تحتجب احتجاب الحرّة. وهل تدري ماذا؟ لا بأس في ذلك عندي.. بل لا أرضى أن أبدل مكاني بمكان زوج

الخليفة. مكانتها قيدها، وأنا في سعة. مملوكة، ولذلك أملك. ولولا ذاك لما كنت الآن عندي، أخاطبك بهذا الكلام.. وكفى به مغنماً.

تفحّصته من جديد بعين المحب، وأكملت مبتسمة:

- إذن، صبح.

هذه المرة، لم يتردد وقال بصوت ثابت:

- صبح!

ما كانت هداياه الباذخة التي وسعت الكثير من القادة والوزراء وأهل القصر، حتى وصيفاته، لتمر دون أن يتوقف عندها المبغضون، وفي مقدمتهم فتيان القصر الصقالبة الذين وغرت صدورهم عليه منذ قربّه الخليفة ومحظيته أم ولده حتى ارتفع إلى مرتبة الوزارة بتلك السرعة، وهو الذي كان إلى عهد قريب يدبج لهم الرقع على رصيف الزهراء.

لم يكن عندهم شك في مواهبه وكفاياته، ولكن هذا ما كان يزيدهم تخوّفاً منه، إذ لم يكونوا بأقلّ منه نظراً وتفكيراً في احتمالات المستقبل، مع خليفة مكتهل وولي عهد طفل، وأم في ميعة الصبا يروح عليها ذلك الفتى الوسيم ويغدو في عمله لها ولولدها. فأي مصير ينتظرهم إذا خلف هشام أباه صبيّاً، فتُدَبّر له أمه ومعها أبو عامر الذي يدور الهمس الحذر حول افتتانها به حتى مع التعفف. والآن، ها هو يمهّد لنفسه عند أهل السلطان وحاشيتهم بكل تلك الهدايا النفيسة والأعطيات الكبيرة. فمن أين له بكل تلك الأموال؟ وهو بعد صاحب الخزانة والناظر على دار السكّة والقائم على أموال ولد الخليفة وضياعه!

كان يرقب العمل في دار السكّة حين جاءه رسول الخليفة بأمر المثول بين يديه في المكتبة الأموية من ساعته. ولما دخل عليه وجد عنده كبير الفتيان فائق. وكان الحكم ينظر في مجموعة من المجلدات الأنيقة أمامه. رفع رأسه بأسلوبه الهادئ المألوف وطرق على المجلدات، وقال مفتخراً:

- الأغاني.. نسخة منقّحة اختصنا بها أبو الفرج الأصفهاني قبل أن يخرج أمثالها لغيرنا.. أرسلنا إليه في بغداد من حملها لنا.

قال محمد:

- أنتم أجدر الناس بها يا مولاي. وكرامة العلم حيث ينزل من طالبيه.

مرت لحظات صمت، ولبث محمد واقفاً مترقباً، حتى استرخى الحكم بظهره إلى الخلف، وأرسل نظرة مستطلعة إلى محمد وقال:

- كيف تصنع يا محمد؟

أجاب:

- ما أرجو أن تقرّ به عين مولاي.

هز الحكم رأسه هزة خفيفة، ثم كانت المفاجأة إذ قال:

- ألا تحب أن تطلعني على دفاتر الخزانة؟

شعر محمد بضجيج في رأسه، ولكنه تمالك نفسه أن يظهر عليه أي اضطراب مريب، وسأل:

- متى يأمر مولاي؟

أجاب الحكم وهو يتفحّصه ليقرأ تعبير وجهه:

- غداً.. لا بأس بالغد!

انحنى للخليفة وارتد للخروج، فالتقط بصره الفتى فائق يصوّب النظر إليه مع طيف ابتسامة ماكرة تنبئ بالمكيدة المدبرة بليل.

* * *

كان الخليفة أكثر الناس رجاءً ألا يخيب ظنّه في أبي عامر وأن يقوم الدليل غداً على براءته من الخيانة في مال الخزانة.

ولكن كيف عرف كبار الفتيان الصقالبة بالنقص الحاصل فعلاً؟ أم أنهم بَنَوْا على الظن لما رأوا من شدة إنفاقه فتوصّلوا بشكوكهم إلى الخليفة؟ فإن صدق سوء ظنهم به فذلك ما يبغون، وإن كان خلاف ذلك فعذرهم أن ما دعاهم إلى ذلك مبلغ حرصهم على دولة مولاهم أمير المؤمنين، ولا ضرر على كل حال في التثبت ودفع الشك باليقين. وفي ذلك خير للجميع.

هكذا تساءل محمد في نفسه وهو يقلّب الرأي في تلك الورطة التي لم يحسب لها حساباً، ويمكن أن تقضي الآن على أحلامه ثم تورده المهالك، إذ لم يكن يتوقع ذلك الطلب المفاجئ من الخليفة في هذا الوقت من العام. وكان قد رتّب أمره على جبر الكسر في الموعد، بل الزيادة. فقد وجد أن أصحاب الضياع الكبيرة والتجارة العظيمة يحتالون بطرق شتى فلا يؤدون من الأعشار والمكوس المقرّرة إلّا أقلّها، فألزمهم إياها كاملة. وإلى جانب ذلك ابتدع طرائق مختلفة لإنماء أملاك الدولة ومرافقها التي تعود بالمال مع تدبير موارد جديدة. ولكن ثمرة ذلك كله لا تتحصل إلّا باكتمال العام، حتى فاجأه الخليفة قبل اعتدال الخطة.

وهو على كل حال لم يأخذ لنفسه شيئاً، إنما أنفق ما أنفق في الوزراء والقادة يتألفهم به، وعلى أهل الخليفة وحرم قصره يستميلهن به. وكل ذلك من أجل المصلحة العامة في آخر المطاف!

ولكن هذه المسوغات ما كانت لتقنع ابن عمه عمرو الذي جعله معاوناً له مع صاحبه عليّ. وكان عمرو قد حذره من ذلك سابقاً حتى أضجره، ومما قاله له:

– وما مصالح عامة المسلمين في مال تأخذ فضوله من أغنيائهم الذين لا سلطان لهم، لتردّه على أصحاب السلطان. وما يصيب سواد الناس من ذلك؟

أجابه محمد:

- إنك لتعلم جواب سؤالك.

قال عمرو مفنّداً بنبرة مشوبة بالتهكم:

- نعم، تتوسّل بالعطايا لأصحاب السلطان، لتضمن ولاءهم حين تحتاجه، حتى تتمكن وتصير إليك مقاليد الأمور، فإذا تم ذلك، استعملت سلطانك في كشف المظالم والانتصاف للضعفة وإصلاح أحوال البلاد والعباد وقمع الصقالبة وإسقاط الموالي الذين استأثروا بالسلطان والمراتب والمال دون من هم أحق بها منهم. وبذلك فإن ما تبذله الآن لهم، إنما تبذله عليهم في باطن الأمر ومآلاته، ثم يكون للعامة في آخر المطاف!

على الرغم من نبرة التهكم في كلام عمرو قال محمد:

- ما كنت لأصف الأمور بأحسن من هذا. نعم والله هو كما قلت.

ولكن ماذا عن الآن؟ هل يقول ذلك لأمير المؤمنين غداً؟!

في اليوم التالي دخل محمد على الخليفة في الموعد المضروب بُعيَد العصر، ومعه الدفاتر. وكان عند الخليفة الحاجب المصحفي وكبيرا الفتيان فائق وجؤذر اللذان تعجّبا من دخول محمد بخطى سريعة واثقة. وبعد أن انحنى للخليفة استأذنه في عرض الدفاتر عليه، فوضعت أمامه. ثم أخذ محمد يراجعها مع الحكم باباً باباً حتى وصل أخيراً إلى مصارف التعليم في جامع قرطبة، فشرح قائلاً:

- رُتّبت بنظر أخيكم سيدي المنذر، الناظر على الجامع. والطلّاب المدوّنون هذا العام يُعَدّون خمسة آلاف، ننفق على ثلاثة آلاف منهم. وقد اقتضت زيادتهم زيادة نفقات الشيوخ المعلمين، فضلاً عن نفقة الإنارة والخدمة اللازمة، وقد رتبنا مع سيدي الأمير المنذر إحراق الشمع زيادة على الزيت: مائتان وثمانون ثريا.. كؤوس الإنارة سبعة آلاف وأربع مائة وخمس وعشرون. وكما يرى مولانا هنا: زنة مشاكي الرصاص لكؤوس الإنارة عشرة أرباع، وزنة ما تحتاج إليه من فتائل الكتّان لكل شهر نصف قنطار،

ويبلغ ذلك في رمضان ثلاثة أرباع القنطار. وزيت المصابيح خمس مائة وربع. هذا جملة ما أوقفنا للجامع هذا العام برأي الأمير المنذر. أما ما بقي من مصارف التعليم فيذهب إلى المكاتب التي أمرتم بزيادتها في الأحياء والأرباض لتعليم الفقراء وأبناء الضّعَفة. وقد بلغت سبعة وعشرين مكتباً. وهؤلاء تحتمل الخزانة رواتب معلميهم فضلاً عن نفقة التلاميذ بما يضمن انصرافهم للعلم والدراسة، ثم ما تحتاج إليه مكاتب الدراسة من الخدمة.

حين فرغ محمد تراجع بضع خطوات، ثم أرسل الخليفة إلى المصحفي نظرة استطلاع، فقال:

- أما نفقات الخطط الكبرى فتمت كالعادة تحت نظري وبأمري يا مولاي. وعندي منها دفاتر مدوّنة أيضاً توافق ما ذُكر. وأما المرافق الأخرى فقد أرسلت عمّالي للنظر فيها، ثم إلى دار الخزانة لحسبة ما فيها، فوجدته مطابقاً لما في هذه الدفاتر.

رجع الحكم بجسمه إلى الخلف وأطلق نفساً عميقاً، وتهلّل وجهه بالسعادة والرضا. ثم تحوّل وجهه إلى الانقباض وهو يومئ لفائق وجؤذر بالخروج. وبقي معه محمد والحاجب.

* * *

خرج فائق وجؤذر حائرين يتميّزان غيظاً ويتلاومان على تدبيرهما الخائب. كيف حدث هذا؟ كان فائق متأكداً من النقص في الخزانة حسب ما توصل إلى علمه بطرقه الخبيثة. وها هي الدفاتر ومعها شهادة الحاجب تكذّب الخبر، بل تظهر الزيادة في مال الخزانة على الرغم من زيادة النفقات النافعة في عمران الدولة. ولكن غيظهما سيتضاعف بعد قليل حين يخرج مرسوم الخليفة بإضافة خطة المواريث وخطة السوق والاحتساب، وقيادة الشرطة الوسطى إلى مناصب أبي عامر الأخرى. وهو ما لم يجتمع لوزير قبله.

وبينما كان الفتيان يقلبون أكفهم على إخفاقهم الشنيع ويتبادلون الرأي في الطرق التي احتال بها أبو عامر للنجاة من نكبة بدت محتومة، فاجأهم صوته داخلاً عليهم:

- السلام على فتيان مولانا الأكابر.

صرفتهم المفاجأة عن الردّ وقد تسمّرت أنظارهم إلى حيث يقف لدى الباب، فقال مداعباً:

- وإذا حيّيتم بتحيّة.. !!

أسرعوا برد السلام ووقفوا له ودعاه فائق ليجلس مكانه فأبى وتعمد اختيار مقعد متطرف. اعترض فائق:

- هذا لا يكون وأنت في مكانتك.

جلس محمد حيث اختار لنفسه وقال:

- إنما أنا ابن امرأة من الجزيرة الخضراء، كنت آكل من غزلها.

مرت لحظات صمت قصيرة، ثم تنبه محمد إلى أن الجميع ينظرون إليه نظرات استطلاع في انتظار أن يفصح عن سبب الزيارة، فقال:

- آه، لا. لم آت في حاجة أو مسألة. كل ما في الأمر أني وجدت نفسي قريباً، فقلت: أزور إخواني أكابر الفتيان الذين جعلهم مولانا أمير المؤمنين محل ثقته، ومن أحبَّ مولانا كان حقاً علينا أن نحبه ونقدّمه. وأنا لا أنسى أني كنت إلى عهد قريب أكتب لكم الرقاع عند رصيف الزهراء. وكان ذلك أول سعدي وصلتي بدار الخلافة.

تبادلوا نظرات حائرة، بينما استأنف:

- ثم من ينسى فضل الصقالبة ومآثرهم وأيديهم في دولة أمرائنا وخلفائنا، منذ الداخل العظيم، رحمه الله؟ وإن نسي الناس فلا ينسون

مأثرة الصقالبة في دحر المجوس الأردمانيين زمن عبدالرحمن بن الحكم حين جاؤوا من البحر المحيط.. وحوش كاسرة لم يهذبهم شيء من التحضّر، ولا يحسنون غير الغارة المباغتة على الشواطئ والقتل والذبح والحرق والسلب والسبي. وكان الذي قاد جيش الأندلس في ذلك الحين الفتى نصر الصقلبي، فأبلى أحسن البلاء، فأحرق سفنهم وأثخن فيهم، وما عرفوا الهزيمة قبل ذلك. فلما رأوا قوة الأندلس أوفدوا سفارة إلى الأمير عبدالرحمن يخطبون ودّه، ويطلبون في المقابل سفيراً منا يفد على ملكهم في بلاد الدنمركة.. هل تعلمون من كان سفيرنا إليهم؟

لم يحيروا جواباً، فتابع شارحاً:

- الشاعر الغزال. وكان شديد الوسامة. فلما وصل الدنمركة وأراد أن يدخل على ملكهم وزوجه الملكة، وكان اسمها تود أو تودورا بلسانهم، قالوا له: رسوم الملك عندنا تقضي أن تنحني للملكين إجلالاً وتعظيماً لقدرهما. فقال لا أفعل، إذ لا ينبغي أن أنحني لغير الله. وجادلوه فأبى وأقام على رأيه. وهو هناك برأسه ليس له نصير، ولو شاؤوا لقتلوه. ولكن هيبة الخلافة من ورائه. فلما أعياهم لم يجدوا إلا أن يحتالوا على الأمر. وكان الملكان ينزلان في بيت من الخوص والقش. فعمدوا إلى الباب فأدنوه، حتى إذا دخل الغزال لم يكن في وسعه إلا أن يدخل منحنياً لقصر الباب، فيعدوا ذلك انحناء للملكين. فلما وقف الغزال عند الباب ورأى ما صنعوه فطن إلى الحيلة. فما كان منه إلا أن نزل على مقعدته وزحف إلى الداخل وساقاه إلى الأمام.

ضحك محمد وابتسم الحضور، واستأنف:

- ثم أقام عندهم زمناً. ووقعت الملكة في غرامه. وله فيها غزل معروف. هل سمعتم بهذا الخبر من قبل؟

قال فائق:

- لا، ولكنها قصة طريفة. قد أمتعتنا والله يا أبا عامر.

ثم تلفت فائق في الحضور وقد انبسطت وجوههم إلا جؤذر، فقال فائق:

- أين الأدب مع الفتى الوزير أبي عامر؟ أين الشراب؟

همّ بعضهم بالتحرك، ولكن أبا عامر نهض من فوره مستأذناً وقال:

- لا.. بورك بكم. هذه زيارة عاجلة تعقبها زيارات إن شاء الله، فيكون بيننا شراب وطعام وأنس، أستودعكم الله.

شيّعوه بنظرات حائرة وهو يخرج، فبعد الذي وقع في أمر الخزانة لم يتوقعوا منه إلا العداوة والبغضاء والكيد. وها هو قد جاءهم بالمودّة والتقرّب. ولما رأى جؤذر انبساط وجوههم صاح فيهم:

- سحركم كما سحر غيركم! والله ما أتانا إلا وهو يعلم أننا من سعى به عند الخليفة. وما أراد إلا النكاية أو المداورة.. ولكني لم أفرغ منه!

*　　*　　*

لم يكن الرجل الذي جبر النقص في مال الخزانة غير الوزير ابن حدير نفسه. وما فعل حتى أسمع محمدا موعظة طويلة، ولامه لوماً شديداً. والحقيقة أنه لم يفعل ذلك حباً وكرامة حسب، ولكنه أدرك أن ثبوت التهمة سيعرّضه للسؤال والحرج، إذ كان أول من زكّى أبا عامر عند قاضي الجامعة، ثم أيّد تزكيته عند الحاجب المصحفي للعمل في الزهراء. وحين علا قدره وارتفعت مرتبته عند الخليفة، كان حريصاً أن يتفاخر أمام الخليفة بأنه كان صنيعته وأول من قدّمه وعرف مواهبه. وإلى جانب ذلك، فإن ابن حدير، بعد أن رأى صعود أبي عامر السريع في مراتب الدولة وتقريب الخليفة وأم ولده له، أدرك ببصيرته النافذة التي

صقلتها التجارب الطويلة، أنه سوف يرتقي إلى أعلى المراتب وقد يصير صاحب الحلّ والعقد، إن لم يكن في عهد الخليفة القائم، ففي عهد ولده الصبيّ الذي تولّى أبو عامر تدبير شؤونه، وجعله الخليفة مؤدبه. ولا بدّ أن يعود ذلك كلّه بالخير على ابن حدير لقاء صنائعه للفتى، فيكون ظهيره في الحاجات والملمّات، إذ إن أهل الجاه والسلطان أكثر الناس تخوّفاً من تقلّب الحظوظ في عالمهم المشحون بالصراعات والمنافسات والمكائد والأطماع. ومن كان عنده الكثير خشي عليه بقدره.

ولقد كان محمد يدرك هذه الاعتبارات عند ابن حدير حين لجأ إليه دون تردد أو مواربة، وكأنه كان يعقد معه صفقة مُضْمَرة!

نعم، لن ينكر فضل الرجل عليه إذ أنقذه من نكبة محققة. وإذا بلغ يوماً أن يقوّض سلطان الموالي فلسوف يستثنيه من بينهم فيكون قد ردّ له جميله. ولكن، من أين له كل ذلك المال الذي جبر به نقص الخزانة وبقي مع ذلك في ثرائه الفاحش؟ بل حدّث نفسه بأن مكان ماله، أو جلّه على الأقل، هو الخزانة! ولولا مقام الحال وحكم الضرورة لاعتبر المال الذي أغاثه به حقاً مسترداً للخزانة. فإن قيل إنه ورث ماله وضياعه عن آبائه، ثم زادت عنده بالتجارة، فمن أين صار لآبائه كل ذلك المال وتلك الضياع إلّا أنها عطايا ملوك بني أمية لمواليهم من مال المسلمين وأراضيهم. وإن قيل إنها كانت لقاء تفانيهم في خدمتهم، فلماذا اختصّوهم بخدمتهم دون الآخرين!

هكذا حدّث نفسه ليزيح عن صدره أي شعور بالحرج والتأثم. ولكن ذلك لم يمنعه من تقبيل رأس ابن حدير ويده!

مكتبة
t.me/t_pdf

بعد بضعة أيام من تولّيه خطة الاحتساب إلى جانب مناصبه الأخرى، فوجئ الناس بشرطة الاحتساب يشنون حملة واسعة من المداهمات للحانات والدكاكين التي تبيع الخمور بالخفاء خلف واجهة من البضائع الأخرى، فيخرجون دنان الخمر ويهرقونها في الطرقات على مشهد من الناس ويتقبضون على أصحابها. وقد أشرف محمد بن أبي عامر على ذلك بنفسه، فكان يتنقل مع الشرطة من مكان إلى آخر. وكان أمراً غير مسبوق في قرطبة. وبالطبع كان الفقهاء والوعاظ أكثر الناس احتفاءً بهذا العمل الذي طالما دعوا إليه، وشدّدوا النكير على تركه والتهاون فيه فيعمّ الله الناس بعذاب من عنده. وكان جلّ العامة معهم في ذلك، بل إن شطراً كبيراً من شاربي الخمر أنفسهم لم يكونوا يعاندون في الأمر! ولذلك كله كان من الطبيعي أن يعلو ذكر الوزير أبي عامر بين الفقهاء والعامة، وقد فعل ما لم يقدر على فعله رجل من أهل السلطان قبله. فقد كانت صناعة الخمور وبيعها تجارة كبيرة في الخفاء، وكان وراءها رجال عظيمو الثراء والنفوذ.

ثم أفرغ أبو عمر جهده في ضبط الأسواق ومداهمة التجار الذي يتلاعبون بالأسعار والأوزان ويغشّون في البضائع. استعان على ذلك بالصبيان والصبايا الذين يطمع التجار عادة في غشّهم، فكان يرسل أحدهم إلى الدكان لشراء بعض الحاجات، فإذا عاد إليه وزنها وسأل عن السعر، وفحص جودتها حسب نوع البضاعة. فإذا تبيّن له الغش أمر شرطته فدهموا الدكان وقلّبوا بضاعته، ثم أنزل به العقوبة على قدر الجرم

بين الغرامة والحبس والتجريس، فيوضع على حمار بالمقلوب ويطاف به في الأسواق والطرقات مع قرع الجرس، بينما يتراكض الصبيان حوله يصيحون: غشاش، غشاش. فلم يمض وقت طويل حتى ارتدع الجميع وانقطعت سبل الغش. ثم شدّد الرقابة لمنع الاحتكار والتحكم بالأسعار، ومن ذلك تخزين البضاعة وحبسها عن الناس حتى يعلو سعرها.

وإذا كانت هذه الأعمال قد أوغرت عليه بعض الصدور، فقد حشدت له محبة العامة وإعجابها حتى صار اسمه على كل لسان مقترناً بالصفة التي ستلازمه منذ الآن، فتى الأندلس. وحين ظهر للناس في السوق وفي صحبته عمرو وعليّ اللذان جعلهما معاونين له، أحاط به الناس، يهتفون له ويلاحقونه بالثناء والدعاء. ونهى شرطته عن دفع الناس ومنعهم من الوصول إليه والسلام عليه، فكان كمن يلقى أهله وصحبه. ولما سمع أحدهم يقول:

«إنك والله أحب إلينا من كل الوزراء وأصحاب الخطط، بل أنت خير من الحاجب نفسه»، اغتنم الفرصة لمخاطبة الجميع، فقال:

– لا تقل هذا يا أخي. كلٌّ يبذل جهده على قدر الوسع. أعان الله سيدنا الحاجب، فهو في مشغلة من تصريف أمور الدولة وخدمة مولانا أمير المؤمنين. ولقد تبلغه أشياء من أمور السوق وأحوال السّواد، فيبذل فيها وسعه، وتغيب أشياء. ولولا أني جئت منكم واختبرت أحوالكم وعملت في هذه الأسواق كما تعملون، وطاعمت أهلها، لفاتني مثل الذي يفوت غيري. وإني أشهدكم أن ديواني مفتوح لمن كانت له مظلمة أو شكوى، لا يحجب عنه أحد. ألا أدلكم على من هو أظلم ممن ولاه الله أمراً ثم عدا وظلم؛ رجلٌ مظلوم لم يرفع ظلامته ولم يدفع أذاها ما وسعه ذلك. فالساكت عن الحق شيطان أخرس. وضياع الحقوق من عمل الظالم وتفريط المظلوم. فإن الحقوق تُطلب ولا تُمنح عطيةً ولا تفضلا. وقد بلّغت. اللهمّ فاشهد.

ضج المكان بأصوات الاستحسان والثناء. فها هو أخيراً رجل منهم يتولّى على بعض شؤونهم، فهو أجدر بأن يتفهم أحوالهم فيكون حريصاً عليهم مشفقاً بهم. وتبادل عمرو وعلي نظرة خاصة مع طيف ابتسامة. كيف استطاع صاحبهما في خطبة قصيرة أن يذبّ عن الحاجب ويلتمس له المعاذير، ثم يتحول بذلك إلى مقارنة مضمرة لصالحه، وينتهي إلى تحريض الناس على مدافعة الظلم وطلب العدل، دون أن يعرّض نفسه للتهمة عند الخليفة ورجاله! وبينما كان اللغط مستمراً، تقدّم رجل من الحضور وهتف قائلاً:

- أما وقد قلت ما قلت يا سيدي، فماذا عن الفتيان الصقالبة الذي يغشون أسواقنا وأحياءنا ويأتون بالقبائح؟

بدا بعض التردد والحرج على أبي عامر قبل أن يجيب:

- هم خدم أمير المؤمنين أعزّه الله، وهو أحرص عليكم من آبائكم. ولقد سمعته ينهى ويتوعّد كل من تسوّل له نفسه ظلم رعيته. وأنا أراجعه في هذا الأمر إن شاء الله.. ولكن، بعضَ الصبر.. لا تعتدل الأمور مرّة واحدة، ولكن أعينوا أمير المؤمنين وأعينوني على الحق.. حتى..

توقف عن إكمال العبارة إذ تناهى لغط وتدافع من جهة ما في محيط الحشد، وسُمع صوت يهتف: تفسّحوا، تفسّحوا. كان ذلك مالكاً، جار دكان أبي القاسم حيث كان يعمل محمد، وكان مع صاحبه طريف يحاولان شق طريقهما عبر الحشد بصعوبة بالغة، حتى رفع مالك ذراعه وأخذ يلوّح بها ليلفت نظر محمد وصاح:

- أبا عامر!

دقه طريف منبهاً فاستدرك:

- سيدي الوزير.. سيدي الوزير.. هذا أنا.. مالك.

ثم تلفت فيمن حوله وهتف فيهم متفاخراً

- إنني أعرفه.. صاحبي!

تضاحك بعض الحضور باستهزاء، بينما عاد للصياح بأعلى صوته خلال اللغط العام.

- أبا.. سيدي الوزير!

انتصب محمد بجسمه على أطراف قدميه وتسامق برأسه ينظر صوب اللغط والصوت. فلما تبيّن له صاح مبتهجاً ومحتفياً:

- مالِك! طريف! إليّ..

ثم هتف في الناس:

- أوسعوا لصاحبَيَّ هداكم الله.

شقّا طريقهما بين الناس الذين استولى عليهم التعجب، حتى إذا وصلا أخذ مالك يد ابن أبي عامر ليقبّلها، فسحبها بسرعة:

- معاذ الله! أخي مالك.

ثم ابتدره بالعناق، وفعل مثل ذلك مع طريف، وقال:

- ما أسعدني بكما. لقد والله هممت أن آتيكما حيث أنتما.. ولكنكما سبقتما بالفضل على مألوف العادة. كيف تصنع يا مالك؟

- بخير، ما دمت يا سيدي بخير.

- بل قل: أبا عامر!

أخذ مالك يتلفت في الناس متفاخراً، بينما توجه محمد بن أبي عامر إلى طريف:

- وطريف؟

– أنا أسعد الناس بك يا..

تريّث لحظة يبحث عن الكلمة المناسبة، فأتمّ عنه أبو عامر:

– أبا عامر..

ثم توجه أبو عامر إلى الناس وهتف بصوت مرتفع:

– صاحباي.. مالك وطريف.. كنا نعمل في السوق معاً.

ارتفع لغط الحشد إعجاباً وتعجباً، بينما عاد أبو عامر يخاطب مالكاً وطريفاً بصوت تعمد أن يكون مسموعاً:

– ولكني عاتب عليكما. كيف لا تزوران صاحبكما القديم؟

أجاب مالك بصوت مضطرب من رهبة الموقف:

– نحن! آه.. خشينا يا سيدي أن نفعل فلا تذكرنا، أو يردنا صاحب بابك.

– لا أذكركما؟ أنا؟ أهذا ظنكما بي؟ ما زدت على أن جعلتني رجلاً ينكر أصله ومنبته.. وذلك رجل لا مروءة له.

قال مالك:

– العفو.. العفو يا سيدي.. معاذ الله.

قال محمد:

– وهل ينسى المرء أصحابه، إلّا أن يكون دعيّاً متكبّراً لا وفاءَ له؟ لأنتما عندي أقرب من خاصة عُمّالي. وما أنا إلا ابن امرأةٍ كانت تغزل الصوف فأبيعه في الأسواق والطرقات، فنأكل منه.

ارتفع لغط الناس إعجاباً وتقديراً لما رأوا وسمعوا. وعاد محمد يخاطب مالكاً:

- أما زالت زوجك تصنع ذلك الفطير اللذيذ.

هز مالك رأسه وهو يبتسم بسعادة غامرة، وتابع محمد مداعباً:

- إن لم تأتني ببعضه، أمرت شرطتي فتقبّضوا عليك!

تضاحك الناس من حولهم، وعاد محمد يربت على مالك وطريف، قبل أن يبدأ في الانصراف. وبات الناس يتحدّثون في تلك الواقعة التي أكسبت أبا عامر المزيد من محبة الناس وتعظيمهم.

والحق أن أبا عامر كان صادقاً في إظهار التبسط والمودة لصاحبي السوق. ولكنه أيضاً لم ينسَ نصيبه من رأي الناس وعواطفهم في ذلك العرض الجميل. وأي بأس في أن تكون له مآرب أخرى، إلى جانب أسباب المروءة!

على أن رضا العامة وحده لا يغني عن التدبير مع أهل السلطان.. أو عليهم! وحين دخل على الحاجب المصحفي وجده كالعادة منكباً على النظر في سجلاته ودفاتره، فألقى السلام بتأدب جم، فردّ عليه السلام دون أن يرفع رأسه عن دفاتره. وبقي محمد واقفاً بين يديه حتى تحدث المصحفيّ بعد لحظات من الترقب:

- قد أحسنت صنعاً في السوق يا محمد.

اكتفى محمد بابتسامة الرضا، بينما أردف المصحفي قائلاً:

- كما أحسنتَ في غيره من أعمالك.

قال محمد:

- غايتي رضا مولانا أمير المؤمنين أيّده الله، ورضا حاجبه.

هز المصحفي رأسه هزّة خفيفة، وأرسل إليه نظرة غامضة متفحصة لأول مرة منذ دخوله وقال:

- نعم، مولانا الخليفة راضٍ عنك. وأنا يرضيني ما يرضيه. والفقهاء قد أرضاهم ما فعلت بالخمر والحانات.

تريّث لحظة ثم تابع بنبرة خاصة مبطنة:

- والعامّة راضية، تلهج بذكرك.

- وذلك الفضل من الله.

تريّث المصحفي مرة أخرى قبل أن يستأنف بهدوئه المألوف:

- ألا ترى أن مخالطة العامة وزيادة التبسّط معهم تُذهب الهيبة؟ أعني.. نعم.. قد جئت من أوساطهم، ولا يضرّك ذلك ما أحسنت عملك. ولكنك الآن وزير مولانا، وهيبة الخلافة من هيبة الولاة والعُمّال والوزراء.

لم يفت محمد ما ينطوي عليه كلام الحاجب. فلم يكن كله غيرةً على هيبة الحكم، وإنما هو كذلك غيرة من محمد أن ينتقص تعظيم العامّة له من مقام غيره من أهل السلطان، على سبيل المقارنة. ثم إذا اقتضى الأمر صار بوسعه أن ينتصر بهم ويحرّضهم على خصومه، وقد عُرِف أن أهل قرطبة من أجرأ الناس على أهل السلطان وأسرعهم إلى الشغب عليهم إذا طفح الكيل بمعيارهم.

أجاب محمد:

- لست خيراً من عمر بن الخطاب يا سيدي.. كان ينام ويستظلّ بظل شجرة، ويتفقد الأسواق والرعيّة بنفسه، وكان إذا ذكر أنه أمير المؤمنين خشيَ أن يخالطه العُجب، فخرج ينشل الماء بالدلو لنساء المسلمين.

قال المصحفي:

- ولكن، لكل عصر أحكامه، ورعيّة اليوم غير رعيّة عمر. وأنت بعد لست أميراً للمؤمنين، إنما أنت عامل مولانا. ومولانا أمير المؤمنين لا يفعل هذا الذي تقول، وهو أحق به لو شاء أن يقلّد عمر، لولا أنه يعلم

أن هذا زمان غير ذلك الزمان، ورعيّة غير تلك الرعيّة. وحتى تلك الرعيّة لم تعدم أن يكون فيها مجرم كأبي لؤلؤة يغتال الخليفة وهو يؤمّ الناس.

أجاب محمد:

- صدقت يا سيدي. ربّما لأني لست غير عامل، بل خادم من خدم مولانا أمير المؤمنين، أستطيع أن أخالط العامّة. أما مولانا فمقام آخر، وكذلك سيدنا الحاجب أعزّه الله. وقد علم الناس يا سيدي أني صنيعتك. ألم تكن أنت الذي قدّمني لعمل ولد مولانا وأمّ ولده؟ فإن أحبّوا فيّ شيئاً ردّوه إليك: إلى أصله ومنبعه وسببه.

رمقه المصحفي بنظرة غامضة وقال:

- وإن كرهوا شيئاً؟

أجاب محمد بلا تردد:

- لا أخذلك يا سيدي أبداً.

هنا فاجأه المصحفي بالسؤال:

- فما بال هؤلاء الفتيان الصقالبة قد كرهوا مقامك في الزهراء؟

لم يبد محمد انزعاجاً وضيقاً، بل كان يرجو أن يمهّد له الحاجب بهذا السؤال، فقال:

- أقول يا سيدي؟

- إنني منصت.

- ما كرهوا مقامي إلّا لأنهم علموا أنني صنيعة سيدي وسيدهم الحاجب وفتاه! فأنت المقصود على الحقيقة يا سيدي.

لأول مرّة منذ بدء ذلك اللقاء تقدّم الحاجب بجسمه إلى الأمام مستطلعاً باهتمام بالغ، وسأل:

- كيف ذاك؟

أجاب محمد بلهجة ثابتة واثقة:

- قد هيّأ لي دخولي إلى خاصة القصر أن أعلم ما لا يتأتّى لمن حُجب عنها. وهؤلاء الفتيان لا يخشون على ما في أيديهم أكثر من خشيتهم منك. يقولون: ماذا يكون من أمرنا إذا تولّى ولد مولانا وهو بعد صبي صغير؟ سيكون الحاجب مدبّر دولته وصاحب السلطان والأمر والنهي حتى يكبر سيدي هشام ويباشر الحكم بنفسه. فإذا استأثر الحاجب بالسلطان أنزل مراتبنا، ولم يرع فينا ما مضى على رعايته سادتنا خلفاء بني أمية.

ازداد الحاجب دهشة واهتماماً:

- هم يقولون هذا؟

تقدّم محمد خطوات نحو المنضدة التي يجلس عليها المصحفي، وقال بصوت عميق:

- وأين يفضي بهم هذا الحديث يا سيدي؟ أين ينتهي بهم سؤالهم: كيف نمنع حدوث ذلك؟

ارتفع حاجبا المصحفي وهو يحدّق في محمد مستزيداً، بينما زاد هذا اقتراباً منه حتى انحنى أمامه وأكمل بصوت خفيض يناسب خطورة البوح:

- جواب واحد يا سيدي: ألّا يتولى سيدي هشام!

اضطربت ملامح المصحفي الذي اشتهر عنه جمود وجهه في الأحوال المختلفة فلا ينبئ بما في داخله من رضا أو سخط. وسأل:

- هذا رأيهم؟

أجاب محمد بلهجة قاطعة:

- ولسوف تشهد صدق الخبر في قابل الأيام يا سيدي، أطال الله عمر مولانا أمير المؤمنين.. وعندئذ، اذكر قول خادمك هذا.

قال المصحفي وقد تحولت ملامحه إلى التفكر والشرود:

- تعني أنهم يميلون إلى واحد من إخوة الخليفة؟

هز محمد رأسه بثقة وقال:

- هو ذاك يا سيدي.

لبث المصحفي في تفكيره وشروده، بينما استأنف محمد:

- الآن تعلم لماذا كرهوا مقامي. فقد علموا أني سمعك وبصرك في خاصة القصر، ويرون أن عملي في رعاية سيدي هشام هو بعض تدبيرك، لنستحوذ عليه في قابل الأيام.

بعد لحظات أخرى من الصمت والتفكير، رفع الحاجب رأسه من إطراقته وأرسل إلى محمد نظرة عميقة سابرة، ثم قال:

- هذا الذي بينك وبين ولدي محمد وابن أخي هشام.. لا أدري ما هو.

قال محمد:

- وأنا، يعلم الله، لا أدري ما هو يا سيدي.

قال الحاجب بنبرة صارمة:

- إذن أصلحه! لا أراك تخفق في غيره، فلماذا يستعصي عليك؟

* * *

وكذلك فعل. ولم يكن ذلك فقط امتثالاً لأمر الحاجب، ولكنه كان كذلك استجابة للضرورة التي تمليها حسابات المنافع والمفاسد والتقديم والتأخير على وفق الحال، فكان عليه أن يتجرّع بعض السمّ الذي لا يقتل، ليكون بوسعه في الوقت المناسب أن يُجرّع خصومه سمّاً

قاتلاً! وبدأ بهشام المصحفي ابن أخي الحاجب، وكان يعمل في ديوان عمّه. وكان أصلب عوداً من ابن عمّه محمد المصحفي، وأشدّ شراسة وكِبْراً وسفهاً واندفاعاً. وحين رأى محمد بن أبي عامر يدخل عليه في مكتبه بديوان الحاجب، لقيه بنظرة تجمع بين البغض والدهشة، وابتدره بالكلام بنبرة الهزء والتهكم.

- لماذا أسعدنا الوزير بهذه الزيارة؟

وإمعاناً في النكاية والتصغير نظر في الدفاتر المكدسة أمامه وأردف:

- إن كان عمّي قد أرسلك لحمل هذه الدفاتر، فإني لم أفرغ منها بعد. ولكن عد بعد ساعة!

كظم محمد غيظه، وحمل نفسه على القول:

- لماذا يجب أن نكون خصوماً يا سيدي؟

تصاعدت نبرة الغضب في صوت هشام، إذ أجاب بصلافة:

- قد أعليت قدرك وتطاولت إلى ما لا تطال، حين جعلتني وإياك على صعيد. فالخصوم كالأصحاب، لا يكونون إلّا أنداداً. وأنا لا تغرّني ألقابك كما تغرّ غيري. فلتكن ما تشاء، أو كما شيء لك. تبقى عندي فتى السوق وكاتب الرّقاع. ومثلك وإن استطاع أن يغرّ البعض، فإنه يرتد أخيراً إلى منبته وإن اجتهد.

شعر محمد بلهب من النار في داخله، ولكنه كان قد وطن النفس على التصبّر فحافظ على نبرته الهادئة:

- مَنِ البعض الذي غررته؟ ومن الذي أنعم عليّ وأعلاني؟ أليس أمير المؤمنين، وقبله عمك الحاجب؟ وأنا ما قَدِمت عليك إلّا وأنا أريد الإصلاح ما استطعت، فليس في هذه الخصومة خير لك ولا لي. وأنا خادم سيدي الحاجب.

قال هشام:

- وما زلت تساوينا في الأقدار! أنصت أيها الفتى.. والله لا أحبّك حتى تحبَّ الأرض الدم المسفوح، ولا أخالطك حتى يخالط الزيت الماء. ولو كان لي من الأمر شيء لأوقعت بك الساعة.. ولكنك سوف تقع أخيراً على كل حال. وأعلم أنك ما جئتني حباً ولا كرامة، وإنما هي المداورة والمراوغة ومكر الثعالب. ولكن عمّي طيب القلب وإن بدا شديداً. ولسوف يكشف فساد نفسك في آخر الأمر. ولسوف أجتهد وأسعى ألّا يكون ذلك قبل فوات الوقت. أما العامّة والدهماء التي سحرتَ عقولها بتلك الألاعيب، فلن تنفعك أكثر مما تستطيع أن تنفع نفسها..

ثم أشار إليه بإصبعه إشارة إزراء وقال:

- والآن عندي عمل أريد أن أفرغ منه.

مضى محمد نحو الباب، وإذ بلغه التفت إلى هشام وتبادل معه نظرة عميقة صارمة مفعمة بالكراهية.

* * *

أما محمد المصحفي فكان أكثر ليناً كما توقع ابن أبي عامر. فحين صادفه في باحة خارجية اكتفى ابن المصحفي بأن أشاح عنه، ولكن ابن أبي عامر فاجأه بالتحية:

- سيدي. طاب نهارك.

رمقه ابن المصحفي مستغرباً، واكتفى بأن هزّ له رأسه ثم تجاوزه متابعاً طريقه. ولكن صوت ابن أبي عامر استوقفه:

- سيدي!

التفت ابن المصحفي إليه مستطلعاً، وتقدم منه ابن أبي عامر يضع خطوات، واستأنف قائلاً بلهجة متلطفة:

- خرجت أرجو لقاءكم.. هل لي أن أطمع في..؟ أعني.. لقد كان بيننا الذي كان، وهو من فورة الشباب. ثم يغلب العقل والحكمة، وتسكن النفوس بعد ثورة. وقد يتصل الود بعد الجفاء، وكم من صحبة دائمة ومودة صادقة كان أولها جفوة. فإن بدا لكم مني ما كرهتموه، فغمامة صيف، وزلة مجبورة، أو هفوة معذورة. ونحن الآن جميعاً في خدمة مولانا أمير المؤمنين، وسيدنا والدكم الحاجب، وأنا معدود في صنائعه، ومن كان من صنائع سيدنا الحاجب، كان أحرص الناس على ودّ أهله. وقد طال الجفاء بين ولده وخادمه، وحقه علينا أجلّ وأعظم. فلماذا لا ننسى الذي فات، نستقبل ما هو آت، فتبرد القلوب، وتَقر العيون، ولا عصمة لمخلوق غير الأنبياء عليهم السلام.. وقد..

تردد لحظة ثم استأنف:

- دعوت بعض أصحابنا إلى وليمة في منزلي ليلة الخميس، يعقبها مجلس أُنس. وطمعت أن تتفضل على أخيك وصنيعة أبيك، فتشرفنا بالزيارة، فأكون أسعد الناس بك.

لبث ابن المصحفي في مكانه جامداً وقد هيمنت عليه الحيرة والذهول. ابتسم محمد وقال:

- هل أعتبر هذا قبولاً يا سيدي!

* * *

بالطبع أبدى هشام المصحفي سخطه الشديد من موقف ابن عمّه الليّن حين قصّه عليه، وقال باندفاعه المعتاد:

- قد والله سحر عقلك أنت أيضاً. وما حمله على التقرّب إليك حتى دعاك إلى وليمة ومجلس أنسه إلّا أنه علم أن الخليفة قد أجاب أباك إلى طلبه في أن يجعلك صاحباً للمدينة. وهي أعلى المراتب بعد الحجابة.

أجاب محمد المصحفي:

- لا أدري.. ولكنّ هذه رغبة أبي.. أن نتصافى، إن لم يكن للمودّة فللمصلحة.

صاح هشام:

- وأي مصلحة لنا معه، ونحن المصحفيّون؟

أجاب ابن الحاجب:

- الصقالبة.. الفتيان الصقالبة، قد نصير في حاجته إذا وقت الخُلْف بيننا وبينهم..وهو، مهما تَقُلْ فيه، فإنه قريب مكين من الخليفة وحرمه، وستكون له دالة على ولده الوحيد، إذ هو الناظر عليه والمدبّر لأمره. وأعتقد أنه قد آن الأوان أن ننسى ما كان عليه، وننظر فيما صار إليه، سواءً أحببنا ذلك أم كرهنا..

هز هشام رأسه يائساً من الجدال وقال:

- ستبدي لكم الأيام أن الرجل الذي يرجو عمّي أن يكون حليفة على الصقالبة، هو العدوّ الذي يستحق الحذر، وأن تدبير الصقالبة يهون دون تدبيره.

إذا كان الحاجب المصحفي قد أبدى انزعاجاً من تقرّب ابن أبي عامر للعامّة، لشيء في نفسه، فإن عمل محمد في السوق أكسبه المزيد من رضا الخليفة، إذ إن عمل وزيره منسوب إليه. وهذا ما توصّل به الفقهاء مع قاضي الجماعة عند الحكم المستنصر حين شكروا له استعماله القوي الأمين الذي أقام الحسبة على وجهها الشرعيّ حتى صارت الجارية الصغيرة تشتري لأهلها لا يخشون الغبن، وأهرق الخمور ومنع المحرمات. وكان الحكم يعلم كغيره أن رضا العامة من رضا الفقهاء، وإن كان يبدي عجبه من أهل قرطبة، الذين يزدحمون في الصلوات الجامعة حتى ليسجد بعضهم على ظهور بعض، ثم لا يمنع ذلك من وجود تلك الحانات

والخمور، فكأنهم قسموا حياتهم شطرين لا يطغى أحدهما على الآخر، فأحدهما للآخرة، والآخر للذات الدنيا؛ يتساهلون في أسباب اللهو، فإذا تسامعوا برجل يتحدث بالفلسفة همّوا به غيرةً على الدين حسب أفهامهم. ردّد الحَكَم هذه المعاني أمام محمد بعد أن أثنى على عمله، ثم قال:

- أنت عيني في العامّة يا محمد. عملك في حسبة السوق يطلعك على أحوالهم.

اغتنم محمد الفرصة ليقول:

- إذن لا أكذب مولاي

تنّبهت ملامح الحكم ونظر إلى محمد مستطلعاً ومستزيداً. قال محمد:

- قد عهدوا إليّ يا مولاي، والعهد مسؤول، أن أتوصّل إليك بشكواهم من..

قاطعه الحكم وقد أدرك وجهة الكلام:

- الصقالبة تريد. هل ظننت أني لا أعلم يا محمد؟ ولكنك تعلم أن هؤلاء خاصة قصري وحرسه وخدمه ومدبّروه، وأعلم الناس برسومه. وأنا أراجع كبارهم بين الفينة والأخرى فيقسمون لي أنهم لا يعلمون شيئاً مما يقال في فحولتهم. ولا تخلو طائفة ممّن يشذّ عنها. ولكن نزن العوائد بالنقائص، والأولى ترجح عندنا، ثم نقارب إن لم يكن في وسعنا أن نسدّد. ولئن توصّل إليّ أحد رعيّتي في مظلمة مخصوصة يعيّن مقترفها باسمه ورسمه، ومعه الشهود والبينة، فإني آخذ المتهم بجرمه فرداً. أما أن آخذ الصقالبة جماعة، فهذا يضرّ بسلطان الخلافة وهيبتها، وربما أفضى ذلك إلى شرّ عظيم.

كان محمد يدرك أن أحداً لن يتجرّأ على رفع شكاته إلى الخليفة في هذا الأمر، ولكنه أذعن لرأي الخليفة وقال:

- مولاي أحْكَم وأعْلَم.

ضج صدرها بالبهجة حين رأته مقبلاً نحوها في جانب من حدائق الزهراء حتى كادت لتُبدي به على الرغم منها، وكان ذلك مجلساً مفتوحاً يتكون من مقاعد ومنضدة رخامية وضعت عليها بعض الزهور والفواكه وآنية الشراب. كاد أن يغلبها التلهف فتقوم من مقعدها، ولكنها استدركت على نفسها بسرعة فلبثت في مكانها، بينما كانت وصيفة أعجميّة تحمل الطفل هشاماً على مسافة منها، وكان أحد فتيان الخدمة الخصيان يقف على بُعد. وكان صبياً حدث السنّ. وكانت صبح تؤثر أن تلقى ابن أبي عامر، وما وسعها ذلك، في رياض الزهراء، حيث يتاح لهما الكلام بعيداً عن الأسماع، ولكن دون الاحتجاب عن الأعين. فذلك أجدر بدفع الشبهة دون أن يحرمها من مطلب القرب واللقاء. وإذ وصل التقت نظرتها المفعمة بالعواطف المكبوتة. وكان بيده سجل ألقى به أمامها على المنضدة فلم تتحوّل ببصرها عن محمد الذي هزّ رأسه محيّياً:

- سيدتي.

ثم التفت إلى حيث تقف المربية ومشى نحوها. داعب الطفل بإصبعه وخاطبه بتحبب:

- كيف يصنع سيدي هشام؟

ثم مدّ يديه لتناوله المربية إيّاه. ترددت المربية وأرسلت إلى صبح نظرة مستطلعة. ابتسمت صبح وسألت محمداً:

- هل تحسن حمله؟

أجاب مداعباً:

- وهل يحتاج هذا إلى فنّ وصنعة؟

تناول الطفل وأخذ يهزه بلطف ويضمّه ويتشممه بأسلوب غريب، وهو يحدّق في صبح، وقال بنبرة موحية:

- الطفل مزاج أمّه.. وأبيه!

أدركت المغزى، واستذكرت تلك الرسالة التي خطّها لفائق الصقلبي بمناسبة ميلاد طفلها الأول الذي قضى أجله مبكراً. شعرت بدفء لذيذ يسري في كيانها كلّه. ثم اقترب منها وهو يحمل الطفل ورفعه قليلاً أمامها وقال:

- من يصدّق! أنا أحمل الأندلس كلها بين ذراعي!

تراجعت المربية مسافة عنهما، بينما سأل محمد:

- هل ينطق شيئاً؟

أجابت صبح على سبيل الدعابة:

- نعم.. معلّقة عنترة! كانت أول ما نطق به.

فضحكا معاً ضحكة خفيفة، وقال:

- سيفعل.. سيفعل. ولسوف أنتقي له أحسن المؤدّبين، ولسوف يحفظ شعر عنترة و.. شعر أبن بي ربيعة!

قال ذلك وهو يحدّق في عينيها.. قالت:

- كيف يجتمعان: شعر الحماسة والحرب، وشعر الخلا..

لم تكمل كلمة الخلاعة، وعدلت عنها إلى وصف آخر همست به همساً:

- الغزل.. وأيّ غزل!

قال محمد بصوت خفيض هذه المرّة وهو يقتحم عيني صبح بنظرة قويّة:

- يجتمعان.. يجتمعان.. بل ينبغي لهما أن يجتمعا: كلٌّ في أوانه ومقامه. فإن خلا الرجل من الأولى خلا من عزائم الرجال، وإن خلا من الثانية، خلا من طبائع الرجال، وأشواق الرجال!

أومأ للمربيّة لتتناول الطفل منه ففعلت وتنحّت به، وعاد ينظر إلى صبح، وأكمل:

- على أن ابن أبي ربيعة حين حضره الموت، حلف بالله العظيم أنه لم يقترف شيئاً مما وصف في شعره.

قالت صبح:

- إذن كان يكذب!

أجاب

- بل أصدق الشعراء!

رمقته مستطلعة، فأكمل:

- وهل أصْدَقُ من رجل يتمنّى وتردعه ذمّته وعفته، ثم يصرف ذلك إلى خياله، ومن خياله إلى شعره؟!

اكتسى وجهها بالحمرة، وشعرت بخفة وضعف في ساقيها، وآثرت أن تشيح بوجهها عن نظراته القوية لتجنب تأثيرها الطاغي. وبعد لحظات سمعته يلقي شعراً:

أيـــا لـــكِ نظـــرةً أودت بقلبـــي

وغـــادر ســـهمها قلبـــي جريحـــا

فليـــــت أمـــــيرتي جـــــادت بـــــأخرى

فكانـــــت بعـــــض مـــــا يَنكـــــا القروحـــــا

فإمـــــا أن يكـــــون بهـــــا شـــــقائي

وإمّـــــا أن أمـــــوت فأســـــتريحا

التفتت إليه بنظرة حزينة شاردة، فأنشد لها بيتين آخرين:

أرى كـــــل معشـــــوقين غـــــيري وغيرهـــــا

قـــــد استعذبا طعـــــم الهـــــوى وتمتعـــــا

وإني لأنهـــــى الـــــنفس عنهـــــا ولم تكـــــن

بـــــشيء مـــــن الـــــدنيا ســـــواها لتقنعـــــا

ما أن فرغ من إلقاء البيت الأخير، حتى أجابته بشعر مثله تحوّلت به من خطاب الأنثى كما في أصله إلى خطاب المذكر:

لقـــــد كتمـــــت الهـــــوى حتـــــى تهيمنـــــي

لا أســـــتطيع لهـــــذا الحـــــب كتمانـــــا

لا بـــــارك الله في الـــــدنيا إذا انقطعـــــت

أســـــباب دنيـــــاك مـــــن أســـــباب دنيانـــــا

مرّت لحظات صمت، قبل أن ينفض محمد رأسه ويتحوّل إلى موضوع العمل الذي يفترض أنه جاء فيه، فقال مشيراً إلى السجل:

– جئتك بالجديد في ضياعك وضياع سيدي هشام..

نفخت متضجّرة، فقال:

– لم نبدأ بعد حتى..

فقاطعته قائلة:

- كل الكلام بعد ذلك الكلام يثير الضجر.

ابتسم وقال:

- إذن أختصر بواحد لا بد منها. منية العروس. فقد أمرت بشق قناة تجلب لها الماء من عين الجبل على بُعد فرسخ شرقيّها. وهي تعبر ضيعة أخرى لأحد الموالي. وقد رأيت أن أبتاعها من صاحبها لتضاف إلى منية العروس، وبذلت فيها لصاحبها خمسين ألفاً فرضي. ولكني لم أبرم البيع حتى أراجعك.

قالت:

- تراجعني؟ وهل أراجع على رأي لك يا محمد؟

قال بصوت خفيض:

- إن لم يكن بيدي ما أراجعك فيه، فكيف أرجع إليك؟ لو لم يكن سبب لاخترعته.

كادت تسمع وجيب قلبها الذي تحتشد فيه مشاعر الحب والخوف والأسى والحرمان. بعد لحظات تناول السجل وهزّ لها رأسه، ثم انثنى راجعاً وهي تشيّعه ببصرها وتردّد في نفسها:

لا بـــــارك الله في الـــــدنيا إذا انقطعـــــت

أســـباب دنيـــاك مـــن أســـباب دنيانـــا

كان ثمة من أبصر عن بُعد آخر هذا اللقاء، غير المربية والفتى الصقلبي: الحكم المستنصر الذي خرج في تلك اللحظات إلى منظرة مطلّة من قصره. وبالطبع لم يكن في المنظر ما هو غير عادي أو غير متوقع، إلّا أنها كانت المرة الأولى التي يشهدهما فيها معاً. ولأمر ما تحرّك شيء في

صدره وهو يرقب الفتى الشاب يمشي منتصباً بخطى ثابتة سريعة مبتعداً عن أم ولده الصبية الساحرة الجمال!

بعد لحظات ارتد داخلاً.. ولأمر ما أيضاً وجد نفسه يتوقف عند مجلس الوصائف وحريم الخدمة.

كنّ بين مضطجعة وجالسة، وبين من هي منفردة بنفسها تطرّز أو تجدل طوقاً من الزهور أو ترخي جفنيها على حلم عصيّ لذيذ من أحلام اليقظة، وبين من اجتمعت على التهامس في أسرار موهومة تحوّلها المخيّلة إلى أخبار موثوقة.

فجأة توقف الهمس، واتجهت أبصار الجميع نحو الباب حيث وقف الحكم ينظر إلى الداخل بوجه هادئ. وللحظة قصيرة صرفتهن المفاجأة المدهشة عن واجب التحية لأمير المؤمنين لولا سرعة التصرف من مدبّرة الحريم التي قامت من فورها وهتفت بصوت مرتفع لتنبه الأخريات وهي تنحني لسيدها:

- مولانا أمير المؤمنين.

نهضت الأخريات وانحنين له إجلالاً، دون أن تغادرهن ملامح الدهشة.

تحرك الحكم إلى الداخل بهدوء، وقال:

- كيف أصبحتن اليوم؟

اختلطت أصواتهن المضطربة بحمد الله والثناء على أمير المؤمنين الذي أنعم عليهن بظلّه، بينما انكسفت أنظارهن إلى الأدنى من هيبة الخليفة الذي بدا حائراً بعض الشيء يقلّب بصره بين السقف وأرجاء الصالة ومن فيها، كأنه يبحث عن مسوّغ يقدّمه بين يدي زيارته المفاجئة. ومرّت لحظات صمت مربكة للجميع، حتى تدخّلت المدبّرة الخبيرة المحنكة فقالت:

- ما أسعدنا برؤية أمير المؤمنين، وإنه لشرف عظيم غمرنا به مولانا، ونحن على أمره.

تحرك قليلاً في المكان وقد ضم ذراعيه إلى ظهره، وقال:

- لا.. فقط أحببت أن أطمئن على أهل قصري، كما أطمئن على سائر رعيتي. وهنّ بعد في حرزي وملاذي..

واتجه إلى أحد المقاعد ليجلس، فتباعدن ليفسحن له وقد زاد عجبهنّ، وأسرعت المدبرة تضع حشيّة ليسند ظهره إليها، وتابع بلهجة أكثر تبسّطاً:

- ولا أكتمكنّ.. قد أمَلّني بعض وزرائي بكثرة الكلام فيما ينفع ولا ينفع. فإن بعضهم إذا عرض المسألة لم يقتصد، ويكون حقها عبارات قليلة. ولكنه يطنب. يبدأ بالديباجة والمقدّمة، وأنا أهز له رأسي مستعجلاً، ويمنعني الرفق أن أفصح عن ضجري بتلك الديباجات المكرورة. فإذا انتهى من الديباجة أحب أن يعطف الحاضر على الماضي، فأتى بتاريخ المسألة ومقدماتها السابقة كأني غُفْلٌ عنها.

قالت المدبّرة:

- حاشاك يا أمير المؤمنين.

استأنف الحكم:

- فإذا فرغ من سيرة المسألة وتاريخها، بدأ بمتنها، فلا يفرغ حتى يتركني أغبط خادمي الذي ليس عليه أن ينصت إلى ما أُنصِتُ إليه. ثم إذا فرغ من المتن شرع بالخواتيم، وهي أطول من المقدّمات. فلا ينتهي حتى.. أنتهي!

كان تبسّطه مع نبرة التهكم والدعابة في لهجته قد شجعهنّ على التبسّط فأخذن يضحكن ضحكات خفيفة موزونة في أثناء كلامه، ومع آخره شاركهن الضحك، بينما قالت المدبّرة:

- بل ينتهي عدوّك يا أمير المؤمنين.

تابع قائلاً:

- أعْدِلُ عن حديث الرجال إلى حديث النساء، فهو ألطف على القلب وإن طال.

حديث النساء! فلماذا ران الصمت بعد ذلك؟ ولم يفت المدبّرة أن تلحظ شرود الخليفة ونظراته الزائغة في المكان، وكأنه يطوي جوانحه على قلق خفيّ ويرجو أن يزيحه عن صدره دون أن يُبدي بشيء منه. فإن صحّ ذلك فلماذا يلتمس ذلك عند حريم الخدمة، ولم يكن من مألوف عادته أن يدخل عليهن زائراً مستطلعاً أحوالهنّ وهو الخليفة الذي ينحني الملوك بين يديه ويقوم على خدمته جيش من الفتيان وأهل الخدمة؟!

عاد الحكم إلى التلفت فيهنّ، وصوّب نظره إلى المدبّرة وقال من جديد:

- إذن كل شيء، على ما نحبّ!

أجابت المدبّرة:

- على ما يحب مولانا ويرضى.

قال مستوثقاً بنبرة عميقة:

- أعني كل شيء!!

استشعرت المدبّرة مغزى تساؤلاته، فاسترسلت في الجواب هذه المرأة بلهجة واثقة:

- كل شيء يا أمير المؤمنين. وما كانت أمور خاصة مولانا أحسن مما هي الآن. والسيدة أم هشام..

التمعت عيناه وتحركت ملامح وجهه الآن إذ تابعت المدبّرة ودون توقف:

- .. نحن أسعد الناس بخدمتها. وذلك لما نراه من محاسنها، وأهم منها محبتها لأمير المؤمنين وحرصها على سعادته ورضاه.. أعني يا مولاي، ليس في خاصّة قصرك أحد إلّا وأنت أحب خلق الله إليه، يفديك بنفسه وأمه وأبيه، ولكن لو جمع حب الناس جميعاً لأمير المؤمنين، لما رَجَح حبّ السيدة أم هشام لسيّدها ومولاها.

تريّثت لحظة ثم أردفت مبتسمة:

- أزيد يا أمير المؤمنين؟ أعني.. أجد حرجاً في أن أخاطب أمير المؤمنين في أمر خاص به وبصاحبته أم ولده.. وفي شؤون الحب والإلفة والأليف.. وأمير المؤمنين أعلم بما أصف وأقول.. فكلامي بين يديه في هذا الشأن فضول، بل ربما كان تطفّلاً.. ولكن أمير المؤمنين أراد الساعة حديث النساء.. وهذا حديث النساء يا مولاي.. فنحن ننطق في هذا عمّا في نفوسنا لا عمّا يحتاج أمير المؤمنين إلى سماعه مما يعرف خيراً منا! فهل جاوزت الحدّ يا مولاي!

ابتسم ابتسامة عريضة، وأومأ لها أن تكمل؛ فقالت:

- أردت القول يا سيدي أن حبّ السيدة أم هشام ليس لأنك مولاها ومالكها وأنّك أمير المؤمنين، وإنما هو حب الصاحبة المتيّمة بصاحبها. ولو لم تكن أمير المؤمنين لما غيّر شيئاً مما في نفسها لك. ولقد كنا قبلها نتخاصم، وربّما وقع بيننا الحسد والبغض وسعى بعضنا في بعض.. هكذا النساء يا مولاي، حتى جاءت أم هشام مجيء السعد، فائتلفت القلوب حولها، وسكنت بها الخواطر، حتى صرنا جميعاً نحب ما تحبّ، ونكره ما تكره. وهي، أسعدك الله بها لا تُحِبّ إلّا ما ينبغي أن يُحَبّ، ولا تكره إلّا ما حقُّهُ أن يُكْرَه.. فما الذي نطلبه بعد يا مولاي؟ فهذا حالنا الذي سألتنا عنه. وهو من حال أمير المؤمنين وأمّ ولده، وما كان الجواب عن حالنا ليتمّ إلّا بذكر ما ذكرت، فحال الخادم من أحوال مخدومه. أليس كذلك؟

ثم تلفتت في النساء من حولها:

- هل قلت حقاً؟

هتفن معاً:

- نعم.. نعم.

تهلّلت أسارير الحكم بالسعادة والرضا كما لم يبد لهن من قبل.. ثم قال:

- هل علمتنّ الآن لماذا عدلت عن حديث الرجال إلى حديث النساء؟

ثم نهض من مقعده، ولم يكتم نفساً طويلا ينم عن ارتياح.

انحنين له من جديد، بينما مضى خارجاً وهن يشيعنه بأنظارهن، وإذ خرج، تحولن بأبصارهن إلى المدبّرة بنظرات حائرة، وقد بدا عليها الشرود والتفكّر الآن..

والحق أنه لم تكن هدايا محمد بن أبي عامر النفيسة لها ولصاحباتها فقط ما أملى عليها النطق بذلك الكلام، ولكنها كانت تحب «صبح» حقاً وصدقاً لأسباب عدة. فقد كانت مثلها من أصول بشكنسية، وكانت تستشعر ما تكابده من عواطف وأشواق مكتومة لا قِبَل لها بدفعها إلّا أن تسيّجها بالعفة، فكانت تتعاطف معها تعاطف المرأة مع المرأة المحكومة بحب مستحيل، ثم إنها كانت تعلم أن الفتيان الصقالبة يرجون المكر بها وبأبي عامر، فكانت تكره منهم ما يكرهان. وأخيراً، فإنها قالت ما قالت إشفاقاً على الخليفة الطيب نفسه وحرصاً عليه. فليس ثمّة غالب بين هؤلاء الثلاثة: الحكم، وصبح، وابن أبي عامر. بل كلهم مغلوب على أمره بهذا الشأن، وإن كانوا في غير ذلك يملكون الدنيا. إذ لا سلوى في أن تفوز ببعض الحبيب دون بعضه! ولكن الذي لم يخطر في بال المدبّرة أن ثمّة رابعاً منسياً في هذه العلاقة: عائشة، زوج أبي عامر، وهي على مثل حال الثلاثة الآخرين.

* * *

حين خلا الحكم بصبح، صبّت له كأساً من الشراب وقدّمته له. تناوله بيده ونقل بصره بينها وبين الكأس، ثم أعاده إليها وقال:

- لا أشرب إلّا من حيث تشربين!

أخذت الكأس بيدها واحتست منه حسوة صغيرة وأعادته إليه. نظر إليه من جديد، ثم قال:

- من أي طرفٍ شربت؟

أشارت، فأدار الكأس إلى حيث أشارت واحتسى منه. ثم هتف منتشياً:

- الله!

قالت:

- شراب طيب يا مولاي؟

قال:

- ما طيّبه إلّا ريقك. ولو كان مرّاً أو حامضاً لحلا به.

لم تكن هذه أول مرّة يعبّر فيها الحكم عن ولهه بصبح، وهو الرجل المعروف بالتحفظ وهدوء الطبع والاقتصاد في الكلام. ولكنها مع ذلك لم تره من قبل في مثل هذا الإقبال والتفنّن في طقوس الغزل، حتى بدا أن كلامه وتعبيرات وجهه وعينيه لا تنسجم مع مقتضيات عمره ومنزلته؛ فكأن العشق الذي غلب عليه قد ردّه من طور الكهولة إلى طور الشباب الغابر مع ما يمكن أن يخالطه من الاندفاع والإفراط! قالت بشيء من التدلل:

- خليفة غَزِل؟ والغواني يطربن للثناء!

قال:

- والرجال كذلك يا صبح. ألا تغنين لي صوتاً؟

فاجأها الطلب، فهي لم تفعل ذلك منذ وقت طويل. قالت:

- ونوقظ أهل القصر؟!

- وما علينا؟ أنا الخليفة.

قالت:

- وخير الرجال.

ثم عمدت إلى عودها فأخذته وضبطت أوتاره، ثم غنّت:

نهـــاري نهـــار النـــاس حتـــى إذا بـــدا
لي الليـــل هزتنـــي إليـــك المضـــاجع

لقـــد ثبتـــت في القلـــب منـــك محبـــة
كـــما ثبتـــت في الـــراحتين الأصـــابع

وأنـــت الـــذي صـــيرت جســـمي زجاجـــة
تـــنم عـــلى مـــا تحتويـــه الأضـــالع

أخذته النشوة حتى أخرجته عن طوره فصاح:

- الله.. لم تفقدي شيئاً من حسن صوتك.

قالت:

- لا ينقص الحسن في جوارك يا سيّدي، بل يزيد.

قال:

- قيس.. المجنون! أعني هذا الشعر الذي غنَّيْتِه!

- نعم. هو للمجنون.

قال:

- فهو في أصله من رجل إلى معشوقته. وقد غيّرتِ ضمائِرَه فصار المخاطَبُ مذكراً!

قالت:

- كيف لا أفعل وأنا هنا المرأة، وخطابي لسيّد الرجال.

ابتسم الحكم، ثم أخذ يلقي الأبيات على أصلها بضمائر المؤنّث المخاطب دون أن يتوقف عن التحديق بها بنظرات مشبعة بالعشق والهيام، وإذ أخذ يلقي البيت الأخير رفع كأس الزجاج الشفاف الملوّن أمام وجهه وعينيه. ثم قال:

- أنا أولى بإلقاء هذا الشعر.. كيف لا، وأنا هنا الرجل، وخطابي لسيدة النساء.. ثم إني.. لعلي أقرب حالاً إلى المجنون وجنون العشق!

ما بال هذا الرجل الليلة يُسرف في غزله الذي لا يطربها إلّا بقدر ما يوجعها. هكذا حدثتها نفسها في لحظة خاطفة، ومع ذلك أطلقت ضحكة خفيفة ساحرة وقالت:

- الخليفة! جنون العشق! قيس! ذلك فتى أعرابي يا سيّدي.. فقير محروم، صُرِفت عنه حبيبته إلى غيره لقاء الدراهم، فخبله العشق وطار عقله، فلم يجد غير الشعر يفيض به إلى النخلة والنجمة والظبية الشاردة. وأنت.. أنت الخليفة.. الدنيا كلها ملك يدك، فضلاً عن نساء الأرض.. وأنت العالم الحكيم الذي جمع معارف الدنيا في مكتبته. فأين الذي يجمع بينكما يا سيدي؟

أطرق لحظة وقد ذهب في شرود بعيد، ثم قال بأسلوب تأمّلي:

- القلب.. ليس عليه سلطان يا صبح. ربما كان بوسع الخليفة أن ينال من يشاء من النساء.. ولكن شيء واحد لا يناله بالمال والسلطان.. الحب والقلب! والجنون أنواع، منه الظاهر ومنه الباطن.. ولكلٍّ جنونه!

أخذت صبح ترمقه بتمعّن، وقد غشيه فجأةً طيفٌ من الحزن بدا في ملامح وجهه. ثم قالت:

- أنا مملوكتك يا سيدي. كُلِّي يا سيدي.. كُلّي!

لم يغادره الشرود وهو يرسل إليها الآن نظرة غائمة، ولم تفلح ابتسامته في طرد ظل الحزن الذي أطاف بوجهه!

* * *

ظلت أياماً بعد ذلك تفكّر في ذلك الموقف والحوار الذي دار فيه. ولم تجد غير وصيفتها وصاحبتها بدور تبثّها بعض ما في نفسها منه. قالت:

- أحياناً أحسّ أنه يستشعر شيئاً مما أخفي في غور روحي، وما أطوي عليه جوانحي، كأنه ينظر مباشرة خلالي إلى ذلك المكان القصيّ الذي لا ينبغي لأحد أن يقتحمه إلّا من يأذن له قلبي. أحسّ أنني زجاجة تشف عما في داخلها، على الرغم مني.. فأشعر بالخوف.. لا.. ليس الخوف.. بل الحزن والإشفاق: عليه وعلى نفسي وعلى.. أبي عامر. فكلنا شقي بنصيبه.. كلنا أخذ شيئاً من الآخر، وفقد له شيئاً.. فلا نسعد بما أخذنا حتى نشقى بما فقدنا.

رفعت رأسها ونظرت إلى بدور تنتظر أن تواسيها. ولم يكن عند بدور ما تواسيها به، إلّا أن تتساءل قائلةً:

- أتدرين ما الذي يحيّرني؟ حتى لو لم يخامر الخليفة إلّا هاجس بعيد من الظنون، كلمح البصر ثم يختفي، ما الذين يحمله على إبقاء أبي عامر في خدمتك؟ ولم تخل الدنيا من رجل ينهض بعمله عندك وعند ولدك. وله من المراتب الأخرى ما يكفيه؟

أطرقت صبح متفكرة، ثم قالت:

- بل لأنه الخليفة صاحب السلطان. فإذا صرفه لظنّ عارض، فكأنه قد أثبته، فكان إقراراً منه لنفسه بأنه غُلِب على قلبي من أحد خدمه وعُمّاله، ولكان عليه بعد ذلك أن ينصرف عني. إذ كيف يُقْبل الخليفة، سيد الرجال والنساء، على جارية يعلم أن قلبها لم يَخْلُص له!! وبذلك يكون قد ألزم نفسه بأن يخسرني، ويخسر كبرياءه ولو في نفسه فقط.. ويخسر.. نعم.. أبا عامر الذي يحبّه أيضاً ويدخّره لقابل الأيام حين يصير ولده في أشدّ الحاجة إليه.

عادت تحدّق في بدور بنظرات مستطلعة، كأنها تنتظر أن تؤيد رأيها.. قالت بدور:

- ربّما .. ولعلّه كذلك قد تناهى إليه بعض الهمس من فتيان القصر، فلو تصرّف على وفق ذلك لأثبت ظنونهم، فكان الضرر أشدّ عليه. ثم إنه يعلم يقيناً أن العفة سياج منيع، فإن خامره ظن عابر في غيرها، لم يخامره فيها.

هزت صبح رأسها هزة خفيفة، وعادت إلى التفكير والشرود:

لئن نسي الخليفة أمره لمحمد بن أبي عامر أن يضم إليه زوجة جديدة إذا انقضى العام ولم تنجب له زوجه ولداً، فإن محمداً لم يَنْسَ. ولم يكن أمر الخليفة ذاك هو ما أخذ يلحّ عليه، ولكنها الرغبة في الولد كأي رجل، وقد طال الوقت ولم يعد في وسعه الانتظار، بعد أن صبر كل ذلك الوقت دون أن تتحقق أمنيته مع عائشة. وما كان بوسعه أيضاً أن يعلم إذا كان السبب منه أو منها، بل يمكن ألا يكون فيها أو فيه علّة مانعة دائمة، ولربما لو صبر وقتاً آخر لأنجب منها، فليس من غير المألوف أن يتأخر الإنجاب أعواماً طوالاً، ثم يقع بعد أن يوشك الزوجان على اليأس. ولكنه لا يستطيع المجازفة بالوقت. كما أن المألوف أن يتزوج الرجل بغير واحدة أو يتخذ له بعض الجواري، حتى مع الإنجاب منهن جميعاً. ولكن محمد بن أبي عامر كان شديد الحرص على مشاعر زوجه الطيبة الوفيّة، بل إنه كان قد عزم في نفسه على اتخاذ جارية بدلاً من الزوجة الحرّة كي لا تكون لها ضرّة مكافئة. فالغاية هي الولد. وذلك أهون عليها. ومع ذلك لبث أياماً متردداً في إخبارها بنيته، حتى فاجأته في إحدى الأمسيات بالقول:

- محمدّ قد أبرأت ذمتك مني وصبرت طويلاً. وقد آن الأوان.

التفت إليها مندهشاً وقد أدرك المعنى، ولكنه تظاهر بغير ذلك:

- أوان ماذا؟

أطلقت ضحكة خفيفة وأجابت متهكمةً:

- ما أبطأ فهم الوزير، صاحب الخزانة ودار السكة والمواريث والحسبة والشرطة الوسطى، ومدبّر أمور وليّ العهد وأمّه!

أطرق صامتاً إذ لم يجد ما يقوله. رمقته بمحبة ثم قالت:

- لو كان غيرك لتزوج أخرى أو أخريات منذ وقت. وما منعك إلّا التذمّم والمروءة معي.. ولكن المروءة ليست حكراً على الرجال.. وإن كان المرء والمروءة من أصل واحد، فالمرأة كذلك: مروءة، امرؤٌ، امرأة! ولكنكم تغفلون عن الأخيرة! أليس كذلك. ولكن، ليست المروءة وحدها ما يحملني على هذا، إنما هو الحب.. ليس الحب في مذهبي أن نتكافأ في الحرمان، إن كان في وسع أحدنا أن ينال حظه من الخير من سبيل آخر. فإن نلتَه نالني منه سعادتك، وحسبي ذلك منه.

بقدر ما أزاح موقفها هذا ما كان فيه من حرج وتردد، فقد ألقى عليه حملاً ثقيلاً من التوجع والإشفاق والتقدير والإعجاب. بل ربما كان أهون عليه لو انفرد بالأمر دونها وألزمها إياه من غير حول لها ولا قوة. ما هذه المرأة العظيمة؟ وهل ما زال الزمان يجود بأمثالها؟ وهل يجب أن تبّزه دائماً بنبلها وإخلاصها وتفانيها وحبها، فتتغلب عليه باختيارها أن تكون مغلوبة له؟! كيف يمكن أن يكون فائض الحب غير المشروط عقوبة للمحبوب وعبئاً ثقيلاً عليه؟!

على أنّ تفانيها ذاك لم يمنعها من الإفراط في بكاء مرير بعيداً عن الأعين، حين جيء بالجارية الجديدة «درر» إلى قصر أبي عامر ونزلت في جناح خُصِّص لها.

لم يلفته منها إلا جمالها الصارخ حين رآها تعزف وتغني في أحد مجالس السمر. ولم يأبه حين علم أنها كانت عند صاحب قبله، وأن صاحبها قد غاضبها في أمر ما، وقبل أن يسكن عنه الغضب باعها لصاحب دار المدنيات. ولكن الذي لم يعرفه أنهما كانا قبل ذلك متحابين

أشدّ الحب. وبعد أن سكن عنه الغضب راجع صاحب الدار ليردّها عليه على أن يبذل له فيها فوق الذي باعها به، لولا أن ابن أبي عامر كان قد سبقه إلى شرائها.

ولم يأبه أيضاً أن يجدها قليلة الكلام دائمة الشرود، بل أعجبه ذلك منها. فكل الذي يريده منها الولد. وفيما عدا ذلك حسبه من النساء عشقه المكتوم لصبح، ومودته المقيمة وتقديره العظيم لزوجه الوفية عائشة. وما كان يدري أن صمت جاريته الجديدة «درر» وشرودها الدائم يرجع إلى حزنها على فراق صاحبها السابق الذي لم يهوّن منه أنها صارت عند رجل شديد الوسامة عظيم المنزلة في طبقة الوزراء.

ولم يطل الوقت حتى ظهرت عليها علامات الحمل. وبعد زهاء سبعة أشهر فقط من بناء محمد بن أبي عامر بها، جاءها المخاض!

لم يكن من الغريب أن يولد بعض الأطفال لسبعة أشهر، ولكن فرص نجاتهم أقل ممن يولد مع تمام مدة الحمل الطبيعية، ولذا كان ينتظر بقلق شديد حين كانت القابلة تقوم بعملها. وحين زفت البشرى بأن الولد جاء صحيح الجسم تنفّس الصعداء وهرع إلى حجرة درر ليرى ولده البكر. وحين وقف على مهده يتأمّله، ثم رفعه بيديه، بدأت فرحته بالانحسار تدريجياً ليحل مكانها شعور ثقيل وغمامة داكنة وخاطر أخذ ينكأ عليه. لا، لم يكن ثمة عيب في الطفل، وهو كما أخبرته القابلة صحيح الجسم. ولكن.. أكثر مما ينبغي لمولود سباعيّ يُتوقّع أن يكون ضئيل الحجم وإن كان صحيح الجسم! أما هذا فمكتمل الحجم والوزن، بل ربما كان أوفر حجماً وأكثر تورّداً ممن أتمّ تسعة أشهر في رحم أمّه. وإلى ذلك فقد نبت زغب شعره على أفضل ما يكون عليه المولود المكتمل. ويمكن أن يلحظ الناظر أن لونه يضرب إلى شقرة! فمن أين جاء هذا اللون، وأبوه وأمه كلاهما شديد سواد الشعر؟

أعاد المولود إلى مهده، ونفض رأسه كأنه يطرد الخاطر المزعج الذي ألمّ به، واستعاذ بالله من الوسواس الخناس الذي يأبى إلّا أن يفسد عليه فرحته.

ولكن الوساوس لم تغادره في الأيام التالية، بل زادت إلحاحاً حتى صرفته عن الطعام والنوم وكادت تبطّئ به عن أعماله. ولم تفلح محاولات عائشة في استطلاع سبب همّه وشروده الدائم في وقت كان ينبغي له فيه أن يحتفل بولده البكر ويطير به فرحاً ويلزم مهده ويكافئ أمّه.

لم يكن يؤرقه الشك في عفة «درر»، فمنذ صارت إليه لم تخرج من جناحها، ولا دخل عليها غيره وغير الخادمة. ولكن السؤال الذي أخذ يؤرقه هو: هل استبرأت وقضت عدتها الشرعية، وهي شهران للجارية، بعد فراق صاحبها السابق وحصولها عنده؟ لم يخطر له أن يتحقق في ذلك الحين باعتبار أنه أمر مفروغ منه. ولكنه يدرك الآن أنه أكثر التباساً وتراخياً في حال الجارية المملوكة.

وحين أفضى أخيراً بشكوكه لعائشة، تولّت بنفسها سؤال «درر» التي ظهر أنها لا تفهم معنى الاستبراء حتى سألتها عائشة مباشرةً عمّا إذا كانت قد حاضت ولو لمرة واحدة بعد فراق صاحبها السابق حتى انتقالها إلى أبي عامر.

بدت حائرة مترددة أولاً وذهبت في التفكير قبل أن تجيب بسذاجة من لا يدرك مغزى السؤال وآثاره:

- قد مضى على ذلك وقت طويل.

سألت عائشة وهي تتفحصها:

- تعنين أنك لا تذكرين الآن؟

صمتت درر بضع لحظات أخرى من التفكير، ثم قالت:

- نعم.. أظن أن الحيض قد وقع في..

قاطعتها عائشة:

- تظنين؟ كأنك لا تدركين خطورة السؤال وعواقبه! يجب أن تكوني على يقين، من أجل ولدك ومن أجلك ومن أجل سيّدك أبي عامر!

تنبّهت ملامح درر والتمعت عيناها وهي تحملق في وجه عائشة، وكأنها أدركت أخيراً المغزى، على ما فيها من براءة وسذاجة. فقالت بأسلوب أكثر ثقة هذه المرة:

- بل.. نعم، نعم.

هذا ما أرادت عائشة أن تسمعه لتنقله إلى زوجها، على الرغم من أن كلام درر ونبرتها وسلوكها كله في ذلك الموقف كان يوحي بأنها لا تذكر جيداً ولا تستطيع القطع، لولا أن عائشة قد وجهتها بقصد إلى الجواب المنشود بأسلوب غير مباشر، حين نبهتها إلى عواقب الأمر. فماذا لو مكثت درر على حيرتها فلم تجب بغير الظنّ؟ ماذا عسى محمد أن يفعل عندئذٍ؟ هل ينكر نسبة الطفل إليه بناءً على الظنّ فقط، فيصبح حديث الناس وتلحقه تهمة الظلم أو حتى سقوط المروءة، ثم يعيش حياته معذّباً لا يدري يقيناً إن كان قد تخلّى عن ولده حقاً! أم يمسكه على أنه ولده بالظنّ أيضاً فيبقى منه في شك وعذاب، ثم يحرمه من عواطف الأبوّة؟

كانت عائشة من النبل وسموّ النفس بحيث أشفقت على الجميع: زوجها وجاريته والمولود معاً. فكان جواب درر الأخير غاية ما ترجو، فلزوجها ولها منه الظاهر، وإن طوت صدرها على غير ذلك من الظنّ وعدم اليقين.

على أن الجواب الأخير الذي نقلته إلى محمد، دون أن تذكر مقدماته وما أحاط به من الحيرة والتردد، لم يذهب بوساوس محمد تماماً،

فبقي في النفس منها حاجة لا يستطيع طردها وإن تمنّى ذلك. فما الذي يقطع له بأن جاريته لم تكذب دفعاً عن نفسها وولدها؟

* * *

- أهلاً وسهلاً صديقي القديم!

هتف بحرارة وهو يقبل من الداخل إلى صالة الاستقبال بخطى سريعة، مرحِّباً بالطبيب شارل الذي قام من فوره، وتعانق الصديقان القديمان بحرارة بالغة، بينما كان عمرو ينظر مبتسماً. ثم انحنى شارل برأسه قليلاً وقال:

- سيدي الوزير.

ضرب محمد على ذراع صاحبه متحبباً وقال:

- دعك من تلك الألقاب أيها الطبيب العظيم قارله..

رفع شارل يده مع ابتسامة بأسلوب الاحتجاج اللطيف، فاستدرك محمد فوراً:

- شارل.. شارل.

رفع شارل يده من جديد معترضاً، فتلفت محمد محتاراً، وتدخل عمرو:

- بل زيد بن أبي عامر! هذا هو اسمه العربيّ الذي يجب أن ينادى به الآن.

قال محمد بأسلوب مرح:

- ابن أبي عامر؟ هل كنت ابن عمي وأنا لا أعلم؟ هل كان أحد أعمامي قد ارتحل إلى غالة وتزوج هناك ونحن لا ندري، حتى اكتشفت أنت نسبك العربي؟

أجاب شارل:

- نسبي حيث اخترت أن أقيم وأعمل وأتزوج وأنجب وأحيا وأموت. و.. حيث الأصحاب والأحباب الذين عرفتهم فكانوا لي إخوةً وإن لم تلدهم أمّي.. ربّ أخ لك لم تلد أمّك.

قال محمد:

- وأمثال عربية أيضاً!

- وإن شئت نافستك في الكتابة.

- طبيب وكاتب؟

- آهه.. وعازف عود أيضاً.. هل نسيت؟

- ما زلت؟

- وسأبقى.

هز محمد رأسه وقال:

- نعم.. دواء الأبدان، ودواء الأرواح.. جمعتَ..

أسرع شارل أكمل عنه:

- فأوعيت.

ضحك الثلاثة، ثم تلتفت شارل في المكان وقال:

- قد بلغت مبلغاً عظيماً يا أبا عامر. كنت أتوقع لك مستقبلاً عظيماً.. ولكن.. بهذه السرعة؟!

قال محمد:

- لا تحسدني، فأنتم الأطباء أغنى الناس!

أجاب شارل:

- وأكثر الناس تعباً.

أشار محمد إلى المقاعد:

- دونك فاجلس. كم أنا سعيد بلقائك.

تقدّم الخادم بالشراب، وقال شارل:

- لَكَمْ فكرت في زيارتك، ولكني خشيت أن تكون قد نسيتني، حتى أتاني عمرو وذكر لي رغبتك في لقائي.

اكتسى وجه محمد بطيف من الانقباض طرده بسرعة وقال:

- وهل ينسى الصاحب صاحبه. كانت أياماً سعيدة على الرغم مما كان فيها.

تدخل عمرو قائلاً:

- تتحدّث وكأنها أيام بعيدة.

هز محمد رأسه وقال مع شيء من الشرود:

- بعيدة قريبة.

ثم توجه إلى شارل:

- ولو كنت أنساك، لذكرني بك صيتك في صنعة الطب.

قال شارل مبتسماً:

- أحاول جهدي.

تابع محمد قائلاً:

- فلما سمعت بعض الناس يذكرك أمامي، تذكرت الأيام الخوالي، وقلت لا بد أن أراه، فنسترجع ذكرياتنا القديمة. ترى ما فعل الله بصاحبنا أوتو؟

أجاب شارل:

- أين نحن من بلاد الألمان لكي نعرف؟

قال محمد:

- قدرت ألا يطيق الحياة هناك، فيرجع في بضعة شهور.

قال شارل:

- إنه صاحب عزيمة.. وقد وطّن النفس على أن يصير سفيراً، وألا يأتي قرطبة يوماً إلّا بتلك الصفة.. أرانا الله وجهه بخير.

قال محمد:

- آمين.

وفي هذه اللحظة دخلت المربية تحمل المولود، وقال محمد:

- ألم تعلم أني رُزِقت بكري؟ عبدالله..

قال شارل وهو ينهض من مكانه لينظر في الطفل:

- وكيف لي أن أعلم؟

حدق في الطفل مبتسماً وقال:

- ما شاء الله.. ما شاء الله.

كان محمد يرسل نظرة غامضة متفحّصة إلى شارل والطفل، وسأل شارل:

- متى وُلِد؟

أجاب محمد:

- من أسبوع فقط.

هتف شارل:

- ما شاء الله. يبدو ابن أسبوعين أو أكثر!

بخلاف المتوقع، وقع كلام شارل من نفس محمد في موقع داكن، ولم يستطع هذه المرة طرد انقباضه. ولكنه آثر الصمت، حتى خرج الثلاثة يتجولون في حديقة القصر، وفجأة ودون أن يلتفت إلى شارل مباشرة قال كمن يحدِّث نفسه:

- سبعة شهور! ابن سبعة شهور!

نظر إليه شارل متحيّراً، وقد تقدّمه محمد بضع خطوات. تبادل شارل مع عمرو نظرة حائرة، وهنا استدار محمد ليسأل مباشرة:

- هل يمكن أن يأتي ابن السبعة مكتمل الصحة والحجم كابن التسعة؟

فوجئ شارل بالسؤال وتزايدت حيرته، وأردف محمد بأسلوب جاد:

- أنت الطبيب.. أنت تعرف.

أجاب شارل:

- المألوف أن يأتي ناقص الحجم. هذا إذا كُتبت له الحياة.

ازداد وجه محمد انقباضاً، ثم استأنف شارل مستدركاً:

- على أنه ليس في صناعة الطب قطعيّات مطلقة. ولله في خلقه شؤون لا يحيط بها الطبيب ولا غيره.. أعني هناك دائماً شذوذ عن القاعدة. وهذا إذا صحّ أن الحمل كان سبعة شهور. فكثيراً ما يخطئ الناس في الحِسْبة.

بعد أن شيّع شارل إلى خارج القصر، ارتد صامتاً مع عمرو الذي أدرك الموقف، فقال:

- لا تظلم يا محمد.

- هذا الذي أريد أن أجتنبه يا عمرو.. الظلم. ولا أجتنبه إلّا باليقين. وأين اليقين؟ لا مجال للخطأ في الحسبة، فإمّا أن يكون حجمه ذاك من القليل النادر وهو ولدي، وإما أن أمه لم تستبرئ قبل حصولها عندي، وإن شهدت بغير ذلك، فهو لغيري. فكيف أهتدي إلى اليقين؟ وشقرته يا عمرو.. نسيت أن أسأل شارل عنها، أو لعلي تعمّدت السكوت عنها.

قال عمرو:

- لا أحسب أنك تجهل ما أعلم يا أبا عامر.. ولا حاجة لنا بسؤال الطبيب عن هذا فهو كثير في خلق الله. فقد يرث أحدنا صفة من جدّ بعيد لا تظهر إلّا في واحد من الحفدة.. وقد اختلطت الأنساب في هذه الجزيرة كما تعلم..

أطرق محمد شارداً متفكراً، ثم قال عمرو:

- لأنْ يخطئ القاضي في التبرئة خير من أن يخطئ في التهمة.. هذه هي القاعدة التي تعلمناها معاً.

قال محمد:

- لا بأس، التبرئة هي الأصل مع غياب البيّنة القاطعة، وندفع الأحكام بالشبهات.. ولكن ما بعد ذلك؟ ماذا عن عمل القلب والضمير؟ هل يُكتَب عليّ أن أعيش العمر أنظر إلى ذلك الولد فأتساءل: أهو ولدي حقاً؟ فإن كان ولدي فإن السؤال ظلم ما بعده ظلم.. ولكن كيف لي أن أهتدي إلى اليقين؟

لأول مرّة يشعر عمرو بالإشفاق على ابن عمه القويّ الذي يشعّ قوةً وصلابة فيمن حوله. وخطر له أن الإنسان مهما يبلغ من القوة والشأن

والغَلَبة، قد تقهره الحياة بأهون الأسباب بدون عدوّ منظور أو سلاح مُشْهَر، بل ربّما غلبته نفسه على نفسه وإن استطاع أن يقهر خصومه جميعاً!

* * *

أرسل إلى درر من يأمرها بأن تهيئ نفسها للخروج، لتُحمَل إلى منزل آخر تقيم فيه وحدها مع من يخدمها. أما المولود فيبقى معها حتى يحين فطامه، ثم يردّ إلى قصر أبي عامر لينشأ فيه، ويرتّب لها أن تراه بين الفينة والأخرى. وهكذا خرجت حزينة تشهق بالبكاء. وكانت عائشة أشد الناس حزناً وإشفاقاً عليها. وكما يليق بامرأة في مثل نبلها قالت:

- ولدك يا محمد. نشدتك الله لا تظلمه بشك لا بيّنة عليه. ومهما يكن فإنه حياة نفخ الله فيها من روحه، فتظلمه فتبوء بإثمه.

قال:

- انتظرت أعواماً، فلما جاء كان هذا معه.

قالت:

- يأتي الطفل ولا شيء معه إلا فطرته التي فطره الله عليها. وإن كان الله قضى ألّا يكون مني ولد، فإني عزمت، حين يُرَد إلينا، أن أتخذه ولداً. أما أنت، فقد عزمت عليك أن تتزوج أخرى عاجلاً غير آجل.

وهكذا كان. ما لبث محمد أن تزوّج امرأة من أسرة معروفة من الموالي المتنفذين، تدعى الذلفاء. وكانت متوسطة الجمال ولكنها كانت قوية النفس ورثت عن أبيها تقديم المصلحة على أي اعتبار آخر. فلم يجذبها إلى محمد وسامته، ولا اختبرت عواطفها نحوه ولا عواطفه نحوها. حسبها منه مناصبه الرفيعة التي تحصّلت له في سرعة عجيبة تنبئ بمآلات أعظم مع قربه من الخليفة وأهل بيته. ولم تحاول أن تستحوذ عليه من ضرتها

عائشة، على الرغم من أنها أرفع من ضرّتها منزلةً ونسباً. كان ثمة تفاهم مضمر بينهما أنه زواج سياسة ومنفعة في المقام الأول. وأن غايته المقدَّمة هي الولد. وهذا ما قدّمته له بعد زهاء سنة فقط من الزواج حين أنجبت له ولده عبدالملك الذي سيحظى من أبيه بما لن يحظى بمثله وله عبدالله: الحبّ والرعاية، ثم التدرّب على شؤون الحكم والسياسة في قابل الأيام! ولأمر في نفسه، أصرّ محمد على الاحتفاظ بكنيته القديمة قبل الولد: أبي عامر، وألزم بها غيره!

كان يهمّ أن يخلو بنفسه حين طرق عليه كبير الخدم ليُعلِمه أن رجلا رثّ المظهر يلح على لقائه ويحلف بالله أنه لأمر خطير يفرّق بين الحياة والموت وأنه يخصّ السيد الوزير، فإذا ثبت كذبه فالوزير في حلٍّ أن يعاقبه عقاباً شديداً. وأبى مع ذلك أن يذكر اسمه.

هرع محمد إلى صالة الاستقبال. وحين استدار الرجل البائس كما تدل ثيابه المهترئة القذرة وشعره الأشعث، أخذ محمد يتفحّص هذا الرجل ذا اللحية الطويلة الكثة والوجه الملطخ بالوحل التراب، ومرّت لحظات قبل أن يتبيّن شخص الزائر الغريب، فكاد يهتف باسمه، ولكنه تدارك على نفسه وأشار للحارس الذي دخل به وكبير الخدم بالخروج. عندئذ فقط هتف محمد باندهاش:

- إبراهيم!!

لم يكن الزائر الغريب إلّا إبراهيم الحدّاد صاحب السجن. انحنى إبراهيم برأسه انحناءة خفيفة وقال:

- السلام على سيدي الوزير!

سأل محمد:

- فررتَ أم.. ؟

قاطعه إبراهيم وقال متهكماً:

- لا.. رجع الصقالبة عن غيّهم واستغفروا الله تعالى لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلّا الله! وأقسموا لا يتركونني حتى يشيّعوني إلى دار

صاحب الخزانة.. و.. المواريث.. ودار السكّة.. والشرطة والوسطى.. و.. الاحتساب! هل نسيت شيئاً يا سيدي؟

تبادلا نظرة عميقة، وفجأة اندفع محمد نحوه وعانقه بحرارة بينما حاول إبراهيم أن يتفلت منه قائلاً:

- مهلاً، مهلاً سيدي الوزير. لا تتسخ ثيابك.

تراجع محمد بضع خطوات وقد تنبهت ملامحه وسأل:

- لم يفطن إليك أحد غير حرسي؟

أجاب إبراهيم:

- وهل كنت أدخل عليك لو رآني غير حرسك! لم يكن الاهتداء إلى منزلك صعباً.. قلت: أي مكان آمَنُ لي من دار صاحب الشرطة الوسطى!

ثم صوّب إلى محمد نظرة استطلاع وتفحّص وقال:

- إن كان وجودي هنا يحرجك، أخرج من اللحظة.

قال محمد:

- دعك من هذا.. مع أني ما كنت أرجو فرارك.

رد إبراهيم:

- لأنك لم تختبر كالذي اختبرت.

أجال إبراهيم بصره في المكان الفخم، ثم عاد لينظر إلى محمد بإعجاب:

- قد صحّ رأيك في نفسك يا أبا عامر.. على أنه لم يصحّ في الصقالبة. فما زالوا على قبائحهم، بل ازدادوا سوءاً.

قال محمد مستشهداً بالآية القرآنية:

- خُلق الإنسان من عَجَل.

قال إبراهيم:

- أصبرٌ فوق هذا الصبر؟

قال محمد:

- ليس هذا أوان الحديث.. الحمّام أولاً ثم الطعام.

* * *

في اليوم التالي، بعد أن أصلح إبراهيم من هيئته وشذّب لحيته وارتدى من الثياب النظيفة التي وفّرها له محمد، وأصاب حظاً من النوم، شرح لمحمد ما جرى عليه في سجن الصقالبة منذ افترقا، وما ألزمه الفرار أخيراً. ففضلاً عن الضرب والتعذيب، وجد الصقالبة في المساجين منفعة كبرى في تسخيرهم للعمل في ضياعهم وفي شق الترع، وفلاحة الأرض والقطف والحصاد والتحميل. وكل ذلك مع قلة الزاد والضرب بالسياط. وقد رأى بعينيه بعض المساجين يسقطون أمواتاً تحت وطأة التعب والجوع والضرب وحرارة الشمس الساطعة.

فلما طال عليه الأمد في تلك الحال، وأدرك أنه لا خروج إلّا بالموت، قرر الفرار. فإن نجا فذلك ما كان يبغي، وإن هلك فإنه هالك في سجن الصقالبة على أي حال، وأسوأ من ذلك أن يتطاول به العمر في ذلك الجحيم. وهكذا تواطأ مع بعض أصحاب السجن أن يفتعلوا مشاجرة بينهم، وهم يعملون في بعض الحقول، حتى إذا انشغل الصقالبة بهم، اغتنم الفرصة ففرّ على وجهه؛ وهكذا كان.

كان عمرو وعليّ حاضرين وهو يقصّ عليهم خبره. وبعد أن فرغ تبادل عمرو ومحمد نظرة خاصة تنبه إليها إبراهيم، فقال:

- لن أطيل المكوث هنا.. سأخرج من الليلة إن شاء الله.

سأل عليّ:

- إلى أين، وهم.. أعني الصقالبة.. لا بدّ أنهم يبحثون عنك.

أجاب إبراهيم:

- أعرف أماكن في قرطبة لا يصلون إليّ فيها.. وعلى أي حال، لا أحسب أنهم يرغبون في أن يملأوا الأحياء بحثاً عني.. فيُنبهوا أهل الشأن والعامة إلى ما يتسترون عليه من سجونهم الخاصة وأهوالها. وما كانوا ليحتفظوا بي وبأمثالي ذلك الوقت إلّا للعمل في ضياعهم بالسخرة، وذاك وحده السبب الذي منعهم من قتلنا.. فما يلبثون أن يسكنوا عني..

رجع بجسمه إلى الوراء وقال بلهجة مفعمة بالتصميم:

- ولكن.. أنا لن أسكن عنهم هذه المرّة.

ران الصمت، وتبادل الحضور نظرات صامتة، حتى تدخّل عليّ فقال:

- تجمع العامة عليهم؟

قال إبراهيم:

- لي أصحاب كثيرون، وراءهم أصحاب كثيرون، وكلهم يتميّز غيظاً. وكانوا يراودونني على الخروج وأنا أقول: حتى لا يبقى سبيل آخر. وقد كان هذا الآن.

قال عليّ مستنكراً:

- فتنة في قرطبة؟ كفتنة الربض أيام الحكم بن هشام؟

قال إبراهيم:

- ذلك قول أبي عامر حين كنا معاً في السجن. يسمّونها فتنة، وأسميها طلب الحق ودفاع الرجل عن نفسه وأهله وماله وعرضه، فمن

مات دونها فهو شهيد. هذا حكم الله القائل في المؤمنين ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورى:39] ثم إننا لا نخرج على طاعة أمير المؤمنين.. ما نريد غير الصقالبة.

قال عليّ:

- إن لم تقصد أنت بها الخروج على طاعة أمير المؤمنين، صوروها له كذلك، فأرسلهم جميعاً عليكم، فإن أعياهم أمركم، أرسل عليكم جيش الحضرة، وهم أهلكم وإخوانكم، فلا تصيبون منهم إلّا ما تصيبون من أنفسكم.. وهنا.. هنا تقع الفتنة، ويختلط الحق بالباطل، فلا تخسرون دماءكم حتى تخسروا غايتكم.

ثم توجه عليّ إلى أبي عامر الذي بقي حتى الآن صامتاً، وبدا أنه ذهب في التفكير. قال علي:

- قل يا أبا عامر. أنت أفصح مني لساناً وأحسن مني حجة.

أضاف عمرو:

- وأبو عامر بعد يجمع بين الحالَين.. فهو الوزير فتى الدولة، وهو أشدّ الناس عداوة للصقالبة، وأحرصهم على العامة الذين جاء من أوساطهم.

شخصت الأبصار إلى محمد الذي أخذ يمسح على لحيته، ثم تحدث بصوت هادئ مخاطباً عليّاً:

- كل ما قلته صحيح يا عليّ.

لم يطل تعبير الارتياح في وجه عليّ، إذ تابع محمد:

- وكذلك ما قاله إبراهيم.

بدت الحيرة على الجميع، وقام محمد من مقعده وأخذ يشرح:

- حين كنت مع إبراهيم حيث كان، تحاورنا في هذا الأمر. و.. نعم.. قلت الذي قلتَه أنت يا عليّ، وما زلتُ عليه. وانتهينا عندئذٍ إلى أن غايتنا واحدة وطرقنا مختلفة. والآن أرى أن طرقنا تلتقي إذا أحسنّا التدبير. الخليفة أعزّه الله حريص على رعيّته، رؤوف بها. وهو يظنّ أن تعديات الصقالبة مما يمكن الإغضاء عن بعضه مع الكراهية، لقاء خدمتهم للخلافة. وقد راجعته في الأمر، وكان هذا حاله. يقول: لا يحسن بي أن آخذهم جماعةً بأخطاء قلّة منهم، إلّا أن تُرفع الظلامة إليّ على فرد بعينه، فأحاسبه بجرمه فوراً. والآن إذا جمع إبراهيم من يستطيع جمعهم، فهاجوا بمن يلقونه من الصقالبة، اتسع الأمر. فيعلم أمير المؤمنين أن هياج العامة ما كان إلّا عن جرائم متواترة عامة، وأن هياجهم ما يلبث أن يصير فتنة، وأن مغارم الإبقاء على الصقالبة قد صارت أكبر من مغانم خدمتهم. وأنا هناك أغتنم الفرصة لأحرِّض عليهم، فقد أمرني أن أكون عينه وسمعه في الرعيّة والعامة لقربي منهم في عمل الاحتساب، وخروجي من أوساطهم، فضلاً عن ثقته بي.

توجه إلى عمرو وعليّ واستأنف:

- هل تريان الآن كيف يمكن أن تلتقي طرقنا.. أنا وإبراهيم؟

أنا في حمى السلطان، وإبراهيم في حمى العامّة، فأحملهم ويحملونني إلى الغاية الواحدة التي فيها صلاح أحوال الرعيّة والراعي! .. وصدقت يا عمرو، لقد شاء الله أن أكون قسمةً بين الرعية والراعي. وبهذا التدبير يجتمع هذا.. وهذا.

وأشار إلى رأسه وساعديه.

ابتسم إبراهيم راضياً، ولم يجد عمرو وعليّ إلا التسليم، على شيء من الحيرة والتردد والحذر.

* * *

سرعان ما أثبت إبراهيم قدرته الفائقة على التجنيد والتدبير والقيادة. وكان حريصاً على تجنب إراقة الدم، فأمر جماعته ألا يستخدموا إلّا الهراوات الغليظة وقضبان الحديد ونحو ذلك من الأدوات، وعوّل على أسلوب المباغتة والكثرة للتغلب على مجموعات الصقالبة الذين يجولون الأسواق والأحياء ويتحرّشون بالناس، ثم يتركون لهم سبيلاً للفرار بعد تجريدهم من سلاحهم وإذلالهم على أعين الناس. وبعد سلسلة من الصدامات التي تغلب فيها جميعاً، صارت العامة إذا وقعت المباغتة تنضم إلى المهاجمين بما تقدر عليه من الأدوات، فيطبق الجميع على الصقالبة، فلا يطول الصدام حتى يُسلِّم الصقالبة ويخرجوا يجرجرون أنفسهم مع لعنات الناس.

فلما كثر ذلك جمع الخليفة وزراءه وقادة شرطته ومعهم الحاجب المصحفي ومحمد بن أبي عامر. كان الحكم يتحرك بعصبية ظاهرة غير معهودة ويتحدث منفعلاً:

- ربما صحّ أن نسميه شغباً لو وقع مرة واحدة.. ولكننا نعرف الآن أن وراءه تدبيراً، فهو أخطر وأكبر. وأخشى إن لم تتدارك الحال أن يتسع الخرق على الراتق.. أهذا كلّه يحدث في ملكي؟ ألم يكونوا يسمّون أيام خلافتي أيام العروس؟

قال قائد الشرطة الكبرى:

- إنهم نفر من الزعّار والدعّار واللصوص وأهل الفتن والمعاصي يا مولاي. لا تخلو منهم رعيّة ولا عصر.

تدخل محمد من فوره بنبرة هادئة واثقة:

- ما هم كذلك.

اتجهت إليه أبصار القوم وقد أخذتهم الدهشة. وسأل الحكم:

- فما هم يا محمد؟ أنت.. يجب أن تعلم أكثر من غيرك.

أجاب محمد متدفقاً:

- يا مولاي. قد فرض الله علينا النصيحة لله ورسوله وأولي الأمر منا. وبذلك فقط نفي سادتنا حقهم علينا. ولقد يتوهم البعض أن أحسن ما يحب السلطان سماعه إذا هاجت العامة أن يقال: شرذمة من الزُّعّار والدعّار وأهل الشرور والمعاصي. ولئن صحّ هذا مع السلطان الظالم المتجبّر، فإنه لا يصحّ في أمير المؤمنين، أعزه الله، الذي لا يكافئ عدله إلّا رحمته. وأولئك الذين هاجوا هم أجدر الناس بأن يعلموا مآثر أمير المؤمنين فيهم، وهو الذي ما يزال ينفق من خاصة ماله في تعليم أبنائهم وإغاثة ضعيفهم وعلاج مريضهم.وفيهم، علم الله، علماء وفقهاء ومؤدِّبون كرهوا ما كرهت العامّة. فهل هؤلاء زُعّار ودعّار وأهل فتن؟ وهل يصح أن يقال للسلطان العظيم: أنت أعظم الناس، ولكنك ابتليت برعية جاحدة جُلها من أهل المعاصي والشرور؟

قال الحكم بنبرة قوية قاطعة:

- اللهم لا.. اللهم لا.. فالمأثور: كيفما تكونوا يُوَلَّ عليكم. فلا تُتَّهم الرعيّة على الجملة إلّا بقدر ما يُتَّهم سلطانها. وقد أصبت يا محمد وأخلصت النصيحة.. كالعادة!

وطاف بنظره في الآخرين.. ثم أكمل:

- ولكن.. إن كانت الرعيّة قد كرهت أشياء من فتياني حتى هاجوا بهم، أفما علموا أنهم بهذا ينالون من هيبة الحكم والخلافة؟ وإن لم يكونوا من أهل الفتن والشرور فما أهونَ أن يندسّ بعض هؤلاء فيهم، يريدون غير ما يطلب الناس: النهب مثلاً. بل ربّما دخل بينهم خصم من خصوم السلطان نفسه لا يطلب إلّا مآربه، فيفسدوا ما حقه الإصلاح، ثم لا ينماز الخبيث من الطيب. و.. نعم، لأُلقيَنّ على فتياني قولاً ثقيلاً، فإما ارتدعوا، وإما نكبتهم واستبدلت بهم غيرهم.. ولكن..

أخذ الآن يهز إصبعه أمام الحاضرين قبل أن يكمل بنبرة حازمة:

- الخليفة القوي الحكيم، يوازن بين الأضرار والمنافع.. بين مطلب العدل والرحمة ومطلب هيبة السلطان. فإذا هاجت العامة لمظلمة لَحِقتها من أحد خدمه وعُمّاله، كان حقاً عليه أن يرفع المظلمة دون أن يذهب بهيبة السلطان. فإذا تعجّل في نكبة خدمه وعُمّاله والهياج قائم، قيل أذعن وخضع، وظنوا به وبدولته الضعف. فإن كانوا قد هاجوا تلك المرة بحق يطلبونه، هان بعدئذٍ على أهل الشرور والمعاصي وخصوم السلطان أن يشقوا عصا الطاعة في باطل، ويطمعوا فيما هو بيد السلطان. هذه هي القاعدة.. ولذا يرتدع الفتيان، نعم. ولكن تسكن العامّة في الوقت نفسه. فإن لم تفعل وأصرّ محرضوها على المضيّ فيها حتى أنكب الفتيان وأخرجهم من قصري على الجملة، فقد ألزموني الشدّة والحزم، مهما يكن الثمن. وذلك أنه مهما يكن فلن يكون أعظم من ضياع هيبة الحكم حتى ينفرط عقد الدولة ويسعى إليها كل طامع، فيتفرق الشمل وتضطرب الأمور ويضيع أمن الرعية وتضيق معايشها. وهذا لا يكون في عهدي وأنا حي أُرزق.

إذ فرغ من كلامه القوي الحكيم مضى خارجاً نحو الدهليز بخطى ثابتة لم يعهدها القوم فيه منذ زمن، وقبل أن يغيب التفت إلى الحضور وقال:

- جعفر ومحمد.. امكثا حتى أرجع إليكما..

* * *

فوجئ كبار الفتيان بالخليفة يندفع داخلاً إلى مجلسهم الخاصّ، فقاموا من فورهم وانحنوا له، وهتف فائق:

- أمير المؤمنين!

قال الحكم دون تريّث بلهجة حازمة مشوبة بالغضب:

- نعم، أمير المؤمنين. والمؤمنون هم كل رعيّتي. لا يختص فتياني بهذه الصفة دونهم.

قال فائق:

- معاذ الله أن نقول غير ذلك يا مولاي.

قال الحكم:

- وما الجدوى أن تقولوا ثم تكذّب أفعالكم أقوالكم. وما زلت أسمع بشكوى الناس وأقول: أعمال عارضة، وهؤلاء أهل خدمتي وزينة دولتي، حتى كان هذا. وأنا والله لا يواسيني أن يقال: قد كرهوا ما كرهوا من الفتيان مع حبهم لأمير المؤمنين. فأنتم خدمي ومماليكي. مآثركم منسوبة إليّ، وكذلك معايبكم. فإن قيل. الخليفة لا يعرف، فتلك مصيبة، وإن قيل يعرف ويكره ولكنه لا يُغيّر، فتلك مصيبة أكبر.

تريّث لحظة والتقط أنفاسه وقد بدا عليه الإرهاق الآن. ثم استأنف:

- وأنا.. أنا لا أحب أن أضحي بكم. ولكني أيضاً أمير المؤمنين، ويضرّني ما يضرّ رعيتي، فلا تجعلوني بين حَجَريْ الرحى، فإما الرعية وإما خدمي وخاصة قصري. وقد علمتم أنه لا راعي بلا رعيّة. وما لأصحابكم الفحولة وغشيان الأسواق ومزاحمة مناكب الناس؟ هه! أما نكفيهم حاجاتهم في الزهراء وما حولها؟ وأنتم، قدّمتكم وجعلتكم رؤساءهم، يأتمرون بأمركم، وهم أهل السلاح دونكم. وأنا أحلف بالله لئن لم تردعوهم فيرتدعوا، لأُسلّطنَّ عليكم غضبي، لتعلموا أن الحكم المستنصر ليس أطرى لحماً من أبيه الناصر، إذا حزب الأمر وحان وقت الحزم. وأنا ناظر ما تصنعون!

لم يتمهّل ليسمع منهم، وغادرهم يتبادلون النظر فيما بينهم وقد طاف بهم طائف من الخوف والوجوم.

* * *

خلت أسواق قرطبة وطرقاتها من الصقالبة مرّة واحدة، وتنفس الناس الصعداء، وتبادلوا التهاني وقد ازدادوا يقيناً أن الحق يؤخذ ولا يُمنح في الكثير من الأحيان، وأن الخوف لا يُفرّخ إلّا المزيد من الخوف والمظالم. ولئن سكنت الأسواق فإن إبراهيم قد عزم ألّا يسكن حتى تُسْتأصَل شأفة الصقالبة ويُطردوا من الخدمة. وحجته في ذلك أن الأفعى لا بدّ أن يغلب عليها طبعها، فإن أوت إلى جحرها وقتاً فلا بد أن تخرج بعد حين إذا تراخت أسباب الردع وعاودها الجوع. فطَلَب الصقالبة خارج المدينة، في الطرق الخارجية والشعاب والضياع، ونصب لهم الكمائن وباغتهم في هجمات عدّة. وهذه المرة لم يسعه أن يتجنب سفك الدماء، فقُتِل اثنان من الصقالبة، ورجلٌ من جماعته.

* * *

كان محمد على مائدة العشاء مع عمرو وعليّ حين قال:

- أظن أن نهاية الصقالبة قد غدت وشيكة. ألم أقل لكما إن طريقي وطريق إبراهيم يمكن أن يلتقيا إذا..

قاطعه عمرو الذي يأبى بطبعه إلا أن يقيم الميزان وإن أزعج ذلك ابن عمّه:

- إلّا أنك تجلس هنا تأكل من هذا الطعام الطيب، وإبراهيم هناك يُهْدف نحره لسيوف الصقالبة، ثم يختبئ في غرفة وضيعة لا حصير فيها.

كان محمد قد ألف ذلك منه، يعينه على احتمال غمزه محبته الشديدة له فقال:

- ماذا أفعل إذا كانت هذه سنة السياسة والدول.. رأس وجسد!

قبل أن يعلّق عمرو من جديد، اندفع الخادم داخلاً يرافقه رسول الخليفة الذي قال:

- أمير المؤمنين يأمرك بأن تشخص إليه من ساعتك.

حين دخل على الخليفة في مجلسه الخاص، ابتدره الخليفة فوراً بالقول:

- أما الفتيان فقد احتجبوا عن الأسواق والأحياء. ومع ذلك لم يكف الآخرون. تعلم أن بعض الفتيان يخرجون ببريدي إلى عُمّالي وولاتي، وتلك كتبي.. أوامري التي أُسَيِّر بها دولتي. وفيها أسرار لا ينبغي لأحد أن يطّلع عليها غير من وُجِّهت إليه. وإذن فقد أعطى الصقالبة ما فرضتُ عليهم، ولم يُعط الطرف الآخر. فقد خرج الأمر عن حدّه، وصار ضد الخلافة، سواء أراد ذلك الخارجون أم لم يريدوه. فاقتضى الحزم. ولا أرى صاحب الشرطة العليا يحسن عمله، وهو المسؤول الذي تناط به هذه الأمور. فإما أن أدعو جيش الحضرة، وهو ما أحاول اجتنابه، فإن الجند إذا تولوا عمل الشرطة ربما أفرطوا كعادتهم في القتال، وإمّا.. أن أُبدّل صاحب الشرطة العليا وأستعمل في مكانه من جرّبتُه في كل أمر، فلم يخفق في واحد منها..

تنبهت ملامح محمد وقد أدرك المغزى، واستأنف الحكم:

- نعم، أنت يا أبا عامر. أضمّ إليك الشرطة العليا فضلاً عن الوسطى وأعمالك الأخرى.

تريّث لحظة قصيرة ثم أكمل مستدركاً وقد رفع إصبعه:

- ولكن، إذا أخفقت في إخماد الشغب.. أو الفتنة.. سمّها ما شئت، راجعت رأيي فيك! ثم آمر جيش الحضرة فيقمع ما عجزت وغيرك عنه. هل تعي قولي؟

* * *

هذا ما لم يكن يتوقّعه! فعلى الرغم من المنصب الجديد إلى جانب مناصبه الأخرى، وما ينم عليه ذلك من ثقة الخليفة، فقد وضعه الأمر في

اختبار شديد، وقلب عليه قواعد التدبير، حتى صار عليه أن يخمد النار التي تواطأ مع إبراهيم على إشعالها! ولم يملك عمرو إلّا أن يطلق ضحكة خفيفة ساخراً من مفارقات الأيام وتقاليب الأحداث، وقال مخاطباً أبا عامر:

- وكنت تقول: طريقكما يلتقيان.. رأس وجسد.. أنت في حمى السلطان وهو في حمى العامة تحملك وتحملها.

ردّ محمد بضيق وهو يتمشى في مجلسه قَلِقاً:

- ألا تحسن غير هذا؟

ثم نفخ وقال:

- ما الذي أبطأ بهما؟!

كان قد أرسل علياً ليأتيه بإبراهيم من مخبئه، وكان عليّ صلة محمد بإبراهيم. ولم يلبث الاثنان أن وصلا متسترين بظلام الليل، وما أن دخلا حتى كشف إبراهيم اللثام عن وجهه. وابتدره محمد بالقول:

- تأمر أصحابك فيسكنوا من فورهم، ويعود كلٌّ إلى بيته. قد انتهى هذا الأمر.. أعني في هذا الوقت.

- ألهذا أرسلت في طلبي الساعة؟ ما الذي غيّر رأيك، أم تذكرت أنك صاحب الشرطة الوسطى؟

قال محمد:

- والآن، الشرطة العليا كذلك.

تحولت ملامح إبراهيم إلى تعبير الصدمة، ثم انطلق بالضحك، وقال:

- إذن لم أخطئ. عليك الآن أن تتولّى أمر القضاء علينا.. هل استدرجتني لتتقبّض عليّ؟

مدّ ذراعيه وأكمل قائلاً:

- دونك فافعل!

قال محمد:

- دعك من هذا. قد ارتدع الصقالبة وتحصّلت الغاية..

ثم استدرك بالقول:

- الغاية العاجلة.

قال إبراهيم:

- ولكن، لم يكن هذا اتفاقنا. لا أقلّ من أن يخرج الصقالبة من خدمة أمير المؤمنين، فنأمنهم إلى الأبد.

ردّ محمد بلهجة حازمة:

- تلك هي الغاية الآجلة. ومن أجلها يجب أن نقنع الآن بالغاية العاجلة التي تحققت.

قال إبراهيم:

- لماذا يجب أن نطيعك الآن وقد قطعنا هذا الشوط. فإن الذي حقق الغاية العاجلة كما تسميّها، يحقق الآجلة، ولا ينتظر ولا يتراجع.

أجاب محمد:

- هنا تخطئ يا إبراهيم. أنصِت إليّ جيداً! قد أناط بي الخليفة إنهاء هذه الفتنة..

علق إبراهيم مقاطعاً:

- فتنة! صارت الآن فتنة؟

استأنف محمد بنبرة أقوى:

– لا تدقق في الألفاظ وانظر في الفَحْوى. إن لم أفعل ما أمرني به، فإنه يراجع رأيه فيّ، ثم يسلّط عليكم جيش الحضرة. وأنا ما زلت منذ وقت أقوّي جيش الحضرة بالمال والرجال من عامّة أهل الأندلس وأبناء العرب، فهل يكون أول عمله قمع إخوته وأهله فينفر منه الناس ويُحبط فيه جهدي؟ أهذا ما تريده حقاً؟ وإذا كان جيش الحضرة قادراً على القضاء عليكم، فنكون قد أحبطنا عملنا كلّه. أنتم تذهبون وأنا أُصْرَف عن عمل الدولة إلى الأبد، وجيش الحضرة يستجلب على نفسه كره العامة فينصرفون عنه.. والصقالبة.. الصقالبة يبقون، ويعودون أشد ظلماً ونكيراً. ولن أكون هناك عند الخليفة أُبَصّره بأعمالهم، ولن أكون هناك حين يأتي الوقت ويتولّى الأمير هشام، وأنا وكيله والناظر عليه، وذلك هو الوقت.. وقت الآجلة!

* * *

مكتبة
t.me/t_pdf

ساحر إنه والله لساحر!

لم يجد الحكم ما يصفه به غير هذا عند صبح.. وكان يتحدث منبهراً:

– شهور والآخرون يحاولون إطفاء الفتنة دون جدوى، حتى إذا ضممتُ إليه خطة الشرطة العليا وأناطت به المهمّة، انطفأت النار كأنها لم تكن.. كيف استطاع ذلك؟ لا أدري.. نعم، هو ساحر.

توقف لحظة قصيرة ثم أردف بنبرة غريبة:

– وإني لخائف عليه.

تنبهت ملامحها ونظرت إليه مستطلعةً وقالت:

– ممّن؟

فاجأها بالقول:

- مني!

سألت متحيرةً:

- منك؟

قال:

- رجل في مثل مواهبه، لا يفيد السلطان منها إلا بقدر ما يخشاها.

قالت:

- ولكنك لست أي سلطان.. أنت الخليفة الحكم، ومآثر الفتى مردودة إليك. وهو صنيعتك.. فلا أنت بالسلطان الضعيف الذي يخشى خادمه على سلطانه، ولا هو بالخادم الذي يصرف مواهبه في غير خدمة سلطانه.

قال:

- فماذا إذا انقضى أجلي وولدي بعد صبيّ. ألا أخشاه على سلطان ولدي فيصير المتحكم بأمره؟

قالت:

- بل المدبّر له، الحافظ لعهدك فيه، حتى يشتدّ عوده.. أطال الله عمرك يا سيدي.

توقف الحكم وأرسل نظرة في البعيد، ثم قال بأسلوب تأمّلي:

- ما أكثر مفارقات الحياة! لا يزيد حبنا للشيء حتى نخشاه، أو نخشى عليه، ولا يشتدّ إعجابنا بالرجل حتى نخشى أن تنقلب قوته علينا بعد أن كانت لنا. وتلك هي شقوة السلطان!

هز رأسه يميناً وشمالاً ثم استأنف:

- أما السلطان القوي الطاغية، فلا يُبقي في جواره إلّا الضعيف العاجز، فإذا انقضى أجله انقضت قوّة دولته. وأما السلطان الضعيف فيغري بضعفه الأقوياء الطامعين، فإذا مات نازع بعضهم بعضاً حتى ينفرط عقد الدولة.

قالت وهي تربّت على كتفه:

- لست أيّاً من هذين؟

استأنف قائلاً:

- وأما السلطان القوي الذي لا تغريه قوته بالطغيان، فيجتهد أن يستعمل القويّ الأمين صاحب الموهبة والقدرة، ولكنه يبقى منه في حذر. كلما زادت صنائعه ومآثره سَرّه ذلك منه، ثم خشي أن يصيبه العُجْب والغرور، فتغلب قوته على ولائه، ثم يتطلع إلى السلطان نفسه، يقول: لولاي لما كان كذا وكذا، فأنا أحق بها لما بذلت فيها. ثم يلتمس لنفسه المعاذير، ويجتهد في التأويل، يقول: قد كان لي السهم المُعَلّى في هذا البنيان العظيم، وأخشى إن صُرِفت عني وصارت إلى غيري أن يُفسد ما أصلحت، ويهدم ما بنيت، فصار من حق البنيان، أولاً وفوق كل اعتبار، أن أبقى المتصرّف فيه، حفظاً له وصوناً لمآثره. فبقاؤه من بقائي، ورِفعته من رفعتي، حتى لو اقتضى الأمر أن أزيح عنه كل من يعترض مهمّتي وغايتي.. وهنا.. هنا يا صبح تبدأ الغاية العظيمة بالفساد، وتنقلب القوة استئثاراً وطغياناً واستبداداً، ويتحوّل خادم السلطان القوي المقتدر إلى سلطان متجبّر، ويتحول الملك إلى جبريّة ينازع عليها كل قوي طامع، يقول: إن صحّت لفلان وهو لم يرثها من آبائه فلماذا لا تصحّ لي! أرأيتِ شقوة السلطان يا صبح؟

قالت:

- قد ذهبت بعيداً يا مولاي، ولا يكون أبو عامر يوماً هذا الذي وصفت.

قال:

- ربّما، ربما ذهبت بعيداً. لعن الله الشيطان. حين استحق منا الجائزة خامرتنا الوساوس.

رفع رأسه ونظر إليها، ثم قال:

- خيط دقيق بين أن تُعْجب بالرجل وأن تغبطه.. أو تحسده! خيط دقيق.

قالت:

- حاشا أمير المؤمنين.

قال:

- شقوة السلطان يا صبح! شقوة السلطان!

* * *

إذا كان الخليفة نفسه قد شاب إعجابه شيء من القلق، فقد خلّف إنجاز أبي عامر العظيم في وأد الفتنة -كما يقال- المزيد من التخوف والقلق والبغضاء عند الكثيرين من أصحاب الشأن في الزهراء. ولكن هشاماً المصحفي، ابن أخي الحاجب انفرد عنهم بالشك والتشكيك. وصارح بذلك عمّه الشديد التحفظ بطبعه، فقال الحاجب:

- سبحان الله، إذا أخفق الرجل قلنا لا نفع منه، فإذا أجاد وأحسن، شككنا في أمره، وقلنا: ما وراء نجاحه؟ ألا يبرّئ الرجل نفسه إلّا بالموت؟

قال هشام بثقة:

- لا والله ما ذهبتُ بعيداً بظنوني يا عمّاه.. أعني مهما تكن مواهبه.. فتنة تمتد شهوراً، ويعجز عن إخمادها رجال نشهد لهم، حتى إذا تولّى الأمرَ هذا الثعلب خمدت مرّة واحدة.

تفحّصه المصحفي وسأل:

- ما الذي ترمي إليه؟

قال:

- لا يحتمل الأمر غير تأويل واحد. هذا رجل جاء من العامة، وله فيهم أسباب وصلات.

رد المصحفي:

- إذن استعمل صلته وصحبة العامة له، فسكنت به الخواطر. فأيّ بأس في هذا! قد مَدَحْتَه من حيث أردت أن تطعن فيه.

قال هشام:

- وما يدرينا أنه لم يكن على صلة برؤوس الفتنة منذ أول الأمر، خرجوا بعلمه، وسكنوا برأيه، فأصاب من ذلك عند الخليفة حظاً عظيماً فوق حظوظه المتواتِرة.

قال المصحفي:

- نعم، ما يدرينا؟ وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً. وعلى كل حال، أمَرَ الخليفة بالأمان لكل من كان له يد في تلك الأحداث فلا يلاحق أحد من رعيّته.. والآن بدلاً من صرف الجهد في التهمة، فإن الأجدى أن تصرفه أنت وابن عمك، ولدي، في صنع مآثر تنافسان بها أبا عامر عند الخليفة. ولكما عليه درجة الصلة بي.. أنا الحاجب.. صاحب الدولة. فبم تعتذران بعد ذلك؟

* * *

عاد إبراهيم إلى عمله في سوق الحدادين. وكان يطرق الحديد حين فاجأه صوت محمد بن أبي عامر بالسلام. فلم يكن يتوقع أن يزوره الوزير

فتى الأندلس في مكانه على مشهد من الناس. وفاته أن هذا ما أراده أبو عامر، وكان في صحبته عليّ. وما هي حتى ميّزه جيران إبراهيم وبعض المارّة فالتفوا حوله. وهتف أحدهم منبهراً:

- السيد الوزير!

التفت محمد وقال متواضعاً:

- بل قل: أبو عامر.. أبو عامر.

ثم خاطب إبراهيم الذي بدا مبتهجاً بالزيارة:

- هل تحسن صنع السيوف حقاً؟

تدخل أحد رفاق إبراهيم قائلاً:

- يُحسِن صنعها ويحسن استعمالها.

سأل محمد:

- ألا تبيعني واحداً منها؟

أجاب إبراهيم:

- لا تليق بالسيد الوزير، إذ لا حلية لأغمادها.

سأل محمد:

- تقطع؟

تناول إبراهيم شيئاً من صنعه ونقر على حافته بظفره على نحو يبدي حدته وأجاب:

- عدوَّك يا أبا عامر!

قال محمد:

- وما نطلب من السيف غير ذلك؟ .. هات.

أخذ السيف وقلّبه ثم قال:

- بكم؟

أجاب إبراهيم دون تدبّر:

- بالعهد!

تبادل ومحمد نظرة خاصة غامضة، واستدرك من فوره:

- أعني عهد المودّة! و.. زكاة جاهك في رعاية هؤلاء الناس.

وأشار إلى الجمع الذي احتشد في المكان.

قال محمد:

- أما هذا فيُبذل حبّاً وكرامة. لا يُباع ولا يشترى.. وهو لَعَمْرُ الله مبذول مبذول.. لا نغيّر ولا نتغيّر.

قال إبراهيم:

- ونحن كذلك يا أبا عامر، لا ننزع أيدينا ممن يبسطها لنا حتى ينزعوا.

هتف أحد الحضور:

- كل أهل الصنائع على مذهب عريفنا إبراهيم. ونحن لأمير المؤمنين تَبَع، ثم لكم.

في هذه اللحظة أقبل حمدون ولد إبراهيم مهرولاً، فأوسع له الحشد، وصاح مبتهجاً وهو يطوق أبا عامر، على عادته حيث كان يزور بيتهم مع عائشة في غيبة إبراهيم:

- العم محمد.. العم محمد.

تدخل إبراهيم بسرعة وزجره:

- إششششش أيها الصبيّ إنه الوزير.

قال محمد:

- بل العم محمد.

رفع الصبي وعانقه بحرارة بين إعجاب الناس ولغطهم. حين غادر المكان تخلّف عنه عليّ ليهمس في أذن إبراهيم أن أبا عامر يدعوه بعد صلاة يوم الجمعة إلى نزهة وطعام في منطقة الرصافة.

همس إبراهيم:

- حدّاد في صحبة السيد الوزير وأصحابه؟

اكتفى علي بابتسامة وهزّة رأس، ثم انفتل مبتعداً.

تلك كانت البقعة التي اختارها صقر قريش، عبدالرحمن بن معاوية الداخل، ليقيم فيها قصره، وسمّاها منية الرصافة تيمّناً بمنية الرصافة في الشام التي كانت لجدّه هشام بن عبدالملك، آخر خلفاء بني أمية الأقوياء قبل بداية انهيار دولتهم في المشرق. وهنا في مكان ما زرع أول نخلة في الأندلس بعد أن أرسل من استجلبها له من المغرب. والنخلة عمّة العرب كما كانوا يقولون. والرجل الذي ملك الأندلس وجدّد ملك آبائه في المغرب بعد زواله في المشرق، ظل يشعر بالوحدة والغربة في ملكه، ويحنّ إلى منبته في أرض الشام. فكان إذا استوحش وذكر الشام وأهلها وغلبه الحنين، خرج فوقف عند تلك النخلة اليتيمة، ثم حام حولها.. يتوحّد بها ويرى فيها مثيله في الغربة والوحدة! أما الآن فالمكان يمتلئ بالنخيل.

وقف محمد يجيل بصره في المكان، وخلفه يقف عمرو وعلي وإبراهيم. رفع ذراعيه وهتف قائلاً:

- ترى أي هذا النخيل نخلةُ الداخل؟

ثم أخذ ينشد أبياتاً قالها الداخل في تلك النخلة وحُفِظت عنه:

تبــدّت لنــا وسْــط الرصــافة نخلــةٌ

تنــاءت بــأرض الغــرب عــن بلــدِ النخــلِ

فقلــت شــبيهي في التغــرّب والنَّــوى

وطــولِ الثنــائي عــن بَنِــيَّ وعــن أهــلي

نشـــأتِ بـــأرضٍ أنـــتِ فيهـــا غريبـــةٌ

فَمِثلُـــكِ في الإقصـــاء والمنتـــأى مـــثلي

ذهب في تأمّل عميق، ثم قال:

- أحسّ بروحه تطيفُ في المكان، نعم هذا هو المكان.. هنا أقيم حيث أقام الداخل إن شاء الله.

تقدّم عمرو خطوات وسأل:

- تبني هنا؟

هز رأسه دون أن يتحوّل ببصره عن النخل.

مرّت لحظات صمت، قبل أن يسأل عليّ:

- هذا التعلّق بصقر قريش. كأنك تجد شبهاً بينكما!

هز محمد رأسه وقال:

- لا أشبهه إلّا لأُفارقه.

قال عليّ:

- ولكنك لست..

قاطعه محمد وأكمل عنه:

- لست أميراً، ولا أنا سليل الدوحة الأمويّة. وقد يكون النَّسب غير نسب الدم.. نعم.. كان أميراً ولم أكن، ولكنه خرج وحيداً شريداً من الشام فارّاً على وجهه، وقد صارت الإمارة مغرماً. ولم يصطحب معه إلّا خادمه بدرا، فقطع البحار والقفار، ونزل الجزيرة وحده، فذلل الصعاب، وقهر الجبارين، ثم جلس على العرش؛ لم تُبَلِّغه إياه إلّا همته وإرادته، وحلم قديم راوده فحقّقه!

قال عمرو:

- ومع ذلك أنت لا تتمثّله الآن إلّا لتطلب الدولة التي خلّفها.

أجاب محمد بثقة ملهمة:

- لأحفظها وأعدل ميزانها. أحفظ ما حقه الحفظ من أثر الداخل: الدولة العظيمة، الوطيدة الأركان، وأزيل ما حقُّه الزوال، من أثَره أيضاً.

لأول مرة يتحدث إبراهيم:

- الموالي والصقالبة.

استأنف محمد:

- وأصل إلى حيث لم يصل سلطان قبلي.. إلى أقصى جبال جلّيقية، فأكمل عمل أجدادنا الفاتحين.

استدار ملتفتاً إليهم وقال:

- ألم أقُل، لا أشبهه إلّا لأفارقه؟

هنا سُمع صوت إبراهيم هامساً كأنه يحدّث نفسه وقد أطرق برأسه متفكراً:

- واصطحب معه خادمه بدرا!

اتجهت إليه الأنظار، فرفع رأسه واستأنف بصوت أقوى:

- أي خادم ذاك؟ بدر! يسبق سيّده إلى الجزيرة، فيوطئ له، ويعقد الأحلاف، ويجمع الأنصار، ويميّز الأعداء، حتى إذا لحق به سيّده نزل في شوكة من أهل الجزيرة، ثم إذا ملك ولّاه الجيش، فكان له بلاء عظيم في توطيد الدولة، حتى تغير عليه الداخل فنكبه.. خادم؟! يفعل هذا كلّه! ثم نقول: واصطحب معه خادمه بدرا!

ترك كلام إبراهيم وقعاً خاصاً، فزاد عليه عمرو مخاطباً محمداً:

- إن شئت الحق، فأنت منهما معاً: شطر من صقر قريش، إلّا أنك لست أميراً أمويّاً، وشطر من بدر، إلّا أنك عربيّ الأرومة.

قال محمد:

- على أني بخلاف بدر لن أترك أحداً ينكبني حتى يذهب جهدي سُدى، وهباءً منثوراً، يُنْسب لغيري دوني، ثم أغيب في النسيان! فليكن إذن، أنا بعض الداخل، أفضل بعضِه، وبعض بدر: أفضل بعضه، فأصيب ما أخطأه كل منهما، وأسدّ بأحدهما فوات الآخر وثغرته، وبذلك يعتدل الميزان.

استدار عنهم من جديد لينظر في نخل الرصافة.

أخذ هشام الذي بلغ الآن العاشرة من عمره يتفلت من المربية التي تحاول أن تحمله على الطعام وهو يأبى بنزق أورثه إياه كثرة الدلال وشعوره المبكر بمنزلته. وركض من أمامها وهي تلاحقه عبر الردهات والأبهاء الداخلية في الزهراء، والمربية تصيح من خلفه برجاء:

- لم تتناول طعامك يا سيدي.

قال معانداً:

- لا أريد.

قالت:

- تعاقبني السيدة.

قال مستخفاً:

- أفضل.

- أناشدك يا سيدي.

صاح بها:

- قلت: لا أريد.. حمقاء أنت؟ مجنونة؟

واندفع دون تدبير إلى الديوان الذي خُصِّص لاجتماع أبي عامر به وبأمّه، بوصفه الآن الناظر على تعليمه وتأديبه، فضلاً عن أنه الناظر على أملاكه وأملاك أمّه. فكان يأتيه بالمؤدّبين الذين اختارهم له بنفسه ليتلقي

الدروس في هذا الديوان الخاصّ. وقد سهّل عليه هذا الترتيب اللقاء بصبح مع وجود أهل الخدمة عند الأبواب، ودخولهم عند الطلب.

وإذ اندفع هشام إلى داخل الديوان، وجد محمداً واقفاً منتصباً جامد الملامح يصوّب إليه نظرة صارمة. توقف هشام من فوره وتغيرت ملامحه من تعبير الاحتجاج والنزق إلى السكون والحياء. تبادل نظرة مع محمد ثم أغضى، والمربية لدى الباب تنظر. ثم قال محمد بنبرة مصطنعة:

- مولاي!

بقي هشام في مكانه متسمّراً، بينما اقترب محمد منه بهدوء، وقال بلهجة هادئة ولكنها متسلطة في الوقت نفسه:

- والآن، ماذا يحدث؟

تدخلت المربية وقالت:

- أدعوه إلى طعامه يا سيدي، ويأبى. وقد أمرتني السيدة ألا أتركه يخرج إلى اللهو حتى يتناول طعامه.

أرسل محمد نظرة أبويّة صارمة إلى هشام، وسأل:

- ماذا يقول سيدي هشام؟

أجاب هشام بصوت ينمّ عن الخضوع وهو مطرق:

- لا أريد الطعام.

انحنى محمد عليه قليلاً، وقال:

- تتعجّل إلى اللهو؟ هه! لا ترغب في الطعام؟ ليس كل ما يجب أن نفعله هو مما نرغب فيه دائماً، ومع ذلك نفعله. وليس كل ما نرغب فيه نفعله!

اعتدل محمد بجسمه، وضم ذراعيه وراء ظهره، وقال بلهجة لم يُخْفِ تلطفها ما تنطوي عليه من أمر:

- والآن، لماذا لا يعود سيدي هشام، فيتناول طعامه.. كُلَّه.. ثم يخرج للعب واللهو كما يشاء. هه؟ ومن يدري، ربّما خرجت معه فلَهَوْنا معاً!

بدون تردد هذه المرة، ارتد هشام مع المربية ممتثلاً للأمر. وهنا برزت صبح التي كانت ترقب الموقف لدى الباب دون أن يلحظها أحد. تبادلت ومحمد نظرة عميقة، ثم قالت:

- إنه ليهابُك كما لا يهاب أحداً.

قال محمد:

- لا أدري إذا كانت هذه هي الكلمة المناسبة. وهل أجرؤ على إخافته فيخيفني غداً إذ هو الخليفة؟ أطال الله عمر أمير المؤمنين.

قالت:

- على كل حال، إنه يحتاج إلى قدر من الحزم، إذ يوشك حب أبيه أن يطغى على كل اعتبار آخر.

قال وهو يحدِّق فيها بشغف:

- الحب يصان بالتدبير.

* * *

على بسيط عشبي شذّب بعناية، وقف هشام وبيديه مضرب خشبي خاص وأمامه على الأرض في مكان مخصوص كرة صغيرة، ومقتضى اللعب أن يضرب الكرة في اتجاه حفرة على بُعد عشرين ذراعاً لتسقط فيها. وقف محمد قريباً منه يراقب. هز المضرب واتخذ بجسمه

الوضع اللائم، ثم نظر وقدّر، ثم ضرب الكرة بالقوّة والميل المناسبين على تقديره. وكان تقديره وتسديده صحيحين، إذ سقطت الكرة في الحفرة، فصاح مبتهجاً وهو يرفع ذراعيه.

- أصبت.. أصبت!

قال محمد مبتسماً:

- دوري الآن.

سدّد وضرب، ولكن الكرة انحرفت قليلاً عن الحفرة في آخر الأمر بعد أن بدا أنها تتجه إليها وعلى وشك أن تسقط فيها.

هتف هشام بصوت أقوى وأكثر ابتهاجاً:

- أخطأت.. أخطأت.. أنا الفائز.

قال محمد:

- مهلاً، مهلاً. لم نفرغ بعد.

هنا سُمع صوت الحكم يقول:

- قد فاز ولدي يا أبا عامر. أفلا تقرّ بهزيمتك؟

لم يتنبه محمد لوصوله مع صبح قبل ذلك. فاستدار وانحنى له وقال:

- أُقِرّ وأعترف يا مولاي.

وتبادل مع صبح نظرة خاطفة، بينما طوّق الحكم ولده بذراعه، وقال:

- إن كنت قد غلبت فتى الدولة، فليس في وسع أحدٍ أن يغلبك. والآن وقد فرغتَ من فتى الدولة، فقد آن حظ أبيك فيك.

هتف هشام بحماس:

- تلاعبني؟

أجاب الحكم ضاحكاً:

- لا ينبغي للخليفة أن يدخل في منافسة يعلم أنه يخسرها. ألا تحب أن تتمشى مع أبيك؟

ثم التفت إلى صبح وقال:

- وأمك؟

وضع الحكم يده على كتف ولده وأخذا بالمشي متقدّمين على صبح. ولكن هشاماً الذي ظلّ قلبه معلّقاً باللعب التفت وراءه، فالتقط بصره أمه ومحمداً يتبادلان النظر، وإذ تنبّها لذلك أسرعت صبح لتلحق بالحكم وولدها. ووقف محمد في مكانه يشيعهم بأنظاره. ثم وضع الكرة التي كانت بيده على الأرض، وعلى بُعد طويل من الحفرة هذه المرّة، وفي موقع أكثر صعوبة، وضرب الكرة بأسلوب عارض وبلا تدبّر طويل. فجرت الكرة وسقطت في الحفرة دون صعوبة. وإذ رفع رأسه وتحرك لالتقاط الكرة من مكانها تنبه إلى أن هشاماً كان قد التفت إليه من بعد وشهد إصابته. توقف وتبادل مع هشام نظرة خاصة، وبدا له أن الصبي الذكي غريب الأطوار قد أدرك أن خطأ محمد السابق في إيقاع الكرة كان مقصوداً!

* * *

في قصره الجديد في منية الرصافة، كان محمد يجلس إلى مائدة الطعام الفخمة يتناول العشاء مع عائشة وولده البكر من الجارية درر: عبدالله، وولده الآخر عبدالملك من الذلفاء التي لم تكن معهم، فقد كانت تتجنب، ما وسعها ذلك، الاجتماع بعائشة.

وما كان محمد ليجبرها على ذلك أو يلحّ عليه.

وكالعادة كان جلّ اهتمامه منصباً على عبدالملك دون أخيه، فكان يساعده في تقطيع الطعام ويلقمه بيده ويداعبه بين هذا وذاك. وكانت

عائشة تراقب بوجه متجهّم. وإذ تنبهت إلى أن عبدالله كان يحرك الطعام في طبقه ساهماً مطرقاً دون أن يتناول منه، ربتت عليه بحنان وقالت:

- لماذا لا تأكل يا عبدالله؟ ألا تفعل كأخيك عبدالملك؟ إن كنت لا ترغب في هذا الطعام أمرت الخادم فجاءك بغيره، ماذا تحب؟

هنا تدخل محمد وقال بلهجة صارمة:

- بل يأكل ما يوضع أمامه. كُلْ من طبقك أيها الفتى.

توقف عبدالله عن تحريك الطعام، ولبث مطرقاً ينظر في الطبق بوجه جامد الملامح. أرسل إليه محمد نظرة صارمة، وقال بصوت أشدّ:

- ألم تسمعني أيها الفتى هل أنت أصمّ؟

فجأة نهض عبدالله من مقعده ومضى منصرفاً لا يلوي على شيء، وصاح محمد من خلفه زاجراً:

- عبدالله!

وإذ خرج عبدالله من صالة الطعام، نفخ محمد وقال:

- ما دهاه حتى يعصي أمري؟ هذا الصبي يحتاج إلى قدر كبير من التأديب.

اصطدم بصره بعائشة التي كانت ترسل إليه نظرة لوم وعتاب. قال:

- ما بكِ؟

قامت من فورها لتلحق بعبدالله، بينما لاحقها محمد بالقول:

- سوف تفسدينه بهذه الطريقة!

ثم تحوّل إلى عبدالملك وابتسم له، وقال:

- لا عليك من هذا. أكمل طعامك.

إذ لحقت عائشة بعبدالله في حجرته، وجدته جالساً يحدّق نحو النافذة بعينين فارغتين ووجه حزين. جَلَست إلى جواره وطوقته بذراعها وقالت:

- ما الذي أهمّك يا عبدالله؟ ألا تكلّم خالتك عائشة؟ هاه! خالتك عائشة التي تحبك حب الأم لولدها. هيا، أرني تلك الابتسامة الجميلة. فإن لم تفعل، عدت إلى حجرتي فأغلقت على نفسي الباب، فلا أخرج حتى تخرجني بنفسك، مع تلك الابتسامة.

بقي صامتاً جامداً بضع لحظات، وفجأة انفتل إليها ليعانقها بحرارة عاطفية شديدة. ضمته إليها بقوّة وقالت وهي تهزه:

- نعم. هكذا.. هكذا.

حين خلت بمحمد في تلك الليلة عاتبته بشدّة غير معهودة منها. فقال:

- وماذا فعلت حتى تعاتبيني فيه؟

قالت:

- أعاتبك فيما لا تفعل، لا فيما تفعل. بحق الله يا محمد، إنه طفل ويحتاج إلى محبة أبيه. وهو يدرك ويشعر، ويرى اهتمامك بأخيه وانصرافك عنه.

أطرق لحظة ثم قال بما يشبه الهمس:

- أهُوَ أخوه حقاً؟

قالت:

- كيف تقول هذا بحق الله؟ وهو بعد إنسان من لحم ودم وقلب وروح وشعور، وهو في عهدك وذمّتك. هَبْهُ يتيماً في كفالتك.

قال:

- لا أحرمه شيئاً مما بيدي.

قالت مستنكرةً:

- المال والثياب والطعام؟ إنه يحتاج إلى ما هو أعظم وأهم.

رفع رأسه ونظر في الفراغ وقال:

- اللهم هذا ما أملك، فلا تحاسبني على ما لا أملك.

قالت:

- بل تملك. أذكر فقط أن اليقين لا يسقط بالشك. أما أنا فلست أمّه يقيناً، ومع ذلك فإني أخاف الله فيه.

قال:

- أراك تُظهِرين له من العطف أكثر مما تظهر الذلفاء لولدها عبدالملك.

قالت:

- ذلك أنه وديعة عندي ويكبر على عيني، وأعوّضه ما فاته من أمه..

تريثت لحظة ثم أردفت:

- .. وأبيه! ولكن قل لي يا محمد، هل تحب أن يكبر عبدالله كارهاً لأخيه، فيقع بينهما من الخُلْف والخصومة ما يذهب بإرثك فيهما. وأنت.. أنت يا محمد، قد جعلك الله على ولاية من المسلمين، وتتطلع إلى ما فوقها، وكان آخر ما أضاف الخليفة إلى خططك قضاء إشبيلية ولَبْلَة، فإن كان القاضي والوزير يظلم ولده. نعم ولدك.. لوساوس تنتابك منه، فكيف تعدل في سائر الناس؟ فاتق الله من أجل نفسك وولدك.

وقع كلامها النابع من نفس نقيّة سامية، موقعاً مؤثراً في نفسه، فقال:

– أستغفر الله. أستغفر الله. لعن الله الشيطان.

قالت:

– لا يبلغ الشيطان من نفوسنا إلّا ما نُبَلِّغُه منها.. إن كيد الشيطان كان ضعيفاً.

دخل محمد بهدوء حجرة عبدالله، فوجده مستلقياً على ظهره ينظر في السقف. لم يغير من وضعه إذ اقترب منه أبوه، ومرت لحظة صمت قبل أن يتحدث محمد بصوت هادئ:

– ما رأيك في أن نخرج غداً، فنتجول في الرياض.. معاً.. أنا وأنت.

لبث عبدالله ساكناً على حاله. فأعقب محمد:

– أم تحب أن نخرج على الجياد نشهد غروب الشمس. ومن يدري، ربما أصبنا بعض الصيد. هل تحب أن أعلمك الصيد؟

تريّث ثم استأنف:

– المهر الصغير: سهم.. تعرفه. قد شهدتَ مولده. هو لك.

هنا فقط رفع عبدالله جسمه من الفراش، وحدّق في أبيه بشيء من الاهتمام، دون أن تنبسط أساريره.

على مثل هذا التقلّب ستمضي سيرة عبدالله مع أبيه الذي سيقدّم عبدالملك دائماً عليه، ويخصّه بالرعاية والحب، حتى تذكره عائشة وتقيم عليه حجج الدين والمروءة، أو يطوف به طائف من النفس اللوّامة، فيعمل على جبر خاطره بقدر معلوم يمليه الواجب لا العاطفة الأبوية الخالصة، إلى أن تستوفي الأقدار حكمها المروّع في زمن آخر، فلا تنقضي حتى تخلّف قلوباً محطّمة ونفوساً كسيرة ودماء مسفوكة في وسط تاريخ عامر بالأمجاد والمآثر!

أما الصبيّ الثالث الذي ليس من صلبه: هشام المؤيد بن الحكم، فهو كنزه وذخيرته وسبيله إلى غايته. فكان تدبير أموره مهمة عظمى دونها كل المناصب الأخرى. فهو المستقبل بكل وعوده.

صبيان ثلاثة في عهدته، سيكون لكل منهم أثر مذكور في سيرة أبي عامر وفي سيرة الأندلس التي سيشيّدها على مثاله!

أما الآن فعليه أن يتصدى لمهمة عاجلة، صغيرة في ظاهرها، كبيرة في معناها. ولي العهد الصبيّ خارج عن سيطرة مؤدِّبيه الذين أرسلوا إلى أبي عامر مستنجدين، فقد صار من المعروف أنه الوحيد الذي يملك السيطرة عليه. وهم لا يملكون زجره مع منزلته، والصبي يعلم ذلك جيداً. وحين اقترب أبو عامر من الديوان الخاص برز أحد المؤدّبين خارجاً وقد لطخ الحبر ثيابه وبدا عليه الضيق الشديد، وكانت قهقهات هشام تصل من داخل الديوان. استقبل المؤدّب أبا عامر قائلاً:

- الحمد لله أنك وصلت.

حين رأى الحبر على ثياب المؤدِّب، أدرك مصدره وسببه، فدخل من فوره ليرى هشاماً يحمل بعض الكتب يهمّ بقذفها على المؤدِّب الثاني وإذ أبصره هشام داخلاً توقف من فوره، وسكنت حركته متهيّباً، وأسقط الكتب على المنضدة متحاشياً نظرات محمد الصارمة.

قال المؤدِّب الأول الذي لحق بأبي عامر:

- كما ترى يا سيدي. لا يصبر على الدرس إلّا ساعة أو بعض ساعة، ثم يَمَلّ، فإذا أردنا أن نحمله عليه وفاءً بالذمّة، فعل ما ترى. وتمنعنا منزلته من فعل شيء.

استمر محمد في تصويب نظراته الصارمة نحو هشام الذي بقي في مكانه مطرقاً صامتاً، بينما أخذ المؤدِّبان يترقبان. وبخلاف ما كانا يتوقعان انفرجت ملامح محمد مع ابتسامة عريضة وقال بأسلوب مترفق:

- إذا كان سيدنا الأمير قد ملّ الدرس، ويريد أن يلهوَ قليلاً، فأيّ بأس؟

تغيّرت ملامح المؤدِّبين تعجباً، وتبادلا النظر في حيرة وتساؤل، بينما رفع هشام رأسه لأول مرة، ولم يكن بأقل تعجباً من المؤدِّبين، إلا أنه كان تعجب الرضا والفرح. واستأنف محمد مؤكداً:

- قليل من الاسترواح، يجدّد النشاط، وينعش العقل والبدن. والمَلَلُ عدوّ العلم.

هتف هشام:

- أخرج؟

أجاب محمد:

- لا ريب، أنت الأمير.

ركض الصبي خارجاً، مخلِّفاً وراءه المؤدِّبين في حال من الدهشة والضيق. وأسرع أحدهما إلى مخاطبة أبي عامر مع نبرة احتجاج:

- ألا أنه يَمَلُّ قبل أن نشرع في الدرس.

سأل محمد:

- ما تعلّمونه من الشعر؟

قال أحدهما:

- من الجاهليين عنترة.. عروة بن الورد.. النا..

قبل أن يتم كلمة «النابغة» اعترضه محمد بالكلام:

- سبحان الله! وتعجبون أنه يَمَلّ؟

قال المؤدِّب:

- وأي بأس في هؤلاء؟

أجاب محمد:

- عنترة عبد أسود يطلب حريته ونسب أبيه، وعروة صعلوك فقير يُغير لحاجة طعامه وطعام أصحابه. فأي شيء في هذا يوافق مزاج أمير صبي جُمِعت له الدنيا؟

قال المؤدِّب:

- أنها من شعر الحماسة يا سيدي.

قال محمد:

- لكل شيء وقت ومقام وميعاد، وإلّا خرج عن قصده وأخطأ غايته. والأصل في التأديب أن تبدأ بما يوافق مزاج المتعلِّم، وما ينشرح له صدره، وتنبسط له نفسه، فإذا بلغ ذلك صار التحصيل له عادةً، فيخرج من سَهْلِه إلى صَعْبِه، ومن معروفِه إلى مجهولِه، ومن متعته إلى حكمته.. فلو أنكم تبدأون بالغزل فإنه أقرب إلى النفس.. شيء من غزل امرئ القيس. شيء من غزل ابن أبي ربيعة..

في أثناء كلامه كان المؤدبان يزدادان تعجباً، ومع ذلك فلم يتوقّعا أن يردف بالقول:

- وحتى النواسيّ.. الحسن بن هانئ.. مهما يُقَل فيه فهو شاعر عظيم، مع تَظَرّف وخفة ينجذب لهما الكبير والصغير.

ثم أسرع إلى الاستدراك بأسلوب مصطنع:

- هذا ما لم يكن ظاهر الفسق. أعني شيئاً من هذا القبيل.. فذلك أدعى إلى تشويقه للدرس.

* * *

أدرك هشاماً وهو يتلاعب بالحمام، وفي صحبته خادمة وأحد فتيان القصر. وحين شعر بقدوم محمد توقف ونظر إليه متفحّصاً، وانفرجت أساريره حين رآه يبتسم له، شاركه اللعب بعض الوقت، ثم قال:

- ألا نتمشّى قليلاً في هذا الجوّ الرائق.

وأومأ إلى الخادمة والفتى الصقلبي أن يمكثا في مكانهما.

حين تأخر محمد في الكلام، سأل هشام:

- لست غاضباً؟

توقف محمد ونظر إليه مبتسماً:

- ولِمَ أغضب؟ أَلِأن بعض الدروس يبعث على الضجر؟ وما حاجة الأمير إلى كل تلك الدروس؟ حسبه القراءة والكتابة والحساب وحفظ شيء من القرآن و.. ثم إذا شاء استزاد بنفسه ما يوافق هواه وطبعه.. بالقدر الذي يريد.. أعني.. إنه الأمير وصاحب السلطان..

العالم والفقيه والطبيب والكاتب البليغ و.. كلهم مُسَخَّرٌ لخدمته ومشورته، فما حاجته إلى أن يكدح وينفق الوقت والجهد في تحصيل علومهم بدلاً من أن يتمتّع بكل مباهج الحياة قبل فواتها؟ ولكن كيف لأولئك المؤدّبين أن يفطنوا إلى ذلك مع سماجتهم وثِقَل ظلّهم؟!

انفتل بجسمه مواجهاً هشاماً، وأخذ يتقمّص طريقة المؤدّب الثقيل بأسلوب تهكمي وصوت أجش وحركات هزلية:

- احفظ هذا أيها الصبيّ:

أقيمـــوا بنـــي أمّـــي صـــدور مطـــيّكم
فـــإنّي إلى قـــومٍ سِـــواكُمْ لأَمْيَـــلُ
ولي دونكـــم أهلـــونَ: ســـيدٌ عَمَلَّـــسٌ
وأرقـــطُ زهلـــولٌ وعَرفـــاء جَيْـــأَلُ

غرق هشام في الضحك، وتابع محمد بالطريقة الساخرة نفسها:

- أو.. أو خذ هذا أيها الصبيّ، واقبِض عليه كما تقبض على الغنيمة، فإنّ فيه من الغريب ما لا يفقهه إلّا الأديب اللبيب النجيب الأديب!

وقـــد غـــدوت إلى الحـــانوت يتبعنـــي
شـــاوٍ مشَـــلٌّ شـــلولٌ شُلْشُـــلٌ شَـــوِلُ

انطلقا بالضحك الشديد معاً. ثم قال محمد:

- هل تفقه شيئاً منه؟ أنا والله لا أفقهه. أين هذا من القائل:

ســـــألتها قُبْلـــــةً ففـــــزت بهـــــا
بعـــــد امتنـــــاعٍ وشـــــدّة التَّعَـــــبِ
فقلـــــــت بـــــالله يـــــا مُعَـــــذّبتي
جـــــودي بـــــأخرى أقـــــضي بهـــــا أربي
فابتَسَـــــمت ثـــــم أرسَـــــلَتْ مَـــــثَلاً
يعرفـــــه العُجْـــــمُ لـــــيس بالكَـــــذِبِ
(لا تُعْطِـــــيَنّ الصـــــغير واحـــــدةً
يطلـــــب أخـــــرى بـــــأعنف الطّلَـــــب)

ألقى هذه الأبيات بأسلوب مشوّق عذب وصوت رخيم منساب، ليبرز التقابل الحادّ مع الأبيات الصعبة التي أسبق بها. بدا على هشام التفاعل والطرب لسماع الأبيات الأخيرة. رمقه محمّد ثم انحنى عليه قليلاً وهمس:

- أليس هذا أحسن، أعجَبَتْك الأبيات؟

هز هشام رأسه بقوّة، واعتدل محمد واقفاً مع ابتسامة عريضة، وأكمل بأسلوب متحبب مرح وهو يهز إصبعه:

- هاهاه! أعجَبْتكَ أبيات النُّواسيّ! هذا هو الشعر الذي تحب أن تسمعه! أيها الأمير الظريف اللطيف. عرفت هواكَ، أين يذهب! ربّما.. ربّما رتبت لك شيئاً.. قليلاً من الغناء، وقليلاً من الرقص.. و..

قاطعه هشام طالباً بحماس:

- غيرُه! المزيد! من ذلك الشعر!

قال محمد ضاحكاً:

- تريد المزيد؟ ألم تسمع البيت الأخير:

لا تُعْطِيَنّ الصبيَّ واحدة

وقبل أن يأتي بالشطر الثاني، أكمل هشام عنه:

- يطلبُ أخرى بأعنف الطّلَبِ.

تسمّر محمد في مكانه وتقوّس حاجباه واتسعت عيناه اندهاشاً، ثم قال:

- حفظتَها؟

أجاب هشام بأن ألقى الأبيات جميعها دون أن يتلعثم أو يتردّد أو يخطئ بكلمة واحدة. وتحوّلت دهشة محمد إلى ما يشبه الصدمة. نفض رأسه وسأل:

- هل كنت تحفظها من قبل؟

هز هشام رأسه بالنفي، ثم مشى متجاوزاً محمداً الذي لبث في مكانه يلاحقه بنظره دون أن تفارقه ملامح الدهشة. صبيّ نابغة، ويكره الدرس؛ بل ربّما أن نبوغه السبب في ضيقه بدرس طويل دون عقله وموهبته!

كان هشام قد تقدّمه، وقد ضمّ الآن ذراعيه خلفه ومشى منتصباً متقمّصاً كما يبدو مشية محمد نفسه. وبدون أن يتوقف أو يلتفت إلى محمد، سمعه هذا يلقي بيتَيْ الشنفرى بصوت مرتفع:

أقيموا بني أُمّي صدورَ مَطيّكم
فإني إلى قوم سواكم لأَمْيَلُ

ولي دونكم أهلون سِيْدٌ عَمَلَّسٌ
وأرقطُ زهلولٌ وعرفاءُ جَيْألُ

ثم أتبعهما بذلك البيت من شعر الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني
شاوٍ مشلٌّ شلولٌ شُلشلٌ شَوِلُ

ألقى الشطر الثاني وهو يحرّك إصبعه في الهواء مع كل كلمة بطريقة مُوَقَّعة. وإذ فرغ هتف يُسمع محمداً:

– وإنني أفقَهُه. لا أحبّه ولكنْ أفقَهُه!

ثم أسرع في المشي، وتخلّف عنه محمد مطرقاً متفكّراً، فعلى نحو ما أخافه ذلك الصبي للحظة عابرة. ثم حدّث نفسه أن النبوغ، على كل حال، ليس بالضرورة قرين القوّة والعزم والدهاء وحسن التدبير، وإلّا لما ساد إلّا النوابغ. وكم من نابغةٍ تسلطت عليه الشهوات فلقي غيّاً، أو حتى تسلطت عليه زوجه فخضع لها طوعاً أو كرهاً. وثمة قوى ومنازع في النفس قد تطغى على العقل فتصرفه عن عزائم الأمور، لا سيّما الفراغ والشباب والثروة!

ما كان لأحدٍ أن يعلم أن خطة أبي عامر في تدبير هشام وتأديبه على نحو ما وجّه به المؤدّبين وأوحى به لهشام في كلامه ذاك، كانت على

النقيض مما حمل عليه ولديه، لا سيما عبدالملك، من الحزم والتأديب والتحصيل، والتدريب على السباحة والرمي وركوب الخيل، وغير ذلك من عزائم الأمور!

لا، ما كان لأحد أن يطلع تلك الساعة على سرائره، ولم يتنبه إلى أن «صبح» كانت تقف في منظرة مطلّة تنظر إلى ولدها والفتى الذي شغفها حباً قاهراً مكتوماً، وتحدِّث نفسها: ذاك هو الفتى الذي ابتُليتُ بحبه، وذاك هو الصبيّ الذي حظيتُ به من دون النساء، ومعاً سوف نملك الدنيا.

٣

كانت تجلس على الأريكة في شرفة مستقلّة مظلّلة ترتفع عن الأرض ثلاث درجات في جانب من بسائط الزهراء، أقيمت للجلوس في الهواء الطلق وسط مسطحات الزهور البديعة. وكالعادة كان بعض الخدم والوصيفات يحومون على بُعد مناسب ليكونوا رهن إشارتها دون تطفّل.

صبّ أبو عامر كأسي شراب له ولها، وتقدّم لها بكأسها؛ قالت:

- تخدمني؟ صاحب الخزانة ودار السكة والمواريث والشرطة الوسطى والشرطة العليا وقاضي إشبيلية ولبلة.. يخدمني بالشراب؟

قال:

- خدمة من لا يجد لذّة في غيرها حتى لو ملك الأرض جميعاً وانطاعت له رؤوس الخلق. ولولا أن تنقطع الخدمة لصعدت إلى أعلى مكان في قرطبة وصحت بما في نفسي، ثم تقدّمت إلى الموت راضياً.

أطلقت ضحكة خفيفة وقالت:

- ألا تقتصد؟ أين جلال القاضي؟

قال:

- والقاضي ليس بشراً سويّاً؟ والقاضي الذي له قلب عامر بالحبّ أجدر بأن يعدل في الناس ويقبل عليهم إقبال المشفق الرؤوف. فالحب إذا زاد أفاض فعمّ الخلق. ومع ذلك فالقاضي المحب الذي يحكم في الناس لا يملكُ أن يحكم في قلبه ليرفع عنه عذاباً يستعذبه وناراً يصطلي بها ولا

يريد أن يتوقّاها. فمن يقضي للقاضي ممن ملأ قلبه وروحه بأمانٍ وأحلام لا هي تنقضي ولا هي تتحقق.. نعيم دونه الجحيم، وحياة أخرى دونها الموت، وفوز دونه مقاتل الرجال. هي الأعراف؛ عين على الجنّة، وعين على النار!

قالت:

- من أين تأتي بهذا الكلام؟ ألا ينضب مَعينه؟

قال وهو يحدِّق فيها:

- كيف ينضب وهو الذي تمِدّه سحائب تجري بها الريح من كل الجهات: من الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب، ومن بلاد البشكنس في أقصى الشمال، ومن بحر الروم في الشرق والبحر المحيط في الغرب. إنه الشعور الذي قهر الجبابرة، وفتح حصوناً لم تكن تفتح، وألهم الشعراء وصرع الأمراء، وساوى بين الأغنياء والفقراء. ينضب؟ بل يزيد.. يزيد. وليته لا يزيد. فهو للمحروم داء ليس له شفاء. لا يطيقه ولا يرجو البُرء منه.

أطرقت لحظة وبدا على وجهها طيف من الحزن، كما يحدث معها دائماً كلما استمعت إليه يمطرها بكلام بعضُه غيثٌ يُحيي، وبعضه مطر عذاب.

ثم رفعت رأسها وفاجأته بالقول:

- زوجك! لم أرها قط كل هذه السنين!

أخذته المفاجأة، وبدا حائراً لبضع لحظات، ثم قال:

- أيهما؟

قالت وهي تتفحّصه بعمق:

- الأقرب إليك! فلأقُل تلك التي تزوجتها لذاتها، ولم تلجئك إليها حاجة الولد، أو حاجة السياسة، أو.. أمر أمير المؤمنين!

هز رأسه، وشرد ببصره بعيداً.

ولم يتنبه أيّ منهما إلى أن هشاماً كان يحتضن شجرةً متوارياً بها على بُعد، ويرقب بوجه غامض الملامح، قبل أن يستدير وينصرف مبتعداً.

*　　*　　*

لم يفت عائشة أنه لم يبد حماساً للزيارة المطلوبة.

تساءلت:

- ولماذا تريد أن أزورها الآن؟

هزّ رأسه يميناً وشمالاً وقال:

- لا أدري.. ولكن.. أعني أنا أعمل لها ولولدها منذ أعوام، فليس غريباً أن تسأل عن زوجي وتطلب زيارتها.

قالت:

- ولكن..

قطع كلامها وقد أدرك بالطبع ما تنوي قوله، فأكمل عنها:

- نعم.. لماذا أنتِ دون الأخرى؟ إنها تعلم ما أعلم وما تعلمين وما تعلم الذلفاء أنك الزوج التي أسكن إليها حقاً، والتي جعل الله بيني وبينها مودة ورحمة، والتي هي مستودع سرّي وشريكتي في أمري، وتزوجتها لذاتها.

رمقته بنظرة فاحصة سابرة كأنها تتغلغل في أعماقه وهو مشيح بوجهه. ثم سألت:

- كيف تريدني أن أبدوَ لها؟

فاجأه السؤال، فالتفت إليها ببطء مستطلعا نظرتها الغامضة وسؤالها وملامح وجهها، وهي تبتسم ابتسامة ذات مغزى خاص.

أجاب:

- لا أدري.. أنت أعلم.. أعني..

سكت تحرّجاً، اقتربت بهدوء واستدارت من خلفه، ووضعت يديها على كتفيه وأخذت تمسّد وتدعك، ثم تحدثت بلهجة موحية أثارت عجبه وحيرته:

- مظهر يقرّبك منها.. ويطمئنها، ولا يوحشها! ولا تخشى على ما بيدها من المنافسة، فلا تنزل عنه يأساً، وإن كان صورةً في الخيال، ونجماً لا يُطال، وأملاً يوقده القرب، وينفيه المحال.. أملك منه شطراً محقّقاً وتملك منه شطراً معلّقاً في السماء. لا يزيده بُعده إلّا جمالاً وبهاءً. فهو الموجود المفقود.. المملوك المالك.. ملءَ العَيْن والسمع والخاطر.. فليس عجيباً أن أحسدها بقدر ما تحسدني!

بلى. إنها، كما قال، مستودع سرّه، حتى ذلك الذي لم يُبحْ لها به يوماً! .. وشريكة أمره، حتى ذاك الذي ما كان ليشركها فيه تطوّعاً من نفسه!

* * *

بعد أن أخذت عائشة زينتها وبدت في أبهى وأجمل حالاتها وأطنبت المزينة في الإطراء على جمالها، تأملّت عائشة في وجهها في المرآة مع ابتسامة الرضا، وبعد لحظات، وبدون أن تتغيّر ابتسامتها، أخذت تخلع العقد والقرطين، ولم تأبه باحتجاج المزيّنة وسؤالها، ثم فكت تصفيفة شعرها الأنيقة، وتناولت خرقة قريبة منها وأخذت تمسح زينة وجهها بقوة بينما ازدادت المزيّنة دهشةً وتعجباً. ثم قالت:

- ائتني بماء أغسل به وجهي.

قالت المزيّنة:

- لا أفهم يا سيدتي.

قالت عائشة:

- فقط افعلي كما آمرك.

عادت المزيّنة تسأل:

- لم يعجبك عملي يا سيدتي!

أجابت بلهجة غامضة:

- بل أعجبني كثيراً.. أكثر من اللازم!

*   *   *

حين دخلت عليها صبح في صالونها بالزهراء حيث كانت عائشة في انتظارها، كانت صبح قد أخذت كامل زينتها، وبدت آية في الجمال والأناقة، بينما كانت عائشة في هيئة حسنة، ولكن بأقل زينة كما اختارت لشيء في نفسها.

وقفت عائشة لدى دخول صبح وقد بهرها جمالها. وتبادلت المرأتان نظرة عميقة متفحّصة شغلتهما عن تبادل التحايا، حتى تفطنت صبح فأقبلت على ضيفتها وعانقتها عناق الصاحبة المقرّبة.

إذ جلستا، تعمدت عائشة إطالة التحديق بصبح حتى ظهر الحرج على وجه السيدة. هنا قالت عائشة:

- اعذريني يا سيدتي، لا أستطيع صرف بصري عنك. أعرف أنها عادة مزعجة، وليست من عادتي.. ولكن.. لا يرى الإنسان في كل يوم

جمالاً كهذا الجمال. ولطالما سمعت عن جمالك يا سيّدتي، ومع ذلك ليس الخبر كالعيان. فلا والله ما غالَوْا، بل اقتصدوا في الوصف وإن تفننوا فيه واجتهدوا.

قالت صبح:

- أراك أنت الآن تغالين.

قالت عائشة:

- ولِمَ أغالي؟ إنما الغلوّ في وصف الرجل للمرأة الجميلة. أما نحن النساء، فنميل إلى التقليل منها وإن كانت أجمل النساء، ونجتهد في ملاحظة العيوب. فإن سمعنا من يقول: انظروا ما أجملها! وهي والله كذلك، لم يسع إحدانا إلّا أن تقول: نعم، ولكن.. لو كان فيها بعض الطول.. أو هي مفرطة الطول قليلاً.. أو، لو كان لها خصر أدقّ وأطول.. أو، لو كان في عنقها طول.. حتى نلحظ الأذن وحجمها، والمسافة بين العينين، أو المسافة بين العين والحاجب، أو حجم سواد العين إلى بياضها.. بل ننظر في أصابع اليد والقدم إن استطعنا.

ضحكتا معاً، واستأنفت عائشة:

- وما ذاك إلّا بسبب غيرة النساء من النساء. فلماذا أغالي يا سيّدتي، والأصلُ أن أقلّل!

رمقتها صبح وقالت:

- وأنتِ! لا تغارين غيرة النِّساء؟

أجابت عائشة بسرعة وبلا حرج:

- بلى والله. إذن لا أكون امرأة. ولكني لا أترك الغيرة تغلب الصدق وعدل الأحكام. ثم أواسي نفسي فأقول: الرضا بما قسم الله،

وأذكر الصحة والعافية وسائر النِّعم الأخرى. ثم أعود على نفسي بالقول: يُعطى الإنسان شيئاً، ويُسْلَب شيئاً. وإن أمعنا النظر وجدنا أن كل إنسان حاسد ومحسود. إذ مهما يبلغ من الجمال والغنى والعقل، فإنه واجد شيئاً ينقصه، فيحسد عليه من كان عنده منه. فإن تركنا لأنفسنا العنان صار كل منا شقيّاً بالآخر. إذ لا يصيب أحدنا شيئاً إلّا مما يفقده الآخر. لا تُجمَعُ لأحد. أليس كذلك يا سيدتي؟

قبل أن تجيب صبح، أسرعت عائشة بالاستدراك على نفسها:

- العفو، إنني أُكْثِر الكلام.

تدخلت صبح بسرعة وقالت:

- لا، لا، أبداً. نطقتِ بالحكمة.

قالت عائشة:

- إنما أنطق عن نفسي يا سيّدتي.

قالت صبح:

- وعن نفسي كذلك.

قالت عائشة:

- إنه لشرف عظيم لي أن تجمعيني معك يا سيدتي.

مرت لحظة صمت، ثم أرسلت صبح إلى عائشة نظرة فاحصة غامضة وقالت:

- قلتِ: يذكرونني ويصفون..

توقفت عن إتمام العبارة، فالتقطت عائشة الكلام:

- جمالك وعقلك يا سيّدتي. يقولون: لا يكافئ جمالَها إلّا عقلُها.. كل الناس يا سيدتي.

تساءلت صبح:

- ولكني لا أبرز كثيراً للناس!

أجابت عائشة وقد أدركت مرمى الكلام:

- الشاهد يحدّث الغائب.

نهضت صبح ومشت بضع خطوات مستديرة عن عائشة نصف استدارة، وقالت:

- أنا مسرورة بزيارتك يا عائشة.

- بل أنا يا سيدتي. لا أعرف كيف أشكرك على هذه الدعوة، فلطالما تطلعت إلى التشرف بلقائك ومشاهدتك، لكثرة ما يحدّثني أبو عامر عنك!

أضاء وجه صبح والتمعت عيناها، وقالت بصوت خفيض:

- حقاً؟

قالت عائشة متدفقة بالكلام:

- ما يكون من أمر إلّا قال: هذا يعجب السيدة؛ هذا لا يعجبها.. ويدعوك السلطانة أحياناً.. أقول: لا يسمعك أمير المؤمنين، فلا سلطان مع سلطانِه، حتى لو كانت أمّ ولده وأحظى النساء إلى نفسه.. فيقول: بل هي سلطانة، فإنّ لها على من يراها ويعرفها سلطاناً لا تحتاج معه إلى مراسيم السلطنة ولا شوكة السلطان. ألم أقل يا سيدتي: الشاهد يحدِّث الغائب، ولو لم تكوني من أنتِ لقتلتني الغيرة. ومثلك يُغار منه، و.. يُغارُ عليه. والغيرة أفصح صور الإعجاب. والآن وقد رأيتك، فقد علمت أنك كما يقول: السلطانة!

ارتسمت على وجه صبح ابتسامة رضا خفيفة خالطت نظرة شاردة بعيدة.

* * *

آثرت عائشة أن تماطل إذ رأت محمداً يتعجّلها أن تقصّ عليه خبر لقائها بصبح. فجأة أفلتت ضحكة ساخرة وقالت:

- تسألني كيف وجدتُها؟ بل تريد أن تسأل كيف وَجَدَتْني!

قال معترفاً:

- هذا وذاك. والآن، ليس من طبعِك المناكفة.

قالت:

- وليس من طبعك التعجّل والتلّهف. لا بأس.. أما كيف وجدتها، فكما أَجَبْتَني حين سألتك عنها أول دخولك في خدمتها.. هل تذكر؟

تقدّمت نحوه، واقتحمت عينيه بنظراتها، وقالت بنبرة تهكّميّة تقلّد أسلوبه وتردد كلامه القديم:

- كغيرها من النساء! لا أدري.. لم أُدَقِّق.. لا بأس بها فيما يظهر.

أطلقت ضحكة قوية بينما بدا عليه الحرج. ثم تابعت بأسلوبها المألوف:

- الرجل الذي ينبغي أن ترتاب به زوجه هو الذي إذا سُئِل عن امرأةٍ ساحرة الجمال بلا خلاف، قال بنبرة عارضة: «كغيرها من النساء.. لا أدري.. لم أدقّق.. لا بأس بها فيما يظهر». يريد أن يخفي ما الله مبديه!

تريثت لحظة وهي تصوّب نظرها إليه. ثم استأنفت:

- وهل تخطئ عين الأعشى ذلك الجمال والسحر، حتى يخطئه فتى الدولة محمد بن أبي عامر؟ أما الرجل الذي يصف كما رأى ولا يتحفظ فهو الأجدر بألّا ترتاب به زوجه!

قال:

- وترتابين بي يا عائشة؟

لم تتوقف عن التحديق به، ثم هتفت بصوت قويّ وبأسلوب تمتزج فيه الثقة بالبوح الصريح:

- لي منك شطرٌ مُحقَّق، ولها شطر مُعَلّق. وللخليفة منها شطر محقق، ولك شطر مُعلّق. يسعني منكَ ما وَسِعَ الخليفة منها. أما النجم المعلّق فمن يمنع الناس أن يرنوا بأبصارهم إليه، ويتنوّروه في الليل الداجي؟ ولقد قلتُ لك يوماً: سوف تبلغ الذروة التي تتطلّع إليها، وسأكون معك هناك في عش النسر الذي لا يتّسع إلّا له ولزوجه. هل تذكر؟ وهل تذكر أني قلتُ لك: لاطِفْها ما استطعت، وتقرّب إليها، فلديها الباب الذي لا يملكه غيرها، ولا ينبغي لأحدٍ غيرك أن يعبُرَه، فإذا عبرتَه وعبرتُه معك، أغلقناه وراءنا.. كسبنا نحن، وهي لم تخسر، وكَسِبَت معك الدولة والأُمّة والعامّة.. أما العفة والتذمم، فلا ريبة. والنجم، تتمتع بنوره ولا تملكه، فلا ينقص بالنظر، ولا منه علينا ولا علينا منه خطر!

رمقها بإعجاب شديد. أراد أن يقول شيئاً فلم تسعفه فصاحته هذه المرة، وبدلاً من ذلك ضمّها إليه، وقبّل رأسها بحنان غامر.

٭٭٭

في المغرب، التي كانت منذ أمد في طاعة خليفة قرطبة وسلطانه، وقع ما كان يخشاه الخليفة وكبار رجال دولته. فقد أعلن عاملها الحسن بن قنّون، سليل الأدارسة، ملوك المغرب الغابرين، خلع طاعة أمير المؤمنين والدخول بدلاً من ذلك في عهد الدولة العبيديّة الفاطميّة التي امتد سلطانها الآن على جلّ بلاد المغرب حتى مصر. لم يفعل ذلك ابن قنّون حباً للعبيديين، إذ لم يكن له ولاءٌ إلا لنفسه وإرث آبائه. وما كان لمثله أن يقنع بمنصب العامل الذي لا يستطيع التصرّف بغير أوامر الخليفة الأندلسي ورأي القادة الذين يرسلهم الخليفة من قرطبة ليشركوه في أمره. أما العبيديّون فقد عاقدوه على أن يُطلقوا يده في المغرب الأقصى فيستبدّ بحكمها دون منازع إلّا إعلان الولاء لهم وخلع طاعة خليفة قرطبة. ووعدوه بالمدد إذا احتاج إليه.

وما كان للحكم المستنصر بالله أن يتهاون في هذا الأمر. فالمغرب هو ظهير الأندلس وأرض المدد والعدد والنجدة. فجرّد حملة على رأسها القائد محمد بن القاسم، يؤازره أمير البحر عبدالرحمن بن رماحس. ولكن ابن قنّون استطاع أن يحشد معه عدداً من قبائل المغرب الكبرى التي آثرت مؤازرته لمنزلته فيهم وإرث آبائه الأدارسة الحسنيين. فانتصر بهم على جيش الأندلس، وقُتل قائده محمد بن القاسم، والتجأت فلول الجيش الأندلسي إلى طنجة. وإذ أدرك الحسن بن قنّون أن الحَكَم لن يهدأ بعد ذلك حتى ينتقم منه شرّ انتقام، فيجرّد عليه حملةً جديدة عظيمة، آثر السلامة ظاهراً، فأرسل في طلب الصلح وأن يرجع إلى طاعة أمير المؤمنين على أن يقرّه على البلاد التي بيده.

عقد الحَكَم اجتماعاً للتشاور والنظر في الأمر، حضره الحاجب المصحفي وغالب الناصريّ، شيخ الموالي وقائد جيش الثغور وأعظم قادة الجند الذي دوّخ ممالك الشمال ولم تنهزم له راية. وحضره كذلك محمد بن أبي عامر الذي صار مكانه الآن في مجلس الخليفة تالياً للحاجب ولغالب الناصريّ إذا كان هذا حاضراً. وكان بين الحضور أيضاً عدد آخر من كبار الوزراء الموالي: ابن جهور، دعيس وابن فُطَيْس وابن شهد، فضلاً عن أمير البحر عبدالرحمن بن رماحس. ومن الفتيان الصقالبة حضر فائق وجؤذر.

وكان رأي الحاجب المصحفيّ قبول عرض ابن قنّون. وحجته في ذلك أن الرجل قد أعطى بيديه وهو في قوّة وتمكّن، فلا بد أن يكون صادقاً. فإن كان كذلك فلماذا تتكلّف الدولة مؤونة الحرب معه، لتأخذ منه بالحرب ما رضي أن يعطي بالصلح؟

وبالطبع كان الكلام منطقياً. ولكن محمد بن أبي عامر كان له رأي آخر.

فبدأ بتذكير الحضور بما اختبروه عبر السنين من كذب ابن قنون ومخاتلته ونكثه وتقلبه، فلا يدخل في الطاعة حتى يخرج منها كلما رأى أن الفرصة سانحة. وهو من قوم كانوا ملوك المغرب قبل إلحاقها بالأندلس. فما يزال يراوده حلم قديم بإحياء مُلك آبائه. وهو هناك بين قومه وأنصاره، ويعرف مسالك البلاد ومداخلها ومخارجها. ومن كان مثله لا يصلح أن يبقى في بلاده يتربّص الفرصة السانحة، فضلاً عن أن يكون فيها عاملاً لأمير المؤمنين. أما أنه جنح الآن للسلم وهو في قوة وتمكّن وغلبة، فهي حجّة عليه، لا حجة له، وأدعى إلى الشك في صدقه ونيته. فإن كان صادقاً فما الذي دعاه قبل ذلك إلى العصيان والحرب؟ ولماذا يعطي الآن وهو متغلّب ما كان للأندلس قبل الحرب والقتال والدماء؟ هذا أمر لا يستقيم، ينكره العقل والمنطق. ولا يفسّره إلّا أنها بعض أكاذيبه ومخادعاته. إنما يريد أن يكسب بعض الوقت ليأتيه المدد من الفاطميين

وعُمّالهم، ويزيد من جمعه، فإذا نكث بعد ذلك كان مستعداً لملاقاة حملة كبيرة من الأندلس، أعظم من السابقة، يعلم علم اليقين أن أمير المؤمنين لا بدّ أن يوجهها له. والرأي أن تتعجل الأندلس له بتلك الحملة قبل أن يستكمل عدده وعدته بمدد الفاطميين.

كان غالب الناصري يهز رأسه تأييداً للوزير الشاب الذي يجتمع معه لأول مرة بعد أن بلغته أخباره في رباطات الثغور. وفضلاً عن صواب رأيه فقد وافق هوىً خاصاً في نفس الناصريّ إذ نقض رأي الحاجب المصحفي وأبان تفاهته وإن كان ذلك بأسلوب متلطف متأدّب. ذلك أن الناصري كان شديد الاحتقار للمصحفي ولا يراه أهلاً لمنصب الحاجب. وأشدّ ما كان يغيظه أن يقال عن المصحفي: شيخ الموالي. فقد كان يرى نفسه أحقّ باللقب لطول بلائه في حفظ الثغور وتأديب ممالك الشمال: ليون وقشتالة وجليقية ونبارّة. ولم يكن انتماء الرجلين إلى عصبة الموالي ليخفف من رأيه فيه. ولذلك وجد في رأي الفتى محمد بن أبي عامر ما أثلج صدره، فأعلن تأييده في مجلس الخليفة ذاك. أما الخليفة نفسه فقد سرّه ما سمع من ابن أبي عامر وتأييد الناصري له، وقد نطق ابن أبي عامر عما كان في صدره من ابن قنّون، فخاطب الناصري قائلاً:

- سر يا غالب مسير من لا إذن له في الرجوع إلّا حيّاً منصوراً، أو ميّتاً معذوراً. وابسط يدك في الإنفاق. فإن أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال. وإن وقعت الحاجة أمددناك بالقائد يحيى التجيبي وجنده.

ثم قام الخليفة ومشى خارجاً بعد أن ألقى على محمد نظرة رضا وتقدير.

* * *

استطاع الناصريّ إلحاق الهزيمة بجيش ابن قنّون. ولكن هذا لم يُسلِّم له، فاعتصم بقلعة حصينة تسمى قلعة النسر، على قمة جبل شاهق

في أنحاء سبتة، تحيط به سلسلة جبال تتخلّلها مسالك ضيقة وعرة. فأقام الناصري، ومعه القائد يحيى التجيبي، معسكره أدنى الجبل الذي يصعب الصعود إليه بالجند عبر المسلك الضيق الشديد الانحدار الذي يفضي إلى القلعة أعلاه. والحال أن ذلك لم يكن حصاراً بالمعنى الدقيق. إذ لم يكن في وسع الناصري وجنده الإحاطة بالجبل لاتصاله بالجبال الأخرى، كما لم يكن بالإمكان سدّ المسالك من كل الجهات، فكان أنصار ابن قنّون من القبائل الموالية له يتوصلون إليه بالمؤونة، وهو أعلم الناس بطرق المنطقة ومسالكها. بل كان معسكر الناصري مكشوفاً لغارات القبائل المباغتة بين الفينة والأخرى، وهذا بعض ما كان يعول عليه ابن قنّون. صحيح أن مدد الفاطميين لم يصله، ولكن القبائل الكبرى ما تزال إلى جانبه، ولا قِبَل للناصري بأن يقاتلها جميعاً على تباعد منازلها. وأهم من ذلك أنه كان يدرك أن خليفة الأندلس لا يستطيع أن يُخْلِي ثغور الأندلس الشمالية من الناصري وجنده لمدة طويلة. وقد وقع حقاً ما كان الخليفة يخشاه بعد أن طال الأمد على الناصري في المغرب. فاغتنم القشتاليون الفرصة وأغاروا على عدد من قرى الثغور، فقتلوا وأسروا وسبوا ونهبوا وأحرقوا الزروع والأكواخ وساقوا الماشية. وتمكنوا من اقتحام حصن «دسّة» وفعلوا في سكانه مثل ما فعلوا في القرى.

عقد الخليفة مجلساً حضره الحاجب المصحفي ومحمد بن أبي عامر وعدد آخر من الوزراء وأهل الرأي. ولم يُرَ الخليفة في مثل ذلك الغضب والضيق من قبل. وقد بدا الجميع حائرين فيما يجب فعله وقد صاروا بين عدوين: عدو في الشمال لا يجد الآن رادعاً، وعدو في عُدوة المغرب قد أعيا جند الأندلس. فإن أمر الخليفة غالبا الناصري ويحيى التجيبي بالعودة عن ابن قنّون، فقد ذهب الجهد هناك سدىً وتمكّن ابن قنّون في المغرب. وإن طالت إقامة الناصري وجنده في المغرب تفاقم الخطر على الثغور من القشتاليين، وسائر الممالك والإمارات الشمالية.

وبينما كانوا يقلّبون الرأي دون أن يهتدوا سبيلاً، رفع ابن أبي عامر رأسه من إطْراقته وقال مخاطباً أمير المؤمنين:

- أرْسِلني يا مولاي إلى عدوة المغرب.

فوجئ الجميع بالطلب. فما شأن القاضي وصاحب الخزانة بالحرب والجند؟

عاد محمد يخاطب الحكم:

- هل خيّبت ظنّك يا مولاي حتى الآن في عملٍ عملتُه؟

أجاب الحكم:

- اللهم لا. ولكن.. العسكر؟!

قال محمد:

- هواي في عمل الجند يا مولاي.

قال الحكم:

- تحتاج إلى أكثر من الميل والهوى كي تتقن عملاً لا يحسنه إلّا من كان منقطعاً له منذ أول أمره. وما عسى رجل واحد مثلك أن يفعل أو يزيد في عمل أعظم قوادنا: الناصري والتجيبي؟

أجاب محمد:

- السياسة يا مولاي. لا تُكْسَبُ الحروب بعمل الجند فقط، كما يعلم أمير المؤمنين، وإلّا لما صمد ابن قنّون هذا الصمود لأعظم قادة الأندلس.

أطرق الحكم لحظة قصيرة ثم سأل:

- وأعمالك هنا؟

أجاب محمد:

- إذا أَذِن لي أمير المؤمنين، فأنيب عليها من أثق به. ولن تطول غيبتي إن شاء الله، إلّا أن أهلك فداء الأندلس ومولاي. وذاك فوز عظيم.

* * *

لم تكن الثقة بمواهب ابن أبي عامر التي رسختها التجارب الكثيرة السابقة، هي وحدها ما جعل الحكم يشعر بالراحة والرضا من طلب محمد. كان ثمة شيء آخر غامض يقبع بعيداً في غور نفسه حتى ليتوارى عنه جلّ الوقت إلّا من نزغة عابرة بين الفينة والأخرى، يطردها كما يطرد نزغات الشياطين، مستعيذاً بالله من إثم الظنون.

كان يجلس في جناحه الخاص مع صبح، يقلّب كتاباً أمامه، ويطوِّق بذراعه الأخرى هشاماً الذي كان يهز ساقيه بأسلوب رتيب. أما صبح فكانت على عادتها تشغل نفسها بالتطريز. ثم سمعت الحكم يقول بأسلوب عارض:

- ما زال ذلك الفتى يثير عجبي في كل يوم.

تنبهت ملامحها ورفعت رأسها تنظر إليه مستطلعة وسألت سؤال الغافل أو المتغافل:

- أي فتى؟

أجاب:

- وهل بين وزرائي فتى غيره؟

هزت رأسها متظاهرةً بفهم متأخّر، بينما استأنف الحكم:

- كلما اتجه نظري إليه في ناحية، صرفني عنها إلى ناحية آخرى، فما أزال حائراً فيه.

تعمّد التريّث، وتشاغل بالكتاب أمامه. أما صبح فكتمت لهفتها على سماع المزيد، وعادت تتشاغل بالغزل إلّا من نظرات خاطفة تسترقها إلى الحكم في انتظار أن يشرح ما قدّم به من عبارات غامضة. فلما طال صمته، لم تعد تقاوم رغبتها، فسألت بالأسلوب العارض نفسه:

- قصّر فهمي يا سيدي.

تظاهر من جديد بأنه يتنبه من غفلة:

- ماذا؟ آه.. نعم.. أعني كنت أحسب أنه لا يرضى عن عمله في جوارنا بديلاً يحمله على فراقنا ولو إلى حين.. والآن..

تريّث لحظة، ثم أضاف:

- .. حتى بادر متطوّعاً ليلتحق بجندنا في عدوة المغرب.

حاولت جهدها أن تداري أثر الصدمة عليها، بينما استأنف الحكم وهو يصوّب إليها أنظاره:

- أليس هذا عجيباً؟! أعني هو عندنا في عافية ونعمة، وليس من أصحاب السلاح فنكلّفه ما نكلّفهم.. فلماذا يختار بنفسه أن يفارق ما هو فيه ليُهْرِق نحره ما لم يُهرف الجند نحورهم له؟ ..

تعمّدت أن تتابع انشغالها في الغزل دون أن تعلّق، بينما تابع الحكم تفحّصها بنظرة مستطلعة. ثم كرر السؤال كأنه يستدرجها إلى الإفصاح عن رأيها. ولكنها آثرت الصمت وتابعت عملها في غزلها لحظات أخرى، قبل أن تسأل باللهجة العارضة نفسها:

- وأذنتَ له؟

قال:

- ما رأيك؟ إنه يعمل لك ولولدك أيضاً!

فاجأها السؤال، وتجنّبت ما أمكنها نظراته الفاحصة؛ ثم أجابت كمن لا يعنيه الأمر كثيراً:

- الرأي رأي أمير المؤمنين.

قال:

- نعم.. الرأي رأي أمير المؤمنين.. هذه هي الديباجة المألوفة. ثم يتلوها رأي المتكلم المستشار!

كان صدرها يضجّ بالمشاعر المختلطة، وقد شعرت من إلحاحه بالسؤال بأنه يبطن غرضاً، فكان عليها أن تفكر بسرعة. فلم تجد إلّا أن تقول:

- الرأي أن تأذن له، طالما أنها رغبته.

قال:

- حتى مع الخطر عليه هناك. والخلافة بعد هنا في حاجته!

حملت نفسها الآن على الإجابة بلا تردد على الرغم مما يجيش في صدرها:

- الحياة كلها خطر يا مولاي. أليس في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: 78].

هز الحكم رأسه، ولم يكن عليه أن يخفي ابتسامة راحة ورضاً أكّدت شكوكها في مغزى أسئلته. وإذ عاد ينظر في الكتاب أمامه، غلبت على ملامحها مشاعر القلق والشرود. وفي تلك اللحظة تلفت إليها هشام وأرسل إليها نظرة ذكية متفحّصة. وإذ لحظت ذلك منه، تعجّلت برفع قطعة الغزل لتخفي وجهها متظاهرة بأنها تدقق النظر فيها!

حين التقته قبل سفره ليطلعها على ترتيباته لأعمالها وأعمال هشام في غيبته، لبثت مطرقة شاردة أول الأمر، قبل أن تسأل:

- متى؟

أجاب:

- في بضعة أيام إن شاء الله.

أطرقت من جديد، ثم قالت:

- لماذا؟ لماذا فعلتها واخترت فراقنا؟

أجاب:

- لم أختَره. إنما أختار ما تختارني له الأقدار، وتُمليه الضرورة. الجيش.. هو شوكة السلطان.. فإذا تولّى سيدي هشام صغيراً، أطال الله عمر أمير المؤمنين فلسوف تختلف القلوب عليه، مع وجود إخوة الخليفة. ولا أشك أن الفتيان الصقالبة سيكونون ضدّه، حتى لا يصير تدبير أمره لكِ ولي إلى أن يكبر ويباشر الحكم بنفسه. والفحولة منهم يحملون أحسن السلاح. أما جند الثغور فلغالب الناصري ويحيى التجيبي وسائر الموالي. وأنا لا أملك شيئاً من ذلك وإن كانت لي تلك المراتب، فإذا حزب الأمر لم تغن عنا شيئاً. فقد آن الأوان أن أخالط الجند وأسعى في أمرهم وأتألّفهم وهذه هي الفرصة. وأعلم من نفسي أني أستطيع أن أفعل ما عجز عنه الناصري حتى الآن. فإذا عدت منها بخير، فقد اكتملت عدّتي أو أوشكت أن تكتمل. وصدّقيني قد بدأ كل طرف يعد عدته من الآن لمعركة ولاية العهد والخلافة. كلٌّ لغرضه. وستكون معركة تقرّر مصير الخلافة.. ومصيرنا معها!

قالت:

- والخليفة يسألني، ما رأيُك؟ هل آذنُ له؟

سأل متعجباً:

– هو استشارك؟ لِمَ وقد كان قد أذن لي وأصدر بذلك كتبه!

تبادلا نظرة خاصة، ثم بدا أنه تَفَهَّم القصد. فسأل:

– وكيف أجبتِه؟

قالت:

– ما ينبغي أن يكون عليه الجواب لسؤال يشفّ عن غيره. نعم ائذن له. أقولها وأداري انخلاع قلبي. وقد رأيت منه بعد ذلك نظرة ارتياح، وكأن غيمة سوداء قد انقشعت من نفسه.

هز رأسه متفكراً وقال:

– إذن، تحقق لنا غرض آخر لم يكن في الحِسبة!

أخيراً قالت:

– اذهب يا أبا عامر. سيكون قلبي معك.. حتى ترجع به!

شيعته بأنظارها وهو يبتعد، والتمعت في عينيها دمعة صامتة، حاذرت أن يلحظها هشام الذي كان يلعب بالكرة والمضرب على بُعد منهما.

* * *

فوجئ إبراهيم الحدّاد بمحمد وصاحبيه عمرو وعليّ يزورونه في بيته. ولكنه لم يكن مستعداً لمفاجأة أكبر تنتظره حين عرف سبب الزيارة.

فصاح متعجباً:

– ماذا؟ أنا للشرطة! أنوب عنك حتى ترجع؟ هل يمازحني السيد الوزير أم يهزأ بي!

فلما رأى جدّه وإصراره قال:

- أنا رجل حدّاد.. عريف الحدّادين.. وما شأني بعمل الشرطة، بل بأي عمل من أعمال الدولة؟

قال محمد:

- ألا تذكر حين كنا معاً في سجن الصقالبة؟ علامَ اتفقنا؟ يعمل كل منا بطريقته نحو الغاية ذاتها، فمن تغلّبت طريقته دعا الآخر إليه. أما أنك حدّاد فما كنت أنا قبل أن أتولى هذه المناصب ومنها الشرطة؟ فما شكا أحد من عملي، بل حزت على رضا العامة والفقهاء كما لم يحز من كان قبلي، وما ذاك إلّا لأنني جئت من أوساط الناس وعرفت حاجاتهم، وانتصفت للضعيف من القوي. وأنت بعد أوثق مني صلة بالناس، ولك في نفوسهم محبة وتقدير سابقان لما علموا من بلائك في سبيلهم. ومن ورائك أصحابك عرفاء الصنائع ومن معهم. فما لا تردعه بالقوة تردعه بالصِّلة. فمن أحقّ منك؟ وأنا في غاية قد اجتمعنا عليها، فمن يعينني على الحق؟

قال إبراهيم:

- أنا رجل راضٍ بصنعتي.

هنا سُمِع صوت أمينة، زوجة إبراهيم، وقد دخلت عليهم:

- أنا لست راضية بصنعتك.

التفت إليها إبراهيم، بينما تبادل محمد مع عمرو وعلي نظرة وابتسامة. أما إبراهيم فصاح بها:

- ادخلي أيتها المرأة. ما شأنك أنت بحديث الرجال؟

أجابت بقوّة لافتة:

- حين لا يكون للرجال شأن بنسائهم، لا يكون لنا شأن بكم. من يتلقاك حين ترجع من عملك برائحة الكير وزحار النار؟ لئن كنتَ أنت قد اعتدته، فلا والله ما هو بالطِّيب الذي تحبه النساء!

أفلت محمد وصاحباه ضحكة قوية، وتابعت:

- والآن يأتيك الوزير في بيتك، ويسوق إليكَ النعمة، ثم تردّها؟ هذا والله هو كفر النعمة وجحودها. فإما أقبَلْت عليها فأقبلنا عليك، وإما أدبرت عنها فأدبرنا عنك.

تحولت ضحكة محمد وصاحبيه إلى قهقهة مجلجلة، وقال محمد مخاطباً إياها:

- لا فُضّ فوك يا أخت العرب!

ثم توجه بالكلام إلى إبراهيم الذي لبث عابساً:

- قد جاءتك بسلطان لا يُرَدّ.

قال إبراهيم متبرّماً:

- ما عرفت هذا منها قبل الآن. وكانت راضية هنيّة لا يُسْمع لها حِسّ، حتى أغواها شيطان الطمع.

ثم التفت إلى زوجه وقال:

- أما علمتِ يا امرأة أنها مغرم لا مغنم، وتكليف لا تشريف؟

وكان جوابها حاضراً:

- إن كنت تراها كذلك، وأنت الفتى الجريء الذي تحدّى الصقالبة، فهيّا، أقْبِل على مغارم المنصب واحتمِل مكارهه. أعانك الله، نحتسبك عنده. زادنا الله من تلك المغارم والمكاره، وقطع نصيبنا من مغانم الحدادة ونفخ الكير!

قالت ذلك بأسلوب تهكمي ساخر، فانطلق محمد مع صاحبيه في ضحكة جديدة. وقال محمد مخاطباً إبراهيم:

- قَطَعَتْ جهيزة قول كل خطيب. قُضي الأمر إذن. وهذا ابن عمي عمرو يصحبني إلى عدوة المغرب. أما صاحبي وصاحبك عليّ فيبقى عيني هنا، ويعينك في غيبتي..

ثم استدرك مداعباً:

- لكن، لا أعود فأجدكما قد ذقتما حلاوة المراتب، فلا تردّان عليّ وديعتي عندكما.. اذكرا.. إنها نيابة لا تغني عن الأصل.

* * *

في المغرب، تلقاه غالب الناصري في معسكره بالترحاب، وإن تعجب من كتاب الخليفة الذي نصّ على تعيينه قاضياً لقضاة المغرب، يصلح قضاءها وينظر في أحوالها، ويتوصّل بعهد أمير المؤمنين إلى شيوخها وأعيانها، على أن تكون له المشورة في جماعة غالب، فلا يقطعوا بأمر كبير حتى يراجعوه فيه وينظروا رأيه. وجاء في الكتاب (وهو عندنا قوي أمين بعد أن اختبرناه في كل أمر، فاستوثقنا من صلاح رأيه وحُسْن تدبيره). وقد كان أمر المشورة أكثر ما أثار عجب الناصري. فما علمُ قاضٍ شاب بشؤون الجيش والحرب حتى يشاوروه في كل أمر ويرجعوا إلى رأيه؟ ولكن، لم يكن للناصريّ إلّا أن يصدع بأمر الخليفة. ولسوف يدرك في وقت قصير حكمة الخليفة في ذلك الأمر.

وقد شهد محمد، عقب وصوله بأيام، مثلاً من قسوة ابن قنون واستهتاره بقواعد الحرب، حين ألقى من على سور قلعته عدداً من أسرى الأندلس إلى حتفهم، وكان عنده ألف منهم. وهدّد أن يفعل مثل ذلك بسائرهم إذا لم يرجع غالب عنه إلى بلده. وكان الناصري والتجيبي

ومحمد في قلة من الفرسان قد صعدوا الجبل واقتربوا من القلعة بحيث يرون ويسمعون دون أن تصلهم سهام العدو. وحين صاح غالب الناصري: «إنهم أسرى أيها المارق»، أجاب ساخراً:

- نعم، أسرى حتى يموتوا، فيصيروا موتى وحسب. ودماؤهم في عنقك فانظر ماذا ترى.

عاد القوم إلى معسكرهم يتميّزون غيظاً، وقال الناصري:

- لئن ظفرت به، فلن يشفي غليلي قتلُه حتى أُقَطِّع يديه ورجليه من خلاف. ما أعياني أحد مثله من قبل. وكلما سمعت بغزو الجلالقة والقشتاليين لثغورنا ثارت نفسي ولم أجد ما أسكّن به ثائرتي.

ثم نظر في الحضور، وتوقف نظره عند محمد وهو يسأل:

- أشيروا عليَّ أيها الناس.

قال محمد:

- قد علمنا أنه لا يحفظه إلّا القبائل التي تناصره سرّاً أو علانية. وقد بذلتم لهم الأموال فلم يُجد ذلك كثيراً.

قال التجيبي:

- تتظاهر بالطاعة والقبول، ثم تمدّه سرّاً. فكأننا ننفق عليه ليقتلنا بأموالنا.

سأل محمد:

- وكيف توصلتم إليهم بالنفقة؟

أجاب غالب:

- رسل بيننا وبينهم.

هز محمد رأسه وذهب في التفكير قبل أن يقول:

- لعلهم يطلبون أكثر من المال:

نظر القوم إليه مستطلعين، فأكمل:

- هؤلاء قوم ذوو أَنَفَة. يطيعون شيوخهم أكثر من طاعتهم للعُمّال والأمراء، وحتى السلاطين، وينفرون من الخضوع، إلّا أن يُعامَلوا معاملة الأكْفاء الأنداد. يرضيهم إظهار التقدير والإجلال لهم أكثر مما يرضيهم المال الذي يرونه حقّاً لهم، على كل حال. فإذا كان الغد أخرجوا لي أدلّاء ذوي قوة وعلم بأحوال البلاد. والله المستعان.

قضى محمد بن أبي عامر، وفي صحبته عمرو، زهاء شهرين يتنقل بين القبائل في منازلها. وبدأ بقبيلة كتامة العظيمة. فنزل في ضيافة شيخها أبي العيش بن أيوب. وأبدى له من التواضع والتقدير ما طيب خاطره، وتوصّل إليه بسلام أمير المؤمنين وسِجلّ منه يقرّه على رئاسة كتامة ومنازلها وأراضيها لا ينازعه إياها أحد إلّا صار عدواً لأمير المؤمنين، فحق عليه قتاله إلى جانبه. ولا يتدخل ولاة الأقاليم في عمله، فله الجباية على قومه على وفق القواعد المقررة في شرع الله، وله إنفاقها فيما ينفع قومه ويصلح أحوالهم، لا يراجع أحد على دفاتره وعمله، إلّا أن يتوصّل أحد من قومه إلى عامل أمير المؤمنين بالشكوى، فيُنظر فيها بحضوره وحضور ذوي الأسنان المقدّمين من القبيلة. وإذا وقع المَحْل في ديارهم وقلّت الجباية أغاثهم عُمّال أمير المؤمنين، على قدر ما يسدّ النقص. أما القضاء، فإذا كان عندهم من هو أهل له، كان أَجْدرَ بالمنصب، ويجري عليه راتبه من بيت المال. وإن لم يكن لم يلزمهم الوالي إلّا رجلاً يرضونه بعد سؤالهم عنه واستيثاقهم منه. ولهم فوق ذلك أن يختاروا من فتيانهم من يتوسمون فيه الخير والنباهة، فيوفَدُ إلى فاس ليدرس في جامع القرويين على نفقة أمير المؤمنين ومن خاصّة ماله، حتى إذا عاد قعد للدرس أو القضاء على وفق تحصيله. وذلك كلّه ليكون أمرهم بينهم لا يُزاحمون فيه. ثم ختم محمد بالقول:

- أمرني أمير المؤمنين فوق ذلك أن أنظر في حاجة الآبار وحفرها وإصلاح ما فسد منها فأنفق عليها بقدر الحاجة والطلب. فإن فاتنا بعد ذلك شيء مما تحتاجونه وهو حق لكم، فقد خوّلني أمير المؤمنين أن أستمع وأنقُل. وأنا أخوكم وولدكم وخادم أمير المؤمنين الذي جعلني خادماً لرعيّته.

تعمّد محمد أن يقرأ فحوى السِّجل ويعلن تلك التعهّدات على مسمع من شيخ القبيلة ورجالها الذين تحشّدوا حوله كي يعلم الجميع أن ما جاءهم به من المكاسب أعظم مما يمكن أن يمنحهم إياه ابن قنون لو تمّ له الأمر. وما إن فرغ حتى تهللت أسارير الحضور وعلا لغطهم بالدعاء لأمير المؤمنين. وحين دعاه الرئيس أبو العيش للجلوس مكانه في صدر المجلس أبى قائلاً:

- لا والذي بعث محمداً رحمةً للعالمين وأرسله للناس كافة، لا أجلس في مكانك ولا في مكان ذوي الأسنان، بل مقامي حيث أقامني ربّي.

والتمس مقعداً بين الجلوس أمام دهشة الحاضرين وإعجابهم بهذا الشاب الذي بلغ أن يكون قاضي القضاة وانتدبه الخليفة ليصلح أحوال الناس. وكان محمد قد حفظ بعض العبارات بلغة القوم البربريّة فخاطبهم بها على سبيل التحبب، فكان لذلك أطيب الأثر في نفوسهم. ولم تمنعه مرتبته من أن يشارك في الرقص التقليدي الذي أدته جماعة من القبيلة احتفاءً به، على أنغام المزامير وإيقاع الطبول، ثم في عروض الفروسية الرائعة التي اشتهروا بها. فما إن انقضت مهمته في القوم وودعهم، حتى كان من أحب الناس إليهم.

ثم فعل مع القبائل الأخرى مثل الذي فعل مع كتامة بلا كلل ولا ملل، حتى بلغ الجهد بركبه وابن عمه عمرو. وحين دعاه عمرو إلى بعض الراحة قال:

- إن أرَحْنا فلا يريح العدوّ. وقد تعني راحة ساعة موت رجال كان في وسعنا أن نحفظ دماءهم.

وكانت وجهته الأخيرة منازل بني برزال في مدينة طنجة، وعلى رأسهم جعفر بن عليّ بن حمدون وأخوه يحيى. وكان بنو برزال أشدّ الناس بأساً وأكثرهم حميّة وأنفة. وكان هواهم مع الحسن بن قنّون يمدّونه بالعدد والعدّة والمؤونة. وقد تعمّد ابن أبي عامر أن يؤخّر زيارتهم حتى يفرغ من سائر القبائل البارزة المعروفة بميلها إلى ابن قنّون، حتى إذا تحوّلت عنه إلى خليفة الأندلس وجيشه، صار إقناع رؤساء بني برزال أهون عليه. وهؤلاء قوم يحتاجون إلى طريقة مختلفة في التفاوض والإقناع غير بذل العطايا. فقد كان جعفر وأخوه يريان نفسيهما أهلاً للملك، ولكنهما آثرا مؤازرة ابن قنّون لاجتماع القبائل الكبرى عليه في أول أمره. وكانا قد استغنيا بمالهما الوفير عن عطايا الملوك، وكانا في منعةٍ مع فرسانهم المشهورين بالبأس. فكان همهما الرئاسة في المقام الأول.

استقبل جعفر بن علي بن حمدون محمد بن أبي عامر في منزله الفخم في مدينة طنجة. ولما برز جعفر لمحمد قام له هذا مقبلاً عليه بالسلام وقال:

- القائد جعفر بن عليّ.. فارس المغرب! لكم تشوّفت للقائك بعد كل الذي تسامعنا به عنك!

سلّم جعفر دون أن يبدي حماساً كبيراً. وحين جلس الجميع سأل جعفر:

- لماذا يخصّنا قاضي القضاة بهذه الزيارة؟

أجاب محمد:

- ننزل الناس منزلهم، وأنتم أجدر الناس بمنازل الشرف والتكريم. وقد طار صيتكم في الأندلس كما في المغرب، حتى قال الناس هناك: هو من المغرب كغالب الناصريّ من الأندلسّ، إلّا أنه أفْتى. هل تصدّق أن

الناس في الأندلس إذا دهمتهم داهية أعيت الفرسان المقدّمين، قالوا: ادعوا لها فارس الأندلس جعفر بن عليّ وأخاه يحيى، فإن المغرب والأندلس كهاتين..

وأشار إلى عينيه، ثم استأنف قائلاً:

- وإذا كان هذا ظن الناس الذين سمعوا بكم ولم يَرَوكم، فكيف إذا رأوكم. وهو في المقام الأول رأي أمير المؤمنين، يوصيني فيقول: إذا نزلت المغرب فاحرص على لقاء جعفر وأخيه، فإليهما تنتهي الغاية. وهما رجلان إذا عاهدا صدقا، وليس من طبعهما التقلّب والمباطنة.. كبعض الناس!

وغمز بعينه، يلمح إلى ابن قنون. وتابع:

- وتلك أخلاق الفرسان من أهل المروءة والتذمّم. فإن وافقاك فنعم النصير، وجزاؤهما عند أمير المؤمنين موفور. وإن.. خالفاك، فخلافُ معذور، وخصم نودّ لو كان أصحابنا مثله، ولا تسرنا هزيمته أكثر مما تسرّنا هزيمتنا، لا قدّر الله.

كان جعفر قد تحوّل بملامحه من العبوس واللامبالاة إلى الاهتمام، وقال:

- أهذا قول أمير المؤمنين؟

أجاب محمد بحماس أكبر:

- وأكثر منه. فقد قال: لو جاءني ولدا علي بن حمدون، جعفر ويحيى، لأكرمت وفادتهما واستقبلتهما استقبال الملوك، ثم أنزلتهما عندي في خير منزل، حتى يشهدا طرق الخلافة، فإذا تمرّسا برسومها، لم يعودا إلى المغرب إلّا بسجل أمير المؤمنين، يولّي أحدهما المغرب.. وخصّك بالذكر.

ازدادت ملامح جعفر تنبّهاً والتمعت عيناه وقال:

- ولاية المغرب؟

أجاب محمد:

- بل قال: تالله ما فوّتنا على أنفسنا من الخير حين وليناها الحسن ابن قنّون، ونظرنا إلى نسبه في ملوك الأدارسة الغابرين، وقد تبيّن نكثه، بعد أن أعطى بيعته وعهوده، وحلف عليها أغلظ الأيمان، وأثبت أنه لا يريد الخير إلّا لنفسه ولو أهدف صدور أصحابه وأنصاره جميعاً للرماح. وكان الحق أن تُصرف إلى مَنْ إذا حدّث صدق، وإذا وعد أوفى، وإذا اؤتُمن أدّى الأمانة. ثم قال: عجيب أمر جعفر ويحيى ولَدَيْ عليّ بن حمدون، ما الذي يجمع بينهما وبين الحسن بن قنّون، وهما وإياه كالليل والنهار، والثرى والثريا، والحق والباطل. فهذا رجل خبيث النفس لا عهد له، وهذان رجلان كما وصفت، إلّا أن يكون قد عرف لهما حقّاً فاتنا إدراكه، ولكن لا يفوتنا استدراكه. وماذا بيد الحسن بن قنّون يعطيه لهما؟ وهل يعطي الذي لا يملك بعض ما لا يملك؟ وما هي إلّا ليلة أو ضحاها، ثم نظفر به. فها هي القبائل قد عادت إلى طاعة أمير المؤمنين: زناتة، وهم حلفاؤك من قديم يا أبا عليّ، وغَمارة، وكتامة، بل قبائل من صنهاجة أيضاً، وقد كانوا أصحاب ابن قنون، فعدلوا عنه، لِما رأوْا من غدره وكذبه وقتله الأسرى. فأنفوا أن تصيبهم من أعماله شائنة وقد كان من هؤلاء مدده ومؤونته. فماذا عساه إذن يعطي وقد اقترب هلاكه وحانت ساعته؟

أخذ نفساً، واحتسى من كأس شرابه حسوة صغيرة، ثم تابع:

- وحتى لو كان بيده، فكيف تكون له اليد العليا على من حَقُّه أن تكون يده هي العليا عليه؟ أعني أنت يا أبا عليّ. ولماذا ترضى بأن يعطيك بعض ما بيده لو كان شيء فيها، وأنت أحق به كلّه. وأنا لك ضمين بأن تتولّى أمر المغرب كلها في وقت غير بعيد، ومن يد أمير المؤمنين التي تملك أن تعطي. فاعزم أمرك. فإن اخترت ما يختار لك أمير المؤمنين فقد وفقك الله للغاية، وإن رأيت غير ذلك نبذنا إليك على سواء، وقاتلناك قتال من

فُرِض عليه القتال وهو كرهٌ له، ولكنه موعود بالنصر المبين. وقد قلت قولي، وبلّغت رسالتي، وعندك مآل الأمر، فانظر ماذا ترى.

*   *   *

ما إن أنهى محمد مهمته مع القبائل حتى كانت حظوظ ابن قنّون قد انقلبت عليه. فتوقف عنه المدد، وتوقفت معه غارات القبائل على جيش الناصري، بل بدأت قطع من القبائل تنضم إلى جيشه. وحين عاد إلى معسكر الناصريّ، ضرب هذا على ذراعه متحبباً وقال:

- لا بأس بك يا أبا عامر.. لا بأس بك. نحن العسكر ننسى أحياناً أن الفوز في الحرب لا يُنال فقط بالسيف، وإنما كذلك بالسياسة والكياسة. عرفت الآن لماذا قدّمك أمير المؤمنين وأنت بعد في هذه السن.

ثم تحوّل إلى لهجة أخرى بين المزاح والجدّ:

- ولكن لا يغرنّك ذلك فتتطلع إلى ما هو أعلى منه، فليس بعده إلّا الحجابة.

قال محمد وهو يحدّق في الناصري ليرى أثر الكلام الذي سيقوله فيه:

- لا ننازع الأمرَ أهلَه، ولا نزاحم سيدنا شيخ الموالي: الحاجب المصحفي.

انقبض وجه الناصري من الفور، وقال بشيء من الاستخفاف:

- آه.. نعم.. المصحفي.. هه!

قال محمد وهو يرمقه:

- هل ساءك أمر منه يا سيدي؟

قال غالب:

مكتبة
t.me/t_pdf

- لا نعترض على رأي أمير المؤمنين.. جعله الحاجب للصحبة القديمة، دون سابقة عظيمة منه ولا بلاء في حفظ الدولة، ولا منزلة قديمة متقدّمة في الموالي. فسكتنا وأطعنا، وقلنا: قد بدا لأمير المؤمنين الآن، وقد يبدو له غيره بعد حين.. ولكن.. شيخ الموالي؟ هذا أمر يتواطأ عليه الموالي أنفسهم، فهم يعرفون كبيرهم.

تدخل يحيى التجيبي هنا، وقال مشيراً إلى الناصري:

- ليس لنا شيخ غير أبي عبدالرحمن. أما المصحفي فله علينا حق الطاعة فيما عهد إليه أمير المؤمنين من عمل الحجابة.. وإن كان في النفس منها حاجة، بل حاجات.

كان هذا ما أحب أن يسمعه محمد بن أبي عامر. فهو يوافق خططه البعيدة. وقد تأكد له الآن أنه ليس ثمة عصبة بلا ثغرة يمكن المروق منها. فلقد تجتمع العصبة على غيرها، ثم تفترق بين المتنافسين على زعامتها ومكاسبها. ولكن غالبا الناصري ردهم إلى الحاضر إذ قال:

- ما لنا ولهذا الآن. فلكل شيء حين وأوان، ومن شأن الأمور أن ترتد إلى نصابها ولو بعد حين. أما الآن، فننظر ما يفعل هذا المارق: الحسن ابن قنّون.

* * *

لم يعد في وسع الحسن أن يفعل الكثير في ذلك الوقت، وقد بدأت الأقوات تنفد في قلعته، حتى إن بعض رجاله فارقوه متسلّلين من القلعة إذ أدركهم اليأس. واليأس يدفع إلى مجازفات خطيرة. وهذا ما بيّته بليل ووضع خطته.

كان محمد بن أبي عامر يتناول طعام العشاء مع عامة الجند كما درج منذ نزوله المعسكر، على الرغم من إلحاح الناصري عليه بأن يتناول

طعامه على مائدته في القبة المضروبة له حفظاً لهيبته وهيبة منصبه. ولكن محمدا كان حريصاً على مخالطة الجند وتألّفهم بتواضعه. بل إن الجند أنفسهم اعترضوا على ذلك أوّل مرّة إجلالاً للوزير وقاضي القضاة، حتى قال قائلهم:

- طعام الجند ليس في منزلة قاضي القضاة.

ردّ قائلاً:

- وأي المنازل أعظم من منازل الجند؟ أليسوا شوكة الدولة ودرعها؟ وما يبقى للقاضي والوزير والحاجب، وحتى الخلافة، إذ ضُيِّعت الدولة وغلب عليها عدوها، لا قدّر الله.

ثم ذكر لهم منبته البسيط في حصن طرّش والجزيرة الخضراء، وأن جدّه البعيد عبد الملك بن معافر كان في جيش طارق، وقد فتح الله على يديه أول مدينة في الأندلس: قرطاجنة. ثم قال:

- وإني لأتخيّله الآن يجلس مجلسي هذا بين جنده، وبهم انتصر.

ثم أخبرهم أن أمير المؤمنين قد عهد إليه أن ينظر في حاجات الجند، وأناط به النظر في النفقات فيبذل فيها ما تصلح به أحوال الجند وأهاليهم من ورائهم، حتى تفرغ نفوسهم من كل شيء إلّا القتال وطلب النصر. ثم قال متهكماً من أهل المراتب والغنى.

- عجبت من هؤلاء. إذ ذُكِرت لهم نفقات الجند وأُعطياتهم قالوا: لِمَ يُزادون فيها، والأصل أنهم يطلبون أجر الجهاد وثواب الآخرة؟ سبحان الله. كلمة حق يراد بها باطل. وأنا أقول: نعم، الجندي يلتمس الأجر عند الله، ويعفّ عن الطلب حتى لا يحبط أجره. ولكن، نحن الذين جعلنا الله على ولاية من الأمر، لماذا لا نعينهم على الحق فنكفيهم حاجة أهاليهم حتى لا يلتفت أحدهم وراءه، فإن الأبناء، كما قيل، يُجبّنون ويُبَخّلون.

في تلك الليلة لبث محمد مع جمع من الجند يجاذبهم أطراف الحديث، بينما رقد القادة وجلّ أهل المعسكر. وفجأة سُمِعت جلبة خيل تقترب من المعسكر، ففزع القوم إلى سلاحهم وتراكضوا إلى جهة الجلبة. وما هي حتى التحموا مع جند الحسن بن قنون الذين أغاروا على طرف المعسكر، في قتال عشوائي وقد عمّت الفوضى. وتمكّن جند ابن قنّون من إشعال النار في بعض الخيام مغتنمين وضع المباغتة. وفي تلك الأثناء هبّ سائر الجند والقادة من فراشهم وتلاحقوا على غير نظام بين راجل وراكب. أما محمد فكان مع الجمع الذي تلقى الصدمة الأولى، وانخرط معهم في القتال. وقبل أن يكتمل حشد المعسكر وينتظم، كان محمد والجمع الأول ومن تمكن من اللحاق بهم على عجل قد استطاعوا صد عسكر ابن قنون ودحره وألزموهم الفرار، ثم ركبوا في أثرهم على ضوء القمر الذي كان بدراً مكتملاً في تلك الليلة، حتى عبر الفارون أحد المسالك الضيقة بين الجبال وغابوا عن الأنظار. وهنا نادى محمد في العسكر أن يتوقفوا ويكفوا عن الملاحقة خشية أن تكون الخطة استدراجهم إلى كمين. وما هي حتى أدركهم الناصري والتجيبي بقطعة من الجند. وكان الناصري أول من تنبه إلى أن محمداً كان قد أصيب بضربة سيف في عضده لم تقعده عن متابعة القتال والملاحقة.

ولم يدرك القوم خطة ابن قنون حتى عادوا إلى المعسكر ليجدوا أن معسكر الأقوات الذي يقع على بُعد وراء المعسكر الرئيس قد أغير عليه ونُهب قدر منه وقُتل بعض حرسه قبل أن تدركه مجموعة أخرى من العسكر. وكانت تلك هي الغاية الأولى من الغارة المباغتة على طرف المعسكر الرئيسي، حتى ينشغل الجند بالقتال ثم الملاحقة عن الغارة الأخرى على الميرة والأقوات. وعلى الرغم من حنق الناصري وغضبه الجارف مما وقع، فقد أدرك أن هذه كانت فعلة رجل يائس لم يعد عنده من المؤونة ما يحفظه وجماعته.

كان الصبح قد أبلج حين رأى الناصري جمعاً كبيراً من الجند يتحلقون حول ابن أبي عامر، قاضي القضاة الذي جمع بين الرأي والسيف، فأبلى بلاءً حسناً في صدّ الغارة المفاجئة، وقاد الجمع الأول بنفسه، ولولا سهره مع الجند حين كان الآخرون راقدين، لكانت العواقب أشد وأنكى.. ولم يبطئ به جرحه عن مواصلة القتال حتى آخره.

همس الناصري للتجيبيّ وهما يصوّبان النظر نحو محمد ومن حوله:

- لم يبالغ القائلون.. للفتى سحر! على الخاصة والعامة.. الرجال والنساء.. سواء.

تبادل القائدان نظرة خاصة موحية مع الابتسام.

المعركة الفاصلة الأخيرة لم تكن بين جند الناصري وجند ابن قنّون، وإنما دارت داخل القلعة، بين الأصدقاء هذه المرة، وبدون سلاح. فحين قدم جعفر بن علي بن حمدون، سيد بني برزال، على الحسن، ابتدره هذا باللوم والعتاب على تأخّر مدده ونصرته بعد الذي كان بينهما. ولكن جعفر قاطعه على عجل قائلاً بلهجة قوية:

- أنصت يا ابن قنون.. قد طال هذا الحصار..

لم يتركه الحسن يتم كلامه، فقال:

- عليّ كما عليهم. ولكني أصْبَرُ عليه منهم، لو جاءني منكم العون الذي انتظرته.. فلا يسعهم البقاء هنا وقد فرغت ثغورهم في الأندلس، وصاروا بين نارين: هنا وهناك. وما تلبث أن تتغلب حاجتهم هناك على حاجتهم هنا. والحرب صبر ساعة.

قال جعفر بنبرة أشد:

- وأنت.. يسرّك أن تُخلى ثغورهم في الأندلس ليعدو عليها العدو؟ بل هي ثغورنا كذلك يا ابن قنّون.. وعدوهم هناك عدونا.

قال الحسن:

- هم ألزمونا، وألزموا أنفسهم.

ارتفع صوت جعفر وهو يقول مؤنّباً:

- وأين الدين؟ وأين الذمّة؟ وأين مخافة الله؟ وما يقول بنا المسلمون في المغرب والأندلس الآن؟ أما علمت أن قلوب القوم قد تغيّرت عليك؟ يقولون: مجاهدة عدوّ الملّة أولى، وكان أولى بالحسن بن قنّون وجنده أن يخرجوا إلى الأندلس فيقاتلوا إلى جانب من يقاتلونهم هنا. لا يا ابن قنّون، إن السلاح الذي تتهددهم به قد ارتد عليك الآن، وإما أن تستدرك قبل الفوت، وإلّا لم تجد لك صاحباً، ثم تضيق عليك الأرض بما رحبت. وأنا أقول لك: إن لم تلتمس لك مخرجاً من الساعة، فإن أول سيف يُرفع عليك هو سيفي وسيوف بني برزال. وما كنت لأغدر بك حتى أواجهك صراحاً وأنبذ إليك على سواء. فانظر رأيك.

أطرق الحسن يائساً منقبضاً، ثم سأل بصوت خفيض:

- وما المخرج، وقد كان بيني وبينهم ما كان؟

* * *

في معسكر غالب الناصريّ كانت مهمة جعفر أكثر صعوبة. فقد كان من الطبيعي أن يرفض الناصري العرض الذي جاء به جعفر، وهو دخول الحسن في السلم والطاعة لأمير المؤمنين، وقال مُغْضَباً:

- الآن بعد كل جرائمه وقد صرتُ على وشك الظفر به؟ ما لهذا جئنا من الأندلس.

ذكّره جعفر أن الرجل ما زال فيه قوة ويستطيع أن يصبر شهراً آخر أو شهرين قبل أن يظفر به الناصري. وفي هذه الأثناء تبقى ثغور

الأندلس منكشفة للعدو مع ما في ذلك من الأخطار التي يمكن أن يتسع خرقها على الراتق، فتكون تكاليف الانتقام من ابن قنّون من دماء المسلمين وأراضيهم. ثم ذكره أن الرجل وإن أساء وعصى وغدر، فهو من سلالة الملوك الحسنيّين الأدارسة، وكان لهم من البلاء في بلاد المغرب ما يعرفه القاصي والداني. فإن لم يكن العفو من أجل الحسن نفسه، فوفاء لذكرى آبائه.

مرّت لحظات صمت وتفكير، ثم نظر غالب إلى محمد بن أبي عامر يستطلع رأيه، فقال:

- أما أن يبقى في هذه البلاد فيرجع إلى نكثه، فلا والله. فإن كان لا بد أمّناه على أن يخرج معنا إلى الأندلس مع أفضل جنده حتى يكون في نظر أمير المؤمنين وفيئه. وبذلك نأمن شرّه إلى الأبد.

هز جعفر رأسه هزّة القبول. وكذلك فعل التجيبي، وانبسطت أسارير غالب الناصري أخيراً. ثم فاجأ جعفر بالسؤال:

- ولكن أنت. ما الذي غيّر رأيك، وكان هواك عنده؟

أجاب جعفر:

- الحقّ أحق أن يُتَّبع.

ثم التفت نحو محمد مبتسماً. وفهم الناصري والتجيبي المغزى.

عاد الناصري إلى الأندلس بجنده وفي صحبته محمد بن أبي عامر، وجعفر بن علي بن حمدون في قطعة من فرسان بني برزال الأشداء، والحسن بن قنّون في كوكبة من مقدّمي عسكره. وخَلّف وراءه في المغرب القائد يحيى التجيبي عاملاً عليه حتى يختار أمير المؤمنين والياً جديداً عليها من أهلها بعد ابن قنّون. ونزلوا الجزيرة الخضراء، جنوب الأندلس، أولاً، ومرّوا في طريقهم قريباً من حصن طرّش. وهناك خرج محمد بن أبي عامر من الركب وتوقف بجواده يجيل بصره في مدارج الطفولة والصبا ومنبت أحلامه الأولى التي لم يكن يصدّقها سواه. وتذكر أمّه التي لم يمهلها الأجل طويلاً بعد فراقه، فلم يشهد موتها ولا دفنها ففاضت عيناه من الدمع، ولم يحاول مداراتها عن ابن عمه عمرو الذي لحق به. ثم أشار عمرو بيده وقال:

- هناك! شجرة السنديان القديمة التي كنا نجلس تحتها، أنت وأنا وزياد، ونتعرّض للمارة لنبيع الصوف.. و..

تريّث لحظة وتابع مبتسماً:

- ماء النعيم!

ضحكا معاً ضحكة قصيرة، وأردف عمرو:

- غفر الله لنا..

ذهبا من جديد من التأمل وإجالة النظر، ثم همس عمرو كمن يحدِّث نفسه:

- أين أنت من الأرض يا زياد، وما صنع الله بك؟

ثم التفت إلى محمد وقال:

- هل نراه يوماً؟ وإن عاد إلينا، هل يعود وقد حقق أحلامه، كما تحققت أحلامك يا أبا عامر؟

هز محمد رأسه هزّة الحائر، دون أن يبادره الشرود. ولكنه قال بهدوء:

- ليس بعد يا عمرو.. ليس بعد.. ربّما بلغت منتصف الطريق، وبقي نصفه، ولعلّه الأصعب.

قال عمرو:

- وكذلك طريقنا الآن إلى قرطبة.. هيّا، قبل أن يبتعد عنا ركب الناصري.

حين لحق بالناصري من جديد، نظر إليه الناصري متأملاً وقال:

- منزلك الأول! ومنازل قومك! وملاعب الطفولة: آآه.. نعم.. لا ينسى الإنسان منزله الأول ولو بلغ أعظم المنازل في غَيْره. ولكن، لا تُطِل الالتفات وراءك، إلّا لتحمي ظهرك.

والتفت وراءه ثم قال متهكماً:

- من أمثال ابن قنّون ذاك!

وأردف:

- كنت أرجو أن أعود برأسه فقط، لا أن أعود به معززاً مكرّماً.

قال محمد:

- قد عدت بخير من رأسه. وراءنا أعظم جنده، فضلاً عن صناديد بني برزال مع جعفر بن علي.. وهؤلاء كانوا علينا، وسنجعلهم لنا.

قال الناصري مشيراً إلى ابن قنّون:

- والله لا أحبه حتى أنسى ما فعل بأولئك الأسرى.. وهذا ما لا يكون.

قال محمد وقد رجع إلى طبيعته:

- ليس في السياسة حب ولا كره يا أبا عبدالرحمن. وإنما تأسى على الحبّ النساء!

قال غالب بلهجة مرحة:

- فقط، النساء؟ فلماذا أفاض كل أولئك الشعراء العشاق بذلك الشعر، يبكون فيه ويستبكون؟

قال محمد:

- لذلك لم يبلغ أحدهم ما بلغ القائد غالب الناصري.

قال غالب:

- وعنترة؟ ألم يكن شاعراً وعاشقاً يصرع الأبطال الصناديد، ويصرعه رمش كحيل؟

أجابه محمد:

- فارس، نعم. ولكنه عبد محروم.

قال الناصري:

- والشيخ إذا صار في عمري، ألا يكون محروماً؟

أجاب محمد متحبباً:

- لو شاء غالب الناصريّ، لتزوج ابنة سبعة عشر، كأنها البدر في الليل الداجي.

ضحك الناصري وقال:

- بارك الله بك على حُسْن ظنّك.

قال محمد:

- غَلَوْتُ؟

أجاب الناصري:

- أبداً. هو كما قلت.. ابنة سبعة عشر.. بل ابنة خمسة عشر. أوَ تحسبَ أنك وحدك الفتى أيها القاضي الذي يقضي في الرجال، ولا يقتضي من نفسه للنساء المسكينات اللواتي صرعهن بفتوته.

غمز لمحمد مع عباراته الأخيرة مبتسماً، وحدّق فيه محمد مستطلعاً، فأردف الناصري قائلاً:

- لا يتحدث الناس في فطنتك ومواهبك إلّا ذكروا معها سحرك على النساء!

قال محمد:

- أهكذا يقولون؟

استأنف غالب مداعباً وهو ينظر أمامه:

- ولست أحسدك على الفطنة والمواهب. إنما أحسدك على الثانية.

التفت إليه الناصري من جديد وقال:

- ولكن، كان يجب أن تشهدني في شبابي.

قال محمد مبتسماً:

- شباب دائم يا أبا عبدالرحمن. وهو هنا في القلب.

ودقّ على صدره. قال غالب متهكماً:

- عزاء المغلوب على أمره..

ثم أردف مستدركاً:

– وإن كنت غالباً.

أطلق الرجلان ضحكة خفيفة. ثم التفت الناصري إلى محمد بنظرة عميقة مفعمة بالمودة والإعجاب، وقال:

– لقد أحببتك أيها الفتى. هل تعلم هذا؟ كأنك خُلقت جنديّاً. ويسوؤني أن نفترق إذا بلغنا قرطبة.

قال محمد:

– من يدري؟ ربما انضممت إليك في الثغور يوماً، فتعلمت منك فنون الحرب. فكما قلت: هواي هناك. وحتى ذلك الحين، فأرجو أن تعلم أنّ لك صاحباً في الزهراء يعرف مكانتك وحقك. ولن يألو جهداً في خدمتك.. حتى.. تعود الأمور إلى نصابها!

قال ذلك بلهجة متأنيّة موحية، ملمحاً إلى تنافس الناصري والحاجب المصحفي على مشيخة الموالي.

هزّ الناصري رأسه متفهّماً، وأعقب قائلاً بلهجة مبطنة:

– واحرص أيها الفتى على سحر النساء. فإنه أمضى حدّاً من السيف، وأقوى من عمل الجيوش!

رمقه محمد بنظرة متفحّصة تجاهلها الناصري ناظراً أمامه إلى الأفق البعيد.

* * *

حين اقترب ركب الناصري ومحمد من قرطبة، كانت صبح تقف في المنظرة ومعها وصيفتها الأولى وصاحبتها بدور. ولما رأتها بدور تطيل النظر إلى الأفق، علقت قائلةً:

- هل تتوقعين أن تريه في الأفق؟

قالت صبح بتلهّف:

- ألا ينبغي أن يصلوا اليوم؟

قالت بدور:

- وهل تحسبين أنه إن وصلوا، غادَرَ الجمع ولقاء الخليفة من فور وصوله، وشَخَص إليك؟ وطّني نفسك على بعض الصبر. فما بقي من وقت غيابه إلّا أقلُّه.

أرسلت صبح نفثة حرّى، وقد غلبها البوح، فقالت:

- قد ألفت مطلعه كما يألف الفلّاح بزوغ الشمس في كل صبح.

قالت بدور مداعبةً:

- أنت صبح!

عقبت صبح قائلةً:

- وهل يكون صبح بدون شمس؟

قالت بدور وهي تتأمّلها:

- تالله لقد قتلك الحبّ.

قالت صبح:

- سَلِمت يدُ قاتلي!

تبادلتا ضحكة خفيفة، قبل أن ترتدا داخلتين.

* * *

كان استقبالاً حافلاً يليق بملوك، عملاً بأمر الخليفة. وخرج أهل قرطبة إلى خارج الأسوار ليشهدوا المناسبة العظيمة. وبينما تابع موكب

الناصري سيره نحو الزهراء كان حرس الخليفة من الفتيان الصقالبة يحيطون بالركب بملابسهم المزركشة، ويتقدّم الجميع ضاربو الطبول والصناج. وكان بين حشود النظّارة عدد ممّن عرفوا محمداً أيام عمله في السوق، ومنهم مالك وطريف اللذان أخذا يدافعان الناس ويتقفّزان وهما يلوّحان بأيديهما لعلّ محمداً أن يتنبه إليهما. وحين فعل أخيراً حياهما ملوّحاً بيد، فتهللت أساريرهما وأخذا يتلفتان في الناس حواليهما بتفاخر واعتداد، رجاءَ أن يكونوا قد تنبهوا للتحية التي خصهما بها الرجل العظيم.

في مدينة الزهراء الملكيّة، كان ثمة استقبال عظيم آخر ينتظرهم في ساحاتها. وكان على رأس المستقبلين الحاجب المصحفيّ وعدد من كبار الوزراء والأعيان والقادة، بينما اصطفت أعداد أخرى من فتيان القصر وحرسه، ونفخت الأبواق وضربت الطبول. وكان هذا الاستقبال خاصّاً بالناصري وابن أبي عامر، والحسن بن قنون وجعفر بن علي بن يحيى وعدّة قليلة من مقدّمي أصحابهما. أما سائر الجند فاقتادهم بعض الفتيان إلى معسكرات أُعدت لهم. بينما ترجل الناصريّ ومحمد ومن معهما لمصافحة الحاجب وسائر المستقبلين.

كانت صبح تقف مع بدور في المنظرة وترسل أنظارها متلهّفة لتمييز محمد بين الجمع، ثم هتفت وهي تشير:

- هناك.. إنه هناك.

سارعت بدور إلى القول محذرةً إياها:

- لا تشيري فيراك أحد.

قالت صبح:

- من يعلم إلى من أشير؟

ثم استدركت على نفسها وقد غلبتها لهفة المحب الذي برّح به الشوق، وقالت:

- بلى.. كما قلتِ.. وأي هؤلاء يُشار إليه غيره؟

وترقرقت دموع الفرح والشوق في عينيها. ثم هتفت من جديد:

- هل يرانا؟ انظري.. كأنه ينظر صوبنا!

قالت بدور:

- اتركي بعض ضلالك.. العفو يا سيدتي.. ولكن كيف لنا أن نلحظ الالتفاتة والنظرة من هنا؟

أجابت صبح:

- أنا أرى.

قالت بدور:

- بعين القلب والتمنّي.. وهما يوهمان.

- بل هما عين الحقيقة، لو كان لك قلب تَرَيْن به!

تنهّدت بدور وقالت:

- القلب موجود، وعين بصيرة.. ولكن أين من تقع عليه العين؟

ثم قالت وهي تهز سيدتها:

- هيا ادخلي، قبل أن يرى أحد ما تحرصين على إخفائه.. هاهم يتفرقون هنا الآن على كل حال.

سبقت بدور إلى الداخل، بينما تريّثت صبح في مكانها تتابع النظر. وحين ارتدت أخيراً للدخول، وجدت هشاماً لدى باب المنظرة متوارياً إلّا من بعض ما يسمح له بالنظر إليها. تبادلا نظرة غامضة جامدة متفحّصة، تدارت منها بأن ضمّته إليها وأخذت تربّت على شعره.

* * *

بينما نزل ابن قنون وجعفر بن عليّ وأصحابهما في بعض دور الزهراء، حتى يأتيهم إذن أمير المؤمنين بالدخول عليه، تعجل محمد لقاء الحكم قبل العودة إلى منزله، فاستأذن في الدخول عليه في مجلسه الخاصّ. وبعد أن قبّل يده قال:

- اعذرني يا أمير المؤمنين. ولكن، ما كنت لأرى أهلي قبل أن أرى أمير المؤمنين وأقبّل يده.

قال الحكم:

- أما يدي فقد قبلتَها. وأما يدك فقد عرفنا حقّها حين بلغَنا عملك في عدوة المغرب. وأحسب أن كلامي قد صار مكروراً خلال هذه الأعوام.. قل لي يا أبا عامر. هل هناك شيء لا تتقنه؟ يجب أن يكون هناك شيء لا تحسنه. بل أحب أن أجد فيك مثل ذلك الشيء.. غريب؟.. أليس كذلك؟ على الأقل كيلا يهون عندي غيرك بالمقارنة، فأظلمهم بغير قصد!

قال محمد:

- هناك أمر لا أتقنه يا مولاي! أن أُخيِّب ظن أمير المؤمنين.

ابتسم الحكم، وعاد يدقق النظر فيه، ثم قال:

- قد بدا عليك عناء السفر ووعثاؤه. وأعلم أنك كنت هناك تصل الليل بالنهار. فانصرف الآن إلى منزلك، ولا ترجع إليّ إلّا بعد ثلاثة أيام!

هم محمد أن يقول شيئاً يثني به الخليفة عن الأمر، ولكن الحكم سبقه قائلاً بلهجة قاطعة:

- أمر أمير المؤمنين.

كان فائق وجؤذر حاضرين. وبالطبع، فإن إطراءات الحكم على محمد زادتهما غيظاً وحسداً.

أما محمد فخرج من مجلس الخليفة وفي نفسه حاجةٌ من أمر الخليفة. وحدّث نفسه قائلاً: «إن أرادها حبّاً وإشفاقاً، فإنها عقوبة». ثم أرسل نظره إلى المنظرة الخالية التي كانت صبح تقف فيها. وتمنّى لو كان بوسعه أن يراها، أو حتى طيفها. ولكن ما عساه أن يفعل بأمر الخليفة إلّا أن يصدع به وقلبه موجع من الشوق.

* * *

في اليوم التالي اجتمع الأصحاب الأربعة: محمد وعمرو وعليّ وإبراهيم، في منزل محمد. وكان أول ما قال إبراهيم:

- هذه وديعتكم ردّت إليكم..

يعني عمله في الشرطة. وكان محمد قد علم من عليّ أنه أجاد عمله لقربه من الناس، وما تدخّل في أمر إلّا قبلوا منه وأطاعوه دون أن يلجئوه إلى الشدّة. فإذا اقتضى الأمر استعمل الحزم والقوة ولم يرقب في ذلك وساطة أو جاهاً.

قال محمد مستنكراً:

- تعود إلى نفخ الكير؟

ردّ إبراهيم:

- لم أشْكُ منه يوماً. فلماذا أشكو الآن؟

قال محمد ضاحكاً:

- وزوجك التي اعتادت عليك الآن بالطيب، تعود إلى شمّ رائحة الكير على بدنك؟ أحلف إنها إن فَعَلْتَ هذا لتطلبنَّ الطلاق عند القاضي.. وأنا قاضٍ.. وأحلف لو جاءتني بذلك الأمر لطلقتها منك ولم أبالِ..

شاركه عمرو وعليّ الضحك. واستأنف محمد مخاطباً إبراهيم بنبرة قاطعة:

- بل تبقى نائباً لي حتى وقت معلوم، ثم تتولاها بنفسك.. هذا عهد.

قال إبراهيم:

- والله ما أردناها. ولكن إن كان لا بد، فإن عملنا مبتور حتى يعتدل صاحب المدينة.. محمد بن المصحفي الحاجب.. وهو لا يحسن شيئاً إلّا لعب النردشير في دار المدينة مع أصحابه والتوسّط فيمن له صلة عنده وحظوة. فإذا شكا رجل من العامة إلينا رجلاً من الخاصّة، تدخّل فيه بنفسه، وأمر بالكف عنه، وألّا نرجع به إلى القاضي. ويزعم أنه سينظر في أمره بنفسه. ونحن نعلم أنه لا يفعل، وأنه يقتضي الرشاوى من أصل الغنى واليسار في مقابل ذلك. وهذا والله أشدّ الظلم، إذ كيف نعاقب الفقير على الجرم الصغير، ونترك الكبير في الجرم الكبير؟ والرسول ﷺ يقول: «إنه ما أهلك من كان قبلكم إلّا أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الفقير أقاموا عليه الحدّ». وأنا أخشى أن يصيبني من ذلك إثم كبير.

قال محمد:

- نبذل جهدنا فيما نملك، ونصبر على ما لا نملك حتى نملك! ولكل شيء ميقات وأجل. وما لا يُدْركُ كُلّه لا يُتْرَكُ كُلّه.

* * *

كانت صبح تدور في جناحها الخاصّ متوترة قلقة، وقد تحولت لهفتها إلى شيء من الغضب، وقالت لبدور:

- ثلاثة أيام منذ عودته ولم يستأذن عليّ.. والله لأقتلنّه.

هنا سُمع صوت الحكم وقد دخل على غير توقع، وأدرك بسمعه العبارة الأخيرة:

- تقتلين من؟

اضطربت صبح، ولكنها أسرعت إلى تدارك الأمر، فقالت:

- عدوّك يا سيدي!

ضحك وقال:

- وأي عدوّ لي ذاك الذي تتهدّدينه بالقتل، كأني عاجز عنه؟ قولي غير ذلك.

أُرتج عليها، فتدخلت بدور من فورها:

- أقول يا سيدي ولي الأمان؟

هز رأسه، واتجهت بنظرها إلى صبح، فنهرها الحكم قائلاً:

- أنا صاحب الأمر والإذن.. قولي.

قالت:

- ذكرت ولدها سيدي هشام، وتأخر مولانا في أخذ البيعة له ولياً للعهد. وخَشِيَتْ أن يكون ذلك اتقاء لبعض إخوة الخليفة وهم في أسنانهم. فأخذها الغضب وقالت: لو عرفت أن أحدهم يُوَلّى عوضاً عن ولدي لقتلته، كائناً من كان.. كلام يا سيدي، لا يُقصد على ظاهره.

اتجه الحكم بنظره إلى صبح، وقال:

- تقولين هذا في إخوتي؟ إخوة الخليفة؟

قالت صبح بلا تردد وقد فرّج ذلك المخرج عنها:

- اعذرني يا مولاي. ولكنهم ليسوا إخوتي!

لم يتمالك الحكم نفسه من الضحك، ثم قال:

- لا عليكِ. نحفظ منازل الإخوة، ونقدّم ولدنا.

ثم استدرك بسرعة مخاطباً بدورا:

- إياكِ أن تبوحي بشيء من هذا لأحد، وإلّا قطعت لسانك.

قالت بدور:

- لساني! أين لساني يا مولاي؟ ليس لي لسان.

قال الحكم ضاحكاً:

- وهذا الذي تتحدثين به؟

أجابت بدور بأسلوب متظرّف:

- استعرته يا مولاي.. وأردّه إلى صاحبه.. صاحبته.. أياً كان!

عاد الحكم إلى الضحك، بينما انحنت له بدور وانسلّت خارجة على عجل، وفي الطريق استرقت نظرة خاطفة إلى صبح التي بدا عليها الارتياح الآن.

* * *

أحسن الحكم استقبال الحسن بن قنون وجعفر بن علي بن حمدون في مجلس الحكم، بحضور الحاجب ومحمد بن أبي عامر وآخرين من كبار الوزراء والأعيان والقادة. أما غالب الناصري فتعجل بالخروج إلى الثغور ليؤدب أمراء الشمال وملوكهم. وأعلن الحكم في ذلك اللقاء عفوه عما سلف، وأن الحسن بن قنّون سيكون عنده في خير جوار، وسيجري له من النفقة ما للأمراء، ويجعله في أهل مشورته على وفق الحاجة. وأما فارس المغرب ومقدّمها جعفر بن علي بن حمدون، فهو عنده في أرفع منزلة، حتى ينظر فيما يولّيه.

وحين اختلى الحكم بعد ذلك بالحاجب ومحمد بن أبي عامر، شكا المصحفي قائلاً:

- هم كثير يا مولاي، ونفقتهم ثقيلة.

قال الحكم:

- أهون من أن ننفق في حربهم.

وهنا اقترح محمد أن يتم فصل ابن قنون عن جنده حتى لا يستقوي بهم إذا عرض له عارض من الشرّ، ويُدوّنون في ديوان الجند، ويُلْحَقون بجيش الحضرة. وتلك كانت خطته حين أبى إلّا أن يصحبوه إلى قرطبة. وبذلك تنقضي شوكته إلى الأبد. ولكي يرضوا يُستمالون بالمال والنفقة، وقد كانوا في المغرب في عسرة وضيق، فإذا ذاقوا حلاوة الأندلس، هان عليهم أن ينصرفوا عنه. وهم على أي حال قد تبيّنوا الآن أنه لم يعد له حظ في الإمارة، فلا يرتجون منه خيراً بعد.

لقي الاقتراح قبولاً عند الخليفة. أما جند بني برزال، فاقترح محمد أن يفرّق أيضاً بينهم وبين رئيسهم جعفر بن عليّ ليكونوا في جملة عساكر الأندلس لما عرف عنهم من البأس والشدّة. وكيلا يستوحش جعفر بن عليّ من هذا التدبير اقترح محمد أن يرضيه أمير المؤمنين بولاية المغرب. واعترف له بأنه أمّله بها، ولولا ذاك لظلّ على ولائه لابن قنّون، ولكان جند الأندلس ما زالوا في حصار قلعة النسر في المغرب. ومن جديد، رضي الخليفة ذلك منه. وكان في خاطر ابن أبي عامر أن ينضمّ بنو برزال إليه، فقال:

- أما فرسان بني برزال، فقد خالطتهم وصار بيني وبينهم صلة و..

أدرك الحاجب وجهة كلام محمد قبل أن يتمه، فسارع إلى مقاطعته وقال:

- نعم.. بنو برزال.. إذا أذن أمير المؤمنين فإني أرجو أن يلتحقوا بأمري.

سأل الحكم:

- وما حاجتك إليهم يا أبا الحسن، ولك الأمر بعد مولاك؟

أجاب:

- يا مولاي.. أحتاج إلى حرسي. غالب الناصري يقود جيش الثغور، وجيش الحضرة لا يحسن أن يكون منه حرس، والصقالبة حرس أمير المؤمنين.. وإن شئت الصدق يا مولاي فما زال قوم من الموالي يدندنون حولي وإن كنت منهم. يقولون: حاجب بلا شوكة من العسكر، لا يغني عنه منصبه إذا حزب الأمر وفرقتنا الأطماع والأهواء، أطال الله عمر أمير المؤمنين، وأنا على عهدك يا مولاي وعلى عهد ولدك سيدي هشام! والعاقل من أخذ من يومه لغده. وما يكون لي من شوكة فهي لأمير المؤمنين ولولده من بعد. أما الناصري فمنيع في شوكة جنده.

اكتسى وجه الحكم بملامح التفكير والتردد، وقال:

- شوكة الناصري لنا.

قال المصحفي:

- لئن كانت طاعته لأمير المؤمنين خالصة، فإنه لا يرى أنها تلزمه طاعة حاجبه. وإني لأعلم ما في صدره مني. وأنا والله لا أنكر بلاءه، ولكنه لا يدرك أن الرأي والسياسة مقدّمان على عمل العسكر، وأن أمير المؤمنين قد جعل كل رجل في المكان الذي يصلح له وتصلح به أمور الخلافة. وهذا أبو عامر قد صنع في المغرب بالسياسة والكياسة والرأي والتدبير ما عجزت عنه السيوف.

قال الحكم مبتسماً وهو ينظر إلى محمد:

- وزاد على ذلك بالقتال مع الجند، فأحسن فيه كما أحسن في غيره.

بقدر ما سرّ ابن أبي عامر ثناء المصحفي عليه، ومن ثم ثناء الخليفة، فقد ساءه أن ينضم إليه فرسان بني برزال. وقد شعر بأن ثناء المصحفي كان بمثابة الرشوة له كيلا يعترض على طلبه. وما كان له أن يعترض وقد أقَرَ الخليفة حاجبه على الطلب.

بعد حين، نجح المصحفي في إخراج الحسن بن قنون من الأندلس استثقالاً لنفقته. فخرج إلى المغرب الأدنى. ولسوف تثبت الأيام مستقبلاً أن هذا كان خطأً عظيماً وتدبيراً مكلفاً أضعاف كلفة بقائه في دار الخلافة.

* * *

كانت تجلس وحدها وقد أخذ منها الضيق والقلق كل مأخذ لتأخر أبي عامر عنها كل تلك الأيام، وبدأت تراودها بعض الوساوس والظنون، حتى همّت أن ترسل إليه. وإذ دخل عليها ولدها هشام وهي في تلك الحال، دارت تعبير وجهها المنقبض، وتلقته بالابتسام ونظرات الحب. وفوجئت به يمشي إليها بسرعة ويجلس إلى جانبها ملتصقاً بها على نحو غير معهود. طوقته بذراعها فانفتل وطوّقها بذراعيه وشدّ نفسه إليها. ربتت على شعره بحنان وسألت:

- ما بك يا هشام؟ هل أهمّك شيء؟

هز رأسه بالنفي، واستمرت في مداعبته والتربيت عليه، ثم قالت:

- هل تعرف مقدار حبي لك؟

هز رأسه بالإيجاب، فسألت:

- كم؟

هز كتفيه كأنه لا يدري، فقالت:

- بقدر الدنيا كلّها.

ابتسم ابتسامة باهتة. وأردفت:

- وهل يحبّني ولدي بقدر ما أحبّه؟

هنا هز رأسه بالإيجاب هزة كبيرة. وعادت تسأل:

- وحين يتولّى الخلافة، أطال الله في عمر والدك، هل يصرفه السلطان عن أمّه؟

هز رأسه من جديد بالنفي المؤكد. وقالت:

- هذا ما تقوله الآن.

عاد فهزّ رأسه بالنفي بمزيد من القوة والتأكيد. قالت:

- على كل حال، حتى لو انصرفت عني، فلن أنصرف أنا عنك. سأنفق كل جهدي من ورائك، لتكون أعظم خلفاء بني أميّة.. مثل آبائك وأجدادك العظام: صقر قريش، وعبدالرحمن بن الحكم، وجدك عبدالرحمن الناصر، وأبيك أيضاً.. نعم، فإن الخليفة كأي أب لا يحب أن يفوقه إلّا ولده. وكيف لا تفوق الجميع وقد..

ذهبت ببصرها إلى البعيد، واستدعت رقعة محمد بن أبي عامر الذي كتبها باسم الفتى فائق حين كان ما يزال يكتب الرقاع على رصيف الزهراء، وما زالت تحفظها.. فأكملت من نصّها المحفوظ:

- استُجْمِعَتْ لك أسباب السعد والحبور، بأب هو الخليفة، وأم لك حظ منها كما لها حظ منك. قد سَمَت بك قدراً، وسموتَ بها عقلاً وحسناً، تستحقك بقدر ما تستحقها، وتليق بك بقدر ما تزدان بها. فالولد مزاج أمّه وأبيه. فالتقى الماء على أمر قدر. ولكنه ماء الخير والسعادة. تشبّ وفي بُرْدَيك رفعة أمويّة، ووسامة بشكنسيّة. تشد بالأولى شدة

الأسد، وترق بالأخرى رقة العليل في رياض الزهراء. ويهديك في هذا وذاك عقل وحكمة، استجمعتهما من أمك وأبيك!

أخرجت نفسها من شرودها ونظرت إليه، وقالت:

- ما رأيك بهذا الكلام؟ أليس بديعاً يستحق الحفظ؟

قال بلهجة عفوية عارضة:

- أبو عامر.

اهتز كيانها كلّه، وقد ظننت أنه يعرف مصدر الكلام على نحو ما. ولكنه بدّد دهشتها وحيرتها إذ أكمل:

- قد استأذن عليك.. ينتظرك هناك.

إذن فقد جاءها بذلك الخبر، ولكنه، لأمر ما، آثر أن يؤخّره! كادت أن تقفز من مكانها وقد طغى عليها التلهّف. ولكنها لحظته يدقِّق النظر فيها، فحملت نفسها بصعوبة على التريث في مقعدها. وقالت:

- فلينتظر قليلاً! أليس كذلك؟

عاد إلى الالتصاق بها واحتضانها بقوة وحرارة، كمن يمسك على شيء يخشى أن يتسرب منه!

* * *

حين دخلت أخيراً على محمد الذي كان ينتظرها على أحرّ من الجمر في مجلسها العام، قفز من مقعده. وإذ همّ أن يبتدرها بكلام المحب الذي برّح به الشوق، وضعت إصبعها على فمها تومئ له بالتحفظ في الكلام، والتفتت نحو الباب الذي دخلت منه. ثم عادت تحدق فيه بنظرة أكثر بلاغة من الشعر، وبرقت في عينيها دمعة محبوسة. ثم قالت بما يشبه الهمس وهي تقلب بصرها بينه وبين الباب من خلفها.

- قد طالت غيبتك.

وتقدّمت نحوه خطوات وقالت بصوت مختنق:

- قتلني الشوق.

لم يُتَح له أن ينطق شيئاً عما في صدره ومما استحضره في ذهنه لهذه المناسبة، فقد سمع صوت حركة عند الباب، فتراجعت صبح من فورها بضع خطوات. وظهر هشام عند الباب واقفاً بهدوء تام. انحنى له محمد مع ابتسامة مصطنعة:

- سيدي هشام المؤيّد!

ران الصمت. ولبث هشام في مكانه لحظات أخرى، ثم مشى داخلاً وجلس على الأريكة وأخذ يهز ساقيه بأسلوب رتيب كما يفعل كثيراً. وإذ طال ذلك، وبدا إن إطالة الصمت الآن تشي بالمسكوت عنه، توجه محمد بالكلام إلى صبح:

- إذن لم تطّلعي على شيء من دفاتر الضياع والأحباس يا سيدتي في أثناء غيبتي. على كل حال أنا اطلعت عليها فور رجوعي. ولولا أن أمير المؤمنين أمرني بالراحة في منزلي بضعة أيام قبل أن أرجع إليه، لتعجلت إليك بها من فور رجوعي من عدوة المغرب. وقد جئت بها معي الآن. ثم نتشاور في غيرها من المصالح. وإن شئت يا سيدتي خرجنا مع سيدي هشام إلى حدائق القصر فأكملنا الحديث هناك، فهي أروح لنا وأرحب.

قدّر أن الخروج إلى مكان واسع رحب مفتوح يهيئ لهما فسحة للكلام المحبوس الآن في هذا المجلس المغلق مع هشام الذي قد يغريه بعض اللهو والتراكض واللعب.

وهكذا كان.

خرج الحكم مع حاشيته، وفيهم المصحفي وابن أبي عامر، للتنزه على ظهور الخيل في طبيعة قرطبة الساحرة. وإذ بلغ موضعاً معيّناً توقف وأخذ يجيل النظر فيه وقد اكتسى وجهه بملامح التفكير والتأمّل والشرود. وحين أطال في ذلك قال المصحفي:

- أطال الله عمر مولانا أمير المؤمنين. نراك تطيل النظر في هذا المكان.

بعد لحظات أخرى من النظر والتأمّل، قال الحكم كمن يحدِّث نفسه:

- كذب المنجّمون.

تبادل الحضور نظرات التساؤل والحيرة، وانتظروا المزيد. وبعد قليل تابع الحكم دون أن يتحوّل بنظره عن المكان:

- عجيب أمر الإنسان. يعلم كذب المنجّمين، فإذا سمعهم يقولون ما يسرّ قلبه فرح به، وإن سمعهم يقولون شرّاً انقبض قلبه على رغم أنفه. ثم يرجع على نفسه ويُذكِّرها: كذب المنجّمون.. كذب المنجّمون.

قال المصحفي:

- صدق مولانا، وكذب المنجّمون. فهل يحدثنا أمير المؤمنين فيما كذبوا به؟

حرّك الحكم إصبعه مشيراً إلى المكان، وقال:

- كنا نعبر من هذا المكان يوماً. وكان معنا رجل يحدِّث بأخبار الحدثين، فقال: هنا تُشَيّد مدينة ملكية تُعَطِّل الزهراء، يقيمها رجل ليس من أبناء الملوك، يحوز مُلك بني أميّة في الأندلس لنفسه.

تنبهّت ملامح محمد وهو يصغي باهتمام وتمعّن إلى كلام الخليفة، ومرت لحظات صمت وتأمل أخرى قطعها المصحفي من جديد:

- كذب المنجّمون يا مولاي. كذب المنجّمون. فالخلافة في أعظم أحوالها في عهد أمير المؤمنين وهي باقية في عقبه إلى يوم الدين إن شاء الله. وهي مرتقى صعب منيع لا يرتقيه إلّا أهله. خاب فأل الطامعين، وأطال الله عمر أمير المؤمنين.

هز الحكم رأسه مستمّراً في شروده وتأمّله، ثم قال:

- نعم.. كذب المنجّمون.

ثم هزّ عنان جواده وتابع المسير، ولحق به الآخرون، إلّا محمد الذي تباطأ عنهم قليلاً يجيل بصره في المكان!

* * *

هرول نحو الخليفة إذ رآه يهم بالصعود على سلّم ليتناول كتاباً من الرفوف العليا في المكتبة الأمويّة، وكان الوهن بادياً عليه، فهتف محمد:

- عنك يا مولاي. أنا آتيك بما تشاء.

ولكن الخليفة تابع الصعود قائلاً:

- لو شئتُ لأمرتُ بالكتاب فجيء به إليّ. ولكن ما متعة التحصيل إذا لم تتكلف له.

أمسك محمد بالسلم، وجاهد الحكم في الصعود درجتين أو ثلاثاً، وفجأة خذلته ساقاه، وفقد توازنه وسقط إلى الأرض لولا أن تلقاه محمد بكل ما أوتي من قوة فجنّبه الاصطدام بالأرض. وتنبه بعض العاملين في المكتبة فهرعوا إلى المكان بينما لبث محمد يحيط الخليفة بذراعيه ويسنده

إليه. وفجأة نفض الخليفة جسمه وذراعيه ليحرر نفسه من محمد، بأسلوب ينم عن الضيق، وقال بنبرة منفعلة أقرب إلى التأنيب:

- عنّي! أنا بخير.

قال محمد معتذراً:

- العفو يا مولاي.

نظر الحكم في العاملين الذين أحاطوا بهما وقال بلهجة حازمة:

- ما بكم؟ عودوا إلى ما كنتم فيه! هيا.. هيا!

انفضَّ العاملون وقد هيمن عليهم الوجوم. ثم انتقى الخليفة كتاباً من الرفوف الدنيا على نحو بدا عشوائياً، دون تدقيق في عنوانه، ومضى به نحو حجرته الخاصة في المكتبة، وتبعه محمد الذي لحظ أن الخليفة يجر ساقه متحاملاً على نفسه.

جلس الخليفة على مقعده بتثاقل وبطء، ووضع الكتاب أمامه دون اهتمام ودون أن ينظر فيه. وكان وجهه مربَدّاً شديد الانقباض. وأطرق يمسح وجهه ولحيته بيده، بينما لبث محمد واقفاً لا يدري ما يقول أو يفعل.

ثم أشار إليه الخليفة أن يجلس. ومرت لحظات صمت قبل أن يتحدث الحكم بأسلوب من صار عليه أن يواجه الحقيقة المُرّة:

- من أخدع؟ .. قد ثقلت ساقي يا محمد.

قال محمد:

- فداك نفسي يا مولاي. ألا ندعو الطبيب؟

أومأ الحكم بالنفي. ثم قال وهو يصوِّب نظره إلى محمد:

- ألم أتعهدك يا محمد؟

فوجئ محمد بالسؤال، وأسرع إلى الإجابة:

- اللهمّ نعم.. وأنا خادم مولاي ووليّ نعمتي.

قال الحكم:

- اقترب موعد الوفاء يا أبا عامر. يوم ادخرتك له، ومن أجله صنعتك على عيني.

- صنيعتك ملك يمينك يا مولاي.. قوسُك الذي ترمي به، أنّى شئت، ومتى شئت، ومن شئت.

- قد رأيتَ اليوم مني ما لم أكن أحبّ أن يراه أحد.. وأخشى أنه قد اقترب أجلي ولم..

اعترض محمد كلام الخليفة وقال:

- أطال الله عمر أمير المؤمنين.

تابع الخليفة:

- .. ولم أعقد لولدي هشام ولاية عهدي، فيختلف الناس من بعدي، ويُضيَّعُ ولدي وهو حَدَث.

قال محمد:

- نحن لسيدي هشام، كما نحن لأبيه أمير المؤمنين.

استأنف الحكم:

- ولقد كنت أؤجّل، لا لأنني متردد في الرأي، ولكني كنت أرجو أن يكبر على عيني ويبلغ رشده وأنا حيّ، فإذا عقدت له لم ينكر أحد من إخوتي ومن غيرهم.. ولكني الآن لا أدري ما يصنع الله بي. ولا ثمّ مجال للتأخير. وإني لأَعلم أن البعض سينكر، والبعض سيُظهر ما نُحب ويُبطن غيره. يقولون: خليفة صبيّ يتحكم برأيه المصحفي ومحمد بن أبي عامر، و.. أم هشام!

تدخّل محمد قائلاً:

- ساء ما يصفون يا مولاي.

تابع الحكم:

- وأنت يا أبا عامر. استوثقتك على أهلي وولدي. وكنت الناظر عليه منذُ رُزِقْتُه، فكبر على عينك، حين أنت كنت تكبر في المراتب على عيني.

قال محمد:

- أما الأولى فواجب عزيز ووديعة غالية، وأما الثانية ففضلٌ ومِنّة من أمير المؤمنين.

استأنف الحكم قائلاً:

- ولقد شاورت المصحفي وبعض الخاصّة الذين أثق برأيهم، فكان منهم ما كان منك. ولكني أعوّل عليك كما لا أعوّل على غيرك. وذلك لأمور.. ما اختبرته من مواهبك وقدرتك، وصلتك بولدي هشام، وصلتك بخاصة قصري وحرمي، لا سيما أم هشام. فأنتما أخصّ الناس بهشام وأقربهم إليه. فإذا جدّ الجدّ، كان رأيكما في التدبير لأمره رأي العارف الحريص، تدفعه المحبة، وترشده المصلحة. وأنت بعد، الفتى بين خاصّتي، فهم لا يرجون أن يستقبلوا من عهد ولدي إلّا أقلّه، أما أنت فتستقبل معه، إن شاء الله، أكثر من استقبلت معي، فتواكب عهده وتبقى في أمره، حتى تتواصل الخلافة على سنتها دون انقطاع.

أطلق نفساً عميقاً، ثم تقدّم بجسمه إلى الأمام وقال:

- هل علمت الآن لماذا أعوّل عليك في أمر ولدي أكثر من غيرك؟

قال محمد:

- قد حمّلتني يا مولاي أمانة لا يُهَوّن من ثِقلها إلا عِظَمُ الغاية وسموّها. وأنا فدى لأمير المؤمنين ووليّ عهده.

قال الحكم:

- ولكي أُيسّر لك الأمر، فهذا عهدي الجديد لك.

ورفع صكاً ملفوفاً عليه ختم الخلافة، وتابع:

- فقد أمرت بتعيينك الناظر على الخاصّ. وبذلك يكون كل من في القصر وما فيه تحت بصرك وتدبيرك. لك الأمر على الخدم والحشم والفتيان، وتدبير شؤون الزهراء كلها. تدخل متى شئت، وأنّى شئت، وليس لأحد من العالمين ذلك سواك!

قام محمد من فوره فتناول الصك، وقبَّل يد الخليفة، وقال الحكم:

- ابدأ منذ اليوم ترتيب عقد البيعة لسيدك هشام. وليكن يوماً مشهوداً.

* * *

تعجّل إلى لقاء صبح بخطى واثقة دون أن يتلفت حوله هذه المرّة. وحين رأت وجهه مضيئاً بالسعادة، قالت:

- أراك منبسط الأسارير هذا اليوم؟

قال:

- هذا سؤال من يعلم الجواب. كيف لا تنبسط أساريري وأنتِ أمامي؟ وهذا مع المداراة والتحفظ ومغالبة النفس. وما يخفي الصدر أعظم.. والآن ما تطلب السيدة من الناظر على الخاص؟

وهز الصك بيده، فاكتسى وجهها بملامح الدهشة والفرح معاً. وقال محمد مؤكداً:

- نعم. أنا منذ اليوم مدبّر القصر، والناظر على سرّه وعلانيته.. مداخله ومخارجه.. ظواهره وبواطنه..

قالت وهي تشير إلى موضع قلبها:

- أما أهم ما في سرّه وبواطنه، فأنت أعلم به منذ سنين.. وأنت المتصرّف به دون مرسوم.

قال:

- ولا أرضى به ملك الدنيا بأسرها.. أورورا.. أورورا..

قالت وقد أضاء وجهها:

- تذكر اسمي بالبشكنسية.

أجاب:

- بديع بكل الألسنة.. هالة الصباح.. صبح.. أورورا.. فسبحان الذي سلخ الصبح من الليل.. وسبحان الذي أخرج «صبحاً»، أورورا، من البشكنس وهم العدوّ، كما يخرج الحيّ من الميت، والحبيب من الخصيم، والثمرة الغضة من النواة الجافة.. والآن، هذا هو نعيمي وعذابي.. قوتي وضعفي.. فكيف بي إذا واجهت البشكنس غداً بالسيف، ثم تذكرت: مِن هؤلاء الخصوم خرجت منية القلب، ونجمة صباحه! أخشى أن ألين ويغلبني الشوق والحنين فأُقبل عليهم إقبال المحب، لا إقبال المحارب، فيكون العشق سبب التفريط والتضييع، ويكون هلاكي بيد القوم الذين وهبوني أسباب سعدي، فلا أعلم هل أنا قتيلهم أم قتيلها. قتيل البغض الذي يصافحونني به، أم قتيل الحب الذي أصافح به.. فهذا منهم.. وذاك منهم.. أم تراكِ دسيسة منهم، أرسلوك إلى هذا المكان لكي تصرعي القلب الشجاع، فيكون أول قتله هنا بالرمش الكحيل، وآخره هناك بالسيف الصقيل!

كالعادة حين ينطلق متدفقاً في خطبة غزلية، يستجمع لها عصارة روحه وبلاغته، غاب المكان عن وعيها بكل ما فيه إلّا منه، وطاف بها في

عوالم مجهولة متعالية، ليس فيها دول ولا شعوب ولا سلاطين. فوقفت معقودة اللسان تقاوم العودة إلى دنيا الجدران والأسوار والحدود والقيود. وأخيراً قالت دون أن يفارقها الانبهار:

- ما الذي ألمّ بك اليومَ، أيها القاضي؟

أجاب:

- القاضي مقضيّ عليه. خصمه حَكَمُه.. فأين يذهب؟

أفلتت ضحكة عذبة، وقالت:

- لا ذهاب. هذا هو الحُكْم! إلّا أن يذهب خصمه وحَكَمُه معه.

قال:

- نعم، لا ذهاب. نحن هنا.. الصبح وما طلع عليه الصبح.. أنتِ وأنا.. وسيدي هشام، أمير المؤمنين بعد أبيه. وعلينا من الآن أن نبدأ في تدبير أمره.. معاً.. بذلك أمر أمير المؤمنين بعد أن حزم أمره.. البيعة لسيدي هشام..

بعد أن شعّ وجهها بتعبير الفرح، تغيّر فجأة إلى الوجوم والانقباض.

سأل محمد:

- ما الأمر؟

نزلت جالسة مطرقة وقالت:

- أمير المؤمنين.. ما حزم أمره في بيعة هشام، ووضع هذه التدابير إلّا لأنّه..

رفعت رأسها ونظرت إليه، واستأنفت قائلةً:

- قد رأيتَ ثِقل خطوته.

قال:

- أطال الله عمره وحفظه من كل سوء. ولكن أحسن ما نواسيه به أن نطيع أمره، ونجتهد فيما أناط بنا من المهمات.. تلك سنّة الحياة والدول.

*   *   *

كما كان يتوقع الجميع، لم يتلقّ إخوة الخليفة السبعة قراره بالبيعة لولده الصبي قبولاً حسناً، وإن أسرّوا به. وكان المغيرة أشدّهم غضباً وثورةً. فحين اجتمع بإخوته ابتدرهم بالقول صائحاً:

- هذا إرث أبينا الناصر، وآبائنا منذ الداخل. فكيف قدّم ولده الصبي علينا، ونحن أحق بها وأهلها؟

ولكن إخوته كانوا أكثر تعقّلاً وأقل اندفاعاً منه، على الرغم من أنهم كرهوا من الأمر ما كرهه المغيرة. فقال عبدالعزيز:

- دعك من هذا يا مغيرة.. أحق الناس بها ولد الخليفة، أو من يسمّيه الخليفة. بهذا جرى ناموس الخلافة. وقد شاء الحكم، فوجبت الطاعة لولي الأمر.

عاد المغيرة فذكّرهم بما دندن به آخرون. فإن لم يكن في وسع هشام أن يدبّر لنفسه حتى يكبر، فمن سيدبّر له؟ وكان الجواب معروفاً لدى الجميع، ولكنه آثر أن يزيد في التحريض فقال:

- صبح.. الجارية صبح.. المغنية صبح.. البشكنسية صبح! ومعها ذلك الفتى الذي فتن نساء القصر حتى انطعن لأمره! أبو عامر.. الذي صعد من حيث لا نعلم، وإن كنا نعلم طرقه التي صعد بها، من كاتب رقاع عند رصيف الزهراء، إلى كل تلك المراتب.. وأخيراً النظر على

الخاصّ! فكيف نرضى، نحن أبناء الناصر وحفدة الداخل، أن يتولّى أمرنا على الحقيقة رجل مجهول؟ لا والله.. ما هو برأي. وإن لم ننظر في عواقبه علينا نحن الإخوة، أفلا ننظر في عواقبه على مُلك بني أميّة؟ الخلافة أيها القوم.. إرث الداخل العظيم. فأين ذهب عقل أخينا الحكم حتى خبلت عقله مغنية من بني البشكنس؟

تدخّل المنذر هنا، وكان أكثرهم حكمة وتعقّلاً، فسأل:

- فماذا ترى أنت؟ نمتنع عن حضور البيعة، ونعلن العصيان؟

أجاب المغيرة:

- نراجع قومنا شيوخ بني أميّة. وقد راجعت بعضهم بنفسي، فوجدت أن شطراً منهم يوافقونني الرأي، فلو راجعناهم جماعةً..

قاطعه المنذر بحزم وقال:

- أنصت يا مغيرة! والله ما جانبت الصواب في وصفك. وقد أخطأ أخونا الحكم وأطاع هواه في ولده. ولكن، علينا أن نختار أحياناً أهون الضررين، وأشدّهما في هذه الحال أن نقسم بني أميّة بين رأيين، فيقع الخُلْف والنزاع. عندئذٍ ينبغي أن نخشى على إرث بني أميّة على الجملة، لا بيدك ولا بيد أيّ منا ولا بيد هشام. والحكيم من اتعظ بماضيه. فبذلك كان أول ذهاب ملك بني أميّة في المشرق. فلا والله ما حصد بنو العباس في ذلك الحين إلّا ما زرع قومنا لهم دون أن يدروا. فأقْصِر إذن. وإذا كان يوم البيعة خرجنا جميعاً فبايعنا كما يبايع الناس.

ثم تلفت في سائر الإخوة وسأل:

- ما تقولون؟

هزوا رؤوسهم تأييداً، ولو على مضض. وقال عبدالعزيز:

- نطقت عنا. لا يُقال كنا سبب انهيار الخلافة بعد اكتمالها.

أطرق المغيرة مغلوباً على أمره، وقال:

- سوف تعون قولي حين تشهدون بأنفسكم كيف يتغلّب على الخلافة من ليس منا، حتى تصير جبريّة لمن طمع وغلب.. وعندئذٍ.. لات حين مندم!

* * *

إذا كان إخوة الخليفة قد كرهوا الأمر لأسباب اختلط فيها الخاصّ بالعام، فقد كان كبار الفتيان الصقالبة أكثر الناس كرهاً واعتراضاً، وقد علموا أن مصائرهم نفسها صارت على المحك. ولما لم يكن بوسعهم إلا الصدوع بالأمر في الوقت الراهن، فقد اهتدوا، بعد التناجي فيما بينهم، إلى تدبير خاص مع المغيرة وقد علموا أنه أكثر الإخوة استعداداً للتواطؤ معهم. وكانت الخطة التي لقيت قبولاً منه، أنه إذا استوفى الخليفة أجله، فإن أول من يعلم بذلك فتيانه، فيكتمون الأمر ثم يضبطون الأبواب، ثم يرسلون إلى المغيرة فيبايعونه قبل أن يعلم أحد، فما يصبح القوم أو يمسون إلّا وقد قضي الأمر، فيُسقط في أيديهم ويدخلون في بيعته راغمين، ومنهم أهل السلاح في القصر. ولكي يحفظوا ذمة الحكم في ولده، اشترطوا عليه أن يعهد بها من بعده لهشام بعد أن يكون قد كبر وخرج من سلطان أمه وابن أبي عامر، وتمرّس بطرقها في ظلّ عمه وتحت بصره. وأن يعطيهم على ذلك المواثيق واغلظ الأيمان. فإذا حلفوا يمين البيعة لهشام في حضرة الخليفة الآن، صحّ يمينهم على ما أضمروا من ولاية هشام بعد عمّه!

* * *

كان يوم البيعة يوماً مشهوداً من أيام قرطبة. وكان لمحمد بن أبي عامر السهم الأكبر في الترتيبات والتدابير على وفق الرسوم المقررة. كما تولّى تحضير هشام للمناسبة وتدريبه. وبينما كان العامة يحتفلون على وقع

الطبول وأنغام المزامير، كانت مجموعات المبايعين تتعاقب على البيعة حسب الأصول المتبعة: إخوة الخليفة، ثم الوزراء وأصحاب الخطط الكبرى، ثم القضاة، ثم قادة جيش الحضرة، فقادة الشرطة، ثم جلّة شيوخ قريش والعرب، وأخيراً كبار بياض الحضرة. وكانت مناسبة جامعة رأى فيها محمد كل محبّيه ومبغضيه. وكانت النظرات المُسْتَرَقَة وملامح الوجوه تنطق عما تخفيه الصدور. وكالعادة لم يأبه هشام المصحفي، ابن أخي الحاجب، في أن يرسل إلى محمد نظرة بغض وازدراء. ولكن المناسبة انقضت على الوجه الذي تمّ الترتيب له.

أغضى الحاضرون بأسف، ولم يظهر الحكم فزعاً، بل قال مُسَلّماً:

- لا يذهب بأس الفالج أيها الطبيب.. ولكن.. الحمد لله على كل حال.

ثم أومأ إلى المصحفي ومحمد أن يقتربا من سريره، وقال متحاملاً على نفسه:

- قد دنا الأجل، واقترب السؤال. وإني أشهد الله أني أعتقت مائة رقبة، فأنفذاه. وأنزل عن سدس الجباية للضعفة والفقراء من رعيّتي. أما جباية حوانيت سروجيّة قرطبة، فتُحبس كلها لتعليم أولاد الفقراء وذوي الحاجات.

قال المصحفي:

- السمع والطاعة يا أمير المؤمنين.

* * *

بقلب مثقل بحزن صادق، تسللت صبح من جوف الليل إلى حجرة نوم الخليفة، فوجدت «فائق» و«جؤذر» يقفان على جانبي سرير الخليفة. أرسلت إليهما نظرة خاصة، وتوقعت أن يغادرا لدخولها، ولكنهما لم يفعلا، حتى تنبه الخليفة ببطء وأومأ لهما بالخروج. نزلت صبح على ركبتيها إلى جانب السرير، وأخذت بيد الخليفة بينما كانت دموع صامتة تنزلق من عينيها، وقالت بصوت يخنقه البكاء:

- بنفسي أنت يا أمير المؤمنين.

قال بصوت مرهق اجتهد أن يكون مبيناً:

- لا بأس على مولاك بعد اليوم يا صبح.. أورورا.

ابتسمت ابتسامة شاحبة من خَلَل دموعها وملامحها الحزينة، وقالت:

- وتَذْكُر؟

قال:

- وكيف لا أذكر أحب الأسماء عندي.. بالعربية أو البشكنسية.. أو حتى اللطينيّة. اختلفت الألسنة، ويبقى الصبح صبحاً.

ارتج كيانها من التأثّر، وفاضت دموعها بغزارة، وشهقت بالبكاء. قال وهو يشدّ على يدها:

- تبكين يا صبح! تبكين مولاك الخليفة أم صاحبك الحكم بن عبدالرحمن؟

قالت:

- كلاهما يا سيدي.. وأبكي بَعْدُ نفسي.

مرت لحظات صمت ثقيلة والخليفة يغالب أنفاسه الثقيلة المسموعة. ثم قال:

- صبح.. أورورا.

قالت:

- مولاي وسيّدي.

قال:

- اصدقيني القول، مهما يكن الجواب. هل ملكتك بالسلطان وحده، أم كما يملك الحبيب حبيبه؟

فاجأها السؤال الذي نزل على سمعها وفؤادها كالمشرط الحادّ. دفنت رأسها في الفراش لحظةً، ثم رفعته والدموع تسحّ من عينيها بغزارة بللت الفراش، وأجابت:

- بهما معاً يا مولاي.

قال الحكم مستوثقاً:

- حقاً؟

أجابت:

- حقاً.

قال:

- كل قلبك يا صبح؟

قالت:

- بقدر ما يسع قلبي يا سيدي.

حاول أن يهز رأسه على الوسادة، وذهب ببصره إلى السقف بجفنين شبه مغلقين. أمعنتِ النظر فيه من خلال دموعها التي لم تتوقف. وشعرت بيده تضغط على يدها من جديد.

* * *

لم يفارق ذلك الموقف قلبها وعقلها، وما زالت تسترجع ما دار فيه حتى أعياها الشجن وأرهقتها الأسئلة عن مفارقات الحياة والتباساتها الموجعة. وكالعادة لم تجد غير بدور تبوح لها ببعض ما أثقل صدرها من ذلك الموقف. فقالت دون أن ترقأ دموعها:

- .. ولقد رأيته قد تجرّد من السلطان.. فكأنه كأي رجل.. إلّا أنه أنبل الناس وأسماهم روحاً.. فهو الحكم، لا زيادة، وأنا صبح لا نقصان..

رجل وامرأة جمعت بينهما الأقدار على اختلاف الدم والعرق والمنبت والمنزلة.. رجل وامرأة حسب. وهو يسأل سؤال من كان يكتم السؤال ويوجعه، تمنعه هيبة السلطان و.. الخوف من الجواب! ولا والله ما كان سؤاله تخوّناً، بل سؤال محب عاشق لا يرجو إلّا أن يكون في نفس حبيبه بعض الذي فيه، فيرضى بذلك، وتبرد نفسه، ويعلم أن حبه المبذول بلا شرط لم يكن حب رجل لامرأة ليس له في قلبها نصيب. هل تدركين قولي؟ الخليفة نفسه يُؤَمّل في قلب جارية يملكها، ويريد أن يعلم وهو في مرضه الذي لا يُرجى منه شفاء، لكي يحمله معه!

شهقت بالبكاء.. ثم استأنفت:

2- ماذا كان عساي أن أقول، إلّا ما يجب أن يُقال؟ ومن هي أورورا البشكنسية لكي تستحق كل ذلك الحب من ذلك الرجل العظيم؟! أم كان ذلك انتقامه! انتقام الرجل النبيل الذي تغلّب هيامه على سطوته؟ فإن كان كذلك، أَمَا علم أن سفك الدماء أهون من ذلك الانتقام اللطيف الذي يطال الروح لا الجسد؟ فقد تركني أنكر نفسي.. وأتصاغر أمام ظلّه، وخلّف في غور روحي لوعة لا تنقضي، وسؤالاً جارحاً كحد السيف لن يفتأ أبد العمر يحزّ في روحي ولا جواب له: هل كانت خيانةً مرذولة وإن لم يكن مكانها إلّا القلب، حيث لا سلطان ولا حاجب؟.. ولكني لم أختر السبي حتى صرت إلى قرطبة، ولم أختر الغناء أمامه لكي يراني ويطلبني، ثم يمنحني قلبه وقصره. وما مُنِحت من شيء إلّا سُلِبت أكثر منه: أماني امرأة عاشقة لا رجاء لها فيمن تهواه.. وهذا أيضاً لم أختره. فلماذا أُلام فيما ملكه غيري مني ولم أملك منه شيئاً؟ أنا مملوكة الخليفة حِسّاً، ومملوكة غيره روحاً.. ولو أني بقيت في بلاد البشكنس لكنت امرأةً أخرى، أُبغض من أفديه الآن بروحي، وأحرِّض على قتاله! فكيف يقال إني ملكت من نفسي ما أُحاسَبُ عليه؟ أنا أسيرة الكره والحروب، ثم أسيرة الحب الذي ليس منه شفاء.. دواؤه داء، وداؤه دواء! فمن المظلوم هنا ومن الظالم؟ أم كلنا ظالم ومظلوم في آن؟

انخرطت من جديد في نحيب متصل.. ولم تجد بدور ما تواسيها به إلّا أن تربت عليها بمحبة وتعاطف صادقين.

*　　*　　*

حين أسلم الحكم بن الناصر الروح، لم يكن عنده في حجرته تلك الساعة من الليل إلا فائق وجؤذر. قبّلا جبينه وأسدلا على وجهه الغطاء بعد أن خلعا من إصبعه خاتم الخلافة. وإذ خرجا للقاء سائر كبار الفتيان الصقالبة ومنهم بعض قادة السلاح الفحولة للمضي في تدبيرهم قبل بزوغ الصباح، أوقفا على الباب حارسين ليمنعا أي إنسان من الدخول إلى الحجرة، مهما تكن صفته، بدعوى أن الخليفة نائم، وأنه أَمَر ألا يوقظه أحد. ثم قام حراس آخرون من الفتيان الفحولة بإغلاق أبواب القصر والزهراء الخارجية بالمزاليج والمفاتيح الضخمة، وأوقفوا عليها حراساً أشداء.

تم كل ذلك بخفة وسرعة، وكان الفتيان يتحركون كالأشباح في الممرات والدهاليز حتى اكتمل وصول كبارهم إلى مجلسهم الخاص بدعوة من فائق. ولم يكن نبأ وفاة الخليفة قد بلغهم جميعاً، وإن كانت ظروف الوقت والتكتم والإشارات كلها تنبئ بذلك. ولذلك لم يفاجأوا بالنبأ حين أخبرهم به فائق حين اكتمل عديدهم في المجلس. فأطرق الجميع وَجِمين. ولكن هول الخبر لم يمنع فائق من التعجل في الكلام، إذ قال:

– قد جَلت المصيبة، وعَظُم الرزء، إلّا أنه لا ينبغي أن يصرفنا الحزن عن التدبير والعمل. إنه مصيرنا ومصير الخلافة. وقد جرت سنّة خلفائنا أن تنعقد البيعة للخليفة الجديد من فتيان القصر أولاً قبل الإعلان بموت سلفه.. فإذا تم ذلك دعي أهل الحل والعقد فعقدوا البيعة ببيعة الفتيان، ثم نخرج بها إلى العامة ونعلن موت الخليفة، ونعمل في تكفينه وتجهيزه،

وقد قضي الأمر. وتعلمون أنا عاهدنا الأمير المغيرة على أمر قدّرناه، وفيه صلاح أمرنا وأمر الخلافة. وقد روّيت في الأمر، فوجدت أن من الخير والتمام أن نبدأ بدعوة الحاجب المصحفي من الساعة، فنعرض عليه أمرنا وندعوه للدخول فيه، فإذا عرف أنا أجمعنا على بيعة المغيرة، وأنا توصلنا إليه بالخطة والعهد، سقِط في يده فدخل فيما دخلنا فيه. فإن فعل، دخل من خلفه الموالي، فهو شيخهم، وبيده خُبزُهم.

تدخّل جؤذر معترضاً بشدة وقال:

- ليس برأي. ما سعينا في خطتنا هذه إلّا اتقاءً للمصحفي أن يهيمن على الأمير هشام، ثم ينكبنا باسمه. والرأي عندي أن ندعو المصحفي، لا لنعرض عليه، ولكنْ.. لنقتله، فنأمن شرّه وشرّ الموالي دفعة واحدة!

قال فائق:

- لا نستفتح العهد الجديد الذي دبرنا له بسفك الدماء، فتسخط علينا الخاصة والعامة، وعندئذٍ يكون علينا أن نواجه الموالي وشوكتهم، ومعهم قوم كثيرون فضلاً عن عامة الناس، وأهل السلاح منا ألف، والمصحفي وحده يأمر سبع مائة من بني برزال لا يحسنون غير القتال. وهناك جيش الحضرة، وأهم منه جيش غالب الناصري، وهو وإن لم يكن محباً للمصحفيّ، وما زال يَنْفُسُه مرتبته، فإنه من عصبة الموالي، فإن لم ينصر المصحفي لشخصه، نصره لنفسه ولعصبته.

قال جؤذر:

- فإن أبى المصحفي أن يعطينا؟

أجاب فائق:

- عندئذ نكون قد أعذرنا لأنفسنا، فيلزمنا قتله!

* *

لم يتأخر المصحفي في الوصول من منزله القائم داخل مدينة الزهراء الملكية. وحين تأكد له نبأ وفاة الخليفة، نزل جالساً وقد هيمن عليه الحزن الشديد، ثم رفع رأسه من إطراقته وسأل:

- هل بادرتم إلى عقد البيعة لولد مولانا كما جرت العادة؟ أين هو؟ نهض من مكانه وأردف:

- خذوني إليه فأبايعه، ثم...

قاطعه فائق قائلاً:

- تمهّل قليلاً يا سيدي، حتى تنصت إلينا.

جلس من جديد ونظر في الحضور متفحّصاً مستطلعاً وقد بدا يستشعر أن ثمة خبيئة ما في الأمر. وما هي حتى تحوّلت ظنونه إلى يقين، حين شرح له فائق خطتهم وما تعاهدوا عليه مع المغيرة بن الناصر من أجل مصلحة الخلافة والبلاد والعباد، على أن يكون الأمر لهشام بعد المغيرة. وقع الكلام على المصحفي كالصاعقة، وهمّ من فوره أن يعترض لولا أنه أدرك بدهائه المعروف خطورة الموقف، فتمالك نفسه، ونظر في قادة الحرس الفحولة الأشداء، فأطرق متفكراً، ثم رفع رأسه وقال بحماس عجيب:

- الحمد لله الذي هداكم للحق. هذا والله أَسَدُّ رأي وأوفق عمل. والأمر أمركم، وأنا وغيري فيه تَبَعٌ لكم، فاعزموا على ما أردتم، واستعينوا بمشورة المشيخة. وما دمتم قد تعاهدتم على أن يكون الأمر لهشام بعد المغيرة، أعزّه الله، فلا نكون بذلك قد خرجنا من عهدنا لأمير المؤمنين رحمه الله.

أدهشهم حماسه وسرعة قبوله، وكان غاية ما يؤمّلون أن يوافق مضطراً على مضض. أرسل فائق نظرة فوز إلى جؤذر، وانبسطت وجوه الآخرين.

وأردف المصحفي:

- فاكتموا الخبر حتى أدعو المقدّمين من الموالي وأهل الحل والعقد، فآخذ منهم، فهم أسْمعُ لرأيي. فإن تمّ الأمر خرجنا به لغيرهم وأعلنّا وفاة الخليفة رحمه الله.

هز فائق رأسه بالموافقة.

* * *

تحوّل المصحفي من فوره إلى ديوانه، وبث الرسل مستعجلاً إلى محمد بن أبي عامر وإلى نخبة من شيوخ الموالي وقائد فرسان بني برزال الذين صاروا إلى إمرته منذ زمن، وانضم إليهم ولده محمد، صاحب المدينة، وابن أخيه هشام المصحفي. وأوقف على بابه ثلة من بني برزال يمنعون أحداً آخر من الدخول عليه. شرح للحضور واقع الحال وما كان من أمر الصقالبة معه، وأنهى بالقول:

- ولو أظهرت لهم الخلاف لقتلوني من ساعتهم.

سأل هشام:

- فما الرأي يا عمّاه؟

أجاب المصحفي بدون تردد:

- المغيرة. ليس لهم أمر بغيره. لا أحب ذلك، ولكن، لم يتركوا لنا خَياراً. ودم رجل واحد أهون من دماء كثيرة.. وهو على كل حال شق عصا الطاعة ونكث عهد أخيه رحمه الله، ويوشك أن يفرّق أمر المسلمين.. فحق عليه القول. فمن يمضي في هذه المهمة؟

أطرق الحضور وأشاحوا بوجوههم عن نظرات المصحفي الذي أخذ يستعرضهم ببصره. ثم قال هشام المصحفي بأسلوب يبطن قلقه وخوفه:

- أُرجِّح أن الفتيان قد استعدوا لكل طارئ، فلا بد أنهم أقاموا عليه حرساً منهم، ومعهم أحسن السلاح، فإذا قصدنا إليه، كان لا بدّ من صدامهم.

قال المصحفي بنبرة غاضبة:

- إذا كنتم تخشون صدامهم، فبم تشيرون؟ نصدع بالأمر ونُطيعهم؟ هيا.. أشيروا عليّ، وأنا مُنصِت. فما هو إلّا هذا أو ذاك!

حين لم يجب أحد، تحرّك محمد بن أبي عامر في المكان، وتحدث بلهجة قويّة حاسمة:

- يا قوم! إني والله أخاف فساد أمركم. ونحن تَبَعٌ لهذا الرئيس.

وأشار إلى الحاجب المصحفي، واستأنف:

- والله ما يحسدون سواه على مكانته ومنزلته، ثم هم يعلمون أنه إذا ذهب رئيسنا فقد ذهب الجذع الذي نتعلّق به جميعاً. ولا والله ما أخطأوا.. فينبغي ألا نختلف على رئيسنا. فإن كنتم تخشون تحمل هذا الأمر وتبعاته، فأنا أتحمّله عنكم إن أذن لي سيدي الحاجب، فخَفِّضوا عليكم..

تهلّلت أسارير المصحفي، بينما ازداد ابن أخيه هشام انقباضاً وعبوساً. وهتف المصحفي بمحمد:

- هو ذا.. انطلق من ساعتك مع طائفة من جند الحضرة، ولا تتأخر.

قال محمد وقد لاحت له فرصة نادرة يحقق فيها غرضين معاً:

- ولو شئت يا سيدي، ألحقت بي سرية من جند بني برزال، فهم من تعلم من البأس والبلاء.

أومأ المصحفي لقائد بني برزال، فتحرّك من فوره مع محمد.

* * *

حين وصل محمد إلى قصر المغيرة لم يجد غير عدد قليل من حرسه الخاص، بخلاف المتوقّع. وما هي حتى أزاحهم بنو برزال دون مقاومة، وما كانوا على دراية بغرض قدومهم مع أبي عامر كل حال. وحين دخل المغيرة مسرعاً إلى صالة الاستقبال الكبيرة، كان محمد في انتظاره مع مجموعة من جند بني برزال. وقد أعجله الطلب عن تبديل ثيابه البيتية الخفيفة، فاكتفى بوضع عباءة على كتفيه، وأخذ ينظر إلى محمد والجند بنظرات حائرة زائغة مستطلعة. فابتدره محمد بالقول:

– أحسن الله عزاءنا في أمير المؤمنين.

أطرق المغيرة لحظة، ثم رفع رأسه وقال لمحمد:

– أرسلكم فتيان القصر؟ فائق وجؤذر؟

حدّق فيه محمد بصرامة قبل أن يجيب:

– إذن فهو صحيح؟

اضطربت ملامح المغيرة وقد استشعر الخطر من نظرة محمد وسؤاله، واستأنف محمد:

– وكنتم أجدر الناس بأن تحفظوا عهد أخيكم في ولده، بعد أن أخذ عليكم أغلظ الإيمان والمواثيق. فما جزاء من أراد بصاحب الأمر سوءاً إلّا أن.. تعرفون القاعدة يا سيدي.. من نازع الحق أهله، فإما أن يناله فيكون له الصدر، وإما أن يخفق فيكون له القبر! وقد أخفق تدبيرك يا سيدي.

تجمّد المغيرة في مكانه، ودارت عيناه في محجريهما كمن يساق إلى الموت، بينما وضع الجند أيديهم على مقابض السيوف في انتظار الأمر. لم يرَ محمد قبل الآن رجلاً يصعقه الرعب على ذلك النحو. وكان يحسب أن المغيرة أشدّ بأساً وشجاعة. وفجأة أقبل المغيرة على محمد مرتجفاً ونزل على ركبتيه عند قدمي محمد متوسّلاً على نحو مثير للشفقة والازدراء معاً.

- الرحمة يا أبا عامر، نشدتك الله. امنُنْ عليّ بدمي، وأنا أعاهد الله أن أكون أول من يبايع، ثم أعتزل الدنيا وأنقطع للعبادة، فلا يسمع أحد لي حِسّاً ولا يرى لي وجهاً.

ثم غلبه البكاء، واستأنف:

- الشيطان.. نَزَغَ الشيطان.. والآن انجلى الحق وكل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون، وأنا أشهد الله أني أتوب وأتبرأ من عمل الصقالبة الذين كانوا رُسُلَ الشيطان إليّ.. فالرحمةَ الرحمةَ يا أبا عامر.

لم يكن محمد ليتوقع شيئاً من هذا. ولكن ازدراءه لما أظهر المغيرة من الخور، لم يمنعه من الإشفاق عليه. وهو في الأصل لم يكن ليحب أن يستفتح العهد الجديد بالقتل، لولا أن الفتنة أشد من القتل. والآن يجد نفسه حائراً فيما يفعل به وقد رأى من خَوره وتوسلاته ما ينبئ أنه لا يقدر على شيء بعد!

ولكن المصحفي كان له رأي آخر حين بلغته رسالة محمد العاجلة، يستأذنه في العفو عن المغيرة، فصاح بغضب جارف غير مألوف منه، في وجه الرسول:

- ماذا جرى لعقله؟ أم خارت عزيمته وهو الذي كان يختال هنا؟ أما علم أن الرجل إذا دخل في مثل هذا العمل، فإن أفسد رأي أن يرجع عنه قبل أن ينجزه بتمامه، فإذا رجع كان هلاكه المحتّم. وأنا أحلف بالله أن المغيرة صادق في توسلاته. وكذلك أي رجل إذا رأى الموت بعينيه، لا يرجو في تلك الساعة إلّا النجاة. فإذا أَمِن بعد ذلك وذهب عنه الخوف، عاد يقلّب الأمر، فينقلب الخوف إلى حقد، والحقد إلى نقمة، ثم لا يألو جهداً في التدبير لإهلاك من روّعه.

ثم خاطب الرسول، فقال:

- ارجع إليه، فقل له عني: «غررتَنا بنفسك، فإمّا أن تُنْفِذ الأمر، أو فانصرف نرسِلْ سواك».

لم يُرد ابن أبي عامر أن يشهد بنفسه قتل المغيرة، فأعطى الأمر وبقي في الساحة الخارجية. وبعد قليل تناهت إلى سمعه صرخة مروّعة اهتز لها كيانه. التفت نحو نافذة القصر بنظرة شاردة. ثم نظر في الأفق المضرج بحمرة الشفق.

تلقاه المصحفي الذي كان في انتظاره في ديوانه، بالترحيب والثناء، ولما رأى وجومه قال:

- كان لا بدّ من ذلك. فخفّض عنك. والآن ما زال أمامنا عمل كثير. والفتيان الصقالبة ينتظرون في ديوانهم على ما أوهمناهم به. وقد آن الوقت ليعلموا منقلب تدبيرهم.

حين دخل محمد بن أبي عامر عليهم، كان قد حمل نفسه على التخفف من الوحشة التي اعترته من قتل المغيرة ليكون بوسعه إتمام المهمّة. نهض الفتيان إذ برز لهم من الباب، وابتدره فائق بالقول:

- أبا عامر. أهلاً بك.. تفضّل.. دونك فاجلس.

قال محمد:

- لا.. فأمامنا عمل كثير.. دعوة أهل الخدمة لأخذ البيعة للخليفة الجديد، ثم تجهيز أمير المؤمنين للدفن.

قال فائق متلهفاً:

- توصلتم مع الحاجب إلى الأمير المغيرة؟

هز محمد رأسه وقال بهدوء غامض:

- نعم، فعلنا.. غفر الله له ما صنع بنفسه!

تغيرت ملامح فائق وجؤذر وسائر الحضور، وبدا عليهم بعض الحيرة والتوجّس.

وسأل فائق:

- من؟ أعني.. ماذا؟

أجاب محمد:

- المغيرة. ذهبنا إليه، فلما علم أننا مُرْغموه على الذهاب إلى ابن أخيه هشام لحلف اليمين والمبايعة، آثر أن يقتل نفسه على أن يفعل. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

تجمّدت عيونهم في محاجرها وانعقدت ألسنتهم، بينما أخذ محمد يستعرضهم بنظرة قوية صارمة فاحصة، ثم خرج وهم على تلك الحال من الصدمة، حتى قطع جؤذر الصمت صائحاً في وجه فائق:

- أما والله لقد نصحت لك بقتل المصحفي، ولم تسمع نصحي. والآن، قد أوقعتنا في هذه الورطة، فكيف نخرج منها؟

لم يجد الفتيان الصقالبة إلّا أن يهرعوا إلى ديوان المصحفي ينشدون الصفح. وقال فائق فيما قال:

- قد أذهلنا الجزع عما أرشدك الله إليه، فجزاك الله عن ابن مولانا خيراً، وعن دولتنا وعن المسلمين.

وأردف جؤذر:

- زلة مغفورة يا سيدي. ونحن منذ اليوم تَبَعٌ لك.

حافظ المصحفي على تجهّمه. ولكنه هز رأسه لهم وقال:

- إن شاء الله.. امضوا الآن على بركة الله لتجهيز أمير المؤمنين رحمه الله، بُعَيْد استكمال البيعة لمولانا هشام بن الحكم، المؤيّد بالله.

* * *

كان على محمد بن أبي عامر أن يخبر «صبح» الآن. ولما دخلت عليه في ديوانها الخاصّ، وكان الوقت ضحىً، أوجَسَت في نفسها إذ رأت وجوم وجهه وإطراقته، ولم تبادر إلى السؤال، واكتفت بنظرة متفحّصة مستطلعة، حتى قال معزياً:

- لله ما أخذ، ولله ما أعطى، إنا لله وإنا إليه راجعون.

نزلت جالسة فوراً والدموع تسحّ من عينيها بصمت. وتركها لحظات تتداول مع حزنها ووحشة النبأ الذي لم تخفف من وقعه نُذُره المسبقة.

وأخيراً تقدّم منها وانحنى بجسمه قليلاً أمامها وقال:

- هوّني عليك. وليكن عزاؤنا فيه أننا استنقذنا إرثه وحق ولده وولدك من بين أسنان الذئب. وقد كاد يذهب به.

رمقته من خلال دموعها في انتظار الشرح، فقال:

- كانت ليلة ثقيلة شديدة الوطأة. وكان الأمل يتأرجح فيها في الميزان. بين أن يذهب إلى الأبد، أو يستقر إلى الأبد. وقد كان الذي نريد، وإن كان الثمن فادحاً. وليس هذا مقام التفصيل.. حسبك أن تعلمي أنك منذ اليوم أمّ أمير المؤمنين هشام المؤيّد بالله ومدبّرة أمره.. أنت السلطانة! السلطانة حقاً.. بالمعنيين الظاهر والباطن سيدتي.

في هذه اللحظة سمعا حركة لدى الباب.. وإذا التفتا وجدا هشاماً واقفاً هناك ينظر نحوهما والدموع تنحدر من عينيه بصمت تام.

بلى قد تمّ الأمر كما كان محمد بن أبي عامر يدبّر ويخطط منذ أمد، وتربّع هشام المؤيد بالله على عرش الخلافة. ولكن الحصاد كان مشوباً بالمرارة على غير ما أراد. وعلى الرغم من صيحات الصرعى الذين سيشهد مقاتلهم بعد الآن في ساحات الوغى، أو الذين سيأمر بقتلهم في ساحة القصاص تحت بصره، فإن صرخة المغيرة تلك سيبقى صداها يتردد في صحوه ونومه بين الفينة والأخرى حتى آخر عمره. أما بنو أميّة فقد وقع الصدع في جملتهم. ففي ليلة واحدة فقدوا خليفتهم بانقضاء الأجل، وأحد إخوته بالقتل. وما كانت قصة انتحار المغيرة المكذوبة لتخفي حقيقة ما وقع فعلاً. والصقالبة على كل حال تكلفوا بتسريب الحقيقة لبني أمية وعامة الناس ليوغروا الصدور على من تولّى كبر الجريمة.

ولم يكن محمد بن أبي عامر في حاجة إلى تقريع ابن عمّه عمرو على أنه استفتح العهد الجديد بسفك الدم.. فقد كان في نفسه من الأمر ما لا يحتاج معه إلى مزيد. ولكن عمرو الذي كان بطبعه النقيّ يتمتع بميزان دقيق من العدل والأخلاق لا تفسده معايير السياسة، لم يتوقف عن اللوم والتحذير، فقال:

- هذا أول دم تسفكه. وأخشى ألا يكون آخره، فإن الدم ينسل الدم. وقد يستثقل الرجل أوّله، ثم يألفه فيستهين به حتى يصير في مكان لا رجوع منه.

وكالعادة، لم يكن محمد ليخفق في سوق المسوّغات، يقنع بها نفسه قبل أن يقنع بها غيره، فقال:

- قد عرفتَ ما جرى. فهل كان بوسعي أن أتجنبه؟ ولو أَبَيْتُ لأرسل المصحفي له غيري فأنجز المهمة على كل حال. فلا أكون قد حقنت دمه، ولا حفظت مكاني، ولكنت قد هدرت كل الذي عملت له وما أنوي عمله.

كان مقتنعاً حقاً بحجته، ولكن ذلك لم يبدّد عنه السحابة الداكنة التي ملأت صدره، فصرف غضبه إلى المصحفي الذي ازداد له بغضاً. فقال يحدِّث نفسه وعمرواً:

- المصحفي! .. هو الذي أفسد عليّ الساعة التي ما زلت أنتظرها منذ قدمت قرطبة.. هو الذي بدأ الدم وحملني عليه.. فهو يحمل أوزاره عند الله في الآخرة، و.. عندي في الدنيا! ومن بدأ بالدم رجع عليه.. منه الأول، وعليه الثاني.

حدّق عمرو فيه وقال:

- هذا ما أردته.. الدم ينسل الدم.

وفي هذه اللحظة دخل عليهما عليّ وإبراهيم مندفعين وقد بدا عليهما القلق، وابتدر عليّ بالقول:

- أدرك الناس يا أبا عامر!

وقبل أن يسأل محمد عن الخبر، تولّى إبراهيم الشرح:

- عامة قرطبة.. قد تطيّروا بالعهد الجديد أن يبدأ بسفك الدم، ويوشك أن يقع شرٌّ عظيم.

أرسل عمرو نظرة خاصة إلى محمد وقال:

- صدق القائل: الخلق شهود الحق.

هنا نهض محمد من جلسته، وتحوّل إلى الغضب والانفعال، وصاح قائلاً:

- ألم يعلموا أيضاً أن المغيرة قد جلب هذا على نفسه حين نكث عهد أخيه، بعد أن أخذ عليه ميثاقاً غليظاً؟ ألم يعلموا أيضاً أنه تواطأ مع الصقالبة، وهم العدو الذي ما زالوا يستعظمون قبائحه ويرجون بواره والخلاص منه؟ فلو تحقق للصقالبة غرضهم من المغيرة، لعلَوْا وطغَوْا واستكبروا فوق طغيانهم واستكبارهم، ودخلوا على حرم الناس في المخادع.

ولم يكن لديه شك في أن الصقالبة أنفسهم هم من بثّوا النبأ بين الناس، من خلال صنائع لهم استمالوهم بالمال ليحرّضوا العامة. وواطأهم على ذلك نفر من بني أميّة.

وكان يجب أن يتصرّف بسرعة ليئد الفتنة في مهدها. فإن كان الصقالبة قد صانعوا بعض الناس ليرجفوا في المدينة، وهم أبغض الناس إلى العامة، فهو أجدر بأن يتوصّل إلى العامة بروايته، وله فيهم معارف وأصحاب ومحبّون من أيام السوق وما بعدها. وعنده، فوق ذلك، إبراهيم، نائبه على الشرطة، الذي يراه العامة بطلهم. وبالفعل، تولّى هؤلاء إبطال أراجيف الصقالبة وبثوا في الناس أن هؤلاء من بدأوا بخيانة أمير المؤمنين الراحل وواطأوا المغيرة على ذلك، ولولا تدبير صاحبهم ابن أبي عامر لكانت فتنة عظمى تسيل فيها دماء كثيرة، ولعلا الصقالبة في الأرض وأكثروا فيها الفساد، أما مقتل المغيرة فلم يكن برأي أبي عامر الذي عارض الأمر ما وسعه ذلك، ولكنه كان أمر المصحفي وإصراره. وبذلك أصاب محمد غرضين، صرف التهمة للصقالبة والمصحفي معاً. ثم زاد على ذلك فأعلن إسقاط ضريبة الزيت والزيتون بأمر أمير المؤمنين هشام بن الحكم. وكانت من أثقل الضرائب على الناس. ولطالما طالبوا بإسقاطها دون جدوى، إذ كان أمرها إلى صاحب المدينة محمد بن الحاجب المصحفي. وكان محمد قد وعدهم سابقاً بأن يسعى في إبطالها حين يتمكن. وها قد فعل أخيراً. فقد أدرك الجميع أن الخليفة لم يبادر إلى ذلك بنفسه وهو الصبي الحدث، إلّا أن يكون محمد هو من أشار عليه به.

وقد تعمّد محمد أن يظهر لهم فور تلاوة المرسوم في أسواق قرطبة. وما هي حتى اجتمع الناس عليه يشكرونه ويتمسحون به ويهتفون له. بل تركهم يحملونه على الأكتاف ويطوفون به وقد علا هتافهم وصخبهم، حتى صاح صائح منهم:

- الصقالبة يا أبا عامر. أريحونا من شرّهم واشفوا صدورنا منهم إن كنتم فاعلين..

ارتفعت أصوات التأييد، وهتف أبو عامر في الحشود:

- لكل أجل كتاب. هل وجدتم ما وعدتكم به من قبل حقاً؟

هتف الحشد بأصوات مختلطة:

- اللهم نعم.. اللهم نعم.

قال:

- إذن اصبروا حتى يبلغ كتاب الصقالبة أجله. ولا أراه بعيداً. ولكن أعينوني بأنفسكم إذا دعوتكم للشهادة عليهم. ولا تنصتوا إلى الأراجيف التي يروجونها بينكم من خلال رجال منكم اصطنعوهم بالمال، لا تعرفونهم إلّا بلحن القول.

هتفت الأصوات:

- خسئ المرجفون. خسئ المرجفون.

* * *

سكنت العامة. ولكن محمدا رأى أن يخرج الخليفة الصبي في موكب عظيم يطوف أرجاء قرطبة. فإذا رآه الناس خارجاً عليهم في زينته، ذكروا عهد أبيه فيه، وأحاطوه بالعطف والمحبة، حتى لا يذكروا

من المغيرة إلّا أنه تواطأ على ابن أخيه الصغير، وكان أولى الناس به، مع ألدّ الخصوم: الصقالبة. وهكذا كان.

ولكن الصقالبة لم يسكنوا، واستمروا في مداخلة بعض الناس، يشيعون أن أبا عامر والمصحفي وأم هشام ما دبّروا التخلّص من المغيرة حرصاً على حق هشام، وإنما ليستحوذوا بأنفسهم على الخليفة الصبيّ فيستبدوا بالأمر دون أهله من بني أميّة. بل بدأوا يُعرّضون بالعلاقة بين أبي عامر وصبح. وكان محمد قد واطأ عدداً من أهل السوق على أن يصلوا إليه بالأخبار، ومنهم مالك وطريف، جاراه القديمان أيام عمله في السوق. ولم يكن المال وحده سبب حماسهم في أداء هذه الخدمة؛ ففضلاً عن محبتهم الصادقة لمحمد فإن هذه المهمة منحتهم شعوراً بالأهمية والتميّز.

وكان فتيان الزهراء الصقالبة قد اختصوا أنفسهم منذ دهر بأحد أبواب الزهراء يعرف بباب الحديد، لا يدخل ولا يخرج منه أحد سواهم ومن يدعونه إليهم خاصة من دون الناس. فرأى محمد أنه لا بدّ من إغلاقه، وإلزامهم الدخول والخروج من الباب المعروف بباب «السُّدّة» الذي يعبر منه سائر أهل الخدمة والزوّار. وبذلك يصيرون تحت الأعين، وتنقطع صلتهم بصنائعهم، أو ينكشف من يداخلون منهم، فيهون على الحاجب وأبي عامر أن يقطعوا سعي المتواطئين وشرهم. ولكن إغلاق باب الحديد الذي ما زال خاصة الفتيان مذ كانوا، سيكون بمثابة إعلان الحرب عليهم. وما زال لهم شوكة بالحرس الفحولة المدججين بالسلاح. وهذا ما حذّر منه الحاجب المصحفي حين عرض عليه محمد الأمر. فقال محمد:

- نعم.. ولذلك لا نبادر إلى سدّه الآن حتى نضعف شوكتهم ونحتاط لأنفسنا. وهذا لا يتم إلّا بأمرين: أما الأول فأن تلحق بي بني برزال جملةً فيصير أمرهم إليّ، فأنا من سيتولّى مواجهة الصقالبة، فأكون هدفهم الأوّل. وأما الثاني فأنا كفيل به، فإن المال الذي داخلوا به بعض

الناس، هو نفسه الذي نداخل به شطراً من فحولتهم أصحاب السلاح. وبين الترغيب والترهيب تخضع النفوس.

أطرق المصحفي متفكراً. وكان ابن أخيه هشام حاضراً يسمع ويرقب. وهمّ أن يتدخل بنفسه لولا هيبة عمّه. وتمنّى في نفسه أن يرفض عمّه الطلب. ولكن محمد أردف مشجعاً:

- أخطر ما في الأمر يا سيدي أن هوى مشيخة بني أميّة معهم. وتعلم أنه لم يسرّهم أن يتولّى ولد الحكم الصبي دونهم. وقد علموا أنك كنت صاحب الأمر في المغيرة فوغرت صدورهم عليك، وزاد من ذلك أنك صرت الآن صاحب التدبير في الزهراء على الحقيقة. وقد علمت أيضاً يا سيدي أن أهل قرطبة يعظمون أمر بني أميّة، فهم ناموس الخلافة وكتابها، فإذا مالوا علينا مع الصقالبة مالَ الناس معهم، وإن كانوا من قبل كارهين للصقالبة. وقد رأينا كيف أوشكت فتنة العامة أن تطل برأسها لولا أن وفقنا الله إلى تداركها.. إلى حين فقط.. فلا نأمن ما بقي الصقالبة يدبّرون.. والأمر إليك يا سيدي.. ونحن خدمك.

حدث ما كان يخشاه هشام المصحفي. فقد هز الحاجب رأسه بالموافقة. وإذ خرج محمد، أقبل هشام على عمّه يتحدث منفعلاً:

- ما هذا الذي صنعت يا عمّاه؟ والله ما أراد من ذلك إلّا أن يستحوذ منك على بني برزال. وهم شوكتك.

رد المصحفي بانفعال مماثل:

- وما أصنع، وهو الذي يبادر إلى المهمات الخطرة دون غيره؟ فكيف أكلّفه الأمر الخطير ثم أمنعه الأسباب؟

قال هشام:

- أخشى يا عمّاه أن يأخذ منك الأسباب التي يرتد بها عليك، وعلينا.

قال الحاجب متبرماً:

- هذا الذي تحسنه أنت.. فلو أحسنت ما يحسنه هذا الرجل لكفيتنا مؤونته، وكفيت نفسك نار الحسد. و..

نفخ ودار في المكان متلفتاً عابساً:

- لو منعتُه ما طلب لاحتال للأمر عند هشام وأمه حتى يخرج أمر الخليفة به.. ألا ترى أنه أقرب إليهما مني وإن كنت الحاجب؟ وإلّا فكيف خرج مرسوم الخليفة بإسقاط ضريبة الزيت والزيتون دون علمي ورأيي.

قال هشام المصحفي:

- وذاك ما كنت أحذر منه منذ ابتدأ أمر هذا الثعلب.

* * *

على أن أهم ما سعى فيه محمد بن أبي عامر توطئةً للقضاء على الفتيان الصقالبة هو شقّ صفوفهم.

ليس هناك عصبة لا يمكن اختراقها. هذا ما كان يردده على نفسه. تلك طبائع البشر. ألم يكن العرب الفاتحون يجتمعون على قتال العدو، فإذا رجعوا إلى ديارهم قاتل بعضهم بعضاً قيسية ويمنية؟ والموالي الآن.. قد رأى بنفسه كيف يَنْفُس بعضهم بعضاً على مشيخة الموالي والمراتب العليا بين الحاجب المصحفي وغالب الناصريّ. الأطماع والمصالح هي الأصل والسبب الأول. ولا يعتصم الرجل بعصبته إلا حفظاً لنفسه ومصلحته أن يغلبه عليها الآخرون. فإذا أعطي فرداً أعظم مما يُحَصّل بعصبته، قدّم نفسه على جموعها. ولو تساوى الناس فرادى في الحقوق والواجبات لانحلّت تلك العصب مع الزمن. وليس الصقالبة استثناءً. وهذا ما تأكّد له حين نجح في استمالة الفتى الصقلبي «سكّر» إلى جانبه، واستلحقه به

مع خمس مائة من الصقالبة الفحولة حملة السلاح. وكان الفتى «سكر» من كبار الفتيان الخصيان الذين كان لهم الأمر على الفحولة. ولكنه بخلاف فائق وجؤذر كان يؤثر العمل بصمت ويتجنّب الظهور والخوض معهم فيما يخوضون فيه، ولا يقحم نفسه في مكائد القصر وإشاعاته. وكان عمل محمد ابن أبي عامر ناظراً على الخاصّ في الزهراء قد أتاح له أن يرقب شخصه وسلوكه، فأدرك أن تَرَفّعه عن مخالطة سائر الفتيان يرجع إلى تفرّده واعتداده بذاته ورأيه. فكان كما قدّر حين استدعاه إلى ديوانه سرّاً. فأطنب في الثناء عليه، ونعى بالقدر نفسه على أولئك الذين يحجبون الرجل المقتدر الموهوب عن أصحاب الأمر خشية على ما في أيديهم. ذلك أن كماله يفضح نقصهم، وإتقانه يكشف عَوَرهم، حتى ييسّر الله له من يعرف له حقّه، فيقدّمه ويمكِّن له، كما يفعل الآن أبو عامر معه. ولم ينسَ أن يلمح له بأن سائر كبار الفتيان قد صاروا في غضب من أمير المؤمنين بعد الذي كان منهم مع المغيرة عند وفاة الحكم. ومن كان في غضب السلطان فلا يأمن على مصيره. ولكن «سكر» ظلّ في عافية من تلك السوأة إذ نأى بنفسه عن ذلك التدبير. فصار أحق أصحابه بالمنزلة والرعاية، على أن يكون أمره وأمر من يستلحقهم به من الحرس الفحولة إلى أبي عامر. ثم أمدّه بمال وفير يستعين به على أمره، ووعده بالزيادة إذا سألها.

* * *

أصبح الفتيان ومراجعوهم على باب الحديد وقد أحكم إغلاقه، ووقف عنده من داخل السور وخارجه ثلة من عسكر بني برزال الغلاظ الشداد، يصرفون الناس عن الباب إلى باب السدّة العام حيث لا يدخل أحد ممن يخالطون الفتيان إلّا بإذن خاصّ من الحاجب أو أبي عامر. وكان أول القادمين من الخارج من قادة الفتيان الفحولة «دريّ» في عدد من أصحابه، وكان من أكثرهم شراسة وجرأة. فلما تبين له الحال استشاط

غضباً وصاح في الحرس بلهجة آمرة أن يفتحوا الباب من فورهم ويغادروا. فليس لأحد غير الفتيان أن يقف عند الباب. ولكنه اصطدم بسدّ منيع من بني برزال الذين دَعّوه بغلظة غير آبهين بصياحه، وإذ أمسك بمقبض سيفه وتابعه على ذلك أصحابه، سبقه بنو برزال فسلّوا سيوفهم، وإذ أدرك أنه لا قِبَل له بعديدهم انقمع مقهوراً وهو يسب ويشتم ويرغي ويزبد.

ومن الداخل لقي فائق وجؤذر وسائر الفتيان ما لقيه درّي من الخارج. ولما تبين لهم أن أبا عامر هو صاحب الأمر والتدبير، هرعوا إلى ديوانه، حيث كانت قطعة أخرى من بني برزال يحرسون المكان وينتشرون في ردهات الديوان وأمام حجرة أبي عامر. وإذ اندفعوا داخلين عليه ابتدره فائق بالكلام:

– ما الغرض من سدّ باب الحديد وهو الباب الذي خصّصه خلفاؤنا لفتيانهم؟ هل تخالف أمر الخليفة؟

حافظ محمد على هدوئه وقال:

– معاذ الله أن أخالف أمر الخليفة.. ولكن.. احرص أنت وأصحابك على ألا تخالفوه.

وقذف له رقعة ملفوفة عليها ختم الخليفة. وحين فضّها ونظر فيها تغيّر وجهه، ثم استدار وخرج ولحق به الآخرون، إلّا «دريّ» الذي تخلّف عنهم لدى الباب والتفت إلى محمد بنظرة مشبعة بالحقد والبغضاء، قبل أن يغيب وراء الباب.

في ديوان الصقالبة، كان الوجوم يخيّم على الجميع، حتى صاح فائق وهو يدور في المكان:

– ما حيلتنا في هذا الرجل؟ لم يكفه أنه استحوذ أولاً على خمس مائة من شجعاننا مع الخائن «سكر» بأمر من الخليفة، حتى أتبعه بهذا..

والآن لا نخرج ولا ندخل ولا يدخل علينا الناس إلّا بإذن، وتحت عين الرقيب. فما الذي بقي لنا في هذا القصر إلّا خدمة النساء؟

ثم هزّ رأسه واستأنف:

- هه! النِّساء! وهل بلغ هذا الخبيث ما بلغ إلّا بالنساء! وأي نساء! محظية الحكم وأم الخليفة الصبيّ.. سلبها عقلها وقلبها في حياة الحكم، فكيف بها وبه الآن وقد خلا لهما الجوّ، ولا حسيب ولا رقيب إلّا من خليفة صبي ما زال يلعب بالحَمام.. يوجهانه كما يشاءان.. لقد ضاق علينا هذا القصر، ويوشك أن يتشفى بنا أهل قرطبة.

صاح دريّ:

- أما أنا.. فقاتِلُه!

ردّ عليه فائق:

- خفّض عليك. كان ينبغي أن نقتله حين كان ذلك في وسعنا.. أما الآن فمعه هؤلاء الطارئون.. بنو برزال.. و.. خمس مائة فتى منا.. من قومنا.. من إخواننا.. من بني جلدتنا.. كانت سيوفهم لنا، والآن هي علينا.. فأين نذهب؟

تدخل جؤذر قائلاً:

- بلى، أين نذهب. هل تعلم جواب السؤال؟

نفخ فائق ولم يحر جواباً. واستأنف جؤذر:

- أما أنا، فأستعفي من الخدمة عند الخليفة الصبي!

حدّق فيه فائق متعجباً؛ وقال:

- تستعفي؟ وهل يريد أبو عامر والمصحفي وصبح غير ذلك؟

أجاب جؤذر:

- إن كان مرادهم إخراجنا حقاً، فلن يمنعهم من إنفاذه شيء. فالأجدر أن نستعفي طوعاً، بدلاً من أن يكون طرداً مذلًّا. وإن لم يكن ذلك مرادهم وقد علموا أنه لا أحد يعرف رسوم القصر وخدمته مثلنا، وأنه لا أحد يُغني غناءَنا، فلسوف يلحّون علينا بالبقاء، فنصير في موضع من يضع شروطه.

لم يقتنع فائق بالرأي. ولكنه لم يحاول أن يثني «جؤذر» عن موقفه، إذ لم يكن لديه خطة أخرى في تلك الساعة. فلتكن خطوة جؤذر اختباراً على كل حال، ثم يرى القوم رأيهم.

* * *

كان محمد وصبح يتجولّان في حدائق القصر ويتبادلان الحديث وبعض الضحكات المسموعة بين الفينة والأخرى، دون أن يحرصا على التحفظ المعهود هذه المرّة، فلم يصحبا معهما أياً من الوصيفات أو أهل الخدمة ولو على مسافة منهما. وكان محمد يحدثها عن الخلاف بين غالب الناصري والحاجب المصحفي، وأن الناصريّ قد وجد في نفسه بعد وفاة الحكم، فقد كان يرجو أن يُدعى إلى تدبير الدولة عوضاً عن المصحفي لمنزلته بين الموالي وبلائه الطويل. أما المصحفيّ فلا يفوّت فرصة للطعن في الناصريّ، فيذكر أنه قد كبرت سنّه وضعفت همّته، حتى بات مقصّراً في صدّ غارات الجلالقة والقشتاليين، فكثرت غاراتهم وعظم شرّهم. والناصري ينحو باللائمة على المصحفي لأنه قلّل النفقة على جيش الثغور، وبين هذا وذاك يتسّع خرق الثغور، وتدفع الأندلس مغرم الخلاف بين الرجلين. ولم يخف محمد انحيازه للناصري لاجتماع الموالي عليه وبلائه في جهاد العدو. والرجل وإن كبرت سنّه فما زال قوياً في جيشه وعصبته، فلا بدّ من تطييب خاطره حتى لا يستوحش من الخلافة نفسها. وعلى الرغم من أنه كان محقاً في تفضيل الناصري، فقد كان يوطئ منذ الآن لخططه المبيّتة التي ستنكشف على مراحل مدروسة. ثم قال:

- ومع ذلك نؤخر هذا الأمر حتى نفرغ من أمر الصقالبة أولاً، فلا يحسن أن نغضب المصحفي الآن. أما فتيان القصر فهم رأس البلاء، والفحولة لهم تبع. وما زالوا يدبّرون عليك وعليَّ منذ زمن.. وما داموا في القصر ظلت عيونهم تراقبنا، فلا نكون في أمر إلّا تلفتنا من حولنا.

قالت صبح وهي تتأمّله مبتسمة:

- أنا لا أتلفت الآن.

قال:

- ولا أنا.. ولكن، ليست عيونهم هي ما أخشاه. ولكنهم لا يدخرون جهداً في الإرجاف بنا عند عامة قرطبة.. يقولون: قد شغفها وشغفته حبّاً، وهي..

قاطعته قائلةً بلهجة مشوبة بالدعابة:

- وقد كذبوا؛ أليس كذلك؟

أغراه سؤالها بالمضيّ معها في الدعابة فقال بأسلوب جادّ مصطنع:

- أشدّ الكذب!

التفتت إليه عابسة للحظة قصيرة قبل أن ينطلقا بالضحك. ثم تابع:

- إذا أخرجناهم واستأصلنا شرّهم، انصرف الناس عن تلك الأقاويل إلى الاحتفال بالتخلّص منهم، وعلت عندهم أقدارنا، فلا يسمعون فينا قول واشٍ ولا عذول.

توقف ونظر في البعيد واكتسى وجهه بملامح التأمّل، ثم قال:

- وإن كنت في أغوار نفسي أرغب في أن يتحدث الناس بنا قليلاً.. أعني دون الخروج عن القصد أو تغليظ التهمة، فيقع الضرر.. والبهتان!

تأملته بنظرة مستطلعة، فأردف بنبرة تأمّلية:

- أعني.. هذا حب نما في موطن السلطان والحل والعقد.. أليس من حقه أن يخلَّد في كتب الأخبار، فيعلم به كل دارس للتاريخ؟ بعد ألف عام.. ألفي عام.. حين نكون قد أصبحنا خبراً بعيداً.. أليس هذا جميلاً؟!

أطالت النظر إليه وقد وقع كلامه في غور روحها، حيث اختلطت مشاعر العشق بالأسى الدفين المقيم. ثم قالت:

- أو تدري يا محمد ما أشدّ ما أكابده الآن؟ .. أعني لطالما كابدت من انقطاع الرجاء من حبي لك مع عِظَمه.. وكان عزائي أنني مملوكة لغيرك، ولا سبيل مهما تَهِج الأماني وتتسلط الأفكار.. والآن، لست في ذمة رجل آخر ومع ذلك، لا سبيل! ألا ترى إذن إلى أن السلطان الذي نحكم به، هو السلطان الذي يحكمنا، فلا نغنم منه إلّا بقدر ما نغرم.

هز رأسه متأمّلاً وقال:

- وكذلك الحياة، لا تعطي إلّا بقدر ما تأخذ.. وينقضي الأجل وفي النفس منها حاجات غير مقضيّة.

في هذه اللحظة، كان ثمّة اثنان يرقبان من منظرة مطلة: هشام المؤيّد، وجؤذر الصقلبي! ولم يكن اجتماعهما هناك من قبيل الصدفة. فقد كان جؤذر أول من رآهما يتناجيان متفردين متقاربين على نحو غير مسبوق دون صحبة. أما هشام الذي كان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره، وبدأ شاربه يخطّ بزغب خفيف، فكان يتمشّى وحده في ردهات القصر بغير هدف وقد بلغ منه الضجر، حتى وجد نفسه عند صالة تجلس فيها بعض جواري الخدمة.

فوجِئن بدخوله عليهن بصمت تام ووجه ساكن الملامح لا تعبير فيه. فوقفن له جميعاً وانحنين له. ولبث واقفاً في مكانه لا يقول شيئاً. ثم اقترب من جارية تحمل عوداً كانت تدندن عليه قبل دخوله. فمدّ يده وتناول منها العود وأخذ يقلّبه ويتأمّل به، ونقر عليه نقرتين ثم ردّه إلى

الجارية وأومأ لها أن تضرب عليه، ففعلت، ولكنه لم يُطل الوقوف، فما لبث أن استدار وخرج كما دخل وهي ما تزال تضرب حتى توقفت، وخلّف وراءه الجواري يتبادلن النظر في حيرة وتعجب. وإذ خرج وجد جؤذر أمامه، وكأنه كان في انتظاره. فانحنى له وقبّل يده وقال:

- كيف أصبح مولانا أمير المؤمنين؟ هل لكم رغبة فيلبيها خادمكم المطيع؟ هل أعجبك عزف تلك الجارية يا مولاي؟ إن شئت رتبت لكم مجلس سمر تعزف فيه، فهي بارعة.. وجميلة.. والأخريات يُجدن الرقص.. فقط مُرني يا مولاي.

تابع هشام مشيه الهادئ دون أن يبدي أي اهتمام، أو يلتفت إلى جؤذر الذي تبعه قائلاً:

- نهار جميل يا مولاي، ورياض الزهراء في أبهى حُلّة والنسيم عليل. أفلا تخرج إلى المنظرة فتمتع بصرك في مجاليها وتشمّ نسيمها العابق برائحة الزهور.. فهو أروح لنفسك من هذه الأبهاء المغلقة. فإذا أعجبك المنظر، أتبعتُه بما يسرّ خاطرك ويبهج فؤادك.. أطال الله في عمرك ومتعك بصباك.

لم يكن جؤذر ليقدّر مدى ذكاء الخليفة الصبيّ الذي أدرك من نبرة جؤذر وحركاته أنه يريد أن يستدرجه إلى المنظرة لغرض في نفسه على غير ظاهر كلامه. فأحب أن يجاريه حتى النهاية. وحين وصل إلى المنظرة وأجال بصره، رأى ما توقعه. كانت أمه ومحمد يجلسان الآن متقاربين، على بسيط من العشب، وقد بسط لها محمد عباءته لتجلس عليها وخلع عمامته ووضعها جانباً، فانسدل شعره الطويل على جانبي رأسه. كان جؤذر يقف إلى جانبه متخلّفا قليلاً إلى الوراء، وينقل بصره بينه وبين موضع محمد وصبح، متفحّصاً أثر المنظر على وجهه. ولكن هشاماً لم يبد أي اهتمام ولم يتغير تعبير وجهه الساكن. وأخذ يجيل بصره في كل الاتجاهات وفي الفضاء دون أن يتوقف به عند الحبيبين، وكأنه لا يراهما. وكأنَّ جؤذر قد أراد أن ينبه الصبي الغرّ إلى ما يجري هناك فقال:

- انظر يا سيدي! متّع بصرك بملكك البهيج.. إذ كلّه لك... هذا وقت الربيع.. وقت الزهور والعشق والصبابات كما يقول الشعراء.. أنصت جيداً يا سيدي، تسمع هديل الحمام يتناجى أزواجاً.. كلّ مع أليفه.. حتى قيل: من أراد أن يتعلّم فنون الحب والألفة فلينظر في أزواج الحمام. هل تصدّق هذا يا مولاي؟

هز هشام رأسه هزة خفيفة لأول مرة دون أن تتغير ملامحه، وقال وهو يتابع النظر في الفضاء:

- نعم.. أصدق يا.. أنا أحب الحمام.. وقد رأيت كل ذلك بنفسي..

وفجأة التفت إلى جؤذر وسأل ببراءة مصطنعة:

- ولكن ما عِلْمُكَ أنت بالعشق والأزواج؟

وأشار بازدراء إلى النصف السفلي من جسم جؤذر ملمحاً إلى أنه خصيّ. نزلت الإهانة المتعمّدة كالصاعقة على جؤذر، فانقبض لها انقباضاً شديداً. ولم ينتظر هشام الجواب، فعاد ينظر في الأفق. وبعد لحظات من الصمت، عاد هشام فسأل دون أن يلتفت:

- ما اسمك؟

فوجئ جؤذر من جديد، وقال:

- لا تذكر اسمي يا سيدي!! وأنا خادمك وخادم أبيك مذ كنت في مثل سنّك حتى صرت من أكابر فتيانكم.

قال هشام ممعناً في التصغير والإهانة:

- جُرَذ؟ شيء كهذا!

قال جؤذر، وقد نسي الآن ما كان فيه من التعريض بصبح ومحمد.

- جُرَذ؟! لا قدّر الله يا سيدي.. جؤذر.. جؤذر!

تظاهر هشام بالتذكر:

- آه.. جؤذر.. ولد البقرة الوحشية.. والجمع جآذر.. ولكن أي اسم هذا؟ وما الجميل في ولد البقرة الوحشية ليسمّى به مملوك على سبيل التحبّب؟ أعني: جوهر، درّي، مرجان، ورد.. لا بأس.

ثم أطلق ضحكة هزء وسخريّة حتى تمنّى جؤذر لو أنه لم يحاول إغراء هشام بالوقوف في المنظرة. ولكن الضربة القاضية كانت بَعْدُ في انتظاره، إذ قال هشام:

- ولكن.. ما يبقيك عندنا وقد قلت في أصحابك إنك تريد أن تستعفي من الخدمة؟ فقد أعفيتك!

اضطرب جؤذر اضطراباً شديداً وحاول أن يقول شيئاً فخذله لسانه، ولم يحسن غير التأتأة بأصوات مبهمة. وأردف هشام:

- صبي غِر! يلعب في مكتب ولا يرى ما الذي يدور من حوله! هه! إنني أعلم كل شيء.. حتى ما يدور في نفسك الآن؛ تقول: إذن بيننا واشٍ! وتراود نفسك على الرجوع عن ذلك الكلام عن الاستعفاء! أليس كذلك؟ ولكن سبق منك القول.. وسبقت مني الإجابة.. قد أعفيتك.. فانطلق راشداً.. أو غير راشد.. لا أدري.

خرج جؤذر كسيفاً محسوراً يجرجر ساقيه. وتخلّف هشام في المنظرة. ولأول مرة يركز نظره على أمه ومحمد.. وتمنّى لو كان بوسعه أن يسمع ما يدور بينهما من حوار. وكان الحوار يتردد بين السياسة والحرب والحبّ! وكان كل منهما يُسْلِم إلى الآخر دون تكلف، حتى كأنها وجوه مختلفة لحقيقة واحدة. وحين قال لها محمد إنه سيتولى بنفسه قتال الجلالقة حين يفرغ من أمر الصقالبة، ضربت على صدرها بحركة عفوية ضنّاً به أن تصيبه من ذلك غائلة، قال:

- من طلب المعالي تكلّف لها. المصحفي يمشي بساق السياسة دون القتال، والناصري يمشي بساق القتال دون السياسة. وأرجو أن أجمع بين الحُسْنَيَيْن، وأسبقهما على ساقين.

قالت:

- ألم يخطر لك أنني أخشى عليك؟

رمقها مبتسماً وقال:

- بالطبع تخشين عليّ، فما زال المحبّ يخشى على حبيبه، ولا يمنعه ذلك من الإقدام إن كان أهلاً له. ومن أقعده العشق عن مواقف العزّ، فما هو أهل له، لا كان ولا كان حبه. ألا ترين إلى الرجل يكون ضعيفاً يتخطفه الناس، فإذا رأى المرأة التي يهوى نصب جسمه ونفش صدره واشتدّ في مشيته. فإذا استنجدته على رجل عُتُلّ من أهل الشرّ طاب له الموت، وأقدم إقدام من لا يطلب الحياة.

قال ذلك وهو يتقمّص الحال بجسمه وحركته. فانطلق في الضحك واستأنف:

- والأرجح أن يكون ذلك آخر عهده بالحياة والدنيا.. والعشق بالضرورة.

ارتفع صوتها بالضحك حتى تهيّأ لهشام الذي كان يتابع النظر أنه يسمعه.

وتابع محمد:

- وقديماً قتل العشق الرجال. وقد كان العربي إذا أراد أن يحمّس نفسه للقتال هتف باسم حبيبته، ثم كرّ على خصمه. وذلك قول عنترة:

ولقـــد ذكرتـــك والرمـــاح نواهـــل

منـــي، وبيـض الهنـد تقطـر مـن دمـي

فـــــوددت تقبيـــــل الرمـــــاح لأنّهـــــا

لمعـــــت كبـــــارق ثغـــــرك المتبسّـــــمِ

وتلك خشيتي من مواجهة البشكنس بعد حين، إذ يذكّرونني بصبح البشكنسيّة.

ابتسمت وهي تتأمّله بحب غامر. وأردف:

- أنتن النساء.. عجيب أمركنّ.. تخشون على الرجل من مواطن الكريهة وتحاولن صرفه عنها، فإذا أطاع سقط في أعينكن، ثم تنصرفن عنه. وإن أبى ذرفتن الدموع عليه خوفاً حتى يعود، وقد زاد الحب. فكيف تراودينني على ترك الحرب والجيش، فأخسر نفسي.. وأخسر حب الناس.. ثم أخسر..

تردد أن يتم العبارة، فقالت تحثّه:

- قلها.. لم تقلها يوماً باللفظ. ما بالك تتردد.. هل مقاتلة الجلالقة أهون منها؟ وهل يحتاج قولها إلى شجاعة دونها الشجاعة في مقارعة العدوّ؟

نفث نفساً عميقاً وقال:

- وقد يكون الحبّ أثقل كلفةً من الحرب!

اعتراه بعض الشرود، قبل أن يكمل:

- بل قد تكون الحرب بعض تكاليف الحب!

نهض من جلسته واقفاً. وحين رآها تتهيّأ للنهوض، وجد نفسه بغير تدبير يمدّ يده ليعينها، فقبضت على يده القوية.. وكانت تلك أول مرة تتلامس فيها يداهما. وما إن استقامت على ساقيها حتى أفلت وأفلتت وأطرق وأطرقت. ثم مشيا صامتين، بينما ارتد هشام من مكانه على المنظرة إلى داخل القصر.

مع خروج جؤذر من الزهراء على ذلك النحو المُذِلّ، شعر كبار الفتيان من الخصيان والفحولة معاً أن النهاية يمكن أن تكون وشيكة، فآثروا السكون، إلّا دريّ الذي لم يستطع لجم لسانه فأخذ يهدّد ويتوعّد أمام أصحابه، ويردد أنه لن يرضى بحياة الخمول في ضياعه، فإذا وقع ما يخشونه فلن يعطي بيديه حتى يعلم المصحفي الرقيع وذلك الدعيّ الطارئ أبو عامر أنّ لحمه ولحم أصحابه الفحولة ليس طريّاً. وبالطبع نُمي ذلك لأبي عامر.

في اليوم التالي كان الفتى «سكر» يقود كوكبة من الفرسان الصقالبة الفحولة الذين انشقوا عن إخوانهم والتحقوا بأبي عامر، متجهين إلى قصر «دري» في ضيعته في منطقة البياسة. وإذ وصلوا وخرج لهم دريّ، أرسل نظرة حقد إلى سكّر الذي ابتدره بالقول إن أمير المؤمنين يأمره بالشخوص إليه من فوره. ولما دخلوا الزهراء توجه به سكر إلى ديوان أبي عامر بدلاً من مجلس الخليفة. وحين دخل عليه وجد عنده عدداً من أهل بياسة ميّز وجوههم من فوره، فتعاظم ارتيابه، وكان في المكان عدد من جند بني برزال وصقالبة سكر في السلاح. أجال نظره في الحضور بوجه شديد الانقباض والعبوس، ثم قال:

– ما غرض هذا كله.. وما هؤلاء!

أجاب محمد وهو يشير إلى الحضور من أهل بياسة:

– تعرف من هؤلاء جيداً. إنهم من بياسة حيث تقيم في ضياعك، وقد توصّلوا إلينا بالشكوى.. يزعمون أنك غلبتهم على أراضيهم، ثم

فرضت عليهم مغارم لم يصدر بها سجل من الخليفة أيّده الله، ولم يصل خراجها إلينا. ثم سخّرت أعداداً من أبناء بياسة في إصلاح ضياعك، وجاؤوا بالبينات والشهود.

زمّ دريّ شفتيه وهز رأسه. وكان رجلاً ضخماً مفتول العضلات. وقال متحدياً:

- بل أمر بُيِّت بليل. ولن أتلبّث هنا لأنصت إلى هذه الأباطيل..

ثم انفتل ليخرج دون استئذان. وهنا جذبه محمد، فارتد دريّ عليه بسرعة خاطفة وجذب محمداً من لحيته وضغط على عنقه مائلاً عليه بجسمه الضخم، وألزمه الحائط. حدث ذلك كله بسرعة خاطفة. وصاح محمد بصوت مخنوق وهو يقاوم:

- دونكم الكلب فاقتلوه.

وكان بنو برزال قد تسابقوا ليخلصوه من قبضة دريّ، ولم يكن ذلك سهلاً، حتى تكاثروا عليه، وحين تمكنوا أخيراً من جذبه بعيداً عنه، انهالوا عليه بالسيوف، ولكنه لم يسقط على الأرض حتى تمكن أحدهم من اخترط رأسه.

أخذ محمد يتحسس عنقه وقد أجهده الضغط والعصر. وإذ تمكن من التقاط أنفاسه قال:

- ارفعوا رأسه على رمح بحيث يراه الناس. واخرجوا من الساعة فتقبضوا على كبار أصحابه المقيمين بالسلاح خارج القصر.

❊ ❊ ❊

بينما كان بنو برزال وأصحاب الفتى سكّر يُنْفذون أمر أبي عامر في الصقالبة الفحولة، كان فتيان القصر وعلى رأسهم فائق يحزمون متاعهم

للخروج من الزهراء إلى الأبد. وكان أبو عامر قد أمرهم ألا يخرجوا معهم شيئاً من المال والجوهر، وألّا يغادروا دورهم وضياعهم خارج الزهراء حتى يستدعيهم للنظر في مظالم الناس. أما من يحاول الاختفاء فقد أحلّ دمه. واستخرج بذلك كله أمر الخليفة هشام.

كان يوم خروجهم بمثابة يوم عيد لأهل قرطبة. أخيراً صدقهم أبو عامر وعده. واحتشدت أعداد منهم على رصيف الزهراء قبالة باب السدّة ليشهدوا خروجهم المذلّ وتشتفي صدورهم منهم. وكان أبو عامر قد بث من يشيع الخبر بين الناس، قبل ذلك. وأوقف على باب السدّة نفراً من بني برزال يتفحّصون متاعهم واحداً تلو الآخر، ليتأكدوا من أنهم لم يخرجوا معهم غير ما سُمِح لهم به.

وإذ خرج فائق من الباب ذليلاً نظر في الحشد الذي كان يرقب متشفياً، ثم ارتد ببصره إلى الزهراء وأطلق تنهيدة عميقة. ثم همس لمن كان في جواره:

- كاتب الرقاع عند رصيف القصر.. ما أقرب اليومَ من البارحة، وما أبعده!

أما كاتب الرقاع القديم، فكان في تلك اللحظة يقف على شرفة مطلّة في ديوانه مع إبراهيم وعمرو وعليّ، يراقبون خروج الفتيان. ثم التفت إلى إبراهيم وقال:

- هذا يومك يا إبراهيم ويوم عامة قرطبة. فهل وجدتَ ما وعدتُك حقاً؟ هذا خيرٌ أم طريقتك؟

بقي إبراهيم صامتاً لبضع لحظات، ثم قال:

- والصقالبة الذي تخلّفوا معك؟

أجاب محمد:

- كما قلت.. معي.. تَبَعي.. لا يعصون ما آمرهم به.. نحفظ بهم زينة الدولة، ويدبّرون شؤون القصر ورسومه التي لا يحسنها أحد مثلهم.. وبذلك نكون قد أخرجنا شرّهم، واستبقينا خيرهم.

ثم أردف قائلاً:

- على أنه بقيت مهمة كنت أحب أن أستأثر بها لنفسي.. ولكن، لا بأس! أولها عندك، وآخرها عندي وعامة قرطبة.

وكان ذلك سجن الصقالبة الذي التقى فيه الصاحبان: محمد وإبراهيم، ولبث فيه الثاني بضع سنين من العذاب وعمل السخرة. فكان أسعد الناس بأن يوكل له صاحبه مهمة اقتحامه والتقبض على صقالبته، وعلى رأسهم جوهر، وتحرير السجناء الذين طال عليهم الأمد فيه حتى يئسوا من الخلاص ويئس أهاليهم من عودتهم. وها هم اليوم يحتشدون في ساحة السجن بعد تحريرهم ينظرون في جلّاديهم موثقين في الأغلال التي كان فيها ضحاياهم، ويهمون بالبطش بهم ثأراً وانتقاماً لولا أن العسكر الذي جاء مع إبراهيم كان يحجزهم عن ذلك بأمره. وما كان إبراهيم ليفوت فرصة مواجهة جوهر وقد انقلب الحال الآن. فبعد أن استعرض صف الصقالبة الموثقين أمامه وقد نكسوا رؤوسهم، توقف عند جوهر، وحدّق فيه بنظرة صارمة مشبعة بالتشفّي، فأشاح جوهر بوجهه. وقال إبراهيم:

- هل تذكرني يا جوهر؟

وإذ لم يُجِب وظل مشيحاً عنه، صاح به صيحة مدويّة:

- انظر إليّ أيها الوغد!

رفع رأسه ببطء وتردد وامتثل للأمر. عاد إبراهيم إلى لهجته الاعتيادية وقال:

- الظلم مرتعه وخيم.. والظلم ظلمات.. وعلى الباغي تدور الدوائر.. أمثال عربية.. عربية أيها الصقلبي!

ثم اقترب منه حتى كاد رأسه يلمس رأسه واقتحم عينيه بنظرة يتطاير منها الشرر وقال:

- كنت أتمنى أن أتولّى أمرك بنفسي.. أنا وكيل صاحب الشرطة! ولكن، هناك من لا يصبر عن رؤيتك.. والأمر لصاحب الأمر!

* * *

لم يتخيّل أهل قرطبة أن يروا ذلك المشهد يوماً. كان جوهر موثق اليدين بحبل طويل يجرّه أحد بني برزال، بينما يَدُعّه آخرون من الخلف إمعاناً في إذلاله. وكان إبراهيم يمشي في المقدمة، ويحيط به وبجوهر عدد آخر من العسكر، ليحجزوا الحشود الغاضبة الموتورة التي تحاول الوصول إليه لتفتك به لو استطاعت. وإذ لم يتمكنوا من ذلك اكتفى جلهم بالبَصْق والسباب والشتائم المقذعة. وعلت أصواتهم بطلب الموت له.

تعمّد إبراهيم أن يسوقه مسافة طويلة في أسواق قرطبة، ليشهده على ذلك النحو أكبر عدد من الناس، حتى بلغ به موضع دكان أبي قاسم الذي عمل فيه محمد وقتاً قبل أن يتزوج ابنته عائشة ويمضي في مراحل صعوده المدهش. وكان أبو قاسم قد توفي منذ وقت وبيعت دكانه. وهناك كان حشد آخر يستقبل إبراهيم ومن معه. وإذ توقف به برز محمد من بين الحشد المنتظِر، وعلت أصوات الناس من جديد يهتفون بطلب الموت لعدوهم القديم، حتى رفع إبراهيم يده يومئ بالسكوت، فامتثلوا يرقبون ما يفعل بطلهم فتى الأندلس: محمد بن أبي عامر الذي تقدّم نحو مكان جوهر حتى وقف أمامه، وكان معه عمرو وعليّ اللذان توقفا مع إبراهيم خلف محمد. وكان محمد يمسك سوطاً يضرب بمقبضه الخشبي على يده بحركة رتيبة.

رفع جوهر رأسه ببطء من انتكاسته منكسف النظر. وقال محمد:

- جوهر! جوهر! ما فعل الزمان بك يا رجل؟ أين تلك الوقفة الصلبة والنظرة الصارمة ومشية الاختيال والكِبر؟ .. و.. أين السوط الذي كان بيدك.. هاه.. أين هو الآن؟

وضرب من جديد بمقبض سوطه على يده. وتابع:

- سبحان مقلب الأحوال، الذي يُغيِّر ولا يتغيّر.

بعد لحظة صمت، تحدث محمد من جديد:

- هناك رجل تحب أن تراه يا جوهر.

ثم أشار بيده إلى جهة معيّنة، فانفرجت الصفوف هناك، وبرز أحد الشرطة يقود شيخاً كبيراً طاعناً في السنّ قد كف بصره. ولم يكن هذا الشيخ غير ذلك الرجل المكتهل الضعيف الذي أذلّه جوهر وحمله على مسح نعله بكم ثوبه على مشهد من الناس، حين داس الرجل على طرفه بطريق الخطأ مع زحمة السوق.. في ذلك اليوم البعيد.

أوقف محمد الشيخ أمام جوهر الذي أخذ يقلّب بصره بنظرات زائغة بين الشيخ والأرض. وقال محمد:

- هل تذكر هذا الشيخ الجليل؟ .. انظر إليه جيدّاً! لا أحسبك تذكره بين مئات الناس الذين أذللتهم؟ ولكن هو يذكر.. فالمظلوم لا ينسى ظالمه.. وأنا أذكر.. و.. بعض هؤلاء يذكرون.

وأشار إلى جموع الناس من حوله، وتابع:

- لم يكن الوصول إليه سهلاً. ولكن ها هو الآن هنا.. فماذا تريد أن تفعل يا جوهر لتعتذر من هذا الشيخ الجليل وتطيب خاطره؟

بقي جوهر صامتاً، فقال محمد:

- حُكْم الله يا جوهر.. العين بالعين، والسنّ بالسنّ.. والعقوبة من نوع الجرم. والبادئ أظلم!

ثم صاح صيحة هائلة مدويّة:

- انزل إلى قدمه، فامسح نعله يا ابن اللخناء! الآن!

دعّه الحرس من خلفه بغلظة بالغة اضطر معها إلى النزول على ركبتيه، وبدأ بمسح نعل الشيخ بطرف كمه، بينما تعالت أصوات الحشد بالتكبير. ثم رفع محمد يده فسكتت الأصوات. وأشار محمد للحرس فأوقفوا جوهر. وقال:

- ردّوا هذا الشيخ الجليل إلى داره، وأحسنوا إليه، وأوقفوا له خادماً من مالي.

مضى الحرس بالشيخ يسندونه برفق. وعاد محمد ينظر إلى جوهر وقال:

- والآن حقوق أخرى نقضيها بإذن الله.

أشار إلى عمامة جوهر وأردف:

- أما هذه فلن تحتاج إليها بعد الآن.

وأسقطها بمقبض سوطه، ثم داس عليها بقدمه وأمعن في ذلك. ثم هز السوط بيده وأشار إلى الناس أن يتباعدوا، ثم انهال عليه بالسوط وهو يصيح ويتأوّه.. واستمر في ذلك حتى تعب ساعده، فقذف السوط وأخذ يلتقط أنفاسه، بينما عادت أصوات الحشد تهتف بالموت لجوهر، حتى استوقفهم محمد بحركة من يده وهتف:

- الموت أرحم من أن نهديه له. ولكنا سنحرص على أن يتمناه فلا يجده.

وأومأ إلى الحرس فجرّوا جوهر حتى ابتعدوا به. وهتف محمد في الناس من جديد:

- أيها الناس.. أيها الناس.. من كانت له مظلمة عند واحد من فتيان الصقالبة، فليرفعها إليّ، فإني ناظر فيهم.

ارتفعت الأصوات بالتكبير من جديد، وما هي حتى وجد محمد نفسه مرفوعاً على الأكتاف، والهتاف يدوّي في أرجاء قرطبة:

- أبو عامر يا منصور. أبو عامر يا منصور.

* * *

لم يعد هناك ما يخشاه الناس من رفع المظالم التي وقعت عليهم من الصقالبة، إلى مجلس خاص تولى رئاسته أبو عامر وضمّ إليه ابن جهور وابن حزم وابن حدير والقاضي محمد بن السليم. وبعد النظر في البينات والشهود قضى فيهم جميعاً على وفق المظلمة بين الغرامات الباهظة ومصادرة الأموال والضياع والنفي والسجن، حتى سكنت خواطر الناس، وظنوا بالعهد الجديد خيراً، ونسوا ما أوغر قلوبهم من استفتاح العهد بمقتل المغيرة.

مكتبة
t.me/t_pdf

كان ابن أبي عامر يتمشّى مع هشام المؤيّد في حدائق القصر، وقد دخل الآن في الرابعة عشرة من عمره. وكان يحدثه فقال:

- قد بات أهل قرطبة وليس لهم إلّا الدعاء لمولاهم الخليفة هشام المؤيد بالله بعد أن خلصهم من أهل الشرور والقبائح، وردّ عليهم حقوقهم، وانتصف لهم ممن ظلمهم. فاستبشروا بقابل أيام عهدك، أدامها الله وأطالها وجعلها كلها أيام سعد وبركة. فلعلك يا مولاي قد رأيت حُسْن مشورتي وحزم تدبيري. وكله منسوب إليك، معدود في مآثرك. ولم يكن ذلك كله ابن ليلته. فقد علم الله أني منذ مولدك الشريف، كنت أنظر وأفكر وأقدّر ما يكون مع توليك من المكائد والأطماع والخلاف. وما زلت منذ ذلك الحين أعِدّ وأوطّئ وأدبّر حتى لا نؤخذ على حين غرّة. وقد كان كما قدّرت وكما دبّرت. والحمد لله أولاً وآخراً. فأنت يا مولاي لست خليفتي حسب. فقد كان لي شرف تعهدك والنظر عليك منذ رأيتَ النور على ما كلفني إياه أبوك الحكم العظيم، رحمه الله، وشهدتك تكبر على عيني يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام. وأنا أحرص الناس على النبت الشريف الذي كان لي شرف سقايته وإحاطته بكل ما ..

قاطعه هشام وفاجأه بالقول:

- أهذا تشبيه حسن؟

تلفت إليه أبو عامر بحيرة واستطلاع، فأكمل هشام بلهجته العرضية نفسها:

- النبت الشريف.. تعهدتَه بالسقاية! وماذا يكون مع سقاية النبت.. الشريف.. أو غير الشريف، سواء؟ .. السماد.. تقليم الأغصان.. قطفه وحصاده!

كان قد ألف غرابة أطواره، وميله إلى إحراج محدثه وإظهار الثغرات في منطقه، وكأنه ينبهه، على نحو مضمر، ألا يحاول أن يتذاكى عليه ويقوده إلى حيث يريد.

تلجج محمد قليلاً ثم قال معتذراً:

- لعلي أخطأت التشبيه.. ولكن.. المعنى.. يبقى المعنى يا مولاي.

هزّ هشام رأسه وقال بنبرة تبطن التهكم:

- المعنى.. نعم.. المعنى.. والمعنى في بطن الشاعر!

وأطلق ضحكة قصيرة ساخرة، وتابع المشي. لاحقه محمد وقال:

- مهما يكن.. فقد أنجزنا حتى الآن شيئاً كبيراً.

علّق هشام بالنبرة المبطنة نفسها:

- أنجزنا؟

تجاهل محمد التعليق وتابع دون فاصل:

- الرعيّة تحتفل.. ومن حقنا نحن أيضاً أن نحتفل.

قال هشام:

- نعم.. بعد إنجازنا الكبير.. نحتفل!

- نروّح عن أنفسنا بمجلس سمر تضرب فيه العيدان، وتغني لنا القيان، وترقص فيه الـ..

قاطعه من جديد:

- العيدان! آلة الشيطان.

أطلق ضحكة ساخرة أخرى، والتفت إلى محمد مردفاً:

- كلام مؤدّبي الفقيه يحيى بن يحيى.

قال محمد مسوّغاً:

- الترويح عن النفس ينشط العقل والبدن يا مولاي.. فإنّ القلوب تملّ.

توقف هشام والتفت إلى محمد، ومن جديد لم يخفق في مفاجأته وإحراجه وإثارة دهشته إذ قال:

- هل تريد أن تفسدني يا أبا عامر؟ تفسد مولاك؟ وليّ أمرك!

أُرتج على محمد فتوقف لا يجد ما يقوله. ثم أطلق هشام ضحكة قوية الآن، ومشى متقدّماً محمدا الذي ظل واقفاً وراءه يغالب تأثير الصدمة. ثم سمع صوت هشام وهو يبتعد دون أن يلتفت إليه:

- فليكن.. العيدان.. والقيان!

* * *

في مجلس الأنس الذي رتبه محمد لهشام وحده، أخذت بعض الجواري يضربن العيدان والدفوف، بينما أخذت أخريات يتراقصن على الإيقاع والأنغام. وكان هشام يراقب متبسطاً وهو يحتسي من كأسه ويتناول بعض حبات العنب من طبق الفواكه الكبير أمامه. وبعد حين مالَ أبو عامر إليه وهمس له:

- ألا تميل مع الإيقاع يا مولاي؟

قال هشام دون أن يزيح بصره عن الراقصات:

- (وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمرّ مرّ السحاب).

ثم استدرك على نفسه بأسلوب مصطنع:

- أستغفر الله.. كلام الله في غير محله.. غفر الله لي.

ثم رفع كأسه ونظر فيه، وسأل مدّعياً الجهل:

- أهذا من المحرمات؟

أدرك محمد أنه سؤال العارف، فقال:

- إن شئت أمرنا برفعه.

ثم أومأ إلى بعض الخدم ليرفعوا الشراب، ولكن هشام أكمل احتساء كأسه، وكفّ الخدم بحركة من يده. وبعد لحظات مالَ إلى محمد وقال:

- هل يضرّ التمايل بهيبة الخليفة؟

ابتسم محمد وهمس:

- لكل مقام مقال يا سيدي.. تلكم هي البلاغة.. ومثلها التصرّف في المواقف. والتحفظ في ساعة الأنس تكلف مكروه، كالتبسّط في ساعة الرأي!

بدأ هشام يتمايل مع النغم والإيقاع، وبعد لحظات أخرى قال لمحمد دون أن يتحوّل ببصره عن الراقصات:

- ولكنك لا تهتز.

فوجئ محمد أول الأمر، ثم لم يسعه إلّا أن يسايره فأخذ يتمايل بجسمه أيضاً. ثم أومأ بطرف عينه إلى راقصة بارعة الجمال، فتقدمت نحو هشام وهي تتابع الرقص، وانحنت عليه حتى كاد وجهها يمسّ وجهه. وهنا وضع هشام في فمها حبة عنب، فجعلتها أولاً بين شفتيها بأسلوب مثير، ثم أخذتها بلسانها داخل فمها وتراجعت. وبعد وقت تلا الرقص الغناء.

كان قد دخل السحر حين انفضّ مجلس السمر وأخذا يمشيان في ساحات الزهراء في جوف الليل نحو إقامة هشام، وأصرّ محمد ألا يشيّعه غيره حتى حجرة نومه. وكانت مصابيح الزيت والمشاعل موقدة في أماكن متفرّقة. وكان هشام يترنح من أثر السكر ويأبى أن يسنده محمد كلما حاول ذلك. وتعمّد أن يطيل الطريق وهو يدندن بصوت ثقيل بإحدى الأغاني التي استمع إليها في المجلس. ثم مالَ عليه محمد وقال:

- تلك الجارية.. التي ألقمتها حبة العنب! أليست جميلة؟ قد رأيت كيف كنت تنظر إليها وتنظر إليك! إنها جاريتك.. ملك يمينك.. فلو شئت.. أعني.. تعلم ما أعني يا مولاي؟

قال هشام بلسان ثقيل:

- تلك الشقراء الروميّة! أُفضِّل السمراوات..

توقف، ورفع رأسه يدقق النظر في محمد الذي سقط على وجهه ضوء أحد المصابيح القريبة، وقال بلهجة خاصة مبطّنة:

- أنت تفضل الشقراء.. هه! بنات بني الأصفر!

هل كان يلمح إلى أمه «صبح»؟

حاول محمد أن يدفع هذا الخاطر الذي طاف به دون تدبّر منه. ولكن من يدري ما الذي يخامر رأس هذا الصبي الغريب الأطوار؟

قال محمد:

- ولكني متزوج من امرأتين سمراوين!

هز هشام رأسه وقال:

- وما شأن هذا بما أقول؟ يختار الرجل زوجه لكل الأسباب. وقد لا يكون منها ما يهوى حقاً! أليس كذلك؟

هنا مالَ محمد إلى ترجيح ظنه في مغزى تلميحات هشام، فآثر تجاهل الموضوع، وقال:

- ألا يحسن أن تعود الآن فترقد يا مولاي؟ قد أوشك الصبح.

أجاب هشام بأسلوبه المتهكم:

- النوم! الخليفة لا ينام.. يفكر في الرعيّة.. إنها أمانة!

أطلق ضحكة غريبة ساخرة وتابع المشي. وبعد لحظات أقبل أحد الحرس مهرولاً وهو يحمل مشعلاً بيده ليتفقد حقيقة الشبحين اللذين يتمشيان في الظلام في تلك الساعة. وحين تبيّن له أنهما الخليفة وأبو عامر، انحنى بأدب معتذراً:

- العفو يا سيدي..

ورجع عنهما من فوره. ولكن هشاماً ناداه، فعاد مسرعاً:

- السمع والطاعة يا مولاي.

قال هشام:

- نسيت شيئاً.

ازدادت حيرة الحارس حين رأى الخليفة الصبي يمدّ له يده ليقبّلها، حتى تفطّن لمقصده، فأسرع يقبّل يده.

قال هشام:

- نعم، هكذا.. حارس مطيع.. أمرنا لك بجائزة.. ألف دينار.

ثم التفت إلى محمد وقال:

- أبا عامر.. تصرف له جائزته غداً.

انحنى محمد برأسه ممتثلاً، وابتعد الحارس مسروراً برزق جاءه من حيث لم يحتسب.

وأخيراً وصل هشام مترنحاً إلى باب جناحه وكان ينتظر على جانبيه اثنان من أهل الخدمة. صرف هشام محمداً الذي رافقه حتى الباب:

- مع السلامة يا أبا عامر.. أذنت لك.. و.. نم جيداً.. عمل كثير!

إذ دخل هشام حجرته مع أحد الخادمين، اعتدلت مشيته فوراً منتصباً بجسمه، فلا أثر من ذلك الترنح الذي كان كله افتعالاً مقصوداً في صحبة أبي عامر. خلع عمامته وناولها للخادم، وتحدث بصوت واضح لا ثقل فيه إطلاقاً:

- اخرج الآن.

قال الخادم:

- ألا آتيك بشيء يا مولاي.

قال هشام:

- لا.. بورك بك.

خرج الخادم، ونزل هشام جالساً على إحدى الأرائك، وأطرق متفكراً ثم أخذ يدندن لنفسه ببيت من أغنية سمعها في المجلس بطلب من محمد:

أعطيتـــــــه مـــــــا ســـــــألا

حَكّمتُـــــــه لـــــــو عـــــــدلا

أخذ نفساً عميقاً.. وهمس لنفسه:

- ولكن، من يعدل؟

غلبه النوم على الأريكة. وحين استيقظ من آخر الضحى، لبث وقتاً مستنداً بكتفيه إلى ظهر الأريكة وقد ذهب في شرود بعيد. ثم نهض

بهدوء، وتوجه إلى قاعدة خشبية أنيقة مرصّعة بالصدف الثمين، وعليها مصحف كبير أنيق التجليد والزخرفة. جلس أمامها على ركبتيه بخشوع، وفتح المصحف، ثم قرأ بصوت خفيض من سورة الحاقة:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة:18-29].

من موضع معين في التلاوة، بدأت دموعه تسح بغزارة، وصوته يتهدّج ويتقطع مع غلبة البكاء. وحين توقف، نزل برأسه على المصحف يُقبِّله حتى بلل حبره ببعض دموعه.

* * *

سألت صبح:

- كيف كان المجلس؟

أجاب محمد:

- ككل مجالس السمر.

- وكيف كان هشام؟

- طرب كثيراً.

قالت مع إيماءة خاصّة وهي تقتبس من بيت أبي نواس:

- واستخفّه الطربُ؟

أنشد البيت بتمامه:

- حامـــــل الهـــــوى تَعِـــبُ
يســــــــــتخفّه الطـــــــــربُ

قالت بتدلل:

- لو كان صحيحاً لكان الذي بعد الطرب:
إن بكـــــــى يحـــــق لــــــه
لـــــــيس مـــــا بــــه لَعِـــــبُ

ولا أراك تبكي؟

أجاب ببيت آخر من الشعر:
- وتجلُّـــــدي للشـــــامتين أُريهـــــمُ
أنّي لرَيْـــــب الـــــدهر لا أتضعضـــــعُ

ضحكت وقالت:

- لا يعجزك الجواب.

أطربتها توريات الحب كالعادة. ولكنه كان في شأن آخر يشغله. وقد لحظت ذلك فسألت عما يحوك في صدره. قال:

- ربّما كنت مفرطاً في هواجسي.. وحذري! ولكن الحيطة أولى في كل شيء، لا سيما حال السلطان... وقد شهدنا معاً مكائد الكائدين حتى لكادوا أن يصرفوا الخلافة عن ولدك، وأن يحرّضوا علينا.. أعني أنتِ وأنا.. يقولون: خليفة صبي تدبّر له أمّه مع أبي عامر.. ثم يغمزون ويلمزون بنا.. وقد صدقوا: هو خليفة صبيّ.. وإذ هو كذلك فمن أولى الناس

بالتدبير له ورعايته حتى يكبر غير أمه التي أنجبته، ثم من أولى مني بحفظه وحفظك؟ ذلك مقتضى الشرف والواجب والأمانة و.. الحب المقيم. ولكن، لأنه ما يزال صبيّاً، فإن الذي يقتضي منا حفظه، هو ما ينبغي أن نخشاه عليه من سائر الناس.. أعني أن يتوصّلوا إليه من ورائنا فيوحوا إليه بأغراضهم ويوجهوا رأيه، ومن يدري، ربما يغيّرون قلبه.. إن لم يكن على أمّه، فعليّ أنا.. وهو الخليفة على أي حال.. يكفي أن يوقّع على أمر خطير فيَنْفَذ، ولا سبيل إلى استدراكه. نعم.. ذهب خطر الصقالبة.. ولكن دار السلطان مليئة بأهل الطمع والأهواء.. المصحفي.. لا أثق بنياته.. والكل يشهد بجشعه وخبثه.. فإن لم يكن منه شيء، فلا نأمن سائر المصحفيين، وفي مقدمتهم ابن أخيه هشام، الذي لا يخفي بغضه الشديد لي.

قالت:

- تعني أن نجتهد في حجبه عن مثل هؤلاء؟

قال:

- بل نحجب عنه شرورهم ومكائدهم، ونحفظه من أمرهم ما استطعنا. فقط حتى يبلغ رشده فيستقل برأيه وأمره، وأنا خادمه في كل وقت.

ذهبت لحظة في التأمل والتفكير، ثم هزّت رأسها بالموافقة هزّة خفيفة.

لم يحدث مثل هذا من قبل، على الأقلّ في الزمن الذي يذكره أهل قرطبة. ففي عهد قريب كان ملوك ليون وجليقية وأمراء قشتالة ونبارّة يقدمون على الناصر ويقبِّلون الأرض بين قدميه، يخافون عقابه ويطلبون رضاه، ويستنصر به بعضهم على بعض. والآن تصل غاراتهم إلى أحواز قرطبة نفسها، فيقتلون وينهبون ويأسرون ويحرقون الزرع، ثم يرجعون إلى ديارهم سالمين غانمين، لا يجدون رادعاً. ولم تكن غايتهم في ذلك الحين التوسّع في أرض الأندلس. حسبهم الآن من الغارات السريعة اختراق الثغور والترويع والنهب والاستقواء، توطئة لحلم قديم حيّ يسمونه «الاسترجاع». وقد أثبتت التجارب الطويلة أن هزائمهم أمام جيوش الأندلس تفرّقهم، وأن انتصاراتهم تجمعهم من جديد على ذلك الحلم القديم.

فما الذي حدث الآن حتى بلغوا هذا المبلغ من الجرأة والعدوان، وليست الأندلس في قلّة من العسكر والمال؟

كان الخلاف المتفاقم بين الحاجب المصحفي وغالب الناصري، أصل البلاء. فقد بلغت النقمة بالناصري الذي شعر بأنه لم يُجْزَ ببلائه الطويل في حفظ الثغور ما يستحق من مراتب الحكم في العهد الجديد، أنه امتنع في بلدة سالم في الثغر الأدنى، وسكن عن مقارعة العدوّ. وغايته أن يحرج المصحفي ويحرِّض عليه أهل الحكم والعامة معاً. فإذا أثبت عجزه عرف الآخرون حق الناصري وحاجتهم إليه، فسعوا في استرضائه على وفق شروطه.

لم يكن محمد بن أبي عامر ليستنكر في نفسه أن يجمع القائد العظيم بين الغاية العامة التي تسع البلاد والعباد، والغاية الخاصة في الارتقاء والمجد والسلطان. بل كان يرى أن هذا من ذاك وأن كليهما شرط للآخر. وهكذا كان يرى إلى نفسه.

أما إذا وقع التعارض بين الغايتين، لسبب ما، فإن تقديم الغاية الخاصة من أرذل الرذائل وأقبح القبائح، وهو لا يجور على الغاية العامة إلّا بقدر ما يودي بالغاية الخاصة نفسها، إذ يبوء الرجل بازدراء الخلق ونقماتهم. وهو ما يوشك أن ينحدر إليه الناصري. أما المصحفي فلم يكن له في المجد نصيب على الرغم من رتبته العليا، لما علم الناس من بخله وفساده واحتجازه الأموال بغير حق. وقد زاد بغضهم له منذ توصّل إلى تولية ولده العاجز منصب صاحب المدينة فأفسد فيها وأهمل مرافقها، وانشغل عن أصحاب الحاجات بلعب النردشير في دار المدينة مع أصحابه، بينما ينتظر الناس في ديوانه بلا جدوى، إلّا أن يكون أحدهم من أهل الغنى والمراتب، أو يتوصل إليه بالرشوة، حتى صار ذلك مشهوراً بين العامّة.

قد بلغ السيل الزبى، وآن الوقت ليمضي في شوط جديد من سيرته المظفرة، فيحقق الغايتين معاً، العامة والخاصة. فإذا استطاع أن يقود بنفسه حملة عسكرية لتأديب الجلالقة، فإن انتصاراً عظيماً عليهم سيمكن له في دار الحكم للتغلب على أقوى رجلين فيها، المصحفي والناصري معاً، فيجمع في ذاته ما لم يجتمع لأي منهما: السيف والسياسة معاً.

لم يكن من الصعب عليه أن يوحي للمصحفي أن تقاعس الناصري إنما أراد به إحراجه وإثبات عجزه حتى إذا ضاقت به السبل لم يجد إلّا الرضوخ لشروطه التي لا يدري أحد ما تكون. فإن لم يفعل ثار به العامة والفقهاء وذهبوا بأنفسهم إلى الناصري يحرضونه ويستنصرونه عليه. فلا معدى من تجريد حملة عسكرية كبيرة من جيش الحضرة الذي ما زال منذ زمن طويل يتحرّق لقتال العدوّ، ومن بني برزال الأشدّاء، فإذا

تحقق بذلك نصر عظيم على الجلالقة، ارتدع هؤلاء وارتدوا إلى جحورهم، وعلم غالب الناصريّ أن الحاجب يُغني غناءَه ويقدر على ما يقدر عليه وما يدلّ به، فانقطع رجاؤه من الحصول على ما في يد المصحفي.

تعمّد ألّا يعرض نفسه لقيادة الحملة ابتداءً ليحرج المصحفيّ ومن حوله، وهو يعلم أن المصحفي أعجز من أن يقود الحملة بنفسه. ولما رأى حيرته وتردده قال:

- ليس عليك يا سيدي أن تقود الحملة بنفسك، ولا غنى عنك في دار الخلافة.

أجال المصحفي نظره في الحاضرين، وكان فيهم هشام المصحفي، ابن أخيه، الذي يلزمه ويعاونه، وعدد من كبار الموالي والوزراء. فتعمد هؤلاء جميعاً أن يتجاهلوا مغزى نظراته المستطلعة. ولما تيقّن محمد مما كان يرجحه تدخل بالقول:

- أنا لها يا أبا الحسن!

كان المصحفي يرجو أن يتطوع للمهمة غيره لشيء في نفسه. ولكنه لم يفاجأ بالنتيجة وقد اختبر مثلها من قبل. ولكنه آثر التريث قبل أن يعطي موافقته لعل أحد الحضور يستدرك بالتطوّع. فقال محمد:

- جرّبني، فإن أخفقت، فلا والله لا تراني بعدها أبداً.

ثم ذكره بالخبرة التي اكتسبها مع جيش الناصري في عدوة المغرب، وملازمته بني برزال منذ التحقوا بخدمته واكتسب ثقتهم وإخلاصهم. فلم يسع الناصري أخيراً إلّا الموافقة. وهنا قال محمد:

- لي شرط واحد.

قال المصحفي مستنكراً:

- شرط؟

تابع محمد بثقة:

– بل شرطان. أولهما أن أختار بنفسي من يرافقني من قادة جيش الحضرة مع عسكرهم. فقد خالطتهم وسعيت في أمرهم طويلاً حتى صرت أعرف شجعانهم وأهل الثقة منهم.

قال المصحفي:

– والشرط الثاني؟

أجاب محمد:

– مائة ألف دينار لتجهيز الحملة.

سُمِعت دندنة استنكار من بعض الحاضرين وقد استعظموا المبلغ.. واندفع هشام بنزقه المألوف متسائلاً:

– وما حاجتك إلى تجهيزها بمائة ألف؟

شعر محمد بأنه في موقف قوي يستطيع معه أن يدفع استنكار هشام بجواب صارم لا يراعي فيه قرابته من عمه الحاجب، فقال:

– خذ ضعفيها ولتُغْنِ غنائي!

أطرق هشام من فوره لا يحير جواباً. رمقه المصحفي عابساً، ثم تحوّل ببصره إلى محمد وهزّ له رأسه بالموافقة.

وكالعادة، أخذ هشام يلوم عمّه حين اختلى به. فعدّد له مقاصد محمد الخاصة من ذلك التدبير وذلك المال، في الظهور عليه وعلى الناصري معاً والاستقواء منذ الآن بجيش الحضرة بعد أن استحوذ على بني برزال. وفي رأيه أنه كان الأولى بعمه أن يصانع غالبا الناصري ويصالحه على ما يطلب، فيكون معه على ذلك الثعلب أبي عامر، بدلاً من محالفة أبي عامر على الناصري. وبالطبع كان محقاً، وإن تجاهل المقاصد الأخرى العامة في قتال الجلالقة وحفظ البلاد. فصاح به المصحفي:

- هب أنّ غرضه كما تصف، فهل يهوّن عليه ذلك غوائل الحرب التي تجنبتم مغارمها؟ هل يدفع عنه رماح العدو؟ فإن عاد بالنصر، هل يجب أن تنكسر خواطرنا فنقعد مع العدو على صعيد؟ أم ترى أن نقيم الليل ندعو عليه بالإخفاق والهزيمة حتى يفسد غرضه ويسقط قدره؟!

لم يكن يخاطب هشاماً فقط بذلك المنطق، ولكنه كان يخاطب نفسه أيضاً. ثم نفخ وقال:

- هل أدلّك على أدهى الساسة؟ رجل إذا عرض عليك أمراً فأخذت منه، غلبك، وإذا امتنعت غلبك أيضاً.

قال هشام بنبرة الأسف:

- وذاك أبو عامر.

قال المصحفي بضيق شديد:

- ذاك أبو عامر.

في تلك الحملة، أظهر محمد بن أبي عامر موهبته العسكرية الفذة التي ستجعله في قابل الأيام واحداً من أعظم القادة العسكريين في تاريخ الأندلس كله، ولسوف يغزو على مدى حياته زهاء سبع وخمسين غزوة، لا تنهزم له فيها راية واحدة، ويوغل في أراضي قشتالة وجليقية وليون حتى يبلغ منها ما لم يبلغه قائد قبله منذ الفتح، ليكون سيد الجزيرة بلا منازع. ولسوف يبقى ماثلاً في ذاكرة أعدائه في ممالك الشمال النصرانية جيلاً بعد جيل. حتى إذا انقضى زمانه ومعه أسباب الخوف منه، بقيت مشاعر الإعجاب التي تلزم القادة العِظام بعد أن تجرّدهم المخيلة من أي انتماء غير مواهبهم الخاصة، لتنسبهم إلى عالم الأساطير الذي يجتمع فيه الأبطال الماجدون على ما كان بينهم من صراعات هائلة.

أما المسلمون، فلئن اختلف الناس بعد حين في طرق السياسة المشتبهة التي توسّلها محمد بن أبي عامر للصعود إلى قمة الحكم، بين مؤيد ومعارض، فلسوف يجتمعون على تعظيم بطولاته وانتصاراته العسكرية. فإذا نظروا في الأولى رأوا رجلاً يطلب سلطان الدنيا بأي ثمن من روحه، وإذا نظروا في الثانية رأوا رجلاً مجاهداً لا يحرص على الحياة الدنيا حرصه على الشهادة وأجر الآخرة.

ومهما يكن، فقد أكسبته تلك الحملة محبة الجيش وولاءه. ذلك أن مهارته لم تكن تقتصر على وضع الخطط وإدارة المعارك، وإنما كذلك في تأليف الجند حوله وإثارة حماسهم وتقوية عزائمهم. فقد كان يجالسهم ويطاعمهم ويؤانسهم كأي واحد منهم، ويتعرف أسماء الكثيرين منهم..

فيحفظها على كثرتها، فإذا حمي الوطيس ناداهم بأسمائهم، وإذا انقضت الوقعة بالنصر المبين استعرض الجند فشكر لهم وخصّ بالاسم من أبدى بسالة فائقة.

فلا عجب أن يعود من تلك الحملة بنصر عظيم طال انتظار الناس له، بعد أن أوغل في أراضي مملكة ليون، وحاصر حصن بانياس أو حصن الحامة عند الأندلسيين، ثم تمكن من الدخول عليه من أقطاره وقضى على حاميته بين قتيل وشريد وأسير. وكان واحداً من أقوى حصون ليون وأمنعها. ولكن الهدف كان التأديب والردع لا التوسّع الدائم في أرض العدو. وسوف تكون هذه سمة ثابتة في كل غزواته المظفرة التي لن يدوم تأثيرها طويلاً بعد انقضاء زمنه.

حسبه من تلك الحملة أن حقق أغراضه منها، العامة والخاصة، وعاد بذخائر عظيمة تفوق ما أنفق على الحملة. وتعمّد أن يعبر الطريق الرئيس في وسط قرطبة، ليرى الناس صف الأسرى الذين جاء بهم موثقين بالحبال، وبين يديه ضاربو الطبول والصنوج، والحشود تنثر عليه الزهور، وتلوح بسعف النخل ورايات الزينة الملوّنة، وقد علا هتافهم: «أبو عامر يا منصور». وإذ بلغ موضعاً معيناً، حاولت امرأة تصحب طفلها الوصول إليه، ولما رأى الحرس يمنعونها، أومأ لهم وتوقف بجواده. وحين وصلت المرأة إليه رفعت طفلها نحوه وخاطبت الطفل:

- انظر أبا عامر المنصور!

تناول الطفل منها ورفعه بيديه أمامه وقال:

- أيها الفتى! أراك في جيش الحضرة بعد خمسة عشر عاماً! اتفقنا!

ثم خاطب الأم:

- ما اسمه؟

أجابت:

- عبيد الله.

عاد يخاطب الطفل:

- سأذكرك يا عبيد الله، ثم أقتضيك اتفاقنا.

ثم ردّه إلى أمّه بينما انفجر صوت الحشود بالهتاف المدوّي.

في موضع آخر بين الحشود، كان ابن ميمون، صاحب الخان الذي كان محمد ينزل فيه مع أصحابه أيام الدراسة في جامع قرطبة، يشارك في الهتاف. وإذ أخذ محمد يبتعد عنهم بركبه، تلفت ابن ميمون بين الناس وقال متباهياً بصوت مرتفع:

- كان ينزل في خاني.. إي والله.. حين كان طالب علم في جامع قرطبة..

وحين رأى ملامح الشك في وجوه من حوله، قال:

- لا تصدّقون؟ أقسم بالله العظيم أنه كان ينزل عندي.. و.. وقد توسمت فيه النجابة منذ ذلك الحين.. كنت أقول: هذا الفتى مقدور للمنصب العظيم.. وقد صحّ حدسي فيه.. كيف لا؟ أنا خبير بالرجال.. الفراسة! هنا!

وأشار إلى رأسه وتابع:

- لكثرة من يغشى خاني.. إي والله.. و.. كنت أتهاون معه في أجرة الكراء.. أُنْظِره حتى يتيسر المال فلا أشتدّ بالطلب.. بل.. بل كنت أنزل له عن الأجر أحياناً.. أقول: طالب علم.. وسيكون له شأن عظيم.. ولا يذهب الأجر عند الله.

لم يَبْدُ أن الناس حوله قد صدّقوه، بل تحول شكّهم بصدقه إلى استهزاء، حتى تقدّم أحدهم وقال:

- أنا أشهد أنه كان يقيم في خانك.. حين كنت أنا أقيم فيه!

هتف ابن ميمون فرحاً:

- هل سمعتم؟ هل سمعتم!

ولكن فرحه لم يطل إذ تابع الرجل قائلاً:

- ولكني لا أذكر أنك كنت تتهاون معه في الأجرة، كما تقول. ولا معي بالطبع. بل شهدتك يوماً تهمّ بطرده وأصحابه، حين تأخروا عليك بالمال!

انفلت الناس بالضحك، وانسحب ابن ميمون لا يلوي على شيء.

* * *

على الرغم من بلاء غالب الناصري الطويل في مقارعة ممالك الشمال النصرانية، فإنه لم يستطع دفع شعوره بالغيظ من ذلك النصر الذي حققه محمد بن أبي عامر، إذ أدرك أن ثمة من يمكن أن يسدّ مَسَدّه ويُخمد ذكره. فازدادت نقمته على المصحفي في المقام الأول بوصفه صاحب التدبير. وفي الوقت نفسه قدّر محمد أنه قد آن الوقت لاسترضاء الناصري ولو كره المصحفي ورهطه.

وكانت غايته التحالف مع الناصري ولو إلى حين. فمن شأن ذلك أن يمهّد لعزل المصحفي ورهطه. ولكنه أيضاً يتيح الفرصة للعمل معاً في قتال ممالك الشمال النصرانية فيتحقق أضعاف النصر الذي حققه وحده بجيش الحضرة وبني برزال، ويفيد عسكره من طرق غالب وجيش الثغور لطول الخبرة. وكان قد عاهد الله وعاهد نفسه وعسكره ألا يتوقف عن الجهاد حتى يبلغ أقاصي جليقية أو يهلك دون ذلك. ولكنه، فوق ذلك كله، كان يخشى أنه إذا بلغ بالناصري اليأس أن ينقلب على الجميع.

ومن يدري ربما انقلب أيضاً على نفسه فعمد إلى محالفة العدو، فإن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، والقلوب تتقلب بين الليل والنهار تقلّب الماء في القدر. ولما استبعدت صبح هذا الاحتمال من الناصري ذكّرها بأن الإنسان قد يعمل بعمل أهل الجنة، حتى لا يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، ثم يسبق عليه القول فيعمل بعمل أهل النار، وعكسه صحيح. فلا يقين إلّا بالموت. وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً. فإذا طلب شيئاً يخالف الحق اجتهد في التأويل، يقول: هم يحتملون الإثم كلّه إذ ألجأوني، وإن كنت أُحالف العدو الآن لغرض موقوت، فلأرجعنّ عليه بعد انقضاء الغرض، بحرب لا هوادة فيها! وكم اقترف الناس من الموبقات بمثل تلك التأوّلات.

ولذلك أقنع صبح باستصدار مرسوم من الخليفة هشام بمنح غالب الناصري لقب «ذي الوزارتين»، وهو يكافئ في الشرف منصب الحاجب.

وبالطبع لم يكن المصحفي سعيداً بذلك وإن لم يسعه أن يعترض. وبعد شهرين فقط من الغزوة السابقة خرج محمد في حملة جديدة ينضمّ فيها جيشه إلى جيش الناصريّ. فلقيه أولاً في مدينة سالم. وكان الناصري سعيداً باللقب الجديد. وحرص محمد على أن يعرف الناصري أنه كان وراء ذلك التكريم. وبالغ محمد في تطييب خاطره وإكباره. وذكّره بأيامهم في عدوة المغرب، وبالوعد الذي قطعه له آنذاك في أن يكون صلته ورَجُلَه عند الخليفة. وها هو قد برّ بوعده. فقرّت عين الناصري، وعظم محمد عنده. ثم خرج الجيشان معاً فأوغلا في أرض العدو واقتحما حصن «مولة» في أرض ليون، وعادا بنصر مبين وغنائم عظيمة. ورأى محمد من بسالة غالب وقدراته في الحرب وخططها ما يليق برجل أفنى حياته في الجهاد. واستفاد منه الكثير. ومن جديد، كان عليهم أن يكتفوا بإرهاب العدو وردعه دون أن يضمّوا إلى الأندلس أرضاً يعلمون أنهم لا يستطيعون حفظها وهي في العمق من أرض العدو الذي يحيط بها من كل جانب.

ولم يفوّت الناصري الفرصة في تحريض أبي عامر على المصحفي وأنه سيكون معه حِلْفاً وعوناً. وما كان محمد في حاجة إلى التحريض، وها هو قد حقق نصرين عظيمين في بضعة شهور، يجعلانه في مركز قويّ للمضي في خطته التالية ضد المصحفي. فليس كالنصر على عدو الأمة عدة لمواجهة خصوم الداخل.

*　　*　　*

كان جعفر المصحفي في زيارة لإحدى ضياعه العظيمة في أحواز إشبيليّة، حين فوجئ أهل قرطبة بموكب فريد لمحمد بن أبي عامر يقطع الطريق الرئيس وفي مقدمته فرقة موسيقية تقرع الطبول وتضرب الصناج وتنفخ المزامير. والذي لفت أنظار الجميع على نحو خاص، أن ابن أبي عامر كان يرتدي القيافة الخاصة بصاحب دار المدينة حين يخرج لتولّيها في استعراض خاص: قطيفة مخملية فخمة موشّاة بخيوط الذهب وقلادة ضخمة تطوّق عنقه وتنزل إلى صدره. ولم يكن قد سبق الإعلان بتعيينه صاحباً لدار المدينة بدلاً من محمد ابن الحاجب المصحفي. فلما تبين لهم ذلك الآن، ضجّوا بالفرح والبهجة. وكانت بهجتهم بالتخلّص من محمد المصحفي ابن الحاجب على قدر بهجتهم بتولّي أبي عامر بدلاً منه، بعد أن عمّت الشكوى من تقصير محمد المصحفي وإهماله مرافق المدينة وأخذه الرشوى حتى تجرّأ اللصوص وأهل الشرور على الناس.

أما محمد المصحفي فكان يجلس مع أصحابه في دار المدينة يلعب النردشير كعادته، غافلاً عن الأمر. وكان أصحاب الحاجات يزدحمون في ديوانه ويتململون، في انتظار الدخول عليه بلا جدوى.

وبينما هم كذلك تناهى إلى المكان أصوات الطبول وجلبة الموكب، فتبادل محمد المصحفي مع أصحابه نظرات التساؤل. وإذ اقتربت

الأصوات من دار المدينة هرعوا إلى شرفة الدار يستطلعون الأمر فهالهم أن يروا محمداً في قيافة صاحب المدينة. وما هي حتى ترجّل واتجه إلى باب الدار وفي صحبته عمرو وعلي وإبراهيم، فارتد الجميع إلى المجلس حائرين متوجّسين. وإذ دخل محمد وأصحابه عليهم، ابتدره محمد المصحفي بالسؤال:

- أبا عامر! ما هذا؟

وأشار إلى قيافته.. أجاب أبو عامر:

- آه.. هذا.. ينبغي أن تعرف.. فقد جرّبتَه قبلي.

تدخّل إبراهيم مخاطباً الحضور:

- ألا تباركون لصاحب المدينة الجديد محمد بن أبي عامر؟

بقي الحضور صامتين بضع لحظات من أثر الصدمة. ثم خفّوا تباعاً لمصافحة ابن أبي عامر والتبريك له متغافلين عن صاحبهم المصحفي الذي بقي متسمّراً في مكانه. وإذ رأى أبو عامر أن أصحاب المصحفي لم يغادروا المكان خاطبهم بجفاء:

- ألكم عمل هنا؟

ارتبك الجميع، ثم خرجوا، بينما سلّط محمد أنظاره على محمد المصحفي الذي ظل متسمّراً في مكانه، وقال:

- ما بك؟ كأنك تنظر إلى الموت؟ هل لك عمل هنا أنت كذلك؟

أخيراً صاح المصحفي:

- فعلتها يا أبا عامر؟ انتهزت غياب أبي عن قرطبة، وفعلتها؟ طعنت ولي نِعْمتك؟ أبي الذي كان أول من قدّمك إلى أم هشام.

قال محمد بنبرة صارمة:

- السيدة أم مولانا هشام المؤيّد بالله.

صاح هشام من جديد:

- قد صدق فيك رأي ابن عمي هشام.. ما زال يحذّر من مكرك ويدعو إلى عزلك قبل أن يستفحل شرّك، وأبي يسكته.. انتظر حتى يرجع أبي فيرى فعلتك القبيحة هذه. قد ارتقيت مرتقىً صعباً يا كاتب الرقاع .

كتم أبو عامر غيظه وقال:

- كاتب الرقاع يكرر السؤال لآخر مرة: أَلَك عملٌ هنا؟ أما نحن فأمامنا عمل كثير.. كثير جداً يا ابن الحاجب!

وضع إبراهيم يده على مقبض سيفه، وخرج محمد المصحفي مخذولاً محسوراً، ليلقاه الناس في الخارج بصيحات الشتيمة والتشفّي. أما محمد في الداخل فقد ضرب طاولة النردشير بقبضته فأطارها، ثم خاطب إبراهيم:

- أدخل المنتظرين تباعاً يا إبراهيم.

وما هي حتى سُمِع صوت المراجعين في صالة الانتظار يهتفون بالتكبير.

* * *

ضرب الحاجب المصحفي كفّا بكف حين استقبله ولده بالخبر، وقال:

- هذا والله سوء المنقَلَب في المال والأهل، الذي يتعوّذ منه المسافر.

وقال ابن أخيه هشام الذي كان حاضراً:

- لا يقل أحدكم أني لم أحذر، ولم أنصح.

لم يكن الحاجب في حاجة إلى سماع المزيد من ولده وابن أخيه. فقد كان يدرك أن خلع ولده لم يكن إلا توطئة لما هو أعظم. ولكنه كان يدرك

أيضاً أنه صار في وضع ضعيف. فكيف يصنع مع رجل يتحكم برأي الخليفة الصبي وأمّه، وصار مع الناصري حلفاً عليه، واكتسب فوق ذلك محبة العامة وتأييدهم بعد أن أثبت أنه رجل الحرب والجهاد كما هو رجل السياسة والتدبير. فلم يجد إلّا أن يراجع الخليفة هشام ويتذلل له، ويذكره بمآثره عند أبيه، وأنه عهد له التدبير لولده من بعده لِما علم من إخلاصه وولائه. ثم ناشده أن يراجع الرأي في عزل ولده إذ أضرَّ ذلك به وبهيبته في أعين الخاصّة والعامة، وهيبة الحاجب من هيبة الخلافة.

بعد أن فرغ من الكلام لبث واقفاً ينتظر جواب الخليفة الذي بقي صامتاً بعض الوقت، ثم رجع بجسمه إلى الوراء وأسند رأسه بيديه، وحدّق في المصحفي بنظرة جامدة ، ثم عاد فتقدم بجسمه ونقر بإصبعه على المنضدة أمامه وقال بلهجة صارمة:

- أُخرج أمراً قبل يومين، ثم أنقضه! ماذا يقول الناس؟ أين هيبة الخلافة؟ الخليفة ألعوبة يتناقلها وزيره وحاجبه. يدخل أحدهما فيكون أمر، ثم يدخل الآخر فينتقض السابق؟ ما هذا؟ ذاك كان أمري.. أمر الخليفة: هشام بن الحكم بن الناصر، المؤيّد بالله، لا لعب صبيان!

قال المصحفي معتذراً وقد سقط في يده:

- معاذ الله يا مولاي! الخليفة أعلم.

ردّد هشام:

- نعم، الخليفة أعلم..

ثم أشار إليه بإذن الخروج، فانحنى له برأسه وخرج منكسراً لا يلوي على شيء. وإذ خرج أطلق هشام ضحكة قصيرة عابثة. ودخلت عليه صبح التي كانت تتسمّع في الدهليز المتّصل بالمجلس، وقالت مبتسمةً:

- أحسنت الجواب.

علّق هشام بلهجة مبطنة بالتهكم:

- يحسبني ألعوبة بيد أمي وأبي عامر! تصوّري! لأنني صبيّ! أنا الخليفة، أليس كذلك؟

قالت:

- وهل في ذلك شك؟

أردف قائلاً:

- وأمي السلطانة! بكل المعاني!

أخذت ترمقه متأمّلة بمغزى كلامه المبطن، لا سيما عبارته الأخيرة التي سمعت مثلها من أبي عامر من قبل. ثم قالت:

- أمك ولدت سيدها ومولاها!

قال:

- وسادت به.

أطلق من جديد ضحكة ساخرة، ونهض من مكانه ومشى في طريق الخروج وإذ مرّ قريباً منها رفعت يدها لتربّت عليه، ولكنه كان أسرع منها فتجاوزها وظلت يدها معلّقة في الهواء!

* * *

همّ الحاجب المصحفي أن يتحامل على كبريائه فيراجع ابن أبي عامر ويذكره بأياديه عليه. وكان يدرك أن ذلك لن يجدي نفعاً في أمر ولده، ولكنه صار يخشى الآن على ما في يده. على أن أبا عامر كان أسبق إلى الدخول عليه ومعه دفاتر دار المدينة، فألقاها أمامه وقال:

- هل تنظر في هذه الدفاتر يا أبا الحسن؟ إنها دفاتر دار المدينة! لم أتوقع أبداً أن تكون بهذا السوء. إن كنت قد فعلت شيئاً فهو أني تداركت الكارثة التي كانت توشك أن تنزل بقرطبة وأهلها، ثم بك.. نعم بك أنت يا أبا الحسن.. فعملُ ولدك محسوب عليك. يقولون: ولد الحاجب.. لم يستبح حقوق المسلمين لنفسه وأصحابه وأهل الشفاعات إلّا استقواءً بأبيه.. أهذا خير يا أبا الحسن، أم تبرئتك من وزر ولدك؟

لم يكلّف المصحفي نفسه النظر في الدفاتر، إذ لم يكن عنده شك في صحة التهمة. وهو على كل حال لم يكن أكثر تورعاً من ابنه عن مال المسلمين. ولكنه كان أعظم دهاءً من أن يترك أدّلة دامغةً عليه. والآن صار أشدّ ما يخشاه أن يرفع أبو عامر البيّنات على ولده إلى الخليفة وأمّه، ثم يعرِضها على القاضي. وعندئذٍ يمكن أن تكون نهاية المصحفيين.

وبعد أن صبّ جام غضبه على ولده تدخل ابن أخيه هشام قائلاً:

- وأي نفع في التلاوم الآن يا عمّاه؟ سبق السيف العذل. والأولى أن نستدرك ما وسعنا ذلك. فوالله لا يقف ذلك الثعلب حتى يرى نكبة المصحفيين. بدأ بولدك ليتوصّل إليك. وتذكّر يا عمّاه قولي لك ذلك اليوم: لتجدنّ مصانعة غالب الناصري، على ما بينكما، أجدى من مصانعة أبي عامر على الناصري.. فهل فات الوقت على ذلك؟

كانت الشمس تميل نحو الغروب، حين كان محمد بن أبي عامر يجلس وحده في مكتبه الخاص في قصره في منية الرصافة، ويراجع بعض سجلّات دار المدينة، ويفكر فيما ينبغي عمله لإصلاح ما أفسد محمد بن جعفر المصحفيّ، حين سمع طرقاً خفيفاً على الباب، وحين تكرر، أسرع إلى إخفاء قارورة الخمر التي كانت أمامه. فعلى الرغم من التزامه العبادات المفروضة، وعلمه الديني، ومناصب القضاء التي تولّاها، وأخيراً جهاده ضد ممالك ليون وقشتالة وجليقية في الشمال، فقد كان يعاقر الخمر سرّاً ويجتهد في إخفاء ذلك، لا حفظاً لنفسه من استنكار الناس فقط، وإنما كذلك لأنه كان يرى أن المجاهرة بالإثم أشدّ في حكم الدين من اقترافه، ويرى معاقرة الخمر ابتلاءً يرجو الله أن يؤجّله حتى يبرأ منه يوماً، وهو ما كان يعد نفسه به، ثم يكثر من الصدقات لعل الحسنات يذهبن السيئات.

دخل عليه الخادم ليخبره أن رجلاً غريب الحال، رث المظهر والثياب، يقف عند باب السور، ويأبى أن يرجع حتى يلقاه. ويزعم أن له صلة قديمة وسابقة خير عند الوزير، فإذا رآه عرفه، وإلّا فليصنع به ما يشاء. وأبى أن يذكر اسمه.

ثم قال الخادم:

- قد أمرتنا يا سيدي ألا نرد عن بابك صاحب الحاجة الملهوف.

لأول وهلة لم يميّز الزائر الغريب بجسمه الشديد النحول، وشعره الأشعث المنكوش ولحيته الطويلة الكثة التي تُركت بلا تشذيب لأمد

طويل، وثيابه الرثة المقطعة المتسخة، ونعليه المقطّعين ووجهه البائس الملطخ بالتراب والأوضار. وبعد لحظات قصيرة من التفحّص وتدقيق النظر، قال محمد بصوت خافت يغالب أثر الصدمة:

- زياد!

أجاب زياد:

- بلحمه ودمه.. أو ما تبقّى منهما..

قال محمد:

- ما صنع..؟

توقف عن إكمال العبارة ليومئ للخدم بالخروج، وتقدّم بضع خطوات نحو زياد يحدّق فيه:

- ما صنع الزمان بك؟

شيء واحد لم يتغيّر في زياد: حضور البديهة وسرعة الجواب:

- أهو الزمان، أم ما نصنعه بأنفسنا؟ لم أعد أدري.

ثم أجال بصره في الصالة الفخمة وأردف:

- ولكن مهما يكن.. فقد صنع بك أفضل مما صنع بي.. اللهمّ لا حسد.

فجأة أقبل على محمد فاعتنقه بحرارة.. ربّت محمد عليه بلا حماس.. ثم انتفض زياد متراجعاً بسرعة كأن أفعى قد لدغته، وقال معتذراً:

- العفو يا سيدي الوزير.. غلب عليّ نداء الدم، فعانقتك وأنا على حالي مما ترى.. وتشمّ!

وأطلق ضحكة عابثة بأسلوبه القديم، وقال:

- ألزمتك حماماً وبعض الطيب.. ثم لا يبقى من أثري عليك شيء.

عاد يجيل نظره في المكان، وقال:

- شتّان ما بين هذا وبين ذلك اليوم البعيد، حين مكثت مترصداً في طريق الوزير ابن حدير، أُشَفّعه فيك إذ أخذك الصقالبة.

لم يكن كلامه الأخير بريئاً من غرض التذكير بجميله القديم. ولم يفت ذلك فهم محمد. وأردف زياد:

- علمت أنك أخذت بثأرك منهم جميعاً آخر الأمر.

قال محمد مصححاً:

- لم يكن ثأري وحدي.

قال زياد:

- نعم.. الأمّة.. العامة.. المستضعفون من الرجال والنساء والوِلْدان.

قال ذلك بأسلوب يوحي بالمفارقة وهو يستعرض فخامة المكان. وتابع دون فاصل:

- وقد وجدتهم بعد الغياب الطويل، لا حديث لهم إلّا عن الوزير ابن أبي عامر.. صاحب المدينة.. نصير الضعفة والفقراء والمقهورين. قلت: هذا ابن عمي: الغاية والإرادة!

ثم استدرك بسرعة:

- قلت ذلك في نفسي.. لم أذكر لأحد منهم أني ابن عمّك.

* *

عمل خادمان خبيران من أولي القوة على دعك جسمه في الحمّام، ثم ألبسوه من ثياب أبي عامر. وحين برز أخيراً في صالة الطعام، حيث

كان ينتظره أبو عامر وولداه عبدالله وعبدالملك، هتف متهكماً وهو يتحسس الثياب:

- من يصدّق؟ ثياب الوزير.. صاحب الدولة نفسه! إن بقيت على جسمي طويلاً ربّما أغرتني بطلب الوزارة! يحسن أن أبيعها إذا خرجت من هنا، وأبدأ بثمنها تجارة جديدة غير التي هلكت.

حافظ محمد على جمود ملامحه، وأشار إلى المائدة العامرة بالأطايب. نظر زياد فيها وقال:

- من أين أبدأ؟ إذا كثرت الخيرة، زادت الحيرة!

وقبل أن يبدأ حدّق في الولدين، وسأل:

- أيهما عبدالله وأيهما عبدالملك؟ لا تُجب.. دعني أخمّن.

وكان تخمينه صائباً.

بدأ في تناول الطعام ببطء ودون تلهّف، على غير ما يتوقع من رجل بلغ ما بلغ من الفاقة والتشرد وسوء الحال. وفي أثناء ذلك كان ينقل بصره بين الصبيّين. ثم ما لبث أن توقف عن تناول الطعام ومسح فمه بالمنديل.

قال محمد:

- ما بك توقفت؟ كنت تتصوّر جوعاً.

أجاب:

- لم أذق الطعام الطيب منذ دهر. فهو الآن ثقيل عليّ.. تكفيني منه اللقمة واللقمتان.. أكل طعامكم الأبرار، وأفطر عندكم الصائمون، وأخلف الله عليكم بخير.

حين قاموا عن المائدة أومأ محمد لولديه بالخروج. ولكن زيادا نادى عبدالله. وإذ وقف أمامه، انحنى عليه زياد وخاطبه قائلاً:

- ما هذا العبوس يا عبدالله؟ أهي هيبة المنزلة أم غمّة في نفسك؟ إن كانت الأولى فإن من لم يرفعه عمله، لم يرفعه نسبه.. اسألني أنا.. واسأل أباك.

استرق نظرة سريعة إلى محمد الذي وقف يرقب مستغرباً. وتابع زياد:

- وإن كانت الثانية، فما الذي أَهَمّ صبياً صغيراً يستقبل الحياة ومعه جاه أبيه ومراتبه؟ تعلّم من عمّك هذا..

وأشار إلى نفسه وهو يستأنف:

- أنا بمثابة عمّك.. أليس كذلك؟ تعلّم مني هذا، ولا تتعلّم مني غيره: لا شيء في الدنيا يستحق الهمّ والغمّ.. لا تفرح بما تُعطى، ولا تَأْسَ على ما تُمَنَع.. رُفعت الأقلام وجفّت الصحف. ولا يلقى المرء إلّا ما كُتب له. وربّ نعمةٍ تبطن نقمة، ونقمة تبطن نعمة. فالحمد لله على ما أعطى، والحمد لله على ما مَنَع.

في صباح اليوم التالي، حين اختلى محمد بزياد في صالة الجلوس، أخذ زياد يقلب بعض التحف ويتفحّصها، بينما كان محمد يراقبه بوجه ساكن الملامح. ثم قال بصوت هادئ:

- زياد!

لم يكن من الصعب على زياد أن يستشعر ما يدور في خاطر ابن عمّه، وقد رأى وجومه وطول صمته وضعف حماسه في استقباله. فآثر أن يسبقه في الكلام دون أن يتوقف عن التشاغل في فحص التحف:

- لا بأس.. لا بأس.. لن أمكث في قرطبة.. أعني قد ألفت الرحلة والتسفار في بلاد الله.. وجوه جديدة.. عادات جديدة.. لهجات وألوان مختلفة، تشعر أن البلاد كلها لك، وليس لك منها شيء في الوقت نفسه.

وهي مليئة بما يخطر في بالك وما لا يخطر.. لا تعلم ما يطلع عليه صباحك وما يفضي إليه مساؤك.. فهي أوسع وأغنى من أن يحصر المرء حياته في مدينة واحدة ولو كانت قرطبة، وأن يُمضي أيامه على نظام راتب.. غده كأمسه.. حياة مملّة وإن كانت آمنة، لا توافق مزاجي.

كان قد وصل إلى خزانة صغيرة. وإذ فتحها وجد فيها إبريقاً.. حمله وأخذ يتشممه، بينما كان محمد يراقب بامتعاض وضيق.. ابتسم زياد وأرسل نظرة ذات مغزى إلى محمد.. قرّب زياد الإبريق من فمه ثم كرع من شرابه بشراهة حتى سالَ الشراب على لحيته وصدره. ثم قال:

- شراب لذيذ.

التفت إلى محمد وسأل بأسلوب مبطّن:

- عنب المريّة!

بقي محمد صامتاً وقد اشتد انقباضه. وتابع زياد:

- هذا ما كنت أقوله. للخاصة أحكام لا تنبغي للعامة!

آثر محمد أن ينهي هذا الموقف الثقيل فاستخرج صرّة كبيرة من النقود وقذفها إلى زياد فتلقفها وهزّها بيده. وقال محمد:

- لا أراك تفسد عليَّ شيئاً من عملي! أعني ما أقول.

قال زياد:

- البحر الذي اعتدت ركوبه يناديني نداء امرأة غَوِيّة لا يُقاوَم لها سحر.. من يدري هذه المرّة؟ ربّما بلغت جزيرة إقريطش.. أو ربّما توغلت في بلاد السودان.. يقال إنها مليئة بالذهب الذي ينتظر من يحمله.

ومشى في طريق الخروج، ولكنه توقف في منتصف الطريق إلى الباب والتفت قائلاً:

- وداعاً يا ابن عمّي.. إذا عدت بعد أعوام فأرجو أن أراك وقد استوفيت غايتك ومصيرك.. الحاجب.. أو صاحب السلطان المتغلّب.. بل الملك المنصور صاحب الدولة على الحقيقة.

تابع المشي، وإذ صار عند الباب توقف والتفت من جديد:

- نصيحة أخيرة من رجل لم يحسن النصيحة لنفسه. لا تركن إلى محبة العامة لك الآن، فإنهم يُعَظّمون ناموس الخلافة الأموية، ويرونها شعار الأندلس، ويغفرون لخلفائهم ما لا يغفرونه لمن يأخذها بالجبر، وإن كان منهم.

تريّث لحظة وأكمل:

- واعتن بولدك البكر عبدالله، فقد رأيت في وجهه حزناً لا يوافق النعمة التي هو فيها. فإن لكل امرئ شَجْوه!

خرج مخلفاً وراءه محمداً في حال من التعجب والتأمل والشرود. وإذ كان يمشي في الساحة الخارجية متجهاً إلى بوابة السور، دخل منها عمرو مسرعاً. كاد زياد أن يتجاوزه دون أن يتنبه إليه بسبب إطراقه. أما عمرو فهتف وقد أخذته الدهشة والحيرة:

- زياد!

التفت زياد، وهاج عمرو من جديد وقد تحقق ظنّه:

- إنك والله هو! وأنا بين مصدّق ومكذب.

خف إليه وعانقه بحرارة وقال متدفقاً:

- أنت هنا في قرطبة، وأنا لا أعلم؟ متى وصلت؟ وأين كنت؟ وما فعل الله بك.. وإلى أين؟ تعال..

وجذبه من يده، ولكن زياد أفلت يده منه وقال:

– سلام اللقاء سلام الوداع.. خير الكلام ما قلّ ودلّ.

– ما الذي تقوله يا رجل؟ أنا ابن عمك.. عمرو.. ماذا جرى لك؟ نسيت؟

– وما أنسانيه إلّا الشيطان أن أذكره.. لا أريد الإطالة معك فتحِنّ قلبي للأيام الخالية، فيبطّئ بي عن حاجتي.. اعتنِ بنفسك يا ابن العم.. استودعك الله الذي لا تخيب عنده الودائع.

ومضى بخطى سريعة حتى خرج من البوابة، بينما كان عمرو يشيعه بأنظاره وهو في حال من الذهول والصدمة.

* * *

لم يرد محمد بن أبي عامر أن يضيع وقتاً في إصلاح ما أفسده محمد ابن جعفر المصحفي. فعقد اجتماعاً في ديوانه بدار المدينة حضره عمرو وعليّ وإبراهيم ونفر من كبار الموالي الذين صاروا في أصل مشورته، ومنهم محمد بن حفص، وابن شُهَيد وأحمد ابن حزم وابن جهور. وكان رأيه أن درء المفاسد مقدَّم على جلب المنافع. فقبل النظر في عمران المدينة وطرقها ينبغي تأمين أهلها من أسباب الخوف بعد أن تكاثر اللصوص وأهل الفساد والشرور، وعادت الحانات إلى سابق عهدها مع الزيادة، حتى ضاق الناس بالسكارى وأهل الفجور، وهؤلاء إذا ذهبت عقولهم اعتدوا على الحرمات وروّعوا الناس. على أنَّ قَطْعَ دابر هؤلاء يقتضي إغلاق باب الشفاعات، فلا فرق بين كبير وصغير، ولا بين خاصة وعامة، بل ينبغي التغليظ على القويّ الكبير، ليرتدع الصغير. فإن لم يفعلوا حبط عملهم وساء ظن الناس بهم.

في الأيام التالية تحوّلت قرطبة إلى ما يشبه ساحة حرب مع الكمائن المتوالية التي نصبتها شرطة دار المدينة لمجموعات اللصوص التي تعمل

في الليل على خلع أبواب الدكاكين ونهبها، ولقطاع الطرق الذين يعترضون قوافل التجارة خارج المدينة. وشنوا غارات مفاجئة على الحانات التي يؤمّها الزعار والدعّار، وكان بعضها لا يكتفي بتقديم الخمور، ولكنه يضم أيضاً غرفاً خلفية لمقارفة الزنا والفجور. وقد تنوّعت بين الحانات الرخيصة لأسافل العامة، والحانات المُهيّئة لأبناء الأكابر. كما داهموا مخازن الاحتكار التي يحبس فيها بعض التجار البضائع ليتحكموا في أثمانها، وتقبضوا على أصحابها وعلى كل من ثبت عليه الغش من التجار.

وما إن انقضى أسبوع على تلك الحملات، حتى غصّت سجون دار المدينة بالعصاة. وفي المقابل غص ديوان دار المدينة بأهل الشفاعات من علية القوم، على ما ألفوا في عهد محمد بن جعفر الصحفي. ولكن محمد لم يكتفِ بردّهم خائبين، حتى أغلظ عليهم بالتأنيب والتقريع، وقال وهو يطرق على المنضدة أمامه:

- ها أنتم تتشفعون عندي في بعض أصحابكم وأهاليكم، فمن يتشفّع فيمن ليس له أمثالكم؟ أم نطلق قوماً ونعاقب قوماً فنكون من الظالمين، معاذ الله! تراودونني على الباطل؟ لا والذي بعث محمداً بالحق لا أفعل ولو سقتم ملوك الأرض بين أيديكم. فاستيئسوا. ولئن لم تنتهوا لأجعلنكم شركاء لأصحابكم في الجرم.

في هذه اللحظة دخل أحد قادة الشرطة، واقترب من أبي عامر حتى انحنى عليه وهمس في أذنه، فتغير وجهه وانقبض انقباضاً شديداً. وكان عمرو وعلي يرقبان، وكذلك المتشفّعون.

قال أبو عامر لقائد الشرطة:

- ائتِ به!

خرج قائد الشرطة، وما لبث أن عاد ومعه رجل موثق اليدين في هيئة مزرية، وهو يترنح من السُّكْر. وما إن رآه عمرو حتى صاح:

- زياد!

كفّه محمد بحركة من يده، بينما صاح زياد بالشرطة بلسان ثقيل:

- قلت لكم.. ولكنكم لا تصدّقون.. هيا.. فكوا الآن وثاقي وقد علمتم من أنا.

حدّق فيه محمد بنظرة قاسية، ثم توجه إلى قائد الشرطة:

- قل على مسمع هؤلاء.. كيف تقبّضتم على هذا.

تردد قائد الشرطة قبل أن يعيد محمد عليه الأمر بنبرة قاطعة:

- سمعت أمري.

أجاب القائد:

- وُجد سكران كما ترى. يتعرّض للنساء ويتشاجر مع المارّة.

قال زياد محتجاً:

- سكران! أنا سكران؟ لم أشرب إلا عصير العنب.. عنب المريّة. وما البأس في ذلك؟

ثم توجه بالخطاب إلى أبي عامر:

- قل لهم يا سيدي الوزير.. هل من بأس في شراب عنب المريّة!

وتجشّأ تجشّؤ السكران، وازداد أبو عامر غيظاً من إلماحاته تلك إلى الشراب الذي وجده في قصر أبي عامر. ثم وقف وخاطب الحاضرين:

- أتعلمون من هذا الشقيّ؟ إنه ابن عمّي زياد بن أبي عامر.. أو عسقلاجة كما كنا نلقبه أيام الطفولة في الجزيرة الخضراء. فإن بقي عندكم أمل في التشفع لأصحابكم، فانظروا فعلي به الآن.

احتشد الناس في الساحة أمام دار المدينة، بينما عمل بعض الشرطة على إيثاق زياد إلى عمود رخامي في وسط الساحة. كان أبو عامر يحمل

سوطاً. ولكن قبل أن يشرع في جلده بنفسه، اقترب منه ومالَ برأسه إليه حتى كاد يلامسه، وهمس له:

- أيها الشقيّ. أما قلت لك: لا تفسد عليّ عملي؟ فكيف أرد الشفاعات، ثم أُشفّع نفسي فيك، فيحبط عملي كلّه؟

لم يبد على زياد الآن أي أثر للخوف أو الاحتجاج، وعلى الرغم من فظاعة الموقف، كان جوابه حاضراً بأسلوبه العابث المعهود، فردّ هامساً:

- لو أني لم أفعل ما فعلت، لما أتحت لك أن تبرّ بوعدك القديم. هل تذكر؟

أراد ذلك الموقف حين خيّر محمد أصحابه فيما يختارون من المناصب إذا صار إليه الأمر. ومن دونهم لم يحمله زياد على محمل الجد، فطلب ساخراً أن يجلد مائة جلدة، ثم يوضع على حمار بالمقلوب ويطاف به في الأسواق. أردف زياد:

- هذا أوان الوفاء بالوعد، على ما اخترته لنفسي.

تراجع محمد وهز سوطه، ثم أخذ يجلد ابن عمّه دون هوادة. وارتفع لغط الناس، وسُمع من يهتف: «انغلق باب الشفاعات إلى الأبد». وبعد حين لم يعد عمرو يحتمل المشاهدة، فانسحب من المكان، ولحق به عليّ.

توقف محمد أخيراً وقذف السوط جانباً. وأومأ إلى أحد الحرس أن يفكوا وثاق زياد. نزل زياد على ركبتيه. وإذ هَمّ أبو عامر بالابتعاد، ناداه زياد بصوت ضعيف، ولكنه مسموع. فارتد محمد إليه حتى وقف عنده. رفع زياد رأسه بصعوبة وشَخَص بنظره إليه. كان وجهه شديد الشحوب وأنفاسه ثقيلة متقطعة، وبدت عيناه وكأنما انطفأ بريقهما. هنا فقط تحرّكت عواطف أبي عامر نحو ابن عمه، فوجد نفسه ينزل إليه مقرفصاً أمامه. قال زياد بصوت متقطع:

- قد أنفذتَ نصف الوعد.. مائة جلدة، وبقي نصفه.. هل تذكر؟ على الحمار بالمقلوب! هذا ما سأفوّته عليك.. أم أقول: أعفيك منه؟

هنا سعل زياد بشدة وغطّى فمه بكمّه، ثم رفع ذراعه ليرى محمد لطخات الدم من أثر السعال. تغيّر وجه محمد، بينما قال زياد:

- ذات الرئة!

أغمض محمد عينيه وانقبضت عضلات وجهه انقباضاً شديداً. وحين فتح عينيه تحوّل ببصره إلى السماء وقد ترقرقت الدموع في عينيه. وقال:

- لماذا لم تقل لي؟ لماذا فعلت هذا بي؟

قال زياد:

- ما الحياة بدون جديد يدهشك؟ وما الموت؟

فجأة ارتعشت أجفانه ثم شخصت عيناه، وسقط برأسه على الأرض. صاح محمد:

- زياد!

قلّبه وتحسّسه. وإذ تأكد أنه قد مات، فاضت عيناه من الدمع. وقال متفجعاً وهو يهزه:

- لماذا فعلتَ هذا بي؟

شاهت الدنيا في عينيه وكأن ضباباً أسود قد غلّفها، وأطبق على سمعه طنين بعيد، ورآه الناس يحتضن ابن عمّه وهو يهتز به ويشخص ببصره إلى السماء. وسكتت أصوات الحشد الذي تحوّل بعواطفه من حال الاحتفاء بالعدل الذي لا يميز بين قريب وبعيد، إلى حال الحزن والتعاطف.

* * *

لبث ثلاثة أيام بعد ذلك مختلياً بنفسه. وأخفقت حتى عائشة في مواساته والتهوين عليه. ولم يستطع أن يحرّر عقله من صور الذكرى مع زياد في حصن طرّش والجزيرة الخضراء ثم قرطبة. وأخيراً قرّر عمرو أن يقتحم عليه خلوته بغير استئذان، فوجده مستلقياً على الأريكة ينظر في السقف. وبعد لحظات من الصمت قال محمد كأنه يخاطب ذاته دون أن يتحوّل ببصره إلى ابن عمه:

- لم أكن أعرف.. لم يخبرني بدائه.

قال عمرو:

- أعلم.

تابع محمد:

- وما كان بوسعي أن أشفع فيه، وقد أغلقت باب الشفاعات على كل الناس.

هز عمرو رأسه. وفجأة اعتدل محمد جالساً وصاح:

- هو جلبه على نفسه.. لقد حاولت جهدي.. علم الله، حاولت جهدي أن أصلح شأنه.. بذلت له مالي أولاً وثانياً وأخيراً.. وعظته وأنذرته.. فلا سمع النصيحة ولا الإنذار.. فما الذي كان بوسعي أن أعمل.. قل لي يا عمرو؟ أين أخطأت بحق الله.. أين أخطأت؟

قال عمرو:

- هوِّن على نفسك! قد انقضى الأمر.. لا السؤال يجدي، ولا الجواب يُسعف.

قال محمد:

- حقاً! حقاً انقضى الأمر؟ فلماذا لا يفارقني طيفه؟ وهل يبقى معي إلى الأبد؟ أم حسدني ما أنعم الله به عليّ، فكانت تلك طريقته في تعذيبي؟

قال عمرو:

- بل كانت تلك طريقته في الموت.. متفرّدةً غريبة، كما كانت طريقته في الحياة. رحمه الله.

وضع محمد رأسه بين يديه. ولم يجد عمرو إلّا أن يربّت عليه.

واقعة موت زياد على يد ابن عمّه، أبي عامر، لم تترك في نفوس المصحفيين من التشفّي بقدر ما زادتهم قلقاً وخوفاً على مصائرهم. فإن كان هذا فعله بابن عمّه ورفيق طفولته وصباه، فكيف يفعل بخصومه وقد ازداد الآن تمكناً وظهر عليهم بقربه من الخليفة الصبي وأمّه، ولم تعد خطته في النيل منهم خافية على أحد. وكانت نصيحة هشام المصحفي لعمه الحاجب باستمالة غالب الناصري موضع تفكير وتدبر، وقد ضاقت السبل وانعدمت المخارج الأخرى. ولكن كيف السبيل إلى ذلك، بعد أن نجح أبو عامر في التحالف مع الناصري وجاءه بلقب «ذي الوزارتين»؟

في مقرّه بمدينة سالم، فوجئ الناصري بوصول رسول من جعفر المصحفي يحمل له كتاباً منه. وحين فرغ من قراءته هزّه بيده مع ابتسامة عريضة وقال:

- أخيراً أدرك المصحفي أن صداقتي أجدى من عداوتي.

حين دخل بعد ذلك على ابنته أسماء، وكانت بارعة الجمال ومقصد الخطّاب الذين لم يفز بها أحد منهم حتى الآن، تعجبت من صمته، وقد بدت عليه علامات الحيرة والتفكّر. ولما تأخر في الكلام ابتدرته بالسؤال عما يحوك في صدره. فقال:

- ما ظنّك يا أسماء بشيخ كبير من شيوخ الموالي يخطبك لولده؟

تنبهت ملامحها وسألت:

- أي شيخ، وأيّ ولد؟

أجاب:

- الحاجب المصحفي لولده عثمان.

قالت:

- المصحفيّ؟ ألم يكن ألدّ خصومك؟

أجاب:

- بلى. ولكن هكذا السياسة، لا خصم فيها إلى الأبد، ولا صديق. وقد عرف الرجل حقنا أخيراً، فكتب يذكّر بالصلة وعصبة الموالي، وأنه أولى الناس بي، وأنا به، ويعتذر عن كل ما ساءني منه، ويحلف أيماناً مغلّظة لا يخالف عني بعد الآن ولا يردّ لي طلباً، وأن يجعل أمري وأمره واحداً. فما قولك؟

قالت:

- عثمان هذا.. ولده.. كيف هو؟

أجاب دون أن يبدي حماساً شديداً:

- شاب حسن الخلقة.. وهو ابن الحاجب!

رمقته، وسألت من جديد:

- وما قولك أنت.

تردّد لحظة ثم قال:

- لا أدري.. أعني هو كفء لك. ولكن لا يفوت فطنتك أن هذا الزواج لو وقع، سوف يغيّر الكثير من الأمور. ولكن دعينا نُرَوِّ في الأمر.

* * *

بدا محمد بن أبي عامر شديد الارتباك والقلق وقد نمي إليه الخبر، وأدرك أن هذا الأمر إذا نفذ فقد يذهب بتدابيره أدراج الرياح. ولم يجد غير عائشة الوفية الحكيمة يفضي لها بمخاوفه. سألت:

- وهل أعطاه؟

أجاب:

- ردّ عليه يلاطفه ويقبل ودّه، ووعده خيراً.. ولكنه لم يقطع له بعد!وإذا اجتمع الناصري والمصحفي، فقد التأم حولهما شمل الموالي من جديد، وهم عصبة الدولة منذ دهر، ومعهم شوكة غالب وجيشه.

سألت:

- ألا سبيل إلى منع ذلك؟

- ما زلت أقلّب الأمر، ولا أجد منه مخرجاً. هذا ما لم يكن في الحسبان.

مرّت لحظات صمت وتفكّر، ثم رفعت عائشة رأسها من إطراقتها، وقالت:

- إلّا أن يتوسّط الخليفة وأمّه فيخطبا أسماء لرجل آخر يكون ندّاً.

تنبهت ملامح محمد وسأل:

- لرجل آخر؟ من؟

أجابت:

- أنت!

لم يصدّق سمعه، فقال:

- ماذا قلتِ؟

- نعم.. أنت.

قال:

- كيف تقولين هذا؟ أضّرة أخرى غير الذلفاء؟ ألا تغارين عليّ يا امرأة؟

قالت:

- يا للرجال! ألم تعلم أن الغيرة من الضرّة الأولى لا يهوِّن منها إلّا أن تلحق بها ضرّة أخرى؟ بل أغار عليك غيرة الزوج، وهذا ما تستوي فيه النساء. ولكني أشدّ غيرةً على حاجتك وغايتك. وهذه غيرة الحب والوفاء. فكان أن حضضتك على الزواج من الذلفاء لحاجة الولد الذي لم أستطع أن أعطيك إياه. والآن، لا يسعني أن أرى كل ما شيدته ينهار، حين أوشكت أن تبلغ اللبنة الأخيرة فيه.. إلّا أن يكون عندك مخرج آخر.

قال:

- قلت لك: لا أجد مخرجاً.

- إذن لا بد مما ليس منه بدّ.

ثم قالت بلهجة مبطّنة وهي ترمقه مع ابتسامة غامضة:

- بقي أن نرى رأي صبح البشكنسية!

تحاشى كالعادة نظراتها الفاحصة حين تأتي على ذكر صبح.

* * *

كان أشد حرجاً من أن يبتدر صبح بمقترح عائشة. فآثر أن يسمع رأيها أوّلاً بعد أن يقدّم للأمر الجلل بشرح عواقبه المريعة على نفسه وعليها وعلى ولدها ومصير الخلافة. فإذا اجتمع المصحفي والناصري على أمر واحد ومن حولهما عصبة الموالي، ومعهم جيش الناصري، فلن يكتفي

المصحفي بعزله عن كل أعماله، كما عزل ولده عن دار المدينة، حتى ينكبه ويشفي غليله وغليل ولده وابن أخيه هشام. ولن يجدي اعتراض الخليفة وأمّه أمام عصبة الموالي وشوكة جيش الناصريّ. والأشد خطراً أن يتحوّل المصحفي ومن معه إلى مواطأة أحد إخوة الحكم الموتورين فيخلعوا هشاماً المؤيد ويضعوه مكانه. بل إن هشاماً المصحفي قد بدأ منذ حين يوطّئ لذلك. فلم يكتفِ بالتشنيع على صبح وأبي عامر بين الخاصة والعامة حتى أخذ يواصل الصقالبة الذين طُرِدوا من القصر ويمنيهم بالعودة إلى ما كانوا فيه، ويراجع رجالاً من بني أميّة ويحرضهم على صبح ومحمد، ويدعوهم إلى الأمر دون الخليفة الصبيّ هشام. ثم قال:

- هشام المصحفي.. هو أجرؤهم وأفحشهم لساناً. وقد كنت أدخّر له خبيئة في قابل الأيام، لولا هذا الحدث الطارئ الذي لم يكن في الحسبان. والآن، ها هي كفة الميزان تتأرجح بيننا وبينهم، فمن فاز بالناصري.. أو..

تريّث لحظة ثم تابع:

- ابنته على الأصح. فقد رجحت كفته.

كانت تنصت مطرقة طوال الوقت، وبقيت على ذلك وقتاً بعد أن فرغ من الشرح، ثم رفعت رأسها ونظرت إليه، وقالت:

- لا أرى من هذا إلّا مخرجاً واحداً.

حدّق فيها مستطلعاً، وقالت:

- نخطبها لك، بأمر ولدي الخليفة.

لم يخفف من دهشته أن هذا ما كان يريد سماعه، وأنه لم يكن بعيداً عن توقعاته بعد أن مهّد له بذلك الشرح الذي لا يفضي إلى غيره.

قال:

- أنت أيضاً تقولين هذا؟

- أيضاً! تعني زوجك عائشة؟ ولا أحسب أنك تعني الذلفاء.

قال:

- أما عائشة فقلت في نفسي: إنها تشعر أن فؤادي ليس لها، وإن كنت أحسن صحبتها وأرعى ذمتها، فالمرأة، مهما يجتهد زوجها في مداراة عواطفه، تحسّ دخيلته. فلا عجب أن تقترح عائشة هذا الرأي. ولكن أنتِ أيضاً؟ ألا ينبغي أن يسوءني ذلك منك؟

قالت:

- ليس حالي منك بأحسن من حال عائشة، فلها منك ما ليس لي، ولي منك ما ليس لها. وإن كنت رُضتُ نفسي على أن أقنع منك بما تنطوي عليه الجوانح، فما الفرق أن تتقاسم سائرك امرأتان أو ثلاث؟ لن ينقص ذلك من قسمتي منك، ولكنه ينقص من قسمة الأُخريات. وبعد فلي منك النظر والحديث وغاية أخرى تجمعنا: تدبير السلطان وحفظه لولدي هشام، ومعه أنا وأنت. أما أن يتمكن المصحفي منك لا قدّر الله، فهو الخسران الأعظم، وآخر رغبتي في الحياة. وإذن، فإن زواجك من ابنة غالب هو أهون الأسباب إذا ما قيس بالعواقب. فأنت تفعله من أجلك وأجلي، وفوق ذلك من أجل ولدي الخليفة. بل تَقْدُم علينا ابنة الناصري هنا في الزهراء أولاً، فنجهّزها ونهديها ونخرجها إليك. ونبلغ بذلك غاية أخرى غير غاية السياسة: نقطع ألسنة المرجفين الذين يشنّعون عليَّ وعليك، حين يعلمون أني وولدي من خطبها لك، ثم جهزناها بجهازها من عندنا.. هنا.

تظاهر محمد بالتردد والحيرة وقال:

- لا أدري.. لا أدري.

قالت بلهجة قاطعة:

- هو ذاك.. وقد قضت به السلطانة.

هنا سُمع صوت هشام وقد دخل عليهما على نحو مفاجئ:

- ما الذي قضت به السلطانة؟

ارتبكا، وانحنى له محمد، وقالت صبح:

- ولدي الخليفة!

قال:

- هذا معروف.. نعم!

قالت مرتبكةً:

- كنا نتحدث في..

قاطعها قائلاً:

- موافق! أعدّوا الكتاب.

ومشى خارجاً بالسرعة التي دخل بها مخلّفاً إياهما في حال من الحيرة والتعجب.

* * *

خرج أهل قرطبة ليشهدوا وصول موكب الناصريّ مع ابنته أسماء لتزف إلى محمد بن أبي عامر في الزهراء. وكان موكباً عظيماً يليق بمكانة العروسين ودار الخلافة التي تعهّدت زواجهما. وحين دخل الموكب ساحات الزهراء، يتقدمه العازفون وقارعو الطبول، كان محمد في استقباله، يحيط به جمع منظم من الخدم والحشم والعبيد والفتيان وحرس القصر.

تعانق محمد والناصريّ، ثم أُنزلت أسماء عن مطيتها المزينة، وكانت تغطي وجهها بحجاب ينسدل من رأسها. وقف محمد أمامها وانحنى لها برأسه انحناءة خفيفة. وكان بوسعها أن تراه من خلف حجابها الشفاف، وكانت قد سمعت بأخبار وسامته التي فتن بها النساء، وعقله الذي غلب به الرجال. ولكنها لم تتوقع أن يكون على هذا القدر من الوسامة. التفت إلى أبيها، فقال:

- لا بأس.. إن لم تكشفي وجهك لزوجك، فلمن؟

كشفت عن وجهها، فبَهَر محمداً من جمالها الأخّاذ ما بهرها منه.

في تلك اللحظة كانت صبح تقف في منظرة مطلّة.

داهمها انقباض شديد وهي تنظر. وإذ غامت الدنيا في عينيها آثرت أن ترتد داخلةً فكادت أن تصطدم بولدها هشام الذي لم تشعر بوجوده عند مدخل المنظرة. دارت تعابير الأسى على وجهها، وتجاوزته. لاحقها بأنظاره قبل أن يتقدّم في المنظرة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة غريبة أقرب إلى ابتسامة التشفّي!

وقفت أسماء لصبح حين دخلت عليها في الجناح الذي أنزلت فيه، وكان معها عدد من وصيفات القصر لخدمتها. وبعد السلام، كادت صبح أن تغفل عن نفسها وهي تتأمّل جمالها الصارخ. وقالت:

- أرى أن العيان كالخبر. لم يكذب الوصّافون.

قالت أسماء:

- شكراً يا سيدتي.. وجزى الله أمير المؤمنين عني خيراً إذ أمر أن يكون خروجي من قصره العامر. أعزّه الله وأيّده.

وهنا أيضاً سُمع صوت هشام المؤيّد على عادته في الظهور المفاجئ:

- اللهمّ آمين.

وإذ تنبه الجميع انحنت الوصيفات له من فورهنّ. كان يقف عند الباب وقد ضمّ ذراعيه وراء ظهره كالعادة أيضاً. انحنت له أسماء برأسها، وتقدّم حتى صار أمامها، وأخذ يحدّق بها دون أن يرف له جفن، حتى إن أسماء أطرقت برأسها إلى الأرض تحرجاً. ثم قال:

- أبو عامر.. من أين يأتيه كل ذلك الحظ؟

وإذ قال ذلك التفت نحو أمه بنظرة خاصة زادت قلبها ضراماً، وملامح وجهها اضطراباً. ثم عاد ينظر إلى أسماء وقال:

- فقط، لو كنت أكبر سناً بخمسة أعوام.. أو حتى ثلاثة، إذن لجعلت حظّه حظي.

استدار ومشى خارجاً بسرعة وهو يطلق ضحكة قصيرة عابثة!

* * *

حين اختلت صبح بنفسها في جناحها الخاصّ، جلست أمام المرآة تتأمل في وجهها وتتحسسه. وعلى الرغم من كل المسوّغات التي ساقتها في كلامها مع محمد، للتهوين من آثار زواجه المدبّر بأسماء في نفسها، فقد وجدت الآن أن منطق العشق غير منطق العقل، فما هي حتى انكبت برأسها على منضدة المرآة، وأسلمت نفسها لنحيب طويل.

* * *

أما المصحفي فبات في أسوأ حال منذ ولدته أمّه، وقد علم أن أمره إلى إدبار، كما أدبر أصحابه عنه وانحازوا إلى الجواد الفائز. ومنهم كبار شيوخ الموالي ومن كان يقف قبل ذلك منتظراً في دهليزه. لقد غدا أبو عامر الآن صاحب السلطان دونه، ولم يعد له من الحجابة إلّا الاسم. وغاية ما يرجوه ألا يكون غده أشدّ من يومه.

صاح ابن أخيه هشام مندفعاً كعادته:

- نسلّم له؟

أجاب عمّه بلا تردد:

- ونصانعه ونداريه ونلاطفه، حتى يفتح الله بيننا وبينه، فإن من حكمة الرجل يا ابن أخي أن يعرف متى يُقْدم ومتى يُحجم. وأيامنا في إدبار، وأيامه في إقبال. ولا يسعنا إلّا أن نُقْبِل عليه مع المقبلين، لعلنا بذلك نُبَطّئ إدبارنا.

كان قد بلغت النقمة بهشام أن يسقط الأدب مع عمّه، فصاح من جديد:

- حكمة العاجز.

صاح جعفر المصحفي به مؤنِّباً:

- هشام!

لم تردعه لهجة عمّه، وتابع مؤكّداً:

- أي والله، حكمة العاجز. أما أنا فأفضِّل الموت على أن أذعن لكاتب الرقاع، وقد كان في الأمس لا يرجو مصافحتي له، وإذا رأيته في الجامع سلقته بنظرة تحقير ولسان حاد، فلا يجرؤ على النظر في عيني!

- وما في وسعك الآن مما لا يسعني؟

- ما سوف تراه، لا ما تسمعه.

واندفع خارجاً بسرعة.

* * *

... ما كانت أسماء بنت غالب الناصري لتقنع من محمد بن أبي عامر بمثل ما تقنع به عائشة التي منحته قلبها وعقلها بلا شروط، وكفاها منه أنها مستودع سرّه، وأنسه في ساعة وحشته، والشجرة التي يأوي إلى ظلّها حين يشتد به الهجير. وما كانت أسماء لتقنع أيضاً بما تقنع به الذلفاء التي كانت تدرك أنها وإن لم تملك منه الكثير الآن، فإنها تملك ما لا يملكه غيرها، وهو إرثه الباقي في ولده عبدالملك الذي اختصّه بالحب والعناية دون أخيه الأكبر عبدالله من جاريته درر التي هجرها منذ أمد بعيد.

كانت أسماء تُدِلّ بأبيها الناصري، وبجمالها الأخّاذ، وبميعة الصبا، إلى قوة النفس وسموّ الهمّة ونباهة العقل. أما هو فقد وجد في فتنتها الطاغية ما أطلق بركان الجسد المحبوس قسراً منذ زمن. ووجدت رغباته المكبوتة طريقاً بديلاً غير الطريق المسدود بدواعي العفّة والضرورة القاهرة معاً، وما كان ليسلكه إلّا في الخيال والأحلام حيث لا حدود ولا أسوار ولا قيود!! وها هي أسماء الآن تتقمّص ذلك الخيال، أو أنه يسقطه عليها! فترتج الأرض وتخرج أثقالها، وتنشق السماء وتنطبق على الأرض، وتنتثر الكواكب وتتفجر البحار! .. تلك هي قيامة الجسد التي لا يصحبها فزع ولا وجع، ويجد المرء في نارها نعيمه المنشود، ولا يرجو انقضاءها حتى مطلع.. الصبح!

ولولا همّته العالية للبث عندها أياماً أخرى لا يخرج لشيء.

قالت وهي تراه يضع القطيفة على جسمه للخروج:

- هل يجب أن تخرج إلى عملك اليوم؟

أجاب:

- تكاليف العمل يا أسماء.

قالت بدلال:

وحقّ الزوج؟

- مقضيٌّ إن شاء الله.

- ومن يقرّر انقضاءه؟ أنا أعلم إن كانت حقوقي منك مقضية أم غير مقضية!

ضحكت ضحكة غويّة، وتابعت:

- على أنها لا تنقضي أبداً.. وكيف تنقضي من رجل مثلك، إلّا بقدر ما تنقضي رغبة الحيّ في الحياة! .. ألا تقول شيئاً؟ الأصل أن يتغزل الرجل.

اقترب منها وتأمّلها بإعجاب وقال:

- لم يخطر لي يوماً أنني سأشكر المصحفيّ على شيء، وأنا لا أريد الآن أكثر من بواره. فلولا أنه خطبك لابنه أملاً في أن يستعين بأبيك عليّ، لما توصّلت إليك، ولما كنتِ الآن عندي.. فقد أهداني المصحفي أعظم هدية، من حيث أراد أن يهلكني. أرأيتِ إذن كيف تلتقي الأضداد، وكيف تثمر الحرب حباً، ويثمر الحب حرباً؟ فكأن الكلمتين لم تتقاربا لفظاً إلّا لتتقاربا معنًى.. في بعض الأحيان على الأقلّ. وها أنذا الآن، خصومتي مع المصحفي وهبتني أسماء.. أجمل النساء. وأسماء وهبتني القدرة على الإجهاز على المصحفيّ.. وإني لفاعل. أفوز في الحب، وأفوز بالحرب.. ومرجع الفضل إليك يا أسماء حين اخترتني على ولده. وقد كان بيديك أن تختاري ما فيه هلاكي!

قالت:

- لكنتُ إذن أحمق النساء. فالحمد لله الذي هداني إلى سعدي.

- وسعدي!

- على أني كنت قد سمعت طرفاً من أخبارك! غير السياسة وأعمال الدولة.. أعني، ما بال نسوة القصر اللواتي فتنتهن عن أنفسهن؟

- اللهم لا ريبة ولا خيانة.

- وهذا أيضاً أعلمه.. ما عليّ لو أحّبتك نساء الأرض جميعاً، ثم أكون أنا من تفوز بك!

قال:

- وقد كان!

... خلا ديوان الحاجب المصحفي من الناس، سواء أكانوا أصحاباً أم مراجعين. ولأول مرة في حياته يتمنّى أن يأتيه أحد متظلّماً أو في حاجة يقضيها له. فقد انصرف الجميع عنه إلى ديوان أبي عامر حيث تُبرَم الأمور وتوضع الخطط وتخرج الكتب. وحين دعا بعض أصحابه القدماء من شيوخ الموالي إلى وليمة في منزله أو مجلس سمر، اعتذر بعضهم متعلّلا، وتجاهل آخرون الدعوة. ثم انقطعت رسائل الولاة والعُمّال وأصحاب الخطط إليه، حتى من بادر هو إلى إرسال الكتب إليهم في أمر من أمور الدولة.

عندئذٍ أدرك أنه لم يبقَ له من المنصب إلّا الاسم، وقريباً يذهب هذا أيضاً. فقرر أن ينقطع في داره حتى يتجنب وحشة الديوان الخالي، ونظرات الهزء والنكاية أو حتى الإشفاق ممّن يرونه يغدو ويروح خالي الوفاض إلّا من حسراته البادية في وجهه ومشيته.

أما ابن أخيه هشام فأبى أن يُسلّم دون قتال أخير، وإن علم أن الخسارة فيه مُهلكة. فاجتمع بإخوة الخليفة السابق الحكم وشيوخ بني أمية يحرضهم على أبي عامر الذي تسلّط على الحكم دون الخليفة الصبي، ويوشك أن يستحوذ على دولة بني أمية التي رفع أركانها صقر قريش وبذل فيها وخَلَفه الغالي والنفيس حتى صارت زينة الدنيا، بعد زوال خلافة بني أمية في المشرق. فهل يكون زوالها الآن في المغرب على يد رجل مجهول قَدِم قرطبة لا يملك شروى نقير، ثم قعد على رصيف الزهراء يكتب الرقاع لذوي الحاجات وعابر السبيل. ثم ذكرهم أن بيعتهم كانت

لهشام بن الحكم، لا لأبي عامر. وما جدوى أن يتسمّى هشام بالخلافة اسماً، ويستبد أبو عامر بالملك؟ ولم يتورع في الطعن في صبح التي قدّمت صاحبها على ولدها لريبة بينهما لم تعد خافيةً على أحد. ثم حاول أن يقنعهم أن العامة لا يرضون ببني أمية بديلاً، فهم شعار الخلافة وناموسها. فإذا دعوا الناس إليهم لم يتخلّف أحد. وما زال الفتيان الصقالبة يتربّصون الدوائر بأبي عامر بعد أن عزلهم. فلو دعاهم بنو أمية إلى القتال لاجتمعوا عليهم وقاتلوا دونهم وطلبوا ثأرهم. وثمّة من الفقهاء والوعاظ من وترت نفوسهم على أبي عامر لِمَا بلغهم من اشتغاله بالفلسفة وعلم الكلام. وهؤلاء أيضاً يستطيعون تهييج العامة. وهو ضمين بالتوصّل إليهم بالكلام والمال.

لم يبد الحضور حماساً لكلامه، ونظر بعضهم في بعض، وران الصمت. وحين طال ترقب هشام المصحفي لردهم، هَمّ بالكلام من جديد، وهنا صاح به أحدهم:

- ماذا جرى للمغيرة؟ ألم يُقتل بأمر عمك؟ قم عنّا خيبكم الله قبل أن نذكر ثأرنا فيكم؟ اشربوا الآن من الكأس الذي جرّعتموه للمغيرة. واذكر أن الحكم لم يستخلف ولده دون إخوته حتى استشار عمك فأشار عليه بما يحب. فلا تستعملونا لأغراضكم، مرةً علينا، ومرة لنا.

خرج هشام كسيفاً مخذولاً. ولكنه لم يتوقف حتى اجتمع بنفر من غلاة المشايخ والوعاظ، وكان فيهم القاضي عبدالملك بن المنذر، وابن السريع وابن مكوي، الذين عرفوا ابن أبي عامر من قبل في دروس جامع قرطبة فاتهموه بالميل إلى الفلسفة، وتقديم العقل على النقل، وذلك عندهم قرين الزندقة. وقد لقي كلام هشام المصحفي معهم هوىً في نفس القاضي ابن المنذر وابن السريع. ولكن ابن مكويّ، على بغضه لابن أبي عامر وسوء ظنه به، اعترض بأنه لم يظهر كفراً بواحاً. وذكر من حسناته أن قرطبة لم تأمن من أهل الشرور والمعاصي حتى تولّى أمرها،

فقمع شرّتهم، وهرق الخمور، وداهم الحانات ودور الفجور، وأغلق باب الشفاعات وبدأ بابن عمه فجلده حتى مات، على مشهد من الناس.

ردّ عليه هشام المصحفي قائلاً:

- والله ما فعلها إلّا ليستميل العامة إلى أغراضه.

أجاب ابن مكوي:

- ربّما. ولكننا لم نؤمر بأن نشق على الصدور، ولنا الظاهر وعواقب الأمور.

قال هشام المصحفي:

- فماذا لو قلت لك إنه إذا خلا إلى نفسه شرب الخمر؟

قال ابن مكوي:

- وهل كنت معه في خلواته لتشهد؟

قال هشام المصحفي دون أن يتدبّر كلامه:

- ويفعلها أحياناً في مجالس سمره.. بذلك أخبرني ابن عمّي محمد المصحفي. وكان قد حضر أحدها حين دعاه أبو عامر تقرباً ونفاقاً، قبل أن يتمكن.

أسرع ابن مكوي إلى القول:

- وابن عمّك، هل أنكر عليه إذ رأى ذلك وخرج؟

ارتبك هشام المصحفيّ ولم يحر جواباً، حتى تدخل القاضي عبدالملك فذكر أن فساد العقيدة هو الظلم الأعظم الذي لا يهوّن منه عمل الرجل في إزالة المعاصي بين العامة، ولا يزيد عليه اقترافها في الخفاء. وذلك ما ينبغي أن يتحرّوه.

وجد هشام المصحفي في كلام القاضي عبدالملك مخرجاً من الحرج الذي أوقع نفسه فيه. فالتقط الرأي وأطنب في تفصيله وتأكيده. وشهد أنه رأى أبا عامر في المكتبة الأموية ينتقي من الكتب أعمال الفلاسفة والدهريين ومتصوّفة المشرق. وإذا كان الحكم المستنصر هو من أتى بها، فقد كان وليّ الأمر على كل حال ولم يكن يجادل بأقوال أصحابها، فكان كمن يتعلم السحر ولا يعمل به. أما أبو عامر فليس له ذمة ولا عهد عندهم، وقد سمعوا طرفاً من مجادلاته قديماً، وما يخفي في صدره أعظم. وما هي حتى يتجرّأ كل قائل بأقوال الفلاسفة المتزندقين، يحتمون به ويتأسون بعمله، وفي ذلك فساد الدين والدنيا.

ولم ينس أن يطعن في علاقته مع صبح، وأنه ما بلغ ما بلغ إلّا بعد أن أعماها عشقها له. وهو ما يشهد عليه من أخرجهم من الفتيان الصقالبة، وقد كانوا أهل القصر، يعاينون دواخله بأبصارهم. ثم قال:

– اسألوا الفتى جؤذر، فهو حيّ يُرزَق. فهل يبقى لكم بعد شهادته عذر عند الله؟ وهل ترضون أن تحكم فيكم مملوكة بشكنسية مع صاحبها؟

بدا أنه قد بلغ بكلامه وتحريضه من نفوسهم ما يبغي. وخرج من عندهم وهو يحسب أنه أحسن صنعاً. ولكنهم كانوا يعلمون أن المصحفيين ليسوا أشدّ ورعاً وتعففاً، وأنهم كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل ويبغونها عوجاً.

* * *

آن الوقت ليوجّه محمد ضربته الأخيرة للمصحفيين. ولكنه أحب أن يطلع «صبح» أولاً ويشركها في الرأي والتدبير.

كانت تتزين أمام المرآة قبل خروجها إلى لقاء محمد لأول مرّة بعد زواجه من أسماء، حين لحظت صاحبتها ووصيفتها الأولى بدور أنها تطيل

النظر في المرآة على غير العادة، ثم تتحسس جوانب العينين والشفتين، فأدركت أنها تخشى وجود أثر للتجاعيد في تلك المواضع من وجهها. وفي الحقيقة لم يكن من ذلك شيء منظور. فقالت بدور:

- ما زلت بارعة الجمال كما كنتِ دائماً.

قالت صبح دون أن تزيح نظرها عن المرآة:

- حقّاً!

قالت بدور:

- ها هي المرآة أمامك، وهي لا تكذب.

- المرآة لا تكذب، ولكن العين تكذب.. ترى ما تريد!

رجعت بجسمها إلى الوراء قليلاً، وتساءلت:

- لماذا تكتهل النساء أسرع من الرجال؟

قالت بدور:

- وأين مكان الكهولة منك؟ ثم إن السلاطين لا يكتهلون، سواء أكانوا رجالاً أم نساءً. ألم أقل لك هذا في عهد قديم؟

قالت صبح بشيء من الأسى:

- ها أنتِ قد قلتِها.. عهد قديم!

مكتبة
t.me/t_pdf

قالت بدور:

- قطع الله لساني.. ما هذا أردت.

* * *

جلسا في مكانهما المعتاد في حديقة القصر حول منضدة أنيقة. وأخذ محمد يشرح لها ما بلغه من عمل هشام المصحفيّ وتحريضه كبار بني

أمية ونفرا من الشيوخ المتزمتين وتآمره مع الصقالبة الذين أخرجهم من القصر. وأغراه موضوع التزمت أن يستطرد في وصف أصحابه وطرق تفكيرهم حتى قال:

- لو كانت خزائن رحمة الله بأيديهم لأمسكوا خشية الإنفاق، لا يسرّهم أن يروا أحداً من الخلق منبسطاً.. قد حسبوا عبوس الوجه والتجهّم من التقوى. حفظوا آيات العذاب، ونسوا آيات الرحمة، وأن الرحمة جوهر الرسالة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:21] فإذا وعظوا فمنكر ونكير، والسلاسل والجحيم، ونسوا ما وعد الله به المؤمنين. وإن سمعوا أحداً يقول بغير أقوالهم رموه بالزندقة، وجعلوا الحكمة عدوّ الدين. فهؤلاء من يؤلّبهم هشام المصحفي علينا، بل على الخليفة هذه المرة.

كانت شاردة طوال الوقت، وعندما بلغ هذا الموضع من كلامه، فاجأته بسؤال لا صلة له بالموضوع:

- كيف رأيت أسماء؟

تريث لحظة قبل أن يجيب:

- لا بأس بها.

قالت:

- فقط! لا بأس بها؟ جمالها أظهر من أن تداري فيه.

قال بلهجة عارضة:

- بلى.. جميلة.

قالت بإلحاح وهي تتفحصه:

- أجمل النساء! أليس كذلك؟

أحب أن يصرفها ويصرف نفسه عن الموضوع، فقال:

- وما الجمال؟

ابتسمت ابتسامة غامضة، وقالت:

- إذن صدق فيك الفقهاء.. فلسفة.. ما الجمال! لم تكن تجادل في تعريفه.

قال:

- لعلي كبرت.

اتسعت عيناها وهي تتفرّس فيه:

- أنت، تكبر؟

- كلنا يكبر.

اهتزت ملامحها قليلاً وقالت:

- كلنا؟

- أعني في أول الصبا يقف الرجل بعينه عند ظاهر الخِلقة، كما يقف عند سائر الأمور، ثم تزداد حكمته، فلا يقف عند الظاهر حتى يرى الباطن.

- والباطن يُرى؟

- يُعْرَفُ بعلاماته. والجمال مزاج هذا وذاك.. الداخل والخارج.

- وأسماء؟

- لا أذمّها والتي خطبتها لي هي السلطانة! وهل تخطئ السلطانة؟

- أما زلت السلطانة؟

أجاب هذه المرة بلهجة قاطعة قوية:

- ولا ينازعكِ أحد سلطانَك إلّا أهلكتُه.

- سلطانة بكل المعاني؟

- بكل المعاني.. بكل المعاني.

تعجب في نفسه من نبرة الأسى التي خالطت صوتها وأسئلتها. وبدا واضحاً أنها تبحث عما يطمئنها عن ثبات حبها ومكانتها في قلبه ووجدانه. فهل هزت أسماء يقينها به أم بنفسها، أم بكليهما معاً؟ وتمنّى لو كان بوسعه أن يقول لها إن أروع ما في أسماء ليس إلّا قبساً من نارها التي لا يخشى مَسَّها إلّا بقدر ما يتمنّاه!

بعد لحظات من الصمت، رفع رأسه وقال:

- ألا نعود الآن إلى أمر المصحفيين؟

قبل أن تجيب، ظهر هشام المؤيّد، كأنه الغائب الحاضر على مشيئته، أو الطيف الذي يخرج من الخفاء على مواعيده. قام له محمد وانحنى له:

- مولاي.

نقّل هشام بصره بين أمه وأبي عامر بسرعة خاطفة. ثم توقف بنظره على أبي عامر وقال:

- كيف وجدت الزواج من أسماء يا أبا عامر؟

ابتسم محمد وقال بدون تروٍّ:

- الكل يسألني عن الزواج يا مولاي؟

تمنّى لو أنه لم ينطق تلك العبارة، إذ رأى نظرة هشام تتحوّل إلى أمّه. وقال هشام:

- حسداً من أنفسهم!

عاد ينظر إلى محمد وتابع قائلاً:

- وكيف لا يحسدونك؟ أنا أحسدك.. فتاة شابة.. جمال أخّاذ.. تمتع يا أبا عامر.. فالعمر قصير، والزاد يسير.. والصغير يصير كبيراً، والكبير.. يموت! والعاقبة للمتقين.

أطلق ضحكة قصيرة وأردف:

- كلام مؤدّبي الفقيه الزبيدي!

ومضى مبتعداً من فوره. وبينما ازدادت صبح انقباضاً من أثر كلامه، بقيت تدافع شعورها بأنه يتعمّد تعذيبها كلما سنحت له الفرصة!

* * *

في اليوم التالي وصل رسولٌ من الزهراء في ثلة من الحرس إلى منزل الحاجب المصحفي يستعجله أن يرافقه إلى أمير المؤمنين، مع ولده محمد الذي كان عنده.

أطرق المصحفي لحظة ثم قال بنبرة الخضوع والرجاء:

- السمع والطاعة لأمير المؤمنين.. أمهلني يا ولدي هنيهة حتى أودّع أهلي.

ما إن خرج الرسول، حتى أسرع محمد المصحفي إلى سؤال أبيه متوجساً:

- تودّع أهلك؟

أجاب والده:

- وهل حسبت أنه يستعجلني ليراجع رأيه بي ويردّ علي هيبتي؟ ولِمَ طلب رسوله أن أرافقه في ثلة من الحرس، وكان المعهود أن يبلغني الرسالة ثم يمضي، حتى أخرج في موكبي؟ قُضِيَ الأمر يا ولدي، وهذا وقت إجابة الدعوة، وما زلت أرتقبه منذ أربعين سنة.

سأل ابنه متحيراً:

- الدعوة! منذ أربعين سنة!

هزّ المصحفي رأسه هزة خفيفة وشرد بنظره بعيداً وقال:

- رُفع إليّ أحدهم أيام عبدالرحمن الناصر، وسُعي به إليّ، فأمرت بضربه واستصفاء أمواله وإطالة حبسه. فبينما أنا نائم ذات ليلة، إذ أتاني آتٍ فقال لي: أطلق فلاناً فقد أجيبت دعوته فيك، ولهذا أمرٌ لا بدّ ملاقيه. فانتبهت مذعوراً، وأحضرت الرجل وسألته إحلالي، فامتنع عليّ.

... فاستحلفته على إعلامي بما خصّني فيه من الدعاء. فقال: نعم، دعوت الله أن يميتك في أضيق السجون كما أعمرتنيه حقبة. فعلمت أنه قد وجبت دعوته، وندمت حيث لا ينفع الندم، وأطلقت الرجل، ولم أزل أرتقب ذلك.

وكما توقّع، فقد أُخِذ المصحفي وولده إلى ديوان أبي عامر بالزهراء. فوجد عنده جلّة من شيوخ الموالي الذين كانوا في جملة وزرائه من قبل: ابن جهور وابن شُهَيد وابن حزم وعيسى بن فطيس ومحمد بن حفص. وكان ثمة عدد من حرس بني برزال. وإذ نظر المصحفي في الحضور، قال منكسراً:

- قيل لي إن أمير المؤمنين..

قاطعه محمد قائلاً وهو يلتقط رقعة عليها ختم الخليفة:

- نعم، أمير المؤمنين.

بسط محمد الرقعة أمام عيني المصحفي ليقرأ، فانقبضت ملامحه انقباضاً شديداً، ثم قال:

- أمير المؤمنين يأمر بسجني وسجن ولدي وابن أخي؟ بأي ذنب اقترفناه؟

ارتجف محمد المصحفي إذ سمع كلام أبيه، بينما أجاب محمد:

- بالأموال التي احتجنتها أنت وأهلك من غير حق، والرشاوى التي أخذتموها وبذلتم فيها ما لا تملكون لمن لا يستحق.

قال المصحفي:

- وأين البيّنات؟

أجاب محمد:

- هذا ما سيظهره قضاتك.

وأرسل نظرة إلى الوزراء الموالي، فتحوّل المصحفي بنظره إليهم وقال:

- أنتم قضاتي؟ وزرائي وعصبتي!

قال محمد ابن أبي عامر بلهجة حازمة:

- لا عُصَب يا أبا الحسن. وهؤلاء وزراء أمير المؤمنين وشيوخ مواليه، لا وزراؤك ولا مواليك.

ثم أشار إلى الحرس:

- إلى سجن المطبق في الزهراء، حتى يمثلا أمام القضاة!

ما إن خرج بهما الحرس، حتى دخل حرس آخرون من بني برزال يدفعون هشاماً المصحفي أمامهم بغلظة وهو يصيح:

- أيديكم عني أيها الجفاة العراة أصحاب الإبل!

تقدّم منه أبو عامر وقال:

- هشام.. هشام! حديد اللسان كالعادة.

لم يردعه المصير المروّع الذي ينتظره أن يرسل إلى محمد نظرة احتقار وهو يقول:

- ليت لساني يقطع كالسيف، إذن لقطعتك الآن به. وليتني فعلت حين كنتَ ما تزال كاتباً للرقاع أيها الرقيع!

فجأة لطمه محمد لطمة هائلة أطارت عمامته وأسالت الدم من طرف فمه. نفض محمد قبضته وقال:

- لكم انتظرت هذه اللحظة. وقد أعنت على نفسك أيها المغتر الصفيق.. تحرّض على مولاك الخليفة الذي أعطيناه بيعتنا مرتين: مرةً في عهد أبيه، ومرّةً حين تولّى.

قال هشام هازئاً:

- هه! تولّى!

قال محمد:

- أما علمت أن هذه خيانة وعصيان! وما جزاء من يشق عصا الطاعة ويدعو إلى خلع أمير المؤمنين؟ هه!

قال هشام متحدياً:

- اقض ما أنت قاضٍ.. فليس الموت بأشدّ من حياةٍ أنتَ فيها صاحب الأمر والنهي.

* * *

وقف محمد يراقب بينما كان الحرس يدفعون هشاماً المصحفيّ موثق اليدين وراء ظهره، حتى وصلوا به إلى حيث ينتظر السيّاف. لم يبد عليه شيء من الجزع والخَوَر، ولم تخذله ساقاه. ولم يحتج الحرس إلى استعمال القوة لإنزاله على ركبتيه وتثبيت عنقه على الجذع الخشبي المعدّ لضرب العنق. وانتظر قارعو الطبول والسياف أمر أبي عامر الذي اقترب من هشام المصحفي حتى انحنى عليه وهمس له:

- كنت أظن بك التهور والنزق فقط، والآن أشهد لك معهما بالشجاعة. ولكن.. ما كان ينبغي لك أن تطير عمامتي عن رأسي في ذلك اليوم في ساحة الجامع، ثم تدوسها بقدمك.. كان خطأً فادحاً وإثماً كبيراً.. فالآن يطير رأسك الذي أردت أن تختصّه بعمامة السادة.. فانظر تقلب الأيام! ومع ذلك فإني لا آخذك الآن بتلك.. معاذ الله، ولكن بالدعوة إلى الفتنة وشق الجماعة والخروج على وليّ الأمر.

انتصب بجسمه، ثم تراجع إلى مسافة مناسبة. وبدأ ضرب الطبول على نحو رتيب.. وتهيّأ السيّاف حتى أومأ له أبو عامر، فأهوى بسيفه على عنق هشام المصحفي ففصله بضربة واحدة، وسقط على النطع.

أجـــــازي الزمـــــانَ عـــــلى حالِـــــه

مجـــــازاةَ نفـــــسي لأنفاســـــها

إذا نَفَـــــسٌ صـــــاعدٌ شـــــفّها

تـــــوارت بـــــه دون جُلّاســـــها

وإن عكفـــــت نكبـــــةٌ للزمـــــانِ

عطفـــــت بنفـــــسي عـــــلى راسِـــــها

بينما كان جعفر المصحفيّ يقبع في سجنه الموحش، ويتصبّر على حاله بأبيات من الشعر تفيض بها قريحته المكلومة، كان مجلس الخليفة يشهد مراسيم تنصيب محمد بن أبي عامر حاجباً مكان المصحفيّ بحضور عدد كبير من الوزراء والأعيان والقادة. كان الخليفة الصبي هشام يجلس على سرير الخلافة، بينما يقف محمد بن أبي عامر بين يديه، حيث قام أحد فتيان القصر الجدد بإلباس محمد قفطان الحجابة الخاصّ. ثم تقدّم فتى آخر بحشيّة فاخرة موشاة بخيوط الذهب، وضع عليها خاتم الحجابة، ووقف بها عند الخليفة. عندئذٍ تقدّم محمد حتى صار أمام الخليفة، فانحنى له، ثم نزل على ركبتيه، تناول الخليفة الخاتم ومدّ محمد يده ليلبسه إياه. ثم قام محمد وانحنى للخليفة من جديد، وإذ همّ أن يتراجع بجسمه مدّ هشام له يده ليقبلها، ففعل. ثم دق كبير الفتيان «سكّر» الأرض بصولجان طويل ضخم، وهتف:

- أعز الله مولانا أمير المؤمنين هشام بن الحكم المؤيّد بالله، وسدّد حاجبه وصاحب دولته: الرئيس محمد بن أبي عامر.

ثم خرج ابن أبي عامر في موكب فخم إلى ديوان الحجابة مع ضرب الطبول والكاسات ونفخ الأبواق. ووقفت صبح في المنظرة تشاهد الحدث العظيم، وإلى جانبها بدور، وقالت:

- أخيراً بلغ أبو عامر غايته.

أضافت بدور:

- وغايتك. فهنيئاً لك وله.

* * *

هذا وقت الوفاء بعهد قديم.

أمر محمد بن أبي عامر حرسه بالمكوث أدنى التلّة، بينما ترجّل هو وصاحباه عمرو وعليّ ورجل آخر، وصعدوا التلّة حتى بدت لهم الزهراء من بعيد. قال محمد وهو يرسل نظره إلى الزهراء:

- تذكرون هذه التلّة التي كنا نأتيها للنزهة في ذلك الزمان.. ولم يكن لنا من الزهراء حظ إلّا النظر عن بُعد؟

قال عليّ:

- الحمد لله الذي بلّغك ما كنت تأمل يا أبا عامر.

قال محمد:

- وكنتم في نفوسكم تكذّبون.. بل تسْخرون.. إلّا أن تجاملوا فتواروا.

نظر بعضهم إلى بعض تحرجاً، وتابع دون أن يلتفت إليهم:

- وهل كان يسعكم غير ذلك؟ فتى رقيق الحال من الجزيرة الخضراء لا يكاد يُحصّل قوت يومه، ثم ينظر إلى الزهراء من بعد، ويسأل أصحابه ما يختارون ليوليهم إذا صار إليه الأمر؟

صمت هنيهة وهو يتابع النظر إلى الزهراء، ثم قال بنبرة حزينة:

- لطالما انتظرت هذه اللحظة. فما بالي لا أراها تستخفني الآن؟ غفر الله لابن عمي زياد الذي أبى إلّا أن يشقي نفسه أولاً ثم يشقيني.. وهو الذي كان يملأ المكان ظرفاً وضحكاً.

تدخل عليّ قائلاً:

- أنت أول من صدّق أحلامه، فصَدقت معه.

هز محمد رأسه وقال:

- هذا وغيره يا عليّ. ثمة في الدنيا رجال كثيرون يحلمون ويصدّقون أحلامهم ثم تَكْذِبُهم.. ومنهم حمقى غلبت عليهم أوهامهم فلا يميّزون الحقيقة من الوهم. أما من تصدقه أحلامه فرجل قدّر الله له قبل مولده مهمة عظيمة، فهو بالغها بأمر الله وقدره، على الرغم من كل شيء، بل على الرغم من نفسه. ومن قدّر الله له ذلك، هيّأ له أسبابه في نفسه أولاً. فمن قدّر له أن يكون عالماً حكيماً، وهبه العقل الذكيّ والنظر الحكيم. ومن قدّره للسلطان بغير إرث من أبيه، وهبه ما يصلح للسلطان وما يوصل إليه، فهو يدرك ذلك من نفسه، فتكون أحلامه على وفق المقدور له وأسبابه. ففي ظاهر الأمر أن الأحلام الصادقة تسبق تحققها في المقدور.. ومن حقائق الأمور، أن المقدور من أمر الله أسبق من أحلام الرجل به.

قال عليّ:

- الآن نشهد.

استدار إليهم وقال:

- الآن وقت الوفاء بمقاديركم أنتم، التي جعلني الله سبباً فيها.

اقترب أولاً من الرجل الذي كان معهم في ذلك اليوم البعيد في هذا المكان، ثم افترق عنهم والتحق بعمل الوزير ابن جهور، حتى أرسل إليه أبو عامر من دعاه إليه ليخرج معه هذا النهار، فسأله:

- كيف قلتَ في ذلك النهار يا عبدالرحمن؟

تحيّر الرجل مرتبكاً، حتى استخرج أبو عامر من كيس كان يشدّه إلى جانبه رقعة ملفوفة مختومة، ناولها إياها وقال:

- ولاية مالقة، كما طلبت.

ابتسم الرجل وانحنى له.

ثم تحوّل أبو عامر إلى عليّ، وناوله رقعة أخرى:

- صاحب الاحتساب. ألم يكن هذا طلبك؟

وأخيراً واجه ابن عمهم عمرا، وناوله رقعته:

- صاحب المدينة.

قبّل عمرو جبينه، وبادله محمد مثلها.

* * *

نصف سنة من الحبس والمهانة والاستجواب المذل أمام القضاة واستصفاء الضياع والدور والأموال تركت جعفر المصحفي شبحاً محطماً لا يقوى على ساقيه. ومع ذلك لم يترفق به الحارس الغليظ وهو يدفعه عبر الدهليز المؤدّي إلى الصالة التي يجلس فيها القضاة في انتظاره. وقال للحارس بصوت واهن:

– رفقاً بي يا بنيّ، فستدرك ما تحبّه وتشتهيه. وليت الموت يُباع فأغْلى الله سومه حتى يرده من قد أطال عليه حَوْمَه.

ثم أنشد بصوت خفيض:

لا تـــأمننَّ مـــن الزمـــان تقلّبـــاً
إنّ الزمـــان بأهلـــه يتقلّـــبُ
ولقـــد رآني والليـــوث تخـــافني
وأخـــافني مـــن بعـــد ذاك الثعلـــبُ
حســـبُ الكـــريم مذلّـــةً ومهانـــةً
ألّا يـــزالَ إلى لئـــيمٍ يُطْلَـــبُ

وإذ دخل الصالة جرّ ساقيه إلى المقعد الذي وضع له في مواجهة القضاة.. دون أن ينظر في وجوههم. وهنا نهض محمد بن حفص الذي كان في جملة قضاته فقال موبِّخاً:

– بئس الأدب لأدبُك. تترك التسليم إذ تدخل علينا. وما زال هذا رأيك منذ ابتدأ هذا الأمر. فصار التذكير به واجباً. أما تستحي؟

فظهر الامتعاض على وجه ابن جهور من كلام ابن حفص. وردّ المصحفي وهو يستجمع آخر ما تبقى فيه من قوّة توشك على الانطفاء:

– يا هذا، جهلت المبَرّة فاستجهلت صانعها. وكفرت اليد وقصدت الأذى فلم ترهب مُقدِّمَها، لقد نسيتَ الأيادي الجميلة والمبرّات الجليلة.

صاح به ابن حفص غاضباً:

– هذا هو البهت بعينه. وأيّ أياديك الغرّ مننتَ بها؟

أجاب المصحفي:

- الحقّ الذي لا يُرَدُّ ولا يُصْرَف: رفعي القطع عن يدك حين اختلست تلك الأموال، وتبليغي لك إلى مناك. نسيتَ أم تناسيت؟

بدا الارتباك والحرج على ابن حفص. فقد كان المصحفي محقاً. ثم تكلّف الردّ مدافعاً عن نفسه:

- والله ما أدري ما تقول وما تخرّف به. ولستُ أنا الآن في موضع التهمة.. أنت المتهم في أموال المسلمين، ونحن قضاتك، فالزم أدبك.

توجه المصحفي بنظره إلى سائر القضاة وقال:

- أنشد الله من له علم بما أذكر إلّا اعترف به فلا ينكره.

تردّد القضاة حتى وقف ابن عيّاش فقال:

- حتى لو كان بعض الذي ذكرتَ يا أبا الحسن، فقد كنتَ في غنىً عن قوله، وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك. وقد يقول القائل: إن كان قد سكت عن اختلاس غيره بعد أن علمه، فأولى أن يرضاه لنفسه.

قال المصحفيّ:

- أحرجني الرجل فتكلّمت، وأحوجني إلى ما به أعْلمْت.

عاد ابن حفص للتذكير بترك المصحفي السلام على وزراء أمير المؤمنين، ليصرف الحديث عن نفسه. وهنا قام ابن جوهر مُغضباً وقال لابن حفص:

- لم يتركه جهلاً يا ابن حفص. أوَما علمتَ أنه من كان في سَخَط السلطان تحامى السلام على أوليائه ووزرائه، لأنهم إن ردّوا السلام عليه فقد أمّنوه، وإن فعلوا فقد أغضبوا السلطان لتأمينهم من أخافه، وإن تركوا ردّ السلام فقد أسخطوا الله وتركوا ما أمر به، فكان الإمساك من أبي الحسن أولى، ومثل ذلك لا يخفى على أبي الحسن.

انقبض وجه ابن حفص، وأطرق منخذلاً، بينما ظهر بعض الارتياح على وجه المصحفي. ثم تقدّم ابن جهور قليلاً نحو المصحفي وخاطبه:

- والآن يا أبا الحسن. لقد طال هذا عليك وعلينا. ألا نفرغ منه اليوم فتريح وتستريح؟

أجاب المصحفي:

- ليتكم تفعلون! أتراني أحب أن أقاد في كل يوم إلى ذلّ المناظرة والاستجواب، وقد وهن عظمي واشتعل الرأس شيباً؟ أما بلغتم غايتكم مني ومن قومي؟ السجن واستصفاء الأموال. فماذا بقي عندي لأؤديه لكم؟

همّ ابن جهور أن يعترض، فقاطعه المصحفي مستأنفاً:

- ألا أختصر عليكم فأريحكم؟ قد علمتم أني بعت كل دروبي وضياعي وداري لكي أفي بالذي طالبتم به، وما بقي الآن عندي شيء فيوصف أنه حقي أو حق غيري. والله لقد استنفدت ما عندي من الطارف والتليد، ولا مطمع لكم في درهم ولو قُطّعت إرباً إرباً.

* * *

كان الوزير ابن حدير قد بلغ من العمر عتياً وعشي بصره حين قدم على الحاجب محمد بن أبي عامر، يقوده خادمه، ويتوكأ بيده الأخرى على عصا. وحين دخل عليه، هب أبو عامر إليه فقبّل يده بإجلال، ثم أخذ بيده فأجلسه بنفسه. وقال:

- لو آذنتني يا سيدي لأتيتك بنفسي، فلَمْ تتكلّف الوصول إليّ.

قال ابن حدير بصوت مرهق:

- الحاجب يُزار ولا يزور.

قال أبو عامر:

- وهل ينسى الحاجب فضل الوزير ابن حدير عليه؟

قال ابن حدير:

- إذن فهذا وقت الوفاء يا أبا عامر.

- مُرْ يا سيدي.

- ما فِعْلُك بالمصحفي؟

انقبض وجه أبي عامر، وقال:

- آه، ذاك!

- نعم ذاك.. ذاك الذي كان سبيلك إلى عمل الزهراء، حتى بلغت ما بلغت.

- بل الفضل كلّه مردود إليك يا سيدي.

- أنا أوصيت بك عند القاضي ابن سليم، وهو أوصى بك عند المصحفي، وهو أوصى بك عند الخليفة وأم ولده.

- قدمني بين آخرين. ووقع الاختيار عليّ.

- هذا أو ذاك.. وحتى لو لم يكن له فضل عليك، فأنا الآن أطلبه منك بدالّتي عليك.

شعر أبو عامر بضيق شديد، ولم يكن متهيّئاً لمثل هذا الاختبار الثقيل الذي لم يتعرّض لمثله حتى تلك الساعة. وبعد لحظات من التريث والتدبر، قال:

- يا سيدي، لو كان جرمه عليّ، لنزلت عن حقي. ولكنه حق المسلمين، ولا أملك الشفاعة فيه، فيسألني ربي، وأكون قد فرطت فيما استخلفني الله فيه، وعهد به إليّ أمير المؤمنين. ولا أملك بعد ذلك أن

أحاسب رجلاً من الناس، إذ كيف أكيل بمكيالين: واحد لمن ملك الشفاعة، وواحد لمن لا بواكيَ له.

أطرق ابن حدير لحظة، ثم تناول عصاه ودقّ بها الأرض، وقال:

- أهذا جوابك لي؟

- بل جواب الحق والدين، وإليهما يُردّ الأمر كلّه.

نهض ابن حدير مستعيناً بعصاه، واتجه نحو الباب. وحين أسرع محمد ليأخذ بيده، نفض يده منه، ونادى خادمه بدلاً من ذلك. وخلف أبا عامر يغالب ضجيجاً متعباً في رأسه، وشعر بصدره ضيقاً حرجاً كأنّما يصَّعَد في السماء!

لم يجد المصحفي في سجنه إلّا أن يتصبّر بالشعر:

صبرتُ على الأيام لما تولّتِ
وألزمت نفسي صبرها فاستمرّتِ

فيا عجباً للقلب كيف اصطباره
وللنفس بعد العزّ كيف استذّلتِ

وما النفس إلّا حيث يجعلها الفتى
فإن طَمِعت تاقت، وإلّا تسلّتِ

وكانت على الأيام نفسي عزيزةً
فلما رأت صبري على الذلّ ذلّتِ

وقلت لها يا نفس موتي كريمةً
فقد كانت الدنيا لنا ثمّ وَلّتِ

ولكن التصبر بالشعر لم يطل مع طول سجنه. فلما بلغ به سوء الحال رضي أن يرسل إلى أبي عامر مستعطفاً معلناً خضوعه وإذعانه:

هبنـــي أســـأتُ فـــأين العفـــو والكـــرمُ
إذ قـــادني نحـــوك الإذعـــانُ والكـــرمُ
يـــا خـــير مـــن مُـــدّت الأيـــدي إليـــه أَمـــا
ترثـــي لشـــيخ نعـــاهُ عنـــدك القَلَـــمُ
بالغـــتَ بالســـخط فاصـــفح صـــفحَ مقتـــدِرٍ
إن الملـــوكَ إذا مـــا اسْـــتُرحموا رحمـــوا

ولكن هذا التذلل والخنوع لم يزد أبا عامر إلّا ازدراءً له وحنقاً عليه. وازداد يقيناً بأن ما فعله به كان من أوجب الأعمال صوناً للدولة وحفظاً لشوكتها. فإن الرجل الخوّار في المحنة أحرى بأن يذلّ لعدو الأمّة ويفرّط بحقها وهيبتها إذا خشي على نفسه. وتأكد لديه أن البخيل، كما كان المصحفي، لا يكون إلّا جباناً. فالذي يبخل بماله أحرى به أن يضنّ بحياته وهي أعظم.

ولكن المصحفي لم يكفّ عن التذلل والاستعطاف، حتى أرسل إلى أبي عامر يعرض عليه أن يضمّه إلى جناحه ويدخله في خدمته مؤدّباً لولده! فلم يحرِّك ذلك في نفس أبي عامر إلّا المزيد من الغضب. فقال لمن حوله:

- والله ما أراد إلّا أن يسقطني ويحط من قدري عند الناس، لأنهم طالما رأوني في دهليزه خادماً ومسلِّماً. فكيف يرونه الآن في دهليزي معلِّماً. وما هو الآن في حاله إلّا بين إحدى الراحتين: اليأس، أو الموت!

فكان الموت أخيراً.

بعد زهاء شهر من وفاة جعفر المصحفي، أمر ابن أبي عامر بأن يؤتى له بمحمد المصحفيّ من سجنه، فأُدخِل عليه موثقاً في هيئة مزرية. وأمر أبو عامر الحرس قائلاً:

- فكّوا وثاق ابن الأكابر.

وإذ فعلوا تقدّم أبو عامر من ابن المصحفي وأخذ يتأمّله، فأطرق متحاشياً نظراته. ثم أطلق محمد بعض الأصوات الدالّة على الأسف وقال:

- ما فعل الله بك يا ابن المصحفي؟! هذه الدنيا لا أمان فيها لأحد، ولا قرار فيها إلّا بالموت. ولذلك أُمِرنا بألّا نأسى على ما فاتنا ولا نفرح بما أوتينا، وأن نأخذ من شبابنا لهرمنا، ومن صحتنا لمرضنا، ومن يومنا لغدنا. تَذْكُر أوّل عملي في الزهراء يا ابن المصحفي؟ سألتَني سؤالاً أدرك الآن قيمته. قلت: كيف يشعر الرجل، كان في مركب خشن، ثم صار إلى مركبٍ ناعم؟ شيء من هذا القبيل.. الماء والسمك والهواء.. بقدر ما فتح الله عليك من الفصاحة في ذلك الحين.. وأنا أسألك الآن: كيف يشعر الرجل كان في المركب الناعم ثم صار إلى المركب الخشن؟ هل تستطيع أن تجيبني أم ذهب لسانك على الجملة؟ الكِبر يا ابن المصحفي.. الكِبر.. أطغى إبليس لعنه الله.. الكِبر وجحود النعمة مع قلّة العقل.. كارثة.. تورد المرء المهالك، في الدنيا والآخرة.. ولكن، ما دام في العمر بقيّة فإن بوسع المرء أن يستدرك على نفسه إن شاء.. أما أبوك فقد استوفى أجله وكان شيخاً كبيراً على كل حال. وأما أنت فأشفقت على شبابك.. أعني، ربما لم تعد شاباً، ولكنك لم تكتهل بعد.. وفيك قوّة تستطيع استعمالها لكسب قوتك.. وقد بارك الله في اليد الصَّناع الخشنة.. والآن، ولم يبقَ لك شيء من مالك ومال أبيك، بل من مال المسلمين الذي احتجنتموه، فليس

الوقت متأخراً على تعلم صنعة من الصنائع، تأكل منها وتنفع بها غيرك.. اعمل في سوق الحدّادين، أو سوق النجّارين.. لا.. لا.. هذه صنائع تحتاج إلى مهارة لا أحسبك تستطيع تحصيلها في عمرك.. اعمل في سوق الدلّائين.. هذه لا تحتاج إلى مهارة.. أو ربما مع الفَعَلة الذين يعملون لنا في بناء القنطرة الكبرى.

لأول مرّة رفع محمد المصحفي رأسه وقال بصوت ضعيف:

- أما بلغت حاجتَك منا بعد يا أبا عامر؟

قال أبو عامر بنبرة صارمة قوية:

- قل: سيدي الحاجب! أين أدبك يا ابن المصحفي؟

عاد ابن المصحفي إلى الإطراق بينما أخذ محمد يحدجه بنظرات سابرة. ثم ارتخت ملامحه وقال:

- هيا اخرج! قد أخليت سبيلك.. مثلك لا خطر منه!

قبل أن يبلغ الباب، لحق به أبو عامر ونزع عن رأسه عمامته وقذفها بعيداً، وقال:

- لن تحتاج إلى هذه في سوق الدلّائين.

وما إن خرج ابن المصحفي منكسراً حتى دخل عمرو متكدّر الوجه، وأرسل إلى ابن عمّه نظرة تنم عن ضيقه بما رأى من انكسار ابن المصحفي حين لقيه في الدهليز. فهم محمد مغزى النظرة فقال مسوّغاً:

- لم أظلمه.. استوفيت منه حقوق الناس، ثم منَنت عليه وأطلقته. أمّا شفاء الصدور فيأتي مع البيع.

قال عمرو:

- مهما يكن.. لا أملك إلّا الحزن إذا رأيت عزيز قوم ذلّ.

قال محمد:

- ذلك لأنك إذا رأيت آخر الأمر نسيت أوّله. ألم تره قبل ذلك في كِبره وخيلائه يظن أنه يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً؟ وماذا عن الناس الذي أذلّهم؟ أما أنا فلا أنسى.. أعطف الماضي على الحاضر، وأُكمل حسبة الدفاتر قبل أن أطويها وأفتح غيرها.

قال عمرو:

- ما الدفتر التالي؟

ظن الجميع أنها وعكة عارضة أول الأمر؛ بعض الحرّ والصداع اللذين تراجعا بعد أسبوع. ولكن لم ينقض يومان آخران حتى عادت الحمّى أشد مما كانت ومعها شعور شديد بالدوار والغثيان والوهن، أعقبته آلام مبرحة في عضلات الجسم حتى لم تعد عائشة قادرة على الحركة. ثم بدأ لونها يميل إلى الاصفرار، وتثاقلت أنفاسها. عندئذٍ أدرك محمد أن الوضع مثير للقلق.

جلس على حافة سريرها وأخذ بيدها وقال:

- لا بأس عليك يا عائشة. كيف تُحِسّين؟

أجابت بصوت متقطع:

- كمن مكث يصعد الجبل ويكابر على تعبه، حتى إذا صار قريباً من الذروة خذلته ساقاه، ولا مزيد. فهو يرى الذروة قاب ذراعين منه ولا يبلغها.

أرهقها الكلام، فأغمضت عينيها، ثم قالت دون أن تفتحهما:

- يبدو أنني لن أكون معك في عشّ النسر يا محمد.

قال:

- أنت فيه يا عائشة.

قالت:

- حتى يقال: الملك المنصور محمد بن أبي عامر.. ذراع آخر أو ذراعان.

مسح على جبينها بخرقة مبلولة وقال:

- هوّني عليك.. ما يلبث الطبيب أن يصل.

فتحت عينيها وقالت:

- الطبيب! تكشف زوجك للطبيب؟

قال:

- الضرورة. لا حرمني الله منك.

حين فرغ شارل أو قارلة أو زيد بن أبي عامر من الفحص بقي صامتاً، وفهم محمد من نظرته أنه لا يرغب في الكلام أمام عائشة. ولما اختلى به بعد ذلك، جلس شارل إلى منضدة وأخذ يكتب، وهنا فرغ صبر محمد فقال:

- ماذا تكتب؟ ألا تحدّثني بدلاً منه؟

- الصبرَ يا أبا عامر. قواعد الصنعة.

ثم شرح له أن قواعد الصنعة على ما استقر عليه شيوخها وخرج بها مرسومهم إلى كل الأطباء، تقضي بأن يكتب الطبيب رقعتين متطابقتين يشرح فيهما حالة المريض ويصف العلاج الذي رتّبه بحسب علمه واجتهاده، ويترك واحدة عند أهل المريض، ويحتفظ بالأخرى. ثم يتابع عيادة المريض، وفي كل مرة يفعل الشيء نفسه، حتى لو لم يتغير الوصف والعلاج. فإذا بدا له ما يحمله على التغيير دوّن ذلك. فإذا شفي المريض بعد ذلك أخذ أجره، أما إذا قضى الله بوفاة المريض، فيحمل أهله رقاع الطبيب كلها إلى شيخ الصناعة الأكبر، فينظر فيها مع أصحابه، فإن وجدوا أنها توافق علوم الطب وواجب الطبيب، قضوا بأن المريض مات بانقضاء الأجل، وإن وجدوا فيها ما يدلّ على خطأ الطبيب أو إهماله أو تقصيره، ألزموه دفع الدية لأهل المريض. ومن لم يعمل بهذه القواعد

فأهمل التدوين على وفقها طُرد وصودرت إجازته ومُنِع من العمل في صنعة الطب.

قال محمد:

- قواعد لا يعلم بها الحاجب المتصرّف في أمر الدولة؟

قال شارل:

- السلطان في غنىً عن التدخل في عملنا إلّا أن يعمّ الضرر، ونحن في غنى عن أمر السلطان.. أهل مكة أدرى بشعابها.. أليس هذا هو المثل؟

- ولكني لن أرفع الرقاع إلى شيخ الصناعة على كل حال لينظر في عمل صاحبي شارل إذا..

تريث لحظة ثم تابع:

- إذا قضى الله بغير الشفاء.. لا قدّر الله.

قال شارل بنبرة التحبب:

- وأنا لن أقتضي أجري من صاحبي الحاجب محمد بن أبي عامر إذا قضى الله بالشفاء.

كان محمد في هذه الأثناء قد وقف عند شارل ينظر فيما يخطّ، فالتقط بصره اسم المرض: الصفراء. فارتج قلبه وانقبض وجهه، إذ كان قد سمع بهذا الداء وخطورته. سأل بصوت مختنق:

- ما قدر النجاة منه؟

توقف شارل، ثم التفت إلى محمد وقد اكتست ملامحه بالوجوم:

- اثنان من عشرة. ولكن.. نجتهد وسعنا.. ومآل الأمر عند الله.

ساءت حال عائشة بعد ذلك بسرعة مخيفة، واشتدت بها الحمى وازداد جسمها اصفراراً، وبدأ بعض النزف من فمها.

في تلك الليلة، جلس محمد إلى جانب سريرها يمرّضها بنفسه، فيبلّ خرقة في الماء ويضعها على جبينها بحنان بالغ، وهي ترتجف بشدة. ثم فتحت عينيها نصف انفتاحة، وقالت بصوت شديد الوهن مع ابتسامة باهتة:

- من امرأة غيري بات الحاجب صاحب الدولة يُمَرِّضها؟

ردّ عليها بابتسامة لا تخفي ما كان يعتمل في داخله من الحزن الشديد. ولم يجد إلّا أن يقول:

- لا تذهبي يا عائشة.

قالت:

- هذا أمر لا يقضي فيه حتى صاحب السلطان!

أغمضت عينيها من جديد. وأخذ يتأمّلها ويرقب أنفاسها الثقيلة. وكلما أخذتها الرجفة ارتجف قلبه معها. ثم سمعها تقول بصوت ضعيف:

- محمد!

- فداكِ نفسي.

فتحت عينيها، ونظرت في عينيه نظرة فاحصة غريبة. ثم استجمعت كل ما بقي عندها من القوّة الغاربة، وسألت:

- هل بوسع الرجل أن يحبّ غير امرأةٍ في الوقت نفسه؟

أطرق صامتاً. وبقيت تصوِّب نظرها إليه في انتظار جوابه. وبعد لحظات من الصمت رفع رأسه شارداً، فقالت:

- الصدق يا محمد.. في حضرة الموت.. حضرة اليقين.. سأعرف بعد قليل على كل حال.

- لا تقولي هذا؟

تريث من جديد، ثم أجاب:

- القلب واسع يا عائشة.. وله أبواب.. وفيه منازل!

أغمضت عينيها. وبعد هنيهة قالت دون أن تفتحهما:

- أما قلبي.. فباب واحد.. ومنزل واحد.. لرجل واحد.. وهو واسع أيضاً.

انزلقت دمعة من عينيه. وكان ذلك آخر ما سمع منها.

كانت دائماً تحلم بأنها تطير. تقف على الأرض في مكانٍ ما، أو على تلة مشرفة، أو على سطح الدار، ثم تبسط ذراعيها يميناً وشمالاً كجناحي طائر، ثم ترتفع عن الأرض وتحلق في الجو، وترى الناس والدور والتلال والمروج بعين الطائر، فتشعر بنشوة غامرة. وتمكث على ذلك وقتاً. ولكن كان يتكرر دائماً أنها بعد وقت من الطيران تبدأ في الشعور بالثقل، وكأن قوة ما تشدّها إلى الأسفل. فتبدأ في الهبوط من عليائها تدريجاً، فتجاهد كي ترتفع من جديد، ولكن تلك القوة تغلبها حتى تقترب بها من الأرض والشجر دون أن تهبط بها تماماً إلى الأرض، وهي تحاذر أن تصطدم بشيء مما تقترب منه في طيرانها المتدنيّ. وفي العادة كانت تستيقظ من منامها قبل أن تصيب الأرض، ودون أن تعود إلى الارتفاع في الفضاء.

هذه المرّة عاودها الحلم. ولكن بخلاف السابق وجدت نفسها تطير بخفة غير مسبوقة وبلا أي جهد منها، ولبثت ترتفع في الفضاء دون أن يشدّها شيء إلى الأسفل، بل دون أن تخشى حدوث ذلك. طارت فوق الزهراء، وفوق أحياء قرطبة، وهامت حول الجامع الكبير، ثم تابعت الطيران فوق المروج والتلال، وظلّت ترتفع دون جهد حتى صارت فوق الغيوم واختفت معالم الأرض أدناها. ثم دخلت في عماية مبهمة ما لبثت أن خرجت منها إلى بياض غامر، ولم تعد في حاجة إلى تحريك ذراعيها على

نحو ما يفعل الطير بجناحيه، ففي ذلك البياض المطلق تنعدم العلامات والأضداد، التي تتعرّف بها الجهات والأزمان والأماكن والحركة والسكون!

* * *

بعد أن ألحدها بيديه في قبرها وأهال التراب وتلقى العزاء من الحضور، وقف على القبر وقتاً يدعو لها ويتلو من القرآن الكريم. وكان إلى جانبه ولداه عبدالملك وعبدالله، وابن عمه عمرو وصاحبه عليّ. وكانت مجموعة من النساء يقفن على بُعد في ثياب البياض، وفيهن أسماء التي أصرّت على الخروج لتشهد الدفن، وكذلك لبنى زوج عمرو. وكان الحزن يخيّم على الجميع. وبعد وقت ربّت عمرو على محمد يدعوه للرجوع. وإذ بدأوا في الابتعاد توقف عبدالله ثم انفلت مهرولاً إلى القبر من جديد منتحباً بصوت مسموع. وبدا أنه أكثر الجميع تفجّعاً بوفاتها. فقد كانت له كل تلك السنين بمثابة الأم الحانية، وإن لم تكن هي التي أنجبته، وكان لها بمثابة الولد الذي لم تلده. بل كانت أكثر من ذلك إذ كان يجد في حنانها ما يعوِّضه عن النقص في عطف أبيه عليه مقارنةً مع أخيه عبدالملك، لِما بقي في نفسه من الشك في نسبته إليه.

أومأ محمد إلى عمرو، فأسرع خلف عبدالله وطوّقه بذراعه ثم عاد به.

*

كان حزن أسماء على وفاة عائشة صادقاً بعد أن تنامت بينهما مودة وصحبة يندر أن تنشأ بين الضرائر. فقد كانت كل منهما تشعر بأن لها حيزها الخاص من محمد، لا تنازعها الأخرى عليه.

بعد عودته من المقبرة لبث محمد متمدداً على الأريكة غارقاً في حزنه. اقتربت منه أسماء ومسحت على رأسه.

قال:

- لم أُفجع بمثلها قط. وما كنت أدري عِظَم فقدي بها حتى وقع.

ثم التفت إلى أسماء وقال:

- هل يسوءك أن أقول ذلك؟

أجابت:

- لا والله، فبمثلها يكون الفقد، وعلى مثلها يكون التفجّع. ولا يسوء الوفاء عاقلاً له قلب. وكيف يسوؤني وهو طبع، فإذا كان في الإنسان كان منه لكل من أحبّ ومن كان له صلة به. ومن لم يكن له وفاء لقديمه؛ لم يكن منه لجديده.

قال:

- إنك لتكبرين في عيني يا أسماء.. كنت أعمل لأبيها رحمه الله، ورضيت بي زوجاً وأنا لا أملك إلّا غايتي وإرادتي، وأحلاماً لا تشتري للمرأة ثوباً. ولو أني قصدت أباك في ذلك الحين خاطباً لك، لجعلني مثلاً وعبرة.

على الرغم من جوّ الحزن، لاح على وجهها طيف ابتسامة، وقالت:

- لكل شيء موعد وباب.. ولا بدّ لأحدنا أن يلقى مواعيده.

قال مردداً:

- نعم.. لا بد لأحدنا أن يلقى مواعيده!

٭

لئن لقي هشام المصحفي مصرعه دون أن يبلغ غايته من تحريض المشيخة الأمويّة والفقهاء المتزمّتين، فإن ذلك لم يردع القاضي المتشدّد عبدالملك بن منذر عن المضي في التحريض والتدبير، والتف حوله جماعة من أهل التزمت الذين اشتدّت نقمتهم على أم الخليفة الصبيّ وصاحبها محمد بن أبي عامر أن يستبدا بحكم البلاد على الحقيقة. وعلى الرغم من تعظيم العامة لأبي عامر وما حققه من إنجازات عظيمة في مقارعة العدو من جهة، وإصلاح أحوال الناس وعمارة البلاد في مدة قصيرة من جهة أخرى، فإن كثرة الكلام عن علاقته بصبح قد ترك آثاراً قبيحة في نفوس الكثيرين من الناس. وانقسموا فيه بين محب وكاره ومستريب. وما كانوا على كل حال ليتقبلوا أن تشارك امرأة في تدبير الحكم، فكيف إذا كانت جارية قينة مغنية بشكنسية، وإن كانت أم الخليفة.

لم يكن القاضي عبدالملك بن منذر وأصحابه بعيدين عن إشاعة تلك الأراجيف بين الناس. والحقيقة أن دوافع القاضي عبدالملك لم تكن كلها نابعة من غيرته على الدين كما يفهمه. فقد كان الرجل شديد الطموح ويرى نفسه أهلاً لمنصب قاضي القضاة، بل الحاجب أيضاً. وظن أنه إذا أفلح فيما أخفق فيه هشام المصحفي، حتى تنصرف الخلافة إلى أحد أبناء عبدالرحمن الناصر، فسوف يقدّمونه. وبهذا يجمع بين حسنة الدنيا وحسنة الآخرة! ووافق ذلك كلّه تحريض تلك الفئة من الفقهاء والوعاظ المتشددين على المشتغلين بالفلسفة وعلم الكلام. وكان هؤلاء قد كثروا، وصاروا أكثر جرأة في نشر أفكارهم ولهم أتباع ومريدون. ومضى ابن أبي عامر على

سنة الحكم المستنصر في استجلاب كتب الفلسفة والكلام من المشرق إلى المكتبة الأموية التي كانت مقامة على حدّ الزهراء، ولها باب خارجي يدخل منه طلبة العلم. أما الباب الآخر الذي ينفتح على الزهراء فلا يستعمله إلّا أهل الزهراء أنفسهم.

واشتهر في تلك الفترة رجل يلقّب بالشبانِسي يشتغل في الفلسفة ويكتب فيها، فاجتمع حوله رهط من طلبة العلم الشباب. وكان مما راج من كتاباته «فصل في رفع التعارض بين الحكمة والشريعة والمعقول والمنقول»، أثبت فيه لأفلاطون وأرسطو طاليس فضل إخراج الناس من الحيرة واللبس بما جاءا به من الحجج والدلائل والبراهين العقلية في إثبات الربوبية والخلق وإبداع العالم من غير شيء ثم فنائه، وما يلحق بذلك من مبادئ الطبيعة. فكان من الطبيعي أن تثور ثائرة الفقهاء والوعاظ الذين رأوا في كلامه ما يعني افتقار الدليل الشرعي إلى الدليل العقليّ الذي لولا ما جاء به منه الحكيمان العظيمان لبقي الناس في حيرة ولبس!

وبالطبع لم يكن من الصعب إثارة العامة التي كانت تنفر من هذه الآراء وتراها ضرباً من ضروب الزندقة كما يصفها فقهاؤهم ووعاظهم. وقد استغل القاضي عبدالملك بن منذر وأصحابه هذه الأجواء المشحونة في معرض تحريضهم على العهد الجديد، وعلى الحاجب ابن أبي عامر المتهم أصلاً بالميل إلى هذه الآراء والحجاج بأمثالها مذ كان طالب علم في جامع قرطبة.

كان ابن منذر قد نجح في استمالة عدد من وجوه البلد الناقمين فواطأوه على خططه وتدبيره لخلع هشام المؤيّد وإبطال البيعة له، والتخلّص من أبي عامر وأم هشام.

ثم اجتمع رؤساء المؤامرة.. بالفتى جؤذر الصقلبي الذي كان أشدّ الفتيان نقمة على ما أصابهم. وامتد حقده إلى الخليفة هشام الذي صرفه من الخدمة بطريقة مهينة. واستشهده ابن منذر أمام الحضور على

العلاقة بين أبي عامر وصبح، وهو المطلع على أسرار القصر ودواخله. فلم يتردّد في القول إن عشقها لم يكن ليخفى على أحد من ساكني القصر، وبها علا واستكبر واغتصب السلطان من أهله، حتى وافقته على تعطيل الخليفة لكي يخلص لهما الأمر. واحتج ابن المنذر بتلك الشهادة على بطلان البيعة لهشام بسبب إبطال أبي عامر وصبح لأثرها ومقصدها. ثم قال:

- والآن، وقد سمعتم وظهرت لكم البيّنة، فقد قامت عليكم الحجة عند الله. فإن سكتم فشياطين خرس. فما أنتم فاعلون؟

أجاب أحد الحضور:

- ما نفعل وليس بيدنا شوكة؟

قال ابن المنذر:

- عندكم شوكة اللسان أولاً.. نحرّض العامة، فإنهم يكرهون ما نكره. فإذا دعوناهم بعد ذلك إلى الخروج بالسلاح فعلوا. ومنهم كثيرون من متطوعة الصوائف والشواتي الذين خبروا القتال في الثغور. فإذا رأت مشيخة بني أميّة أن الناس قد ثاروا بأبي عامر ذهب عنهم الخوف، فدعوا إليهم مواليهم بمن معهم من أهل السلاح. والناس كما تعلمون كلهم يدينون بالولاء لبني أميّة. ولا يرضون بتعطيل خلافتهم. وأخيراً فإن الفتيان الصقالبة الذين طردوا من الخدمة، ما زالوا في البلاد. ومنهم أهل السلاح وحرس الحكم المستنصر رحمه الله.

دندن الحضور بالتأييد، حتى تدخل جؤذر بالكلام:

- لا تتعجّلوا إلى دعوة السلاح حتى تسمعوا مني خبراً.

اتجهت الأبصار كلها إليه تستطلع المزيد، فقال:

- أعني، لا تدخروا جهداً في تهييج العامة والتوطئة لمقصدكم. ولكن، ربما استطعت أن أكفيكم بقية الأمر. ولا تسألوني كيف ومتى؟

فقط أمهلوني شهراً، وإلّا فامضوا في خطتكم. وكما قلت يا سيدي القاضي، فنحن فتيان الحكم ما زلنا نقيم على طلب الثأر. وما زال لنا في الزهراء أيادٍ خفية ونحن أدرى الناس بمداخل الزهراء ومخارجها وأنفاقها ودهاليزها.

* * *

فوجئ محمد بن أبي عامر بصاحبي السوق القديمين: مالك وطريف، يستأذنان في الدخول عليه. ولما لقيهما أقبل مرحِّباً بحرارة. انحنى كل منهما له وخاطبه بمقامه: سيدي الحاجب. فقال منكراً:

- أبو عامر.. أبو عامر.. ما زلت أبا عامر الذي تعرفانه.

ثم استدرك بصوت خفيض مداعباً:

- طالما أننا وحدنا!

تنبه إلى أن مالك يحمل طبقاً مغطّىً بخرقة نظيفة، فقال:

- ما هذا؟ أرجو أن تكون فطائر الجبن التي تجيد زوجك صنعها.

أجاب مالك متبسطاً:

- هي والله.. لا تخفى على فطنتك.

- بل لا تخفى على شهوتي.. تعال ضعها هنا.. لا أصبر عنها حتى أخلو بها.

بدأ محمد في تذوقها متلذّذاً وقال:

- أم م م.. لم تفقد زوجك مهارتها.

- لا تجيد غيره.. تلك المرأة!

- من أجاد هذا فقد كفى ووفى.

- وقد أمرتها أن تعتني بخَبْزها قلت لها: هي للحاجب أبي عامر.. ولم تصدّقني.. قعدت تضحك وتقول: لا تَدُر بين الناس تحدّث بها فيحسبوك أحمق.

توقف محمد ونظر إليهما وقال:

- ما بكما تقفان هناك تنظران إليّ.. هيا طاعماني.

قال مالك:

- لسنا جائعين. أليس كذلك يا طريف؟

هز طريف رأسه موافقاً، فصاح بهما محمد:

- بل والله لتطاعماني أو لأُمْسِكَنّ.

قال مالك:

- أيأكل الرجل من هديته؟

- قد صارت لي وأنا أدعوكما. والامتثال خير الأدب.

أخذا يتناولان من الفطائر ببطء وحرج. وبعد هنيهة قال محمد:

- هاه! كيف حال الناس؟ أحب أن أسمع عن أحوالهم ممن يخالطونهم ليلاً ونهاراً. فإن كانت عندهم شكوى سعينا في رفعها.

تبادل مالك وطريف نظرة خاصة تنبئ عن شيء ما يحوك في صدريهما ولحظ محمد ذلك. ثم قال مالك:

- يدعون لكم بالخير يا أبا عامر، ويذكرون مآثركم.

لم يخف على فطنة محمد أن لهجة مالك توحي بأن قوله ذاك مقدمة متلطفة لأمر آخر يفارق المعنى، فقال:

- ولكن.. !!

أُرتج على مالك وبدا عليه التردد والحرج، ولم يجد إلا أن يردّد:

- ولكن، ماذا؟

قال محمد:

- نبرة صوتك توحي بأن ثمة ما يعتمل في صدرك وتحجم عنه. فقل، فإن النصيحة واجبة شرعاً.

قال مالك وهو يغالب الحرج:

- كلام يتقوّله بعض الحاسدين من ضعاف النفوس.

قال محمد مشجِّعاً ومستزيداً:

- نعم!

- عن عنايتك بالفلسفة.

- وأي بأس في ذلك؟

- بعض المشيخة يعلِّمون الناس أن الفلسفة.. زندقة!

- كذبوا. فيها الحسن والقبيح، والصواب والخطأ، والغث والسمين. ونزن ذلك بميزان الشرع.. وحَجْبُ العقل أدعى إلى المفسدة. وما يقولون أيضاً؟

توقف مالك عن الأكل، وقد بدا عليه المزيد من الحرج والتردد. فقال محمد مشجّعاً:

- لن تخفي عن صاحبك شيئاً تعلمه!

- اعفني منه يا سيدي.

- بل عزمت عليك. وما جئتماني اليوم إلّا لتفضيا إليّ بما شقّ عليكما من كلام المبغضين، حبًا ووفاءً لصاحبكما القديم. والظنّ عندي أنكما دخلتما في مشادّات وأنتما تدفعان عني.. فلا تكتماني شيئاً.

- كلام يجرح الأعراض.

توقف محمد عن تناول الطعام، وانقبض وجهه انقباضاً شديداً. وهنا تدخل طريف لأول مرّة في الكلام بأسلوبه العفوي الساذج:

- وهناك شعر يتداوله الزُعّار.

التفت مالك من فوره إلى طريف وحدجه بنظرة تأنيب رادعة، فأطرق رأسه خجلاً. وقال مالك:

- نعلم إنه كذب وافتراء وبهتان يا سيدي.

قالها بنبرة تشي برغبته في تأكيد الكلام من محمد الذي قال:

- بالطبع هو افتراء وبهتان.. ولكن من هؤلاء الزعّار الذي يشيعون هذا عنا؟

آثرا الصمت. واستأنف محمد قائلاً:

- تعلمان أن الشائعة لها صانع ولها سامع. أما السامع فعليه إثم التصديق بنبأ الفاسق قبل أن يتبيّن بالدليل القاطع. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات:6] وإن كان النبأ خوضاً في الأعراض فعلى من يقوله بغير البيّنة الشرعية، إثم قذف المحصنات الغافلات. وأما صانع الشائعة زوراً وبهتاناً فعليه إثم البهتان، وهو عند الله عظيم. فإذا كان في السلطان فهو تحريض على وليّ الأمر ومكر الليل والنهار ودعوة للفتنة من أصحاب المطامع. والفتنة أكبر من القتل، هل تعيان قولي؟

هزا رأسيهما، وقال مالك:

- أغضبناك يا سيدي؟

- أغضبتماني؟ بل أنا لكما من الشاكرين. وقد قضيتما بذلك حق الصحبة. أليس الدين هو النصيحة؟ وإني أدعوكما أن يفتح كل منكما عينيه، وينصت إلى ما يقوله الناس، ثم تعودا به عليّ لأتدارك عمل المفسدين، حفظاً للسلطان ودرءاً للفتنة. وبذلك تكونان قد أديتما خدمة جُلّى للدولة وللأمّة ولصاحبكما، لكم عليها ثواب الآخرة إن شاء الله، وحسن الجزاء في الدنيا..

ثم قام إلى صندوق فاستخرج منه صرّتين، قدّم واحدة لكل منهما قائلاً:

- استعينا بها على حوائجكما، ووسّعا على أهلكما.

قال مالك وهو ينظر إلى الصرّة:

- ليس للصحبة ثمن يا سيدي، ولا للنصيحة الواجبة.

- معاذ الله أن تكون هذه ثمن الصحبة والنصيحة. ولكنها الهدية التي يتهادى بها الأصحاب والأحباب. ألم تُهدني فطائر الجبن التي قطعتها من زاد عيالك؟ وفيها جهد زوجك.. فهي عندي أحسن من المال كلّه. هيّا.. لا تردّا هدية صاحب قديم، وإلّا قلت قد انصرف عنا أصحابنا وظنّوا بنا الظنون.

* * *

كان قد تأخر عن لقاء صبح على غير العادة حتى دعته بنفسها هذه المرة.

وفضلاً عن شوقها الدائب للقائه، فقد كانت حريصة على أن يشركها في الرأي والتدبير لدولة ولدها، إلى أن يبلغ سن الرشد. ولما التقته أخيراً في مجلسها المعتاد في حدائق القصر، ابتدرته بالقول:

- أطلت غيبتك عنّي يا أبا عامر. أهو طول الحزن على القديم الفائت، أم طول الأُنس بالجديد الحاضر؟

عنت بذلك الحزن على فراق عائشة، والأنس بأسماء. أجاب وهو يومئ بنظره إليها:

- قديمي جديد أبداً. على أن أعمال الدولة كثيرة لا تنتهي.

قالت بنبرة متأنيّة:

- دولة ولدي.

- وأنا أحمل أمانتها. والأمانة ثقيلة.

أرسلت إليه نظرة متفحّصة:

- هذا فقط؟

- و.. ذبّ المقالة.

- تعني أنا وأنت من جديد؟

- ألم أقل: قديمي جديدٌ أبداً؟

- حتى بعد أن تزوجتَ ابنة الناصري على ما فيها من صباً وجمال مشهور؟

- الخصوم لا يكفّون، وإن جئناهم بكل بيّنة. وسلاح النذل بث الأراجيف.

- من بقي من الخصوم بعد نكبة المصحفيين؟

- كلما ارتفع قدر الرجل وزاد عمله، كثر خصومه مثلما يكثر محبّوه. ذلك قدر السلطان..

واستدرك على نفسه بسرعة:

- سلطاني من سلطان من أحمل أمانة دولته.

نفخ واستأنف:

- رجال جعلوا أنفسهم سدنة الدين وحجّاباً على جنة الله، يدخلون من شاؤوا ويطردون من شاؤوا.. لم يكفهم اتهامي واتهامك، حتى بدأوا يطعنون في عقيدتي.. يقولون: يعكف على كتب الفلسفة، ويقول بأقوال أصحابها.

- ألا تفعل؟

- الحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحقّ بها.. الحكمة بهذا المعنى مسلمة وإن كان مصدرها غير مسلم، إلّا أن تخالف معلوماً من الدين بالضرورة. وقد كان الحَكَم رحمه الله يستجلبها، فلم يُرجفوا به وبدينه فلماذا يختصونني؟

قالت بنغمة السؤال الذي يبطن التقرير:

- هل يمكن أن يكون السبب أنك لست الخليفة، وإن كنت صاحب الدولة ومدبّر السلطان باسم الخليفة؟

حدّق فيها متفحّصاً، ثم قال:

- ربما. فبقدر ما يحب الناس رجلاً خرج من أوساطهم فأصلح شأنهم، فإن نفراً منهم يَنْفُسُه ما ارتقى إليه. وقديماً كان في الناس الحسد.

* * *

في يوم خريفي غائم، أصبح الناس على منظر تقشعرّ له الأبدان: رأسان مرفوعان على رمحين منصوبين على سور الزهراء. وتبيّن للناس أنهما رأسا جؤذر والقاضي عبدالملك بن منذر! ثم خرج الخبر بأن الرجلين قد ائتمرا لقتل الخليفة هشام غيلة في قصره، لولا أن أنجاه الله.

بعد أن خرج المؤتمرون من بيت جؤذر، خمّن القاضي ابن المنذر أن خطة جؤذر قد تكون اغتيال ابن أبي عامر ثم الحجرُ على الخليفة والإعلان بخلعه وتولية أحد أعمامه بعد استدعاء ابن المنذر وأصحابه الفقهاء المتواطئين للإفتاء بذلك. ولكن، لم يخطر له إطلاقاً أن خطته كانت اغتيال الخليفة هشام نفسه. ففضلاً عن حقده الشخصي على الخليفة الذي أعفاه من عمله بطريقة مُذِلّة مهينة، كان يدرك أن الوصول إلى ابن أبي عامر أمر شديد الصعوبة لما يحيطه من حرس بني برزال. أما هشام المؤيّد فالانفراد به أهون، وهو لا يتحوّط لأنه لا يجلس للناس ولا يباشر الحكم بنفسه فيهون الوصول إليه على حين غرّة في جناحه أو في حدائق الزهراء في أثناء تجواله فيها حيث لا يصحبه في العادة إلا خادمه ابن عمروس. فإذا تمّ الأمر، أسرع القاتل إلى الدهليز الذي يفضي إلى خارج الزهراء، قبل أن يتنبه الحرس وأهل القصر. وكان جؤذر قد تواطأ مع اثنين من فتيان القصر لينهضا بالمهمّة، وأغواهما بمال وفير. وكان أحدهما ممّن يتناوبون مع آخرين من أهل الخدمة على الجلوس أمام باب حجرة هشام حين يكون فيها. وبذلك يستغل الآخر نوبة صاحبه ليتسلل إلى حجرة هشام في جوف الليل حين يكون غارقاً في نومه.

ولكن الأمور لم تجر على نحو ما أراد جؤذر.

فحين تسلّل القاتل إلى الحجرة في الظلام، إلّا من ضوء فانوس خافت، ورفع الغطاء وأهوى بخنجره في الوقت نفسه، لم يجد إلّا حشايا تحت الغطاء. وما هي حتى أطبق عليه عدد من الحرس الذين خرجوا من العتمة فصرعوه أرضاً وجردوه من خنجره. ثم جرّوه إلى حيث ينتظر محمد بن أبي عامر في إحدى صالات القصر مع الخليفة هشام. وهناك عرف الخائن أن صاحبه قد وشى به وبجؤذر عند أبي عامر قبل إتمام المهمّة. فقد غلب عليه الخوف من العاقبة، وظنّ أنه ينال بإفشاء السر وإنقاذ الخليفة أكثر مما ينال من جؤذر. وقد كان.

لم تكن صبح على علم مسبق بمؤامرة الاغتيال بعد أن علمها ابن أبي عامر، ولا بالتدبير الذي رتبه مع هشام للإيقاع بالخائن، حتى تم ذلك. فهرعت مهرولة إلى الصالة حيث يوجد ولدها مع أبي عامر. ولما دخلت ركضت نحو ولدها وضمّته إليها وهي ترتجف وتغمغم باكيةً:

- فداكَ نفسي يا ولدي.

تفلّت منها هشام، فقد شعر بالحرج أن تضمّه أمّه كطفل صغير أمام أبي عامر وهو الخليفة، وقد أتمّ الآن الخامسة عشرة من عمره. وبدا رابط الجأش لم تهزّه الواقعة. وضعت صبح يديها على كتفيه وقالت:

- كيف لم تخبرني قبل هذا وأنت تعلم به؟

تراجع عنها خطوات وقال بنبرة موحية وهو يلتفت إلى أبي عامر:

- ظننت أن أبا عامر قد أخبرك. ألا يفعل دائماً؟

التفتت صبح إلى أبي عامر لأول مرة منذ وصولها وأرسلت إليه نظرة مشوبة بالعتاب. فقال:

- إنه بخير.. أليس كذلك؟ لن يصل إليه أحد بسوء وأنا حيّ أُرزَق.

* * *

على الرغم من عِظَم المؤامرة التي كادت تودي بهشام في مأمنه، ومعه أبو عامر وكل ما حققه حتى تلك الساعة، لم يكن هذا ليفرّط بالفرصة التي أتاحها له الحادث الجلل ليحكم قبضته على الزهراء ومن فيها. فجمع قادة بني برزال وكبير فتيانه سكّر ومعه عدد من صقالبته الفحولة والخصيان وكبار حرس القصر وأهل الخدمة. وأمر بأن يضاعف الحرس على جميع مداخل الزهراء ومخارجها، ولا سيما قصر الخليفة، وألّا يستأذن أحد على الخليفة إلّا من خلاله وحده دون غيره. وحتى لو بادر

الخليفة فدعا أحداً إليه، فلا يدخل عليه حتى يأتي أبا عامر أولاً فيجيزه بخاتمه، ثم يصحبه حرس إلى الخليفة فلا يبارحون حتى يخرج من عنده. ولا يخرج الخليفة من قصره إلى أنحاء الزهراء حتى يصله العلم بذلك ليتعهد حفظه ويعلم أنه في أمان وأن أحداً لن يتوصّل إليه برقعة أو مسألة إلّا في علم أبي عامر ونظره. أما خروجه من الزهراء نفسها فلا يتمّ إلّا بأمر أبي عامر وتدبيره.

* * *

أثارت تدبيرات أبي عامر الجديدة المشدّدة مزيداً من القلق والتساؤل في نفس صبح. ووجدت نفسها محيّرة بين دواعي حماية ولدها من غائلة الخصوم بعد الذي كان من أمر جؤذر، وخشيتها من عواقب حجبه. فقالت لأبي عامر:

- أخشى ألا تحميه إلّا بقدر ما تخفيه.

قال بعزم:

- أبعد الذي جرى عليه؟ نعم أحميه بكل الطرق، وأخفيه عمّن يريده بسوء حتى يبلغ السنّ التي لا يطمع معها أحد في اغترار ه.

- وكيف يتدرّب على الحكم؟

- وهل نبرم أمراً كبيراً حتى نراجعه فيه ويخرج به كتابه؟

- الذي نكتبه له قبل عرضه عليه!

قال بنبرة تنمّ عن ضيقه:

- فما الرأي عندك!

ثم استدرك بلهجة أكثر تلطفاً وتودداً وهو يبتسم لها:

- وأنت بعد السلطانة، وأمّه، وتلزمينه الليل والنهار. وهل يطمع في معلم أفضل من الأصل الذي نبت منه، ولكِ من العقل والحكمة ما لو كان لبعض الرجال لملكوا ما تحت أقدامنا، مع ما للرجال من أسباب أخرى كثيرة لا تكون للنساء.

ردّدت بنبرة تأمّلية كأنها تهمس لنفسها:

- مع ما للرجال من أسباب لا تكون للنساء! حتى أم الخليفة!

أخذ يرمقها وقد ذهبت في التفكير. ثم التفتت إليه، ومشت نحوه حتى صارت أمامه وجهاً لوجه، وتحدثت هذه المرة بلهجة قوية واضحة:

- أنصت يا محمد! نحن ثلاثة.. أنا، وأنت، وولدي الخليفة.. و.. نعم أحببتك حباً لا مزيد عليه، وكابدت فيه مكابدة من عليه أن يغالب شوقه العظيم بإرادة لا تقل عن عِظَم شوقه. وهي حرب كنت فيها الغالبَ والمغلوب.. القاهرَ والمقهور.. العاشقَ والمحروم. فهي شهادة لي على الوجهين، لا شهادة عليّ، وإن تخرص بعض الناس فيّ وفيك ما قالوا.. وهل تدري؟ لا يهمّني أن يقال أحبّته.. فإن الحبّ الصادق الذي تصونه العفّة خبر عظيم، حقّه أن يتغنى به الشعراء والمنشدون، لا أن يطعن فيه المرجفون.. ولكن الذي يضرّني حقاً أن يقال: خَبَل حبها له عقلها وأضعف رأيها وصرفها عن كل شيء حتى ولدها. فلا والله ما كان الأمر كذلك، ولا يكون. وأنا والله ما أحببتك ذلك الحب العظيم الموصول غيّاً وافتتاناً بشبابك ومظهرك، وإنما لأني وجدت معه عقلاً عظيماً وموهبة سابقة وإرادة لا تضعف.. وجدت فيك شبهي! إلّا أنك رجل وأني امرأة.. نعم، لا تعجب! شبهي! ورجوت أن ترى بي مثل الذي رأيت فيك.. ليس الوجه الحسن حسب، ولكن عقلاً كعقلك، وموهبةً كموهبتك، وإرادة كإرادتك، وقلباً كقلبك.. ثم نظرت فوجدت شبهاً آخر.. كلانا من منبت غير منبت السلطان.. أنا سبيّة جارية مملوكة، وأنت فتى قادم

من الريف ليس معه إلّا حلمه وموهبته.. فالتقى الماء على أمر قد قُدِر.. ولم تتآلف القلوب حتى تآلفت العقول والإرادة والغاية: السلطان! نعم، ولا حرج.. السلطان.. شركةٌ بيننا.. ولدي الخليفة، وأنا وأنت حواليه.. وكل منا في حاجة الآخر.. ولدي صبيّ يحتاج تدبيري حتى يكبر، ثم أكون معه وله عوناً ورِدْءاً، وأنا أولى به. وأنا في حاجة ولدي الخليفة ابن الخلائف. وما كان لي أن أبلغ شيئاً من السلطان مهما تكن مواهبي بغير سبب الزوج والولد. وأنا وولدي في حاجتك، لأن ولدي صبيّ، وأنا لا أملك أن أبرز بنفسي في مجلس الحكم فأصرّف الأمور. وأنت في حاجتي، إذ فتحت لك الأبواب التي كان يحجبها عن مثلك الموالي والفتيان ومن ورثوا مراتب آبائهم، فسعيت أن أنزل مواهبك منازلها التي لا تظهر إلّا فيها. ومآل ذلك كله عزة البلاد وصلاح أحوال العباد. فكلٌّ يصيب من تدبيرنا مناله: ولدي الخليفة، أنا صبح البشكنسية.. أنت محمد بن أبي عامر.. والأندلس. هذا هو التدبير، وتلكم هي الغاية. ويحيطها حب عظيم يُلْهِم ولا يُبْطِل، يعجّل بنا ولا يبطّئ.. يُمكّن ولا يُعْجز.. حب الأكْفاء الأنداد. فلا يأتي بعد ذلك زمان يقال فيه: بَذَلت له الدولة وصاحبها لأن الحبّ أعماها عن كل سبيل! هل تفهمني يا محمد! هذا حب عظيم.. حب سلطانةٍ تملك نفسها وإرادتها وعقلها!

لأول مرة، بعد أن فرغت من كلامها المتدفق، تغادر المكان قبل أن يغادره، وكانت قبل ذلك تتلبث خلفه حتى تشيعه بأنظارها. وقد تُسرع إلى المنظرة، بعد خروجه، لتلاحقه ببصرها في الساحة حتى يغيب، وقلبها في أثره. أما هذه المرة فبقي في مكانه بعد خروجها يفكّر في كلامها. وكانت في العادة هي التي تعبر عن انبهارها بحديثه، ولكنه الآن هو الذي غمرته الدهشة من قوة حديثها وروعته وبلاغته، بقدر ما بعث في نفسه القلق. وكان قبل الآن يرى نفسه وإياها واحداً في الحب والموقف والتفكير، حتى ليكاد أن يتعامل معها بوصفها أمراً مُسلَّماً به. أو شطراً من

نفسه. أما الآن فقد نبهه كلامها إلى أنها إنسان مستقل بذاته ورأيه، فإذا توحّدا فبالخيار منها ومنه، ومن يملك خيار التوافق يملك خيار الاختلاف! وعليه منذ الآن أن يراها بعين أخرى: الحبيب الندّ المكافئ. وهو ما يزيده إعجاباً بها وتقديراً لها، ومع الإعجاب بالحبيب الفذّ يكون هاجس القلق واهتزاز الشعور بالأمان واليقين.

* * *

لم تكن صبح وحدها من راودتها الهواجس من تدابير ابن أبي عامر الصارمة وما تنذر به من بوادر الجنوح إلى البطش والاستبداد. فقد غدا عمرو شديد القلق بعد الدماء التي سُفِكت حتى الآن: المغيرة بن الناصر، ثم هشام المصحفي. وأخيراً جؤذر الصقلبي وعبدالملك بن منذر. وكل ذلك في وقت قصير، هذا عدا نكبة سائر المصحفيين وآخرين من دونهم بالسجن واستصفاء الأموال. وقد كان يعلم أن كلًّا من هؤلاء قد استحق العقوبة لجرم عظيم، ولكنه كان أميل إلى تجنب العقوبة القصوى بالقتل. ويرى أن الدم يستدعي الدم، فإذا تكاثر الخصوم، ازداد السلطان تحوّطاً فاستكثر من الحرس والعيون، وأخذ بالشك والظنّة، حتى يحتجب عن الناس ويعطّل الشورى وينفرد بالرأي. وإذا كانت سِيَر السلاطين حافلة بمثل ذلك، فإنه لا ينبغي لرجل مثل ابن عمّه صعد من أغمار الناس وهو يحمل همومهم ويطلب حقوقهم، وكان يكثر الكلام عن الشورى التي جعلها الله قرين الصلاة ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم﴾ وكان يقول: لئن تخطئ الجماعة في الرأي خير من أن يصيب الفرد، فإن الفرد إذا أصاب مرّة أخطأ مرات، ثم احتمل إثم ذلك وحده عند الناس، فيكثر مبغضوه ويتربصون به الدوائر، أما الجماعة فيهون أن ترجع عن الخطأ دون أن يُتَّهم فرد منها، وإنما يردّ الأمر إلى الاجتهاد.

ولكن محمد بن أبي عامر لم يكن لتعجزه الحجج مع ابن عمّه، فصاح مدافعاً عن نفسه:

- ماذا أفعل إذا كان هؤلاء جميعاً يسفحون دماءهم على بابي وصدري ويديّ على الرغم مني؟ هل أعطيهم دمي لأحفظ دماءهم؟ أم أنزل عمّا بيدي لهم ليفسدوا في الأرض ويهلكوا الحرث والنسل؟ لا ورب الكعبة.. قد بلغت موضعاً لا رجعة فيه، فإني إن رجعت وخرجت من شوكتي هلكت وهَلَكتْ معي البلاد والعباد. فإن كان لا بد واقتضى حفظ السلطان والبلاد مناجزة عدو وراء الثغور، وعدو داخل البيت، فلأقسمنّ وقتي وجهدي في حرب هذا وذاك حرباً لا هوادة فيها. فالحزم سياج العدل، والرحمة في غير مقامها تفريط. وإنك إذ تغلظ العقوبة في واحد، تردع عشرة آخرين أو أكثر، كانوا يهمّون بمثل ما فعل. فتكون قد صنت دماءهم إذ صنت نفسك ودولتك. وهؤلاء جميعاً لم يكونوا معي حين أهدفت صدري لسيوف الصقالبة، ثم أهدفته لرماح الجلالقة، ثم أسهرت ليلي وأظمأت نهاري في قمع الشرور والفساد وتأمين الرعية في الأنفس والأموال والأعراض حتى صارت الجارية الصغيرة تمشي في جوف الليل لا تخشى على نفسها. وأخذت من القوي حق الضعيف، ولم أبال بحسب أو نسب. فماذا يريد هؤلاء منّي؟ فوالله ما قَصَدوا الخليفة إلّا ليبلغوا مني. ولكن الله أفشل تدبيرهم وردّهم إلى نحورهم. فلا تأس على القوم الظالمين.

* * *

لم يكن محمد بن أبي عامر يحاجج عن نفسه لمحض التسويغ ودفع التهمة، ولكنه كان مقتنعاً أشد الاقتناع بذلك. ورأى أن استباق العلم بما يدبّره الخصوم أدعى إلى إفشال تدبيرهم قبل أن يشرعوا بإنفاذه، ودرهم وقاية خير من قنطار علاج. ولذلك قرّر أن يعمل على خطة أخرى جمع لها نخبة من أهل ثقته، وخطب فيهم قائلاً:

– قد علمتم ما وقع من الشقيّ جؤذر لأمير المؤمنين. ولولا لطف الله لكانت طامّة عظمى. ولو تناهى إلينا خبر الخونة وتدبيرهم قبل الشروع فيه، لتداركناه في موضعه. فقد صار من أوجب الواجبات لحفظ الدولة والخلافة أن ننشئ خطة غير خطط الجيش والشرطة.. خطة للعيون. تَرى ولا تُرى. نبثّها في كل حيّ ورَبَض، وتتخيرون لها من عامة الناس من تختبرون كفايته: رجالاً يحسنون الكتمان، ولا يحبّون الظهور والتفاخر بقوتهم فَيَشوا بعملهم، حَفَظَةً ثقات لا يخرمون شيئاً مما يشاهدون ويسمعون. ويكون أمرهم إليكم، وأمركم إليّ دون وسيط. فإذا كان في أخبارهم ما يقتضي التعجيل إلي، طرقتم بابي في ليل أو نهار. وإن كان مما يتأخر، فيعرض عليَّ في آخر كل شهر، ويُقدّم الأهم على المهم. فإذا ورد الخبر من ثلاثة طرق منفصلة صار مرجّحاً. فإنهم لا يتواطأون على الكذب.. ولكن.. الحذر الحذر من أن يستغل أحد العيون هذا الواجب، فيستعمله لغرضه ويظلم به بريئاً. فإذا وقع ذلك وتبيّن لي أخذته أخذاً لا رأفة فيه. واعلموا أن الغرض من عملكم هذا درءُ المفسدةَ قبل وقوعها، واتقاء الشرّ قبل انعقاده. وإذا خرجتم من عندي فلا تفضوا بشيء من عملكم هذا لأحد من العالمين مهما تكن منزلته عندي، بل العيون على الجميع دون تفريق. فإن الصاحب يمكن أن ينقلب خصماً وعدوّاً. واهتموا بكل من يدخل الزهراء ويخرج منها دون أن يشعر بكم.

* * *

بعد تلك التدابير الصارمة التي أخذها محمد بن أبي عامر لنفسه، رأى أنه قد آن الأوان لأن يتنازل عن شيء لخصومه، يسكت به ألسنة الشيوخ المتزمتّين ويستجلب رضاهم، ومعه رضا العامة التي تنصت إليهم. فأصبح أهل قرطبة على مشهد غريب في ساحة المدينة: أكوام من كتب الفلسفة وأهل الكلام تُضرم بها النار، بحضور عدد

من كبار الفقهاء، على رأسهم الفقيهان الزبيدي وابن ذكوان. وصاح الزبيدي في الناس:

- يا أهل قرطبة. قد دعا الحاجب محمد بن أبي عامر أعزّه الله نفراً من جلّة المشيخة والفقهاء، وأنا بينهم، لينظروا في كتب المكتبة الأموية، ويستخرجوا ما يجدون فيها من كتب الفلسفة مما يقع فيها الكلام ويدندن حولها بعض الناس. وها هي أمامكم بجملتها، لم نغادر منها كتاباً وجدناه بعلمنا ونظرنا. فقد رُفِعت الحجة، وبلغ أصحاب السلطان عذرهم. فمن خاض فيهم بعد ذلك فقد ظلم وعدا وبَهَت. ولن يجد مني ومن جلّة المشيخة نصيراً. وقد بلّغت. اللهمّ فاشهد.

سمع صوت من بين الحشود يصيح:

- وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً. هذا مآل الزندقة.

ارتفعت أصوات أخرى بالتكبير.

ولكن الحشود لم تخل من بعض طلبة العلم الشباب الذين ساءهم ذلك المنظر، فانصرفوا يهزون رؤوسهم أسفاً، وقد علموا أن الحاجب لم يأمر بذلك إلّا استرضاءً للعامة ودفعاً للتهمة. وكذلك السياسة إذ تصطدم مقتضياتها بثمار العقول.

وكما انتقد عمرو شدة أبي عامر وتدابيره الصارمة، فقد تهكم بخضوعه لمطالب المتشددين بحرق كتب الفلسفة، ورأى في هذا وذاك إفراطاً.

فقال محمد ضاحكاً:

- كنت ترميني بالشدّة، والآن ترميني بالتراخي.. ولكل مقامه. ماذا أفعل وفي العامة سمّاعون لهم. وقد تقضي السياسة بصنع ما نكره،

طلباً لما نحب. فندرأ الضرر الأكبر بالضرر الأصغر.. نرفع عنا ذرائعهم وحججهم، فإذا مضوا في غيهم بعد ذلك ولم يمسكوا عن التحريض، أخذناهم أخذةً شديدة، دون أن يجدوا لهم في الناس نصيراً.

ثم قاد عمرو إلى مكتبته الخاصة في قصره، وأشار إلى كومة كبيرة من الكتب وقد لاحت على وجهه ابتسامة ماكرة. وحين دقق عمرو فيها النظر، وجدها جميعاً من كتب الفلسفة التي انتقاها بنفسه من المكتبة الأموية وأمر بحملها إلى قصره، قبل أن يصل جلّة الفقهاء إلى المكتبة الأمويّة ليستخرجوا منها بأنفسهم كتب الفلسفة التي تم بعد ذلك حرقها!

التفت إليه عمرو مبتسماً. وقال محمد:

- يمكرون ونمكر كما يمكرون. فنفوز بحاجتنا، ونعطيهم حاجتهم. وبذلك يعتدل الميزان.

الزاهـــرة

حين خرج محمد بن أبي عامر في موكب خاص إلى البر لم يكن مرافقوه على علم بغرض الخروج، وإن تساءلوا في أنفسهم عن السبب في وجود عدد من المهندسين والبّنائين معهم، حتى توقف محمد عند الموقع الذي توقف عنده الحكم المستنصر في إحدى نزهاته، فذكر أن أحد العالمين بالحدثين كان قد أشار إلى هذا المكان وأنبأ أن رجلاً من غير بني أمية سيقيم فيه مدينة ملكية تحاكي الزهراء وتعطّلها. وكان من بين رفقة الحكم آنئذٍ الوزيران ابن حزم وابن شهيد اللذان خرجا الآن في صحبة محمد ووقفا معه على ذلك الموضع، ومعهم عمرو وعليّ وإبراهيم. بعد هنيهة من النظر والتأمل أشار محمد إلى المكان إشارة استعراضية وقال:

- هنا.. هنا نبني الزاهرة إن شاء الله.

اتجهت إليه أنظار الجميع مستطلعين. ثم تجرأ عمرو على سؤال كان يتوقع جوابه:

- ما الزاهرة يا أبا عامر؟

- ألا ينبئك الاسم؟ الزاهرة.. نظير الزهراء!

همس ابن شهيد لابن حزم:

- تذكر كلام الحكم رحمه الله في هذا المكان؟

هز ابن حزم رأسه وقال:

- ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا رادّ لحكمه. والسعيد من رأى إقبال السعد على من قدره الله له فأقبل عليه يتعرّض للسعد معه.. والشقي من رأى فعاند!

قال ابن شهيد مبتسماً:

- صدقتَ، فأقْبِل وأُقبل معك!

لم يرق ذلك لأصحابه الثلاثة: عمرو وعليّ وإبراهيم. فصمتوا حتى اختلوا به. وهذه المرّة كان إبراهيم أسرعهم إلى التعبير عن اعتراضه. فكيف تكون زاهرة مع الزهراء، دار الخلافة، تُنقل إليها خطط الدولة ودواوينها، إلّا أن يكون معنى ذلك تعطيل الخلافة وحجب الخليفة، والاستبداد بالسلطان؟ والعامة لن ترضى عن خلفائها الأمويين بديلاً. فما تلبث أن تنقلب مشاعرها عليه. وما يقولون في نفقة ملكية جديدة من مال غير موروث. وذكّره بأن العامّة أشدّ حكماً على الرجل الذي صعد من أوساطها إلى سدّة الحكم، ثم جرى على سنّة الملوك أبناء الملوك في رسوم السلطان ونفقته.

أيّده عمرو وعليّ بقوة. ثم ذكّره عليّ بكلامه القديم أيام كانوا في تلك الغرفة التي ربما تعسّرت عليهم أجرة كرائها أحياناً، وكيف كان محمد يتهم ترف المترفين، حتى إنه حين أنفق الحكم المستنصر ما أنفق في وجوه الخير أول خلافته تساءل: ما ثروة السلطان ينفق من خاصة ماله كل ذلك لمال، ثم يبقى أغنى الناس؟

لم تُجْدِ نصائح الأصحاب الثلاثة. وكالعادة لم تكن لتعوزه الحجج. فالمآثر العمرانية تبقى بعد ذهاب أصحابها إرثاً للأمّة وشاهداً على عظمتها، وسجلاً لتاريخها، وشهادة لمن قيّضهم الله لإعمارها. ثم إنّ الزهراء لم تعد آمنة بعد الذي كان من أمر جؤذر وابن المنذر. وتشديد حراستها والزيادة اللازمة في ضبط الدخول إليها، مع وجود دواوين

الدولة وخططها، كل ذلك يعطل أعمال الدولة. أما انتقال ذلك كله إلى المدينة الجديدة فأدعى إلى أمن الزهراء وأمن الخليفة وألا يتوصل إليه من يمكن أن يغرّه عن نفسه وهو ما يزال فتىً غرّاً.

كانت صبح أشدّ اعتراضاً. وحين ساق لها حجته في حماية الخليفة دون تعطيل عمل الخلافة صاحت:

- كيف تحمي الخليفة حين تصرّف أعمال الدولة بعيداً عنه.. وعنّي!

- لن أكون بعيداً عنه، ولا عنك. سوف أتردد على الزاهرة كما أفعل الآن. كما فعلت دائماً. ولكني أصرف أقدام الخلق عنها إلى المدينة الجديدة. وبذلك آمن على الخليفة من أن يتوصّل إليه مجرم خائن كجؤذر.

أطرق لحظة ثم قال بنبرة خاصة وهو يحدّق بها:

- وهو أجدر بأن يصرف عنا عيون الارتياب والظنّ السيئ. وقد زاد الكلام في هذا بين العامة.. أعني..

تردد لحظة أخرى، ثم استأنف:

- ثمة شعر بذيء يدور بين العامة لا أجرؤ على نقله.. يسيء إليك وإليّ.. وإلى الخليفة.

أطرقت وقالت هامسةً:

- سمعت به.

اقـــترب الوعـــد وحـــان الهـــلاك

وكـــل مـــا تكرهـــه قـــد أتـــاك

خليفـــة يلعـــب في مكتـــبِ

وأمّـــــــــــــــــــه ......

توقفت عن إتمام الشطر الأخير، واشتدّ انقباض وجهها. ثم هزت رأسها يميناً وشمالاً بحيرة وقلق، وقالت:

- لا أدري.. لا أدري.. أخشى ألّا تكون حماية الخليفة إلّا بحجبه عن ملكه وملك أبيه.. ثم لا يكون صرف العيون المرتابة عني وعنك إلّا بانصرافك عنا!

تحرّك نحوها بضع خطوات وقال متلهفاً:

- كيف تقولين هذا؟ أبعد كل هذه الأعوام واختبار الزمان؟ وهل نخرج من ريبة الناس إلى الارتياب فيما بيننا؟ وهل يملك الرجل أن يخرج من جلده فيخرج من حياته؟ إذن، لا كان السلطان ولا كان هذا العمر الذي كتبنا سيرته معاً. أفنعود عليه بالمحو والتغيير؟

رمقته بعمق، وتقدم خطوات أخرى حتى صار وجهه قريباً من وجهها وقال برقة:

- انظري في عينيّ! ماذا تَرَيْن؟

حدقت، ثم قالت:

- أرى وجهي.

قال:

- وأنا إذ أنظر في عينيك أرى وجهي. فكيف أفقد مرآةً لا أرى وجهي أحسن إلّا فيها؟! إذن أنكر نفسي.

* * *

لم تجد غير بدور تبوح لها بما يطوف في خاطرها ويؤرقها. فقالت وهي تمشط شعرها أمام المرآة:

- أريد أن أصدّقه يا بدور.. تالله أريد أن أصدّقه.. ثم أراجع نفسي فأخشى أنني أصغي إلى قلبي لا إلى عقلي. فإن كان كذلك فلن أغفر لنفسي قط.. ولن أغفر له قط! لأنني أكون قد خسرت الحب والسلطان حقاً. فإن هوى القلب إذا طغى على العقل ذهب بهما معاً. أما العقل فيحفظهما معاً. وكذلك حالي مع أبي عامر، فإمّا أن نبقى معاً في الحب والسلطان، وإما أن تكون القطيعة فيهما معاً.. بَيْعٌ واحد، إلّا أن حيّزه واسع، وحيّزي ضيّق. سلطاني لا يخرج من ظل الرجال، ولا من حجاب النساء. قولي يا بدور! أشيري عليّ!

أجابت بدور مرتبكةً:

- أنا؟ ليس لي علم لا بالحب ولا بالسلطان. أنفقت عمري في خدمة المحبّين والسلاطين، ولا أنا من هؤلاء ولا من أولئك. ولا أدري الآن أكان ذلك من حسن طالعي أم من سوئه.

توقفت صبح عن مشط شعرها، وأسندت رأسها إلى كفّها.. وذهبت في شرود وتفكير بعيدين.

مكتبة
t.me/t_pdf

لعلّه لن يستطيع أحد في يوم من الأيام أن يجزم على نحو قاطع كيف تطوّرت الأمور مع أبي عامر حتى انتهت به إلى الاستبداد التام بالحكم مع تعطيل الخليفة وحجبه في الزهراء تحت حراسة مشدّدة لا يستطيع معها الخروج حتى للنزهة، بعد أن تجاوز العشرين من عمره.

بلى، كان يحلم دائماً بأن يملك الأندلس، وحين رأى صعوده السريع إلى مراتب الدولة العليا أيام الحكم المستنصر تحوّل الحلم إلى يقين بأنه قد قُدر لذلك، وأن أحلامه كانت بمثابة إلهام غامض بما تمّ له في علم الغيب، قبل أن يتمّ في عالم الشهود. وها هو الآن يجمع بين لقبي الحاجب والملك المنصور ولم يعد في حاجة إلى ختم الخليفة وقد انفرد بالأمر والحلّ والعقد وانتقلت خطط الدولة ودواوينها إلى مدينته الملكية الجديدة: الزاهرة، حيث يقدم السفراء والقادة والوزراء، بينما خلت الزهراء إلّا من سكانها: الخليفة هشام وأمّه صبح، والجواري وأهل الخدمة، والحرس الذين يحيطون بأسوارها وأبوابها، وخلا رصيف الزهراء من كتبة الرقع لأهل الحاجات.

الملك المنصور منفرداً في عش النسر. فليكن! ولكن، هل كان كلامه القديم مع صبح عن الشراكة في السلطان فضلاً عن قسمة القلب محض كذب ومداورة في سياق خطته، أم أن طبائع الحكم والقوة والسلطان قد غلبت عليه تدريجاً حتى وجد نفسه حيث هو الآن؟ وله أن يحاجج عن نفسه في نفسه. لم يأخذ لنفسه من الملك أكثر مما أعطى ويعطي. والقاعدة أن المغنم على قدر المغرم. ألم يكن يتصدّى للمهمات الصعبة المهلكة منذ

أيام الحكم المستنصر حين يتحاشاها من هم أعلى منه مرتبة وأقدم في عمل الدولة، فينجزها على أكمل وجه؟ ألم يكن هو من تصدّى للفتيان الصقالبة الذين عاثوا في الأرض فساداً ولم يكن أحد، مهما تكن مرتبته، ليجرؤ على التصدي لهم، فأمّن الناس من شرورهم؟ ألم يكن هو الذي أهدف نفسه للهلاك حين أفشل تدبيرهم مع الأمير المغيرة بن الناصر؟ ألم يكن هو الذي أنقذ الخليفة من هلاك محقق حين كشف مؤامرة جؤذر وابن المنذر وأصحابهما؟ ألم يكن له قبل ذلك السهم المعلّى في قمع ثورة الحسن بن قنون في المغرب بعد أن عجز غالب الناصري نفسه عن ذلك، فحفظ المغرب ولايةً تابعة للأندلس؟ ألم يكن هو الذي أسقط المصحفيين الذين كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل ويستكبرون في الأرض؟ ثم كل هذه الغزوات التي ما يزال يشنّها كل عام مرتين أو أكثر على قشتالة وليون وجليقية ونبارّة ويقودها بنفسه، حتى ألزمهم الطاعة والانكماش في بلادهم، وكانوا قبل ذلك قد بدؤوا يتجرأون على أراضي الأندلس حتى بلغوا في إحدى المرات أحواز قرطبة نفسها. وهل تصدّ عنه مغانم الملك في قرطبة رماح الروميّ في ساحة الوغى؟ ومن يضمن له أن يعود منها حيّاً لينعم بخيرات ملكه؟ وما كان يخرج للقتال وهو يرجو الحياة دون الشهادة. فهو لا يخرج إلّا ومعه كفنه الذي اشتراه من خاصة ماله، ونسخة من المصحف خطّها بيده لتصحبه في غزواته، مع كيس يجمع فيه المناديل التي يمسح بها وجهه من غبار المعارك لتُدفَن معه إذا كتبت له الشهادة فتشهد له عند ربّه. فهل هذا فعل رجل لا يطلب إلّا مغانم المُلك وسلطان الدنيا؟ وعلى الجانب الآخر، ألم يؤمّن الناس في أموالهم وأنفسهم حين قمع اللصوص وأهل الشرور؟ ألم يزد في عدد المدارس والبيمارستانات وأوقفها على الفقراء بلا مقابل؟ ألم يمنع الاحتكار والغش مع ضبط الأسعار؟ ألم يصلح الطرقات ويعبّدها في جميع الأحياء؟ ألم يأمر بإصلاح شبكة المياه القذرة حتى صارت كلها تجري في قنوات مغطّاة بالرخام عبر بيوت المدينة وأحيائها وتصبّ في مجمع عظيم منخفض محفوظ خارج

قرطبة، وكان ذلك عملاً هندسياً باهراً أدى إلى انحسار أسباب المرض والروائح الكريهة؟ ألم يأمر بتجديد بناء القنطرة الكبرى على نهر الوادي الكبير لتكون أعجوبة من عجائب الدنيا؟ وأخيراً، ها هي خطط توسيع جامع قرطبة توشك أن تكتمل ليبدأ بعدها البناء في أكبر صرح ديني وعلميّ في الدنيا كلّها.

كيف كان يمكن أن ينجز هذا كلّه في زمن قصير، لو لم يكن صاحب الأمر والنهي بلا منازع ولا شريك، إلّا همته ورأيه؟ كانت هذه حججه في نفسه، ومعها إيمانه الراسخ بأن هذا قدره الذي لا يستطيع أحد حتى هو، أن يغالبه، وما عدا ذلك ثمن لا مفرّ منه.

ولكن صبح لن تشاركه هذه الحجج وهي ترى ولدها معطّلاً محجوباً في الزهراء على غير ما كان تدبيرها وعهودها مع أبي عامر الذي بذلت له قلبها وجهدها في التوطئة له، وكانت تحسب أنها توطئ معه لنفسها، ولولدها في المقام الأول. وكان أشدّ ما يمضها ويعذبها سؤالان، أما أولهما فهو: هل كان حبّه لها صادقاً كل الصدق أم كان وسيلة من وسائله، أو على الأقل خالطته الأغراض حتى طغت عليه أخيراً؟ وأما السؤال الثاني فهو: هل خانت ولدها وعقلها حين أسلمته قلبها؟

لن تستطيع يوماً أن تجزم بالجواب. ولكنها تعلم الآن أنها لن تترك وسيلة تقدر عليها للدفاع عن حق ولدها، ولو كان معنى ذلك أن تدوس على قلبها الذي ما زال ينبض بحب أبي عامر. ألم ينبهها يوماً إلى المشاكلة اللفظية بين الحب والحرب، وأن تقارب اللفظ قد يضمر أحياناً تشاكل المعنى، وأن بعض الحب قد يكون أشدّ من الحرب، وأن الحرب قد تكون ضرورة لصون الحب!

وما عساها أن تفعل وهي تقف الآن على المنظرة التي كانت تهرع إليها لتلاحق أبا عامر ببصرها يمشي في الساحات التي صارت الآن خالية إلا من أشباح الماضي، وإلّا من ولدها العشريني الذي لا يجد ما

يفعله إلّا العبث مع بعض الجواري. كان وجهها شديد الشحوب وهي تراقب من مكانها، وتسمع الضحكات العابثة لحفيد الناصر القويّ وولد الحكم الرزين.

حاول هشام أن يجذب إحدى الجواري إليه. فتفلتت منه تدلّلاً وقالت متغنجةً:

- مولاي. الحرس يرانا!

أشار هشام إلى حيث يقف الحرس كالأشباح في العمق البعيد، وقال متهكماً:

- هذا الحرس؟ هذا الحرس لا يرى إلّا ما جُعِل له.. كل من يريد بالخليفة شرّاً. وأنتن قرّة عين الخليفة وبهجة نفسه ومتعةُ..

قاطعته الجارية بمزيد من الغنج:

- مولاي! إنك لتجرح حيائي.

ثم أطلقت مع الأخريات ضحكة ماجنة. قال هشام ماضياً في تهكمه:

- حياؤك؟ ومنذ متى أصابك الحياء؟ لا حول ولا قوة إلّا بالله.

ولمس جبينها كأنها مصابة بالحمى، وتابع:

- تسه تسه تسه.. هذا داء لا دواء له. عوّضني الله خيراً فيك.

- وهل تجد عوضاً عني يا مولاي؟

أشار إلى جارية أخرى وأجاب:

- هذه.

قالت الجارية الأولى:

- أَقْتُلها إذن.

قال هشام:

- تموتان معاً؟ واحدة بداء الحياء، والأخرى بيد الأولى. وماذا يتبقّى للخليفة؟

لم يصدّق غالب الناصري ما تراه عيناه وهو يقلّب بصره مأخوذاً بفخامة الزاهرة بعد أن استقبله محمد بحفاوة. وكانت تلك زيارته الأولى بعد اكتمال البناء. ولكنه بقي مقطّب الوجه في أثناء تجواله فيها حتى خلا بابنته أسماء التي كانت شديدة الفرح بزيارته، وإن لحظت وجوم وجهه. ثم قالت باعتزاز:

- هل ظننت يوماً أن ابنتك ستكون السيدة المطاعة في مدينة سلطانية تبز الزهراء، مدينة الخليفة نفسه؟

لم يستخفه كلامها وحافظ على وجوم ملامحه، وقال بلهجة تنمّ عن ضيقه:

- أنت سيدة ابنة سيد، قبل الزاهرة وقرطبة.. ومحمد بن أبي عامر!

صدمتها نبرته، وشعرت بأن شيئاً ما يعتمل في صدره. فحاولت تلطيف مزاجه وقالت:

- نعم، ولكن ألا يسرّك أني زوج السلطان على الحقيقة؟

وهنا ازدادت نبرته وكلامه حِدّة وهو يفصح عن موقفه:

- لا أفهم هذا.. سلطان على حقيقة الحال، وسلطان بالاسم والمقال. ما أعلمه أن الدولة لا ينبغي أن يكون لها غير سلطان واحد بالحال والمقال.. بالاسم والرسم والفعل.. وذلك هو الخليفة ابن الخلائف من بني أميّة الغرّ الميامين.. ونحن موالي بني أميّة أجدر الناس بأن نعلم ذلك، وأن

نعمل به. وإلّا قيل: لماذا أبو عامر وليس غيره؟ لماذا أبو عامر وليس شيخ الموالي والمجاهدين غالب الناصري؟

انقبضت ملامحها، وداخلها قلق شديد إذ استشعرت الغضب الذي يمور في صدر أبيها. وليس الناصري الشديد الاعتداد بنفسه بالذي يحبس مشاعره أو يطوي صدره على دَخَنٍ دون أن يعلم به ويعمل بمقتضاه.

ولكن الذي لم تكن أسماء تعرفه، أن زيارته هذه لم تكن ببادرة منه، وإنما استجابة لرسالة توصّلت بها صبح إليه!

وفي اليوم التالي توجه للقاء الخليفة وأمه بالزهراء، وراعه أن يراها خاوية معطّلة لا تكاد تسمع فيها حسّاً. وحين دخل على الخليفة هشام، ابتدره هذا بالترحيب جالساً على سرير الخلافة:

- أهلاً بشيخ موالينا.

انحنى له الناصري بإجلال، ثم تقدّم وتناول يده وقبّلها. ولم يتريّث هشام حتى سأل بنبرة موحية:

- كيف أحوال بلادي ودولتي ورعيّتي؟

وشدّد النبرة على نسبة هذه كلها إلى نفسه.

رمقه الناصري بنظرة عميقة مشوبة بالعطف والتفهم، وأجاب:

- وهل يكون الخادم أعلم من سيده يا مولاي؟

قال هشام:

- لا أدري.. هل يكون؟

أطرق الناصري وقال بأسف:

- لا ينبغي أن يكون هذا يا مولاي!

وهنا سُمع صوت صبح:

- ولكنه كائنٌ يا أبا عبدالرحمن.

التفتا صوب الباب إذ كانت تقف بوجه شاحب. وقال هشام:

- آه.. أمي السلطانة! هل رأيتها من قبل يا أبا عبدالرحمن؟

هز لها الناصري رأسه بالتحية.

* * *

في ذلك المساء، جلس غالب الناصري وأبو عامر وأسماء على مائدة الطعام. وبدا الناصري شارداً مقطب الوجه كما ظهر منذ وصوله، لا يكاد يصيب من الطعام. وكان محمد بن أبي عامر يسترق إليه النظر بين الفينة والأخرى. ثم أحب أن يبدّد الصمت الثقيل، فقال:

- هل تحسّ نبأةً وحركة من الروميّ خلف الثغور يا أبا عبدالرحمن؟

توقف الناصري عن تناول الطعام. والتفت إلى محمد واقتحمه بنظرة قوية صارمة وقال بلا مداورة:

- زرت الخليفة وأمه اليوم.

تغيّر وجه محمد، ولكنه قال بهدوء:

- أعلم.. وساءني أنك لم تخبرني بنيتك قبل ذلك.

اهتزت ملامح غالب وقال بنبرة قوية:

- هل استأذنك في الدخول على الخليفة الذي بايعناه على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأنا شيخ مواليه؟

اجتهد محمد في أن يكتم غيظه، وقال:

- مقامك عندنا محفوظ يا أبا عبدالرحمن. ولكنني حاجبه أيضاً.

- وحاجبه لا يلزمه؟ هذه حجابة لم نعهدها من قبل، ولا سمعنا بمثلها ولا جرت بها سنن الملوك. أما عمل الحاجب الذي نعرف فهو أن يرتّب لسيده ومولاه وخليفته دخول الناس عليه والمثول بين يديه، بمقتضى أمره وإرادته.. أمر الخليفة أعني، لا أن يحجبه عن الناس، ثم يختط لنفسه مدينة ملكية ينقل إليها دواوين الدولة وخططها، ويصرّف الأمور بنفسه تصريف وليّ الأمر. كيف يكون هذا؟ وقد بلغ الخليفة رشده منذ زمن، وصار بوسعه أن يتولّى بنفسه أمر دولته.. دولة آبائه يا أبا عامر.. و.. هؤلاء الجند الذين ما زلت تستقدمهم من عدوة المغرب وتستكثر منهم.. ما شأنهم بالأندلس؟ هل تشكو الأندلس من قلة الرجال والجند؟ أم تريد رجالاً يكونون مواليك أنت، تنافس بهم موالي الخليفة صاحب الحق في السلطان.

بهذا صار الجوّ شديد التوتر. مسح محمد فمه بالمنديل وقذفه على المنضدة أمامه، ثم قام ومضى خارجاً دون أن ينبس ببنت شفه، ودون اعتبار لواجب المكوث مع ضيفه حتى يقوما معاً. وكانت أسماء شديدة الوجوم والانقباض، وقبل أن تقوم لتلحق بزوجها حدّقت في أبيها وقالت:

- ما هذا يا أبتِ؟ إنه زوج ابنتك. عِزّه عزّك.

قال ببهجة قاطعة:

- وإن كان.. واجبي تجاه سيدي ومولاي الخليفة مقدّم على كل شيء، حتى على ولدي!

*

حين لحقت بزوجها في جناحه الخاص، وجدته يتمشّى عابساً متفكراً وقد ضمّ ذراعيه وراء ظهره. سبقها في الكلام دون أن يلتفت إليها وقال:

- لا أحب أن أقول شيئاً يؤذيك يا أسماء. ولكن، ليس ولاؤه للخليفة هو ما حمله على ذلك الكلام، ولكنه نَفَسني ما أنا فيه. وهو يرى نفسه أحق به. يدلّ بجهاده الطويل ومكانته بين الموالي. ولكن الإنسان يداري، ثم يلتمس المعاذير لنفسه قبل غيره.

قالت:

- ولكنه أبي.. يرضيه ما يرضيني.

قال:

- يا أسماء. إذا تدخّل حب السلطان، تقدّم على كل شيء.. حتى الولد.. ولذلك قالت العرب: المُلْك عقيم.

اقتربت منه ومسحت على ظهره بتحبب وقالت بدلال:

- ويتقدّم حب الزوج؟

التفت إليها وقال:

- إذا لم تختر الزوج أحداً على زوجها، فليس عليه أن يختار بينها وبين سلطانه. وأنت عزيزة على قلبي، ولكني لن أخرج غداً فآمر بهدم الزاهرة، ثم أسلّم كل الذي بنيت بجهدي وعملي لغيري، فينقضه عروة عروة، ثم إذا تجرّدت من شوكتي وسلطاني بطش بي شرّ بطشة. فلا أهلك حتى يذهب معي كل ما صنعته للأندلس.

قالت:

- لا والله لا أختار عليك أحداً. ولكن.. نشدتك الله، حاول جهدك أن تطيّب خاطر أبي اتقاءً لشرّ أكون فيه القاتلة والمقتولة معاً.

* * *

كانت صبح تنتظره في المجلس نفسه الذي اعتادت أن تلقاه فيه في حدائق الزهراء. وحين أقبل عليها بهدوء، خلع عمامته وفرك شعره. أخذت تتأمله بنظرات عميقة، ثم قالت:

- هل تعلم؟ أنت بدون عمامة أوسم منك بها. الشعر زينة.. للرجل كما للمرأة.

بقي واقفاً، وأطرق بضع لحظات قبل أن يتحدث:

- غالب الناصريّ. زاركم البارحة وكان بينكما كلام! ثم رجع إليّ مُغْضباً وأغلظ في الكلام حتى خرج عن حدّ الأدب.

- وتلومني في ذلك؟ إنه صهرك. أليس كذلك؟

- هو غالب الناصريّ أولاً وآخراً.

- وما رأي أسماء؟

- أسماء لا تختار عليّ أحداً، حتى أباها. وكنت أظنّ أنك أولى بألّا تختاري عليّ الناصري، فتحرضيه.

أخذت ترمقه بنظرة عميقة ثابتة واثقة لم تخل من آثار الشوق والحبّ. ولاح على وجهها طيف ابتسامة وهي تقول:

- ولماذا أنا أولى من أسماء وهي زوجك؟ ألانّ الناصري أبوها وليس أبي؟ أم.. لأني أشد حباً لك منها!

صمت متحاشياً نظراتها القوية السابرة. ثم استأنفت:

- صدقت. أنا أولى بألّا أختار عليك أحداً. ولكن.. من أنت؟ الحبيب! أما الحبيب فنعم.. نعم.. فلا والله لا أختار عليك حبيباً ولو عشت الدهر كلّه. أم أنت الرجل الذي قاسمته خطة السلطان من حول ولدي.. ولدي الخليفة؟ ثلاثة!! هل تذكر؟ قلت لك نحن ثلاثة، يكتمل

أحدنا بالآخر. فهل أنت الرجل الذي استبد بالسلطان دون صاحبيه؟ أما هذا فلا والله لا اختاره على نفسي وولدي، إن لم يخترني، إلّا أن أكون امرأة حمقاء ضعيفة الرأي، سلبها حبيبها لُبَّها، فضحّت بكل شيء في سبيله، حتى إذا أصاب حاجته منها خلّفها مضيّعة وحيدة ليس في يدها غير الريح والغبار. ولست كذلك.. لم أكن كذلك ولن أكون كذلك يا محمد! نعم، أحببتك حباً لا مزيد عليه، وما أزال. ولكني سلطانة.. أم الخليفة وقسيمته.. فإن كنتَ ذلك الرجل فماذا بوسعي أن أفعل غير أن أقاتل عن نفسي وولدي بكل ما أملك، وأجتهد في الوقت نفسه أن أميّز بين الحبيب الذي أحببته حباً لا شرط عليه، والخصم المستبدّ الذي آثر أن يسلبني حقي وحق ولدي؟ فهل تستطيع أن تفعل مثلي يا محمد؟ تميّز بين الحبيبة والخصم، فتحب من تقاتل قتالاً لا هوادة فيه! فلا القتال يذهب بالحب، ولا الحبّ يضعفك عن القتال. هذه هي العزيمة يا محمد! وبها أغْلِب حتى لو هزمتَني بأسباب الرجال والسلطان آخر الأمر!

آثر ألا يقول شيئاً بعد. وتبادلا نظرة طويلة، قبل أن ترف ملامح وجهها وتقول:

- تالله ما زلتَ وسيماً كما كنتَ دائماً!

وقامت من فورها ومشت عائدة دون أن تلتفت، بينما وقف يشيعها بنظرات شاردة ومشاعر حائرة بين الحب والإعجاب.. والأسى!

* * *

جنّ جنون الناصريّ إذ علم بأن محمد بن أبي عامر دعا إليه جعفر ابن حمدون، زعيم بني برزال وصاحب المغرب، ليلتحق به في الأندلس ويكون له عوناً على قتال الروميّ في مملكة ليون وقشتالة وجليقية ونَبَرّة. فوصل في ست مائة فارس، واستقبله في الزاهرة استقبال الأمراء، وأنعم

عليه بلقب ذي الوزارتين الذي كان لقب الناصريّ. فأدرك الناصري أنه لم يأت به وبجنده إلّا ليزاحمه ويكاثره به، فيُخْمِد ذكره ويطفئ ناره ويردعه عن نصرة الخليفة إذا كانت هذه خطته. ولكن ذلك لم يزده إلّا عزيمة وتصميماً على مواجهته ولو كان صهره. فهو، كما كان يردد، لم يصاهره إلّا لدواعي السياسة. فإذا قضت السياسة بخلاف ذلك لم يأبه بالعواقب. وقد أدرك الآن أنه كما استقوى ابن أبي عامر به على المصحفي حتى نكبه، فهو يستقوي الآن بابن حمدون عليه للغرض نفسه. ولكن الناصري ليس المصحفيّ، فهو وإن بلغ الثمانين فما يزال ربّ الكريهة ورجل الحرب، فإذا قصد إلى خصمه لم يرجع عنه حتى يرديه، كائناً من كان. وبذلك كان يحدِّث نفسه وأصحابه. ولكنه قرّر أن يستدرج أبا عامر إليه أولاً حتى يخيّره للمرّة الأخيرة، فإما أن يعتدل ويصدع، وإمّا أن يُرَمِّل ابنته ولا يبالي.

أما محمد بن أبي عامر فلم يتلّبث طويلاً بعد وصول ابن حمدون، فخرج معه لغزو الرومي على رأس جيش الحضرة وبني برزال، ودون أن يُؤْذِن الناصريّ أو يطلب مشاركته. وكان المعنى واضحاً وهو الاستغناء عن قوة الناصريّ. وهو ما زاده حَنَقاً وعزماً على الانتصار لنفسه إن لم يكن للخليفة. فإمّا هو وإما أبو عامر. هكذا غدا الحال الآن عنده. فخرج بقطعة من جنده إلى حصن أنتيسة على بُعد فراسخ من المعسكر الذي ضربه محمد بن أبي عامر وجعفر بن حمدون. ثم بعث رسولاً منه إلى أبي عامر يلحّ على لقائه في حصنه لأمر جلل. وبعد التشاور مع ابن حمدون قرّر أن يجيب طلبه، فخرج إليه في ثلة من الفرسان ترك جلّهم خارج الحصن ودخل عليه في بضعة من حرسه، فوجد عنده عدداً من جنده. وابتدره الناصري قائلاً بغلظة:

- ما كنت أحسب يا أبا عامر أنك تخرج إلى غزو الرومي مع صاحبك ذاك.. ابن حمدون، ولا تؤذنني أولاً، لأضمّ عسكري إلى عسكرك، فنكون معاً في القتال.. فهذه ثغوري.

أجاب محمد بغلظة مماثلة:

- تعني ثغور الأندلس!

- ما زالت في إمرتي من قبل أن تولد.

- ويستأذن صاحب الدولة قائد الثغور إذا..

صاح الناصري مقاطعاً:

- لستَ صاحب الدولة.. صاحبها أمير المؤمنين.

- أنا صاحب دولته.

- جبراً.. لم يورثها لك أبوك.

- ولا أورثك أبوك قيادة جيش الثغور. هل دعوتني إلى لقائك لتسمعني هذا؟

- وما حاجة الأندلس إلى ابن حمدون وأضرابه، وإلى كل أولئك الجند الذين ما زلت تستقدمهم من المغرب حتى كاثروا جيش الحضرة؟

- أنا الحاجب، وأنا أقرّر حاجة الأندلس، ولا أستأذنك قبل أن أعزم وإن كنت صهري.. وقد فرغنا من هذا الكلام.

- ما فعلتها إلّا نكايةً بي، تحسب أنك تزيحني بذلك الأفّاق الجلف؟ ألا خاب فألك.

كان أبو عامر ينتفض غضباً وقال:

- قد أغلظت وأفرطت وجاوزت حدّك.

صاح الناصريّ وقد فاض به الأمر حتى أسقط كل الروادع.

- أنا يقال لي هذا يا كلب!

وسلّ سيفه وأهوى به على محمد، ولكن هذا تحاشاه بسرعة فنزل على سطح ذراعه فشطبه دون أن يتعمق في لحمه، بينما قفز حرس محمد

فحالوا بين الرجلين، ودارت مواجهة بالسيوف بين حرس محمد وبين غالب وأعوانه. وتكاثر عسكر غالب حتى صار الوضع شديد الخطورة. عندئذٍ لم يجد محمد إلّا أن يسرع إلى نافذة القلعة وبعد نظرة خاطفة تدلّى منها، إلى نتوء بارز تعلق به، ثم هبط منه إلى نتوء آخر فآخر، حتى صار بوسعه أن يغامر بالقفز إلى الأرض. وركض إلى حيث ينتظر سائر حرسه، وما إن وصل حتى قفز إلى ظهر حصانه وانطلق الجميع بسرعة هائلة.

دم وغدر؟ قد أباح الناصري دمه ولن يحكم بينهما منذ الآن إلّا السيف. إلّا أن خيبة أمل محمد بالناصري كانت أشدّ من غضبه ورغبته في الانتقام. فالغدر ليس من شيمة الفرسان، فكيف بالناصري فارس الأندلس الأول!

ولكن خيبة الأمل هذه ستهون قريباً أمام خيبة أخرى أشدّ وأنكى حين يعلم محمد بن أبي عامر أن الناصريّ قد خرج إلى عدو الأندلس الأول: ردمير (راميرو) الثالث، ملك ليون، فعاقده على قتال محمد بن أبي عامر معاً!

شيخ المجاهدين الذي قضى عمره في قتال الروميّ، وبثَّ الرعب في ليون وجليقية وقشتالة ونبّرة يحالف عدو الأمة، وينقلب على بلده وأمته، وعلى نفسه أولاً، كالتي نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثاً؟!

حين سرى الخبر بين الناس في قرطبة وسائر الأندلس خلّف فيهم صدمة عنيفة وحسرة بالغة على مصير الرجل. وذكرهم الخطباء أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، ولا تُؤْمَن بوائق المرء إلا بموته على حسن الختام، وأن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلّا باع أو ذراع، ثم يسبق عليه القول فيعمل بعمل أهل النار، وضدّه صحيح.

وبالطبع كان محمد بن أبي عامر أكثر الناس ترديداً لهذه المعاني أمام أعوانه وأصحابه وقادته. وحارت مشاعره بين الأسف لتلك الكبوة

الهائلة لذلك الفارس العظيم، وبين الراحة إذ أحلّه الرجل من ذمّته. فإذا لقيه الآن في ساحة الحرب فلن يكون في نفسه ذرة من حرج ولا إحجام.

كان ثمة امرأتان جعلهما ذلك الحال تشعران بالانشطار. أما أسماء الناصريّ فقد شعرت بأنها الآن طالبة مطلوبة.. واترة موتورة.. مفجوعة على أي الحالين، وخاسرة على أي الوجهين، فإن فاز زوجها خسرت أباها، وإن فاز أبوها خسرتهما معاً. فمن بات أشقى منها؟ نعم.. صبح التي وجدت نفسها في حال تقول فيه:

- أرجو هزيمته، وأرجو حياته. فإذا انتصر خسرت حربي، وإن هُزم وقُتِل خسرت حبي.. فيا الله.. صدق الحَكَم رحمه الله. شقوة السلطان.. شقوة السلطان.

أما الناصري فكان عليه هو أيضاً أن يغالب المتاهة التي وجد نفسه فيها حتى توصّل إلى مصالحة مريحة بعض الشيء مع ضميره. وبخلاف ما يظن الكثيرون فإن سقوط الكبار في الخطايا العظيمة لا يحدث، في الكثير من الأحيان، بقرار مفاجئ بالرّدة وبيع الروح للشيطان لقاء مغانم الدنيا. وإنما يتوسط ذلك التسويغ والتأويل بما يجرّد الموقف من وصمة الباطل وتقديم الدنيا على الآخرة. وقد كان يدرك أن الكثير من أعوانه وجنده يجدون في أنفسهم حرجاً مما قادهم إليه، وقد تجاور معسكرهم مع معسكر ليون في موقع الثغر الأعلى حيث ولاية سرقسطة الأندلسية التي تركتها قرطبة في حكم التجيبي منذ زمن طويل. وها هم عسكر غالب يخالطون عسكر ليون، ويرون عن بُعد معسكر محمد بن أبي عامر وجعفر بن حمدون، وقد انضم إليهم عبدالرحمن بن مطرّف التجيبي بعسكر سرقسطة.

كان على الناصري أن يقوّي عزائم قادته ويطرد عنهم ما يمكن أن يخالطهم من الحرج والتأثم. فجمعهم في قبّته في الليلة السابقة على المعركة وخطب فيهم قائلاً:

- أحرجنا اللعين فألجأنا ونحن لذلك كارهون. ولكن الحرب تقديم العدو العاجل وتأخير الآجل. وإن الله ليعذّب الظالم بالظالم. أما الروميّ فعدو يجاورنا في هذه الجزيرة، ولا قِبَل لنا بإخراجه منها على الجملة. وغاية الحرب معهم ردعهم وإلجاؤهم ديارهم. وتلكم هي حرب الرباط والثغور، ما دامت الثغور. أما هذا الرجل، أبو عامر، فهو العدو العاجل والخطر الداهم في داخل موطن الخلافة. وقد علمتم أنه استأثر بالسلطان دون خليفتنا أمير المؤمنين، ويوشك أن يذهب بخلافة بني أمية كلها. وهل الأندلس إلّا الخلافة الأموية، فإذا ضاعت، ضاعت معها الأندلس. وانفرط عقدها، واستقوى عليها الروميّ حتى يحوزها قطعة قطعة. وإذن فإن قتاله الآن هو في العاجل دفع له، وفي الآجل دفع للرومي نفسه الذي يقاتل الآن معنا بحكم الضرورة. فإن كسرناه وفرغنا من هذه الحرب، عاد الرومي إلى بلده، وعدنا إلى بلادنا، واستأنفنا جهادنا ضدهم بأشد مما كنا، وقد تعافينا من أثر هذا الثعلب الخبيث. ولقد كنت أولى الناس بحفظه لو لزم حدّه فلم يتجاوزه. فهو صهري زوج ابنتي، وهي له مُحِبّة. وإذن، فلو كنت أعمل بهوى النفس لكان هواي معه. ولكن غالباً الناصري لا يقدِّم هواه على واجبه لخليفته وبلده. وأنا أقول لكم من الساعة: من وجد في نفسه حرجاً من هذا الأمر، فهو على الخيار. بل أزيد فأدعو الله أمامكم: اللهم هذا هو اجتهاد رأيي، فإن كنت أَصْلَحُ للمؤمنين من أبي عامر فانصرني، وإن كان هو الأصلح فانصره.

*　　*　　*

حين اصطف الجيشان في ضحى اليوم التالي، أخذ محمد يجول بجواده أمام عسكره، ثم خطبهم قائلاً:

- أيها الناس! أيها المسلمون! هل تبصرون عدوكم من هنا؟ فماذا ترون؟ علوج ليون وقشتالة يقفون صفاً واحداً مع غالب الناصريّ

ورهطه. أتراه يتمثل الآن قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف:4] صدق الله، وكذب الشيطان. ألم يقرأ في كتاب الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:1]؟ أم نسي قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:28]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء:119]، وقوله عزّ من قائل: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية:19] فإذا لقينا عدونا الآن كبّرنا، فهل يملك غالب الناصري أن يكبر كما نكبّر، مع علوج الروم؟ ألا ساء ما يحكمون، إذن أسمعوهم الهتاف العظيم الخالد الذي تنخلع له قلوب العدو، وتطمئن به قلوب المؤمنين.

ثم كبّر، فارتفع تكبير الجند هادراً مزلزلاً. وكرر ذلك معهم بضع مرات. وإذ تناهى التكبير إلى موضع الناصري وجنده، تغلّب عليه الحرج هذه المرة ولم يستطع أن يدافعه، ولم يسعه أن يكبّر كما فعل سابقاً في كل معاركه، ومعه الآن عسكر ليون. فاكتفى برفع سيفه وأومأ ببدء الهجوم بمقدمة عسكره. ولكنه بدلاً من أن يقصد إلى مقدمة جيش أبي عامر انحرف إلى ميمنة الجيش التي يقودها ابن حمدون، وصدمها صدمة عنيفة أزاحتها إلى الوراء، واضطربت صفوفها وتشتتت في كل ناحية على غير هدى، وأثخن عسكره فيها إثخاناً شديداً. وقبل أن تجمع صفوفها كان قد انعطف عائداً إلى جهة جيشه، وانضم إليه عسكر آخرون كانوا في الانتظار حسب الخطة، وانطلق بهم في هجوم جديد نحو ميسرة جيش أبي عامر، وعليها ابن حزم، ففعل به ما فعل بالميمنة. وارتد إلى مواقعه استعداداً لهجوم شديد على القلب الذي يقوده أبو عامر بنفسه. وبدا أن كفته راجحة بعد أن كسب الجولتين السابقتين. ولم يملك محمد أن يدافع

شعور الإعجاب بهذا الشيخ ابن الثمانين، وأدرك في الوقت نفسه مدى فقد الأندلس بما صار إليه.

سلّ محمد سيفه وصاح في القلب:

- تأهّبوا حتى تسمعوا تكبيري.

ولكن حدث بعد ذلك أمر عجيب لم يكن في حسبان أحد من الطرفين. فقد جالَ الناصري بجواده قليلاً أمام الصفوف وهو مطرق الرأس. وفجأة ودون تمهيد شوهد وهو ينفتل بجواده ويمضي به بهدوء وبطء مبتعداً عن عسكره أمام دهشة الجميع وحيرتهم حتى غاب وراء تلة قريبة. ما الذي يجري هناك؟ حدّث محمد نفسه وهو يراقب من موقعه. أهي خطة لم يحسب لها حساباً؟ من أين يُؤتى هذه المرّة؟

ولم تكن حيرته أشدّ من حيرة القادة في الجانب الآخر. وقدّروا أن الرجل قد غلبته حاجته، فأراد أن يقضيها قبل استئناف القتال. وهذا يحدث كثيراً لمن كان في سنّه. ولكن حين طال غيابه توجّس أصحابه، فتقرّر أن يخرج بعضهم في أثره لينظروا أمره.

حين التفّوا وراء التلة، اصطدمت أبصارهم بمنظر شديد الغرابة. كان الناصري جالساً عند رجم حجارة، وقد نصب ركبتيه، وانكفأ رأسه بينهما صوب الأرض. وبدا في حال من غلب عليه النوم جالساً. فازدادت حيرة القوم، وأسرع أحدهم فترجّل عن حصانه واقترب من الناصري وخاطبه:

- أبا عبدالرحمن!

كرر النداء دون جدوى. وإذ هزّه سقط الناصري إلى جانبه، وأدرك القوم أن صاحبهم قد مات.

تبادلوا النظر وقد بدت الصدمة على وجوههم. ثم هتف أحدهم:

- أما سمعتموه البارحة يدعو فيقول: «اللهم إن كنتُ أصْلَحَ للمسلمين من ابن أبي عامر فانصرني وإن كان هو الأصلح فانصره». فقد تبيّن لنا الآن الحق كبلج الصبح. وهي إشارة من رب السماء والأرض. فأدركوا أنفسكم قبل أن يلحق بكم خزي الدنيا والآخرة.

كان ابن أبي عامر ما يزال يترقب حائراً فيما يحدث في الجانب الآخر، حين رأى ثلة من فرسان الناصريّ تُقبِل عليه من الجانب وتلوّح بما يفيد بأنها لا تُقبِل في قتال، فتحرّك نحوها يصحبه ابن حمدون وابن حزم اللذان عادا في ذلك الوقت إلى مواقعهما. وإذ اقتربت ثلة الفرسان صاح أحدهم:

- ظهر الحق وزهق الباطل يا أبا عامر. قضى الله في الناصريّ.

وأخرج من جراب فرسه رأس الناصري مقطوعاً وقال:

- مات بانقضاء الأجل. وجئنا برأسه لتعلم أنها ليست خدعة. فالآن نُكفّر عن ذنب الخروج مع الروميّ، فنميل عليهم معك. ولا يخالفنا من وراءنا.

وكانت مقتلة عظيمة في عسكر ليون الذين فوجئوا بتحوّل حلفائهم عليهم مع جيش ابن أبي عامر. وحين سكن غبار المعركة وانقشع عن جثث القتلى المنتشرة، وتردد التكبير، رفع أبو عامر يده فسكت الجميع، ثم صاح:

- هذا أول هذه الحملة.. حرام علينا نساؤنا وفُرُشُنا حتى نوغل في أرض العدو فنثخن فيها ونبلغ حاضرته ليون..

قضى الشهر التالي متوغّلاً في أراضي ليون لا يصمد له أحد. وبث الرعب في كل القرى والبلدات التي مرّ بها في طريقه. وبدا واضحاً أنه يريد الحاضرة. وأدرك أصحاب ليون وقشتالة ونبرّة أنه إذا استولى على ليون فلن يوقفه شيء بعد ذلك حتى تضع خيوله حوافرها في سائر تلك

الإمارات. ولأول مرّة منذ وقت طويل يُنَحّون خلافاتهم جانباً ويجتمعون في جيش واحد. نزل في ظاهر بلدة رُوضة Rueda جنوب غربي شنت منكش Simancas. ولكن ابن أبي عامر استطاع أن ينزل بهم هزيمة منكرة فرقت شملهم. ثم تابع سيره إلى ليون حتى وصلها وضرب عليها الحصار. ولكن الشتاء كان قد حلّ بأمطار غزيرة ورياح عاصفة، وغدت الحركة شديدة الصعوبة في الأرض الموحلة. وما هي حتى تتساقط الثلوج في تلك الأصقاع الشمالية الباردة، فتَحتجز طريق العودة إلى قرطبة، فينقطع الجيش في أرض العدو مع تعذر الإمدادات. فكان لا بدّ من رفع الحصار وخلع الخيام والعودة.

* * *

نُفِخت الأبواق في الزاهرة احتفاءً بالعودة والنصر. وجلست صبح في المنظرة تصيخ السمع لأصوات الأبواق القادمة من بعيد مع ضجيج الاحتفالات. ثم راعها أن يرتفع صوت الأبواق فجأة من الزهراء نفسها. فقامت من فورها مهرولة وأرسلت إلى نافخي الأبواق أن يتوقفوا فوراً، وأن يأتيها رئيسهم.

وحين أقبل عليها صاحت به:

– كيف سوّلت لكم أنفسكم أيها الحمقى؟ أبواق الزهراء لا تنْفخ إلّا لصاحب الزهراء.. خليفتكم.. أمير المؤمنين.

قبل أن يجيب الرجل، سُمِع صوت هشام المؤيّد يقول:

– والذي أمرهم بذلك خليفتهم.. أمير المؤمنين.

ثم أومأ للرجل بالرجوع. وأقبلت عليه قائلةً:

– كيف فعلت؟

أجاب بلهجة مشوبة بالتهكم:

- أليست تلك انتصارات الأندلس على عدوها الرومي؟ ولمن الأندلس؟ أليست لي؟ أم يقال: كانت هزيمة الناصري والرومي معاً هزيمة للخليفة؟!

دق بإصبعه على رأسه ومضى مبتعداً.

* * *

في الزاهرة كانت أسماء تنتحب بحرقة وقد أخذت بيد أبي عامر ثم وضعتها على خدّها. ولكنها لم تكن ترتدي البياض حداداً على أبيها. فقال محمد:

- ما منعك أن ترتدي البياض على أبيك، غفر الله له؟

رفعت رأسها ونظرت إليه من خلال دموعها نظرة حائرة. فقال:

- لا بأس عليك يا أسماء. إنه أبوك. وله عليك حق. وإني لأعلم ما في نفسك إذ قضى الله أن يجتمع فيها الحزن على أبيك، والفرح بعودة زوجك مظفراً سالماً غانماً. ولكن الله شاء أن يرفع عني الحرج حين مات بانقضاء الأجل.. لم يمسّه سيف ولا رمح.

قالت:

- ليس هذا الذي يحزّ في نفسي يا أبا عامر. فليت أبي مات في داره.. بل كان أهون عليّ أن يموت بسيفك على أن يكون في جنده فقط، لا في حلف مع العدو. وهو الذي عاش حياته كلها في جهاده، حتى ختم بتلك الخاتمة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

شدّ على يدها ومسح على شعرها بمودّة غامرة.

* * *

بعد ثلاثة أيام فقط من عودته قرأ المنادي على الناس إعلاناً صدر عن الزاهرة ألا يخاطب محمد بن أبي عامر منذ اليوم إلّا بلقب الملك المنصور، مع كل رسوم الملك وتقاليده المعروفة، وتضرب النقود باسم أمير المؤمنين هشام المؤيّد بالله على وجه، واسم الملك المنصور صاحب الدولة على الآخر، وأن أمير المؤمنين قد عهد إلى الملك المنصور بالتصرّف في دولته، لكي يفرغ للعبادة.

لم يُظهِر الناس حماساً لافتاً، وبدلاً من الهتاف سُمعت دندنات وهمسات مبهمة، وتلفت بعضهم خشية أن يكون بينهم من عيون ابن أبي عامر من يرقب ويتسمّع.

وكان إبراهيم الذي ما زال صاحب الشرطة الوسطى يتحرك خارج الحشد وقد بدا عليه الوجوم الشديد.

* * *

في الزاهرة جلس محمد بن أبي عامر على سرير الملك يتلقى التهاني والتسليم عليه باللقب الجديد. وكان صاحب الباب يُنظّم الدخول عليه حسب مراتب القوم. ولما دخل عمرو وتقدم إليه نظر في عينيه نظرة عميقة ثم انحنى وقبّل يده. وتبعه عليّ، ثم إبراهيم الذي أمسك بيده وحدّق به، ثم اكتفى بأن نزل برأسه قليلاً نحو يده دون أن يقبّلها.

وكان بين الداخلين مشيخة العرب. وإذ قبّل كبيرهم يد الملك المنصور، مالَ إليه برأسه وهمس:

– لعل الملك المنصور يخلينا نفسه إذا انصرف الناس.

ولم يكن من الصعب على المنصور بن أبي عامر أن يدرك الغرض. فضاق صدره، وقرر في نفسه أن ينهي هذا الأمر إلى الأبد.

ولما اختلى بهم أخيراً مستبقياً معه عمرا وعليّاً، قال كبيرهم:

- قد راجعناك على عهدنا القديم يا أبا عامر، قبل زمن. واعتذرت بما اعتذرت به حتى يتمّ لك الأمر. وقد كان. فأنت الآن الملك المنصور صاحب الدولة بلا منازع. فهل آن الوقت لاقتضاء العهود القديمة، بتقديم مشيخة العرب إلى مراتب الدولة؟

لبث صامتاً بضع لحظات يستعرضهم بأنظاره، وهم يترقبون جوابه الذي جاء أخيراً قاطعاً دون تلطف:

- ولكنا لا نولي هذا الأمر من يطلبه.

اهتزت ملامح القوم من أثر الصدمة، بينما استأنف قائلاً:

- وما هو بستان نتقاسمه. وإن كنتم تنظرون إلى هؤلاء الذين استقدمناهم من عدوة المغرب، فهم موالينا وأهل خدمتنا، وبهم غلبتُ الناصري وجيوش الرومي حتى استقام لي الأمر. وهم بعد مسلمون.. والمسلمون أمّة واحدة، ليس لعربي فضل على أعجمي إلّا بالتقوى. وإلّا فهو عَصَب. والعصب من الجاهلية. وقد كاد يودي بالأندلس في العصور الخوالي.. قيسيّة ويمنيّة. والحمد لله أن العصبيات قد تراخت وذهبت شوكتها. وأنتم بعد لا تشكون من قلّة ولا جاه، نحفظ لكم مراتبكم ونقدّمكم في المجالس. وما لكم وللسلطان وما يكون معه مما يلتبس فيه الحق بالباطل، وتشتبه المواقف، ولا يكاد ينجو من بوائقه أحد، إلّا أن يتداركنا الله برحمته ومغفرته.

رانَ الصمت على الحاضرين، ثم تحدث كبيرهم من جديد:

- ما هكذا كان رأيك في تلك الأيام يا أبا عامر، حين عاهدتنا وعاهدناك. ثم دفعنا أبناء العرب ليكونوا في جيش الحضرة، كما كانت خطتك.

نهض محمد واقفاً الآن، فوقف الآخرون، وقال:

- وقد يتغيّر الرأي مع تغيّر الحال واتصال التجارب وازدياد المعارف. أما العرب في جيش الحضرة فهم عرب الأندلس، لا عرب القبائل. وقد نظرت في أحوالهم فوجدت أن أبناء القبيلة الواحدة يجتمعون في فرقة واحدة من الجيش. وفي ذلك ما فيه من المفسدة. فهو أحرى بأن يوقد ما انطفأ من عصبيات الجاهلية.. ثم نُمِيَ إليّ..

تريّث لحظة وهو يحك لحيته وأكمل بلهجة مبطنة:

- أنّ نفراً من مشيخة العرب..

واعترض مستدركاً بسرعة:

- إنّي أبرئكم من هذا بالطبع.

وأكمل:

- يواصلون أبناء القبائل في فِرَق الجيش، ويشيرون عليهم بدالّة المشيخة. وهذا والله من أكبر المفاسد. فالجندي جندي حسب، ولا ينبغي أن يكون له ولاء ولا انتماء إلّا لقادة الجيش وصاحب الدولة.

قال كبيرهم:

- ألهذا عمدت إلى أبناء القبيلة الواحدة ففرّقتهم على كتائب الجيش وخلطتهم بسائر الجند، ثم أنزلتهم منازل مختلفة؟

نظر أبو عامر إليه مع ابتسامة ماكرة وقال وهو يحرك إصبعه:

- قد عرفتَ فالزم! انطلقوا الآن راشدين. بارك الله بكم.

ما إن خرج القوم لا يلوون على شيء، حتى قال عمرو وهو يهز رأسه مبتسماً:

- سبحان الله! كيف يستطيع المرء أن يجادل عن الرأي وضدّه، ويُقنع في الأولى، ويُقنع في الثانية. ولكن، لماذا أتساءل وقد خبرنا ذلك منك أيام كنا نبيع الغزل للمارّة في الجزيرة الخضراء!

تعمّد بذلك أن يذكّره بالمنبت الذي جاءا منه. ولكن محمدا ردّ قائلاً:

- وأنا أسألك بالله، هل خرجت في كلامي معهم عن الحق؟

أجاب عمرو:

- هذا هو المشكل. لا وجه عندي لجدالك. فوالله إن العصبية هي كما قلت، ووالله إن الجند لينبغي أن يكونوا كما وصفت، ووالله إن طالب الولاية لا يُوَلّى..

قال محمد:

- إذن، راجع نفسك. فهناك المشكل!

هز عمرو كتفيه حائراً.

مرّ زهاء شهر على عودة المنصور إلى قرطبة قبل أن يخرج للقاء الخليفة في الزهراء. فأدركه يتجوّل وحيداً في حدائق الزهراء، ولما أحس اقترابه من ورائه توقف دون أن يستدير، ثم قال متهكماً.

- أحقاً قد تفرّغتُ للعبادة؟ فأنت أعلم.

قال محمد:

- مولاي.

- مولاك! بأي معنى؟ أليست هذه الكلمة من الأضداد: المولى بمعنى السيد، والمولى بمعنى الخادم! فأي المعنيين قَصَدْت؟

- مولاي أمير المؤمنين!

هنا التفت إليه هشام وقال:

- أمير المؤمنين! إذن فقد حكمت على نفسك بالقتل أيها.. الملك المنصور! أما قرأت وأنت القاضي القديم حديث رسول الله، ﷺ: من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرّق جماعتكم فاقتلوه!

قال المنصور:

- ولكني لا أريد شقّ العصا أو تفريق الجماعة، ولم أنازعك الخلافة.

- آهه! لم تنازعني الخلافة.. والخلافة لفظ. وما دامت الألفاظ سليمة، فلا مشاحّة.. نعم.. ولكن ما الذي يمنعك من أن تتسمّى بالخلافة

وأنت صاحب السلطان؟ تخشى العامة! هاه! ما الذي يعنيه ذلك؟ العامة الذين جئت منهم يا أبا عامر، أيها الملك المنصور، لا يتخلون عن خلفائهم بني أمية، حتى لرجل منهم صنع لهم مآثر عظمى كالتي صنعتَها أنت. ألا ترى إذن إلى مفارقات الأيام أيها الـ.. ملك. العامة عُدّتي ونصيري، أنا الخليفة ابن الخلائف. وأنت.. عليك أن تخشاهم وتبثّ عيونك بينهم، وأن تنام الليل تخشى أن يطلع عليك الصباح وقد ثارت بك العامة.. وأنا هنا جالس في الزهراء لا أفعل شيئاً..

واستدرك ساخراً:

- آه.. نعم، العبادة!

هنا برزت بعض الجواري يتضاحكن وهن يتعرضن لهشام عن بعد. فأرسل نظرة أخرى إلى المنصور، ثم أقبل عليهن مسرعاً، وأحطن به بدلال ومرح، ومضوا معاً وما تزال ضحكاتهن اللاهية تتناهى إلى سمع محمد الذي بقي واقفاً في مكانه متفكراً، حتى إذا استدار وجد صبح أمامه. فابتدرته بالقول:

- الحمد لله على سلامتك يا أبا عامر.

تمعّن فيها، ولاحَ على وجهها طيف ابتسامة باهتة، واستأنفت قائلةً:

- لا تصدّق؟ بلى والله. كيف لا تسرّني عودتك سالماً غانماً من حرب العدوّ، إلّا أن أخون بلدي ونفسي وولدي الخليفة.. ولكن الشقيّ غالب الناصريّ. كنت أرجو أن يغلبك وأن تَسْلَم بنفسك في الوقت نفسه. فلما علمت أنه حالف العدوّ عليك، دعوت الله عليه وعليهم بالهزيمة، ولك بالنصر والسلامة.. وقد كان. فهل رأيت خصماً مثلي؟ إنك لرجل محظوظ يا أبا عامر.. أم أقول أيها الملك المنصور؟ لا تعادي أحداً ولا يعاديك إلّا كان لك عليه حجة دافعة، أو أَخْرَجَتْه العداوة عن القصد، حتى إذا أَخَذْتَه أَخَذْتَه بالحق، ولم يأسف عليه أحد. أما أنا فلا أخطئ خطأهم. إذا

كنت في جهاد العدوّ، فقلوبنا معك، دعاؤنا لك دعاء لنا جميعاً. فإذا رجعت دبّرنا عليك بكل ما نقدر عليه. وأنا من دون الخلق جميعاً إذا دبّرت عليك لم يسعك أن تتهمني بالتدبير على الدولة والخلافة والسلطان، أو بالعصيان وشق الطاعة. فأنا مع ولدي صاحب الدولة والخلافة والسلطان والأحق بالطاعة. والعامة.. العامة على ذلك. فماذا في وسعك أن تصنع بي يا..

توقفت لحظة قصيرة وتابعت:

- محمد..

أطرق هنيهة قصيرة، ثم قال:

- لماذا يجب أن يستمرّ هذا يا أم هشام!

تنبهت ملامحها واتسعت عيناها وقالت:

- أم هشام!! وأين صبح البشكنسية، أورورا يا محمد! أم فات الوقت على المرأة، وبقي منها الأمومة؟ هل أتمنى عليك بذكرى الأيام السعيدة الجميلة أن تناديني اليوم كما كنت تفعل دائماً، صبح.. أورورا.. حتى وأنت تذبحني من الوريد إلى الوريد.

خلع عمامته وقال بصوت المحب القديم:

- صبح.. أورورا.

- نعم، هكذا.. ما أجملها من فمك!

- لماذا يجب أن يستمرّ هذا؟

- قل أنت. لماذا يجب أن يستمر؟

- لا أنازع أمير المؤمنين خلافته.

- ولكنك تحرمه من حقه في أن يدبر الحكم بنفسه، فلا يبقى له إلّا الاسم.

- وما يريد من أعمال الحكم وأنا أكفيه تكاليفها ومغارمها، ثم تنسب الدولة إليه، فيتمتّع بمغانمها دون أن تؤرقه مغارمها.

- يملك ولا يحكم؟!

- شيء من هذا القبيل.

- وأين مطالب الرجال.. والنساء أيضاً، لو لم يغلبهنّ الرجال على أمرهن؟ وهل تقنع النفوس العظيمة بالخمول، إلّا أن تغالب الحياة وتكتسب مجدها اكتساباً، فتصيب وتخطئ، فإن أصابت فمنها، وإن أخطأت فعليها.. ولكنها أصابتها وخطؤها. أليس هذا ما أخرجك من ريف الجزيرة الخضراء حتى صرت.. الملك المنصور؟ فهل تريد أن يقنع الخليفة وأمّه بأقل مما تقنع أنت به؟

- ألا تدركين يا أمّ.. أعني صبح، أني صرت محكوماً لما أحكم، ولا رجعة ولا مفرّ؟ كيف أصنع حتى أرضيك؟ فوالله لا أحب أن أؤذيك أكثر مما أحب أن أوذي نفسي وولدي. ولكن ما الذي ترجين؟ هبي أني تركت الحكم وقعدت في داري، فلن يكون بوسع الخليفة أن يدبّر الأمور بنفسه إلى حين على الأقل. لانقطاع التجربة الآن لا لصغر السنّ. وفي كل الأحوال يحتاج إلى حُجّاب ووزراء وولاة وعُمّال يصرّفون له شؤون دولته. فهل تعرفين رجالاً يستحقون أن ينهضوا بالمهمة وهم عليها قادرون؟ فأين يذهب ما شيدته بجهدي وعملي للأندلس؟ فوالله ليذهبنّ أدراج الرياح في بضعة شهور. فإن لم يكن من أجل نفسي فمن أجل الأندلس. وما تظنين أن يُصنع بي إذا استعفيت، وقد وترت عليّ نفوس الطامعين الذين أخمدتهم، والخصوم الذين قهرتهم.. لا والله لا عودة، فإما المضيّ حتى نهاية الطريق، وإما القبر والهلاك والبوار.. هذا هو المصير. وما صنعته إلّا بقدر ما قُدِّر لي.. أنا لم أختر أن يطول حُكْم الناصر زهاء خمسين سنة حتى كبر ولده وولي عهده الحكم، فورث رجال أبيه الكهول.. وأنا لم أختر أن يتأخر ميلاد ولد الحكم حتى اكتهل وشابَ رأسه، فأورثه الحكم

صبيّاً لا يقدر على شيء. وقد قيضني الله لهذا الأمر دون الناس، وكنا معاً فيه. وما ذنبي أن أم الخليفة لا يُقْبَل أن تباشر الحكم بنفسها حتى لو كانت قادرة عليه.. أرْجِعي التفكير، وانظري.. ما الذي كان يمكن أن يحدث لو لم أكن في هذا الأمر منذ أوله؟ هل يكون أحسن لك وللخليفة وللأندلس؟ هل كان بوسعك أن تخرجي إلى مجالس الحكم؟ هل كان بوسع مولاي هشام أن يباشر الحكم صبياً؟ هل كان بوسع المصحفي أن يحفظ الدولة لمولاه وقد كاد الرومي أن يطرق أبواب قرطبة أيام حجابته؟ وماذا عن بني أمية الذين تواطأ بعضهم على خلع هشام مع الصقالبة؟ إنه المصير يا صبح.. وإنه القدر الذي لا يُغالَب.. فلا أنا أستطيع ردّه على ما فيه من خير أو شرّ، ولا أنت، ولا أحد من العالمين.. فلماذا نعانده؟ فكّري في الأمر.

وضع عمامته على رأسه وانطلق مبتعداً. ولبثت واقفة هناك تشيّعه بنظرات شاردة.

* * *

كان هشام المؤيّد يتمدّد على الأريكة وقد أحاطت به بعض جواريه، وإحداهن تلقمه من قطوف العنب بغنج ودلال. بينما ترقص أخريات بين يديه على أنغام العود، ثم صدحت المغنية:

وأيّ معشـــــوق جفـــا عاشـــقاً
بعــــد وصــــالٍ نــــاعمٍ نــــاضِرِ
ففـــــي عـــــذاب الله مثـــوىً لـــه
بُعْـــداً لـــه مـــن ظـــالمٍ غـــادرِ

صاح هشام طَرِباً:

- بعداً بعداً.. وسحقاً سحقا.

توقف العزف فجأة وسكنت الحركة.. رفع رأسه ليرى صبح قد دخلت. أومأت للجواري بالخروج بينما اعتدل هشام على الأريكة. ثم أشار إلى العود وقال:

- إذن غَنِّ لي أنت يا أمّ هشام! عرفت أنك كنتِ مغنية بارعة في.. غابر الأيام!

قالت بنبرة حازمة:

- لا تخاطبني خطاب واحدةٍ من جواريك.

قال:

- وأيّ بأسٍ في جوارِيّ؟ ألم تكوني مثلهنّ يوماً؟

صاحت مؤنّبةً:

- هشام!

- هكذا ترفعين الكلفة مع أمير المؤمنين.. الخليفة!

- إذن تصرّف كالخلفاء.

- وكيف يتصرّف الخلفاء؟ أنت تعلمين أحسن منّي!

اقتربت منه ورقّت ملامحها وصوتها وهي تحنو عليه حنو الأم:

- إلامَ يا هشام؟ إلامَ ترضى بهذه الحال؟

- لا أعرف حالاً أخرى كي أقارن وأعرف وأختار. ولكن ما الذي غيّر الحال حتى صرتِ ناقمةً على أبي عامر.. الملك المنصور.. و.. كنتما.. لا أدري ما كنتما!

- ما كنّاه كان التدبير من أجلك. فلما استبدّ دونك تغيّر الحال.. نعم.. لا يتقدّم أحد على ولدي، وأنا أمّك، أدفع عنك..

قاطعها وقد نهض واقفاً:

- أميّ بل قولي: أم ولد الحَكَم.. ولد الحكم الذي اختصّك الحظ بحمله وإنجابه للخليفة بعد طول انتظار حتى جرّده أبو عامر من سلطانه.

قالت تناشده بأسى:

- لا تعذبني يا ولدي.. هذه قسوة بالغة.

- وهكذا الحقيقة أحياناً.. والآن تطلبين مني أن أنهض للدفاع عن حقّي.. انظري هذه الذراع الغضة الناعمة..

وكشف عن ذراعه متابعاً:

- أهذه ذراع رجل قويّ قادر؟

- لا تحتاج إلى السيف لتقاوم طغيانه.

- وأين موالي بني أميّة؟ المصحفي! ثم الناصريّ! والأحياء صاروا مواليه.

- ما زال منهم من يناصر الخليفة ابن الخلائف.. وبنو أميّة.. كلهم ساخط، إن لم يكن جهراً فسرّاً.

- على من؟ على أبي عامر أم على الحكم الذي ولّى ولده الصبي دون إخوته ذوي الأسنان، حتى تسلّط عليه أبو عامر واستأثر بالملك؟ وكيف السبيل إليهم على كل حال، والقصر محاط برجال أبي عامر، والخليفة محجور عليه، لا يخرج إلى أحد ولا يدخل عليه أحد.

- أنا سبيلك إليهم.

قال بلهجة قاطعة:

- لن تفعلي شيئاً.. لا أريد شيئاً.. قد ألفت هذه الحياة حتى صرت لا أدري كيف أصنع بغيرها.. و.. إن كان لك غرض عند أبي عامر فلا تستعمليني له.

قالت متوسّلة:

- لا تعد إلى هذا نشدتك الله.

- وأين هذا من كلام العامة في قرطبة:

اقـــترب الوعـــد وحـــان الهـــلاك
وكـــل مـــا تحـــذره قـــد أتـــاك
خليفـــــة يلعـــــب في مكتـــــبِ
وأمّــــــــــــــــــــــــــــه ....

صرخت الآن بصوت جريح:

- نشدتك الله لا تقتلني بهذا.

- يقتلك؟ فكيف تظنين أنه يصنع بي؟

- من يجرؤ على أن يسمعك إياه؟

- إنه في كل مكان.

- ألا تدرك ما يعني هذا؟

- ليس صعباً فهمه.

- والله ما فرطت وما خنت أباك حياً أو ميتاً.

- خنتِني أنا.

- لم أفعل.

- هذا ما يعتقده الناس، وما سوف يرويه أهل الأخبار في كتبهم حتى يقرأه القاعد في صنعاء بعد ألف سنة.

- وهو أفدح الظلم ورب الكعبة. اجتَهَدْت، وحَكَمت المصائر. سأقاتله عنك، كما قاتلت معه عنك أيضاً في سالف الأيام.

كانت دموعها تسيل بغزارة. حدّق فيها، ثم ألقى عليها السؤال الثقيل:

- إذن، اصدقيني. هل أحببتِه يوماً؟

تجمّدت ملامحها من أثر الصدمة. وحين تأخرت في الإجابة صاح بها من جديد:

- أجيبي.. هل أحببته يوماً؟ هل أحببتِه يوماً؟

صرخت باكيةً وهي تنزل على ركبتيها أمامه:

- نعم! نعم! نعم!

ران الصمت، إلّا من نحيبها الموصول. وأطرق هشام كسيفاً. وبعد هنيهة رفعت رأسها إليه وقالت بصوت خفيض مكلوم:

- ولكني لم أَخُن أباك، والله على ما أقول شهيد.

مدّت يدها لتأخذ بيده، ولكنه انفلت منها ومشى مبتعداً بضع خطوات، واتكأ على حافة الأريكة مطرقاً. وران الصمت من جديد، قبل أن يتحدث بلهجة هادئة ليس فيها شيء من الغضب أو الانفعال.

- كنت أظنّ أنني سأنفجر غضباً إذا سمعت ذلك وتحقق لي صدقه. ولكن أحسب أني كنت أعرف طوال الوقت.. فالحب يكشف عن نفسه ويشي بصاحبه.. في بريق العين.. ورجفة اليد.. وحرارة الأنفاس.

التفت إليها أخيراً وقد رقّت ملامحه وسأل:

- لماذا لا أجدني غاضباً؟

قالت:

- لا سلطان على القلب يا ولدي.. إنما السلطان على الجوارح.. وهذا أمر يحدث لك، ولا تُحدثه.

أطرق من جديد وهزّ رأسه وقال:

- ليته يحدث لي!

ثم خرج من المكان.

* * *

استطاعت صبح أن تخرج من الزهراء منقبة الوجه وفي ثياب بسيطة كيلا تلفت الأنظار. ومضت على بغلتها مع اثنين من فتيان القصر، حتى بلغت قصراً منيفاً لأحد شيوخ بني أمية، حيث كان في انتظارها عدد من وجوه المشيخة. وحين دخلت عليهم أزالت نقابها، وتحدثت فيهم واثقةً:

- لا تعجبوا أنّي قدمت عليكم متخفية كأصحاب الرّيب. فذلك أهون من أن يدعوكم الخليفة إليه أو يخرج إليكم بنفسه. وقد تعلمون السبب. ولكنْ أعلموني أنتم، شيوخَ بني أميّة، كيف رضيتم بهذه الحال، والذي حُجِرَ عليه في الزهراء ليس خليفتكم وابن الخلائف منكم حسب، إنما حجر معه على خلافة بني أمية وإرث آبائهم على الجملة. أين عهد الداخل، صقر قريش، الذي صنع هذا الملك العظيم ليكون في عقبه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؟ أين عهد عبدالرحمن الناصر الذي سما بالأندلس إلى منازل النجوم؟ أين عهد الحكم المستنصر؟ هل نشهد الآن أفول أقمار بني أمية وآخر أيام العروس، وإدبار ربيع الخلافة والأندلس، وإقبال الخريف؟ هل ولدي هشام المؤيّد آخر خلفاء بني أميّة في المغرب؟ إنكم والله إن دافعتم عن حق ولدي، فإنما تدافعون عن تراث آبائكم التليد، وذخرهم العتيد، وعن قابل أيام بني أمية والأندلس معاً. وهذه صيحة امرأة لا تفرّط بحق ولدها وإرثه. فأين نخوة الرجال التي جعلوها شعاراً لهم دون النّساء؟ فهل يتقدّمون وقت الطمع، ويحجمون عند الفزع؟

ساد صمت ثقيل. ولبثت واقفة تستعرضهم ببصرها، وتنتظر الإجابة، حتى تحدث كبيرهم.

- قد أسمعتِ سامعين. ولكن أين السيف وقد حاز أبو عامر الجيش كلّه وأكثر فيه من مواليه، ولا يطيعون غيره.

قالت:

- العامة! هم الجيش الذي لا يمتلكه أبو عامر. وهم أوفياء لعهد بني أميّة. وقد خدعهم أبو عامر حين زعم أن الخليفة قد عهد إليه بالحكم عنه لينصرف إلى عبادته. ولا والله ما خُدِعوا، إلّا أنهم يتساءلون. فبُثّوا رجالكم فيهم وتوصلوا إليهم بالحقيقة. فإن العامة إذا هاجت لم يوقفها شيء.. فإما أن يستجيب لها فيحصل المطلوب، وإما أن يسلّط عليها شرطته وجنده، فتزداد نقمةً عليه، ولا تشفع مآثره عندهم لاستبداده. فإن الاستبداد يمحو المآثر مهما تكن عظيمة.

تبادلوا النظر وهم يهزون رؤوسهم هزات خفيفة.. واستأنفت قائلةً:

- أما أنا فلي عمل آخر. والمال الذي استمال به جنده، عندنا منه ما يمكن أن نستميل به كما استمال.

مكتبة
t.me/t_pdf

في زحمة الأحداث وتواليها، لم يتوقف أحد ليتساءل عن السبب في وجوم إبراهيم المستمرّ وصمته وشروده. أما هو فكان يشعر بثقل في صدره وأنه قد أوغل في متاهة يكاد أن ينكر معها نفسه.

كانت الحياة واضحة حين كان يطرق الحديد في سوق الحدّادين: العدو والصديق، والخير والشر، والحق والباطل.. والظالم والمظلوم.. كل هذه كانت الحدود بينها واضحة.. أما الآن فقد تشابهت عليه والتبست، فكثرت الأسئلة في نفسه وقلّت الأجوبة. فهل ذاك لأن حياته الجديدة بين أهل الحكم قد كشفت له من طبائعها وطبائع الناس والسلطان ما كان خافياً عنه في منزله القديم؟ أين تنتهي القوة ويبدأ العنف، وأين ينتهي الحزم ويبدأ البطش، أين ينتهي الدهاء الممدوح ويبدأ الدهاء المذموم؟ وهؤلاء القوم الذين بطش بهم أبو عامر بعد أن أقاموا الحجة على أنفسهم، هل أخرج أبو عامر ما كان في صدورهم من الشر، أم أنبته فيهم؟

كلٌّ ينطق عن وطائه! هذا ما قاله في يوم قديم لأبي عامر حين كانا في سجن الصقالبة يتجادلان في أحسن الطرق لتغيير الحال ورفع المظالم. وهو الآن أشد خشية من أي وقت في أن يجعله وطاؤه الجديد في أهل الحكم شريكاً فيما كان ينكره قديماً. فليس هذا الذي صار إليه أبو عامر ما تعاهد الرجلان عليه في السجن. بلى، قد نجح أبو عامر في التخلّص من أولئك الصقالبة، ومن فساد المصحفيين واستعلائهم، ولكنه استبدل بهؤلاء فتيانه، وجعل الموالي مواليه، وإن كانوا، بخلاف السابق، لا يطلقون أيديهم في حقوق العباد، ولا يجرؤون على التصرف إلّا بأمره.

ولكن، إذا كان في هذا بعض الخير، فهل الخير كلّه في أن ينفرد بالأمر كلّه؟! وإذ كان يرى إفراط رجاله في النفاق، فقد أورثه ذلك سؤالاً ممضاً: هل الاستبداد والإفراط في القوة هو ما يخلق النفاق خوفاً وطمعاً، أم أن نفاق المنافقين هو ما يغري السلطان بالمزيد من الاستبداد والتفرّد؟ أم أن كلا الطرفين يسهم في صنع الآخر؟!

وها هو الآن يقف مع غيره في مجلس الحكم في الزاهرة، وقد جلس الملك المنصور على سرير الملك بكل مظاهر الأبهة وهو يحمل صولجاناً مرصعاً بالجوهر وخلفه عدد من الفتيان في ثيابهم المزركشة، والشعراء والخطباء يتعاقبون على إلقاء مدائحهم بين يديه، كل منهم يزيد على الآخر.

وكـــل عـــدوٍّ أنـــت تهـــدم عرشـــه
وكـــلّ فتـــوحٍ عنـــك يُفـــتح بابُهـــا
فـإن سَـنَحت في الشِّـرْك مـن بعـد فتحِـه
فتـــوحٌ فمصـــروفٌ إليـــكَ ثوابهـــا

لا بأس. ولكن هذا الشاعر لن يبلغ منزلة ابن دراج القسطلي، أهم شعراء المنصور وعصره، الذي حان دوره الآن:

لـــك الله بالنصـــر العزيـــز كفيـــلُ
أَجـــدَّ مقـــامٌ أم أجـــدَّ رحيـــلُ
هـــو الفـــتح، أمـــا يومـــه فَمُعَجَّـــلٌ
إليـــكَ، وأمـــا صـــنعُه فجزيـــلُ
وآيـــاتُ نصـــر مـــا تـــزال ولم تـــزل
بهـــنّ عمايـــات الضـــلالِ تـــزولُ

سـيوف تثـير الحـقَّ أنّـى انتضـيتَها

وخيـلٌ يجـول النصـر حيـث تجـولُ

ثم تعاقب عدد آخر من الشعراء والخطباء، حتى قام الشاعر الكاتب عبدالعزيز بن الخطيب، فقال:

- مولاي الملك المنصور. لقد والله حيرتم الشعراء والخطباء. إذ كيف للعبارة أن تحيط بأمجادكم ومآثركم. فاللغة على حدّ ما خبر البشر، وأنتم فوق الخبر، وأوسع من منتهى البصر. والإناء مهما يعظُمْ لا يسع البحر المحيط، والقاصر المتناهي أعجز من أن يحيط بالكامل التام. فكأني وإياكم كالناظر إلى مواقع النجوم، فهل يرى من فطور؟ فإذا رجع البصر كرتين انقلب البصر خاسئاً وهو حسير. ولقد والله تفكّرت فيكم آناء الليل وأطراف النهار، فكلما ظننت أني أقول فيكم شيئاً انكفأت العبارة دون مآثركم، حتى لم أجد من القول ما يرقى إليكم إلّا بعض ما قاله غيري فيمن هو دونكم، وأنتم أحقّ به وأجدر. وذلك قول الشاعر:

مـا شـئتَ مـا لا شـاءت الأقـدارُ

فـاحكم فأنـت الواحـد القهّـارُ

هنا صاح المنصور صيحة منكرة دوت في المكان:

- أيها الصفيق الحقير! أوقد بلغ بك نفاقي أن تكفر بالله في مدحي، وقد ظننتَ أنك بذلك تفوز برضاي فأبوء بغضب الله وأكون شريكك في الكفر والعدوان. لا والله ما هذا بمدح، بل هو أشد الهجاء. إذ ما زدت على أن جعلتني ممن اتخذ نفسه إلهاً من دون الله -معاذ الله- معاذ الله!

ثم أومأ إلى إبراهيم:

- خذوه فاجلدوه خمس مائة جلدة، ثم انفوه من الأندلس كلها.. لا يطؤها بعد وأنا حيّ.

وخرج من المجلس وهو ينفخ غضباً.

أما إبراهيم فكان أكثر الناس حماساً لتنفيذ الأمر. فقد كان يتميّز غيظاً وهو يستمع إلى الرجل يوغل في النفاق، ويبلغ به ما بلغ من الغلوّ، حتى شفى المنصور صدره.

هذا هو أبو عامر.. يأبى إلّا أن يبقيك حائراً فيه، فلا تسوؤك منه أمور، حتى تسرّك منه أمور أخرى. ولا تقول إن جديده قد طغى عليه، حتى ينبعث فيه قديمه. هكذا كان إبراهيم يحدِّث نفسه، وهو يتجوّل في أسواق قرطبة ودروبها شارداً متفكراً. فما خرج اليوم ليرقبهم بعين صاحب الشرطة، وإنما بعين الحدّاد الذي ما زال يحن إلى وطائه القديم بعد أن ضاق صدره بوطائه الجديد. هؤلاء هم ناسه، وهذه هي دروبه، وهذا هو مشربه وأنسه. هنا بين هؤلاء الناس يشعر أنه في أهله. ولكن.. واأسفاه.. ليس هذا ما يراه الناس فيه الآن.. فهو عندهم صاحب الشرطة الذي ينبغي أن يخشوه. فكان إذا بلغ في تجواله جماعة من الرجال يتحادثون همساً أو بأصوات خفيضة، ثم تنبهوا إليه، يسمع بعضهم ينبه بعضاً: صاحب الشرطة! ثم يراهم ينفضون على عجل وهم يتحاشون نظراته. وإذا ابتدرهم بالسلام تمهيداً لمخالطتهم، ردوا باقتضاب ومضوا في حال سبيلهم، فيزداد انقباضاً. حتى بلغ سوق الحدادين حيث أصحابه القدماء. وكان جماعة منهم يتهامسون في أمر الخليفة المظلوم الذي حجر عليه المنصور زاعماً أنه قد عهد إليه بالحكم عنه، ليتفرّغ للعبادة.

وكان قد سرى بينهم أنه يستنصر رعيته ليؤازروه على من غصبه حقه. وكان ذلك مما سعت فيه صبح واستعانت عليه بالمال. فلما برز لهم إبراهيم اضطربوا وبدأوا في الانفضاض. فصاح بهم إبراهيم:

- إلى أين؟

توقف بعضهم والتفتوا إليه متوجّسين . وقال أحدهم بنبرة المريب الذي يريد دفع التهمة عن نفسه:

- لم نقل إلّا خيراً.

هتف بهم إبراهيم:

- يا قوم.. ما الذي جرى لكم؟ أنا صاحبكم إبراهيم.. إبراهيم.

ودقّ على صدره..

تبادلوا النظر، ثم تجرّأ أحدهم فقال:

- أما زال صاحب الشرطة صاحبنا؟

أجاب إبراهيم مؤكداً:

- وعلى العهد أبداً.

تجرّأ آخر وسأل:

- عهد من؟

أجال إبراهيم النظر فيهم وقد سُقط في يده، وقال كمن يحدِّث نفسه:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. ما الذي أحدثنا في الناس.. وفي أنفسنا؟!

* * *

آن وقت المصارحة والحسم.

ظن أبو عامر أنه قد جاءه بأمر طارئ، حين طلب لقاءه في غير الوقت الذي يجلس فيه لعُمّاله. ولكن إبراهيم افتتح بالقول:

- يا أبا عامر.. قد تباعد ما بيننا وبين عامة الناس، حتى لم نعد نعلم كيف يفكرون ويشعرون.. وهؤلاء المدّاحون المنافقون الذين يغشون مجلسك، لا يسمعونك غير ما يتقرّبون به إليك..

- أفي هذا جئتني الساعة؟

- وأي شيء أهم وأخطر؟

- قد رأيت بنفسك كيف صنعت بمن اشتط وغلا.

- وما حدّ الشطط؟ الشرك والكفر فقط؟ وما دون ذلك من النفاق مقبول؟

ثم استدعى بعض ما سمعه من الخطباء مقلّداً طريقتهم:

- المآثر التي تُنْطق أهل العيّ، ويبصرها الأعمى، ويسمعها الأصمّ! أليس هذا من الشطط؟ أم أن الشطط الأعظم، وهو الشرك، يجعل ما دونه صواباً؟ الوفاء والإخلاص لا يكونان بالنفاق وحجب الحقيقة وإسماع صاحب الأمر ما يحب سماعه. إنما يكونان ببذل النصيحة الخالصة لوجه الله تعالى، وإن كانت موجعة. وقد ضاقت نفسي اليوم بما شهدته وسمعته في مجلسك، فخرجت إلى الطرقات والأسواق أسترجع نفسي، فرأيت الناس يتهامسون، فإذا رأوني وعرفوني تحاشونني وانفضوا على عجل، ووجوههم تنبئ عما في صدورهم.. صاحب الشرطة.. صاحب الشرطة.. أسمعهم يتهامسون همس المتوجّس الخائف، وأنا منهم.. قد عرفوني عريف الحدادين من قبل، أقاسمهم همّهم وأسعى في ذمتهم، وأذبّ معهم الظلم حين يقع. فلماذا صاروا يتحاشونني؟ ومنذ متى صار صاحب الشرطة يثير الخوف، وكان حقه أن يبسط الأمن، فإذا رآه الخائف أَمِن.. ثم لقيت أصحابي في سوق الحدّادين، أولئك الذين كنت عريفهم أتصدّر لحاجاتهم، ففعلوا كالآخرين، حتى عزمت عليهم، وحلفت لهم أني لم أُغيِّر ولم أتغيّر.. فتبسّطوا معي بعد الروع، وأفضوا لي بما في نفوسهم.

قال أبو عامر محافظاً على هدوئه:

- وما في نفوسهم؟

- أنك غصبت الخليفة حقه، وحجرت عليه ظلماً، وهو صاحب البيعة في أعناق الرعية، وهم مسؤولون عند الله عنها.

- يقولون ذلك بعد الذي صنعتُ لهم؟

- صنعت لهم وبهم يا أبا عامر! وكنتَ أحبَّ الناس إليهم. وما زالوا يشكرون لك مآثرك فيهم، وفي جهاد العدوّ. ولكنهم يزنون.. وميزانهم دقيق أمين. نعم، أمَّنْتهم من اللصوص وأهل الشرور، ثم أخفتهم بحرسك العامريّ والعيون التي بثثتها بينهم، حتى لم يعد الأخ يفصح أمام أخيه، يخشى أن يكون عيناً.. وحجرت على خليفتهم..

قاطعه محمد بنبرة مشوبة بالغضب:

- وما فعل الخليفة لهم حتى يقدّموه؟

- هذا هو سبب النقمة في نفوسهم.. لم تترك للخليفة أن يفعل ما حق الخليفة أن يفعل، حين عطلته عن الحكم.

أرسل محمد إلى إبراهيم نظرة صارمة وقد اشتد عبوسه، ثم قال مؤنباً:

- وأنت؟ وقفت هناك تنصت إلى أراجيف أهل الغرض والسوء والريبة، ولم تتقبّض عليهم؟ وأنت صاحب شرطتي؟

اهتزت ملامح إبراهيم، ولكنه تمالك نفسه وقال:

- أهل الغرض كما تسمّيهم يا أبا عامر، هم كل الناس.. أو جُلّهم.. فهل أتقبّض على أهل قرطبة؟

صاح أبو عامر:

- بل هم نفر قليل دسّهم أهل المطامع ليفسدوا عليَّ الناس، ويشعلوا الفتنة، وكان من واجبك أن تتقبّض عليهم وقد عرفتهم. فماذا عساهم يقولون الآن؟ ما سكت عنا صاحب الشرطة إلّا لأنه يوافقنا، فتقوى نفوسهم بك، ويحسبون أن لهم من رجالي نصيراً.. فإن شئت أن تتدارك هفوتك، اخرج من الساعة مع شرطتك، وتقبّض على أولئك جميعاً.

هز إبراهيم رأسه يميناً وشمالاً بأسف، ثم قال بصوت هادئ:

- إنهم أصحابي.

هنا دوّى صوت محمّد بالمكان، وقد بلغ به الغضب:

- كيف تكون صاحب شرطتي وصاحباً لدعاة الفتنة في الوقت نفسه؟ وأنا الآن آمرك، فاسمع وأطع!

أطرق إبراهيم قليلاً، ثم خلع خاتم صاحب الشرطة من إصبعه، ووضعه بهدوء على المنضدة.

- هذا خاتم صاحب الشرطة يا سيدي.

كان هذا آخر ما توقعه محمد على الرغم من كل تلك المقدِّمات. بدا حائراً مضطرباً للحظات قصيرة، ثم صاح من جديد:

- ترفض أمري وتستعفي من الخدمة بدون إذني، وتختار عليّ الرعاع وأهل الفتنة الذين تسمّيهم أصحابك؟

انحنى إبراهيم برأسه له انحناءة خفيفة، واستدار ومضى في طريق الخروج، بينما استأنف أبو عامر صياحه في أثره:

- هذا هو الجحود وسوء الأدب.. بل هو العصيان.. نعم.. هو العصيان.

ثم نزل جالساً يلهث، وخلع عمامته وقذفها جانباً ووضع رأسه بين كفيه وقد اختلطت فيه مشاعر الأسى والغضب.

* * *

ضربت أمينة، زوج إبراهيم، على رأسها وأخذت تولول:

- ما فعلت بنا وبنفسك أيها الرجل؟ تردّ النعمة وتجحد الفضل بعد أن جاءك إلى دارك؟ هل جننت؟

صاح بها إبراهيم:

- اصمتي يا امرأة.. ولا والله ما هي بنعمة.. بل هي النقمة، وما طابت بها نفسي يوماً.

- أي رجل لا تطيب نفسه بمخالطة الملوك والأمراء، ويخرج من نفخ الكير إلى طيب القصور، ومن شقاء الفقر إلى نعيم الغنى، ومن خمول الذكر إلى سموّ المنصب، إلّا أن يكون..

قاطعها صارخاً:

- قلت اصمتي، وإلّا..

- وإلّا ماذا؟ نعم.. ذهب أمرك ونَهْيك في الرجال، وبقي سلطانك على زوجك، وكفى بذلك سلطانا.

قال قبل أن يخرج:

- أعدّي نفسك لمغادرة هذا المنزل، فما هو بالبيت الذي يصلح لسكنى الحدّادين!

* * *

في سوق الحدّادين، تجمّع أصحاب إبراهيم القدماء عند دكانه، ينظرون إليه بخليط من الدهشة والسرور، وهو يعيد فتح الدكان بعد سنين من إغلاقه، وقد ظهر الآن بثياب الحدّاد وأخذ يتحسس أدواته ويتفحّصها. ثم نظر مبتسماً إليهم وقال:

- سيكون عليكم أن تنافسوني في عمل الحدادة منذ اليوم.

وما هي حتى أقبلوا يحتضنونه كمن عاد من سفر طويل، وقال أحدهم:

- أهلاً بك بين أهلك وأصحابك يا أبا حمدون.

كان عليّ أشدّ الناس أسفاً واستيحاشاً لغياب إبراهيم، وأكثرهم إعجاباً وتقديراً لشجاعته. وكان في نفسه شيء مما في نفسه. وبينما كان إبراهيم منهمكاً في عمله، يساعده ولده حمدون الذي غدا الآن شاباً، فوجئ بصوت عليّ يقول:

- سلام على إبراهيم.

توقف إبراهيم عن عمله ونظر مبتسماً، ثم قال مداعباً:

- سيدي صاحب الحسبة! المعادن عندنا قوية ونقيّة، لا نغش ولا نخلط. تحقق بنفسك إن شئت.

- لا داعي للتحقق والفحص. فقد اختبرنا معدنكم فوجدناه ذهباً خالصاً.

- أين نحن والذهب! ذلك عمل الصيّاغين.

- الناس معادن كمعادن الذهب والفضة.. خِياركم في العامة خياركم في الخاصة!

مسح إبراهيم يديه بخرقة وأقبل على عليّ يصافحه. ولكن عليّاً آثر أن يحتضنه، فقال إبراهيم مداعباً:

- لن ترضى عنك زوجك الليلة.

أزال آثار الزُحار الذي أنطبع على يد عليّ وثيابه. وقال عليّ ضاحكاً:

- ليلة واحدة، لا بأس، والله المستعان.

قال علي:

- كيف حالك يا إبراهيم.

- لا أشكو والحمد لله.

أطرق إبراهيم لحظة قصيرة متفكراً، ثم رفع رأسه ورمق عليّاً:

- تعلم أنك تجازف بإسخاطه، إن علم أنك زرتني.

- أقدّم خوفي من سخط الله أن أتنكّر لصاحبي وأهل مودّتي خوفاً من سخط السلطان.

- أنا أُحِلّك.

- ولكني لا أُحِلّ نفسي.

تلفت عليّ في المكان والمارّة ثم قال:

- إني لأغبطك يا إبراهيم، فأنت رجل ذو عزيمة جبّارة.

أشار إبراهيم إلى المارّة وقال:

- بل أنا واحد من هؤلاء. كما لا يخرج الرجل من جلده ولونه إلّا بالموت. وربّ حي ميت وهو لا يدري!

هز عليّ رأسه متأمِّلاً وردّد:

- وربّ حيّ ميت!

ثم عاد يحدِّق في إبراهيم بإعجاب واستأنف قائلاً:

- كنت أظنّ أن العزيمة الكبرى هي أن تصعد من قعر الوادي إلى قمة الجبل الشاهق، مع ما في ذلك من المشقة والجهد. حتى تعلمت منك أن أعظم منها أن تهبط بطوعك من المنزل العالي بعد أن ذقت حلاوة العيش فيه، إلى المكان الخفيض حيث تزدحم الأقدام ويتدافع الخلق على قوت يومهم، ضناً بروحك وقلبك. وهذا هو الزهد الذي لا يقدر عليه إلّا أولو العزم من الرجال.

من جديد، أشار إبراهيم إلى السوق والمارّة وقال:

- هذا في مذهبي هو المنزل العالي.

هز عليّ رأسه موافقاً وقال:

- ونِعْمَ المنزل.. وإنما السموّ سموّ الروح، أما البدن فيستوي تحت التراب.

أخذ إبراهيم يتفحّصه بنظراته وقد شعر بما يعتلج في صدره، ثم سأل:

- وما يحملك على ما تكره؟

أجاب عليّ:

- حق النصيحة للصحبة القديمة.. حتى يدركني اليأس. وهو، على ما تعلم وأعلم، رجل عظيم، ما عرفت الأندلس مثله غير صقر قريش والناصر. وقد بلغ من العدو ما لم يبلغه أحد قبله، وأقام العمران، وقضى على أصحاب الشرور حتى أَمِن الناس.

قال إبراهيم بلا تردد:

- إلّا منه!

قال عليّ ملتمساً المعاذير، ربّما لنفسه أيضاً، فضلاً عن المنصور:

- كثرة الخصوم تزيد الحذر، وإذا زاد الحذر..

قاطعه إبراهيم:

- ولماذا يزيد الخصوم؟

قال عليّ:

- ما أخذ أحداً حتى الآن إلّا بحق. وكلهم ممن طغى وظلم وتجبّر وأكل حقوق العباد، أو تواطأ مع الروميّ.. وقد عدل في الناس.. يجب أن تقرّ له بهذا.

- والخليفة؟ صاحب البيعة!! هل طغى وتجبّر حتى يغصبه حقه الذي بايعه عليه الناس، وأعطوا على ذلك أغلظ الأيمان والمواثيق؟ انظر إلى هؤلاء..

وأشار إلى أهل السوق وهو يتابع:

- لماذا لا يعظّمونه في أمر حتى يتهموه في غيره؟ قد قسموا قلوبهم بين إجلاله والنقمة عليه؛ بين الخوف عليه والخوف منه! فهو بطلهم وخصمهم، يخاصمون فيه ويخاصمونه. لماذا، وهم أولى الناس بأن يمنحوه حباً خالصاً لا تشوبه شائبة، وقد خرج من بينهم ثم صنع لهم وللأندلس ما صنع. لماذا؟ الاستبداد بالأمر يا عليّ، حتى مع العدل. قد يرى الناس بعض منافعه أول الأمر، ثم يغلب الضرر. والناس ناسان. أما جُلّهم فقلوبهم مع الخليفة ابن الخلفاء الذي عطّله صاحبنا.. وأما نفر منهم فينظر ويقول: إذا كان لرجل غير أبناء الخلفاء، أن يحوز الملك، فلماذا يكون هو، ولا أكون أنا. فإذا تراخت قبضته أو تولّى زمانه، سامها كل طامع، فينفرط عقد الأندلس. فكيف إذن لا يكثر الخصوم؟ ومع كثرة الخصوم زيادة الحذر والشدّة والبطش والاستبداد. فإذا روجع ونُصِح قال: هؤلاء نفر قليل من أهل الفتن والشرور والمعاصي والمطامع، لا يستهدفونني إلّا بقدر ما يستهدفون الأندلس وصالح الرعية. وهل تعلم؟ إنه ليُصَدِّق ذلك حقاً. ولكن الحال أنه ينتهي إلى مخاصمة الرعية كلها باسم الرعية كلها!

أطلق نفخة عميقة، ثم استدرك على نفسه:

- امض يا صاحب الحسبة. لا أريد أن أورِدك المهالك، فإن إنصاتك إليّ وسكوتك عن كلامي هما جريمة لا يغتفرها السلطان!

عاد إلى الطَّرق على الحديد. ولبث عليّ هنيهة يتأمّله قبل أن ينثني راجعاً متفكّراً في كلامه.

لم تكن تأمل في أن يجيب دعوتها للقاء سرّيّ في الزهراء. وكانت تدرك أن الأمر ينطوي على مجازفة، بأن يخطر أبا عامر بالأمر. ولكنها كانت تشعر أنه لم يعد هناك ما تخسره. حين أقبل عليها قالت مرحِّبةً:

- أهلاً بفارس العدوة جعفر بن عليّ بن حمدون.. أم أقول: فارس العدوة والأندلس معاً؟

كانت تقف منقبة الوجه. وبقي صامتاً يترقب. وتابعت قائلة:

- لطالما سمعنا عنك. قد طبّقت أخبارك الآفاق. أنَسَيْت الناس غالباً الناصريّ قبل أن.. غفر الله له على كل حال.. و.. غفر لمن أعان الشيطان عليه! نعم قد تسامعنا بأخبارك حتى أحببنا أن نراك..

استعرضت بنظرها جسمه القوي الطويل المنتصب كالرمح، وصدره العريض وعضلاته المفتولة التي لا تخفيها الثياب، وقالت:

- وأرى الآن أن النظر يصدِّق الخبر.

ثم كشفت النقاب عن وجهها، فلم يستطع أن يخفي دهشته بجمالها الصارخ الذي لم تذهب به الأعوام، فقال:

- نعم، النظر يصدِّق الخبر! .. والآن ما غرض هذه الدعوة يا سيدتي؟

رمقته بنظرة عميقة قبل أن تجيب:

- قل أنت أولاً.. ما سبب إجابتك الدعوة؟

- لِنَقُل: إنه الفضول.

- هل أعلمتَ أحداً بزيارتك؟

اكتفى بالصمت.. وقالت:

- لا لم تفعل.

وابتسمت ابتسامة واسعة، واستأنفت:

- بل أخفيتها بقدر ما حرصت أنا على إخفاء دعوتي. ألا يدلّ ذلك على أنك تعرف الغرض؟

أحب أن ينهي الكلام المبطّن، فقال بنبرة قاطعة:

- لماذا لا نتحدث صراحاً يا سيدتي.

- نعم، هكذا الفرسان.. قد اعتادوا المواجهة صراحاً.

تريثت لحظة ثم قالت:

- فليكن.. ما الذي تؤمّله من صاحبك يا ابن حمدون؟ أن تبقى قائد الحرس العامريّ، وأن تحتفظ بلقب ذي الوزارتين؟

- وما الذي أطلبه فوق ذلك؟ الشكر مبذول لأبي عامر.

- تعني الملك المنصور؟ الأدب مع الملوك يا ابن حمدون، وإلّا نالك شيء من سخطهم. والمنصور إذا سخط على أحد نكبه ولم يبالِ. والسعيد من اتَّعظ بغيره، والشقي من اتَّعظ بنفسه. فأيّ الرجلين أنت يا ابن حمدون؟ هل تصبر حتى تتعظ بنفسك بعد الفوت؟ أم تتعظ بمن سبقوك. في البدء ضرب الصقالبة بالمصحفيين، حتى إذا تمّ له الأمر، ضرب المصحفي وقومه بغالب الناصري، وكان صهره، ثم غالباً الناصريّ بابن حمدون.. فبمن يضربك غداً؟

همّ أن يتدخل بالكلام فقاطعته مع حركة من يدها:

- لا تقل: لا يجرؤ عليّ.

- بل أردت أن أقول: لماذا يتغيّر عليّ وأنا أواليه ولا أطمع بما في يديه؟

- لم تحسن الظنّ بنفسك يا أبا أحمد.

حدق فيها مستطلعاً مغزى كلامها، واستأنفت:

- يكفي أن تكون رجلاً قوياً وقائداً عظيماً حتى يدبّر للتخلّص منك بعد أن استوفى منك غرضه، فأمثاله من الطغاة لا يحتملون وجود الأنداد في جوارهم، فلا يبقى إلّا الضعيف العاجز الذي لا يُخشى. فمن أنت يا ابن حمدون؟ الرجل الأول أم الثاني؟ ابن حمدون سيد بني برزال وفارس العدوتين، أم مولى محمد بن أبي عامر، كما يُحِبّ أن يسميكم؟

اقتربت منه واقتحمت عينيه بنظراتها، واستأنفت:

- أَدْرِكْ نفسك يا ابن حمدن.. يا ذا الوزارتين.. و.. يا حاجب أمير المؤمنين المقبل. ولسوف تجد الخليفة معك، وأمّ الخليفة، وبني أمية، وجُلّ العامة.

لبث صامتاً بضع لحظات يتأمّل فيها، ثم حرك رأسه يميناً وشمالاً وقال:

- أخطأتِ التقدير يا أمّ هشام. لا أنزع يدي حتى ينزع.

واستدار عنها ماشياً وهي تلاحقه بالكلام:

- فإذا نزع، ولسوف ينزع، فسيكون الوقت قد فات، ووقع السيف على الرأس.. ولاتَ حين مندم.

تابع مشيه مبتعداً دون أن يلتفت، بينما وقفت تشيعه بأنظارها.

* * *

تعالت أصوات النظّارة بالهتاف لابن حمدون وهم يشاهدون مهاراته الفائقة في أعمال الفروسية متفوقاً على كل منافسيه: من السبق في مضمار السباق، إلى مهارات الرمي بالقوس والنشاب وإصابة الأهداف من على ظهر الجواد المنطلق بأقصى سرعة إلى التقاط الرايات الصغيرة المزروعة في الأرض في أثناء العدو. أما المنصور فكان يجلس على مقعد خاص فوق منصّة مرتفعة بين وزرائه وأعوانه، وبينهم عمرو وعليّ والوزيران المقدّمان ابن حزم وابن شهيد. ويقف خلفه عدد من الحرس والخدم. وكان يراقب ما يجري في ميدان الفروسية بنظرات غامضة، وقد بدا أنه غارق في أفكاره.

ثم انتقل وأصحابه إلى حدائق الزاهرة والمنية العامرية فيها التي أوقف على العناية فيها جيشاً من أهل الخدمة والزُّرّاع فصارت كأنها قطعة من الجنة بشجرها وزهورها ومائها والمقاعد الرخامية المتفرّقة والمجالس المفتوحة فيها. وإذ دخل جنّته قال لشاعره عمرو بن الحبّاب:

- هل جادت قريحتك بشيء من الشعر في العامرية؟

- أما والله لقد جادت.

ثم أنشد:

لا يـــوم كـــاليوم مـــن أيامِـــك الأُوَلِ
بالعامريّـــة ذات المـــاء والظُّلـــلِ
هواؤهـــا في جميـــع الـــدهر معتـــدلٌ
طِيبـــاً وإن حـــلّ فصـــلٌ غـــيرُ معتَـــدِلِ
مـــا إنْ يبـــالي الـــذي يحتـــل ســـاحتها
بالســـعد ألّا تحـــلّ الشـــمس بالحَمَـــلِ

هز المنصور رأسه وقال:

- لا بأس.. لا بأس.

قال ابن الحباب:

- أَنظِرني يا سيدي حتى آتيكَ بأحسنَ منه.

كان ابن حمدون يمشي إلى جانب المنصور متقدّمين على الآخرين، حين قال المنصور:

- قد أبديتَ اليوم من فروسيتك عجباً يا أبا أحمد.

قال ابن حمدون متفاخراً:

- هذه صنعتي يا سيدي مُذْ عَقلِت. كأني ولدت على ظهر الجواد.

- ونِعْمَ المنزل والمكان.

بعد لحظات قال محمد بلهجة غامضة دون أن يلتفت إلى ابن حمدون:

- هل ثمّة ما تحب أن تخبرني به يا أبا أحمد؟

بدا التعجب على وجه ابن حمدون، ثم أجاب:

- لا خبر عندي لا تعلمه يا سيدي.

هنا توقف المنصور والتفت إليه محدِّقاً:

- حقّاً؟

أدرك ابن حمدون المغزى، فقال:

- لم أشأ أن أشغل الملك المنصور بحديث النساء.

- ولكنه كلام قالته امرأة، وسمعه رجل تكلّف قبول الدعوة.

- الفضول يا سيدي.. الفضول.

هز المنصور رأسه وتابع المشي البطيء، وقال:

- أعلم.. كلنا يدفعه الفضول أحياناً لما يكره! هه! قد لا تصدّق يا أبا أحمد.

- بل أنت الصادق المُصدَّق يا سيدي.

- بل لعلها هي لا تصدّق ذلك الآن.. إنها لعزيزة عليّ، ولها فضل لا ينكره إلّا جاحد.. والجحود من أعظم الرزايا.. أعني.. إنها امرأة عظيمة النفس والعقل.. لم أرَ مثلها قط.. فوالله لو أرادها أحد بسوء لبطشت به ولم تأخذني به رأفة.

قال ابن حمدون متعجباً:

- حتى وهي..

- تحرّض عليّ؟ نعم.. حتى وهي تحرّض عليّ.. ولكنها، سامحها الله، أخطأت الحسبة والتقدير حين حاولت تأليبك عليّ.

- سبحان الله.. هذا ما قلته لها.

قال محمد بثقة العارف:

- أعلم.

اهتزت ملامح ابن حمدون قليلاً وقد هاله أن يكون المنصور قد ظهر على تفاصيل حواره مع صبح. فقال:

- إذن تعلم أيضاً يا سيدي أني قلت لها: لا أنزع يدي.

أكمل المنصور ما آثر ابن حمدون أن يسكت عنه:

- حتى ينزع!

توقف المنصور من جديد ملتفتاً إليه:

- لا ننزع يا أبا أحمد.. لا ننزع.. وكيف ننزع أيدينا ممن أوليناه ثقتنا ومحضناه مودتنا، وكنا صلته عند الحَكَم، رحمه الله، حتى ولّاه أمر

المغرب، فرعاها حق رعايتها ونهض بالمهمة على وجهها الأكمل. ثم إذا دعت الحاجة إليه في الأندلس استقدمناه، وأنعمنا عليه بلقب ذي الوزارتين، واختصصناه بصحبتنا.. وما ذاك إلّا لأننا اختبرناه، فعلمنا أنه رجل المهمات الكبيرة، فإذا جدّت واحدة في أي مكان، انتدبناه لها، ونحن نعلم أنه أهلها وصاحبها. كذلك كنت في عدوة المغرب، وكذلك كنت عندنا هنا في الأندلس، وكذلك تكون في المغرب كرّةً أخرى!

لم يستطع ابن حمدون أن يخفي انقباضه السريع، وتساءل:

- المغرب! كرّةً أخرى!

قال المنصور:

- أما تناهت إليك أخبارها؟ الحسن بن قنّون، خذله الله.. وهو الذي كان سبب لقائنا في العدوة ذلك الزمان.. تعلم أن المصحفيّ قد أخرجه من الأندلس بعد أن عفا عنه الحَكَم وأحسن وفادته. وقد استقر في مصر عند الخليفة الفاطمي العبيدي منذ ذلك الحين. وقد بلغني أنه عاد إلى مؤامراته وتدابيره، وتوصّل رسله إلى بني يفرن فوعدوه بالنصرة إذا عاد إلى المغرب.. وإذا وافقه الخليفة الفاطمي على خطته، فلا بدّ أن يجهّزه بالجند، ولعلّه يأمر نائبه بلّقين ليمدّه بالعدد والعدّة.. وهذا والله أمرٌ جلل. وقد عجمت عيداني، فلم أجد مثلك لهذه المهمّة، فأنت أعلم الناس بالعدوة وقبائلها.. وإن أمرتهم أطاعوك. فما تقول؟

أطرق ابن حمدون وقد ازداد انقباضاً، وحدّق فيه المنصور مستطلعاً ثم قال:

- كأنك كرهت الذهاب يا أبا أحمد؟

- قد فاجأني اقتراحك يا سيدي. ولكن، لِمَ العجلة، وبين مصر والمغرب ما تعلم من طول المسافة. و.. أخشى أن عسكري ألفوا حياة

الأندلس وما وجدوا فيها، فإذا دعوتهم للخروج فلربما كرهوا ذلك ولم أجد فيهم همّة.

هز المنصور رأسه متظاهراً بالتفهّم، وقال:

- نعم. هكذا تفعل الأندلس بالناس.

قال ابن حمدون:

- على كل حال، أمهلني بعض الوقت يا سيدي.. وما زال الأمر خبراً.. فإذا تسامعنا بزحفه، كان لنا تدبير.

تظاهر محمد بقبول الرأي قال:

- كما تقول.. كما تقول.

ثم سبقه في المشي، وتخلّف ابن حمدون عنه يلاحقه بنظرات مشوبة بالارتياب والشك.

* * *

لم يطل الوقت بعد ذلك حتى وصل إلى قرطبة عبدالرحمن بن مطرّف التجيبي، صاحب سرقسطة والثغر الأعلى، مع ثلة من أعوانه وجنده، تلبية لدعوة المنصور الذي ابتدره بالسؤال عن أحوال ناحيته المتاخمة لأرض العدو. فقال التجيبي:

- بخير يا سيدي.. الثغور آمنة، والعدو مندحر في مدنه وحصونه لا يرجو غير السلامة. وقد بلغني أن نفراً من أشراف ليون يخاصمون الملك رُدمير بسبب الهزائم التي ألحقتها به.. ومن يدري، ربما تحولت الخصومة إلى ثورة عليه يقودها ابن عمه برمند ومعه أشراف جليقية.

علّق المنصور قائلاً:

- وذلك عين المطلوب.

ولكن، لم يكن هذا هو الغرض من دعوة التجيبي إلى قرطبة، وإنما هو ابن حمدون.

قال التجيبي متعجباً:

- ابن حمدون؟ بدا منه التغيّر؟

- لقد صرت خبيراً بالرجال يا أبا يحيى. وقد لا يبيِّت الرجل الشرّ أول أمره، ثم تغرّه قوته، ويظنّ أنه قادر عليها، فما هي حتى يُطغيَه الشيطان.. و.. نعم.. أعلم أنه أنكر على أم هشام تحريضها وعرضها.. ولكنه قَبِل دعوتها في المقام الأول، ولم يستأذني.. ثم أخفى عني.. ولو شاء لأطلعني على الأمر من أوّل، وهو وزيري وقائد الحرس العامري. فما الذي يعنيه ذلك غير أنه آثر أن يستكشف السبل والأبواب المختلفة، ويتفحّص الأبدال، ويجعلها في ظهره، فإن بدا له غير ما هو عليه الآن منّي، عرف أين يذهب، وكيف يصنع. وهذا أمر يبدأ بلعلّ وعسى، ومراودة النفس الأمّارة بالسوء. وما بلغ رجل من أمثاله، يدلّ بقوته وفروسيّته وعصبته، هذا المبلغ، إلّا خرج من طور النفس الأمّارة بالسوء، إلى عمل السوء. وإذا الذي دافعه بالأمس قد غلب عليه اليوم أو غداً. وصار البعيد عنده قريباً. قد ذاق الرجل حلاوة الأندلس، فلما اقترحت عليه الرجوع إلى المغرب في مهمة عظيمة، ظهرت عليه الكراهية، وماطل. وتلك علامة التغيّر. وما خبر غالب الناصري عنا ببعيد. وقد حسب ابن حمدون أننا لم نغلب الناصري إلّا به، وأنه لم يبقَ بعد الناصري في الأندلس فارس يجاريه. فصال وجال ودلّ بنفسه وزها بها.. وغفل عنكم يا أبا أحمد، فلم يذكر أن التجيبيين هم أصحاب الثغر الأعلى وحماته منذ دهر.. فأشِر عليّ!

لم يزد التجيبي على أن تبادل مع المنصور نظرة عميقة.

*

«اسقها أعزّ الناس».

صاح المنصور بالساقي، بينما كانت الجواري يرقصن على أنغام المعازف، في مجلس سمره المفتوح في المنية العامرية.

حار الساقي وتلفت الحضور حائرين فيمن يعني. وصاح المنصور من جديد:

– ألم تسمعني؟ اسقها أعزّ الناس!

سأل الساقي مضطرباً:

– من يا سيدي؟

أجاب المنصور:

– اسقها أبا أحمد قتلك الله. وهل أعزّ منه!

اكتسى وجه ابن حمدون بتعبير السعادة والفخر، وهز رأسه للمنصور شاكراً. الحق أنه لم يكن في حاجة للمزيد من الشراب. فقد كان قد أسرف فيه حتى بدت عليه علامات السُّكْر. وحين انفضّ المجلس كان قد تعتعه السكر حتى كادت ساقاه أن تخذلاه. فقال المنصور بصوت تعمّد أن يسمعه الجميع:

– هل حقاً تستطيع الركوب إلى دارك يا أبا أحمد وأنت على هذه الحال؟

أجاب ابن حمدون متفاخراً بلسان ثقيل:

– ومن أقدر مني على الركوب؟ أنا أنام راكباً.

وأطلق ضحكة غريبة. وقال المنصور:

– إن شئتَ نزلت عندنا الليلة، فكانَ آمنَ لك.

قال ابن حمدون:

- بارك الله بك وبجوارك أيها الملك المنصور.. ولكن أعود إلى داري إن أذنت لي.

- على بركة الله إذن.. وانظر طريقك في عتمة الليل.

- أفعل.

ومشى مترنحاً، بينما تبادل المنصور مع عبدالرحمن التجيبي نظرة غامضة!

في اليوم التالي خرجت الأنباء بمقتل ابن حمدون، في أثناء عودته إلى داره في جوف الليل. إذ خرج عليه في طريقه ثلة من الفرسان الملثمين وعاجلوه بالسيوف. وغابوا بالسرعة التي خرجوا بها!

ضرب المنصور كفّاً بكف وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. إنا لله وإنا إليه راجعون. ما أعظم خسارتنا به.. أما والله لقد نصحته أن ينزل عندنا ليلتَه حين رأيناه في تلك الحال.. ولكنه أبى، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

دندن بعض الحضور الذين شهدوا الموقف:

- نشهد.

وتابع المنصور:

- إذا سبق القدر، لم ينفع الحذر.. أعلنوا للملأ أننا نتقبّل فيه التعازي.. ولله ما أخذ، ولله ما أعطى، ولا حول ولا قوة إلّا به.

لم يتلبث عبدالرحمن التجيبي بعد ذلك طويلاً في قرطبة. ورجع إلى سرقسطة في الثغر الأعلى.

٭٭٭

لم تكن ذيول الصراع وتداعيات المواجهة، ما يحمله على الزيارة بين الفينة والأخرى. كانت تكفيه عيونه المنبثة في الزهراء ليعرف خططها وتدابيرها، فيعمل بمقتضى ذلك. وكان يدرك أن اللوم والعتاب والنهي والطلب، كلها لا تجدي نفعاً عندها، وقد حزمت أمرها على التدبير عليه حتى النهاية. وقد خلّف ذلك في نفسه خليطاً من مشاعر المرارة والإعجاب. وحتى المرارة لم تكن بسبب تدابيرها، وإنما كانت أيضاً على ما انتهى إليه حالهما.. وإشفاقاً عليها كذلك. وما كان ليهدد أو يتوعّد أو يغلظ لها القول مهما تبلغ تلك الخصومة.

لا، لم تكن زياراته لذلك السبب. ولكنه النداء الغامض الذي يأتيه من مكان ما في روحه يأبى أن يتلوث بأوضار السياسة، ويردّه إلى الفتى الذي كانه حين رآها أول مرة في دار المدنيات، ويمدّه بأحلام جميلة تتشكل في عالم الصبا الدائم بعيداً عن مطالب الحكم وأسباب الصراع والخصومات. فلا ثم إلّا فتى وفتاة لا يكبران أبداً!

وكانت هي أيضاً تنتظر زياراته بتلهف موجع لا تقوى على دفعه، وإن كانت تلوم نفسها عليه أشدّ اللوم، حتى لتكاد أن تكره نفسها. فأي حب هذا الذي لا تذهب به الخصومة العاتية مع المحبوب، ويفضي بدلاً من ذلك إلى الخصومة مع النفس؟

وافاها جالسةً في مكانها المعتاد في حدائق الزهراء. واكتفى بالوقوف أمامها صامتاً. أما هي فأخذت تجيل بصرها في المكان وقالت:

- نهار جميل رائق. أليس كذلك؟

بقي صامتاً، وتابعت:

- لولا وحشة المكان.. يتحدثون عن صمت القبور.. فلينظروا في الزهراء ليرَوْا صمت القصور! وكانت إلى عهد قريب تضجّ بحركة الناس.. هنا في الزهراء، مدينة الخليفة والخلافة، كان مهوى الأفئدة حيث تضطرم الأحلام والأشواق والرغبات والصبوات والهواجس والمخاوف والمطامح والمطامع، ويدقّ الحدّ الفاصل بين الحب والحرب! وها هي الزهراء الآن تعزف فيها الريح أنشودة تقول: لو دامت لغيرك لما وصلت إليك.

أخيراً سمعت صوته:

- لماذا نبقى محكومين لماضٍ لا يعود؟

- لأن الماضي هنا.. الماضي الآن، وما الحياة إلّا ماضٍ ومستقبل، أما الحاضر فخط موهوم نرسمه في عقولنا بين اللحظة التي انقضت واللحظة التي لحقتها.. وكله نهر يجري.. تحسبه ثابتاً وهو لا يتلبث على حال.

لبث مطرقاً بضع لحظات، قبل أن تعود إلى الكلام:

- ألحَقتَه بالناصري والمصحفي وفتيان الزهراء!

تعني ابن حمدون. فقال محافظاً على هدوئه:

- لا أعلم من عدا عليه في جوف الليل.

- الملك المنصور لا يعلم؟

ثم حركت رأسها يميناً وشمالاً وقالت:

- لم يبقَ لعيونك إلّا أن تقتحم السرائر وتقيم فيها. كنتَ قادراً دائماً عل دخول السرائر والطواف فيها. ولكن كنت تحمل بيدك مصباحاً وبالأخرى كتاب الحب، فكانت السرائر تفتح لك أبوابها طائعة مختارة.

تريّثت لحظة ثم استأنفت:

- من التالي أيها المنصور؟ .. لماذا أظن أنه سيكون الوزير عبدالرحمن بن المطرف التجيبي، صاحب سرقسطة؟ .. هكذا تجري الأمور. الرجل القوي سوط بيدك، تنتقم به، ثم تنتقم منه. لماذا لا تختصر الطريق فتقتلني؟ فإني والله أشدّ خصومك. وتعلم أني لن أتوقف حتى يحكم الله بيننا. أم ترى أني لست رجلاً تخشاه وإن كنت السلطانة؟

- ألدّ خصومي وأقواهم.

- هذا والله مدح.

- وأعزّ الناس!

التفتت إليه بنظرة عميقة مع طيف ابتسامة غامضة، وقالت:

- وهذا أجمل، إلّا أنه أشدّ عليَّ من سيفك. فإن عواطفي لك، وهي باقية أبد العمر، لا تضعفني في الحرب عليك. ولكن، أخشى أن تضعفني عواطفك نحوي.. إن كانت صادقة!

همّ أن يعلّق، ولكنها سبقته وتابعت:

- فلا تؤكدها الآن، حتى تنقضي الحرب بيننا.

عادت تنظر في الفراغ مشيحةً عنه، وقد تغلّف وجهها بضباب الحزن والأسى. أرسل إليها نظرة أخيرة، ثم مشى مبتعداً. وحين صار على بُعد، التفتت صوبه لتدركه قبل أن يغيب بنظرات ليس فيها الآن إلّا التلهّف والشغف، كما كانت تفعل دائماً.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:14].

كثيراً ما كان يردد الأندلسيون هذه الآية في وصف أعدائهم في الممالك والإمارات الشمالية. سمعوا بالحروب التي تنشبُ بينهم، والمؤامرات التي يدبرها بعضهم على بعض، حتى ينقلب الأخ على أخيه وابن العم على ابن عمّه. ولكم رأوا أمراءهم يَقْدُمون على دار الخلافة في قرطبة يعلنون الخضوع ويستنصرون بصاحب الأندلس على عدوهم في بلداهم، ويبذلون في ذلك المال والحصون. وقد يختلف الناس بعد ذلك في الرأي، فيرى البعض أن السلم معهم أحرى بأن يشغلهم بأنفسهم وصراعاتهم وأن توالي الحرب ضدهم أحرى بأن يوحّدهم أمام عدوهم المشترك. ولكن الحاجب المنصور كان يرى أن إلحاق الهزائم بهم لا يردهم عن الأندلس إلّا بقدر ما يخرج الضغائن فيما بينهم، فيزيدهم انقساماً وتفرّقاً.

وقد صحّت توقعات عبدالرحمن التجيبي، صاحب سرقسطة والثغر الأعلى. فالهزائم التي ألحقها المنصور بمملكة ليون حين تحالفت مع غالب الناصري، حتى ضرب الحصار على حاضرتها وكاد يدخلها لولا دخول الشتاء، أدّت إلى انقلاب برمند (برميدو) مع نفر من أشراف جليقية، على ابن عمّه الملك راميرو، محمّلاً إياه مسؤولية الهزائم. ولكن راميرو لم يهدأ بعد خلعه عن العرش، فطفق يجمع أنصاره في ليون وجليقية ويستعد لمعاودة القتال واسترجاع عرشه. فلم يجد الملك الجديد برمند إلا أن يقدم على المنصور في قرطبة في موكب كبير، فيقبّل الأرض بين يديه ويعتذر عما فعله سلفه حين حالف الناصري، ثم يطلب النصرة، ويعاهد على الطاعة والولاء.

قَبِل منه المنصور، ولكنه اشترط عليه أن يرسل حامية من جند الأندلس تقيم في قلب العاصمة ليون. واحتج بأن ذلك أحرى بأن يردع خصوم ردمير، وهو أنجع من أن يخرج إليهم جيش من عنده فينصرهم ثم يرجع، فيعاود الخصوم من جديد. وهو أيضاً ضمين بألا يرجعوا عن عهدهم بعد انقضاء غرضهم كما فعل أسلافهم غير مرّة. واشترط كذلك ألا يقطعوا في أمر كبير حتى يرجعوا إلى قادة الحامية فيكون لهم الرأي الأخير، فإن أشكل عليهم أمر رجعوا به إلى المنصور في قرطبة فيَقْضي فيه.

لم يسع ردمير إلّا القبول مضطراً، على ما في ذلك من ذل وخضوع ومجازفة.

وهكذا أصبح سكان ليون على حامية أندلسية تدخل مدينتهم بكامل عدتها دون حرب. وكان من الطبيعي أن تعمهم النقمة على ملوكهم وأمرائهم وأشرافهم الذين وصلوا بهم إلى هذه الحال، فأباحوا البلاد لعدو المِلّة من أجل عروشهم فقط. ولكن، لم يكن في وسعهم أن يفعلوا غير التذمر والتهكم. فالسلاح وفنون القتال حكر على الأشراف وفرسانهم.

وإذ أدرك سانشو غرسيه ملك نَبَرّة (نانار)، وغرسيه فرفناد، أمير قشتالة ومن معهما من الأشراف أن المنصور قد صار مطلق اليد للتفرغ لهم وأنه لا قِبَل لهم بحربه، لم يجدوا إلّا أن يوفدوا إليه كما فعل برمند، يطلبون سلمه وموادعته، ويبذلون في ذلك أموالاً عظيمة. وبذلك تركوا إمارة قطالونية، أو الثغر الفرنجي كما يسميه الأندلسيون، لمصيرها، بعد أن بلغهم أن المنصور قد عزم على غزوها، وأقسم ألّا يعود حتى تضع خيوله حوافرها في قلب حاضرتها برشلونة. ولم تُجْدِ نداءات صاحبها الكونت بوريل لنصرته. وقد برّ المنصور بقسمه، وأنجز ما لم ينجزه أمير ولا قائد قبله منذ الفتح، حين دخل برشلونة منتصراً، وهزم أميرها وحاميتها شرّ هزيمة، وعاد منها بغنائم عظيمة. وعلى الرغم من أنه رجع عنها، إذ لم يكن في وسعه إلحاقها بالأندلس، فقد تردد صدى حملته المظفرة تلك في

أرجاء الجزيرة وما وراء جبال البرتات (البرانس)، وغدا اسم المنصور على كل لسان مقترناً بالرعب والإعجاب معاً، وبوصفه واحداً من أعظم القادة الذين عرفتهم الجزيرة في تاريخها الطويل. ولسوف يبقى كذلك في مخيلة خصومه وقومه سواء، عبر الأزمنة.

وكما يحدث دائماً، فإن انتصاره على عدو الملّة، يزيده تمكّناً في بلده، وإن لم يغفر له حجره على الخليفة الأمويّ الشاب عند جلّ الناس. وكان على هشام المؤيّد أن يصعد أسوار الزهراء لعلّه يلتقط ببصره موكب المنصور عائداً إلى قرطبة وقد تناهت إلى المكان أصوات الحشود التي خرجت إلى استقباله بالزينة والهتافات. وخيّل إليه في لحظة ما أنهم يهتفون باسمه مع هتافهم للمنصور. والحقيقة أنه لم يخطئ السمع على الرغم من البُعد. فهو ما يزال الخليفة الذي يحمل في أعطافه إرث آبائه الذين صنعوا مجد الأندلس، وما زال المنصور يحمل لقب الحاجب، وإن انقلب المعنى في واقع الحال إلى حجبه بدلاً من حجب الآخرين عنه حتى يأذن لهم!

وما زال الدعاء في خطبة الجمعة يرفع له أولاً ثم لحاجبه الملك المنصور. وقد يتجرّأ بعض الخطباء فيتغافلون عن ذكر المنصور في الدعاء. وقد يتعمّد آخرون أن يلحقوا اسم المنصور بصفات تُذكِّر بأنه مولى الخليفة وخادمه الذي يعمل بعهده. فلا عجب أن يهتفوا باسم خليفتهم وهم يستقبلون موكب المنصور. بل كان بعضهم يتعمّد أن يبالغ في رفع صوته بالهتاف باسم الخليفة بغرض التذكير والاحتجاج المبطّن.

مكث وقتاً فوق السور يسرّح النظر في ملكه الذي لا يملك منه الآن إلّا النظر من وراء حجاب اسمه المنصور محمد بن أبي عامر، ثم نزل كسيفاً وأخذ يتمشى على غير هدى حتى قادته قدماه إلى صالة الحكم، ووقف أمام سرير الخلافة التي جلس عليه جدّه الناصر العظيم، ثم أبوه الحكم المستنصر، يتأمّل في تقلب الأيام، ويبحث عن عزاء يراوغه. ولم يخرجه من تأملاته وأفكاره المضطربة إلّا حركة بعض الجواري يدخلن

عليه، ويُحطن به. ولكنه لم يهش لهن كعادته وظل ينظر في سرير الخلافة، حتى قالت إحداهن:

- مُرْنا يا مولاي، فنحن ملك يديك.

هز رأسه هزة خفيفة، والتفت إليها بنظرة ساهمة غامضة، وقال كمن يخاطب نفسه:

- ملك يديّ! نعم.

ثم سأل باستنكار وقد خرج من سهومه:

- ولكن.. من أذن لكنّ في الدخول هنا.. إلى مجلس الخلافة.. جوارٍ في مجلس الحلّ والعقد الذي لا يدخله إلّا الأمراء والوزراء والولاة والقضاة والسفراء؟ أين ذلك الحاجب اللعين الذي يحفظ بابي أم كان من الغائبين؟ لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتيني بسلطان مبين.

اضطربت ملامح الجواري وحِرن في الأمر، وحين هممن بالخروج أومأ لهن بالبقاء وتحوّل وجهه إلى الابتسام. ثم أشار بيده إلى المكان وقال:

- هل كنتن تحلمن يوماً بدخوله؟

ثم اقترب من سرير الخلافة وأخذ يتحسسه، وتابع قائلاً:

- هنا كان يجلس الناصر العظيم، والحكم المستنصِر، فيقضي أحدهم في البلاد والعباد.. ويأتيه ملوك الأرض يقبِّلون الأرض بين يديه.

ثم أجال بصره في سائر المكان واستأنف:

- هنا كان يجلس القادة والوزراء والأعيان وبياض الحضرة.. يحفّون بالخليفة من كل جانب وينتظرون أمره ونهيه، ويصمتون كأن على رؤوسهم الطير حتى يُؤذَن لهم. فإذا نطق الخليفة ارتفع بكلامه رجال، أو انحط بكلامه رجال.. أو طارت رؤوس.. أو أُحييت نفوس. أو سُيِّرت

جيوش.. أو.. تالله ما يحكي هذا المكان لو كان ينطق.. وكم تَقَرّر فيه من المصائر، فشقيٌّ وسعيد.

فجأة جذب إحدى الجواري وقال:

- هل تحبّين أن تختبري كيف تكون هيبة السلطان إذا جلس على سريره، وكيف يرى الناسَ والدنيا من مكانه؟ اجلسي إذن.

تردّدت الجارية واضطربت حركاتها، بينما وقفت الأخريات يراقبن بحيرة وتعجب. أعاد هشام الأمر بنبرة حازمة:

- أطيعي أمر مولاك أيتها الفتاة.

قادها بنفسه إلى سرير الخلافة وأجلسها عليه، وانفلتت بعض الضحكات المكتومة من الأخريات، فالتفت إليهنّ بنظرة رادعة:

- أين الأدب في حضرة السلطانة! هيا.. قبِّلن يدها.

دخلت الجواري في مزاج اللهو والعبث. وتعاقبن على تقبيل يد صاحبتهن. وإذ فرغن من ذلك بقيت الجارية في مكانها على سرير الخلافة وأخذت تتحسسه.

قال هشام متهكماً:

- هل استمرأتِ الجلوس على سرير الملك؟ لا تحبّين الآن أن تغادريه.. نعم.. كذلك يفعل.. إن له سحراً خاصاً لا ينجو منه أحد.

فجأة صرخ بها صرخة مدويّة:

- قومي عن سرير آبائي الخلائف أيتها اللخناء! قومي وإلّا ناديت عليك الحرس فقتلوك شرّ قِتلة.

قفزت من مكانها مذعورة، ولكنه ما لبث أن انقلب إلى ضحكة مجلجلة أخرجت الجواري من ذعرهن، ودخلن معه في مزاج الضحك

وإن لم تغادرهن الحيرة فيه وفي تقلّبه بين الهزل والجدّ. وما هي حتى دخل أحد الحرس مهرولاً وقد تناهت إلى سمعه الجلبة. وإذ رأى الخليفة بين جواريه توقف وانحنى له، ثم نظر مستطلعاً وقال:

- مولاي.

نظر هشام في جواريه وقال عابثاً:

- سمعتنّ؟ أنا مولاه.

ثم مدّ له يده، فتقدّم الحارس وقبّلها. وعاد هشام يخاطب الجواري:

- رأيتنّ هيبة السلطان؟

ثم التفت إلى الحارس:

- ألك زوج وأبناء؟

هز الحارس رأسه، وتابع هشام:

- إذن، إنّ لأهلك عليك حقاً.. قد أذنتُ لك.

أجاب الحارس:

- مولاي. لا أستطيع.

عاد هشام يخاطب الجواري متهكماً:

- هل تَرَيْن الآن التفاني في الخدمة؟ أنا أعفيه من خدمتي اليوم وهو يأبى.. بمثل هؤلاء الرجال تنهض الممالك العظيمة، ويسود الخلفاء العِظام مثلي.

ثم انطلق نحو الباب، وفي طريقه دفع الحارس جانباً بغلظة، وأشار إلى الجواري أن يلحقن به:

- إلى الهواء الطلق العليل.

وما هي حتى شاهده الحرس يقبل مهرولا على بوابة الزهراء، والجواري يتلاحقن وراءه. وإذ وصل اعترضه الحرس، فصاح بهم:

- تَنَحَّوْا.. تنحَّوْا.

تبادل الحرس نظرات حائرة، ثم قال أحدهم:

- لا أحسب أن أمير المؤمنين يريد الخروج حقاً.

- وأنت تعلم ما يريد أمير المؤمنين، أحسن مما يعلمه أمير المؤمنين؟ أمير المؤمنين يأمركم بالتنحّي الآن وفتح الباب، وإلّا.. دعا عليكم حرسه.

ثم استدرك من فوره ساخراً:

- حرسي! أنتم حرسي.

في هذه اللحظة وصل متولّي الحرس مسرعاً، وانحنى للخليفة الذي قال:

- نعم. أكْثِر من هذا الانحناء. ولكن انزل برأسك أكثر مما فعلت. هكذا.. هكذا..

وأراه كيف يفعل. قال متولّي الحرس:

- ما الخطب يا مولاي؟

- خطب عظيم. هؤلاء الحرس الحمقى، آمرهم بالتنحّي وفتح الباب ليخرج مولاهم، فينظر في أحوال رعيّته ويستمع إلى شكواهم، ولا أراهم يطيعون.

نقّل متولي الحرس بصره بين الخليفة وجواريه، وتابع هشام:

- وما جزاء من يعصي ويردّ الأمر على صاحب الأمر؟

ثم أشار إلى عنقه بعلامة الذبح، واستأنف:

- إذن آمرك أن تأخذهم فتضرب أعناقهم.. أو.. أو.. اصلبهم على جذوع النخل.. أو.. هنا فوق الأسوار ليراهم الناس ويعتبروا بهم.

قال متولّي الحرس:

- يا مولاي. نحن أهل خدمتك، ونكفيك حاجتك.

هنا صاح هشام بكل ما أوتي من عزم، بأسلوب يجمع بين القهر والبوح:

- حاجتي أن أخرج ككل الناس، فأرى الدنيا التي يقال إنني أحكمها.

قال متولي الحرس:

- لا نأمن عليك أذى العامة وأهل المعاصي والفِتَن.

- إذن، اخرجوا معي فاحموني منهم. أم تخشون أن يطّلعوا عليّ فيحموني منكم؟ حرسي! هه! أم الحرس عليّ!

قال متولي الحرس:

- العفو يا مولاي. ولكننا نطيع أوامر صاحب دولتكم، الملك المنصور، وهو حريص عليكم.

- الملك المنصور! ملك مع خليفة؟

ثم انقلبت ملامحه من الغضب إلى الأسى، وتغيّر صوته إلى الرفق:

- لا، لا تخالفوا أمره فيبطش بكم. ولا يسعني أن أُعرضكم لبطشه فأحتمل إثمكم معه. فإن لم يكن في يدي شيء من سطوة السلطان، فما زال في قلبي شيء من رأفته برعيّته.. قد عذرتكم.

ارتد عائداً بهدوء، وقد ضمّ ذراعيه وراء ظهره. وإذ صار في وسط الساحة الخالية، أجالَ بصره في وحشة المكان.. وأنشد من شعره:

ألـــــيس مــــن العجائـــــب أنّ مــــثلي
يـــــرى مـــــا قــــلَّ ممتنعـــــاً عليــــهِ
وتُمْلَـــــكُ باســـــمه الـــــدنيا جميعـــــاً
ومــــــا مِــــــن ذاك شيء في يديــــــه

* * *

في مساء ذلك اليوم، اختار أن يتناول طعام العشاء مع أمّه. ولم يكن قد فعل ذلك منذ عهد بعيد. ومع ذلك بقي ساهماً صامتاً وهو يأخذ من الطعام ببطء، ويتحاشى النظر إليها مباشرةً. كانت ترقبه وتتفحّص ملامحه. وحين طال صمته قالت:

- ألا تقول شيئاً؟

أجاب بأسلوبه المتهكم المألوف:

- أنا رجل فعّال لا قوّال. ولا آتي إلى المائدة إلّا وقد بلغ مني الجهد لشدّة ما لقيت من عمل نهاري.

قالت:

- علمت أنك صعدت السور اليوم تنظر وتنصت.

لم يعلّق. وعادت تقول:

- أما أنا فقد بلغني شيء مما وقع هناك. انصرف جلّ الهتاف إليك.. يُسْمعون أبا عامر. حتى تجرّأ بعض الناس فصاحوا بكلام يُعرّضون به، ويطالبون برؤية خليفتهم. ويستصرخون بني أمية. فوقع اضطراب وهرج. هذا وهو عائد بنصر عظيم لم يسبقه إليه أحد. ألا يقول لك هذا شيئاً؟ عندك ما لا يستطيع أن يسلبك إياه، ولا أن يكتسبه بكل انتصاراته. وهو يعني أنك تستطيع عمل الكثير لو شئت.

- أمي تكفي عنّي.. كما كانت دائماً.

- ذلك حين كنت صبياً حدثاً.

- وما زلت.. ما زلت. فقد حُرِمت من أن أكبر. وهل يكبر المرء إلّا باكتساب التجارب؟

- لم يفت الوقت.

بعد هنيهة صمت أخرى، قال:

- ولكن، كأنكِ قد سكنتِ عن مواصلة أولئك الناس الذين ما زلت تحرّضينهم عليه وتدبّرين معهم.

أطرقت لحظة، ثم قالت:

- لا أفعل حين يكون غائباً في جهاد العدوّ. كيف أدعو له بالنصر، وأدبّر عليه في الوقت نفسه؛ لا يطاوعني قَلـ..

استدركت على نفسها قبل أن تكمل كلمة «قلبي». وعدلت عنها إلى عبارة أخرى:

- المروءة تأبى.

قال متسائلاً:

- المروءة؟

- تعني أنها لا تلحق بالنساء؟ من قضى بذلك؟ نعم. الرجال قَضَوْا، وأنا قضيت بغيره.

- ولِمَ لا؟ فأنت السلطانة.

رمقها بنظرات متفحّصة، ثم قال:

- لا والله لا تستطيعين كراهيته، وما زال في نفسك..

قاطعته:

- لا شأن للحب والكره في خصومتي معه.

أطرق ساهماً من جديد، ثم قال بنبرة الجدّ:

- بلى والله قد قلتِ حقاً. كيف لا ندعو له بالنصر على عدونا وعدوه، ولا نفرح بنصر الله على يديه، وقد صنع ما لم يصنع أمير ولا خليفة قبله.

تساءلت متعجبة:

- أنت أيضاً تقول ذلك فيه؟ في الرجل الذي حجبك عن الدنيا وجرّدك من كل سلطان؟

رجع بجسمه إلى الوراء، وذهب في تأمّل عميق، ثم قال بأسلوب البوح كأنه يخاطب نفسه:

- ليته هوّن عليَّ فتركني أكرهه كرهاً خالصاً أو أحبّه حباً خالصاً. ولكنه كان معي منذ عقلت، فكان بمثابة الأب، غير أنه حرمني حنوّ الأبوّة، وبمثابة الأمّ، غير أنه حرمني عطف الأمومة، وكان بمثابة الأخ الأكبر، غير أنه حرمني أزر الأخوّة. إنه مَثَلي الأعلى الذي حرمني أن أكون مَثَلاً. إنه الحياة التي أطمح إليها، والموت الذي يحول بيني وبينها. إنه السيف الذي تمنّيت أن يكون لي، فلّما كان، لم أجده في يدي، ولكن.. في جنبي! تالله لَكَم أحببت أحياناً أن أحتضنه كما يحتضن الفتى أباه، ولكم رغبتْ أن أقَطّعه كما يقطّع الرجل قاتل أبيه.. وخاطفَ أمّه.. إنه الشيء وضدّه.. الماء والنار.. الليل والنهار. وهل الزمان غيرهما؟ إذن فهو زماني. وهل يسع الرجل أن يتحرّر من زمانه؟!

أغمض عينيه ليحبس دمعة كادت أن تغلبه. أما هي فقد نفذت كلماته إلى غور روحها، إذ ترجم بعضها عما في نفسها هي أيضاً. فلم تغالب دمعتها.

كان أول ما بدا للقادم المبجّل من بعد منارة الجامع الكبير. وكان قد تعمّد أن يصعد بموكبه إحدى التلال متلهفاً أن يرى مرابع الصبا والشباب التي لم تغادر أحلامه ومخيّلته منذ غادر قرطبة قبل زهاء خمسة وعشرين عاماً.

توقف بجواده أعلى التلّة وأرسل النظر، وخفق قلبه بشدّة، وتمنّى لو يستطيع الآن أن يبلغها في قفزة واحدة. ثم أخذ يملأ صدره بالهواء المنعش وقد أضاء وجهه بسعادة من تحقق حلمه الجميل أخيراً.. وقال بما يشبه الهمس:

- أخيراً.. قرطبة الصبا السعيد والشباب الزاهي.

قال أحد مرافقيه:

- إنك لتحب هذا البلد.

قال:

- كيف لا أحبه وقد أمضيت فيه أجمل أيام حياتي، ونهلت من علومه وتنفست هواءه وذقت ثمره وتمتعت بشمسه، ولولا ما حصّلت فيه لما كنت الآن عائداً إليه سفيراً لبلادي.

ثم التفت إلى مرافقه مبتسماً وقال:

- أتعلم أشدّ ما أتلهف على لقائه؟ لا.. ليس الملك الذي يقال له المنصور.. ذاك الذي بلغنا أنه قد استأثر بالحكم دون الخليفة، وإنما

أصحاب الدراسة في ذلك الجامع العظيم. لم أنسهم يوماً.. محمد بن أبي عامر.. ابن عمه الشهم عمرو.. عليّ الطيب.. و.. نعم ذلك الفتى الطريف الظريف.. زياد، إن لم تخنّي الذاكرة.. لطالما سخر من عربيتي قبل أن أتقنها.. ولكنه كان يضحكني و.. شارل.. نعم شارل الذي كان رفيقي، ثم اختار البقاء في قرطبة. ترى ما فعل الرب بهم في هذه الأعوام الطويلة؟ أرجو أن يكون خيراً.. لا يعدل شوقي إليهم إلّا لهفتي أن يروني الآن وقد حققت حلمي القديم أخيراً، وعدت إلى قرطبة سفيراً لملك الألمان كما كنت أحدثهم. ومن يدري لعلهم يكونون بين من يشهد موكبي فيميزون صاحبهم، ويعلمون أن الأحلام يمكن أن تتحقق. ولكن لماذا نطيل الكلام هنا، وهناك أعظم مدن الأرض.. هيا.

هز عنان جواده وانطلق في ركبه.

* * *

تلقّى أوتو استقبالاً عظيماً. فحين وصل بركبه قريباً من أرباض قرطبة، وجد في انتظاره ثلة من الحرس العامري وفتيان الزاهرة. وفرقة موسيقية بدأت بنفخ الأبواق وضرب الطبول والصناج فور وصوله. وكان على رأس المستقبلين الوزير ابن حزم. وعبر الركب طرق الأرباض، بينما احتشد الناس على جانبي الطرق يشهدون الموكب ويلوحون بالمناديل الملونة وسعف النخيل وأغصان الزيتون، على نحو ما شهد أوتو مواكب السفراء أيام إقامته في قرطبة. إلّا أن موكبه لم يتجه إلى الزهراء، وإنما إلى الزاهرة حيث يقيم الملك المتغلّب المنصور. وحين دخل ساحاتها كان في انتظاره صفان آخران من الحرس العامري والفتيان، يتقدّمهم عدد من الوزراء والأعيان.

نزل أولاً في جناح الضيافة الخاصّ بالسفراء ليرتاح من وعثاء السفر ويهيّئ نفسه للدخول على المنصور. ولما صار في رواق الانتظار، جاءه الوزير ابن حزم وقال:

- إذا دخلت على الملك المنصور، فاجعل نظرك في الأرض، حتى تصل إلى سرير الملك الذي سأقودك بنفسي إليه، ثم تنزل على ركبتك، فإذا رأيت يده تمتدّ إليك، قبّلتها دون أن ترفع رأسك حتى يأذن لك بالوقوف. تلك هي الرسوم.

وهكذا كان، حتى سمع أوتو صوت المنصور:

- قم يا أوتو.

لم يصدّق أوتو بصره وهو يرى صاحبه القديم يتربّع على كرسي العرش، وفي صدمة الوهلة الأولى غفل عن نفسه وعن مقام الحال فانفلت لسانه باسم محمد مجرّداً. وإذ غمز له المنصور واصطنع تقطيب الوجه ليذكره، استدرك أوتو على نفسه وقال:

- سيدي الملك.. الملك المنصور!

- أهلاً بسفير اللّهان في بلاط قرطبة.

* * *

حين اختلى الأصحاب القدماء: المنصور وأوتو وعمرو وعليّ، بعيداً عن رسوم السلطان وأعين الآخرين، كان أوتو ما يزال تحت تأثير الصدمة. لا يدري هل يتبسط الآن تبسط الصاحب الذي لقي أصحابه بعد طول غياب، كما فعل المنصور نفسه، أم يحافظ على المسافة التي تقتضيها رسوم المُلْك، أم يسلك بين هذا وذاك سبيلا! ولبث أصحابه يتضاحكون وهم يرقبون أثر الموقف فيه، حتى قال:

- أتراني في حلم؟

قال المنصور ممازحاً:

- تصدّق أنك بلغت غايتك القديمة وصرت سفير اللّهان، وتستعظم أن ترى صاحبك القديم محمد بن أبي عامر، وقد صار ملك الأندلس؟

قال أوتو متهكماً على نفسه:

- لو رأيتموني عبر الطرقات مختالاً بنفسي.. ثم أجيل نظري في الحشود، أبحث عن محمد بن أبي عامر. وعمرو، وعليّ. وشارل، وأقول: أين أنتم لتروني الآن.. وما كنت أدري أن الملك المنصور الذي سأدخل عليه، وأقبِّل الأرض بين يديه.. هو محمد بن أبي عامر نفسه.

قال المنصور وقد اكتسى وجهه بملامح التأمل:

- الأحلام تتحقق يا أوتو، إذا واتتها الإرادة والقدرة.. وشيء آخر. المصير المقدور لك قبل مولدك، فأنت تُقْبل عليه إقبال من يستقبل غده، وهو سابق عليك.. وإلّا لماذا أنت، وليس هو، وقد كنتم على بساط واحد تتقاسمون قوت يومكم.

هز أوتو رأسه وقال:

- لعله كما تقول.. يا سيدي المنصور.

مالَ المنصور إليه وقال بما يشبه الهمس وهو يغمز بعينه:

- كان يجب أن تحلم بأكثر من السفارة.

تساءل أوتو:

- وما أكثر من السفارة؟

أجاب المنصور بابتسامة ماكرة ذات مغزى، فأطلق أوتو ضحكة خفيفة وتجرّأ على القول:

- تعني أن أستحوذ على المُلك في بلادي؟

هز رأسه يميناً وشمالاً واستأنف:

- قضيت خمساً وعشرين سنة وأنا أحاول أن ألتحق ببلاط الملك، حتى كدت أيأس.. كان عليَّ أن أحارب وأنجز أضعاف ما ينجزه أبناء البيوتات القوية حتى أبلغ غايتي.. ولقيت في ذلك خصومة هائلة.

قال المنصور:

- ألم يقدّمك علمك الذي اكتسبته في قرطبة، والعربية التي أتقنتها.

- قد أثارت من الإعجاب عند البعض، بقدر ما أثارت من الحسد والأقاويل عند غيرهم. أعني.. اتهمني البعض بالكفر، وأنني أخفي إسلامي.. كيف أقول إن معالجة المريض بالصرع لا تكون بثقب جمجمته وإخراج الشياطين منها؟ فإن قلت: يموت، قيل تنجو روحه، وكفى. وكيف أقول إن الأرض مثل الكرة، وأنك إذ أبحرت غرباً من البحر المحيط بلغت بلاد الشرق القصيّ؟ وكيف أنشغل بترجمة بعض كتابات العرب والمسلمين.. لا سيما الفلسفة وكلام أفلاطون وأرسطو والفارابي وابن سينا.. وهؤلاء كلهم وثنيون وكفرة!

هز المنصور رأسه متأمّلاً، قال:

- لا تخلو بلادنا أيضاً من هؤلاء.

قال أوتو متابعاً:

- لا يكاد يوجد في بلادنا غير هؤلاء. وأشد ما كان يستفز بعضهم مني فهو أن تغلب العربية على لساني، فأنطلق بالكلمة أو العبارة منها، لا أجد لمعناها في لساننا ما يقابلها، ثم أستدرك مجتهداً في الترجمة.. فهم بين منكر وحاسد.

تدخل المنصور قائلاً:

- يا صاحبي.. الحسد أبلغ تعبير عن الإعجاب، على ما فيه من سوء.

- يقولون: يتيه علينا بمعرفته العربية وعلومها، وما يريد بالألفاظ العربية التي يقحمها في كلامه إلّا أن يتفاخر ويستعرض نفسه، ليقال: عالم وعارف بالدنيا.

علّق المنصور من جديد:

- والإنسان عدو ما يجهل، فإن قصّر عن الفهم، اتهم من أدركه وأصابه.

استأنف أوتو:

- ثم يسمعونني أتحدث عن قرطبة ما فيها من الأعاجيب، فهم بين مصدّق ومكذّب.. أما المصدّق فيتهمني أن هواي أندلسي قرطبي، وأن مزاجي قد صار مزاج العرب والمسلمين.. والحقّ أن السنين الأولى عقب عودتي من قرطبة مرّت ثقيلة صعبة. أنام فلا أحلم إلّا بقرطبة، ولا أتحدث في أحلامي إلّا بالعربية، فإذا صحوت ظننت أنّي أصحو على مشاهدها وألوانها وأصواتها، حتى كِدْتُّ أن أحزم متاعي وأعود، لولا خشيتي أن يسخر مني أصحابي في قرطبة إذا عدت خالي الوفاض، بخلاف ما كنت أحلم به وأطمع إليه. ثم كان من حُسْن حظي أن تولّى ملك شاب بعد أبيه، مستنير العقل، محب للمعرفة، مستقل برأيه وهواه عن القساوسة.. يردّد: اتركوا ما لله لله، وما لقيصر لقيصر. فقرّبني إليه، وأعجبه بعض ما ترجمته عن العربية. وتمنّى أن تبلغ بلادنا يوماً من العلم والتمدين ما بلغته الأندلس. فطلب المزيد من تلك المخطوطات، ليصار إلى ترجمتها تحت عيني ولو سرّاً. وبذلك أوفدني سفيراً، ولم يستمع إلى رأي المعارضين الذين سرت إليهم أخبار الملك المنصور الذي بث الرعب في قشتالة وليون وجليقية، وتعدّى ذلك إلى ما وراء جبال البرانس، حتى قال قائلهم، الأولى أن تنصر إخواننا وأهل ملّتنا هناك عليه، فإنه إن حاز

بلادهم تطلع إلى بلاد الغال والفرنج ثم بلادنا.. ولكنه فضّل استجلاب المعارف على إرسال الجند.. وهاأنذا الآن هنا، مع أصحابي.. الملك المنصور.. ووزيره عمرو.. وصاحب حسبته عليّ.

هنا سمع صوت شارل داخلاً عليهم:

- وشارل.. أو زيد بن أبي عامر.

هبّ أوتو من مكانه وتعانق الصاحبان بحرارة بالغة. ثم سأل أوتو:

- ما زيد بن أبي عامر ذاك؟

تدخل عمرو:

- اسمه العربي منذ زمن.

سأل أوتو مداعباً:

- هل اكتشف أنه أخو أبي عامر؟ العفو.. أعني الملك المنصور؟

قال المنصور مبتسماً:

- قلنا نتبسّط.. وهذا أمر من الملك المنصور. وهو أخي على كل حال. وربّ أخ لك لم تلده أمك.

قال أوتو:

- أخو المنصور، فرنجي؟

قال المنصور:

- الذي خلقنا ونفخ فينا من روحه رب واحد. وكلنا لآدم وآدم من تراب.

ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:13].

شاركه أوتو وشارل معاً في تلاوة الجزء الأخير من الآية التي كانا يحفظانها. وأردف المنصور:

- والأرواح جنود مجنّدة..

أكمل أوتو وشارل:

- ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

قال المنصور متهلّلاً:

- ها أنتما تذكران.. لم تذهب دروس الجامع فيكم عبثاً.

ربّت شارل على ظهر أوتو:

- أهلاً بالسفير العظيم.. أخيراً حلمك القديم.

قال أوتو وهو ينظر إلى المنصور وردّد كلامه:

- الأحلام تتحقق، إذا وافتها الإرادة والقدرة.. والمصير المقدور.

ثم قال بنبرة الدعابة:

- وليتني حلمت بمُلك الألمان!

ضحك الأصحاب، وأردف أوتو:

- الحمد لله أن ملكنا ليس هنا ليسمعني.. وإلّا..

ومرّ بإصبعه على عنقه.

قال المنصور:

- إذا جاءنا زائراً أخبرناه.

- وتخسر صاحبك القديم الذي لم يعد يعلم هل هو سفير بلاد الألمان إلى قرطبة، أم سفير قرطبة في بلاد الألمان!

ثم بدا أنه تذكر شيئاً فسأل:

- ما فعل الله بزياد؟

عندما رأى الجميع يطرقون صامتين وقد تغيّرت وجوههم، أدرك أنه قد لقي مصيراً يحسن السكوت عنه.. الآن على الأقل.

مكث أوتو شهراً في قرطبة يجمع ما يقع عليه من المخطوطات القيّمة في مختلف العلوم والفنون: الطب والأدوية والفلاحة وجغرافية البلدان والرياضيات والفلك، والفلسفة، لا سيما ما يتعلّق منها برفع التعارض بين الدين والحكمة، وآراء أفلاطون وأرسطو، يعينه على ذلك شارل.

ثم ودّع أصحابه وقفل عائداً إلى بلده بالكنز الذي جمعه.

لن يكون بوسع أصحابه في قرطبة أن يعرفوا بعد تلك الزيارة شيئاً من أخباره. ولو عرفوا لأصابهم من ذلك حزن عظيم! فالكنز الذي كان فخوراً بحمله، وعكف بعد وصوله على ترجمته كان سبباً في هلاكه. فقد دبّر بعض الأشراف المتزمتين مع بعض القساوسة اغتياله بتهمة التجديف والزندقة وإفساد عقل ملكهم. ثم حرقوا كنزه. وكان على بلده أن ينتظر قروناً أخرى في الظلام حتى تصله أنوار تلك الذخائر الأندلسية على استحياء من مراكز الترجمة في طليطلة، بعد أن خلت من سكانها المسلمين، إلا من بعض آثارهم المضيئة.

٢٠

لم يُرَ المنصور في مثل تلك الحال من الغيظ والغضب، حين بلغه أن الحسن بن قنون، سليل الأدارسة، قد عاد إلى المغرب من مصر، يطلب ملك أجداده، بعد أن أمدّه حاكم مصر العبيدي الفاطميّ. فنزل في قبيلة يفرن التي وعدته بالنصرة، تعظيماً لنسبه في آل البيت ولإرث الأدارسة القديم في حكم المغرب. ثم أخذ يجمع الأنصار من كل ناحية. وكان أشدّ ما أغاظ المنصور أن الرجل نكث بعهوده التي حلف عليها أغلظ الأيمان أيام الحكم المستنصر، بعد أن أُخمدت ثورته في ذلك الحين وصالح جيش الأندلس على الأمان وجيء به إلى قرطبة ليكون في جوار الخليفة، حتى أخرجه المصحفي من الأندلس إلى المغرب الأدنى حين استثقل نفقته، وقد أمن أن يعود إلى شق عصا الطاعة، بعد أن فرق بينه وبين جنده الذين جاؤوا معه إلى قرطبة، وأعطى أيمانه وعهوده.

وكان ذلك خطأً فادحاً من المصحفي الذي عرف بالتقتير. فها هو الرجل ينكث بعهوده وأيمانه ويعود في المغرب سيرته الأولى. فلا بد من القضاء عليه قبل أن يستفحل شرّه. وهذه المرّة لن يرضى المنصور إلّا برأسه مهما يكن الثمن. وبذلك أمر ابن عمّه عمرو حين انتدبه لقيادة الجيش، فقد صحبه أيام ثورة ابن قنون السابقة أيام الحكم، ورأى طرقه وعمله مع القبائل. فأوصاه أن يعمد بنفسه أولاً إلى قبائل مغراوة وزنانة، فهم ما زالوا على عهد الطاعة. ووصفهم بأنهم قوم ذوو أنفة، إذا أعطوا لم ينزعوا، وإذا وعدوا أنجزوا، وإذا ائتمنوا وفوا. فإذا وافقه هؤلاء سعوا بينه وبين بني يفرن ليكفوا عن حربه. فإنهم ما رضوا بنزول ابن قنون فيهم إلّا منعاً للجار المستجير وحفظاً لذمة آبائه، وذلك على مضض

منهم. فهم جميعاً وإن كانوا يعظّمون نسب الرجل في آل البيت، فقد كرهوا أنه جاء من مصر العبيديين، وكانوا يعلمون بطمعهم في إلحاق المغرب بدولتهم. وهو ما لا يمكن أن يرضوا به لاختلاف المذهب.

كل ذلك يسّر على عمرو مهمته، فالتفتْ حوله القبائل، وحقق معهم انتصارات سريعة حاسمة على جند ابن قنون الذي أدرك في وقت قصير أنه يخوض حرباً خاسرة، ولم يجد شيوخ بني يفرن صعوبة في إقناعه بطلب الأمان والسلم. فخرج جماعة منهم إلى معسكر عمرو، وعنده عدّة من شيوخ القبائل. في مقدمتهم زيري بن عطية، وكان زعيماً مطاعاً في المغرب كله.

تحدث شيوخ يفرن بأن ابن قنون قد راجع نفسه، فآثر حقن الدماء وحفظ الأرحام، وأنه ينزل عن طلبه إلى الأبد، ثم يخرج مع عمرو إلى الأندلس، فيكون في جوار المنصور والخليفة هشام، وبذلك يأمنون جانبه، ويدخل في الطاعة والخدمة.

كان عمرو ميالاً بطبعه إلى السلم والموادعة وحقن الدماء مع المقدرة. ولكن أمر المنصور له كان صارماً ألّا يقبل منه حتى يأخذه في الحرب، فإما قُتِل فيها، وإمّا ظفر به فأنزل فيه حكمه وضرب عنقه. فاعترض مخاطباً شيوخ يفرن:

- قد علمتم أنه ما راجع نفسه حتى علم أننا قادرون عليه ولا منجى له من سيوفنا. وقد اختبرنا عهده من قبل فنكث. فحق عليه حكم الحرابة وأهل الفتنة.

هنا تحدّث كبير شيوخ يفرن بنبرة قوية قاطعة:

- نعم.. نزل في جوار الحَكَم في ذلك الزمان على ما أعطاكم وأعطيتموه. ولم يظهر منه شرّ، حتى فُصِل عنه عسكره، ثم أُخرِج من

الأندلس على غير الوعد والعهد. وإذن فقد بدأتموه بالنكث، فوجد أنه صار في حِلّ من عهوده. وإنّي أنشدك الله إلّا أجبت أمام هذه الوجوه: أحق ما قلته أم باطل؟

بدا الحرج على وجه عمرو، إذ لم يجاوز الرجل الحقيقة. وآثر الصمت. فاستأنف شيخ يفرن بالنبرة القوية نفسها:

- إي وربي إنه لحق كما أنكم تنطقون، وأنتَ تعرف. والآن، لا نطيل الجدال. هذا عرضه. فإن قبلتم منه ومنا فقد حقنّا دماء المسلمين، وإن أبيتم فإني أشهد الله وأشهدكم جميعاً أننا لا نسلم صاحبنا ليُقَدَّم للسيف حتى نقاتل دونه، فلا يُقتل الرجل منا حتى يقتل مثله أو ضعفيه. ثم تبقى النفوس موتورة عليكم إلى يوم الدين. ومعنا أحلاف يرون رأينا. فانظروا أمركم.

أرسل عمرو نظرة مستطلعة إلى زيري بن عطية الذي أنبأت ملامحه عن القبول. فاستأذن عمرو من شيوخ يفرن أن يُنظروه ساعة حتى يشاور أصحابه.

وحين اختلى بشيوخ القبائل الذين معه، ابتدره زيري بن عطية بالكلام، فقال:

- أنصت يا أبا الحكم. نعم، هو كما قلت: قد بتنا عليه قادرين. وقد اجتمعت حولك قبائل مغراوة وزناتة وبطون من صنهاجة وفاءً بعهودهم وولائهم لأمير المؤمنين هشام بن الحكم، المؤيّد بالله. أما صاحبك المنصور فهو عندنا خادم أمير المؤمنين وحاجبه، ونواليه على ذلك. وقد بلغنا غايتنا من الحسن بن قنون وانكسرت شوكته، وهو الآن يعطينا بيديه. فلماذا نطلب أكثر من ذلك؟ وما حاجتنا إلى سفك دمه؟ وقد علمت القبائل الآن أنه ثاب إلى الحق ورضي أن يضع نفسه في عهد أمير المؤمنين وتصرّفه. وهو، دون غيره، الوليّ على دماء المسلمين، وأجدر بأن يقرر ما

يصنع به. فإذا قتلته بعد ذلك، ذكر أحلافك قبل أعدائك نسبه في الأدارسة وآل البيت، وقد كانوا ملوكهم، فانقلبوا عليك. وليكوننّ سيفي الذي سللته معك أول سيف يُسَلّ عليك. وقد محضناك النصيحة. فانظر رأيك.

أيّد الحاضرون رأي زيري، فأدرك عمرو أنه لم يعد له الخيرة في أمره.

*   *   *

حين علم المنصور أن ابن عمه أعطى الأمان لابن قنوّن ثم اصطحبه معه، جُنّ جنونه. كيف سوّلت لعمرو نفسه أن يعصي أمره؟ لقد أعطى عمرو ما لم يكن يملك إعطاءه. فلا يلزم منه شيء. فهو وحده من يعطيه أو يمنعه. وما هو بالذي يقطع بأمر ثم يرجع عنه. وليس للعصيان عنده جزاء إلّا القتل. وقدّر أنه إذا وصل عمرو بابن قنون إلى قرطبة على الأمان الذي أُعطيه، وشاع الخبر بين الناس فلن يكون بوسعه أن ينزل به حكم السيف إذ يرى الناس أنّ الرجل دخل في عهد أمير المؤمنين وذمّته، فتكون عليه سبةً وعارا. وهو الآن ليس في حاجة إلى زيادة النقمة عليه. ولذلك أمر قائد الحرس العامري أن يتوجه بقطعة من عسكره، فيستبق نزول عمرو ومن معه في الجزيرة الخضراء قادماً من عدوة المغرب، فإذا وصل انتزع ابن قنون، فضرب عنقه وجاءه برأسه. وشدّد على أنه لا يرضى بغير ذلك منه، وإلّا نكبه به.

*   *   *

لم يطل الوقت حتى عاد قائد الحرس العامري من الجزيرة الخضراء برأس ابن قنون في صندوق، محفوظاً بالملح والكافور. هز المنصور رأسه وهو ينظر في الصندوق، وقال:

– كان يجب أن يُفعل هذا به في المرة الأولى، إذن لكفانا كل هذا الجهد والمال.

ثم تنبهت ملامحه وسأل:

- ما فعل ابن عمي عمرو؟ هل صدع بأمري من فوره ولم يماطل؟ ومتى يلحق بكم إلى قرطبة؟

أطرق قائد الحرس العامري بوجه شديد الوجوم، ورانَ صمت ثقيل. وحدّق فيه المنصور متوجّساً. ثم صاح صائح من أبعد مكان في غور روحه.. بل كانت صاخّة كبرى صدّعت أركان عالمه. وفي لحظة واحدة انمحت الزاهرة والزهراء وقرطبة كلها، ولم يبقَ في الأرض اليباب إلّا الجزيرة الخضراء يتجوّل فيها ثلاثة فتيان يتنافسون في بيع غزل أمهاتهم، ثم يتقاسمون الربح الضئيل والأحلام العريضة بغدٍ أجمل وأفضل. فمن كان يدري في ذلك الحين أن أحدهم سيكون السبب في هلاك الآخَرَيْن وإن لم يقصد إلى ذلك، وأنه بذلك سيُهلك أغلى بضعة من نفسه، ويطفئ ألمع نجم في روحه!

لماذا لم يخطر له وهو يلقي أمره بانتزاع ابن قنّون من عمرو، أن ابن عمّه وشقيق روحه ما كان ليسلمه بعد أن أعطاه أمانه إلّا أن يهلك دونه. كيف أنساه غرور السلطان طبيعة ابن عمّه الشهم النقيّ، وفي المقابل طبيعة العسكر الذين يفهمون الأمر على وجهه الظاهر دون أي اعتبار آخر؟

وها هو عمرو يرقد في الجزيرة الخضراء. وكأنه اختار أن يرجع إلى دياره، فيكون المنتهى حيث كان المبتدى!

أما المنصور، فلن يجد عزاءً كثيراً في الحكمة الجديدة التي ابتدعها لنفسه: ليت الرجل أن يكون قاتلاً أو مقتولاً، ولكنه قد يكون القاتل المقتول معاً!

وقع ما حاول المنصور تجنبه، فقد ذاع خبر مقتل ابن قنّون غدراً، ومقتل من أعطاه الأمان: ابن عم المنصور وصفيّه وخليله ورفيق دربه. فمن يأمنه بعد ذلك؟ إلّا أن النقمة عليه زادت على الخوف منه، فتجرّأ

الناس على الكلام على الرغم من كثرة العيون. وكان على مالك وطريف أن يتحمّلا عبء السماع للتهم والأهاجي التي كان بعض أصحاب السوق يتعمّد أن يلقيها على سمعهما ضد من كانا يتفاخران بصحبته، مقرونة بالتهكم بهما. فما عساهما يقولان الآن في الدفاع عن رجل لم يتورّع عن قتل ابن عمه ليصل إلى غريمه الذي جاء مستأمناً؟ وبالطبع كانوا يرجعون بكل التهم إلى أصلها: تعطيل الخليفة والخلافة. فكل نقد يُوجّه إلى المنصور كان يقابله المزيد من العطف على الخليفة. وهذا ما كانت صبح ترفده من خلال الصلات التي تمكنت من صنعها مع عدد من ذوي الرأي، من بينهم شيوخ ووعاظ وبعض عرفاء الصناعات.

وهذه المرّة وجد مالك وطريف نفسيهما في حال من الحرج وضعف الحجة. وكانا يؤثران تجنب الجدال الذي كثيراً ما كان يخرج إلى الهزء بهما، أو إلى الفظاظة والغلظة حتى الشتيمة والشجار. بل وجدا من يكيل لهما الاتهام بأنهما ليسا غير خادمين مأجورين.

وأخيراً طفح الكيل بمالك، فقرّر أن يستأذن على صاحبه القديم، فيبث له بعض ما يتحدّث به الناس، لعلّه يعمل على تجلية الحقائق وتفنيد الإشاعات المغرضة وتسكين الخواطر.. و.. نعم، تصويب ما يمكن وقوعه من خطأ لا يسلم منه أحد من البشر مهما تكن مواهبه وغاياته. أليست النصيحة لله ورسوله وأولياء الأمر؟ ثم إن أبا عامر لم يحتجب عنه وعن طريف مرات عدة في السابق، وكان ينصت إليهما بود واهتمام، وأهاب بهما غير مرة ألا يتأخرا عليه في أخبار الناس ومطالبهم. فلِمَ يحجم عن ذلك هذه المرّة، وقد زاد الخوض فيه، ويوشك أن يقوم عليه الناقمون؟

والحق أن مالكاً كان يطلب هذه المرة أكثر من هذا كلّه: أن يسمع من أبي عامر ما يسكّن خاطره هو أولاً، ويطرد هواجسه، ويردّه إلى اليقين فيه، بعد أن زعزعته مطاعن الكثرة من حوله. فهل يعقل أن يكون هؤلاء جميعاً على باطل، وهو وقلة مثله على حق؟

أما طريف فأبى أن يصحبه هذه المرة، بل حاول أن يثنيه عن عزمه، فالمنصور اليوم ليس محمد بن أبي عامر الذي عرفاه في الأمس. وللسلطان أحكام غير أحكام العامة. وما كان ليبسط له ولمالك، ولا للعامة على الجملة الأسباب الموجبة لأعماله. فللدولة أسرار لا يطلع عليها إلا أصحابها.

كما أنه لم يكن خافياً أن المنصور قد بثّ عيونه في كل ناحية، فإن كان حريصاً حقاً على معرفة ما يدور بين الناس، فأولى بهؤلاء أن يُظهروه عليه، ولا حاجة له بمالك وطريف ليطلعوه على ما غاب عنه.

وقد كان طريف، على بساطته، محقاً. وما لم يكن بوسع مالك أن يدركه، وقد حزم أمره على مكاشفة المنصور، أن بعض الملوك المتغلبين الذين صعدوا من أوساط العامة، إذا تواضعوا لهم ظاهراً، فإنما يفعلون ذلك وقد أمنوا على مكانهم في القمّة، فهم يملكون ترف النزول إلى الوادي الذي كانوا فيه يوماً، ليتقمّصوا سير الملوك الصالحين الذين يتفقدون أحوال الرعيّة بأنفسهم، وليس ذلك إلّا تجمّلاً منهم أكثر منه تواضعاً لله واحتساباً. وإلى ذلك فهو أحرى بأن يشهد لهم بالإنجاز العظيم الذي اكتسبوه بجهدهم ومواهبهم. فالضدّ يعرف بالضدّ. وسمو القمة أظهر ما يكون لأهل الوادي من أمثال مالك وطريف، وسواهم ممن كانوا جيران الملك المتغلّب في يوم بعيد. ولا بد بذلك أن ينشأ السؤال: لماذا هو دونهم وقد كان منهم وفيهم. والجواب لا بد أن يكون: اتفاق مواهبه وقدراته مع إرادة الله وقدره. أما الأولى فتدعو إلى تعظيمه وتمجيده، وأما الثانية فتدعو إلى الخضوع له امتثالاً لإرادة الله فيه!

حين دخل مالك على المنصور، بعد انتظار طويل في الرواق، وجده جالساً وحده إلى منضدة يوقع بعض الرقاع. لم يخفّ له هذه المرة، واكتفى بردّ التحية من مكانه، وتابع النظر في الرقاع. وحين تنبّه إلى أنّ مالكاً يحمل على مألوف عادته، طبقاً مغطّىً، قال مالك:

- الفطائر التي تحبها يا سيدي.

قال المنصور دون أن يبدي اهتمامه المعهود:

- شكراً. ضعها هناك.

وضعها مالك حيث أشار. ورمقه المنصور منتظراً كلامه، وقال مستعجلاً:

- هل وراءك خبر تريد أن تفضي به إليّ يا مالك؟ فإني كما ترى..

وأشار إلى الرقع أمامه.

شعر مالك بالحرج، وكاد أن يندم على قراره بالزيارة. ثم قال:

- يا سيدي.. أعلم أني لست في منزلة من يدخل على الملك المنصور، فيفضي إليه. ولولا إذنك لما أدخلني صاحب بابك.

- بل إني أمرته ألا يحجب عني صاحب مسألة أو مظلمة كائناً من كان.

- وكذلك عهدنا بكم يا سيدي.. وقد كنتَ قد عهدتَ إليّ أن أتوصل إليكم بما يدور بين العامة، كي تصلح ما يفسده الخصوم وأهل الأراجيف.. أو.. بعض المفوتين من أهل خدمتك. وما حملني إليك الساعة يا سيدي إلا حق الوفاء والولاء.. وناقل الكفر ليس بكافر.

استطاع مالك الآن أن يجذب اهتمام المنصور، فتوجه إليه بكل حواسه، وقال:

- قل! إني منصت.

* * *

بعد يومين من ذلك اللقاء، فوجئ مالك بأهل السوق يشيحون عنه ويتحاشون الحديث معه. فإذا أقبل على أحدهم انصرف عنه عابساً، وربما مرّ بالجماعة يتناجون ويتهامسون، فإذا اقترب نظروا إليه شزراً. ثم لم يجد غير طريف يسأله، فأشاح عنه كذلك وانصرف مبتعداً. فلحقه مالك وأمسك بتلابيبه وصاح به:

- أنت أيضاً؟ والله لا أتركك حتى تخبرني.

قال طريف:

- ألم أنهك عن الذهاب إليه؟

- وما شأن ذلك بما أرى؟

أومأ طريف إلى بعض الدكاكين المغلقة وقال:

- ألا ترى؟

* * *

أخذ يحث بغلته ليصل الزاهرة قبل دخول المساء. وكان جسمه يرتجف من شدة الضيق. ووِدّ لو يطير ليبلغ غايته فيلقي عن صدره حمله الثقيل. ولما دخل على المنصور أخيراً غفل عن أدب التحية وتعجّل الكلام بصوت شديد الاضطراب:

- سيدي المنصور. بعض أصحابنا في السوق.. لم يأتوا إلى حوانيتهم اليوم.. وعلمت أن الشرطة قد تقبّضت عليهم.. وأهل السوق يتهمونني.. يقولون: أنت وشيت بهم عند الحاجب.. وأنا والله ما أردت بهم سوءاً حين ذكرتهم عندك وقد سألتني عنهم.. وظننت أنك تسأل لسابق علمك بالسوق وأهله.. وكان الغرض ما تعلم يا سيدي.. وهؤلاء أصحابي، ومن خيرة الناس، وليسوا من أصحاب الغرض.

تحدث المنصور بصرامة:

- خيرة الناس لا تُرجف بالسلطان ولا تحرّض على الفتنة.

أطرق مالك لحظة ثم رفع رأسه وقال وقد استجمع رباطة جأشه:

- إن كان ذنبهم أنهم يتحدثون بما أهمّ أهل قرطبة وما يدور بينهم، فيجب أن تأخذ أهل قرطبة كلهم يا سيدي. ولا والله ما يقولون أكثر مما كنتَ تقول أيام كنت منا وفينا. غير أني ما زلت منهم.. وقد أسقطتَ مروءتي بينهم.. وأنا والله ما ابتغيت أن أكون عيناً عليهم. فخذني إذن يا سيدي بما أخذتهم به. فإني والله أقول الآن كما يقولون.

قال المنصور بصوت هادئ:

- بل نُحسِن لك ونجزل مكافأتك.

أطرق مالك من جديد، وقال بحزن وأسى:

- حتى السجن الذي يبرئني ويردّ مروءتي تضنّ به عليّ يا سيدي! أما والله لقد عاقبتني عقوبة دونها السجن.

ثم استدار ومضى بخطوات واهنة، كسيراً حسيراً. وكان ذلك آخر عهده بجار السوق الذي صار الحاجب والملك المنصور.

مكتبة
t.me/t_pdf

ما لبثت نقمة الصدور أن تفاقمت حتى خرجت إلى العصيان والشغب، لا سيما في سوق الحدّادين الذين أغلق جلّهم حوانيتهم واحتشدوا يهتفون للخليفة ويطالبون بظهوره. وهرعت الشرطة إلى المكان لتطفئ الشرارة قبل أن تشتعل ناراً تمتد إلى سائر أحياء البلد. وصاح قائدهم بالجمع أن ينفضوا من فورهم وإلّا تقبّضوا عليهم.

صاح صائح من الجمع متحديّاً:

- لا نجتمع على باطل فنحاسب عليه.. وهذا سوقنا فارجعوا أنتم.

وصاح آخر:

- عودوا إلى سيدكم فقولوا له عنا: أخرج لنا خليفتنا الذي بايعناه على السمع والطاعة في المنشط والمكره.. فما يدرينا أحيٌّ هو أم ميّت؟

ارتفعت أصوات الحشد بالتأييد، ثم تقدّم رجل متحديّاً الشرطة وصاح بأبيات من الشعر كانت قد شاعت بين الناس:

ابنـــي أميّـــة أيـــن أقـــمار الـــدجى
مـــنكم، ومـــا لوجوهـــا متغيّـــب

أبنـــي أميّـــة أيـــن أقـــمار الـــدجى
مـــنكم، وأيـــن نجومهـــا والكوكـــبُ

غابـــت أســـود منكمـــو عـــن غابهـــا
فلـــذاكَ حـــاز الملـــكَ ذاكَ الثعلـــبُ

زادت الأبيات الناس هياجاً وحماساً، وبدا أن الموقف ينذر بمواجهة حامية مع الشرطة الذين صاح قائدهم:

- إني أنذركم لآخر مرّة.. انفضوا الآن وعودوا إلى أعمالكم وإلا تقبضت عليكم.

لم يتزحزح الجمع من مكانه، بل تراكض آخرون وانضموا إليهم وهم يحملون الهراوات وبعض أدوات الحدادة، وإذ تهيأت الشرطة وهموا بسل سيوفهم، سُمع صوت إبراهيم وهو يقبل راكضاً:

- الله الله، الله الله. اتقوا الله في أنفسكم.

اخترق حشد الحدادين حتى وقف في الوسط بين الشرطة والجموع الغاضبة، وصاح أولاً بالناس وهو يشير إلى الشرطة:

- هؤلاء إخوانكم.. وهم مأمورون.

ثم خاطب الشرطة مشيراً إلى الناس:

- وهؤلاء، أهلكم.. دمهم دمكم، وذمتهم ذمتكم.. لم يقصدوا شرّاً ولم يدعو إلى فتنة، ولم يخلعوا طاعة، وأي شر في أن يعلنوا ولاءهم لأمير المؤمنين؟ أمير المؤمنين.. خليفتهم وخليفتكم.. وهل الطاعة إلّا لله ورسوله ووليّ أمر المسلمين؟ ومن هو ولي الأمر؟ فكيف يُعاقَب أهل الطاعة عقاب أهل العصيان؟ والذي يفصح ويعلن، أبعد من التهمة وسوء النية ممن يدبّر في الخفاء ويبيِّت في الليل. فاتقوا الله في أنفسكم وفي الأندلس.

ثم التفت من جديد إلى الحشد وصاح:

- هيا عودوا إلى أعمالكم.. قد أسمعتم من كان سامعاً، وبرّأتم ذمتكم، ولا تعينوا الشيطان على إخوانكم هؤلاء.

بدأ الناس في الانفضاض احتراماً لعريفهم الذي كان إلى عهد قريب قائد الشرطة.

في مساء ذلك اليوم سمع إبراهيم طرقاً شديداً على باب بيته. ولما فتحه وجد عدداً من الشرطة. أرسل نظرة مستطلعة إلى قائدهم الذي كان من جملة شرطته سابقاً. وبدا هذا محرجاً وهو يقول:

- مأمورون يا أبا حمدون. فلا تجعل الأمر أشدّ عليّ مما هو.

قال إبراهيم وقد أدرك الموقف:

- لا، لن أجعله كذلك.

وإذ تبيّن لزوجه أمينة أنهم جاؤوا يتقبّضون عليه، برزت تولول:

- ما الذي تريدون به؟ ألا تعلمون أنه كان قائد الشرطة.. اتركوا زوجي قطع الله أيديكم.. لم يفعل شيئاً.. لقد ترك عمل السلطان لأهله.

قال إبراهيم:

- اصمتي يا أمينة ولا تظهري الجزع.. فكلٌّ ملاقٍ مصيره!

وإذ ابتعدوا به نزلت على عتبة البيت تنتحب وتلطم على رأسها.

* * *

لم تذهب الشرطة به إلى السجن أولاً، حتى دخلت به على المنصور حسب أوامره. وكان المنصور ينتظر بوجه شديد الانقباض. وابتدره بالقول:

- أهذا حقّي عليك؟ ألم أُحسن إليك حتى رفعتك إلى خطة الشرطة، قبل أن تستعفي بنفسك على غير رغبتي؟

أجاب إبراهيم:

- لم أطلبها عَلِم الله.. وأنت تعلم.. يا سيدي!

تابع المنصور:

- ثم تحرّض عليَّ، أنت من دون الناس، بعد الذي كان بيننا؟

- لم أفعل، علم الله. ولكني وقفت بين الشرطة والناس لأدفع الفتنة، وقد فعلت.

- فما قولك للناس عن الشرطة: إنهم مأمورون؟ أي لا تلوموهم، فالذنب ليس ذنبهم، إنما هو ذنب صاحب الأمر. وما قولك للشرطة وأنت تدفع عن أهل الفتنة: إنما هم أهل طاعة لا عصيان.. والطاعة لله ورسوله وولي الأمر.. ثم تتساءل: ومن هو وليّ الأمر؟ تُذَكر بالخليفة وتغمز بي. ثم تقول: من يفصح ويعلن أبعد من التهمة، وخير ممن يدبّر في الخفاء ويمكر في الليل.. إذن فلا بأس بالعصيان إن لم يكن تدبيرَ الخفاء ومكرَ الليل!

هز إبراهيم رأسه بأسف وقال:

- ما أهون أن يُحرف الكلام عن مواضعه يا سيدي.. فهو حمّال أوجه.

قال المنصور:

- بل له وجه واحد عندي يا إبراهيم.. وقد خيّبت أملي!

قال إبراهيم بأسلوب مبطّن:

- كلنا يخيب أمله أحياناً يا سيدي.. كذلك تفعل تقاليب الزمان!

*

وقف إبراهيم في حجرة سجنه، يجيل البصر فيها متأمّلاً في صروف الدهر وأحواله المتقلّبة. وتوالت عليه ذكريات سجن الصقالبة الذي جمعه مع ابن أبي عامر في تلك الأيام الخالية، وما دار بينهما من

جدال حول أنجع الطرق في رفع المظالم عن الناس. كان في ذلك الزمان يحاجج عن رأيه بيقين مريح. ولكنه الآن لا يملك ذلك اليقين. فالمظالم التي دار الجدال عليها في ذلك الحين، كانت مظالم يوقعها أهل السلطان بالعامة: مظالم الفتيان الصقالبة والمصحفيين وبعض الموالي. أما الآن، فإن العامة لم تخرج احتجاجاً على مظالم وقعت عليها، وإنما على مظالم أوقعها أهل السلطان بأهل السلطان! ملك متغلب، خرج من أغمارهم، وخليفة مظلوم لم يكونوا ليرجوا مصافحته ولكنه شعار بلادهم، وكتاب تاريخها المجيد! فيا لمفارقات الدهر!

أقبل عليها بخطىً سريعة وقد بدا شديد التجهّم، وقبل أن يصل، ابتدرته بالقول:

- أهلاً بحاجب ولدي الخليفة.. قد طالت غيبتك عنا. هل سلوتنا أم استغنيت؟

والحق أنه، على الرغم من كل شيء، لم يَسْلُها ولم يستغن عن رؤيتها، ولكنه بات يماطل نفسه في الذهاب إليها ليتجنب في المقام الأول أن يواجه نفسه إذ يواجهها، ويرى صورته الجديدة في مرآتها! قال:

- ألّا تملّين يا صبح؟ هل يسرّك حقاً أن تثور الغوغاء بي، فتسيل الدماء؟ أهذا ما تريدينه حقاً؟ قد علمتِ الآن أني لا أخضع ولا أتهاون في إخماد الفتن وأهلها، وأني قادر عليها. فإن لم تمسكي من أجل شيء آخر، فمن أجل العامة التي تحرضينهم فتهدفينهم لغضبي وعسكري.

قالت مع ابتسامة شاحبة وهي تتملّى في الوجه الذي لا تستطيع أن تكف عن عشقه:

- وكيف أحملك على المجيء إليّ لتعاتبني في الأمر، فأراك؟

تريثت لحظة ثم تابعت بنبرة أخرى:

- ألا يخطر لك أن العامة قد تغيّرت عليك من تلقاء نفسها، بي أو بدوني، وأنك أنت أكبر خصم لنفسك، وأشدّ من يحرّض عليها؟ نعم.. لا يغلب المنصورَ أحد.. إلّا المنصور! وقد كفيتَني المؤونة هذه المرّة بقتلك ابن قنّون غدراً.

اعترض قائلاً:

- لم يكن غدراً.. لم أعطه أماني.. وتعلمين أنه..

قاطعته بلهجة مبطنة يشوبها التهكم:

- نَكَث عهوده القديمة.. أيام الحكم رحمه الله.. نَكْثُ العهود أمر قبيح!

فهم المغزى، ولكنه آثر السكوت. واستأنفت:

- هل تصدّق؛ والله لقد حزنت من أجلك. نعم، أريد أن أنتزع منك حق ولدي، وأريد من العامة أن تنتصف لخليفتها، ولكني، علم الله، لا أحب أن يطعنوا بمروءتك. هل تصدّق؟

بعد هنيهة قصيرة من الصمت، سأل:

- أين أمير المؤمنين؟

* * *

وجده متمدداً على بطنه على مصطبة رخامية مرتفعة، قد كشف نصفه الأعلى. بينما انشغل أحد الفتيان في تدليك ظهره وكتفيه بطيب يسمى المَرْتَك. ولم يتنبه هشام لدخوله. أما المنصور فأومأ إلى الخادم فتنحّى جانباً، وتولّى المنصور نفسه إكمال عمله.

أحسّ الخليفة تغيّر اليدين، فهمّ أن ينهض، ولكن المنصور ضغط عليه بشدّة ليلزمه البقاء على وضعه، وإن فعل ذلك بحركة التدليك.

وقال وهو يتشمم المرتك:

- هذا المرتك طيب الرائحة.. هل تعلم يا مولاي أن زرياب هو الذي اصطنعه لأهل الأندلس؟ ذلك الرجل.. كان إلى جانب الغناء

والموسيقى ذا مواهب كثيرة.. الأثاث.. الآنية.. أنواع الطعام.. أصباغ النساء.. أشكال قص الشعر.. ومعها كلها: الرياضيات والفَلك. كيف كان يجد الوقت لكل تلك المواهب!

علّق هشام متهكماً كعادته:

- نعم، كيف كان يجد الوقت؟ فأنا أعلم بما يلقى الرجل من ازدحام وقته بالمشاغل!

قال المنصور وهو يبالغ في الضغط على ظهر الخليفة حتى أوجعه:

- وإيصال الشكوى إلى الناس.. هي في مقدمة مشاغلك يا مولاي؟

همّ هشام أن يرفع جسمه من جديد، فزاد المنصور من قوة الضغط بعمل التدليك ليرده عن ذلك، حتى انفلتت آهة مخنوقة منه، فقال المنصور:

- لا بأس يا مولاي. فإن الفائدة مع قوة الضغط. ستشعر براحة عميقة ومتعة بالغة بعدها.

استسلم هشام مرغماً. وتابع المنصور العمل، ثم قال:

- نشدتك الله يا مولاي إلّا أجبت. لو أني أردت بك شرّاً، معاذ الله، أفما كنت أستطيع ذلك؟

أجاب هشام وقد خرج الحوار الآن من التلميح إلى التصريح:

- تعني أن تقتلني وتخفي ذلك، وتزعم أني ما زلت في قصري منقطعاً للعبادة؟ بلى.. بلى، تستطيع أن تفعل. ولكن يمنعك الولاء والوفاء لخليفتك وأبيه رحمه الله.. وهل أقول: لأمّه أيضاً؟! بارك الله بك يا أبا عامر.. وكيف تقتل من شبّ وكبر على عينك، وكنت وكيله الناظر عليه منذ قدم إلى هذه الدنيا!

- وأنا ما زلت خادمك يا مولاي. أعني لم أنازعك لقب الخلافة. فأنا أصرّف لك شؤون دولتك، وأجنبك ما يخالط عمل السلطان من المخاطر والمكاره والهموم، وكل ما يثقل القلب ويعذّب الروح!

- نعم أعانك الله.

أخيراً تمكن هشام من أن يرفع رأسه وكتفيه وأن ينثني بهما تجاه المنصور. ولأول مرّة يتحدث بلهجة الرجاء:

- يا أبا عامر.. أكاد أختنق داخل أسوار الزهراء وجدرانها.. أريد أن أخرج إلى الدنيا الواسعة.. فقط أن أنزّه عن نفسي في الخلاء الرحب. هل هذا مطلب كبير لأمير المؤمنين؟

قال المنصور:

- وأذى العامة والمتطفلين.. وأهل الأطماع الذين يرغبون في التوصّل إليك، وترغب في الشكوى إليهم، وربما أكثر من الشكوى؟

- لا أفعل.

بعد تريّث قصير، قال المنصور:

- إذن نفكّر بطريقة يحقق بها أمير المؤمنين رغبته، دون أن يتعرّض للسوء والأذى.

* * *

في اليوم التالي، انفتحت بوابة الزهراء، وخرجت منها امرأة منتقبة على بغلة، تحيط بها كوكبة من الحرس.

وإذ خرجت المجموعة من أحواز قرطبة والزهراء، وصارت إلى الخلاء الواسع، وأمِنت عيون الخلق، خلعت المرأة النقاب لتبين عن وجه

هشام، الذي ألقى برداء المرأة جانباً، ثم ترجّل عن البغلة، وملأ صدره بالنسيم العليل المشبع بروائح الزهور البرية.. ثم دار على نفسه بضع دورات وقد بسط ذراعيه يميناً وشمالاً، ثم أخذ يتراكض في المكان كطفل يلاحق فراشة من فراشات الربيع.. هنالك نسي هيبة الخليفة والخلافة.. وما الذي بقي منها على كل حال، بعد أن رضي بالخروج، على شرط المنصور، متخفياً في زيّ امرأة؟

كان ثمة فتى آخر، غير الخليفة هشام، يشكو من ظلم المنصور ويطوي صدره على مرارة مقيمة فيه. وكانت مشاعره نحوه متوزعة بين الحب والسخط: حب الابن الذي لا يرجو غير عطف أبيه، وسخط من لا يجده.

كان ذلك عبدالله، الابن البكر لمحمد بن أبي عامر الذي غدا الآن شاباً وسيماً قوي البنية وفارساً لا يشق له غبار؛ فلا يكاد يجاريه أحد في ركوب الخيل والرماية والصيد. فقد وجد في هذه الرياضات بعض السلوى عن الأسى الذي لا يفارقه مذ كان صبياً، لما يرى من تفضيل أبيه لأخيه الأصغر عبدالملك وانصرافه عنه. ومنذ شبّ الأخوان عن الطوق، لم يعد تفضيل الأب لعبدالملك يقتصر على الرعاية والعطف الاهتمام، وإنما بتقديمه في أعمال الدولة معه، فيصحبه في حملاته ويجلسه إلى جواره في مجلس الحكم ولقاء الوزراء والسفراء والقادة، ويوفده في مهمات مختلفة عبر الولايات والأمصار. وفي المقابل استبعد عبد الله عن ذلك كله، وإن لم يبخل عليه بالمال والمتاع. ولم يكن عبدالله ليجد من يبث له شكواه، فصار أمْيَل إلى الانطواء على نفسه، وقسم وقته بين أعمال الفروسية والمطالعة، ولم يجد في نفسه ميلاً إلى لهو الشباب في مجالس الأنس والسماع.

أما عبدالملك، فكان يحب أخاه ويشفق عليه، ويسعى جهده أن يواسيه بطرق غير مباشرة، ولكن هذا كان أشدّ مضاضة على نفس عبدالله، فأحرى به أن يكون محل تقدير وإعجاب من أخيه الأصغر، لا محلّ إشفاقه.

ولمّا فاتح المنصور ولده عبدالملك بأنه يعدّه لمنصب الحجابة والملك من بعده، وأنه سيعلن بذلك في الوقت المناسب وجد نفسه يقول:

- ولكني لست بكرك يا أبتِ!

قال المنصور بنبرة حاسمة:

- تعني عبدالله؟ هذا أمر أقدّره أنا وحدي.. وقد فَعَلت.

قال عبدالملك:

- ليسوؤنّه ذلك كثيراً.

- لا يسعه إلّا أن يصدع بأمري.

- ولكن..

قاطعه المنصور بشيء من الانفعال:

- وإياك أن تجادل عنه، أو عن أي أحد. وإن كنت تريد أن تكون السلطان الذي ينبغي أن تكونه فإنّ عليك أن تنحّي العواطف جانباً، ولا تنزل عن شيء وضع في يدك لأحد من الناس. فإن الناس يقدّرون الأقوياء أكثر مما يشفقون على الضعفاء.. هل تفهم قولي؟

هز عبدالملك رأسه ممتثلاً. والحق أنه لم يقل ما قال زهداً في المُلْك، بل كان سعيداً بثقة أبيه، وكان يتوقع ذلك على كل حال. ولكنه كان يريد أن يسمع من أبيه ما يعينه على طرد الحرج من نفسه، وهو المحب لأخيه حقاً.

حين تناهى إلى علم عبدالله ما عزم عليه أبوه، غلب غضبه على تردده وخشيته، واندفع داخلاً على أبيه الذي كان يقرأ في كتاب متمدداً على الأريكة، وابتدره بالكلام بصوت مضطرب:

- ما الذي جنيته يا أبتِ حتى تُؤْثر عليَّ أخي الأصغر؟

رفع المنصور رأسه عن الكتاب وقال:

- دعكَ من هذا يا عبدالله. أين أدبك؟

- لن أدعه يا أبتِ حتى أبوح بكل ما في نفسي. فمُذْ عقلت على الدنيا وأنا أراكَ تنصرف عني وتقبل على عبدالملك. تندبه للمهمات دوني وأنا أكبر منه ولا ينقصني عقل ولا قدرة. ثم ها أنت ترتّب أن توليه الحجابة دوني.. نشدتك الله يا أبتِ، أجبني، لماذا؟ إن كنت قد اقترفت ذنباً أغضبك عليّ، فإني أتوب إلى الله قبل أن أعرفه.. بل.. لا أريد الحجابة.. لا أريد منصباً.. لا أريد شيئاً.. فقط أريد حبّك.. حب الأب لولده.. ذاك الذي تبذله لعبدالملك وتحرمني إيّاه.. وإلّا فقل لي بأيّ ذنب جنيتُه؟

كان المنصور قد اعتدل جالساً، ونحّى الكتاب جانباً. وأرسل إلى عبدالله نظرة عميقة فاحصة، قبل أن يقول:

- أنْصت يا عبدالله. لم تجن ذنباً.. وأنت في نعمة عندي.

رد عبدالله بدون تردد:

- وكذلك صاحب بابك.. والعريف الذي يذبّ الناس بين يديك.

- اقنع بما قُسِم لك، ولا تجادلني.. ولا تدخل عليّ مرة أخرى وأنا في خلوتي.

أطرق عبدالله متفكراً وقد سقط في يده، وعلم أنه لن يبلغ من أبيه شيئاً. وبعد هنيهة من الصمت رفع رأسه وقال بصوت هادئ:

- إذن، ائذن لي يا أبتِ بالسفر إلى حين.

رمقه المنصور مستطلعاً:

- إلى أين؟

- إلى أي مكان.

استدار خارجاً، وفي طريقه تابع قائلاً:

– وما يهمّك أين أكون من الأرض.

شيّعه المنصور بنظرات شاردة. وسرح في التفكير.

*　　*　　*

قبل أن يغادر قرطبة في السفر الذي عزم عليه، كان لا بد أن يعرج على أمّه، الجارية درر، في منزلها الذي أنزلها فيه أبو عامر منذ أنجبت ولدها عبدالله، دون أن يسرّحها من ذمّته. وحين رأت وجومه أقبلت عليه وربّتت عليه بحنان وسألت:

– فداك نفسي يا ولدي.. ما الذي أهمّك.

قال دون أن يرفع رأسه إليها:

– المنصور.. أبي.

لم يكن في حاجة إلى أن يشرح لها ما تعلمه منذ دهر. فما الجديد الذي دهمه الآن حتى طغى عليه الحزن:

رفع رأسه أخيراً ونظر في عينيها نظرة سابرة وفاجأها بالسؤال:

– قد هجرك منذ وضعتِني. فهل هو أمرٌ بينكما حمّلني وزره؟

انقبض وجهها بشدّة، ولكنها تحاملت على نفسها وأجابت:

– وما الذي يمكن أن يكون بين الجارية وسيدها يا ولدي؟ يأمر فيُطاع.. ولا تملك أن تجفوه أو تغاضبه.

وقف وصاح منفعلاً:

– فلماذا إذن؟ ألا يخبرني أحد؟ ألست ولده؟

ارتجف جسمها كلّه، وكادت تشعر بالاختناق. وكتمت دموعها، ولم تحر جواباً. ثم قال كأنه يخاطب نفسه:

- ألأنني ابن الجارية، وأخي ابن الحرّة؟ ولكن أليس الخليفة نفسه ابن جارية بشكنسية؟!

قالت بصوت مختنق:

- ربّما.. ربّما كان ذلك يا ولدي.. وأمه الذلفاء كما علمت، امرأة ذات مكر ودهاء، وإن كانت محتجبة عن الناس، لا تكاد تخالط أحداً، والله أعلم بما في الصدور.

هز رأسه وقال بنبرة غامضة:

- نعم.. الله أعلم بما في الصدور.. رحم الله تلك المرأة العظيمة.. عائشة.

ذكَّرَه الكلام أن يزور قبر عائشة ويدعو لها، قبل أن يمضي في رحلته ويحط الرحال في سرقسطة، عاصمة الثغر الأعلى، عند صاحبها عبدالرحمن بن مطرّف التجيبي.

* * *

استقبله التجيبي بحفاوة بالغة، وأنزله منزلاً فخماً. وآثر ألّا يتعجل في السؤال عن غرض قدومه عليه على الرغم من استغرابه. فالفتى لم يفصح له عن شيء، ولا جاءه في مهمة من أبيه. كل ما ذكره أنه قد ملّ حياة قرطبة والزاهرة وأزعجه حرّ صيفها. فاختار أن ينزل وقتاً في سرقسطة يروّح عن نفسه في هوائها البارد. ولكن التجيبي الداهية الخبير بالرجال ، لم يخفَ عنه أن الفتى يطوي صدره على همّ مقيم، وقد لحظ طول صمته ووجومه. وكان قد بلغه شيء من جفاء أبيه له، وتقديمه أخاه الأصغر عليه، وأنه ينوي أن يولّي عبدالملك من بعده، وقد كره ذلك منه. أما أنه استأثر بالمُلك فقد سكت عن ذلك وفي نفسه حاجة منه، وأما أن يجعل ذلك وراثة في

عقبه، فذلك ما لا يمكن أن ترضى به نفسه. كيف لرجل صعد من أوساط العامة أن ينشئ ملكاً خاصاً إلى جانب الخلافة؟ فإن قضت الأحوال بذلك، فأولى بها من ورثوا الإمارة كابراً عن كابر كالتجيبيين، وهم بعد موالي بني أمية، ومن أركان الخلافة منذ دهر. والآن، وجد عبدالرحمن التجيبي، والي سرقطسة، في عبدالله الناقم على أبيه فرصة سانحة يمكن أن يقتنصها لنفسه، ويغيّر بها مسار الأمور في الأندلس!

بعد مرور وقت كافٍ على مكوث عبدالله في ضيافة التجيبي، وجد هذا أن الوقت صار مناسباً للكلام الصريح. فقال:

- ما جئتَ هنا للنزهة يا سيدي. ولا أنت في مهمة انتدبك لها أبوك. وقد أهمك أمر عظيم.. ولكنك عرفت على من تَقْدُم.. تستطيع أن تثق بي. فوالله لا أخيّبك وقد اخترت النزول في جواري دون سائر الأندلس وأهلها.

حين رأى أن عبدالله قد لزم الصمت، اختار أن يكون أكثر صراحة ووضوحاً، فقال:

- لقد قدّم عليك أخاك الأصغر!

هنا التفت إليه عبدالله بوجه متنبّه، فأردف التجيبي:

- لا تعجب. إني أعلم كل ما يجري في قرطبة. يجب أن أعلم، إن كنتُ حريصاً على ألّا يكون مصيري كمصير غالب الناصري، ومصير جعفر بن حمدون. لم يبقَ في الأندلس كلها رجل قوي غيري في عصبة قومي التجيبيين. والكل يتهامس: لا يسع المنصور أن يتركه معتصماً بشوكته هنا بعد أن فرغ من الآخرين.. لا أدري.. ربما كانت هذه مجرّد أوهام وهواجس.. يقيسون اللاحق على السابق.. ولكن الحيطة أوجب.. هل يصدمك كلامي؟ وأبوك يعلم أني وقومي قد كرهنا ما صنع بالخليفة، ونحن مواليه وموالي آبائه منذ كنا في هذه الجزيرة. ولولا أن غالباً

الناصري، غفر الله له، واطأ الروميّ، لما تخلينا عنه. وقد والله رضينا بأبيك حاجباً بما قدّم لنفسه من الصنائع. ولكن، أن يعطّل الخليفة ويحجر عليه، فلا والله ما رضيت نفوسنا بذلك يوماً.

توقف عن الكلام، وأخذ يتفحّص عبدالله ليرى أثر الكلام فيه. ثم استأنف:

- في وسعك الآن أن ترجع إلى أبيك فتفشي له كلامي! لا يهمّني. فأنا هنا في مَنَعةٍ من قومي.

لأول مرة يتحدث عبدالله بصوت هادئ:

- ما اخترت القدوم عليك لأكون عيناً لأبي.

تابع التجيبي التحديق فيه، وسأل:

- فما الذي جاء بك يا عبدالله؟ أعني حقاً. قل ولا تخف..

لم يكن عبدالله نفسه، قبل تلك الساعة، يدرك مدى الغضب الذي تراكم في صدره عبر سني عمره من جفوة أبيه، فأرسل نفسه كالسيل الهادر دون تحفظ صائحاً وهو يدق على صدره:

- أريد أن أنتصف لنفسي.. أن يعلم أبي أني أشْبَه الناس به إذا خاصمت أو فُرضت عليّ الخصومة.. وأني قادر على ما يقدر عليه.. وأنه ارتكب خطأً فادحاً حين حرمني حق الابن على أبيه، فلا أجاوز العدل حين أحرمه حق الأب على ولده. كان يمكن أن أكون الدرع الذي يتّقي به، والسيف الذي يقاتل به، ولكنه أبى إلّا أن يعطّلني كما عطّل الخليفة، إلّا أنه عطّل الخليفة ليستأثر بالملك. فلماذا يعطّلني وأنا ولده وأولى الناس بميراثه؟ فإن لم يكن له سبب أعرفه في نبذي، فلأُعطه سبباً لعلّه يذكّر أو يخشى، ويعلم أنه ليس محصّناً لا يقدر عليه شيء ولا أحد، وأنني أقوى على ما يقوى عليه، وأنه يعجز عما أعجز عنه، وأنه يمكن أن ينزف كما

أنزف، فنكون سواء. رجل لرجل.. وليس وراء ذلك شيء، إلّا أن يجعلني نسياً منسياً بلا همة ولا ذِكْر، أعيش الآن في ظلّه دون غاية ولا طموح، فإذا انقضى أجله صرت عالةً على أخي، فإن شاء أعطى وإن شاء منع. تسألني ما أريد؟ هذا ما أريد.

ظل جسمه ينتفض إذ فرغ من كلامه. أما التجيبي فارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة.

*　　*　　*

كانت خطة التجيبي أن يقتنص فرصة خروج المنصور في حملة الشتاء السنوية لغزو بلاد الرومي، ومعه عبدالملك كما درجت عادته منذ سنوات. فإذا أوغل في بلاد العدو وانشغل بقتالهم، خرج التجيبي بجنده إلى قرطبة دون إعلان وورّى عن ذلك. وقبل ذلك الحين، يكون على عبدالله أن يرسل إليه بخطط أبيه والطرق التي سيسلكها نحو الثغور، وإن كان قد بيّت الغدر بالتجيبي كما نمي إليه. فقد كان المنصور يورّي عن مقصده ومسلكه. فإذا وصل جند التجيبي على حين غرّة، احتال عبدالله أن يفتح لقطعة منهم أبواب الزاهرة في جوف الليل ليحوزوها قبل أن يجتمع عليهم الحرس العامريّ. وضمن له أنه إذا فعل ذلك أن يكافئه الخليفة بإحدى الكور أو الولايات الكبيرة. ووعده كذلك ألا يلحق الأذى بأبيه. فإنه إذا سمع بأن قرطبة والزاهرة قد خرجتا من حكمه سقط في يده. وإذا تعجّل العودة بطّأ به المطر والوحل، ولم يجد من يمدّه بمؤونة الجيش من سرقسطة والثغر الأعلى كما هي العادة. وفي تلك الأثناء يكون قد خرج مرسوم الخليفة بإعفائه، ويظهر للناس. فإذا وصل المنصور بمن بقي معه من عسكره منهكاً بعد طول الرحلة وصعوبة الطريق ونقص المؤونة، لم يسعه إلّا أن يصدع بأمر الخليفة ويرضى بأمانه، وإلّا صار خارجاً على الخلافة نفسها فاجتمع جند الأمصار عليه،

وكذلك جيش الحضرة الذي سيعلن الخليفة تولي أمره بنفسه، فلا يسعه غير الطاعة.

بدا واضحاً أن التجيبي قد بيّت الخطة مع أهل الزهراء: الخليفة وأمّه. والحقيقة أنه لم يكن ليأبه حقاً بمصير المنصور وهلاكه، حين أعطى عبدالله وعده بألّا يلحق بأبيه أذى في نفسه. ولكن هذا ما كانت صبح قد أصرّت عيه، وأخذت عليه العهود والمواثيق!

* * *

ما لبث رسول المنصور أن وصل إلى سرقسطة يستعجل عبدالله بالعودة إلى قرطبة بعد أن طال غيابه. وحين دخل على أبيه مسلِّماً، أخذته الحيرة والدهشة حين وجد أباه، بخلاف كل التوقعات، يقبل عليه بلهفة الأب المحبّ الذي أمضّه الشوق إلى ولده بعد طول غياب، فيحتضنه بحرارة بالغة ويقبّل وجنتيه، ثم يحدثه عن مدى شوقه له.

ما الذي يحدث هنا؟ تساءل عبدالله في نفسه، ولم يدر ما يصنع إزاء هذا الموقف الذي لم يختبر مثله قط من أبيه طوال حياته. ولما رأى المنصور حيرته، قال مبتسماً وهو يربّت على كتفه:

- أحياناً لا يدرك أحدنا مدى تعلقه بالشيء حتى يغيب عنه، وتغمره الوحشة. ما أسعدني الآن برؤيتك يا عبدالله.

في الوهلة الأولى، انبعثت في نفس عبدالله مشاعر غريبة مختلطة تغلب عليها السعادة. ولكن، ما إن خلا إلى نفسه متفكراً، حتى بدأ يخالطه الشعور بالتوجّس والشك. ليس هذا هو الأب الذي عرفه عبر السنين. وذلك الإفراط في التعبير عن عواطف المحبة يشي بأمر خفي غير ما ينبئ الظاهر. هل يكون قد نمي إلى والده شيء مما وقع بينه وبين صاحب سرقسطة، فآثر أن يورّي عن ذلك بكل تلك الحفاوة العاطفية

لغرض مؤجّل في نفسه؟ لقد أوشك على أن يراجع نفسه في اتفاقه مع التجيبي بعد الذي رأى من والده. ولكنه الآن لا يستطيع الجزم بشيء. ما لهذا الرجل لا يترك أحداً ينام منه على يقين من الحب والكره، أو من الرجاء والخوف؟

على أن حيرته زادت حين دعاه أبوه إلى التجوّل معه منفرداً في حدائق الزاهرة، فقال بما يشبه البوح والاعتذار:

- يا عبدالله.. إن الإنسان ليغفل ثم يتوب. ويقدّر ثم يعيد التقدير. وأريد منك أن تعلم أنك وأخاك سواء عندي. أما الحجابة من بعدي فقد أجّلت النظر فيها.. لا أقدّمه عليك، ولا أقدّمك عليه، ولا أنظر في السنّ، ولكن أنظر في الموهبة والقدرة. فاستبقا الخيرات. فمن وجدته أحسن طريقةً وأرجح رأياً وأشدّ عزيمة قدّمته، والتقديم للولاية لا يعني التقديم في المحبة. ولكنها والله أمانة.. أمانة البلاد والعباد.. هل تعي قولي؟

هز عبدالله رأسه بصمت، واستأنف أبوه مبتسماً:

- إذن نستقبل الأيام معاً ولا نلتفت إلى ما استدبرنا. وإني خارج إلى الثغور كالعادة.. وغايتي قشتالة. وإني انتدبتك لصحبتي، تسمع وترى وتشركني في أمري.. فلا تقل بعد ذلك إن أباك لا ينتدبك للمهمات الكبيرة.. أما أخوك عبدالملك فيدبّر أمور الزاهرة من خلفنا.

لم يدرِ ما يقول. لقد كان يتمنى ذلك دائماً ولا يناله. فلِمَ الآن؟ فمن شأن هذا القرار أن يحبط تدبيره مع التجيبي، الذي بُني على افتراض بقائه في الزاهرة بعد خروج أبيه وأخيه في تلك الحملة. والآن تغيّر كل شيء. هل تعمّد والده ذلك عن علم بخطة التجيبي معه؟ أم هي رمية من غير رامٍ، فإن كانت كذلك، فإن والده حقاً ذو حظ عظيم!

*

ولكن التجيبي لم يوجس في نفسه خيفة من غدر المنصور، حين خرج في ثلة من عسكره للقاء أبي عامر في المعسكر الذي ضربه بالقرب من مدينة سالم، عاصمة الثغر الأدنى، قبل أن يتابع طريقه إلى قشتالة. وساق معه مدد المؤونة المفروضة على مجرى العادة. فلو كان ثمة ما يدعو إلى الحذر لأنذره عبدالله كما جرى الاتفاق معه. وما كان المنصور لينصرف عن قتال القشتاليين إلى قتال التجيبيين الذين لن يسلموا صاحبهم.

أحسن المنصور استقباله، وكان قد ضرب له قبة تليق به إلى جوار قبته، وبذلك أرضى غروره وسكّن خواطره، وفي الوقت نفسه فصله عن سائر جنده. ولم يكونوا كثرة على كل حال.

في اليوم التالي دعاه المنصور إلى قبته، وبعد أن أجلسه إلى جواره، فوجئ بدخول عدد من وجوه سرقسطة وكورها. فأوجس في نفسه خيفة لأول مرّة. ولم يتأخر المنصور في الكلام، فقال:

- تعرف هؤلاء. وقد رفعوا إلينا شكواهم.. يقولون إنك قد عدوت على ضياعهم وأموالهم بغير حق، وقد جاؤونا بالبينات والشهود. فما قولك؟

انتفض التجيبي في مكانه وأخذ منه الغضب، وقال:

- أنا لا يقال لي هذا.

صاح به المنصور:

- قد قيل لمن هو أعلى منك.. المصحفي.. فلا أحد فوق المساءلة.

ردّ التجيبي:

- حقاً لا أحد فوق المساءلة؟ فمن يسائلك أنت في أمر الخليفة؟

صاح المنصور بالحرس وقال:

- احملوه إلى قرطبة. فلينزله ولدي عبدالملك في سجن الزاهرة حتى نقضي به كما قضينا في غيره.

بينما كان الحرس يجذبونه إلى الخارج، صاح قائلاً:

- لتعلَمنّ غداً أي مهلكة أوقعتَ نفسك فيها أيها المغترّ.

ما لم يكن يعرفه التجيبي أن المنصور كان قد عاقد في السر تجيبياً آخر من منافسي عبدالرحمن، وأنفد له مرسومه بتعيينه على ولاية سرقسطة. وكان أحب إلى جلّ التجيبيين من عبدالرحمن الذي استوحشوا منه لاستئثاره بالأموال واستكباره حتى على أولاد عمومته.

اشتد قلق عبدالله وأيقن أن أباه كان على علم بخطة التجيبي فاستبق الأمور وعمل على إحباطها بأهون الأسباب. فلبث في خيمته لا يستقر على حال. ولكن الذي زاده حيرة على حيرة أن والده لم يتغيّر عليه بعد أن فرغ من التجيبي، ودعاه إليه ليتفقد معه العسكر، بل طوقه بذراعه وهو يتجوّل معه، وقال مبتسماً:

- قد علمت ما كان من أمر التجيبي اليوم. قد أخطأ الحسبة وظنّ أنه فوق السؤال، وأنه ممتنع في قومه. وما علم أني عاقدت قومه عليه، وقدّمت منهم من هو خير منه ومن يرضونه منهم، وقد وغرت نفوسهم عليه بقبائح رأوها منه. والملك يا عبدالله عقيم كما قالت العرب قديماً.. الملك عقيم.. تعرف المعنى.. فإذا صرت على أمر من أمور المسلمين فليكن شعارك شعار الفاروق رضي الله عنه: القوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له. ولا تقبل شفاعة في أحد، وساوِ بين الناس في التهمة والعقوبة على قدر الجرم. فإنك إن استثنيت واحداً رجع الناس عليك بمن أخذتهم من قبل، وقالوا: كان كله ظلماً، فيحبط عملك كله، وتفقد صدقك وهيبتك بين الناس. بل اعمد إلى الأقوى ليرتدع من هو دونه. ولا تشهر سيفك إلّا لتضرب به.

وإذا عزمت وأعلنت بعزمك فلا ترجع أبداً، فيظن الناس بك الخوار، إلّا أن ترى رأياً أشدّ حزماً وأكثر عدلاً.

كان عبدالله يستمع إلى وصايا أبيه محافظاً على صمته ووجومه، ويتقلّب في تفكيره بين أخذ الكلام على ظاهر معناه، وبين تأويله على وجه باطن. فمن يستطيع أن يعلم علم اليقين ما الذي يبطن أبوه وما الذي يدبّر له، وقد كانت سيرته كلها خططاً بعيدة يطوي عليها صدره، ويموّه عليها بظاهر مختلف من الطاعة والولاء والمودة، حتى يتمكّن فيكشف عن أنياب الأسد.

«الملك عقيم»، رددها على سمعه مرتين.. وهي ما بقي يتردد في نفسه.

* * *

في صباح اليوم التالي طلبه أبوه، فلم يجدوه في خيمته. ولم تُجدِ محاولات العثور عليه في المعسكر أو المدى المنظور منه. واختفى معه جواده. وحين طال انتظار أبيه لعودته حتى أدركه المساء، استسلم أخيراً للحقيقة الموجعة: لقد فرّ عبدالله خوفاً من أبيه، ولن يعود أبداً بطوعه. هنا فقط استنتج أبوه أنه كان قد داخل التجيبي على خطة بينهما.

لا، لم يكن المنصور على علم بالخطة والتدبير، على غير ما رجح في نفس عبدالله وحمله أخيراً على الفرار خوفاً من بطش أبيه. وبالفعل، كانت رمية من غير رامٍ. فقد راجع نفسه فيه في أثناء غيابه في سرقسطة، وشعر بالتأثم. وذكر وصايا عائشة فيه وأن الشك في نسبه له لا يغني من الحق شيئاً. فخشي الله فيه، وخشي أيضاً أن ينقلب عليه ويواطئ خصومه. وربما خامرته بعض الوساوس في طول إقامته عند التجيبي، بعد أن خرج من الزاهرة مغاضباً.

وعلى الرغم من أنه لم يعلم بخطة التجيبي التي دبّرها مع صبح وهشام المؤيّد، فقد كان يعلم أن التجيبي كان يطمع فيما بيده، ويرى أنه أحق به منه، وأنه مغتر بنفسه وعصبته، وأنه ساخط على تعطيل المنصور للخليفة. وعلى ذلك فقد عزم على التخلص منه كيلا يبقى له منافس قوي في الجزيرة. هذا كل ما كان في نفسه وما دعاه إلى تلك التدابير.

أما الآن، وقد تأكد له فرار عبدالله في جوف الليلة المنصرمة، فقد تغيّر كل شيء، وعلم أن الفتى كان متآمراً. اختلطت في نفسه مشاعر الغضب والنقمة والأسى معاً. ولكن هذا كلّه سيهون عنده حين يصله الخبر الفاجع بأن عبدالله قد التجأ إلى أمير قشتالة، غرسيه، ليعتصم من انتقام أبيه. كان مستعداً قبل ذلك أن يصفح عنه، ولكن ليس بعد الآن إلّا ما يستحقه الخائن: القتل. وعلى الرغم من غضبه الجارف، فقد شعر بالراحة التي تكون مع ذهاب الشك باليقين. الآن يتيقّن أنه ليس ولده حقاً ويستطيع أن يبوح بذلك لمن حوله ليستبرئ من خطيئة الفتى. فقال:

– والله ما أردنا إلّا صلاح أمره وتسكين خاطره وردّه إلى الحق إن كان قد بيّت غيره.. ولكنه خاف خوف المذنب حتى التجأ إلى عدو الملّة وعدو الأندلس وعدوّي. فالآن أعلم أنه ليس ولدي.. إنه عمل غير صالح، كما قيل لنوح في ولده، فكان عاقبته الغرق ككل المجرمين، ولم يقبل فيه الله تعالى شفاعة نبيه.. وهذا المارق الآبق عبدالله، لا أرجع عن صاحب قشتالة حتى يُسلمني إياه فآخذه بجرمه، ولو كان آخر عهدي بالدنيا.

ولكن صاحب قشتالة رفض عرض المنصور بأن يرجع عن غزو بلاده عامه هذا لقاء أن يسلمه عبدالله. فلما ذكَّرَه رسل المنصور بعواقب ذلك عليه وعلى بلده قال:

– وحق الربّ ما كان بيننا وبين ولد الملك صلة، وما كنا نعرفه حتى التجأ إلينا. وليته لم يفعل.. ولكنه فعل. ولا يسعنا إلّا أن نحفظ جواره، فتلك أخلاق الفرسان، وأنتم أجدر الناس بتقدير ذلك، وقد اشتهرتم بها

وشاعت أخباركم فيها.. وهي ما نجتمع وإياكم فيه على الرغم من الخصومة. فارجعوا إلى الملك المنصور فقولوا له: لا نُسلِّمه إلّا على الأمان له، يقسم عليه قسماً مغلظاً على كتابكم المقدس أمام قومنا وقومكم.

لم يرق ذلك الموقف من غرسيه للأشراف الذين شهدوا اللقاء. فلما خرج الرسل قال أحدهم:

- تعلم الثمن الباهظ الذي سندفعه من دمائنا ودماء شعبنا وقرانا وحصوننا. وذلك من أجل أمير مسلم عصى أباه فطلبه. هل نريد حقاً أن ندفع هذا الثمن؟

أجاب غرسيه:

- ثمن الأخلاق والفروسية باهظ دائماً، وإلّا كان الناس كلهم أشرافاً وفرساناً.

*　　　*

وكان الثمن باهظاً حقاً. فعلى مدى سنة كاملة توالت غزوات المنصور وحملاته على قشتالة، بعضها بقيادته، وأخرى بقيادة غيره، حتى أثخن فيهم وأحرق زروعهم ودمر الكثير من حصونهم، وضاق بهم العيش، وخشوا أن تذهب قشتالة كلها له. فلما بلغ منهم الجهد اجتمع أشرافهم بالأمير غرسيه وخاطبوه هذه المرّة بشدّة. وذكروه بأن واجبه وواجبهم الأول يجب أن ينصرف إلى بلدهم وشعبهم، فهذا ما أقسموا عليه. وهو مناط الفروسية والشرف في المقام الأول. فإذا استمرّ هذا الحال فلن يبقى في أيديهم ما يدافعون به أو عنه، حتى تسقط برغش، عاصمة قشتالة، ويُقْضى على إمارة الأجداد. وعندئذٍ يكون بوسع المنصور أن يأخذ ولده، ولكن بعد أن يخسر القشتاليون كل شيء. فما الجدوى؟

ثم خرج المتحدثون من الحِجاج إلى الوعيد بأنهم، إن لم يمتثل الأمير لمطلبهم، فسوف يجتمعون عليه، فينتزعون ضيفه منه قسراً، ثم يسلمونه لأبيه.

لم يكن عليهم أن يفعلوا ذلك. فقد كفاهم عبدالله إذ دخل عليهم ليعلن أنه قد عزم على أن يسلِّم نفسه لأبيه، وقدّم شكره الجزيل للأمير غرسيه وسائر الأشراف، واعتذر عمّا سببه لهم لجوؤه إليهم.

* *

كان على رأس الثلة التي تسلّمت عبدالله من القشتاليين أحد أخصّ خدم المنصور، واسمه سعد. وكان شديد التأدّب، فلم تظهر منه أي غلظة في التعامل مع عبدالله وخطابه. وعلى طول الطريق من أرض قشتالة إلى أراضي الأندلس هيمن الصمت على الجميع معظم الوقت. حتى إذا وصل الركب إلى مرج واسع من الثغر الأعلى، أومأ سعد بالتوقف. ومرت هنيهة صمت بينما لبث سعد مطرقاً ساهماً. ثم أرسل إلى عبدالله نظرة عميقة، بادله بمثلها. وبدا أنه أدرك الموقف. فقال بصوت هادئ، متماسك لم يخالطه شيء من الخوف:

- افعل كما أُمرت يا سعد. فلكل أجل كتاب. وإنما يقضي أبي هذه الحياة الدنيا. ولكن، أنْظِرني حتى أتوضأ وأصلي لله ركعتين.

هز سعد رأسه موافقاً. ولما فرغ عبدالله من الصلاة، نهض على ساقيه وقال برباطة جأش مُعْجِبة:

- الآن يا سعد.

بادر أحد الحرس بحبل ليوثق عبدالله، فقال:

- لا حاجة لكم بهذا.

ثم نزل على ركبتيه ومدّ عنقه دون أن يهتز له جفن. سلّ أحد الجند سيفه، بينما تنحى سعد جانباً واستدار بجسمه كيلا يشهد المنظر.

قضي الأمر بسرعة، وانتهت حياة لم تعرف غير الشقاء والأسى في قلب ما يعدّه الناس نعيم الدنيا. والحق أن إقباله على الموت بلا جزع لم يكن عن قوة نفسه فقط، وإنما كذلك لأنه أراده.

*　　*

بكاه عبدالملك بحرقة. فنهره أبوه قائلاً:

- لا تبكِ كالنساء. وتشبّه به في أمر واحد: الشجاعة والعزم. لقد لقي المصير الذي اختاره لنفسه.

خرج عبدالملك، ونزل المنصور على الأريكة مطرقاً متفكراً، حتى سمع صوت امرأة تولول وتصيح بالحرس أن يتنحوا عنها. فعرف أنها درر، أم عبدالله. فأمر بأن يأذنوا لها ثم يغلقوا الباب من ورائها. ولما اقتحمت عليه المكان باكية ترتدي البياض حداداً على ولدها، صاحت من فورها:

- قتلته يا أبا عامر؟ قتلت ولدي؟ هل ارتاحت نفسك الآن؟

قال:

- اسكني. اسكني يا امرأة.. لقد خان فاستحق عقوبة الخيانة كغيره.

هزت رأسها يميناً وشمالاً دون أن تكف عن البكاء:

- بل أنت رجل بلا قلب. لم يترك السلطان لك روحاً. لم تعامله يوماً كولدك. وإني لأعلم السبب! تشك في بنوته لك. وتحسب الآن أنك قتلت فتى من غير صلبك. ولكن.. اسمع هذا.. كنت في السابعة عشرة من عمري.. ولم أكن أفهم معنى الاستبراء وعدة الجارية وعدة الحرّة..

فربما ترددت وتلجلج لساني حين سُئِلت.. ولكن، ما كان عليّ أن أجهد نفسي بالتذكر.. أتدري لماذا؟ لأن الرجل الذي كنت عنده قبلك كان عقيماً.. عقيماً يا أبا عامر.. وهو ما يزال حياً يرزق.. فاسأل عنه وتحرّ الأمر بنفسك. لتعلم أنك قتلت ولدك بعد أن أوحشته منك.

تجمّد وجه المنصور وأعتمت الدنيا في عينيه، وشعر بساقيه تخذلانه فنزل جالساً من جديد.. وكان آخر ما قالته درر قبل أن تخرج:

- عشتَ أعواماً في عذاب الشك، ومنذ الآن عليكَ أن تقضي عمرك في جحيم اليقين.

ضغط رأسه بيديه وقد امتلأ بالضجيج. وانطفأ إلى الأبد مصباح آخر في أغوار روحه!

على بُعد فرسخ واحد فقط من أحواز قرطبة برزت ثلة من الحرس العامري من خلف إحدى التلال، ووقفت تنظر إلى قافلة كبيرة من الحمير والبغال محمّلة بالأكواز والجرار. أشار قائد الحرس فانطلقوا حتى وصلوا القافلة وأوقفوها. جال القائد بفرسه ينظر في الجرار المحمولة، وكانت تحمل رقعاً بأسماء المواد التي تملأها: عسل ومَرِيّ وسمن.

أشار قائد الحرس وسأل:

- ما هذه؟

أجاب قائد القافلة:

- صدقة أمير المؤمنين وأمّه يا سيدي. أخرجناها تحت عين حرس الزهراء.

قال قائد الحرس:

- حقاً! أليست العادة أن توزَّع على فقراء قرطبة؟ أم تريدون بها القرى هذه المرة؟

ثم ترجل عن جواده، وعمد إلى إحدى الجرار فأنزلها، ثم رفع عنها الغطاء، ثم غمس إصبعه فيها ولعقها. نظر إلى أصحابه وقال:

- عسل نقي حقاً!

فجأة تناول مطرقة حديدية وضرب بها الجرّة فكسرها، وسال العسل ومعه ما كان يغطيه: دنانير ذهبيةَ.

ابتسم قائد الحرس ابتسامة ماكرة، وتناول أحد الدنانير المغطاة بالعسل ولحسه، ثم قال متهكماً:

- لا، ليس نقياً تماماً.

كانت القافلة تحمل مائة كوز وجرّة تخبّئ ثمانين ألف دينار ذهبي. وعلى بُعد فرسخ واحد فقط في مكان يدعى تلة البلوط، كانت تنتظر جماعة أخرى على موعد مضروب، لتتسلم القافلة، ثم تمضي بها إلى مركب ينتظر على شاطئ العدوة في الجزيرة الخضراء، ليحمل المال إلى عدوة المغرب، وإلى سيد المغرب المطاع في ذلك الحين زيري بن عطيّة، ليتجهز به وبالمراكب التي ستحمله وجنده إلى عدوة الأندلس، ليردّ الحق إلى نصابه والمُلْكَ إلى صاحب البيعة: الخليفة هشام بن الحكم، المؤيّد بالله. بعد أن استجاب لاستغاثة صبح التي راسلته بذلك سرّاً. فقد خلت الأندلس من الرجال الأقوياء، ولم يبقَ إلّا أن يأتي الغوث من عدوة المغرب وسيدها القوي زيري بن عطية. ولكنّ عين المنصور كانت ساهرة.

في اليوم التالي شهدت الزهراء ثلة كبيرة من الحرس العامري تدخل الساحات بسرعة، وتترجل من فورها، ثم تدخل ردهات القصر وأفنيته ودهاليزه إلى غرفة الخزانة التي تحتوي على ستة ألف ألف دينار ذهبي في الصناديق والجرار.

اعترضتهم صبح وهي تصيح بهم أن يرجعوا، وتذكّرهم بحرمة المكان وصاحبه أمير المؤمنين. لكن الحرس لم يلتفتوا لصياحها، وتابعوا عملهم في نقل الصناديق والجرار وتحميلها. ولما يئست منهم هرعت إلى جناح ولدها الخليفة واقتحمت عليه هائجة تنتفض، فوجدته متمدداً يطالع كتاباً، فصاحت به:

- أدرك خزانة القصر، نشدتك الله.. انهض لحقك يا ولدي. سلبوك الملك والآن يسلبونك أمواله.. ألا تفعل شيئاً بحق الله؟ اخرج عليهم

لعلهم إذ يرونك يذكرون حقك وحق البيعة التي تطوق أعناقهم، فيتحشمون منك ويمسكون.

لم يتحرك هشام من مكانه، وبدا أن الأمر لا يعنيه. واكتفى بأن أرسل إليها نظرة ساهمة، ثم أنشد بهدوء:

دع الأيـــــام تفعـــــل مـــــا تشـــــاءُ

وطـــــب نفســـــاً إذا حكـــــم القضـــــاءُ

ولا تجـــــزع لحادثـــــة الليـــــالي

فـــــما لحـــــوادث الـــــدنيا بقـــــاءُ

ثم قال وهو ينقر على الكتاب الذي بيده:

- هل تصدقين؟ كنت أقرأ هذا الساعة! يسمونها الموافقات.

وعاد ينظر في الكتاب. وحين خرجت باكيةً وقد بلغ بها اليأس، رفع رأسه عن الكتاب، وأرسل نظره في أثرها، وخاطب نفسه:

- نعم.. وقد يكون الزهد والتسليم دواء العجز!

* * *

أعقب ذلك زيارة أخرى للزهراء. وكان الزائر هذه المرة المنصور ابن أبي عامر، وفي صحبته عدد من الوزراء والأعيان والقضاة الذين تركهم في مجلس الحكم المعطّل منذ زمن، واتجه وحده إلى جناح هشام الخاص، فاقتحم عليه خلوته ووجده يقرأ في المصحف.

رفع هشام رأسه وقد انتابه القلق والخوف، وسأل بصوت مضطرب:

- ماذا؟ ماذا؟

قال المنصور:

- تعلم ماذا.

- لا شأن لي..

ثم استدرك قائلاً بنبرة التحدي:

- بلى.. بلى، لي شأن.. أنا الخليفة.. أمير المؤمنين.. سيدك ومولاك.

ومدّ يده ليقبِّلها المنصور.

مرت لحظة صمت متوترة ويده ما تزال ممدودة. ثم تقدّم المنصور وأخذ بيده وقبّلها متعمداً أن يضغط عليها ضغطاً شديداً موجعاً حتى انقبض وجه هشام من الألم ولكنه تحامل على نفسه وكتم تأوهة كادت أن تفلت منه. ثم تراجع المنصور خطوة وحدق فيه بنظرة صارمة وقال:

- كيف يسمح الخليفة بإخراج مال الخلافة من قصره إلى العصاة المتآمرين.

قال هشام متهكماً:

- أي عصاة وأي مال؟ المال الذي أخرجه حرسك وفتيانك من خزانة قصري؟

صاح المنصور:

- تعلم ما أعني. جرار العسل والزيت و.. لزيري بن عطية.

قال هشام:

- آه.. أولئك العصاة! ولكن: عَصَوْا من؟ هه! عَصَوْا من؟

قال المنصور:

– دعك من هذا الآن. ولكن ذلك المال ليس كلّه خاصّة مالك.. وحقه أن يستعمل في شؤون الخلافة، لا الخليفة وحده.

– شؤون الخلافة! أين هي شؤون الخلافة؟

– أنا المتصرّف بها عنك. ولذلك نقلتها إلى خزانة الدولة عندي أمام شهود.. عُدّت ودوّنت وحُفِظت تحت أبصارهم، وقد وقّعوا على صك بشهادتهم.. أما أنت، فلن تشكو من قلة المال.. وأنا ضمين بذلك. هذا إلى جانب ضياعك الكثيرة.

– التي كنت مدبّرها والناظر عليها في الزمان الغابر!

– والآن.. ألا نُسلّم جميعاً بما قدر لنا، فنريح نستريح؟

– لقد سلّمت منذ زمن.. وتفرّغت للعبادة حقاً.

– حسناً تفعل.. ولكن هناك من لا يصدّق هذا ويروّج خلافه في أوساط العامة. وكل ذلك ينذر بالفتنة.. والفتنة تنذر بسفك الدماء وتقطيع الأرحام.

ثم غير لهجته إلى شيء من الرفق وتابع قائلاً:

– ولا يحب أمير المؤمنين، أيّده الله، أن يقع هذا في رعيّته، فينفرط عقد السلطان على الجملة، ويطمع بنا العدو المتربّص.. وإذاً، نقطع الشك باليقين، ونفوّت الفرصة على أهل الشرور والأطماع والفتن، إلى الأبد. فتكون هذه مأثرتك العظمى في رعيتك!

رمقه هشام مستطلعاً مُسْتزيداً، فتابع قائلاً:

– وهؤلاء الوزراء والقضاة ينتظرون في المجلس، ليشهدوا توقيعك على مرسوم لا لبس فيه، أنك عهدت إليّ بتصريف أمور الخلافة كلّها، لتتفرّغ للعبادة. وأنك لهذا السبب قد أذنت بنقل أموال الخلافة إلى دار الخزانة في الزاهرة. ويوقع الحضور على توقيعكم. ولكي نقطع ألسنة المرجفين،

نخرج غداً في موكب عظيم يشق طرقات قرطبة، ليعرف الناس أن الخليفة على رضا من صاحب دولته، فتسكن خواطرهم وتطمئن قلوبهم.

وقد كان موكباً عظيماً حقاً لم تشهد قرطبة مثله منذ أمد طويل. وخرج أهلها عن بكرة أبيهم ليشهدوا خليفتهم المغيّب عنهم. وكاد المنصور أن يندم على ذلك التدبير. فقد وجد أهل قرطبة في المناسبة فرصة ليخرجوا ما في أنفسهم من الحب والتأييد للخليفة والاستعداد للتضحية من أجله بدمائهم وأموالهم إذا أمرهم. كان ذلك كله في الهتافات الهادرة التي انصرفت إليه كاملة دون المنصور. صحيح أن أحداً لم يتجرّأ على الإساءة للمنصور صراحاً، ولكن هتافاتهم للخليفة كانت تضمر ذلك. وكان من بينها ما يذكر بمآثر بني أميّة الذين لا يرضون بهم بديلاً، وأدعية للخليفة وأخرى على عدوه غير المسمّى. واختصه الناس بنثر الزهور التي نثرت في زمان سابق على المنصور، ولم يكن له منها أي نصيب في هذه المناسبة. وكانت تلك آخر مرة يظهر فيها هشام للناس.

* * *

أعانه أحد الفتيان على خلع قفطانه وقلنسوته، ثم جاءه بطست وإبريق وصبّ له الماء ليغسل وجهه ويديه. وفي هذه اللحظة دخلت صبح بهدوء، وأومأت للفتى بالخروج، ثم تناولت المنشفة من ولدها وأخذت تجفف له وجهه بحنان بالغ. وقالت:

– أرأيت كيف تحبك رعيتك يا أمير المؤمنين؟ يا ولدي؟

أخذ المنشفة من يدها وقال:

– انتهى هذا الصراع مع أبي عامر يا أم هشام. انتهى إلى الأبد.. وهذا أمر الخليفة إن بقي له أمر.

أطرقت وهزت رأسها بأسى، وقالت مستسلمةً:

- أعلم.

قال هشام:

- قد نظرت اليوم إلى العامة يهتفون لي ويعاهدون الله على الوفاء والولاء والبراء من عدوّي. فحدثتني نفسي أولاً أن هؤلاء ينتظرون أمري في تلك الساعة لينقضوا عليه لو شئت، ولو بذلوا في ذلك دماءهم وأرواحهم. ثم قلت: إن حباً عظيماً كهذا الحب لا يُجْزى بأن يُضَحّى بدماء أصحابه، ولو كان ذلك في سبيلي.. في سبيل الخليفة.. فما أفدح الثمن، وما أقلّ البيع. فإن كان لا بدّ من ضحية وشهيد.. فأنا تلكم الضحية، وأنا ذلكم الشهيد، فلعل هذا خير ما أجزي به رعيّتي على حبها ووفائها، وهو غاية ما أصنع لهم، إذ عجزت عن غيره. فقد أحبوني حتى الآن لما صُنِع بي، لا لما صنعت لهم. فليكن هذا صنيعي فيهم.. ودرء المفاسد مقدم على جلب المنافع.

رمقته بعطف ومحبة، ثم تلمست وجهه وقالت بحسرة:

- لو كان الإنسان يعيش حياته مرّتين! لوَدِدْتُ لو تعود طفلاً يا ولدي ونبدأ من جديد.

ساد الصمت. ثم استدارت ومشت نحو الباب، وقبل أن تخرج سمعت صوته:

- أمّاه.

استدارت إليه وقد فاضت عيناها بالدموع.. وفجأة أقبل كل منهما على الآخر، واحتضنه بعاطفة جياشة.. أم وولدها فقط، متجرّدَيْن من أي صفة أخرى.

كان المنصور ما يزال منقبضاً من أثر الموكب، وهو يتجوّل مع عليّ في الزاهرة. ولبثا كذلك صامتين شاردين، ثم توقف عليّ ونظر إلى المنصور، وقال:

– كأنك قد وجدت في نفسك ما رأيت من العامة.. تقول: ما الذي فعله هشام لهم كي يصرفوا له حبهم من دونك؟

لم يجب المنصور، وذهب ببصره إلى البعيد. وتابع عليّ:

– إنهم يعطفون عليه لما مُنِع من فعله، لا لما فعله.

التفت إليه المنصور وقال:

– حتى أنت يا عليّ!

قال علي:

– ألا نصعد إلى المنظرة يا سيدي؟

استطلعه المنصور متعجباً، وقال عليّ:

– رغبة صاحب قديم.

في المنظرة المشرفة، ذهب عليّ ببصره إلى قرطبة التي بدت عن بُعد مشعشعة بذهب الشمس التي توشك على المغيب، بسورها ودورها وقبابها ومآذنها.. بعد لحظات تأمّل، قال عليّ مشيراً إلى المدينة:

– في زمن بعيد بعيد.. كنا هناك يا أبا عامر.. خان ابن ميمون.. أنت، وأنا. وعمرو رحمه الله، وزياد رحمه الله.. وكنت تحب أن تصعد

سطح المنزل الوضيع الذي كنا نعيش فيه وتنظر من بعيد إلى أنوار الزهراء.. وتحلم.. تبدو قصيّة قصيّة.. مكاناً محرّماً إلّا لخاصة الخاصة. ونتساءل: ما الذي يجري هناك في دنيا أخرى ليست كدنيانا.. هناك الحلّ والعقد.. هناك تتقرّر المصائر الكبرى للأندلس.. هناك المال والجاه والسلطان. وهناك أجمل نساء الأرض، وما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب رجل من العامّة.. إلّا.. من يحسن التخيّل والحلم، مثلك أنت يا أبا عامر.. وكنت تنتقد وتقضي وتحاكم بقلب العامة وضمائرهم، حين كنتَ منهم وفيهم.. والآن أنت هنا سيد الأندلس، وملك ملوك الأرض، في الزاهرة العامرة، حيث الحل والعقد، والمال والجاه والسلطان، وحيث تتقرر المصائر الكبرى للأندلس.. و.. حيث أجمل النساء! ومن يدري، لعل فتىً بعيد النظر، عظيم الطموح، شجاع الفؤاد، يقف على سطح منزل مرتفع هناك في قرطبة العامة، ينظر إلى الزاهرة، ويحلم ويخطط كما كنت تحلم وتخطط، وينتقد ويحاكم كما كنت تحاكم وتقضي.. فأين أنت الآن يا سيدي المنصور، مما كانه الفتى القادم من ريف الجزيرة الخضراء: محمد بن أبي عامر؟ وأين الحق والحقيقة؟ هناك، أم هنا؟

أطرق المنصور متأمّلاً، ثم قال:

- لعلها هنا وهناك معاً.

- ربّما، فكيف نصل الحقيقة هناك بالحقيقة هنا؟

لم يجد المنصور جواباً، فاستأنف عليّ:

- كان الجواب حاضراً عندك في الأيام الخوالي يا أبا عامر.. الشورى، والإنصات إلى العامة، فإن الأمة لا تجتمع على باطل، وأنْ تخطئ الجماعة خير من أن يصيب الفرد، فإنه إن أصاب مرّة أخطأ مرات، ثم لا يجد من يلتمس له عذراً.

تريّث عليّ واتكأ على حافة المنظرة ينظر في البعيد، ثم قال:

- لا يا أبا عامر.. لم تكن في صراع مع الخليفة هشام وأمّه، وإنما كنت في صراع مع صقر قريش، وعبدالرحمن الأوسط، وعبدالرحمن الناصر، والحكم المستنصر، وإرث بني أمية العظيم في الأندلس، وذكرى ذلك كله في نفوس العامة.. و.. نعم، عطّلت الخليفة هشام، وأذعن لك، ولكنه بقي الأقوى على الرغم من كل شيء. وقد شهدتَ ذلك بنفسك اليوم. الأقوى، لأن العامة معه ومع سيرة الأندلس الأموية.. أما الدولة العامرية فهي طارئة في أنظارهم.

توقف هنيهة قبل أن يعود للكلام:

- وأين ذهب زياد؟ وأين ذهب عمرو؟ وأين ذهب إبراهيم؟ وأين ذهب الآخرون؟ لم يبقَ إلاكَ أيها المنصور العظيم. و.. أنا، عليّ، صاحب الدرس القديم. فما الذي يبقيني معك يا سيدي بعدهم؟

رمقه المنصور متفحّصاً، واستأنف عليّ:

- قد ذهب الأقوياء جميعاً. فلماذا تستبقيني يا سيدي، إلا أن أكون الضعيف الذي لا يُخْشى شرّه! وكأنَّ القوة في غير صاحب السلطان شر دائماً أو نذير بالشر. وأنا لا أريد أن أوصف بالضعف، كما أني لا أريد أن أنذر بالشرّ.. لا ضعيف عاجز، ولا قوي مُتَّهَم.

هنا نظر إلى خاتم صاحب الحسبة وخلعه بهدوء، وقال وهو يضعه جانباً:

- خاتم صاحب الحسبة يا سيدي. هذه أمانتكم رُدّت إليكم.

بقي المنصور صامتاً واجماً حزين الملامح. ولم يحاول أن يثني علياً عن عزمه. وفجأة احتضنه عليّ وأخذ يربت على كتفه:

- ستبقى دائماً عندي أعظم الرجال، على الرغم من كل شيء، يا أبا عامر. ثم مشى خارجاً بهدوء، بينما بقي المنصور في المنظرة. ثم أرسل

نظره من جديد نحو قرطبة البعيدة. وكانت الشمس قد غابت خلفها إلّا بقية من حمرة الغسق. وما هي حتى سمع وقع خطوات عليّ في الساحة أدنى المنظرة، في طريقه إلى خارج الزاهرة. لاحق شبحه بنظرات حزينة حتى غاب. ثم رفع رأسه ونظر في السماء.. وكانت النجوم قد بدأت تنبض فيها.

ولكنه حين بحث عن نجمته لم يجدها!

مكتبة
t.me/t_pdf

كانت هي التي أرسلت إليه هذه المرة.

وحين رأته من بعيد مقبلاً عليها وهي جالسة وحدها في مجلسها الرخامي المعتاد في حدائق الزاهرة. لم يخالطها هذه المرة أي شعور بالعداء المرّ، وكانت تشعر بسكينة غريبة أشبه براحة من تحرّر أخيراً من عبء الطلب ورجاء البعيد الممتنع. وإذ وقف عندها صامتاً، قالت وهي تنظر في الفراغ:

- تستطيع أن تطمئن منذ الآن.. أنا أيضاً سأتفرغ للعبادة.

بقي صامتاً وهو مطرق نصف إطراقة. ولم يترك كلامها في نفسه إلّا الحزن. ها هي تعلن أنها تلقي سلاحها وترضى بالهزيمة. فلماذا يجد الآن أن مرارة النصر أشدّ من مرارة الهزيمة؟

بعد هنيهة أخرى من الصمت، قالت:

- كنت أعرف أن فوزك مُحتّم في آخر الأمر.. ولكن.. كان ينبغي أن أبذل جهدي كلّه.

ثم التفتت إليه لأول مرّة، وقالت مع ابتسامة شاحبة:

- لم تغلبني لأنك الأقدر. ولكن لأنه ما كان بوسعي أن أقطع ذلك الحدّ الدقيق بين حيّز الحريم وحيّز الرجال.. وهو حدّ دونه كل الرجال. وأنا امرأة واحدة.. سلطانة! ولكن امرأة واحدة.. والذين وضعوا ذلك الحدّ سيكذبون عليّ ويشنّعون ويتهمونني ويطعنون بي.. وهذا هو الخسران

الحقيقي يا.. محمد، لا خسارة الرجل الذي ما صرفني حبه عن صراع السلطان، ولا صرفني صراع السلطان عن حبّه.

لأول مرة يتحدث محمد بصوت مشبع بالعاطفة:

- لا عاش من يتهمك ويطعن بك يا صبح. يا أورورا..

أضاء وجهها على الرغم من شحوبه، وتأملته بنظرة مفعمة بالمحبة، وقالت:

- ما زلتَ تذكر؟

قال:

- لم أنسَ حتى أذكر.

أطرقت وقد غلبتها الدموع. ثم مشى مبتعداً بهدوء حتى سمع نداءها:

- محمد!

توقف واستدار نحوها. ونهضت من مكانها واقتربت منه ووقفت على بُعد خطوة أو خطوتين منه. نظرت متأملة في وجهه وعينيه. ثم رفعت يدها واقتربت بها من لحيته كأنها تريد أن تلمسها.. ولكن يدها تجمدت على بُعد إصبع منها، ثم نزلت بها، واكتفت بالقول:

- وداعاً يا محمد!

تلبّث لحظات في وقفته ينظر إليها، ثم استدار وتابع سيره ببطء.

كان متمدداً على الحشية في حجرة السجن، حين سمع صوت المفتاح وسحب المزلاج، فاعتدل جالساً.

دخل حارس السجن وقال من فوره:

- تفضّل يا سيدي.

تلبّث لحظة في مكانه ينظر إلى الحارس متعجباً من لهجة التهذيب والاحترام التي دعاه بها.

ولكن الدهشة الكبرى كانت تنتظره في غرفة ناظر السجن، حين أُدخِل عليه، ليجد المنصور هناك في انتظاره. وابتدره المنصور بالتحية:

- مرحباً يا إبراهيم.

قال بين أسلوب التحية والتعجّب:

- سيدي المنصور!

نهض المنصور قائلاً:

- ألا نمضي إلى البيت؟

في ساحة السجن، شهد النزلاء والحرس موقفاً مدهشاً.

كان المنصور يمشي مع إبراهيم وقد أحاط كتفيه بذراعه. ثم جاء أحد الحرس العامري بجواد لإبراهيم.. اعتلى المنصور جواده، وأومأ إلى إبراهيم أن يفعل مثله، وقال:

- هيا.. لا نريد أن نتأخر عن زوجك وولدك.

خرج الناس يرقبون موكب المنصور الصغير هذه المرة، يعبر مع إبراهيم أحياء قرطبة، ولم تكن دهشتهم أقل من دهشة إبراهيم نفسه. حتى وصل الركب إلى بيت إبراهيم، تحيط به جموع من أهل الحيّ. وما هي حتى انطلقت بعض زغاريد النساء.. ثم برزت أمينة وولدها حمدون من بيت إبراهيم وقد تناهت إليهما أصوات الجلبة والزغاريد. وإذ رأت زوجها صاحت صيحة السعادة والدهشة:

- إبراهيم!

ترجّل إبراهيم، وأقبل عليه ولده حمدون واحتضنه بحرارة، وأطلقت أمينة زغرودة طويلة تجاوبت معها نساء الحي بمثلها. وكان المنصور قد ترجّل أيضاً عن جواده. وقال لأمينة:

- كيف أصبحتِ يا أمينة؟ أحسني لزوجك.. فإنه رجل عظيم.

انحنت له برأسها قليلاً.. وتحوّل المنصور ببصره إلى حمدون:

- حمدون.. ألا تسلّم على عمّك أبي عامر؟

لبث حمدون لحظات متجمّداً من الدهشة والمفاجأة غير المتوقعة.. فأومأ له أبوه مستحثاً، فأقبل بسرعة على المنصور وأخذ بيده وقبّلها. ربّت المنصور عليه.

عاد إبراهيم ينظر إلى المنصور وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، ثم اقترب منه وهمس مداعباً:

- شكراً للملك المنصور على أن أخرجني من السجن الذي أنزلني فيه، ثم أبى إلّا يصحبني بنفسه إلى منزلي.

تراجع خطوتين، وقال:

- لولا أن منزلي لا يليق بالملك المنصور، لدعوناه إليه.

قال المنصور بحيث يسمعه الناس:

- أحسن المنازل منزل المروءة.

انحنى إبراهيم برأسه للمنصور انحناءة خفيفة وقال:

- سيدي الملك المنصور.

اعتلى المنصور جواده من جديد، ورفع يده بالتحية وانطلق في موكبه مبتعداً. وأطلقت أمينة زغرودة أخرى، بينما أخذ الجميع يشيعون المنصور وركبه بأنظارهم، وقد انبعثت في نفوسهم بعض تلك المشاعر الجميلة التي طالما أحاطوه بها في أول أمره.

قبل أن يفترقا في لقائهما الأخير، وحين وقفت أمامه وجهاً لوجه، ومدّت يدها إلى لحيته وتوقفت دون لمسها، ثم قالت: وداعاً يا محمد، بنبرة خاصة عميقة حزينة، لم يخطر له في تلك اللحظة أنها ستكون آخر عهده بها وعهدها به!

صعقه النبأ العظيم حتى أذهله عن نفسه. كان قد عرف أنها متوعّكة، وتمنّى لو كان في وسعه أن يعودها لولا أنها ليست من حرمه. وإن كانت المرأة التي ملأت عالمه وسكنت عقله وقلبه ووجدانه. وكان الاختبار الأعظم لحبه الجارف لها أنه لم يتزعزع ولم يتناقص على ما جرى بينهما من ذلك النزاع المرير. والآن، يصله الخبر بوفاتها! دون أن تسمح له الظروف القاهرة أن يكون إلى جانبها وهو في مذهب العشق ومسارح الروح أولى الناس بذلك، لولا أن الغلبة لمذهب الجوارح ومسارح الحياة المحسوسة.

وقف على بُعد، ينظر إلى هشام يتولّى بنفسه دفن أمه في مقبرة الزهراء بعد الصلاة عليها، بينما وقفت على القبر وصائفها وبينهن بدور في الثياب البيضاء يبكينها بحرقة، وعلى مسافة خلفهن وقف أحد الشيوخ وبعض الفتيان، وعدد من أهل الخدمة.

ها هو الرجل الذي ملك الأندلس كلها ودانت له ملوك الأرض، يقف بعيداً كما يلزمه العُرف والتذمم، وهو يرى أحب نساء الأرض إليه يهال عليها التراب، ثم يتلقى فيها ولدها الخليفة العزاء، قبل أن يستدير عائداً.

وحين بلغ الخليفة قريباً من موضع المنصور وعلى مسافة منه، تبادل الرجلان نظرة حزينة خاطفة، ولم يخف أحدهما دموعه عن الآخر. وبدا في تلك اللحظة أن المسافات التي فرّقت بينهما قد اختفت، ولو في ذلك الموقف فقط، فلا خليفة ولا حاجب، ولا مغلوب ولا متغلّب، ولا ثمة إلا سلطان الموت الذي أطفأ هالة الصباح، وحرّر أخيراً حبّاً عظيماً من أكدار الدنيا ومغالبات الحياة وملابسات الأيام!

تابع هشام مشيه مبتعداً. وحين خلا المكان مشى المنصور حتى وقف على القبر، سارحاً بأفكاره وأحزانه. ولم يدر كم مرّ عليه من الوقت حين أحسّ حركة خفيفة خلفه، ليرى بدوراً تقترب منه بصمت وما زالت دموعها تنحدر من عينيها، ومدّت له يدها برقعة ملفوفة، وعادت من فورها دون أن تقول شيئاً.

كانت الرقعة بخط صبح، وقرأ فيها:

«حين تقرأ كتابي هذا، سأكون في قبري. وإنما أردت أن أختم سيرتي معك كما بدأتها يا محمد. لقد والله أحببتك كما لم تحب امرأة رجلاً. ولكن، لا ريبة ولا دنس. هل تذكر الحدّ يا محمد؟ أما حدّ الجوارح فلا أنا بالتي تعديته ولا أنت. أما حدُّ القلب والروح فحيث يهيمان، إلى حيث تقدّر الأقدار والأمصار، وحيث لا زمان ولا مكان ولا تواريخ ولا ليل ولا نهار. قد حفظتها منك كما حفظت نفسي. وليست العفة إلّا مغالبة النفس على هواها. فادفع عني مقالة القائلين وإفك الأفاكين. رحمني الله وغفر لي وغفر لك. سلام عليك».

انحدرت دموعه بغزارة. ونظر إلى القبر، ووجد نفسه يحدثها بما كان يرجو أن يودّعها به حيّة:

– وأنا أحببتك كما لم يحب رجل امرأة.. اللهم لا ريبة ولا دنس. كذب الأفاكون.. سلام عليك يا أورورا.. يا هالة الصباح البعيد!

انتهت

مكتبة
t.me/t_pdf

تذييل: التاريخ يروي

هــــل المُلْــــكُ يَمْلِــــكُ رَيْــــبَ المنـــو

نِ، أم العـــزّ يصـــرف صرف القضـــاء

ألم تــــر كيــــف اســـتباحت يـــدا

هُ، حـــريمَ الملـــوك وعِلْـــقَ النســـاء

هـــو الــــرُّزْءُ ألــــوى بعـــزم الملـــوك

مصـــاباً وأودى بحُسْـــــن العــــزاء

لِبــــيضِ أياديـــــكِ في الصــــالحا

تِ تمسّـــك وجـــه الضـــحى بالضـــياء

جــــــزاكِ بأعمالِــــك الزاكيـــــا

تِ خــــيرُ المجــــازينَ خــــيرَ الجـــزاء

ولُقّيـــتِ مـــن ضـــنك ذاك الضـــريحِ

نســـيمَ النعـــيمِ وطيـــب الثَّـــواء

شاعر المنصور

ابن درّاج القسطلي، في رثاء صبح

* * *

غزا المنصور نحو ست وخمسين غزوة، لم تهزم له فيها راية واحدة، ووطئت خيوله كل ناحية من ممالك الشمال، فدخل بُرغش عاصمة قشتالة، وبنبلونة عاصمة نافار (بلاد البشكنس - الباسك)، وليون عاصمة مملكة ليون، وبلغت جيوشه أقاصي جبال جليقية المنيعة في أقصى الشمال الغربي من شبه جزيرة إيبريا ودخلت مدينة شنت يعقوب (شانت ياقب)، ووصل إلى حيث لم يصل أحد قبله منذ طارق بن زياد وموسى ابن نصير.

ولكنه كان يرجع عن تلك الأنحاء بعد غزوها وقهرها، وتمكنت تلك الممالك من البقاء على الرغم من كل شيء.

وأخيراً تحققت أمنية المنصور في أن يدركه الأجل وهو في جهاد العدو. ففي غزوته الأخيرة في قشتالة أصيب بطعنات عدة، وأثخنته الجراح. فحُمل على محفّة إلى مدينة سالم، حيث لفظ هناك أنفاسه الأخيرة، ليلة الاثنين، السابع والعشرين من رمضان عام ثلاث مائة واثنين وتسعين للهجرة، بعد أن حكم سبعاً وعشرين عاماً. ودُفن هناك، ونُقِش على قبره:

آثـــاره تنبيـــــك عـــــن أخبـــارِه

حتــــى كأنّـــكَ بالعيـــانِ تـــراهُ

تـــالله لا يـــأتي الزمـــان بمثلِـــه

أبـــداً ولا يحمـــي الثغـــورَ ســـواهُ

على أن الدولة العامرية القويّة التي أقامها المنصور، وجعلها أعظم ممالك الأرض، لم تلبث بعده إلّا سنوات معدودات، ثم اجتاحت جموع الثورة العارمة الزهراء والزاهرة معاً، وكانت عناصرها من مختلف الطبقات والفئات والأغراض والمشارب ومن بينهم بنو أمية الذين تغلب المنصور على خلافتهم، وبيوت العرب الذين استأثر العامريون دونهم بالسلطان،

وقدموا عليهم الفتيان والحرس العامري. وتوالت الفتن على الأندلس ردحاً من الزمان، وسعى كل مستبد طامع إلى اقتطاع إمارة له ولأسرته في ظل الفوضى العامة وانهيار السلطة الواحدة الجامعة..

وما إن انقضى النصف الأول من القرن الخامس الهجري، حتى كانت الأندلس قد دخلت في عصر جديد: عصر ملوك الطوائف.

سيرة المؤلف

وليد سيف

- وُلد في طولكرم، فلسطين، 1948.
- دكتوراه في اللغويّات من جامعة لندن، 1976.
- أستاذ اللسانيّات والصوتيّات في الجامعة الأردنيّة 1976، 1979 و1990-2007.
- مدير دائرة تطوير المواد التعليميّة والإنتاج في جامعة القدس المفتوحة 1987-1990.
- أستاذ زائر في جامعة جورج تاون، واشنطن 1993-1994.

الجوائز:

- جائزة عرار، رباطة الكتّاب الأردنيّين، 1981.
- جائزة غالب هلسا للإبداع الثقافيّ، رابطة الكُتّاب الأردنيّين، 1985.
- جائزة أفضل كاتب دراما في مهرجان القاهرة للإذاعة والتلفزيون، لأربع سنوات متوالية، عن أعماله: صلاح الدين الأيوبيّ، صقر قريش، ربيع قرطبة، التغريبة الفلسطينية.
- جائزة الدولة التقديريّة عن حقل (الدراما)، الأردن، 2003.
- الجائزة التقديريّة من اتحاد الإذاعات العربيّة، جامعة الدول العربيّة، عن: التغريبة الفلسطينية، 2004.

الإصدارات الأدبية:

- الشاهد المشهود / سيرة، دار الأهلية، 2016.
- ملتقى البحرين / رواية، دار الأهلية، 2019.

الإصدارات الشعرية:

- قصائد في زمن الفتح، دار الطليعة، 1969.
- وشم على ذراع خضرة، دار العودة، 1971.
- تغريبة بني فلسطين، دار العودة، 1979.

الأعمال الدرامية التلفزيونية:

- الخنساء، 1977.
- عروة بن الورد، 1978.
- شجرة الدرّ، 1979.
- جبل الصوّان، 1981.
- طرفة بن العبد، 1982.
- بيوت في مكة، 1983.
- ملحمة الحبّ والرحيل، 1985.
- الصعود إلى القمّة، 1986.
- صلاح الدين الأيوبيّ، 2001.
- صقر قريش، 2002.
- ربيع قرطبة، 2003.
- التغريبة الفلسطينية، 2004.
- ملوك الطوائف، 2005.
- عمر بن الخطّاب، 2011.

الترجمات:

- عدد كبير من كتب الأطفال السويديّة، عن الإنكليزيّة، ومن أهمّها رواية (الأخوان)، ورواية (ميو يا ولدي) للكاتبة السويديّة المشهورة أستريد لندغرن.

المسرحيات:

- ألف حكاية وحكاية في سوق عكاظ، 1986.
- نقوش زمنية، 1989.
- حريم (مخطوط).

الأبحاث:

- ثلاثة كتيّبات عن حقوق الطفل، اليونيسيف.
- عروض الشعر العربيّ (مشترك)، كتاب جامعيّ، جامعة القدس المفتوحة.
- عدد كبير من المقالات والأبحاث والمساهمات في مؤتمرات علميّة وثقافيّة مختلفة.

مكتبة
t.me/t_pdf

telegram @t_pdf

PROMISES OF CÓRDOBA

رواية

مواعيد قرطبة

"ملحمة إنسانية خالدة، تروي رحلة الفتى محمد بن أبي عامر (المنصور) من ريف الجزيرة الخضراء بالأندلس إلى قرطبة، ثم صعوده المتدرج إلى قمة السلطان، حيث تلتبس الحدود بين الطموحات العظيمة والأطماع القاتلة، والبطولات والطغيان، والدهاء الممدوح والدهاء المذموم، والقوة والبطش، والحزم والاستبداد، والغايات النبيلة، والوسائل المريبة، والعشق المستحيل و الصراع المرير على السلطان".

ما الحدُّ يا محمد

- الحدُّ يا محمد؟ هل تعرفه؟
- الحدُّ؟ حدُّ الجوارح وما نملك، أم حدُّ الروح والقلب والخيال؟ أما عمل الجوارح فحدُّه الخيانة والحرام، ولا أنا بالذي يتعداه ولا أنت.

أُما حدُّ القلب والروح فحيث يهيمان.. إلى حيث تُقَدَّر الأعمارُ والأقدارُ والأمصارُ.. حيث لا زمان ولا مكان ولا تواريخ ولا ليل ولا نهار.

وهبي أنني خرجتُ من هذا المكان فلم أعدْ إليه، هل تفارقه روحي أو يفارقه قلبي؟ وهل لي عليهما سلطان؟

ليته كان..نعم، ليته كان فأريحُ وأستريح.

فإن كانا باقيين هنا، حضرتُ أم غبت، شئتُ أم أبيت، فما الذي نصيبه بالبعد غير خيانة القلب والروح.

وهل يكون الشيء معدوما طالما بقي سرا في القلب، حتى إذا أفصِحَ عنه وُجِد؟ إذاً أفصحُ عنه ولا أبالي، فهو موجود موجود موجود. لا أقمعه فكأنني أنكر نفسي، ولكن أصونه بالعفاف، وأحفظه بالتذمم، وأكرمه بالوفاء.

telegram

@t_pdf

ISBN 978-9957-39-354-0

9 789957 393540

الأهلية

الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص. ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2021